

الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر



تأليف

الرحالة التركى أوليا چلبى

ترجمة

محمد على عونى

تحقيق

الدكتور/ عبدالوهاب عزام الدكتور/ أحمد السعيد سليمان

تقديم ومراجعة

الدكتور/ أحمد فؤاد متولى


مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

سِیاحتنامهٔ مِصر

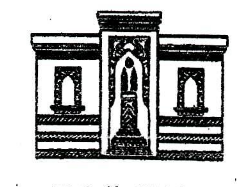
الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. شريف كامل شاهين

أوليا چلبى، ١٦١١ - ٧٩.
سياحتنامة مصر/ تأليف أوليا چلبى، ترجمة محمد على عونى؛ تحقيق عبدالوهاب عزام، أحمد السعيد سليمان؛ تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولى. . القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز تاريخ مصر المعاصر، ٢٠١٦.
٦٦٠ ص ؛ 29 سم.
تدمك 5 - 1239 - 18 - 977 - 978
١ - مصر ـ وصف ورحلات.
أ - عونى، محمد على (مترجم)
ب - عزام، عبدالوهاب، ١٩٤٠ - ٢٠٠٥ (محقق)
جـ - سليمان، أحمد السعيد (محقق مشارك)
د- متولى ، أحمد فؤاد (مقدم ومراجع) هـ - العنوان
٩١٦,٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg
رقم الإيداع بدار الكتب ١١٨٣٧ / ٢٠١٦
I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 1239 - 5



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

سياحتنامه مصر

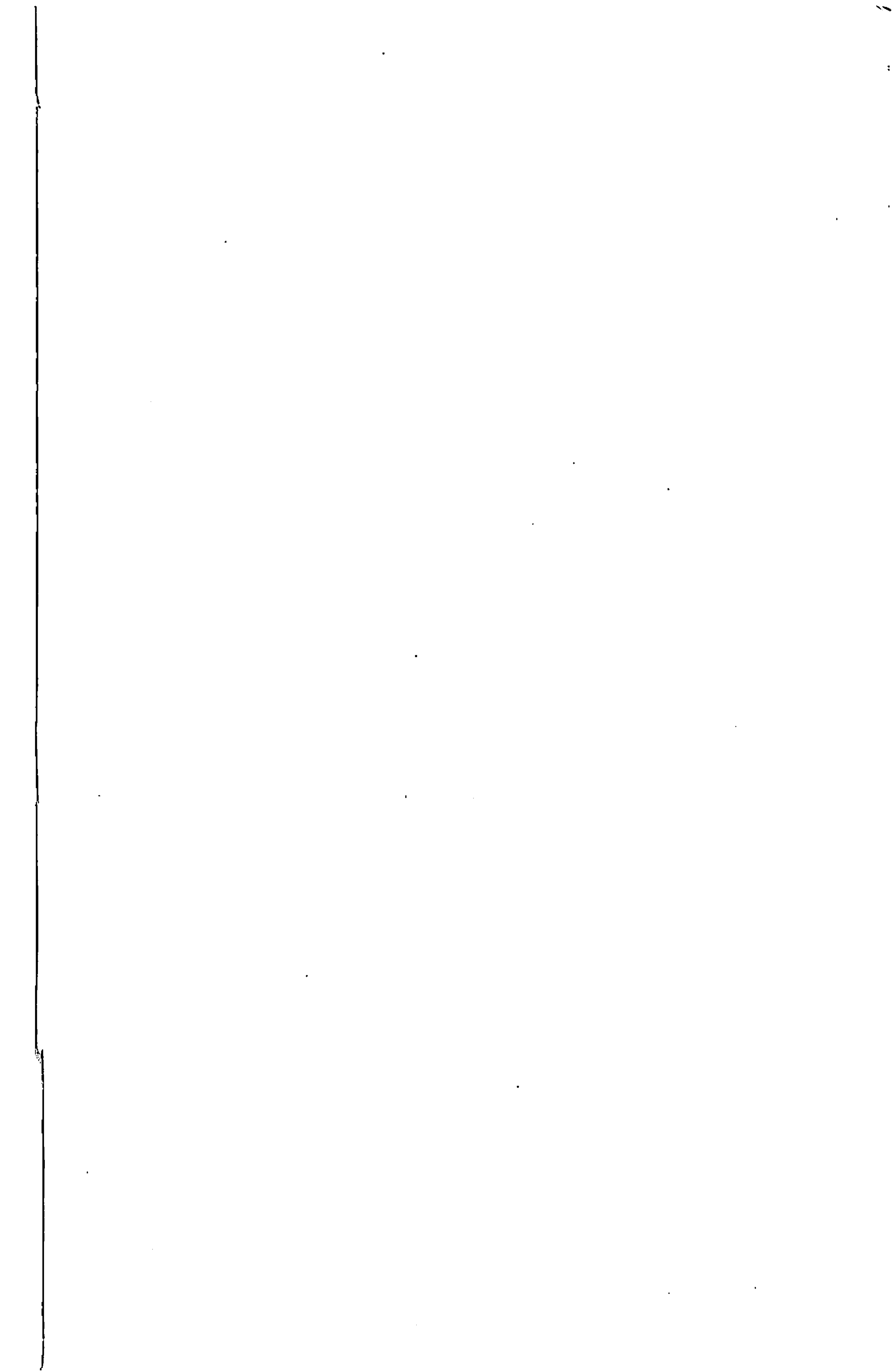
تأليف
الرحالة التركى أوليا چلبى

ترجمة
محمد على عونى

تحقيق
الدكتور/عبدالوهاب عزام **الدكتور/أحمد السعيد سليمان**

تقديم ومراجعة
الدكتور/أحمد فؤاد متولى

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م)



تقديم

الدكتور أحمد فؤاد متولى

الرحالة والرحلات :

منذ أن وطأت قدما الإنسان على هذه الأرض وهو يحاول جاهدا اكتشاف ما يحيط به من أسرارها قاصدا التعرف على المجهول منها والسيطرة على ربوعها والاستفادة من خيراتها وأدواتها وكائناتها ، فأخذ ينتقل من مكان إلى آخر فى رحلة يومية استكشافية يتعرف فيها على ما يحيط به من أراض غامضة ومناطق وعرة وموانع طبيعية فى ظروف مناخية قاسية أحيانا ؛ لأنه لم يتعود على مثلها فى بيئته الأصلية . وكانت عدته فى هذه الرحلة بدائية تعتمد على الطبيعة وما جادت به من دواب وحيوانات وأدوات صاحبته فى هذه الرحلة المستمرة لكشف المجهول . وقد استنهضت هذه المهمة قدراته ومواهبه ومثلت تحديا لإمكانياته وقدراته البدائية المحدودة ، فراح يفكر ويفكر فى قهر الصعاب واجتياز الموانع والعقبات لتذليل الطبيعة ومكوناتها وأدواتها وكائناتها لخدمة أغراضه ومطالبه وتحقيق طموحاته وآماله .

ومن أهم ما قدمته الرحلات للبشرية هو رحلات الكشوف الجغرافية لكشف كوكب الأرض وموطن الإنسان وانتشاره على هذا الكوكب وحياة الشعوب وطباعها وتعدد ألسنتها ولهجاتها .

ومن بين من استهوتهم الرحلة رجال علم أو رجال دين أو طوافون استهواهم السفر وسيطر عليهم الترحال ، أو مغامرون وكشاف دفعتهم المغامرة واستهواهم الاستكشاف لكشف النقاب عن المجهول من الأرض والبشر .

وتتسم أغلبية الرحلات بدقة الملاحظة والبحث والتقصى عند تسجيل المشاهدات المباشرة والمعاينات الشخصية مقرونة بالانطباعات الذاتية ، سواء منها الانطباعات السلبية أو الإيجابية . وقد دون بعضهم بطريقة دقيقة مشاهداته وفرق بينها وبين ما سمعه من روايات عن بعض الأحداث أو المرئيات ، كما أشار إلى المعلومات التى نقلها من بطون الكتب ، كى يترك للقارئ حرية إبداء الرأى فيما يقرأ بعد أن أوضح له مواطن المشاهدات والروايات والاستشهادات .

وقد ساهم بعض الرحالة من الأوربيين خاصة فى الكشف عن آثار الحضارة العربية القديمة فى جنوب الجزيرة العربية والوصول إلى فك رموز بعض الأبجديات القديمة مثل الأبجدية الحميرية ، فأضافوا معلومات جديدة عن حلقة كانت مجهولة لدى العرب أنفسهم . وكان لبعضهم إسهامات هامة فى مجال الاستكشافات الأثرية التى ساهمت فى تتبع حضارة بعض الشعوب منذ عصورها الأولى .

وتعتبر الرحلة فى تصور الدكتور حسين فهيم نوعا من الحركة ، وهى أيضا مخالطة للناس والأقوام . وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية ، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية فى مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة . ولهذا كان للرحلات قيمة تعليمية من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين . إن الرحلة قديمة قدم الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا ، وإن اختلفت دوافع الرحيل ، وتباينت وسائل السفر ، وتنوعت مادة الرحلة . ومع ذلك فإن كتابات الرحالة ، أيا كانت توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية ، تصور إلى حد كبير بعض ملامح حضارة العصر الذى عاشوا فيه ، كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التى ذهبوا إليها ؛ وأحوال الشعوب التى اختلطوا بها ، سواء كانت الرحلة فعلية أو من نسج قصص الخيال مثل رحلات السندباد البحرى السبع التى وردت فى حكايات ألف ليلة وليلة .

وقد أضافت بعض الرحلات خاصة منها رحلات الكشوف الجغرافية للمعرفة الإنسانية الكثير ، فكان لرحلة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤م) الفضل فى اكتشاف أجزاء كثيرة من عالم الشرق ، والحكاية عن أجناس عديدة من البشر ، وإبراز الكثير من معالم حياتهم الدنيوية والروحية والعديد من مظاهر الحضارة الإنسانية للشرق القديم . وكان ماركو بولو السبب فى تغيير مفهوم الغرب عن الحضارة الشرقية حيث كان المعتقد أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوربا يحدد درجة تقدمها ، فكلما كانت المسافة بعيدة كان الانحطاط والتدهور الحضارى مؤكدًا . وهكذا دحض ماركو بولو مقولة التفوق الحضارى لأوربا ، وصحح هذا التصور الخاطئ كما يقول الدكتور حسين فهيم .

ونال الرحالة ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨م) لقب أعظم الرحالة المسلمين على الإطلاق . فقد كشفت رواياته اللثام عن الإنسان المسلم وعن طبيعة الأمة الإسلامية وأبرزت الجانب المشرق من الحضارة الإسلامية .

وتعتبر كتابات الرحالة بحق سجلا إتنوجرافيا Ethnography مهمًا يركز فى المقام الأول على وصف الأعراق أو أصول السلالات البشرية ومميزاتها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها . كما تركز هذه الكتابات على جغرافية المكان وتاريخ وحضارة وآثار تلك الأعراق فى ضوء مشاهدات الرحالة الخاصة ولقاءاتهم مع الأفراد واختلاطهم بهم وقراءاتهم السابقة عن تلك البلاد .

ويدعم الرحالة كتاباتهم بانطباعاتهم الشخصية إن سلبا أو إيجابا حسب الرؤى الخاصة بهم . وتسجل لنا هذه الكتابات معلومات قيمة فى فترات سابقة من الزمان قد يغفلها كتاب التاريخ أو تندر الكتابة عنها ، وهى وجهة نظر لها احترامها ولها فائدتها ، فقد تركز أحيانا على مسائل دقيقة ، كأن تكشف هذه الكتابات عن لغات مجهولة أو لهجات غير مسجلة فى كتب اللغات ، أو تراث شعبى غير مدون فى بطون الكتب أو تكتشف عادات وتقاليد نادرة فى مناطق نائية بين فئات محدودة من أفراد الشعب أو قبائل تعيش فى أقاليم مجهولة أو مجموعات بدائية لا تميل إلى الاختلاط وتؤثر الانعزال والانطواء عن العالم . وتحدثنا كتب التاريخ عن مستشرقين انتحلوا صفة الرحالة وانتحلوا وتقمصوا شخصيات بعينها وتزيوا بزى معين للتخفى واندسوا بين طبقات معينة لرصد عادات أو تقاليد أو سلوك معين أو تسجيل لغات أو لهجات مجهولة أو تراث شعبى غير مدون . ويحضرنى فى هذا المقام المستشرق الروسى بارتولد الذى انتحل شخصية درويش مسلم لكى يألفه الناس وجاب ديار الترك فى أواسط آسيا . وكان متسلحا باللغة ليسهل أمامه الاختلاط بطبقات معينة من الشعب . وقد سجل معلومات قيمة لم يسبقه إليها أحد سواء عن الشعب أو عن البيئة والتاريخ . وليس مجال دراستنا هنا الاستشراق والمستشرقين الذين كانت لبعضهم أهداف سياسية وأغراض غامضة موظفة سلفا من قبل بعض الدول ، فهى دراسة مختلفة تبتعد كل البعد عن الهدف الواضح للرحلات التى تجتهد فى توضيح صورة الغير وبيئته .

لقد حظيت كتابات بعض الرحالة بقدر كبير من الشهرة لم تنله الكثير من الأعمال التاريخية أو الجغرافية أو الأثرية أو الأدبية أو الأتنوغرافية المتخصصة ؛ لأنها لعبت دورًا كبيرًا فى تقديم صورة الغير للقراء مشفوعة بالانطباعات والتصورات لشعوب أخرى ، صحيحة كانت هذه الرؤية أم خاطئة ؛ لأنها تحمل وجهة نظر تحتمل الصواب أو الخطأ .

والعوامل التى دفعت المسلمين إلى القيام برحلاتهم المتعددة والطويلة فى أرجاء المعمورة كثيرة ، وهى :

(١) طلب العلم : تعتبر الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم والمعرفة والتفقه فى الدين لدى المسلمين . فقد كان طلاب العلم بسبب ندرة الكتب ينتقلون بين المراكز العلمية والحضارية طلبا للعلم على يد مشاهير الفقهاء والصوفية والمحدثين واللغويين والأطباء والفلاسفة والرياضيين والمنجمين . وقد سمعنا كثيرًا عن مدارس مشهورة فى الوطن العربى كان أبرزها مدرسة القاهرة ومدرسة دمشق ومدرسة القيروان ، ومدرسة الكوفة والبصرة اللتين تتلمذ عليهما أبناء تركستان الشرقية والغربية فبرعوا فى مجالات متعددة سجلها تاريخ الحضارة الإسلامية .

(٢) التجارة : اتسع نطاق التجارة عند المسلمين اتساعًا لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا ، فانتشرت قوافل التجار المسلمين فى معظم أنحاء العالم ، وخاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات ، وازدهرت على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطئ المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى وصحارى السودان . وكان التجار يحملون السلع بين الأسواق المختلفة فى العالم ، ويقومون بالرحلات الطويلة فى هذا المجال . وقد كان بعض التجار من طائفة الفقهاء ويجمعون بين التجارة وطلب العلم من وراء رحلاتهم الطويلة تأكيدًا للفائدة ، ولدينا من ياقوت الحموى (ولد ١١٧٨م ، ٥٧٤هـ) صاحب «معجم البلدان» خير مثال على ذلك كما يقول الدكتور زكى حسنى .

(٣) الحج : وكان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين إلى الرحلة إلى بيت الله الحرام . وقد انتهز بعض الرحالة هذه الفرصة الطيبة لأداء المشاعر المقدسة ووصف رحلة الحج بما فيها من مشاق السفر ومتعة أداء الفريضة ، وقد تحدث بعضهم عن الطرق التى سلكوها والأحداث التى صادفوها ودونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم ممزوجة بمشاعرهم الروحية تجاه الأماكن المقدسة . ولدينا فى ذلك كثيرٍ من كتب الرحالة المسماة «مرآة الحرمين» أو «رحلة الحرمين» أو «رحلة الحج» أو «الرحلة الحجازية» .

(٤) نشر الدعوة الإسلامية : تجول بعض الرحالة المسلمين فى بعض الديار غير الإسلامية بهدف نشر الدعوة الإسلامية ، وقد تحملوا فى سبيل ذلك مشاقًا كثيرة وعناءً

بالغا ، ونخص منهم بالذكر الداعية التترى عبدالرشيد إبراهيم الذى تحرك من مسقط رأسه سيبيريا فى أوائل القرن العشرين وراح ينشر الدعوة الإسلامية فى ربوع سيبيريا ومنغوليا ومنشوريا حتى وافاه المنون فى اليابان وهو يدعو إلى سبيل ربه .

(٥) السياحة : تعتبر الرغبة الشخصية فى السفر والسياحة لإشباع هواية الاطلاع على البلاد الأخرى والشعوب الأخرى من أهم العوامل التى تدفع إلى السفر والترحال .

وقد كان دافع الرحالة التركى أوليا چلبى للقيام بسفرياته الطويلة إلى مصر هو ما سمعه وما قرأه عن مصر وحضارتها وكنوز آثارها الإسلامية والفرعونية ، وأهمية موقعها ومركزها المتميز ضمن الامبراطورية العثمانية . كما كان هناك دافع شخصى قوى دفع به دفعا لزيارة مصر بالذات وهو أنه سمع عن مستشفى قلاوون فى مصر ومهارة أطبائها فى شفاء مرض العُنَّة الذى أصيب به وتسبب فى عدم زواجه طوال حياته . وقد عالجه حكماء المستشفى بـ «الترياق الفاروقى» (اليخنى السلطانى أو الترياق السلطانى) . ويقال إن العلاج أتى بفائدة كبيرة له مما جعله يستبشر خيرًا بمصر وأرضها وأهلها ، ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع من السياحة يطلق عليها حاليا «السياحة العلاجية» .

(٦) جمع المعلومات : هناك نوع آخر من الرحلات وهى الرحلات التى كان يكلف بها الوالى أحدًا من أتباعه لجمع المعلومات عن بعض المناطق التي يريد غزوها وعن بعض الجيوش التى يريد منازلتها . وقد استخدمت التجارة غطاءً وستارًا لتنفيذ ذلك .

(٧) البعثات الدينية : وهى البعثات التى أرسلت بطلب من بعض الحكام غير المسلمين ، كالبعثة التى أرسلها الخليفة العباسى المقتدر بالله عام ٩٢١م (٣٠٩هـ) إلى بلاد البلغار عندما طلب ملكها بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار فى الإسلام . وقد رأس هذه البعثة «ابن فضلان» الذى وضع كتابا وصف فيه هذه البلاد وحضارتها وعادات أهلها وأحوالهم وتجارتهم .

(٨) السفارة : تعددت السفارات فى الدولة العثمانية ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وكان القصد من إرسالها إلى الدول الأوربية خاصة فرنسا وانجلترا والنمسا هو جمع المعلومات عن مدى التقدم الذى بلغته هذه الدول ومجالات هذا التقدم لإمكانية تطبيق ما يصلح منه لظروف الدولة العثمانية لإقامتها من كبوتها . وقد كانت

هذه السفارات عبارة عن رحلات رسمية لجمع المعلومات عن هذه الدول للوقوف على سر تقدمها فى جميع النواحى للأخذ بأسباب التقدم .

الرحالة أوليا چلبى :

ولد أوليا چلبى بن محمد ظلى فى استانبول فى ٢٥ مارس ١٦١١م (١٠ المحرم ١٠٢٠هـ) . كان أبوه يعمل كرئيس للصياغ فى قصور السلاطين الذين عاصرهم . وقد ساهم فى زخرفة بوابة جامع السلطان أحمد «الأول» (١٦٠٣ - ١٦١٧م) الذى يقال له فى اللغات الأوربية الجامع الأزرق . وشارك فى بعض الحروب التى قام بها السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) على حد قول أوليا چلبى فى الجزء الأول من كتابه سياحتنامه . وقد عمر الأب طويلا حتى قيل أنه ناهز ١١٧ عاما حين وفاته فى يوليو ١٦٤٨م (جمادي الأخرة ١٠٥٨هـ) . أما والدة الرحالة فهى أبخازية من القوقاز ، وتنحدر من عائلة أباظة .

ويرجع الفضل فى تسمية أوليا چلبى بهذا الاسم إلى أستاذه الأثير إلى نفسه أوليا محمد أفندى الذى كان يعمل إماما فى البلاد السلطانى . ومعنى هذا الاسم فى العربية «السيد الولى» .

أنهى أوليا چلبى تعليمه الأول فى «كتاب الصبيان» ، ثم تتلمذ لمدة سبع سنوات على يد شيخ الإسلام حميد أفندى . وبعد ذلك واظب على الدرس فى مدرسة أخرى لمدة أحد عشر عاما حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم الترتيل والتجويد كما درس الشريعة الإسلامية وأتقن العربية والفارسية وأجاد الكتابة بهما ، وقرأ تاريخ العرب ، وشغف بشعر سعدى الشيرازى (ت ١٢٩١ أو ١٢٩٤م = ٦٩١ أو ٦٩٤هـ) ومثنوى جلال الدين الرومى (ت ١٢٧٣م ، ٦٧٢هـ) واستشهد بأشعارهما فى كتاباته ، وتعلم من والده الأعمال اليدوية وصياغة الذهب والفضة .

وفى ليلة القدر من عام ١٠٤٥هـ (١٦٣٦م) اختير لترتيل القرآن الكريم فى جامع أياصوفيا باستانبول ، فلفت الأنظار إليه . وكان من نتيجة ذلك أن قدمه السلحدار أحمد أغا إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م ، ١٠٣٢ - ١٠٤٩هـ) ، فأمر السلطان بإلحاقه بمدرسة القصر حيث تعلم الموسيقى وفن الخط وقواعد اللغة العربية . وقد

ساعده ذكاؤه وفطنته وروحه المرحة على التقرب من السلطان ومنادمته . وبعد أن واظب على الدرس فى هذه المدرسة لمدة أربع سنوات حصل على رتبة جندى فى الجيش العثمانى وشارك فى بعض المعارك على حد قوله فى كتابه .

تلقى أوليا چلبى علمه الحقيقى من الكتب والمصادر كما تعلم كثيرًا من الحياة ، وكان حب الاستطلاع مميزا لشخصيته فما رأى شيئا إلا وتعرف عليه وغاص فى أعماقه ووصل إلى أغواره وسجل خواطره عنه . وهو دائم البحث عن الجديد فى الحياة لا يقف أمامه عائق أو حائل .

عشق أوليا چلبى السفر والترحال منذ بلغ التاسعة عشرة من عمره . وقد بدأ أولى جولاته فى استانبول والمناطق المحيطة بها فى سنة ١٦٣٠م (١٠٤٠هـ) ، ثم جاب بعض مناطق الأناضول . ويقول فى الجزء الأول من كتابه «سياحتنامه» أى (كتاب السياحة) أنه رأى رؤيا فى المنام حفزته على السفر والترحال ، وهى أنه رأى الرسول فطلب منه الشفاعة والسياحة ، فرد الرسول قائلا : «اللهم يسر له الشفاعة والسياحة والزيارة (والحج) بالصحة والعافية» . وهذه الرؤيا تعتبر قاسمًا مشتركًا بين الرحالة الأتراك تقريبا ، وقد ذكرها الرحالة التترى الشهير عبدالرشيد إبراهيم الذى طاف تركستان وسيبريا ومنغوليا ومنشوريا واليابان فى مطلع القرن العشرين وألف كتابا عن هذه البلاد بالتركية سماه : «العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين»[1] .

تجول أوليا چلبى فى مناطق عدة من الامبراطورية العثمانية إما مرافقا لبعض الولاة أو الموظفين الكبار أو حاملا للبريد أو مصاحبا لحاملى البريد ، أو مشاركا فى بعض المعارك أو فى إخماد بعض الفتن والقلاقل ، فقد كان من قوات الفرسان العثمانية عندما تلقى تدريبه وهو فى مرحلة الشباب فى مدرسة القصر السلطانى .

كان أوليا چلبى يهوى حياة الترحال والتنقل ويجد متعة بالغة فى الرحلة ، فقضى ربيع عمره وشطرا كبيرا من خريفه جوالا رحالا مغتربا عن أهله ووطنه بمحض إرادته واختياره . لقد احترف التنقل والترحال وحب الطواف والاغتراب وأصبح شيئا أصيلا فى ذاته .

(١) عبدالرشيد إبراهيم : العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين (مسلمو تركستان وسيبريا ومنغوليا ومنشوريا) ، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد متولى ، الدكتورة هويدا محمد فهمى (المشروع القومى للترجمة بوزارة الثقافة) القاهرة ١٩٩٨م

وقد أدى فريضة الحج ١٦٤٩م (١٠٥٩هـ) وأرجأ الحديث عنها إلى الجزء التاسع من كتابه ، ولم يذكرها فى سياقها الزمنى مع أحداث الجزء الثالث .

وبعد هذه الحياة الحافلة بالترحال توفى أوليا چلبى بعد أن أتم رحلته فى مصر والسودان والحبشة ثم قفل راجعا إلى مصر ، وانقطعت أخباره بعد هذه الرحلة الطويلة التى استمرت ثمان سنوات من سنة ١٦٧٢م إلى سنة ١٦٨٠م . والمرجح أنه توفى بعد عامين من إتمام هذه الرحلة أى ١٦٨٢م (١٠٩٤هـ) ، ولا يعرف مكان وفاته بالضبط هل هو فى مصر أم فى تركيا؟ .

وقد عاش الرحالة ٧١ عاما ميلاديا تقريبا ، أنفق منها نصف قرن على وجه التقريب يجوب مناطق كثيرة ويسجل مشاهداته وملاحظاته فى كتابه سياحتنامه الذى يحتوى على عشرة مجلدات ضخمة وضع آخر لمساته وتنقيحاته عليها فى أواخر أيامه ، إلا أن الموت لم يمهله لملء كل الفراغات التى كان قد تركها فى كتابه .

ويعتبر أوليا چلبى أشهر رحالة تركى ، ومن أشهر الرحالة المسلمين عبر التاريخ ، وربما يأتى ترتيبه بعد ابن بطوطة أشهر الرحالة المسلمين قاطبة . ذاعت شهرته كرحالة فى القرن السابع عشر الميلادى ، واستحوذ على اهتمام الكتاب والباحثين والمستشرقين لأهمية كتاباته واتساع رقعة الديار التى خاض دروبها وسجل مشاهداته وانطباعاته عنها .

محتويات النسخة المترجمة :

تكمن أهمية المجلد العاشر الذى يتناول مصر والسودان والحبشة فى أنه يتحدث فى الجزء المترجم الخاص بمصر عن حياة المصريين والفئات التى يتكون منها المجتمع المصرى خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى والأماكن التى زارها الرحالة أوليا چلبى . ثم يطيل القول عن تاريخ مصر والحكومات والدول المتعاقبة التى تولت حكمها حتى يصل إلى الحكم العثمانى . ويركز الرحالة على المرحلة العثمانية ، فيصف السناجق والقانون الذى أصدره السلطان سليم الأول والأصول والعادات الجارية فى ديوان مصر فى عهده ومواجب الجنود ومخصصاتهم . ويفيض الرحالة القول عن جوامع السلاطين التى يستجاب فيها الدعاء ، ويصفها وصفا أثريا ومعماريا دقيقا . ويخبرنا عن مدارس القاهرة ودور القراءة والحديث التى أنشأها ولاة مصر وحكامها السابقون . كما

يتناول التكايا والزوايا التى أوى إليها المتصوفة والدراويش ويذكر أسماءها وأسماء العمارات الخيرية . ثم يصف الحمامات العامة والخانات والبيمارستانات والمستشفيات مركزًا على مستشفى السلطان قلاوون الذى عولج فيه . ويتحدث عن الأسبلة والخلجان والبرك والعيون والآبار والجسور ، مركزا على البرك العظيمة كبركة قارون وبركة الدباغين وبركة الفيل ، وفى وصفه لأحياء القاهرة يركز على ما يشتهر به كل حى . ويصف الحيوانات التى تعيش فى مياه النيل ومنها التمساح . ثم يتناول المهن والحرف وأصحابها وأنشطتها والجرائم ورجال الأمن ومهماتهم . ويصف موكب ليلة المحتسب ونهر النيل المبارك وأفراح القاهرة ومباهجها والمحمل الشريف ونفقات ترميم وتعمير مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويتناول مواكب مشايخ منبع الأسرار مثل أحمد البدوى وإبراهيم الدسوقى وغيرهما . ويصف نزهة بئر المطرية ومزارها وقصر الغورى والمأكولات والمشروبات والنباتات . ويركز على عادات فلاحى مصر وتقاليدهم فى الأقاليم والولايات المختلفة . ثم يتحدث عن مراقد السلاطين والمشايخ والقضاة وكبار الأولياء والصحابة والكرام ومزارات الأئمة . ويتناول المنازل والقرى والقصبات ويصفها وصفا دقيقا وهو فى طريقه إلى الصعيد الأعلى . ثم يصل إلى وادى حلفا ويصف قلعة «صاى» الجبارة ، قبل دخوله السودان .

ويتميز أوليا چلبى فى أنه دقيق الملاحظة يصف كل ما يقع عليه نظره سواء فى طريق ذهابه أو فى طريق عودته إلى القاهرة حيث عاد إليها من الحبشة فى غزة ربيع الأول عام ١٠٩٢هـ . ويبدو أنه ترك مصر وذهب إلى الشام للقاء عبدالرحمن باشا على حد قوله .

والنسخة المترجمة هى النسخة المحققة والمعتمدة على عدة مخطوطات وهى مطبوعة فى مطبعة الدولة بالحروف اللاتينية فى استانبول سنة ١٩٣٨م من قبل وزارة التعليم القومية ، وعنوانها : أوليا چلبى سياحتنامه سى ، مصر ، سودان ، حبش .

مصادر أوليا چلبى :

اعتمد أوليا چلبى في مصادره التى استقى منها معلوماته على المشاهدة أولا ، ثم اعتمد على القراءة والاطلاع فى بطون الكتب ، ولم يغفل مسألة الرواية بل أولاها اهتمامًا كبيرًا حيث سمع معلومات كثيرة من أشخاص ثقاة .

وأهم مصادره المكتوبة بالعربية التى اعتمد عليها فى كتابة المجلد العاشر الذى خصصه لرحلته فى مصر والسودان والحبشة التى امتدت من ١٦٧٢ - ١٦٨٠م ، هى :

كتابات المقريزى الذى كان واقفا على اللغات الآتية على حد قول أوليا چلبى : (العربية والقبطية والعبرية والسريانية والبهلوية والمغولية واللاتينية واليونانية) والطبرى والسيوطى ، وابن عبدالحكم ، وابن عبدالحليم ، وابن الكندى ، وابن صولاق ، وابن ياسر ، وتاج الدين محمد بن عبدالله ، وابن فضل الله ، والشيخ نصر الدين الكرمانى ، والذهبى ، وابن دقماق ، وابن الجوزى ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلانى ، والشهابى ، ومجلات كثيرة ودواوين شعر عديدة .

أما مجلداته التسعة الأخرى ، فقد اعتمد فيها بشكل أساسى على كتابات جلال زاده صالح ، وعالي باشا ، وصولاق زاده ، ومحمد عاشق ، وكتاب چلبى بالتركية ، وحمد الله القزوينى وزكريا القزوينى بالفارسية ، فضلا عن كتب أخرى كثيرة تركية وعربية وفارسية وأوروبية . ولم يفته فى الاعتماد فى كل مجلداته على أطلس مينور Minor وبعض خرائط الكرة الأرضية . كما استعان ببعض القوانين وتواريخ الإيالات ودفاتر الوثائق والمدونات الرسمية منها وغير الرسمية وسجلات الأوقاف ودفاتر مساحة الأراضى . ولم يغفل الاعتماد أيضًا على كتب التاريخ القديم والجغرافيا والآثار التى توفرت له . واستفاد من كتب السيرة والطبقات ومناقب الأولياء والصوفية ، واطلع على دواوين سعدى الشيرازى ومولانا جلال الدين الرومى بالفارسية ، كما قرأ كتب الرحالة العرب والفرس الذين ترجمت أعمالهم إلى التركية العثمانية واستفاد منها ، خاصة كتاب ابن بطوطة .

تقويم الرحلة التى قام بها أوليا چلبى إلى مصر :

كانت الكتابة عن الرحلات لدى الأتراك العثمانيين فى البداية عبارة عن ترجمة لكتابات الرحالة العرب والفرس أمثال القزوينى (ت ١٢٨٣م ، ٧٤٩هـ) وابن بطوطة (ت ١٣٧٨م ، ٧٧٩هـ) وابن الوردى (ت ١٣٤٨م ، ٧٤٩هـ) وعلى أكبر خطايى ، ثم بدأت الكتابات التركية العثمانية فى مجال السياحة والرحلات تأخذ دورها بعد أن أصبحت الدولة العثمانية امبراطورية مترامية الأطراف . وقد شغف الأتراك العثمانيون بارتياد ديار كثيرة محلية وأجنبية وسجلوا مشاهداتهم وانطباعاتهم عما أعجبهم وعما لم يعجبهم فى تلك الديار .

كتب بعض الأتراك العثمانيين خواطرهم ومشاهداتهم عن مصر أيام الحكم العثمانى بعد أن انتقلوا من استانبول للعمل فيها بصفة رسمية أو غير رسمية أو للعمل فى دولة أخرى كالسودان أو اليمن أو دول المغرب العربى عندما مروا وهم فى طريقهم لتسلم وظائفهم الرسمية بمصر، وهى ولاية ممتازة لدى السلطنة العثمانية والعاصمة الثانية بعد استانبول وتعتبر بحق درة الحكم العثمانى . وكتب البعض الآخر بدافع السياحة عشقا فى مصر وتاريخها وآثارها وحضارتها . والبعض كتب بدافع السياحة والعلاج كأوليا چلبى . وآخرون كتبوا وهم يعبرون مصر ولم تكن مقصدهم الأول أو الحقيقى ، مثل رحلات الحج والعمرة والمرور بمصر فى بداية الرحلة أو فى نهايتها .

شغف أوليا چلبى بالترحال حيث لاتكاد تنتهى رحلة إلا ويفكر فى رحلة أخرى يجوب فيها ديارا مختلفة ويرى فيها شعوبا مغايرة يستهويه الاستماع عنها ، فيشد الرحال لرؤية الواقع بعينيه هو ؛ ليرصد رؤيته الخاصة لمشاهداته ولقاءاته مع من يصادف في تلك الديار ليشبع رغبة داخلية فى نفسه في كشف المجهول أو الوقوف على ما سمع أو قرأ . ورغم المصاعب المختلفة التى تواجه أى رحالة من نقص فى الإمداد المالى والغذائى ، أو ندرة فى المياه ، أو تعذر فى الإقامة ، أو قسوة فى الطقس ، أو وعورة فى المناطق التى يجوبها ، أو فى عدم توفر وسيلة للركوب للوصول إليها ، أو في الجهل بلغة البلاد التى يرتادها أو فى اختلاف الدين أو العقيدة أو فى الظروف الاجتماعية ، إلا أنه يجد استمتاعا بالغا فى تحقيق رغبته فى الترحال رغم كل هذه الصعوبات الجمة التى قد تواجهه كلها أو بعضها على الأقل .

كان أوليا چلبى يقوم برحلاته وهو فى صحبة حاكم من حكام الأقاليم التابعة للامبراطورية العثمانية ، أو وهو مصاحب لبعض فرق الجيش أثناء بعض المعارك ، وكان يذهب أحيانا بالبريد أو مع البريد المتجه إلى بعض الحكام لمهام رسمية ، فيقتنص كل هذه الفرص لتسجيل مشاهداته المتنوعة .

زار الرحالة التركى بعض مناطق بلغاريا والقازاق فى روسيا والبوسنة والقيرم وبلغراد ، واشترك فى الحرب ضد النمسا ، وشاهد بوهيميا (النمسا ـ المجر) والسويد حتي هولندا وڤيينا . وطاف بمعظم ولايات الأناضول ، كما زار الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية) وترانسيلڤانيا الشمالية والبونان والمورة وكريت وبلاد الأرناءوط (ألبانيا الحالية) ، وإيران

والعراق والحجاز وسوريا ومصر والسودان والحبشة ، وذكر دون دليل قوى أنه قام برحلة كاملة إلى النمسا شملت أسبانيا والدانمرك دون أن يسجل مشاهداته عنها . ولو كان الرجل متفقها فى الدين ، لساهم مساهمة فعالة فى نشر الدعوة الإسلامية فى الأقطار غير الإسلامية التى زارها وروى عنها الكثير وهى بلاد شاسعة .

وتأتى أهمية رحلة أوليا چلبى إلى مصر فى أنها تتم فى فترة تندر فيها المصادر العربية والتركية والأوربية عن وصف مصر . كما أنها تعتبر من أشهر الرحلات التى قامت بها عقلية شرقية إسلامية إلى الديار المصرية ، وأشهر رحلة لشخصية تركية إلى الأراضى المصرية ، وتأتى هذه الرحلة فى الوقت الذى اكتسب فيه أوليا چلبى علما وخبرة أكثر ؛ لأنها تعتبر نهاية المطاف بالنسبة له ، حيث توفى بعد انتهائها بقليل .

وقد اعتمد أوليا چلبى على الدراسة الميدانية التى تتوفر فيها ثلاث مراحل ، وهى : المشاهدة الدقيقة المصحوبة أحيانا بالانبهار ، ثم تسجيل المشاهدات وتدوينها ، فالتفسير والشرح والوصف طبقا للانطباع الذى خرج به . وقد اعتمد على قراءاته السابقة المتنوعة عن مصر وأرضها وأهلها وتاريخها وجغرافيتها وآثارها فى إثراء ما كتب عن مصر التى انبهر بها . وقد اجتهد أوليا چلبى فى وصف الشكل الخارجى للأماكن التى زارها فى مصر مدعما كلامه بطريقة التقصى والتتبع ، ومزج ذلك بمشاعره وعواطفه وأحاسيسه تجاه المعالم التى حازت على إعجابه وخلبت لبه .

قدم أوليا چلبى من خلال رحلته إلى مصر كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية والأثرية والصناعية والزراعية والتجارية والاجتماعية عن أشياء معروفة وأشياء أخرى غير معروفة وأشياء لم تكن معرفتها واسعة الانتشار إن لم تكن معدومة أحيانا فى تلك الآونة .

ومن المؤكد أنه قرأ كتب الرحلات العربية والفارسية التى ترجمت إلى التركية ، واستفاد من رحلة ابن بطوطة بنوع خاص ، حيث يسير على منواله فى الاهتمام بالأساطير الشعبية والخرافات والنوادر ، كما تشبع بطريقته فى وصف الآثار وتتبع الأحداث التاريخية وتناولها بالشرح والتحليل مضيفا إليها شيئا من مشاعره وانطباعاته .

والملاحظ على أوليا چلبى أنه يتمتع بقوة الملاحظة وبفكر موسوعى ودقة فى الملاحظة وتركيز فى الاهتمام ، وهو صادق فى درجات اهتمامه وأمين فى نقل المشاهد

التى رآها أو التى ركز على رؤيتها ، ويتمتع بأسلوب رصين لايخلو من طرافة وخيال خصب كان يمزجه بالمشاهد الواقعية ؛ لأنه كان ينقل أحاسيسه وانفعالاته وانطباعاته عن المعالم الحضارية والبشرية التى استرعت انتباهه .

نقل الرحالة صورا حية وصادقة عن مشاهداته ، وكانت هناك عاطفة قوية نحو ما يصف وما يصور سواء كانت هذه العاطفة مبعثها الحب والإعجاب أو البغض والكراهية .

وكان مغرما بذكر المواقف الغريبة والنادرة ، وشغوفا بالحديث عن القصص والأساطير والخرافات الخيالية التى سمع بها مهما كانت شطحاتها ؛ لأنها تشكل جزءاً من تراث الشعوب . وكان يركز أحيانا على النوادر والغرائب والعجائب ويأتى من أحوال البلاد بما يستغربه الناس ، فيشيع الإثارة والبهجة ويجعل القارئ يستمتع بمتابعته . وهو مشاهد جيد يحمل بين جنباته روحا مرحة وطبيعة قصصية لطيفة . وأسلوبه لايخلو من الطرافة والجاذبية فى عرض الأحداث وإيراد المعلومات . وتأثير عامل الخيال يبدو واضحا فى كتاباته ؛ لأنه صاحب خيال خصب يعمله أحيانا . وقد قاده خياله فى بعض المرات إلى المبالغة والمغالاة وهو يصور الأحداث ويجسدها . وقد كان يتمتع بقدرة فائقة على التصوير والتجسيد . وكان يلجأ إلى تجسيد الأفكار بصوة وصفية رائعة وملموسة لإثبات ما يرمى إليه من معان وأفكار .

ونضرب لذلك بعض الأمثلة من رحلاته المتعددة :

- رأيت عصفورا طار من سطح منزل إلى سطح منزل آخر فى مدينة قارص بأقصى شرق الأناضول ، فتجمد فى الهواء . (يرمى من وارء ذلك إلى تصوير مدى ما بلغه الطقس من برودة فى مدينة قارص ؛ لأن درجة الحرارة فى المساء قد تصل إلى ما دون العشرين أحيانا) .

- إذا أكل الإنسان خروفا ثم احتسى شربة ماء واحدة من مياه منابع شط العرب التى تمر بديار بكر بالأناضول ، فإنه يجوع فى التو واللحظة ، (ومعنى هذا أنه يرمى إلى وصف مدى صفاء ونقاء وعذوبة وفائدة مياه منابع شط العرب) .

- تشتهر منطقة «وان» فى شرق الأناضول بالكرنب الذى تزن كرنبتان منه حمل بعير . (وهذا مثال على المبالغة لتوضيح ما بلغه الكرنب فى هذه المنطقة من كبر فى الحجم) .

- اشترطت الأفعى التى سدت الثقب الذى حدث فى سفينة نوح ومنعتها من الغرق عند قلعة سنجار فى ديار بكر بالأناضول ، أن يطعمها نوح بلحم إنسان . فجاء جبريل وأصدر أوامره إلى نوح بقتل الأفعى وعدم تلبية طلبها ؛ لأن الله هو الذى جعل نوحًا يتسبب فى إنقاذ السفينة من الغرق وليست الأفعى (وهذا مثال على الأساطير الشعبية المرتبطة بالعقيدة) .

ويصدق على أوليا چلبى ما قاله الدكتور حسنى حسين عن ابن بطوطة ، حيث قال : إن حكايات الرحلة وخرافاتها وموضوعاتها التى شدت انتباه صاحبها تجعله أكثر قربا من المعتقدات الشعبية ، إذ احتلت المسائل المتعلقة بالخرافات وحكايات الكرامات والغرائب والدراويش مكانة هامة بالنسبة له . وقد لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه إذ لم يلق بالا لجوانب الحياة التى تهم عصرنا ، ولكنه كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما ، وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة إذ ذاك . ولكن هل تشابهت المعتقدات وتجانست الموروثات فى البيئات الإسلامية المتعددة التنوع والتى خبرها الرحالة وعاش فيها سنوات طوالا من المعتقدات والموروثات الموجودة فى البيئة التى نشأ فيها؟ أقول : نعم ، وبمقدار هذا التجانس القائم بين خرافات الرحلة وحكاياتها من مختلف البلدان ، يتبين لنا أن هذا التجانس لم يكن إلا باختياره هو نفسه ، وكل ما أورده ورواه إنما لمصادفته هوى خاصا لديه يتفق ومقوماته الشخصية .

ويتحدث الدكتور حسين فهيم عن الأسطورة فى الفكر الإتنوجرافى الحديث فيقول : إن الأسطورة تتضمن تصورا ما عن حدث معين أو شخص كان له وجود تاريخى ،ولكن الخيال الشعبى أو التراث فى حرصه على تأكيد قيمة معينة أو رمزية خاصة يلجأ إلى تصوير ذلك الحدث أو تلك الشخصية فى إطار المبالغة والتضخيم . ومن المعروف أن المفهوم الإتنوجرافى لا يجرد الأساطير تجريدًا تامًا من الحقيقة ، بل يرى أن فى كل أسطورة شيئًا من الحقيقة لا يلبث أن ينمو ويتضخم بفعل الخيال الشعبى .

المترجم :

ولد محمد على عونى في مدينة سيورك Sivrik بولاية ديار بكر جنوب شرق الأناضول بتركيا سنة ١٨٩٨م ، وأتم تعليمه الابتدائى والثانوى بنفس المدينة . والده عبدالقادر عونى أتقن بعض اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والكردية إلى جانب لغته

التركية ، ثم أكمل تعليمه فى الأزهر الشريف بمصر ، وبعدها قفل راجعا إلى مدينته ، فاختارته السلطات التركية مفتيا للمدينة . وقد أحس الوالد بمدى أهمية التعليم بالأزهر ، فأرسل ابنه لكى يكمل تعليمه هناك ، حيث حصل على شهادة العالمية . وبعد تخرج محمد على عونى من الأزهر وإتقانه للفرنسية إلى جانب اللغات الشرقية التى كان والده يتقنها ، عُين فى الديوان الملكى المصرى فى عهد الملك فؤاد الأول ليشرف على الوثائق التركية العثمانية التى أمر الملك فؤاد الأول بجمعها وإيداعها فى جناح خاص بقصر عابدين سمى أرشيف عابدين ، وهى الوثائق الخاصة بتاريخ مصر منذ عهد محمد على . كما نيطت به مسئولية الإشراف على ترجمة الوثائق التركية العثمانية الخاصة بالأسرة العلوية إلى العربية . وقد عمل معه فى الترجمة بعض أعلام المترجمين أمثال حسين حسنى وحمزه طاهر وزاهد الكوثرى .

حظى المترجم محمد على عونى بمنزلة كبيرة فى عهد الملك فاروق ، فكلفه بالإضافة إلى عمله بتعليم شقيقته الأميرة فوزية اللغة الفارسية قبل زواجها من شاه إيران محمد رضا بهلوى .

وبعد زواج الأميرة من شاه إيران ، منحه الشاه وساما فارسيا رفيعا تقديرا له علاوة على وسام النيل الذى منحه له من مصر .

وقبل أن نتحدث عن ترجمة سياحتنامه ، يجدر بنا أن نذكر أهم أعمال المترجم محمد على عونى ، وهى :

(١) ترجمة الجزء الأول من كتاب «شرفنامه» لشرف الدين خان البدليسى من الفارسية إلى العربية مع تحقيق للكتاب والتقديم له وترجمة التقديم الذى كتبه المستشرق الروسى ف . فيليانوف للنسخة الفارسية التى طبعت فى سان بطرسبورج سنة ١٨٦٠م . وقد طبعت وزارة التربية والتعليم المصرية الترجمة عام ١٩٥٨م بعد أن قدم لها الدكتو يحيى الخشاب .

(٢) ترجمة الجزء الثانى من كتاب «شرفنامه» إلى العربية وهو الجزء الخاص ببلاد فارس . (لم ينشر بعد) .

(٣) تأليف كتاب عن سيرة الأسرة التيمورية التى نزحت إلى مصر (لم ينشر بعد) .

(٤) كلفت هيئة الكتاب المصرية فى أواخر الأربعينيات محمد على عونى بترجمة

الجزء الخاص بمصر من المجلد العاشر لكتاب «سياحت نامه» أى كتاب السياحة لأوليا چلبى . وكان الدكتور عبدالوهاب عزام مكلفا بمراجعة الترجمة وعمل الحواشى اللازمة عليها ، وفى أواخر أيام الدكتور عبدالوهاب عزام كلف الدكتور أحمد السعيد سليمان بإكمال مراجعة النسخة المترجمة وعمل الحواشى الضرورية عليها ، إلا أن الدكتور أحمد السعيد رفض فى أواخر أيامه إعادة النسخة إلى هيئة الكتاب أو إلى ورثة محمد على عونى الذى توفى منذ مدة طويلة فى يوليو سنة ١٩٥٢م . ولكى يظهر هذا العمل الضخم إلى الوجود سلم الدكتور يحيى الخشاب نسخة أخرى من الترجمة التى كان قد كتبها محمد على عونى فى الديوان الملكى المصرى على الآلة الكاتبة إلى الدكتور الصفصافى أحمد المرسى لمراجعتها . إلا أنه هو الآخر لم يرد النسخة للورثة أو إلى هيئة الكتاب ولم يقدم المراجعة المطلوبة منه حتى الآن رغم مضى فترة طويلة جدا من الزمن على تسلمه لها كما يُنصح من خطاب لدى الورثة .

ولهذا كله قرر وارثا محمد على عونى ، درية عونى وعصام الدين عونى أن ينشرا ترجمة محمد على عونى مشفوعة بالحواشى التى كتبها كل من الدكتور عبدالوهاب عزام والدكتور أحمد السعيد سليمان بعد الحصول على النسخة التى كانت فى حوزة الدكتور أحمد السعيد من ورثته على يد ابنه ياسر . ويتضح من هذه النسخة أن اسم كل من هذين العالمين الجليلين مدون قرين كل حاشية خاصة به .

وقد استجاب الأستاذ الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية لرجاء من السيدة درية عونى لنشر الترجمة المذكورة ضمن نشريات دار الكتب «وتفضل سيادته مشكورا بالموافقة حيث أن هذا العمل التراثى القيم يقع فى مجال خطط دار الكتب التى وضعها تشجيعا لنشر كل ما من شأنه أن يشكل إضافة للثقافة العربية .

مصادر المقدمة :

(١) ـ د . حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، الكويت ١٩٨٩
(٢) ـ محمد ثابت : جولة فى ربوع أوروبا بين مصر وأيسلندة ، مصر ١٩٥٠م
(٣) ـ ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار .
(٤) ـ د . عثمان موافى : لون من أدب الرحلات ، مقال فى حولية آداب الأسكندرية ، العدد ٢٥ لسنة ١٩٧٨ .

(٥) ـ د . حسنى محمود حسين : أدب الرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٨٣م
(٦) ـ د . شوقى ضيف : الرحلات ، القاهر ١٩٧٠ .
(٧) ـ د . محمد محمود الصياد : رحلة ماركوبولو ، مجلة تراث الإنسانية/ المجلد الأول ١٩٦٣م .
(٨) ـ د . محمد محمود الصياد : رحلة ابن بطوطة / مجلة تراث الإنسانية/ المجلد الثالث .
(٩) ـ د . أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، جدة (د . ت)
(١٠) ـ د . نازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب ، بيروت ١٩٧٩م .
(١١) ـ د . ناجى نجيب : الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق . بيروت ١٩٨٣ .
(١٢) ـ . چاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ترجمة عن الفرنسية قدرى قلعجى ، وقدم له الشيخ حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٠م .
(١٣) ـ د . زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥م
(١٤) ـ عبدالرشيد إبراهيم : العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين (مسلمون تركستان وسيبيريا ومنغوليا ومنشوريا) ، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد متولى والدكتورة هويدا محمد فهمى ، القاهرة ١٩٩٨م .

(15) Cafer Erkiliç: Evliya Çelebi, Hayati, Sanati, Escri Istanbul 1969.

(16) Mustafa Nihad Özün: Evliya Celebi Seyahatnamesi Istanbul 1976.

(17) Nail Tan: Evliya Celebi Seyahatnamesi Ankara 1961.

(18) Zuhuri Danisman: Evliya Celebi Seyahatnamesi Istanbul 1970.

(19)Sevket Rado: Hikayeci Evliya Celebi Ankara 1965.

الدكتور أحمد فؤاد متولى

ترجمة المجلد العاشر
من كتاب رحلة أوليا چلبى

الحمد لله وكفى والسلام على عباده الذين اصطفى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وحبيبه .

وبعد . . فأحمد الله تعالى حمدًا بلا حدّ وأثنى عليه ثناءً لا يُعدّ ، هو الخلاق الباقى رب العباد ، خلق جميع الموجودات وخلق الأرض والسماوات وكل الكائنات من العدم ، فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، خلقهن بقوله (كن) .

فسبحانه من خالق كريم لا يمسه نَصَب
خالق الأرض رب العرش العظيم

وقد اقتضت حكمة الله الصانع المصوِّر أن يأتى بحبيبه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ظهر الأرض ، واقتضت ـ لكى يزيّن الأرض بالإنسان ـ أن يخلق بيد القدرة صفيّه آدم أبا البشر من تراب ثم ينفخ فيه من روحه فإذا هو سوىّ مُكمّل . ثم قرّبه فأسكنه جنة المأوى وألّف بينه وبين الكروبيان (الملائكة) ، وآنسه بالحور والغلمان ، وجعله يشاهد جماله ويكلمه بلا واسطة ، وكان من القبول والقرب إلى الله بحيث أمر الملائكة المقربين أن يسجدوا له فسجد الملائكة ﴿إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وعاش آدم وحواء (   ) سنة فى (قصر) الخلد ، ثم أمره الله ـ ولا يسأل عما يفعل ـ بألا يقرب الشجرة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، وأطاع آدم الأمر ومضت سنوات لم يتناول خلالها حبّة واحدة من الحنطة ، ولكن لما كان الإنسان مجبولا على العصيان فإن آدم نسىَ أمر ربه وتناول بإيعاز من حواء حبّة من الحنطة فطرد بذلك نفسه من الجنة ، ونزل إلى وجه الأرض فى جزيرة سرنديل ، ونزلت حواء فى جدّة ، ونزلا بعد أن فقدا التاج والحلل ، وظلا يضربان فى الأرض عُريانين جائعين لا يجدان حبّة من بُرّ .

ويقول المفسرون إن آدم وحواء ظلاّ سنين على الأرض فى فزع وجزع ثم إن عصفور الجنة حمل شعرات من لحية آدم وأهداها إلى حواء ، وحمل من فرع حواء شعرات يتفاوح منها العنبر وأهدتها إلى آدم ، وهكذا كانت هذه الطيور سببًا فى تلاقى آدم وحواء

على جبل عرفات ؛ وإنما سمىّ كذلك لأنهما التقيا عليه ، وعرفات من كلمة (عرف) بالعربية . ولما تعارفا فوق الجبل بواسطة عصفور الجنة دعيا له بالخير ولكن العصفور توجه إليه وقال : يا آدم إن لى رجاءً لقاء ما أديت لك من خدمة : إن لحمى لذيذ وإن الأفاعى والحيتان خصومى ، إنها تأكل فراخى فلا أتكاثر فدعنى يا آدم أعيش فى حماك ولتكن أعشاشى فى دارك أينما كنت ، وهبْ لى الآن شعرات من لحيتك ولتَهَبْ لى حواء شعرات كذلك فإنى أخلطها جميعا بالطين وأقيم دارى فى كنفك لعلى أسعد وأتناسل ، وقبلَ آدم وحواء هذا الرجاء وأخذ العصفور الشعر فخمّره فى الطين وبنى عشًا صغيرًا فى بيت آدم وهذا أصل وجود هذا الطائر فى بيت آدم إلى هذا الآن .

وكان بيت آدم فى سفح جبل عرفات ويقال له الآن مطبخ آدم ، ولا يزال يُزار من قديم الزمان ، وقد عمّره ورمّمه آدم الثانى نوحٌ بعد الطوفان ، وفى عرفات حملت حواء بولدها شيث ، وقد كثرت فى أمر شيث روايات المؤرخين وأصح هذه الروايات أن شيث ابن آدم ، وإن تكن هناك رواية أخرى فحواها أن آدم كان نائمًا فى عالم التجرُّد فاحتلم وسقط منيُّه على الأرض وبعد عام خرج شيث من الأرض كما خرج آدم نفسُه ، وفى رواية أن المنىّ حين سقط على الأرض خلق الله منه نباتًا لا يزال موجودًا حتى الآن فى هضبة بنكول Bingol وفى أرجيش ercis ورماوند وجبال البرز وفى بورسه فى جبل الرهبان وفى بعض الهضاب التى تشبهه ، ولهذا النبات صفات الإنسان فهو من ذكر وأنثى وله شعر ولحىً ومنه العجوز والشاب الفتىّ ، وهو من عجيب صنع الله ويقال له بالعربية (يبروح الصنم وعبدالسلام) .

وهو أخشاب مُقوية يخلطها بعض الحكماء بالمعاجين حين يصنعون الأدوية ، ويقال إن هذا النبات لا شيث هو الذى خرج من منى آدم حين لامس الأرض . والرأى الأقوى أن شيث وُلد من آدم وحواء ، ولم يتزوج شيث البنت التى ولدتْ معه بل دعا آدم ربه أن يرسل له حورية ، وفى الحال جاء جبريل ومعه حورية فتزوجها شيث وكانت صيغة عقد النكاح فى ذلك الزمان هى (لا إله إلا الله آدم صفى الله) .

وبعد ذلك صحب شيث زوجته هذه التى آنستْ وحشته وأزالت غمّه فمضى بها إلى نواحى حوران من بلاد الشام الفيحاء ، وعاشا هناك زمانًا وكلمة (حَوْران) تحريف من كلمة (حُوران) . وقد مضى تفصيل ذلك فى الجزء السابق .

فأول مقام لآدم هو جزيرة سرنديب ، والثانى هو جبل عرفات ، وكان المقام الثالث بإذن رب العزة هو مكان مكة المكرمة ، ثم إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤنس وحشة آدم فأنزل له فى مكة قصرًا من القصور التى كان يراها فى الجنة (اسمه البيت المعمور) .

وكان هذا القصر - فى رواية - من الياقوت الأحمر وفى رواية أخرى من الدرّ الأبيض ويقال إن الله سبحانه وتعالى رفع هذا القصر ثانية إلى الجنة قبيل الطوفان وسقط منه أثناء الرفع حجر اسودَّ فيما بعد من الطوفان ، ويقال إنه اسودّ من كثرة ما مسَّحَ العُصاة وجوههم به ، وفرض على آدم أن يطوف بالبيت المعمور وجاء جبريل فعلمه ذلك وعاش آدم يعبد الله فى البيت المعمور بمكة ، وكان لآدم على قول بعض المؤرخين أربعون ألف ولد كانوا يأتون كل عام هم وأولادهم فيحجون ويطوفون بالبيت ، ولكنهم لم يكونوا يجدون كفاف أنفسهم ؛ لأن مكة مكان غير ذى زرع وكانوا يقاسون كثيرا من الاضطراب ، فأمرهم الله بالتوجه إلى مصر فتوطنوا على ساحل النيل وهكذا كانت مصر هى موطنهم الرابع فزرعوا وملكوا كثيرًا من الغلال ، حتى إن السنبلة كانت تنبت بضع مئات من السنابل ، ودعا آدم ومعه أولاده لأرض مصر باللسان العبرى ؛ ذلك أن آدم حين هبط من الجنة أُنسِيَ بسبب عصيانه لسان أهل الجنة وهو اللسان العربى ، فعلمه جبريل اللسان العبرى وهذا هو دعاؤه بالعبرية أخذه العبد الفقير من بعض التواريخ القبطية وهاكم ترجمته :

دعاء آدم صفى الله لمصر باللسان العبرى

خدام (يا ربى) طط ز لم حوزچيزريا (احفظ إيمانى من الشيطان) فلازريبا فلازريبا (اغثنى أغثنى) .

المصراع الثانى : شوزم شاكن طراز ولم شريزتنا (وليخدمْنى جميع الملائكة) صراز . يرى زخربيا (هبْ لى القمح لأصنع الخبز)

المصراع الثالث : رفز دلم زيراز ز يراز خدام كدام حرز بزيتى زاد بنتى زار زيرينى زار زيرينى (وبعد مماتى عمِّر هذا البلد لأولادى) .

وهكذا دعا آدم لمصر وهذا الدعاء العبرى على وزن مُفْتَعِلُن مُفْتَعِلُن !! ولهذا فهى أكثر البلاد عمارًا - إلى هذا الآن ولكن من دخل مصر؟ ومن ملكها وكيف حُكمت وما عدد أفراد كل دولة وما مدة حكمهم ، من لدن الله بأمره الشريف إلى هذا الآن؟

ذكر أوصاف مصر القديمة العظيمة المحروسة
نادرة العصر أعنى القاهرة المعزية أم الدنيا

دخل العبد الفقير (أوْليا) البرىءُ من الريا مصر فى السابع من صفر سنة ألف وثلاثة وثمانين وامعنتُ النظر فى داخلها وخارجها فملكتنى الحيرة ووضعتُ إصبع الدهشة على شفتىّ ، لأن ما فى مصر من أبنية الآثار العجيبة لا يوجد فى غيرها ، فمن أنشأ مطلسماتها وأقام مبانيها العلية لقد قرأت كثيرا من الكتب المعتبرة والتواريخ المعتمدة وأنا أتلمس معرفة ذلك . وهذه أسماء الكتب التى رجعت إليها .

بيان بأسماء تواريخ مصر وغيرها من كتب العصر النادرة

أولا : (تاريخ الخطط للمقريزى) وهو كتاب معتمد وصحيح وقد أخذ من المصادر القبطية والعبرية والسريانية والدهلوية والمغولية واللاتينية واليونانية ولا يزال متداولاً ومقبولاً ومعتبرًا لدى الخاصة والعامة .

وتاريخ ابن جرير الطبرى صاحب التفسير وهو تاريخ شخص قديم عظيم (أى الطبرى) .

تاريخ حضرة الشيخ الإمام السيوطى وهو كتاب معتبر .

وتواريخ الصابئة وكتاب فتوحات مصر لابن عبدالحكم[1] وفضائل مصر للكندى وكتاب ابن زولاق ، وكتاب خطط القضاع ، وكتاب إيقاظ المتفضل ، وكتاب مختصر الشيخ نصر الدين كرمانى ، وكتاب المسالك لابن فضل الله ، وكتاب إيقاظ المتغافل فى تاريخ الصحابة لتاج الدين محمد بن عبدالله ، وكتاب عوان العنوان للسيد محمد بن عبدالملك الهمذانى ، وكتاب مناهج الفكر ومباهج العبر ، وكتاب الرجال العشرة للحسينى ، وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة ، وصحابة الذهبى وتاريخ التجريد وكتاب طبقات الشافعية للسبكى ، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون ، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق ، وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى ، وكتاب إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر ، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، كتاب مرآة الزمان لابن الجوزى ، كتاب

(١) كتبها عبدالحليم

السكيردان لابن حجلة ، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكمال الأدفوى وكتاب صحيح الترتيل فى أوصاف نهر النيل وكتاب أثمار الأوراق لابن حجة ! وكتاب تواريخ شهابى چلبى الذى ترجم كتاب حسن المحاضرة لحضرة الشيخ السيوطى وهى ترجمة لطيفة .

وعدا هذه الكتب المعتبرة فقد اطلعت على مئات من المجاميع والدواوين للتحقق من الأدلة والروايات المختلفة فى مدينة مصر ، ثم تجاسرت فأدرجتها فى مسودة كتاب الرحلة مبينا أوصاف مصر من هبوط آدم عليه السلام إلى يومنا هذا فى فصول وأقسام . وبالله التوفيق وبه نستعين .

الفصل الأول

فى أوصاف فسطاط مصر بقرب جبل المقطم

كان أول من توطن مصر بعد نزول آدم من الجنة هو آدم نفسه وولده شيث فولده آنوش (بن شيث) فولده قينان فولده مهلائيل فالنبى هود بن مهلائيل فابنه أخنوخ وهو هرمس وإنما (أخنوخ) كلمة عبرية ويسميه الملائكة وفقا للسان أهل الجنة (إدريس) وتسمى كذلك لأنه لقن الناس والملائكة (دروسا) وكان مهلائيل صاحب علم النجوم فى عصره وعنه انتشر هذا العلم فى أرجاء الدنيا .

وأما فى عهد شيث فكان الناس يقيمون فى الكهوف ويسكنون المغارات وقد رأى العبد الفقير فى مصر آلاف المغارات التى تسع عساكر آل عثمان وكانت أرض مصر فى عهد شيث تسمى (ايلون) .

وولد أخنوخ فى مصر وأخذ علم النجوم عن مهلائيل ثم حذق علم الكتابة وخياطة الملابس عن جبريل ولما بلغ أربعين سنة جاءته النبوّة فى مدينة أسوان فصار نبيًا للصابئة Sabiyye ، وأنشأ على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة وكان ماهرا فى علم الهندسة وفن النجوم وجميع الفنون العجيبة وعنه انتشر كل هذا حتى عم أرجاء العالم وما زالت البلاد التى بناها على النيل قائمة عامرة حتى إنه ليوجد فى أرض الجيزة المقابلة للفسطاط (جبال الهرمين) وقد أمر ببنائهما (سوريد) الذى تعلّم على إدريس[1] وكان سوريد قد عَرَفَ بالعلم قرب طوفان نوح فجمع كل كتبه وكنوزه وحفظها فى جبال الهرمين - ولما توفى آدم وإدريس صارت هذه الأهرام كعبة للصابئة يزورونها كل عام فيزور الرجال جبل الأهرام الواقع إلى الشمال ، ويطوف النساء بالهرم الواقع إلى الجنوب ، ولما كان وآدم على قيد الحياة فقد كان يحج كل عام هو وأولاده وأحفاده إلى البيت المعمور الذى كان محل الكعبة الحالية ثم يعودون من حيث أتوا ، فتارة إلى مصر وأخرى إلى حوران القريبة من الشام الشريف ، وتقول تواريخ الصابئة إن إدريس كان عالمًا بكل أحوال الدنيا وما فيها وأنه حرّر كل وقائع الدنيا وحفظها فى جبال الأهرام .

ويقال إنه لما مات شيث دفنه إدريس فى جبل الأهرام ومن المدفونين فى الأهرام أيضا الملك (مصرايم) والملك (بيطر)بن حام بن نوح عليه السلام .

(١) كلام المؤلف عن بناء الأهرامات فيه شطط . (د . متولى)

وبعد ذلك بنى الملك نقراوش وهو من أحفاد شيث وكان كاهنًا من الكهنة مدينة عظيمة فى المكان المعروف بمصر القديمة وسمّاها (إمسوس) ومعنى كلمة إمسوس باللسان العبرى هو (المدينة الجديدة) ولكن الأقباط سموّها الفسطاط وقد عمّروها ورمموها بعد الطوفان وسموها مصريم ومن هنا ومن هنا صار اسمها الآن مصر ويقال لها باللسان اليونانى (مقدونيه) وباللسان العبرى (زارينت) وباللسان العربى القاهرة المعزية والسبب فى تسميتها الأخيرة أنه فى سنة ٥٧٥هـ[1] حينما كان ملك المغرب هو السلطان معز الدين وسلطان مصر هو سلطان الاخشيديين ، حصل معز الدين على إذن من سلطان الاخشيديين ببناء مسجد فى مصر وأرسل ـ بعد أن حصل على الاذن ـ مملوكًا له اسود اسمه (القائد أزهر) ومعه ألف خزينة مصرية وخمسون ألف نجار وبناء وعامل وحمّال جاءوا من المغرب وهم يجهزون بالأسلحة أحسن تجهيز .

وما كاد ينتهى من البناء حتى حضر السلطان معز الدين من المعرب زاحفا بجيش جرار قوامه مائة ألف من الجنود . وباغت مصر ودخلها على حين غرة . وعندئذ ثار العسكر الذين كانوا متنكرين فى ثياب العمال والصناع وكانوا قد دخلوا مصر بحجة بناء الجامع الأزهر . وهكذا اغتصب المعز بلاد مصر قهرا ونزعها من يدى أحمد بن على بن إخشيد وبنى مصر الجديدة التى سميت القاهرة المعزية ولذلك لا يزال أهالى مصر حتى الآن يستعملون عبارتى (يا قهار ، يا قابض) الأمر الذى يجعل رجال الله فيها فى حالة الإنقباض دائما .

هذا وإذا ذكرت أسماء البلدان جميعها لا يطلق اسم (أم الدنيا) إلا على مصر هذه .

وقد ذكرنا آنفا أن نقراوش الملك قد عمر بعد وفاة سيدنا آدم (إمسوس) و(مصر) عمارة فائقة حتى كان طول العمران فيها يبلغ مسافة ثلاثة أيام إذ ملك (نقراوش) مصر كلها وحكمها مائة وثمانين سنة حتى إذا ما ودع هذه الدنيا الفانية ، بادروا إلى نقله وحمله إلى جبل الهرمين ودفنوه به .

وقد خلفه ابنه (نقراش) فى الملك . وكان هذا مثل أبيه أستاذا كاملا ذا كفاءة واستعداد . فبنى بعض المدن فى ولاية الواحات . ولما توفى دفن فى جبل الهرم وخلفه

(١) كذا فى الأصل والصحيح ٣٥٧هـ (المترجم) .

أخوه (مصرايم بن نقراوش) فى ملك مصر وكان هذا حاكمًا ماهرًا وكاهنًا ساحرًا ، إذ سخر بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة المرعبة لأمره ، بل إنه جعل الشياطين والعفاريت تخضع له وتحمل له عرشه . ولما توفى دفن فى الأهرام ، وتولى ملك مصر بعده من أقربائه ، ملك يدعى (عبقام) فأجرى قواعد الإنصاف والعدل من الأهالى والرعايا . وكان فى عهده خروج سيدنا (إدريس) إلى السماء فى مدينة أسوان فتأثر لذلك قوم الصابئة من أمته تأثرا عميقا . حتى منعهم الجزع ومواصلة البكاء عليه من الدوام فى الطاعات وأداء العبادات ، الأمر الذى أفضى إلى تمثل إبليس كثير التلبيس عليه اللعنة فى صورة إنسان من أبناء آدم وظهوره بها لهؤلاء الناس فى ثوب الناصح الأمين وخاطبهم بقوله : يا قوم ! لماذا تبكون ولم تتحرقون هكذا؟ فقص عليه قوم إدريس بأوهامهم وما جرى لهم . وبادر إبليس إلى القول فورا ، لا تغتموا ولا تهنوا فإنى موجد لكم صورة (إدريس) ليجعلها كل واحد منكم فى منزله وليكتمها عن الناس . فإذا نظرها فكأنه رأى إدريس وبذلك يحصل له الصبر والسلوان ويرتاح باله ويطمئن قلبه . ففعلوا كما قال وقد وجدوا فيه ما يريح بالهم ويسر حاضرهم .

هذا ولما ذهبت أيام الصابئة وانقرضوا ، وجد من بعدهم أحفادهم هذه الصورة تراثا فى بيوتهم خلفه آباؤهم وأجدادهم السابقون ، فعكفوا عليها يعبدونها ويقدسونها حتى انقلبت الصابئة إلى عبادة الأوثان والأصنام . وهكذا ابتدأت عبادة الأصنام هذه وشاعت من عهد قوم سيدنا إدريس . ولما توفى الملك الذى كان معاصرا لإدريس وهو عبقام خلفه فى الحكم ، الملك (عرياق) .

إن هاروت وماروت وهما ملكان عظيمان مصلوبان من رجليهما فى كهف بمدينة بابل لا يزال يسمع صياحهما وفزعهما ، وأوصافهما مذكورة فى (تاريخ ابن جرير الطبرى) . ولما توفى عرياق خلفه ابنه (الوخيم) فى الملك وهو الذى بنى مدينة (شرق أخميم) وأنشأ بها سبعمائة دير . وحل محله بعد وفاته ابنه (حسليم) فى الملك . وقد عمر سبعمائة سنة وهو الذى بنى مدينة أسوان على النيل ، كما أنه أنشأ المقياس أعنى (أم القياس) الذى بمصر . وقد نظم هذا الملك جميع الترع والأقنية فى أرض مصر حسب الأصول الهندسية ثم زاد عليها شق الترع والجداول وأجرى مياه النيل فى جميع أرجائها ، الأمر الذى أفضى إلى تنظيم الرى ونمو المحصولات والمنسوجات ، ولم يكتف

بذلك فحسب بل إنه يلف جميع الترع وفروعها بالرخام السماقى والمرمر الخام وأنشأ فى جانبى النيل سدودًا ومدنًا عظيمة وأسال مياه النيل إلى بلاد النوبة حيث أنشأ بها قنطرة ذات اثنى عشر عقدا لا تزال آثارها ماثلة للعيان . وكان ظهور سيدنا نوح عليه السلام فى عهد هذا الملك (حسليم) الذى زاد فى عصره تعداد الإنس من بنى آدم زيادة فاحشة حتى ضاقت بهم الأرض الزراعية فاشتد القحط وعم الغلاء مما اضطر الناس إلى اللجوء إلى الوديان وشواطئ الغدران والبحار لصيد السمك يسدون به رمقهم . ولما توفى هذا الملك خلفه الملك (ترسان بن هرسال) الذى آمن بالنبى نوح عندما جاءته النبوة وهو فى الأربعين من عمره . وبعد هذا الملك تولى الحكم الملك (شرياق) ثم ابنه (شهلوق) ثم ابنه (سوريد) الذى كان جبارا عابثا ، فرض الخراج والضرائب على الناس لأول مرة وهو الذى بنى الهرم الكبير الذى بجوار بنى سويف حيث يقال له هرم سوريد وهو نفسه مدفون فيه ، يدل على ذلك أن حجرا من أحجاره يحتوى على تاريخه بالخط العبرى . وقد خلفه ابنه (افروس) فى الحكم ولما توفى هذا دفن بجوار أبيه وقد خلفه ابن عمه (فرجان Fergun) وقد حدث الطوفان فى عهده وهو القيامة الأولى إذ بطلت بعده جميع أنواع السحر وانمحت العجائب والغرائب والطلسمات ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أظهر جميع الكنوز والمعادن المنثورة والمحفوظة فى الجبال وقيعان الأنهار والعيون وفى الصخور من جراء طغيان البحار وفيضان المياه أربعين يوما ليلا ونهارا ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ .

هذا وقد استقرت سفينة نوح عليه السلام فى ذلك الطوفان على جبل الجودى بجوار الموصل ولما كان خلاص من كان فى السفينة فى يوم العاشوراء عمد نوح فى يومه إلى جمع ما وجد من المأكولات والمشروبات لديهم وحفر صخرة ووضعه فيها وطبخه حتى صار طعام العاشوراء فأكله ركاب السفينة وشكروا الله الواحد القهار . وهكذا صار طبخ العاشوراء فى اليوم المذكور من كل سنة اتباعا لسنة آدم الثانى وهو نوع عليهما السلام فينبغى العمل بها دائما . وهناك دليل قاطع على أن نوحا قد وصل إلى بر السلامة فوق هذا الجبل حيث يقول القرآن الكريم فى إحدى آياته ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ . ولما نزل نوح بسفينته سالما على جبل الجودى أقام به لأنه أرض مباركة . وبنى نوح أول ما بنى بعد الطوفان مدينة «جودة» التى لا تزال بلدة صغيرة فى سفح جبل الجودى بجوار الموصل . فمنها بعث إلى

مصر بيمار بن حام ، فبنوا مدينة العريش فى أرض (حسان) القريبة من مصر . ثم عمد إلى مدينة بلبيس فأنشأها لأنه كان يعرف أنها موجودة قبل الطوفان وأن سبعة عشر نبيًا مدفونون بها . ومنها قدم (بيلر بن حام) مصر فبنى (إمسوس) التى هى مصر القديمة . ثم أنشأ مدينة (منوف) وأما سام بن نوح فقد عمر الشام ثم فلسطين فأنشأ القدس حتى عمرت جميعا بأبنائه .

هذا وقد انتهى المؤلف إلى أن تاريخ (خطط المقريزى) لتاريخ عظيم لأن مؤلفه كان ذا باع طويل فى معرفة اللغات العبرية والسريانية والقبطية والعربية واليونانية وكان مثل فيثاغورث التوحيدى فى كثرة الطواف والسياحات . وأصدق الروايات التى وردت عن المنشئ الأول لمصر القمرى هى رواية هذا المؤرخ الذى يقول إن آدم عليه السلام توطن أولا مصر القديمة ولما توجه إلى الشام بأمر من رب العزة كان لشيث ابن يدعى (عرباب) ولهذا ابن يدعى (نقراوش) . فنقراوش هذا كان أنجب أولاد آدم وأرشدهم ، وكان ماهرا فى كل العلوم والفنون ولهذا أحبه سيدنا آدم حبا جما وسماه (مصرايم) وكلفه أن يعمر مصر . وذهب هو نفسه إلى صحراء حوران بالشام للاشتغال بالزراعة . ولقد اضطر نقراوش هذا إلى الجلاء عن الوطن من جراء ظلم قابيل ومعه سبعون نفرا يسمون مصرايم وأخوه (تجبارين)[1] ووالدهما فأخذوا يسيحون فى الأرض على وجوههم يبحثون عن مرعى مناسب لهم حتى وصلوا جبل جداما[2] (جبل كده ماسى) من أرض مصر فأعجبهم مناخه ولطف هوائه وكثرة أشجاره فأقاموا به واتخذوه موطنا لهم لأن جدهم سيدنا آدم بالرغم من مكوثه مع أبنائه حقبة طويلة بمصر لم يترك بها شيئا من الآثار البنائية ، لأنهم كانوا يكتفون فى ذلك العهد بسكنى الأكواخ والأخصاص .

بيد أن نقراوش هذا قد أنجب مصرايم فى أرض مصر وصار هو صاحب عشيرة كثيرة العدد انتشروا فى أطراف الأرض يحدثون بها آثارا وأبنية . وقد كان نقراوش يزور كل سنة جده آدم صفى الله فى الشام وحوران وبمصر فينال بركات دعائه الطيب . وقد أطلق آدم صفى الله اسم (ملك مصرايم) على نقراوش هذا ، فصار هو أول من يُنادى فى اللسان العبرى بلقب الملك فدام ملكه مائة وثمانية عشر عاما ، كان حكمه نافذا فى جميع

(١) فى نسخة يلدز (تجباريز) .

(٢) كذا فى الأصل ولعله تحريف من جبل عدامس فى صحراء طرابلس الغرب . (المترجم) .

العشائر والقبائل ، غير أنه كان جبارا عاتيا طيلة أيام حكمه . وقد تعلم من أخيه (زرايل) كثيرا من العلوم الغريبة والفنون العجيبة فتوصل بها إلى استنباط الكنوز واستخراج الدفائن من بطن الأرض . ثم أمر جميع أفراد قومه وعشائره بنقل الأحجار والصخور من الجبال لبناء مدينة فى المكان الذى كانوا يضربون خيامهم به ، وقد سميت هذه المدينة بعد بنائها (أمسوس) ولا تزال موجودة بشاطئ النيل وتسمى مصر القديمة . إذ أن الشعب القبطى أطلق عليها اسم (فسطاط) . وكانت هذه المدينة عامرة حتى جاء الطوفان فخربت ولا تظهر أنقاضها وحجارتها الضخمة الكبيرة إلا فى بناء جبل الهرمين . حيث يبلغ حجم كل صخرة منها ٢٥ × ١٥ ذراعا مما جعل بعض الذين رأوها يقولون إن هذه الأبنية من عمل الجان لا الإنسان الذى يعجز عن إتيان مثله . فهؤلاء المعماريون الناكرون يعرفون أنه بعد هبوط آدم من السماء كان هناك من بنى آدم أناس يتمتعون بمثل هذه القوة وطول الباع ، وأن طول كل شخص منهم كان يبلغ مائة ذراع فى حين أن قامة شخص ما فى زماننا لا تزيد عن ذراعين أو ثلاثة ومع ذلك فإنه قادر بواسطة علم جر الأثقال على نقل جبل بهستون من مكان إلى آخر وكأن الذى يعارض فى هذا وينكره ، منكر للقول المأثور (همة الرجال تقلع الجبال) منكر كذلك لقواعد علم جر الأثقال .

هذا ولما كثر الناس وازدحموا فى مدينة أمسوس هذه ، جمع الملك مصرايم جنودا كثيرة وزحف بهم إلى الشام للانتقام من (قابيل) ، كما أن (هابيل) قد حشد جيشا كبيرا فى مدينة فلسطين التى هى الرملة الحالية ، حيث تقابل الجيشان والتحم الجمعان وسقط مئات من أبناء آدم من أنصار قابيل على الأرض يروونها بالدماء فكان ذلك أول دم يهراق فى سبيل دم هابيل . وكان المتقاتلان هما مصرايم وقابيل . ولما كانت المعركة قد حدثت فى صحراء الرملة فقد سميت تلك الجهات باللسان العبرى (فلسطين) ولقد هزم مصرايم قابيل وغنم منه أموالا كثيرة وعاد بها إلى مصر حيث استعان بها على تفريع النيل وتوزيع مياهه بحفر الترع والخلجان ، على السهول والبحار فجعلها صالحة للزراعة وإدرار الخيرات والمنتوجات . لأن النيل كان يجرى على حاله سدى فيتجه فرع منه عن طريق ولاية النوبة إلى بحر السويس وفرع آخر يتجه نحو المغرب حيث يصب فى خليج (كبرت) بولاية بنى هلال . ولكن مصرايم بفضل علم الهندسة قد أخذ ارتفاع كل الأراضى فأجرى النيل حسب ذلك فى الترع والخلجان وفق مراده ومبتغاه ، ثم بنى جبل

الهرمين تجاه مصر ليكون مدفنا ومرقدا للإنسان وكنوزه الكثيرة . وقد عاش ٧١٥ سنة ولما ودع الحياة دفنوه بجميع كنوزه وخزائنه الكثيرة فى الهرم الكبير الذى كان قد أعده خصيصا لذلك . ولقد كان له ذرية كبيرة عاشوا حتى الطوفان فى مصر تتصرف فيها تصرف المالك فى أرضه . وملك مصر من أولاده سبعون نفرا وكان الذى يملك منهم مصر حين حدوث الطوفان من يسمى (فرعان) .

وكان هناك كاهن من ذرية نقراوش (مصرايم) يدعى (قليمون) يعرف علوما كثيرة وفنونا شتى ، حتى أنه بفضل هذه العلوم والمعارف تنبأ بقدوم طوفان نوح عليه السلام وظهور الغضب الإلهى ، فبادر إلى مغادرة موطن جده قبل وقوع الطوفان إلى سيدنا نوح فى مدينة الكوفة وأعلن إيمانه ، وهكذا استقر أولاده وعياله فى ولاية العراق . وكان لسيدنا نوح ابن اسمه حام وهذا له ولد يدعى (بيصر) فزوجه الكاهن قليمون ابنته فأصهر بذلك إلى سيدنا نوح عليه السلام .

ولما جاء الطوفان ركب قليمون هو وجميع أولاده ومعه كل ما يملك سفينة نوح ونجا من الغرق وقد استقرت السفينة بعد أربعين يوما على جبل الجودى حسب النبأ القاطع ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ . فوصلوا إلى بر السلامة وهنالك بادر نوح إلى إنشاء مدينة (جوده) التى تعتبر أولى مدينة أنشئت على الأرض بعد الطوفان . وبعد هذا كله أذن سيدنا نوح إلى الكاهن قليمون وصهره المدعو بيطر بالعودة إلى «أمسوس» التى بناها جده «مصرايم» وهى مصر القديمة الحالية . فقطعوا المراحل سالكين السبل التى نجت من طغيان المياه ، حتى وصلوا المدينة المسماه «العريش» على مقربة من مصر فنزلوا بها . هذا والعريش لفظ يطلق فى اللسان العبرى على المحل الذى يقيم فيه الإنسان أو يجلس ، وفى أثناء استراحتهم تحت شجرة سلمت من الطوفان جاء المخاض (ز ده ز ده = جده جه) بنت الكاهن قليمون فولدت من زوجها بيصر بن حام ، ولدا ذكرا أسموه أيضا مصرايم . فكان هذا أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان وهو (مصرايم بن بيطار) . وقد أقاموا الاحتفالات والمهرجانات هناك بالعريش مدة وتبركوا بتلك الشجرة التى كانوا يتفيأون ظلالها حيث أخذوا يعلقون بها خرقا بالية وثيابا قديمة للذكرى ، ثم رحلوا منها إلى بلبيس فأعجبهم مناخها وجوها وقد أقاموا بها مدة . وكانت بلبيس هذه مدينة السحرة قبل الطوفان كما كانت مدينة عامرة . ولكنهم وجدوها خربة (خاوية على عروشها) . ثم

واصلوا السير حتى وصلوا أرض مصر فلم يجدوا بها أثرا من مدينة (أمسوس) التى كان قد بناها نقراوش (مصرايم الأول) جد الكاهن (قليمون) وهى التى يقال لها مصر القديمة حيث قضت عليها مياه الطوفان المتلاطمة . ولم يكن هناك شىء ظاهر سوى جبل الهرة الذى كان قد أقيم بإشارة من النبى إدريس تجاه النيل ليأووا إليه . ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم فى مياه الطوفان .

هذا وقد قام قليمون وصهره بيطر بن حام بجولة فى أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به ، فلما وصلا أرض (منوف) وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ يحيط بها النهر من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة . فما كان من قليمون وصهره بيطر إلا أن اختارا الإقامة فى هذه الوديان الخضراء . ومكثا بها حقبة من الزمن فى خيام وأكواخ أقاموها . وقد تناسلوا وتكاثروا بمضى الزمان ومرور الأوقات فحصلوا على أموال كثيرة بفضل أعمال الزراعة . ثم تراءى لهم أن يبنوا بها ويستقروا لما رأوا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها ، فبنوا بلدة مختصرة أطلقوا عليها اسم (منوف) ومعناه باللسان العبرى محل الصفاء والانتعاش . ولا يخفى أن أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هى قرية جودة (الجودى) التى استوت عليها سفينة نوح عليه السلام وهى بجوار الموصل . وثانى المدن هى بلدة (منوف) وسنذكر فى موضعه من الكتاب كيف أن بيطر أنشأ كثيرا من المدن والآثار وعمرها وحول مدينة منوف إلى قصبة عظيمة ثم أغراه تلمون فجلا عنها مصطحبا أهله وعياله وسافر إلى مدينة (أمسوس) الى هى مصر القديمة . ولما كانت هذه المدينة أيضا مما أنشأ أجداد قيلمون فقد بادروا إلى تعميرها والسكنى بها . هذا وبعد عام مات الكاهن قيلمون فدفنونه فى الهرم الأعلى بجوار جده «نقراوش مصرايم» وهو أول من مات بعد الطوفان .

الفصل الثانى

فى ذكر من ملك مصر بعد الطوفان

غير خاف أن بيطر بن حام بن نوح قد استأذن النبى نوحًا بعد الخلاص من الطوفان . فى أن يرحل مع حميه قيلمون الكاهن إلى مصر ، فأذن له نوح ودعا ربه ثم مسح فمه قائلاً ، لا يجد الانقراض إلى نسلك سبيلا ، وأنك تكون ملك مصر ويطول عمرك متمتعًا بسعادة الدارين . فجاء بيطر مصر وأنشأ بها مدينة (منوف) واتخذها عاصمة لملكه .

هذا وقد أطلق المؤرخون اسم «أبى القبابطة» على بيطر هذا الذى خلف ثلاثين ولدًا ، أولهم مصرايم المولود فى المحل المسمى بالعريش حينما كان قادمًا بأهله إلى مصر وكان ذلك تحت ظل الشجرة . ولقد كان مصرايم هذا أعقل أولاده الثلاثين وأكثرهم حبًا للعمل ، حيث كان قد علمه الكاهن قيلمون ، جده من أمه ، علومًا غريبة حتى صار شابًا قويًا فريدًا فى دهره وقد أطلعه على جميع الكنوز والدفائن ، ثم توفى بيطر والد مصرايم بعد أن عاش ثمانمائة وخمسين سنة و١٦٨ يومًا . فدفنوه فى الهرم الكبير بجوار حميه الكاهن قيلمون .

وقد خلفه ابنه (مصرايم) المولود بالعريش فصار ملكًا مستقلاً عظيمًا ينفذ حكمه فى إسنا (اسن) وأسوان (إشوان) والسودان (سودان) حتى بلاد الفونج (فوبحستار) وعمد إلى أقاليم مصر فوزعها على الأخوة الثلاثين (وهو منهم) ثم بنى كل واحد منهم فى البلاد التى يحكمها مدينة عظيمة لاتزال تسمى بأسماء أولاد بيطر بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام . مثال ذلك أن أحد أبناء بيطر كان يدعى (رشيد) فبنى المدينة التى هى الآن بهذا الاسم والآخر كان يدعى (دمياط) وثالث كان (اسكندر) وآخر تينبر (تينه) . وكذا (سيفه) الذى بنى مدينة بنى سويف وآخر كان يدعى (مينه) وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتنا (قنا) وقوس (قوص) واسنه وأسوان (اثوان) وابريم وصيانى وحلفا (حلفه) وسناره وسودان وغيره من أمثال هذه الأسماء التى كان يتسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لاتزال باقية على الدهر عامرة آهلة بالسكان فى شواطئ النيل حتى الآن . إذ كان هؤلاء الأمراء أنجال الملك بمثابة أمراء العشيرة وزعماء القبيلة . ولكن أخاهم الكبير مصرايم كان ملكًا عظيم الشأن يخضع الكل له .

وهذا وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المحل المسمى بالعريش حيث ولدت أمه تحت الشجرة التى كانت تستظل بها أثناء الوضع فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزينها بأقمشة مزركشة وأحجار قيمة . ثم عكف تحتها يعبد الله حق العبادة وبعد ذلك أنشأ مدينة على مقربة منها أسماها (درسان) ومعناها باللسان العبرى «باب الجنة» . ولا تزال آثار البناء ظاهرة لمن يفد من غزة إلى مصر على الجانب الأيمن للطريق السلطانى . وقد هدمها (بختنصر) حينما جاء إلى مصر ودمرها .

ولقد عمر مصر فى الأيام الأخيرة كل من السلطان يوسف صلاح الدين والسلطان قايتباى بإنشاء الجوامع والقاعات العظيمة فى أنحاء البلاد ، بفضل الرخام والمرمر السماقى والعمدان العظيمة المستجلبة من أنقاض مدينة (درسان) هذه التى دفن بها أحد أبناء مصرايم ، أول من بنى هذه المدينة التى أصبحت أثرًا بعد عين ، وله فيها قبة عالية تناطح السحاب لاتزال موجودة إلى اليوم . والسبب فى بقاء القبة سليمة حتى الآن هو أن الأقباط ينتسبون إلى هذا المدفون تحت القبة ولذلك يحج إليها جميع الأقباط ويزاولونها دائمًا بالتعمير والترميم واسم صاحبها (قبطيم بن مصرايم بن بيطر بن حام بن نوح عليه السلام) .

أما مصرايم فقد عاش سبعمائة سنة وبنى مصر القديمة وأشاع العمران فيها حتى أصبحت وكأنها قصر مشيد رائع . وقد كثر نسله وزادت ذريته فخلف هو مائتين من الأبناء وصار لهم أولاد وأحفاد وكذا إخوته البالغ عددهم زهاء الثلاثين فقد صار لهم من الأولاد والأحفاد من ضاقت بهم الأرض بما رحبت . ولقد كانوا كلهم على دين جدهم (نوح نجى الله) وكان كل واحد من أبناء مصرايم هذا حاكمًا فى إقليم من الأقاليم طيلة عهده البالغ سبعمائة سنة حيث لبى بعد ذلك نداء ربه حسب قوله تعالى (ارجعى إلى ربك . . . . . .) ودفن فى الهرم الكبير مع والده بيطر بجوار سوريد المتوفى قبل الطوفان . إذ كان جبل الهرمين فى تلك العصور مزارًا للخاص والعام لأنه مقبرة يزورونها ويتطوفون بها مثل الكعبة . وقد دام الحال على هذا المنوال حتى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وتولى بعده ملك قبطم بن مصرايم المولود من البنت القبطية فى مدينة (درسان) وشرع يتعبد تحت الشجرة التى ولد أبوه مصرايم بانى مدينة درسان ، مما أفاد أخيه ثم اندثر إلى ظهور عبادة الأشجار ابتداء من (قبطم) هذا دين جده نوح عليه السلام وقد ساد الخلف

بينه وبين أخوته وأعمامه البالغ عددهم زهاء الثلاثين حيث نزع كل منهم إلى اختراع نحله من النحل التى نشأت من قبطيم بن مصرايم المعروف بعظم الشأن والملك العريق حتى الآن . فالأقباط جميعًا من نسل هذا الملك والتاريخ القبطى يبتدىء به . هذا وقد أخذ قبطيم الملك العلوم من كاهن عالم من نسل إدريس النبى فتمكن بذلك من تأليف كتب التاريخ التى ليس لها نظير فى الأمم الأخرى سوى كتب الكفار من القبط الحاليين . لأنه بعد هبوط آدم حينما انتشر علم الحساب والنجوم وفن الكتابة والخط وهى تلك العلوم التى تعلمها الناس عن النبى إدريس ، لم ينبغ فى تلك العلوم أحد كما نبغ الأقباط الذين ليس لهم نظير فى تحصيل المعارف ، ولايزال أولياء الأمور ورجال الحكم فى مصر فى حاجة إلى معارف هؤلاء القبط ، وذلك لإتقانهم علم الحساب ، ولحسن فراستهم واستقامتهم وهم فى غاية الدهاء (الملعنة) والمكر والأدب والمحافظة على العرض والكرامة ، مما جعل أعيان مصر يعتمدون عليهم فى الإشراف على أهليهم وعيالهم وقضا منهم المؤن لدقتهم فى الحساب ومسك الدفاتر وتقييد المصروفات . فلا يعرفون حبة إلا ويبادرون إلى قيدها حالاً . فليس لهم نظير فى غير مصر من البلدان .

هذا وإن الشعب القبطى يعتقد أن الملك قبطيم نبى ورسول ولذا يدعون غالبًا بقولهم يا قبطيم ، وهم متعصبون فى مأكلهم ومشربهم للغاية والآن هم مسيحيون . وعلى قول تواريخ الصابئة أن هردا ولد فى بلد (سمنود) فى عهد الملك قبطيم الذى كان الناس يتكلمون باللسان العبرى من آدم حتى عهده . ولما كان هذا الملك متضلعًا فى العلوم والفنون فقد نشأت اللغات العديدة والألسنة المختلفة . ولقد كان يتكلم القبطية وفصاحة نالها من الرب العزيز وبعد أن حكم أربعمائة سنة شرب من كأس الموت ما شربه غيره ، فدفن بجوار والده مصرايم فى جبل الهرمين وخلفه أخوه (أشمون) فى الحكم وأشمون وأشمونين بلدتان بمصر من آثار هذا الملك . وأشمون فى اللسان العبرى اسم للملك على صورة وشكل الثور الذى يحمل الأرض على ظهره فلذا يوجد فى مدينة أشمون هذه عدد كبير من الأبقار (الثيران) ولا يزال المثل يضرب بين عربان مصر بإطلاق بقر أشمونين على من كان متصفًا بالبلاهة والغباوة . بيد أن المدينة ليست عامرة كما كانت فى أيامها الخوالى وهى الآن تل بالعراء ذو ثلاثمائة رتبة حولها قرى مغمورة .

وقد خلف هذا الملك بعد وفاته أخوه (أثريب) وارتحل هذا بعد فترة وخلفه أخوه (صالى) وهذا قد قتله أثناء خروجه للصيد فى بلاد الفونج (نوبخستان) وكان ملكه قويًا شجاعًا . ومدينة (صالى) وقلعتها التى هى منتهى حدود مصر من جهة بلاد الفونج من آثار هذا الملك (صالى) . ثم خلفه ابنه (نرارس) فى الملك وقد ولد فى عهده النبى صالح . ولما مات هذا خلفه ابنه (ماليق) الذى عاش مائة سنة فقط ثم ارتحل إلى دار البقاء فخلفه أخوه (خربتا) ابن قبطيم ، وجاء إلى الحكم بعده ابنه (كدكن) ومات بلا ولد فخلفه أخوه (مالنه يه) بن (خربتا) وقد أنشأ مدنًا كثيرة فى بلاد النوبة حتى إذا ما وافاه الأجل المحتوم خلفه ابنه (طوطيس) فكان ملكًا عظيمًا وجبارًا عتيا .

(حكايــــــــــــة)

حكى أن إبراهيم عليه السلام كان قادمًا مع (سارة) إلى مصر ، حدثت النفس الأمارة بالسوء الملك الجبار (طوطيس) بأن يمد يده إلى (سارة) ويراودها عن نفسها . فشل الله سبحانه وتعالى يده فى الحال ودعا إبراهيم أخيرًا بأن يعيد الحياة إلى يده فاستجاب الرب دعاءه ولكن نفسه الأمارة بالسوء حملته مرة أخرى على اغتصاب (سارة) ومحاولة التعدى عليها ، فشلت يداه مرة أخرى وقد عفا عنه إبراهيم هذه المرة ودعا له بالشفاء فبرئت يداه . وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم ناطقًا بشهادة (ألا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فصار مسلمًا ووهب إبراهيم الخليل أمنا هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام . فإسماعيل مولود من هذه الفتاة القبطية ، ثم أردف ذلك بإعطاء إبراهيم هدايا جمة كثيرة وأرسله عن طريق بحر السويس إلى جده ، ثم أنه حبًا فى لقاء إبراهيم ومواصلة تعضيده إياه عمد إلى فتح الجبال تجاه (بنى سويف) وتمهيد الطرق إلى مسافة ثلاثة أيام حتى بحر السويس حيث أجرى النيل إليه وبذلك تمكن من إرسال مئات من السفن والمراكب بالمؤن والذخائر لتكون نعمة وبركة على أهل مكة . ولقد عاش هذا الملك مائتى سنة منها مائة وثمانون سنة مدة ملكه وحكمه إذ بعدها انتقل إلى الدار الآخرة ليملك هناك أيضًا . وقد دفن بجوار والده (خربتا) فى جبل الهرمين . ثم خلفته فى الحكم بنته (خروبا) التى كانت أول ملكة على وجه الأرض فحكمت سبعين عامًا وهى على دين إبراهيم عليه السلام ولما ماتت خلفها فى الحكم بنت عمها (زالقا) التى كانت ماهرة فى السحر ولما جاءها الأجل دفنوها بجانب والدها (مأموم) ومازال القبط يزعمون أن هذه

السيدة نبية من الأنبياء والرسل فتحج طوائفهم إلى مرقدها فى مدينة (بهنسا) حيث تقول تواريخهم إن من معجزاتها حتى الآن إظهار المسروقات والمفقودات . ورد ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى البشر مائة وأربعة عشر ألفًا من الأنبياء والرسل ليس لهم أحد من النساء . هذا وقد عاشت الملكة (زالقا) فترة طويلة تكاثر قوم القبط فى عهدها حتى استحوذوا على جميع أقاليم مصر .

الفصل الثالث

فى ذكر أحوال العمالقة

العمالقة هم أولاد عملاق كان ملكهم (آيدوس) عيدوس وليد العنيد ، طمع فى عمران مصر ورخائها فى أيدى الأقباط فسار جيشًا كثيفًا عليهم اشتبك فى حرب مع (زايكا) بنت (ياموم) إلى أن أسفر القتال عن اندحار الأقباط أمام العمالقة . وهكذا كان للوليد البليد التحكم فى مصر مائة سنة حيث جعلها كلها وقفًا على كنيسة أبا صوفيا وقد ظل يحكم بالظلم والجور إلى أن سلط الله عليه سبعًا من الحيوانات المفترسة وقضى عليه وأنقذ أهل مصر من شره المستطير . كان ضخم الجسم كبير الجثة كأنه جذع شجرة ضخمة ، وكانت كل سنة من أسنانه تزن ثمانية عشر رطلاً مما يدل على أن شعب العمالقة كانوا أقوامًا ضخامًا .

وقد تملك بعد (وليد) هذا ابنه (ريان) الذى تفيد تواريخ الصابئة أن سيدنا يوسف كان فى عهده ، ولقب الفرعون يطلق على ملوك مصر الكفار فإذا أرادوا جمع اللفظ قالوا الفراعنة ، هذا ولما اختار (ريان) زاوية العزلة مبتعدًا عن الحياة ، خلفه سيدنا يوسف عليه السلام مائة سنة أخرى وكان حكمه موصوفًا لمصر بالعدل التام فترقت رقيًا كبيرًا فى عهده .

الفصل الرابع
فى بيان كيف بنى يوسف مدينة الفيوم
وكيف حفر بأمر الله بحر يوسف

يقول الشيخ «السيوطى» رحمة الله عليه عندما أصبح يوسف فى صباه مملوكا لعزيز مصر عشقته «زليخا» وافترت عليه الكذب فسجنه «ريان» فى مدينة الجيزة وقد ورد ذلك فى القصص القرآنى إذ يقول الله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ ولا زال هذا السجن حتى الآن فى جامع بلدة «بوصيرا» بالقرب من قصبة الجيزة فى مواجهة مصر العتيقة وفى هذا الجامع أيضا يوجد الصندوق الذى وُضع به موسى وليدا وألقى به فى اليمّ أى أن يوسف قد نجى ببركة الصدق فى هذا السجن وأصبح ملكا على مصر وعندئذ دعا هذا الدعاء «اللهم إنى غريب فجهها إلى وإلى !» ومن هنا فإن طوائف العبيد والغرباء هم القابضون على خيرات مصر وهم المعززون .

هذا وبفضل دعاء سيدنا يوسف أنزل الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض عشر بركات حسان ، جعل لمصر منها تسعا ولسائر أقاليم الأرض واحدة ، لأن مصر إقليم ليس كسائر الأقاليم ، إذ فيه طلسمات عجيبة ومعادن وكنوز غريبة . وبعد ذلك كله أدركت العزة الإلهية يوسف ، فنزلت عليه النبوة فى الأربعين من عمره بعد أن كان خليفة فى الأرض ، وقد تملك وهو فى الثلاثين . ولما كانت مصر أرض الجبارين فقد غادرها الى وادى الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف فسر بها واعتزم الإقامة فيها لذلك بنى مدينة الفيوم فى ألف يوم فسميت المدينة (الفيوم) تصحيفا من عبارة (ألف يوم) . وقد يجوز فى اللسان العربى أن تخفف الكلمات فتزال الألف واللام ويقال (فيوم) بمعنى المدينة التى بنيت وأنشئت فى ألف يوم .

وبينما كان يوسف ينقل التراب المتخلف من حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمين بأن ينزل ويقدم المساعدة والمدد لحبيبه يوسف فنزل جبريل كالبرق الخاطف وضرب بجناحه بحيرة الفيوم ضربة قوية فأطار ترابها وأنقاضها الى السماء وأنزلها إلى (أسفل الغبراء) وضرب جناحا أخر جهة الصعيد الأعلى حيث فتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التى لاتزال بحيرة واسعة عميقة

تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والخلائق العجيبة والحشرات البحرية . ويقوم أولياء الأمور فى مصر بتطهير الترع والأقنية كل سنة بمئات من الأبقار والثيران . فى حين أن الترعة اليوسفية هذه نظرا لكونها من آثار جبريل الأمين لا يحدث بها جرف أو شق قط إلى انقراض الدوران بل يجرى فيها النيل دائما . ان النيل (سان مريبل) اذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مرا أجاجا . وفى جوانب هذه البحيرة تقوم ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد . وسنذكر إن شاء الله وصف مدينة الفيوم فى المكان المناسب .

هذا واشتد فراق يوسف على والده يعقوب فبادر فرحل من بلده كنعان مع أولاده وعياله وتوجه نحو مصر لزيارة يوسف الذى كان حينئذ مقيما فى الفيوم . وخلال ذلك خرج الملك (ريّان) من عزلته وتقدم إلى يعقوب بركابه مستجلبا لدعائه ثم أكرمه غاية الاكرام وبعثه وحاشيته إلى الفيوم حيث خف لمقابلته سيدنا يوسف بالحفاوة اللائقة . وقد اجتمعا فى مكان لايزال يسمى (ميلين يوسف) على مسافة ميلين من الفيوم حيث الجنائن والكروم . ولما تعانق الوالد والولد بحرقة وشوق وفرح وسرور ، سرى الانتعاش والحياة فى جسم يعقوب وعاد النور إلى عينيه النرجسيتين اللتين فقدتا بصرهما من الحزن الشديد على يوسف وفراقه . ثم بادر يوسف شكراً لله ، إلى عتق تسعين غلاما من غلمانه المماليك وفرح يعقوب فرحا لامزيد عليه ودعا لابنه بالخير والبركة من صميم قلبه وقد لبث بمصر ستة عشر عاما متمتعا ببصره الذى عاد اليه إلى أن توفاه الله ، فبادر ابنه يوسف حسب وصيته إلى نقل رفاته إلى (جبرون = حبرون) فى القدس الشريف بجوار خليل الرحمن .

ذكر وفاة سيدنا يوسف عليه السلام

هذا وبعد وفاة يوسف ، هلك أيضا (الريان) الذى كان ابنه (دارم) ملكا على بلاد (أسوان) فلم يكن يسمع بوفاة سيدنا يوسف حتى أعلن استقلاله والعمل على تنفيذ وصية يوسف بأن وضع جثته فى صندوق من الصفر وألقاه فى اليم فبقى هذا الصندوق فى النيل حتى عهد سليمان حيث قدم ذات يوم إلى شاطئ النيل مع خدمه وحشمه من الإنس والجن ، فإذا بعجوز شمطاء ذات عقل ودهاء تتقدم إليه وتقول ، ياسليمان إن فى هذا المحل قد ألقى الصندوق الذى يحتوى على جثة سيدنا يوسف . فمن الخير

والحكمة أن تبادر إلى إخراجه . فما كاد يسمع سليمان ذلك حتى أصدر الأوامر إلى العفاريت والجن بإخراج الصندوق . وفى لمحة البصر انتشلوه ونقلوه إلى القدس حيث دفن بجوار والده (يعقوب) فى جبل جبرون [كذا] . ولا يزال قبره معروفا منورا يزوره الناس .

الفصل الخامس
فى بيان آل الريان وذكرهم

لقد طغى (دارم) وتجبر هذا الملك الريانى بعد وفاة سيدنا يوسف ، إذ جنح إلى عبادة الأوثان واتخاذ الأصنام حتى غرق فى النيل فخلفه فى الملك (كاشم بن معدان) وتولى بعده الفرعون ابن حريم بن كنورب بن زيد موسى ، فكان هذا هو الملك الذى جاء قبل موسى بعشرين عاما والذى اتخذ منوف عاصمة لملكه وعاش أربعمائة عام وقد أمضى أكثر أيامه فى قتال موسى حتى غرق بجميع جنوده فى المحل المسمى بمضيق (قلوندر) فى بحر القلزم . وهذا ثابت بالأدلة القطعية فى جميع كتب التفاسير . ثم جاءت بعده السيدة المدعوة (دلوكه بنت زيباكه) وخلفته فى الحكم فاعتنت بعمارة مدينة (منوف) أيما اعتناء حتى أنها جعلت جميع العمدان المستعملة فيها من الحديد وكست السطوح والسقوف بالرصاص وغطت الأبواب والشبابيك والدرابزينات بالصفر والبرونز فأصحبت لا نظير لها فى أرض مصر . ومنوف فى اللغة القبطية اسم للعروس أعنى أنها مزدانة ومجلوة كعروس الدنيا بعد ذلك سيطرت هذه الملكة المدعوة (دلوكة) على العالم بقوة السحر وكان ذلك فى سنة ( ) فكانت سلطانة أصيلة حكمت عشرين سنة وماتت بعد أن عاشت مائة وستين عاما .

وخلفها فى الملك درجون (دركون) ولما هلك وخلفه ابنه (تودس) وبعده تولى الملك (لقاس) ثم (مرينا) وخلفه ابنه (اسمارس) فقتل وكان أول من قتل من الملوك . لأنه كان ملكا جبارا عاتيا وحاكما جائرا . وتولى بعده الملك (بطولس ابن مكاكل) فحكم أربعين سنة ثم خلفه ابنه (بالوس) ثم أعقبه فى الملك (مياكل) الذى هو أخو (بالوس) فحكم مائة وعشرين عاما وهو الذى خرب بيت المقدس وقد هلك بسقوطه من جواده الذى رفسه حتى مات . وخلفه ابنه (مرتنوس) . وبعده تولى الملك (مرمورة) الذى أجرى العدل وأحب الرعايا وأشاع العمران فى أرض مصر والقدس وعاش ستين سنة . ثم خلفه الملك (لقاس) الذى مات فى ساحة الوغى فأعقبه فى الملك (قوبش) فطاف البرارى وساح فى البحار مغيرا على أكثر من خمسين ولاية وإقليم .

هذا وكان فى عهد هذا الملك خروج بختنصر من كردستان طالبا دم النبى يحيى فأوغل فى البلاد حتى اجتاح حلب والشام (وبليسر)[1] وطبرية ونابلس والرملة وصفد وغزة ومصر والأسكندرية .

والخلاصة أنه استولى على أكثر من ألف وسبعمائة مدينة إسرائيلية فخربها وجعل أهلها أسارى معذبين وذلك انتقاما وثأرا لدم يحيى المسفوك وكان اليهود قد قتلوه . ولبثت مصر نتيجة لهذه الغزوة خربة مدة أربعين سنة كاملة . وقد عثر بختنصر هذا على الأنبياء أرميا وإيليا ودانيال فى مدينة صفد [2] فألقى القبض عليهم وزجهم فى السجن وبينما هم فى الحبس بلغ بختنصر أن الوحى ينزل عليهم فبادر إلى إطلاق سبيلهم وقد أعاد إلى مصر النازحين من أهلها بفضل رجاء ثلاثة من الأنبياء من أولاد نوح . وحدث فى هذا العصر أن تسلط الشعب الرومى ، بفضل بختنصر ، على اسرائيل ، وإلزام الملوك جميعا باعتناق المسيحية ، حتى لقد أشاعوا الطقوس المسيحية فى البلاد الإيرانية ، كدق النواقيس والعزف على الأرغون . فآية ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ . . .﴾ التى نزلت فى عهد الرسول إنما نزلت فى شأن هؤلاء الروم [3] .

وهنا تم سرد حكاية العمالقة وآل الريان .

(١) تصحيف «قنسرين» من أعمال حلب القديمة (المترجم) .

(٢) فى الأصل «صفت» .

(٣) نزلت الآية فى الوقائع التى كانت بين كسرى برويز ملك الفرس وهرقل ملك الروم وانتهت بانتصار الروم فى العقد الثالث من القرن السابع الميلادى (د . عزام) .

الفصل السادس

فى بيان من دخل مصر من الأنبياء العظام

تنزلت الصحف أول ماتنزلت على آدم وشيث وابنه قينان .

وكان لقب سيدنا إدريس هو (هرمس) ، ومعناه بالعبرية (الشيخ) .

هذا ولا يزال السودانيون يقبلون على تسمية أبنائهم بإدريس وحمد وحمود وهنو وجرجس وكفيل .

فالنبى إدريس قد بعث بمصر إلى قوم الصابئة فأنشأ بأرض مصر هذه مائة وأربعين مدينة إذ كان ماهرا فى علم الهندسة والنجوم مهارة كاملة . ولإكثاره من إلقاء الدروس على الناس سمى باسم (إدريس) . وهناك نص قاطع على أنه عرج إلى السماء وهو ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾[1] . ويقال أنه لايزال فى جنة المأوى يفصل الحلل والثياب إذ كان ماهرا فى فن الخياطة والكتابة كما أن إبراهيم وإسماعيل بعد أن أتما بناء مكة ، جاءا إلى مصر فى عهد الملك (توتيس) وأما يوسف فقد كان بمصر فجاء أبوه يعقوب إليها ومعه أبناؤه الأحد عشر وأكبرهم (يهودا) وابن يامن [بنيامين] وسياح بن يهودا بن يعقوب ، وميائيل ، ورروفائيل ، وشمعون ، ومسحره ، وزاخيل ، ودارم ، ولاوى ، وأزريا ، ورادم وحسيان . فهؤلاء كلهم أولاد سيدنا يعقوب جاءوا لمصر بعد أن أجرموا بإلقاء يوسف فى الجب وادعوا أن الذئب أكله ، واجتمعوا به مع أبيهم واستغفروه وأقاموا بها ست عشرة سنة طيلةحياة أبيهم يعقوب . ثم عادوا إلى صفد جميعا بعد وفاته وهم مدفونون فى مغارة (بيت الحزن) . هذا ولما كان بنيامين (ابن يامن) شقيق يوسف من أم واحدة فانه بقى مع سيدنا يوسف فى الفيوم التى ولد بها أيضا (أفرايم بن يوسف) فأفرايم هذا وبنيامين كلاهما مدفون فى قبة واحدة بجوار عمر بن الفارض بمصر . وليس فى أرض مصر من أولاد الأنبياء من هو مدفون بها سواهما .

ومن الذين وطئت أقدامهم أرض مصر لوط وموسى وهارون وهما أخوان ولدا فى مدينة أرمن (أرمنت) قرب أسوان من أرض مصر حيث عمدت أم موسى إلى صندوق

---

(١) لا يعوّل على تفسير المؤلف واستدلاله بالقرآن . لأنه ينقل خرافات بغير نقد . (د . عزام) .

فوضعته فيه وألقته فى اليم خوفا عليه من فرعون مصر . وكان من حكمة الله ومن حسن توفيقه أن كان القصر الذى يقيم به فرعون على شاطئ النيل فكانت زوجه (آسية) جالسة صباح يوم تنظر إلى النيل فشاهدت صندوقا يطفو على المياه فأمرت بإحضاره إليها ولما فتحته رأت أن هالة إلهية تتلألأ منها الأضواء والأنوار وهى لطفل لا كالأطفال فحرصت عليه وعنيت بتربيته حق العناية . ومن حكمة الله وحسن تقديره أن كان والد سيدنا موسى هذا بواب قصر فرعون ؛ كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص . فأعطت (آسيه) الطفل لوالدته وأخذت تلاحظه على بعد ومن وراء ستار . فقصة موسى وفرعون هذه مسطورة فى جميع كتب القصص . وكذا الأنبياء داود ، والملك رجيم بن سليمان ، وهود ، وشعيب ، وثمود[١] الذى كان يقطن قريبا من مدينة مصر فكان يزورها دائما . وهناك فى مصر القديمة دير يحج إليه القبط ويزورونه ويطلق عليه دير ثمود . وكذا لقمان والخضر وإن كان فى نبوتهما اختلاف . وأما لقمان فقد كان أستاذا حاذقا أسمر اللون يسكن مدينة سودان .

وأما الاسكندر ذو القرنين ففيه أقوال كثيرة ، فهناك من يقول أنه نبى مرسل إذ وردت الآيات القرآنية فى حقه وهي ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ . وهناك أربعة يسمون الاسكندر على هذا المنوال . فاسكندر ذو القرنين بن فيلكوس الرومى وهو يونانى . وفى بعض التواريخ أنه اسكندر ابن (مرزية) ومذكور أن اسمه (مرزيا) وكنيته اسكندر . هذا وكان فى ذلك العهد يطلقون القرن على دَور أو مدة من الزمن مقدارها ٣٢ سنة فمعنى القرنين يعنى ٣٢ سنة مرتين أى أربع وستين سنة . وحيث أنه حكم أربعا وستين سنة وصفوه بأنه ذو القرنين . وفى رواية أخرى أنه كان فى جبهته قطعتان من اللحم تتدليان كالقرون فأطلق الناس عليه هذا اللقب .

حكاية شرفنامه[٢]

يقول صاحب كتاب « شرفنامه» وهو جد أمراء «بدليس» إن ذا القرنين ما كان يتمتع

---

(١) ثمود جماعة فى شمال الحجاز بعث فيها النبى صالح ، لا نبى كما يتوهم المؤلف . (د . عزام) .

(٢) كتاب باللغة الفارسية فى مجلدين فى تاريخ الدول والامارات الكردية ووصف كردستان فى العهد الإسلامى لمؤلفه الأمير شرفخان البرنيسى أتم تأليفه سنة ١٠٠٥ هـ وطبع مرتين إحداهما فى موسكو سنة ١٨٦٠ والأخرى بالقاهرة سنة ١٩٣٠ . وقد ترجمه إلى العربية محمد على عونى ، وراجعه يحيى الخشاب فى جزءين (طبعة دار إحياء الكتب العربية) .

بالراحة قط من وجع قرنيه وإيلامهما له دائما . وقد جمع حوله من الحكماء الماهرين والأطباء الحاذقين عددا كبير ليعالجوه ويزيلوا ما به من الألم فلم يجده ذلك نفعا . فما كان منه إلا أن ضرب فى الأرض باحثا عن عين الحياة التى يقال انها فى الظلمات . ولما لم يجدها عاد إلى إقليم العراق واغترف من مياه شط العرب ، فسكن ألم قرنيه واستراحت نفسه قليلا . ونام ورأى فيما يرى النائم أن هاتفا يقول له ، يا اسكندر اشرب من ماء هذا الشط وسر فيه حتى الموصل على أن تشرب فى الطريق من كل ماء يصب فى الشط واذا عثرت على الماء الذى ينفعك ويريحك من ألمك فاتبع هذا الماء الصغير واصعد به إلى أن تصل إلى منبعه فتحط رحالك به وتقيم حوله أربعين يوما تشرب من مائه كل يوم حتى يزول مابك من وجع القرنين وتنال الشفاء التام . ولما استيقظ من النوم أحضر الأطباء والحكماء والخدم والحشم وارتحل بهم جميعا إلى جانب الموصل مجتازا عشرات من الأنهر والروافد حتى وصل ولاية حزيزة العمر[جزيزة بن عمر] فشرب من نهر (الخابور) الذى يسقيها ؛ وعندئذ شعر براحة تامة وأحس بحياة جديدة وقد تبع شاطئ هذا النهر وسار فيه نحو منبعه حتى وصل إلى محل انشطر فيه النهر إلى قسمين ، فشرب من ماء القسم الذى يأتى من (حصن كيفا) وأحس بانتعاش ونشوة فبادر إلى مواصلة السير حتى وصل إلى مكان ينشطر فيه هذا النهر النافع تحت قلعة (كغندور) قرب بدليس ، فشرب من الشق الذى يأتى من جبال (مودكى) وعند ذلك صاح الاسكندر وهتف هتافا تردد فى أجواء السماء من النشوة التى شعر بها . ولما شرب من الشق الذى يأتى من داخل المدينة استلذه وانتعش به فأحبه كثيرا ولذا سار قدما نحو ذلك الماء ونزل مكان مدينة بدليس ورأى النهر ينشطر مرة أخرى إلى قسمين تحت القلعة ، فشرب من القسم الذى يجرى فى السوق الآن فلم يستسغه فبادر إلى الشرب من القسم الذى ينبثق من تحت القلعة حيث وجد لذة كبيرة وشعر بحياة جديدة كأنها خالدة ، وسقط أحد القرنين فورا وبقى الآخر ولكنه شكر الله على ذلك وتابع سيره فى شاطئ ذلك النهر حتى رأى أنه يتدفق من صخرة عظيمة مهيبة . فأمر رجاله بحط الرحال وعسكر بجيشه وأقام هنالك أربعين يوما يشرب من ذلك الماء الزلال ، حتى وقع قرنه الثانى أيضا وزال ما به من الوصب . وهكذا نجا الاسكندر من قرنيه ومن آلامهما التى أقضت مضاجعه حقبة من الدهر فشكر الله الواحد القهار الواهب العطايا ، وتقديرًا لطهارة هذا المكان وقدسية هذا الماء الشافى ابتنى هنالك قصرا مشيدا وتكية أنيقة ، عمرها الدراويش وأهل العلم

والمعرفة عهدا طويلا متمتعين بالسعادة والهناءة والراحة . ولا يزال هذا المحل أعظم متنزه فى تلك الجهات .

وكان للاسكندر هذا خازن يدعى (بدليس) فى غاية الادراك والنباهة وحسن التدبير والشهامة ، فأعطاه أموالا وخزائن عديدة وأمره ببناء قلعة عظيمة على هذه العين الدافقة قائلا أنها يجب أن تكون من الحصانة على مكانة أعجز عن فتحها والاستيلاء عليها إذا قصدتها أنا الاسكندر بعظمتى وجلالى» .

وفى سنة ١٠٦٥ هـ حينما زرت «بدليس» بصحبة مولاى (ملَك أحمد باشا) تكلمت عن أحوال هذه المدينة وقلعتها بالإسهاب . بيد أنى رأيت فى بعض التواريخ فى شأن اسكندر ذى القرنين ما يلى :

إن الاسكندر ذا القرنين هذا هو الذى بنى سد يأجوج ومأجوج كما أنشأ قلعة الاسكندرية بأرض مصر وهو ابن تارخ بن يافث بن نوح عليه السلام . وفى قول آخر أنه الاسكندر بن (داراب) بن (بهمن) بن اسفنديار[1] .

وحقيقة القول إن أسكندر هذا قد ذهب إلى مصر وبنى قلعة الاسكندرية . [سنة ٦٠١ ومدة حكمه ٦٤ سنة ولقد مات فى بابل ودفن فى الأسكندرية] هذا وكان سيدنا الخضر النبى رجلا مسنا ذا تجارب وتدبيرات عظيمة فى جيش الاسكندر وكان معه فى رحلاته فى أنحاء العالم . ويقال انه لايزال حيا يرزق وفى نبوته أيضا اختلاف ولكن قدومه لمصر ثابت بالقرآن الكريم (الآية . . .) وبمصر موضع يدعى (مرج البحرين) الذى هو اختلاط النيل المبارك بالبحر ببوغاز دمياط ، وقدم الخضر مع سيدنا موسى فى رحلاته إلى هذا المحل المسمى (مرج البحرين) حيث بادر إلى خرق سفينة صيد فغرقت وجادله موسى فى ذلك حتى دب الخلاف بينهما . فأنزل الله تعالى على محمد المصطفى هذه الآية ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . وهذا دليل كاف على أن سيدنا موسى كان ساكنا بمصر . وحيث أن موسى والخضر قد ترافقا فى مرج البحرين فيكون الخضر أيضا ممن دخل مصر .

---

(١) اخترع الفرس نسبا للإسكندر ألحقه بالملك داراب ليدفعوا عن أنفسهم عار فتح اسكندر لبلادهم . (د . عزام) .

ومن الأنبياء الذين دخلوا مصر سيدنا (يوشع) الذى ولد فى مدينة الفسطاط فهو يوشع بن نون لا (زينون) الذى ولد فى مصر القديمة أيضا إلا أنه كان حكيما حاذقا من القبط وقد كان زينون هذا ضمن الوفد الذى أرسل من قبل الوالى «المقوقس» إلى صاحب الرسالة المحمدية حاملا من الهدايا ثلاث جوار قبطيات وسيفا وبغلة ، فحينما سلم زينون الهدايا لصاحب الرسالة سلم نفسه أيضا للرسول عبدا مملوكا له معربا عن رغبته فى التشرف بالاسلام . فأعطى الرسول إحدى الجوارى أبا بكر قائلا (غيز شمسه)[1] فأولدها ابنه محمدا . وأعطى الثانية للشاعر حسان وسماها (درة) فأولدها ابنه عبد الرحمن . وقد خص الرسول نفسه بالثالثة وسماها (مارية) التى ولدت ابراهيم ابنه . وبعد ذلك حضر (زينون) هذا مع عمرو بن العاص فى فتوح مصر وقد استشهد فى وقت واحد مع (عقبة الجهنى العامرى) من الصحابة الكرام ، ولذا دفنوهما متجاورين . وأما (يوشع بن نون) هذا فهو نبى رحل من مصر إلى طرابلس الشام ودفن بها . هذا وقد أسر بختنصر ، النبى (دانيال) والنبى (ارميا) وقدم بهما إلى مصر حينما توجه إليها مجتاحا ومشيعا الخراب والدمار فى أرجائها . وفى عودته من مصر اصطحبهما معه إلى «كردستان» .

وممن هاجر إلى مصر سيدنا عيسى الذى ارتحل هو وأمه من مدينة نابلس ، فنزلا فى قرية المطرية وظلا بها ثلاثة أعوام غرسا خلالها أشجار (بليسان) التى لم تكن موجودة على وجه الأرض حتى ذلك العهد . وكانت تلك الأشجار قائمة حتى عهد الدولة الكردية ولا تزال جذوعها باقية . ثم حفر سيدنا عيسى هناك بئرا يشرب منها السعداء من الوزراء والكبراء أيام الفيضان حيث يأتى النيل عكرا كثير الطمى ، ولا تزال الطوائف المسيحية تزور تلك البئر إلى اليوم . ثم سافر السيد عيسى مع أمه إلى مدينة (بهنسا) فأقاما بها ثلاث سنوات أخرى . هذا وقد أخبر الله سبحانه وتعالى حبيبه المجتبى بدخول عيسى أرض مصر بهذه الآية الشريفة **﴿وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾** حيث فسرها العلماء بدخول عيسى مصر .

وهكذا يكون هؤلاء الأنبياء هم الذين دخلوا مصر . وهذا وفق ما أجمع عليه ثقات المؤرخين والمفسرين ، ولم يدفن أحد منهم بأرضها اللهم إلا بنيامين وابن أفرايم بن يوسف عليهم السلام .

---

(١) فى الأصل Giz Semse

فى بيان من دخل مصر من أهل البيت النبوى

وأول هؤلاء سيدنا شيث ثم أمنا حواء ، ثم سارة زوج ابراهيم الخليل ، والسيدة آسية التى كانت زوج فرعون واستشهدت على يده وهى بكر ، وكذا (يوحنه) أم موسى ، وأم يوسف ، وأم يهوذا بن يعقوب ومريم أم عيسى . وعلى هذا اتفاق المؤرخين أجمعين .

فى بيان من دخل مصر من الحكماء القدماء

ففى مقدمة هؤلاء إدريس الذى كان كاتبا وخياطا وحكيما . «ولقمان» وفيثاغورس التوحيدى ، و(تيمون) و(فليسلة) و (أسلاوس) و (كاوس) و (يزدجرد) وبقراط وسقراط وأفلاطون « وأقليطس» وأرسطاليس . وبطلمو «بطليموس» و (أقلطموس) وأرستطاليس وفلكوس وذوالنون المصرى وأبو على بن سينا وأبو الحارث . ومن هؤلاء الحكيم والعالم والطبيب والفلكى والعارف بمواقع النجوم ممن لا تزال مؤلفاتهم تدرس . ويعمل بها اليوم .

وخلاصة القول أن فى مصر أم الدنيا هذه من بعد هبوط آدم ومن بعد طوفان آدم الثانى نوح عليه السلام ، قد تناسل بنو آدم وتكاثروا على أديم الأرض فبعث فيهم مئات من الأنبياء والرسل والملوك والسلاطين واشتهروا بالعتو والطغيان وهم أربع طبقات .

الطبقة الأولى ـ نسل داريون (الداديون . الطبقة الثانية ـ الكيانيون . الطبقة الثالثة ـ الاشكانيون . الطبقة الرابعة ـ الساسانيون . هذه الجماعة المكروهة المذكورة تملكت أكثرها إيران وما وراء النهر وبلاد العراق ومصر .

الفصل السابع

فى ذكر فتح عمرو بن العاص لمصر القاهرة فى خلافة سيدنا عمر ببركة معجزات محمد المصطفى

السبب فى فتح مصر هو أن اليونانيين كانوا قد ازدادوا شوكة وطغيانا ، بعد الاسكندر الأكبر ، حتى وضعوا أيديهم على أقاليم الدنيا السبعة وفيها مصر التى أذلوا ملكها القبطى (المقوقس) وجعلوه عاملا لهم (بوى بكى) ثم أخذوا يتأهبون لغزو مكة والمدينة عن طريق (بنى سويف) أثناء فيضان النيل فبدأوا بمنع تسيير السفن فى النيل إلى السويس ، الأمر الذى أفضى إلى حدوث القحط والغلاء فى المدينة ومكة . وهنا بادر صاحب الرسالة إلى العمل على إرغام أنوف الكفار الأذلاء فبعث بسيدنا عمر على رأس جيش يتألف من (ثمانين ألفا) إلى القدس ، حيث فتحها عمر بنفسه ، ثم أرسل النبى [1] عقبه ، خالد بن الوليد فانتزع الشام الشريف من يدى «هرقل» المنحوس العنيد ، وقد حصل على أموال وغنائم كثيرة ذهب بها إلى المدينة وقدمها للرسول فأطلق عليه رسول الله لقب (سيف الله المسلول) . فعلى هذا يكون خالد أول من غزا بلاد الروم [2] .

هذا ولما عصى كفار القدس والشام وثاروا ضد المسلمين فتحت البلاد كلها دفعة واحدة فى عهد سيدنا عمر ، مما أوقع الكفار مع الروم والقبط فى حيص بيص وراحوا يتساءلون عما سيكون حالهم مع محمد العربى وبينما هم كذلك إذا بالملك «هرقل» يتحرك من أنطاكية بجيش عرمرم قوامه أربعون ألف فارس ومثله من المشاة ينزلون فى الإسكندرية فيرسلهم منها إلى مصر وهكذا تعود الحياة والآمال الواسعة للكفار . وكان عمرو بن العاص فى الجاهلية ، وقبل أن يتشرف بالإسلام من ذوى المكانة والشأن فى قومه قريش وكان يتردد على الشام وبصرى والقدس الشريف كل سنة . ففى ذات يوم بينما كان راقدا تحت شجرة على قارعة الطريق إذ بحيوان كبير الجثة مثل الثعبان العظيم قد ظهر وأخذ فى مهاجمة شخص نائم تحت شجرة أخرى هنالك . فما كان من عمرو بن العاص إلا أن تناول قوسه ورمى الثعبان الهائل بسهم أصابه فى مقتله فسقط على الأرض

---

(١) ليس يخفى ما فى ذلك كله من خلط شديد .

(٢) هذه مغالطات فى التاريخ الإسلامى كما هو الحال بالنسبة للتاريخ القديم . (د . عزام) .

يتلوى وينفخ يمينا وشمالا . وفى هذه الأثناء استيقظ النائم تحت الشجرة ونظر إلى ما حوله وقد تولاه الذعر والدهشة فسأل عمرو بن العاص عن جلية الأمر . فأجابه بأن هذا الثعبان الهائل كان يقصده لينفث فيه سمه الزعاف وبأنه عاجله بسهم فقتله .

فما كان من هذا الشخص الناجى من أنياب الثعبان القتالة الا أن ارتمى على يدى عمرو وقدميه يشكره على صنيعه . فقال له عمرو ان مكة مسقط رأسى ووطنى وأنا من آل هاشم [1] ورد الرجل وقال أرجو أن تكون لى أخا فى الدنيا والآخرة حتى أستطيع القيام بما يجب على من الخدمة والمكافأة ، لما قدمت إلى من هذا المعروف . فقال عمرو بن العاص إنى ما عملت ذلك إلا لوجه الله وأنا رجل اشتغل بالتجارة . فرد عليه الرجل قائلا يا أخى وأنا كذلك تاجر ولى تجارة واسعة فى الإسكندرية وأكياس كثيرة مملوءة وعقارات واسعة فى مصر . وأنا الخواجة (شماس) وقد قدمت إلى زيارة بيت المقدس . فأنا غريب مثلك عن الدار والوطن وأملى وطيد فى أن ترافقنى إلى الإسكندرية لأعطيك هنالك مبلغ عشرة آلاف سكة قبطية من الذهب المُمَسَّك وعددا من الجواهر القيمة والأحجار الكريمة وطائفة من الأقمشة الفاخرة ثم أعيدك بالعز والإجلال إلى مكة ، ومعك بغلتان محملتان أموالا طائلة من السلع والأمتعة . وقد بالغ فى رجائه والتضرع إليه حتى أن المستمعين من الحضور تأثروا من ذلك ووافقوه على قوله . وإزاء هذا لم يسع عمرو بن العاص إلا أن يوافق هو أيضا فسارا من القدس راجلين وجعلوا يقطعون الفيافى والصحارى حتى وصلوا الإسكندرية بعد عشرة أيام . ونزل عمرو ضيفا على الخواجة شماس فى منزله وأخذ هذا يفى بوعده فأعطى ضيفه مبلغ عشرة آلاف (دينار) من الذهب ثم صحبه إلى متنزهات المدينة ومشاهدها ليتفرج عليها ويتمتع بها . وبينما هما يتجولان فى المدينة وقد مرا بميدان الملعب وإذا بكرة الصولجان تطير وتقع بحكمة من الله على رأس عمرو بن العاص ، الأمر الذى أثار اعجاب الناس ودهشتهم ، وذلك لأن أهالى الإسكندرية كانوا يزعمون أن من نزلت كرة الصولجان على رأسه من النظارة والحاضرين فإن الدولة والسلطنة تقبل عليه طائعة . وهذا ما جعل هؤلاء الناس يتعجبون ويذهشون من نزول الكرة على هذا العربى فأخذوا يستخفون به ، متسائلين كيف يكون العربى ملكا .

---

(١) عمرو من قريش وليس من آل هاشم . (د . عزام) .

فالملك يجب أن يكون من ذوى الثراء ومن أصحاب الحول والطول فى البلد وما شأن هذا الغريب عن البلد؟ .

هذا ولما غادر الخواجه « شماس» مع ضيفه عمرو الملعب وذهبا إلى منزله نظر الخواجة شماس وكان فريد عصره ووحيد دهره فى علم الأصطرلاب ، ليرى طالع ضيفه عمرو فوجد أنه يملك عرش مصر ويحكمها ، فبادر إلى إعطائه حمل سبعين جمل من المال وأرسله فى اليوم التالى إلى مصر ليجوس خلالها وقد لبث عمرو فيها ثلاثة شهور عرف أثناءها أحوال مصر وأسرارها . ثم سافر إلى مكة بقافلة كبيرة محملة بالأموال والهدايا . وما أن وصلها حتى بادر إلى توزيع الهدايا على أهاليها الكرام . ثم أخذ يصف الاسكندرية ومصر أم الدنيا ويبالغ فى مدحها حتى لقد تمنى جنود الإسلام أن يفتحها الله عليهم ، وقد تشرف عمرو بن العاص بمقابلة النبى عليه السلام وقدم له هدية طيبة فتقبلها منه بسرور . فما كان من عمرو بن العاص عندئذ إلا إعلان إسلامه وإيمانه بالنبى رافعا يديه بالشهادتين وهكذا التحق بزمرة الصحابة الكرام . وقد أخذ يصف للنبى أحوال مصر والإسكندرية على حقيقتهما فسر النبى سرورا عظيما حتى صاح داعيا (اللهم يسر بالعمرين)[1] . وقد استمر عمرو كل يوم يسهب فى مناقب مصر وأحوالها وما هى عليه من الخصب والبركة حاثا الصحابة والمسلمين على فتحها ثم فتح القسطنطينية . وفى خلال ذلك وردت مرارا من المقوقس ملك مصر هدايا وكتب إلى الرسول يقول فيها « يا محمد نحن معشر المصريين مغلوبون على أمرنا فى أيدى كفرة الروم وإنا لعاجزون كل العجز حيالهم فإنهم أخذوا منا مصرنا ، ومن جهة أخرى فإن السيد الرسول بعد عودته منصورا ومظفرا من غزوة الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة قد حضر اليه (أبو الدرداء) وحاطب بن بلتعة فأرسلهما النبى بكتابه الدرى الشريف إلى المقوقس بمصر فوصلاها سالمين وأخذا يدعوان الملك المقوقس إلى اعتناق الدين الإسلامى . هذا والروايات مختلفة هنا فإحداها تقول أن (المقوقس) قابل الكتاب النبوى بالتجلة والاحترام بل باللهفة والشوق إذ احتضنه وقبله وأعلن تشرفه بالإسلام ثم بعث مع حضرة (زينون) إلى النبى ثلاث جوار وسيفا وبغلة كما سبق ذكره فيما مضى .

---

(١) هذا خلط أيضا . وقد تم إسلام عمرو على غير هذه الصورة ، أما الحديث : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين فقد قاله الرسول الكريم فى عمر بن الخطاب وعمر أبى جهل . (د . عزام)

والذى لا نشك فيه أن المقوقس كان يكن الاحترام والتقدير للنبى ويقال ـ والعهدة على الراوى ـ أن أبا الدرداء و(حاطب بن بلتعة) قد جاءا إلى الرسول وفدًا من المقوقس وأخذا يصفان مصر وأحوالها وجودة هوائها ووفرة خيراتها من المأكل والمشرب والحبوب والغلال وقد بالغا فى ذلك حتى أن الرسول أحب مصر فحدث عدة أحاديث شريفة عنها ثم أخذ يشجع أتباعه وأصحابه وأمته ويرغبهم فى غزوها ويتلو عليهم الآيات النازلة فى حق مصر .

الفصل الثامن
فى بيان الآيات القرآنية الشريفة التى نزلت فى حق مصر صراحة وكتابة وتوضيحًا

ذكر المواضع التى وقع فيها ذكر مصر بالمدينة صريحا وكناية ﴿اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم ، . . . ﴾ وعلى طريق الحكاية ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتا﴾ عن حكاية يوسف عليه السلام ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ والآية ﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه﴾ وحكاية فرعون ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾وقصة يوسف ﴿وقال نسوة فى المدينة ، امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا﴾ والآية ﴿ودخل المدنية على حين غفلة من أهلها﴾ والآية ﴿فأصبح فى المدينة خائفا يترقب﴾ والآية ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ . وعن حكاية عيسى ومريم الآية ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ والآية ﴿اجعلنى على خزائن الأرض﴾ والآية ﴿وكذلك مكنّا ليوسف فى الأرض﴾ والآية ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى﴾ والآية ﴿إن فرعون علا فى الأرض﴾ والآية ﴿إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض﴾ والآية ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾ والآية ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ والآية ﴿فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾والآية : ﴿ولقد بوأنا بنى اسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات)﴾ والآية ﴿كمثل حبة بربوة﴾ أعنى أن المفسرين قالوا أن المراد (بربوة) مصر وقال البعض إنها الشام . وعلى كل فإن القائلين بأنها مصر كثيرون . والآية ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لكم﴾ والآية ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾والآية ﴿وقدرنا فيها أقواتها﴾ والآية ﴿إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد﴾ . قال بعض المؤرخين إن جنة إرم هى الإسكندرية ولكن المقريزى مؤرخ العالم صاحب الخطط يقول إنها كانت جنوبى مصر فى محل يقال له «سبيل علام» وقد أخفاها الله عن عيون الناس . ولقد رأى العبد الفقير بعينى رأسه بعض أحجار قيمة استخرجت من الحى الذى يطلق عليه «سبيل علام» بيعت الواحدة منها بألف قرش . وعلى قول بعض المؤرخين أن «جنة إرم» هذه تقع بجوار الشام ويقال إنه فى عهد الأمويين قد افتقد أعرابى جمله فخرج للبحث عنه فى البادية وقد وقع على محل غريب ومكان عجيب كأنه

جنة من الجنات الخالدة فملأ جعبته من أحجارها الكريمة وأشجارها القيمة ونباتاتها العجيبة وذهب بها إلى الخليفة بالشام ووضعها أمام جلالته فعلم الحاضرون من الوصف أنها جنة إرم وأنها واقعة بجوار الشام . ولكن الذين يقولون بأنها فى مصر كثيرون وذلك لأن منشئ جنة إرم وما بها هو (شداد بن عدن) ووطنه الأصلى هو مدينة «أسوان» الواقعة بمصر ، فهذا أقرب إلى العقل والصواب . ولذلك نزلت فى حق مصر الآية الشريفة ﴿وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو﴾ والآية ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ . والواقع أن بمصر كثيرا من الفساق والجبارين ولاسيما بين الطوائف العسكرية كما قالت الآية ﴿من كل جبار عنيد﴾ . إذ أن جميع أهاليها من قوم الفراعنة . فهم جبارون عتاة بحكم هوائها ومائها من أيام هابيل وقابيل فينقسمون إلى معسكرين أحدهما (بنو حرام) وثانيهما (بنو جذام) يتقاتلان كل يوم صباحا ومساء . فالويل لمن يهزم لأن الغالب يمزق بطون نساء المغلوب ويقتل الأجنة . فكما أن أهاليها جبارون عتاة فإن خيولها التى تشرب من ماء نيلها أيضا شرسة جدا حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى حق تلك الخيول ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ . ولما كان نظر الجناب البارى تعالى مراده المدينة القديمة فإن الجبارين والفساق والمغتصبين والذمامين والنمامين والمستهترين لا يعمرون فيها كثيرا فسرعان ما يلحقهم البلاء والعقوبة . كما أن الحكمة الإلهية قد اقتضت ألا يطول فيها عمر الجراد ، حيث لا يلحق أى ضرر منه بفضل الله وكرمه بحاصلات مصر ، حتى أنه فى تاريخ ... حينما كان عبد الرحمن باشا والى مصر [١٠٩٢هـ] قد نزل جراد بأرض مصر كثير ، كثرة غطتها عن الشمس وانعقدت فى سمائها سحب سود ثم نزلت على الأرض جملة واحدة فاستبشر الناس بها وأخذوا يجمعونها ويأكلونها بشهية حتى أتوا على آخرها فى يوم واحد وما تبقى من ذلك طار وسقط فى النيل وغرق . وفى رواية أخرى أن الجراد المذكور هلك إثر ريح صرصر عاتية . ويقال إنه فى عهد السعادة النبوية أغار الجراد على مدينة (مكة) ولا سيما على وادى فاطمة ففزع أهلها إلى رسول الله قائلين يا رسول الله إن الجراد قد استولى على مدينتنا فماذا يكون حالنا معه؟ . فما كان من الرسول إلا أن رفع يديه إلى السماء وقال أرسل يا إلهى هذه الحشرات إلى مصر . ولكن الصحابة الكرام بأجمعهم تضرعوا إلى الرسول وقالوا أن معيشة أهل المدينة ومكة جميعهم تأتى من خيرات مصر ومنسوجاتها فإذا ذهب هذا الجراد إليها فلا شك فى أن القحط والغلاء يستوليان عليها ورد

الرسول عليهم قائلا لاتخافوا ولا تحزنوا إن مصر فى أمان الله وحفظه ، وهى كنانة الله فى أرضه . وإن الموكلين بحفظها وحراستها هم النجباء البالغ عددهم سبعين رجلا من رجال الله . فلا يعمر بها ظالم ولا فاسق ولا مستهتر أو مستهزئ .

حقا إن الجراد الذى وصل إلى مصر حينذاك قد هلك جميعا . وعلى هذا المنوال فإن من ينظر إلى مصر نظرة سوء أو تحقير يذله الله ويحقره ومن يعدل بها وينظر إليها نظرة اعتبار وتقدير يمتعه بالسعادة والسلامة .

هذا وهناك مئات من الآيات الشريفة فى حق مصر ونكتفى منها بما ذكرناه معتمدين على ذاكرتنا وبإلهام من الله . وأما الرسول المجتبى محمد المصطفى فقد قال ما معناه (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما) صلى الله عليه وسلم . وذلك لأن اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام مولود من (هاجر) بنت أقباط مصر كما أن الرسول من ذرية ابراهيم واسماعيل عليهم السلام فعلى هذا تكون أم سيدنا النبى من مصر . وهذا الحديث وارد فى حق أمنا هاجر ومصر . قال عليه السلام : (ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم دفترا) . وقال عليه السلام : (استوصوا بالأدم الجعد ـ يعنى قوم الجعد ـ سمر اللون وهم القبط) وقال عليه السلام : إن إبليس دخل العراق فقضى حاجته ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ ميسان ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط مكايده (وقال عليه السلام) الجزة (لعلها الجزيرة) روضة من رياض الجنة ومصر خزائن الله فى أرضه وكما قال عليه السلام ، وأن أهل مصر معافون من الفتن ما يريدهم أحد بسوء إلا صرعه الله وما يريد أحدهم هلاكهم إلا أهلكه الله وما يقصدهم أحد بسوء إلا كب الله وجهه . ونهرها نهر العسل وماؤه من الجنة وكفى بالعسل طعاما وشرابا . فهناك أحاديث كثيرة فى حق مصر . غير أن كاتب هذه السطور قد اكتفى بهذا القدر وقد مدحها كثير من العلماء والمشايخ والأدباء والشعراء وضمنوا مؤلفاتهم أوصافها ومحاسنها وخواصها . حتى أن الشيخ الكندى قال فى حقها . لا يعلم فى أقطار الأرض قاطبة قطر كمصر أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالكرم والخير . كما أن كلا من الأئمة الشافعى والليث وعمر بن الفارض قد بالغوا فى مدح مصر والإشادة بفضلها حتى جعلوها كأنها إرم ذات العماد . هذا وكان النبى عليه السلام يمدح مصر وبنوه بفضلها حينما كان يرغب الصحابة الكرام فى فتحها وما كان يقدم على غزوها لاشتغاله بمهام

أخرى عاجلة مثل الغزوات النبوية وإرسال البعوث والسرايا إلى الأطراف قائلا أن الأمور مرهونة بأوقاتها . ودام الحال على ذلك حتى التحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وذلك لحكمة من الله سبحانه وتعالى . وقد انتقلت خلافته عليه السلام إلى أمير المؤمنين سيدنا أبى بكر الذى زادت فى عهده الحوادث تفاقما ونشأت مشاغل كثيرة صرفته عن الاهتمام بأمر مصر حتى لبى نداء ربه فتوفى إلى رحمة الله وانتقلت الخلافة إلى سيدنا الفاروق الذى تم على يديه فتح مصر .

الفصل التاسع

ذكر فتح مصر فى عهد خلافة عمر بن الخطاب على يدى عمرو بن العاص رضى الله عنهما

أجمع المؤرخون على القول بأن فتح مصر على أيدى المسلمين لأول مرة كان فى خلافة سيدنا عمر بعد ثمانية عشر عاما من انتقال الرسول حيث كان الملك هرقل (خرقيل) قد استولى على القدس الشريف ، الأمر الذى حدا بسيدنا عمر إلى تجريد حملة عسكرية قوامها أربعون ألف جندى على القدس واستعادتها منه . ثم أرسل من هنالك عمرو بن العاص المقداد بن الأسود بأربعين ألف جندى إلى مصر لفتحها وعاد هو إلى مكة[1] . هذا وقد اختار عمرو بن العاص فى بادئ الأمر جيشا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة فارس من أبطال العربان وأربعة آلاف من المشاة المنتخبين من العرب الشجعان وسار بهم ليل نهار يقطع المراحل ويطوى المنازل قاصدا أرض مصر إلى أن وصل مكانا بين الرملة والعريش قرب مصر فاستراح به برهة جاءه خلالها رسول من قبل سيدنا عمر يحمل خطابا منه يتلخص فيما يأتى :

«يا عمرو : إن كنت حين يأتيك كتابى هذا قد وطئت قدمك أرض مصر فسر بها وازحف عليها وليسهل الله أمورك . وإلا ـ إن كنت لم تدخلها بعد ـ فعد من حيث أتيت بعسكر المسلمين ؛ لأن حربا وقعت فى العراق تقتضى عودتك» . ولما تلى هذا الخطاب بادر عمرو إلى جمع أهل الرأى وأعيان تلك الجهة لديه وسألهم بقوله هل العريش هذه من أرض مصر أم هى من فلسطين فأجاب الجميع بأنها من أرض مصر وأنهم الآن متوغلون فيها بمقدار مرحلتين . وعند ذلك كتب عمرو رده إلى سيدنا عمر ثم أخذ يرحل بالجيش ومعه الهجانون نحو مصر ، موفداً من قبل سيدنا عمر ومتوكلا على الله الملك القدير . وكان ذلك فى الوقت الذى يتحصن الملك المقوقس بمصر القديمة منتظرا مصيره على ما ستجرى به الأقدار وما تأتى به كتبه ورسله إلى عمرو بن العاص .

ومن جهة أخرى كان ملك الروم (هرقل) اللعين قد أعد جيشا كثيفا أرسله من أنطاكية وطرابلس وعكا فى ألف سفينة إلى فضاء بلبيس الفسيح حيث وقعت المعركة

---

(١) هذا الكلام فيه خلط كثير ولم يرد فى أى كتاب من كتب التواريخ التى ذكر المؤلف أنه اعتمد عليها وقرأها . (د .عزام) .

الدامية التى استمرت شهرا كاملا ، كان القتال فيها سجالا بين الطرفين إذ استعملا جميع أنواع الأسلحة وأدوات القتال والفتك ومعدات الدمار وكأنهما بحران يتلاطمان تلاطما صاخبا . ففريق منهما من جيوش الدين المبين والآخر جماعة أهل الشرك منكرى الدين وقد باع كلا الفريقين أرواحهم رخيصة فى ساحة الوغى [حيث تمزق الحراب والسيوف والجواشن والخوذات فتبارح الأرواح الأجساد مودعة وتتركها جثة هامدة [(١)]] إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فخرجوا من المعركة ظافرين منتصرين على أعدائهم الكفار الذين جرّوا ذيل الفشل والخزى والعار . وهنا حضر رسول من مصر من طرف المقوقس الذى يسمى ب(أسقف القبط) يحمل كتابا منه إلى عمرو ، فحضر هزيمة الروم وانكسارهم ورأى ذلك بعينيه ولما عاد إلى مصر أخبر المقوقس بما رآه فأخذ القبط يطمعون فى الروم ويتحرشون بهم .

ثم بارح عسكر الإسلام مكان المعركة وحط رحاله فى مكان يقال له (قواصر) وضربوا به خيامهم وقد رأى الشعب القبطى (القبابطة) ما عليه المسلمون من قوة وشوكة فتعجبوا من بسالة الجندى العربى قائلين أليس هؤلاء الجنود هم جنود محمد العربى الذى يحبه ملكنا المقوقس ، أليسوا هم الذين أينما توجهوا نالوا النصر والظفر ولا محالة ثم رحل الجيش الإسلامى من بلبيس متوجها نحو مكان يدعى أم دنين على مقربة من (الخانكة) وأقام به . ثم خرج جيش للعدو من مصر القديمة والتقى بالجيش الإسلامى فى صحراء (الخانكة) مرة أخرى . وبعد قتال دام سبع ساعات إلى أن غربت الشمس انعقد الصلح بين الطرفين وقد استشهد فى ذلك اليوم من الصحابة الكرام سبعون نفرا (رحمة الله عليهم) . وفى صباح اليوم التالى جاءت نجدة للإسلام من طرف عمر [(٢)] قوامها أربعة آلاف جندى من الأبطال المختارين فأعاد الحياة والنشاط إلى قلوب المسلمين ، إذ بادروا فى ذلك اليوم إلى ضرب نطاق الحصار على (قلعة بابليون) حيث وقعت أمامها معركة حامية أقدم عقبها كل من الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود على اقتحام المهالك ، بالولوج من الثغرات التى فتحتها المنجنيقات فى سور القلعة . وتم فتح القلعة على هذا المنوال بأسرع مما كان يتوقع . وقد وقعت غنائم كثيرة وأموال وفيرة فى أيدى الغزاة والمجاهدين المسلمين .

---

(١) هذه الفقرة ترجمة بيت شعر تركى فى وصف المعركة (المترجم) .

(٢) وهذا خلط آخر لأن قصة المدد معروفة .

ومن نعم الله تعالى الخفية وأفضاله ، أن وردت يوم الفتح نجدة أربعة آلاف من الأبطال راكبين ألفى هجين يتقدمون مثنى مثنىً . وبذلك صار عدد جند المسلمين ثمانين ألفا ، كما أن كتب التشجيع والحث جاءت من سيدنا عمر فأثارت السرور والغبطة والبهجة بين المسلمين . وقد استقر رأى عمرو بن العاص بعد المشورة والتداول ، على نهب الجوانب الأربعة لمصر وتدمير أطرافها وضرب نطاق الحصار عليها[1] ثم التوجه نحو قلعة الإسكندرية . وأخذوا يقطعون المراحل والمسافات فى إقليم البحيرة حتى وصلوا إلى قلعة الإسكندرية وحاصروها حصارا شديدا ؛ بيد أن طريق البحر كان مفتوحا للمحصورين فكانت النجدات تأتى لهم عن هذا الطريق دوما . ومع ذلك شدّد الجند الاسلامى الحصار عليهم حتى اضطر القبط بعد تسعة شهور أن يخرجوا من القلعة طالبين الأمان فأجيبوا وذهبوا سالمين إلى مدينة (حوش عيسى) القريبة من دمنهور . فى حين أن الجنود التابعين للملك (هرقل) اللعين إتباعًا لرأى مليكهم هذا وتدبيره قد أصروا على مواصلة الحرب رافضين الصلح والتسليم . وأخيرا حينما هلك هرقل ودب الخلف بين المحصورين بالإسكندرية من كفار الروم ، علم المسلمون بجلية الأمر فانتهزوا الفرصة وهاجموا القلعة من الجهات المتهدمة من أسوارها ، ففتحت قلعة الإسكندرية الحصينة الجميلة التى كأنها قطعة من الفردوس فى يوم الجمعة من شهر المحرم من السنة العشرين الهجرية . وقد لاذ بالفرار والهرب كل من بقى من الكفار أحياء ولجأوا إلى المراكب والسفن التى توجهت بهم إلى عكا وصيدا . ومنهم من جرب حظه بضرب الرمل فذهب إلى الرملة . وقد دخلت الجيوش الإسلامية المدينة وأحالوا أديارها وكنائسها جوامع وتكايا حيث تقام فيها إلى اليوم الشعائر الإسلامية المحمدية . وقد أرسل عمرو ابن العاص بشرى الفتح المبين لسيدنا عمر مع عشرة آلاف صندوق من الذهب ومئات الألوف من الأسلحة والعتاد والهدايا ، ولما وصلت هذه الأنباء السارة والهدايا العظيمة إلى سيدنا عمر أرسل إلى عمرو بأوامر ومراسيم يقول فيها عليك بالاستيلاء على مصر ولا تحاول الزحف إلى القلاع الساحلية فان المحافظة عليها لمن أصعب الأمور لتعرضها لاستيلاء الكفار عليها كلما أرادو ذلك ؛ بخلاف الجهات المتوغلة فى البر فانهم ينهزمون بها بأمر الله فورا . وكان مع رسول الخليفة خلع فاخرة لعمرو بن العاص وقواد جيشه وضباطه .

---

(١) لا ينظر إلى قصص المؤلف فى هذا الصدد فهو يخلط قليلا من الحقائق بكثير من الأباطيل (د . عزام) .

هذا وقد غنم العسكر الإسلامى فى الإسكندرية أموالا كثيرة من الأسلاب والغنائم حتى ليقال أن أدنى واحد منهم قد خصه مائة ألف دينار ذهب من دنانير (دقيانوس) ومثلها من الأمتعة والسلع .

هنا تذكر عمرو بن العاص القائد العظيم ما كان قد سبق له من قدومه فى العصر الجاهلى من القدس إلى الاسكندرية ونزوله ضيفا على الخواجه (شماس) فى بيته ، وكيف أنه ذهب إلى ميدان الصولجان (حلبة السبق) ثم سقطت كرة الصولجان على رأسه فبحث عن صديقه الخواجة شماس حتى وجده طريح الفراش وقد بادر إلى معالجته بضعة أيام حيث شفى مما ألم به فأهداه من الأموال ما يقدر بأحمال سبعين جملا . ثم دعاه إلى الدخول فى الإسلام . وما وسع الخواجه شماس إلا أن لبى طلبه وتشرف بالدخول فى دين الإسلام .

هذا وقد أرسل الملك المقوقس إلى الغزاة المسلمين بالإسكندرية من المؤن والأغذية المجموعة من قرى الأطراف والضواحى شيئا كثيرا . ومع ذلك فهو نفسه كان متحصنا مع الجند الرومى فى مصر القديمة وكان مضطرا إلى هذا لأنه فى ديارهم . وسنذكر إن شاء الله تفاصيل وصف الإسكندرية فيما يأتى من السطور .

هذا ، ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات العظيمة إلى مسامع الخليفة عمر اغتبط بها أيما اغتباط ، وقد سر بها أيضا جميع الصحابة الكرام وأقاموا مع أهل مكة والمدينة البشائر وعلائم الانشراح والسرور وصدرت الأوامر العالية من عمر إلى عمرو بن العاص رضى الله عنهما بإسناد حكومة مصر إليه بالاستقلال والتفويض التام فتفرغ لتصريف شئون الدولة بالعدل والمساواة مع الاهتمام بعمران البلاد وتقدمها ، حيث شرع فى إنشاء جامع كبير وحمام فى المكان الذى كان قد ضرب فيه خيمته حين محاصرته لمصر وقد سموا الحمام باسم « حمام الفاره» لأنه ظهر فى أساس الحمام مغارة مليئة بالفئران التى انتشرت منها إلى جميع أنحاء الدنيا وكأنما كانت هذه المغارة كنزا مطلسمًا مملوءاً بالفئران .

وفى هذه السنة أيضا كان بناء عمرو بن العاص قلعة بجهة مدينة الجيزة ، كما أنه بنى فى جزيرة أم المقياس قلعة أخرى سماها قلعة الروضة ولا تزال تسمى كذلك فهى روضة من رياض الجنة إذ فيها آثار الأبنية القديمة ظاهرة وقائمة .

هذا ومن القبائل العربية التى أطاعت عمرو بن العاص بأطراف مصر قبيلة بنى مالك ابن هابر [حابر، خابر] ثم قبيلة (بنى يشكر) القاطنين بجبل الكبش وهم الذين بنيت مدينة الفسطاط فى مكان خيمتهم المسماة فسطاط . وهذا المكان كان يسمى جبل الكبش، إذ كان هناك فى عهد الكهنة القدماء كبش مصنّع مطلسم كلما رفس وحفر الأرض برجليه كثر الغنم بمصر . ومنها قبيلة (بنى حجر) وقبيلة (بنى سيف) وقبيلة نافع وقبيلة (همدان) . فجاءت هذه القبائل كلها وقدمت الطاعة لعمرو بن العاص العربى وتوطنوا فى البلاد الممتدة من الجيزة إلى الغرب حتى (أوجله) . وكذا أطاعت قبائل (ابن همام) وقبيلة (بنى جواره) وقبيلة (بنى عابد) وأقامت فى الصعيد الأعلى . ثم أن الملك المقوقس قد أعطى عمرو بن العاص خزينة من الذهب المُمَسَّك ورجاه بأن يسمح له بأن يتخذ قمة جبل المقطم الذى يقع فى اتجاه القبلة والمطل على القلعة وطنا له يقيم به . ولكن عمرو بن العاص لم يقبل الذهب المعروض ولا ملمسه، بل كتب فى شأنه إلى عمر فى المدينة يستشيره فى ذلك . فجاء جواب عمر يقول يا عمرو إن ذلك المكان المطلوب لأرض مباركة فاجعلها قرافة (مقبرة) لموتى المؤمنين لأن فيها قبر سيدنا عامر بن المغافرين فهو مدفون فى التربة الأولى وبها أيضا قبور خمسة من المشفعين . وكذا قبور عبدالله السحيمى بن حذافة . وعبدالله والحارث من مدينة (زبيد عيش) موجودة بها، كما أن بها قبرى أبى ناصر الغفارى وعامر بن عقبة الجهينى، هذا إلى مئات الألوف من الأنبياء والمرسلين قبل الطوفان وبعده من أولاد الأنبياء والرسل عليهم السلام . فلا يجوز أن تكون تلك الأرض إلا مقبرة وقرافة للمسلمين . وهكذا امتنع عمرو بن العاص عن تسليم الأرض للمقوقس وصارت حتى الآن قرافة كبرى للمسلمين دفن بها كبار الكُمل من المصريين وسيأتى ذكرهم فى محله فيما بعد .

هذا على قول ابن الحكم رحمه الله أن الأراضى الممتدة من القدس الشريف ومن جبل خليل الرحمن بجوارها إلى جبل عرفات المشرف على مصر ومنها إلى الرها الواقعة بساحل نهر الفرات مارة بحلب وأريحا واللاذقية وعلى طول شاطئ البحر حتى بلاد مصر كلها أراض مقدسة، كما يروى كعب الأحبار مثل هذا القول . ولكن بعض المفسرين والمحدثين وغيرهم من المؤرخين متفقون على أن (أرض حاسان) هى مدينة بلبيس وأن الأراضى التى بعدها حتى مصر ليست بأرض مقدسة (فأى هذه الأقوال صحيح) .

بيد أن التواريخ القبطية تذكر أن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشر . وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء (إدريس ودانيال وعزير) . إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضا شديدا ونام سبعة أيام فى ظل جبل المقطم شفى بإذن الله . وفى طلوع الشمس من وراء هذا الجبل يمتد ظل الجبل حتى مصر العتيقة الواقعة على شاطئ النيل . وعلى قول وهب بن سفيان أن الأرض التى يقع عليها ظل جبل المقطم تسمى كلها أرضا مقدسة لأن مئات الألوف من الأنبياء وأولاد الرسل قبل الطوفان مدفونون بها ، فضلا عن أن ثلاثمائة وأربعين من الصحابة الكرام مدفونون بها وفى جامع مصر وداخلها ، فلهذا كانت أرضا مقدسة ، لاشك فى ذلك . وفى قول آخر أن مصر عمرت فى عهد حكومة عمرو بن العاص وازدهرت حتى صارت عروسا كأنها زفت من أمها حديثا .

وكان الملك طوطيس قد أسال نهر النيل إلى بحر السويس فى عهد سيدنا إبراهيم وبعد ذلك حينما سمع والد الملك المقوقس . . . بطلوع شمس صاحب الرسالة المحمدية بادر إلى سد ذلك الخليج نكاية بالرسول ولبث النيل لا يصل إلى السويس كما كان عهده ، إلى أن جاء عمرو بن العاص ففتح الخليج وأخذت مراكب النيل تسير حتى السويس حاملة الحبوب والغلال حيث تنقلها المراكب الكبيرة إلى جدة وينبع فيأخذها أهالى مكة والمدينة ويتمتعون بها مسرورين . لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح أربعة أبواب من الجنات على وجه الأرض . أحدها على بندر جدة والثانى على ولاية عسقلان والثالث على ولاية جاوينيه؟ (Gaviniye) والرابع ولاية الإسكندرية التى هى بلاد مصر ، والسلام .

هذا ولما انتقل الخليفة عمر إلى رحمة الله فى المدينة تولى الخلافة بعده عثمان ، وقد انتقل إلى رحمة الله عمرو بن العاص فى مصر فى عهد هذا الخليفة الذى بادر إلى إسناد حكومة مصر إلى محمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق ، إلا أن كاتبه مروان بن الحكم كان يرى غير ذلك فلذا بادر إلى حيلة ماكرة فكتب على لسان الخليفة عثمان مرسوما إلى أهل مصر يقول فيه (إذا جاء الأمير فاقبلوه) ولم ينقط كلمة (فاقبلوه) وختمه من سيدنا عثمان ثم قلب الباء تاء فصارت (فاقتلوه) وأعطى مروان هذا المرسوم لنجاب خاص وأمره بإيصاله إلى مصر . ولكن حكمة الله وتقديره العزيز أوقعت هذا النجاب

والمرسوم فى أيدى رجال محمد الأكبر فبادر هذا إلى إرسال هذا الكتاب المزور إلى المدينة فيعرضه أهل المدينة على الخليفة عثمان يسألونه عن سر ذلك فقال عثمان ليس لى علم بذلك وعندئذ ثار أهل المدينة وطالبوا بتسليم الكاتب مروان إليهم للفتك به ، بيد أن الخليفة امتنع عن تسليم كاتبه وتحصن بسرايه وبقى فيها أربعين يوما حيث اقتحم الثوار القصر فى اليوم الواحد والأربعين وأذاقوا الخليفة عثمان كأس الشهادة وهو يتلو القرآن متعبدا . كما سبق ذكر ذلك فى وصف المدينة المنورة فيما تقدم من السطور .

هذا وقد انتقلت الخلافة بعد هذه الحوادث إلى سيدنا على رضى الله تعالى عنه ، غير أن الأمور اضطربت واختل نظام الدولة اختلالا كبيرا فزادت الفتن والقلاقل فى مصر لدرجة أن الجند كان يعزل حاكما وينصب آخر فى يوم واحد .

وسنبين أسماء من ملكوا من الأمة المحمدية مصر من ذلك العهد حتى عهد السلطان محمد الرابع ومن قصدوا الخروج على السلطان والاستقلال بها ، وشرح أحوالهم وأوصافهم وألقابهم ومدد حكمهم وعدد من ملكوا منهم .

الفصل العاشر
فى بيان السلاطين وغيرهم من دول الملوك
مع ذكر دولة آل عثمان حتى عهد السلطان محمد خان الرابع
ابن ابراهيم خان

يقول (أوليا) البرئ من الرياء : إن الباعث على تأليف هذا الكتاب المستطاب ، وتحرير هذه الأوراق هو بيان أول من سكن الأر ض واستوطنها كما سبق ذكره ، فبحسب أقوال مؤرخى الروم وغيرهم من أصحاب العقل والفهم . أن أبا البشر آدم صفى الله أول من ظهر فى أديم الأرض وانتشر فيها أولاده حتى استولى على جميع الأنحاء من كل الجهات ، غير أن هناك خلافا كثيرا فى أصناف الأمم الغابرة والملوك السابقة . ومما لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى الحى القيوم اقتضت حكمته الباهرة أن يخلق مصر وبلاد الفيوم أولا وقبل كل شئ لتكون مقام الأمة المحمدية المصطفوية وموئل الأنبياء والرسل ومقر السلاطين والملوك الكثيرة .

هذا وما دخلت سنة ٢١ هـ إلا وقد دخلت مصر أيضا لأول مرة فى قبضة عمر من خلفاء سيدنا الرسول وكان ذلك على يدى عمرو بن العاص رضى الله عنهما . ومصر جزيزة محسوبة من بلاد المغرب تشبه جزيزة الانجليز من حيث الحجم والمساحة حيث تبلغ ثمانية آلاف ميل فيها ثمانية عشر ملكا لكل منهم سكة مستقلة . ومع كل هذه الأبهة والعظمة انقادوا لعمرو بن العاص وقدموا له الطاعة خائفين . فى حين أن كثيرا من الفاتحين والقواد العسكريين قد هاجموا مصر سابقا فى مدد مختلفة بجيوش جرارة ومحافل عظيمة ، فلم ينالوا منها شيئا ورجعوا على أعقابهم خائبين خاسرين ، يدفعون لها الجزية عن يد وهم صاغرون . وما ذلك إلا لأن عمرو بن العاص كان فى غاية من الشجاعة وعلى جانب عظيم من البسالة والإقدام ، فضلا عما اشتهر به من فرط الذكاء والدهاء .

ويطلق على أصحاب الرسول الذين تولوا الخلافة من بعده ، (الأربعة الأصحاب المصطفون) وتارة (أمراء المؤمنين) وتارة أخرى (الخلفاء الراشدون) وقد انتهت الخلافة فى الإمام الحسين . وأما الإمام الحسن فقد تنازل عنها طواعية ورضى ليزيد بن معاوية[1]

(١) الصواب أن نزول الحسن عن الخلافة كان لمعاوية (د . عزام) .

الذى خرج أخيرًا من الشام بألوف من جنوده اليزيدية إلى الكوفة حيث حارب بهم الإمام الحسن لامتناعه عن مبايعته ، الأمر الذى أفضى إلى نشوب القتال فى ظروف عصيبة واستشهاد الإمام الحسين فى سنة ٦١هـ وهكذا انفرد يزيد بملك الشام واستقل بالبلاد .

هذا وكان والد يزيد هو معاوية كاتب الوحى

آل أمية

يقال انهم أربعة عشر نفرا . أولهم معاوية وأمه (هند بنت عتبة بن عبد شمس) وقبل أن يتزوجها أبو سفيان والد معاوية ، كانت زوج أبى عمرو حفص بن المغيرة المخزومى . وقد ولدت ابنها معاوية من أبى سفيان . هذا وكان عمر معاوية حينما تولى الخلافة ثمانية وخمسين عاما وقد حكم تسع عشرة سنة وثلاثة شهور . وعاش ثمانية وسبعين عاما . وبعده تولى الخلافة يزيد بن معاوية فحكم ثلاثة سنوات وثلاثة شهور . وعاش ستا وثلاثين سنة ثم هلك فى الشام . ويقال إن أبا مسلم ـ وفى رواية تيمور لنك ـ قد فتح قبره ونبش تربته حيث وجد جثته غضة سليمة فأحرقها بالنار . وتولى الخلافة بعده معاوية بن يزيد ثم مروان بن الحكم ثم عبدالملك بن مروان ثم الوليد بن عبدالملك ثم عبدالملك بن الوليد وبعده سليمان . ثم عمر [بن عبدالعزيز] ثم يزيد بن هشام ثم وليد . وبعده ابراهيم ثم مروان الحمار . وهو الخليفة الأموى الذى اقتتل هو وجيوش العباسيين فى شاطئ الفرات . . . . وانهزم ولاذ بالفرار إلى مصر لاجئا إلى قرية تدعى بوصير فى الجانب الغربى من النيل تجاه مصر القديمة حيث أدركه كل من عامر بن جزُجانى وعبدالله بن مازن وحزا رأسه ووضعاها على الرماح وأرسلاها إلى أبى مسلم . وبذلك انقرض الأمويون وكانت مدة حكمهم ٩١ سنة فى العراق العربى والعراق العجمى وبلاد المغرب وفى سبعمائة جزيرة . وهؤلاء الأمويون هم الذين عينوا أبا أيوب الأنصارى قائدا للحملة المرسلة لفتح القسطنطينية ، حيث تمكن من الاستيلاء على نصف مدينة إسلامبول .

هذا وتفصيل أحوال الأمويين وآثارهم مذكورة فى وصف بلاد الشام[فى المجلد التاسع ص ٥٢٩ ـ ٥٦٥] فليرجع إليه . وقد انتقلت الخلافة بعدهم إلى آل عباس وقد تولوا الخلافة (سنة ١٣٢هـ ـــ ٧٥٠م) .

وصف دولة العباسيين

عدد ملوكهم جميعا سبعة عشر نفر . أولهم المستنصر بالله الذى ملك مصر . ومنهم عشرون قد ملكوا بغداد . فيكون مجموعهم بمن ملكوا مصر ٣٧ ملكا . ولقد انقرض عباسيو بغداد فى أيام المستعصم فكان أولهم بها عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب . وقد بلغ حكمهم جميعا خمسمائة وأربع وأربعين سنة . وسيأتى ذكر انقراض العباسيين الذين كانوا بمصر فى شخص المتوكل على الله بن محمد بن المستمسك بالله يعقوب . وتفصيل ذلك وسببه هو أن الناصر الطوسى قد حرض « هولاكو » على الزحف على بغداد والاستيلاء عليها . فجاء المشار إليه وقتل الخليفة المستعصم بالله . وكان المستنصر عندئذ فى صحارى بغداد وبوادى العراق هائما على وجهه من خوف التتر الزاحفين لا يستطيع العودة إلى بغداد . فما كان من ملك مصر الظاهر بيبرس إلا أن أرسل إلى المستنصر يدعوه إلى مصر . وقد وفد المستنصر إلى مصر وجلس على عرش الخلافة سنة ٦٥٩ هـ مستقلا حيث بايعه الظاهر بيبرس ومعه جميع أعيان مصر وقد صار صاحب سكة وخطبة ثم غادر مصر على رأس جيش جرار إلى الشام ومنها إلى بغداد ، تاركا حكم مصر مرة أخرى إلى الظاهر بيبرس . فوصل بغداد وأعاد حكم العباسيين إليها مرة أخرى[١] .

هذا وكان فى ذلك العصر أيضا الحاكم بأمر الله من العباسيين يقيم فى قلعة الكبش بمصر خوفا وفرارا من هلاكوخان[٢] ، فعاش باسم الخلافة بها إحدى وأربعين سنة . ولم يكن أحد من الخلفاء يشبه الحاكم فى انغماسه فى الشهوات وخوضه فى السفاهات . وكان قد تعطل عن الحكم فى عهد الملك المنصور محمد بن قلاوون الذى كان موجودا فى السنة العاشرة بعد السبعمائة من الهجرة النبوية وقد كان الحاكم يتوارى حياء من الناس . وفى آخر الأمر أمرت به أخته فقُتل . وجلس ابنه المستكفى بالله بن سليمان الحاكم بأمر الله المولود بمصر على سرير الخلافة عوضا عن والده فى قلعة الكبش ؛ بيد أن الحكم الحقيقى كان فى يدى الظاهر بيبرس سنة ٧١٠[٣] . فلذا كان بين المستكفى بالله هذا وبين الظاهر بيبرس خلاف عظيم من جراء وشاية المنافقين وسعاية الدساسين ،

(١) ، (٢) هذا غير صحيح . (د . عزام)
(٣) هذا غير صحيح (د . عزام)

فأفضى هذا إلى ارتحال المستكفى بخدمه وحشمه إلى قوص فى الصعيد الأعلى حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٧٣٧ هـ .

ثم ظهر أن الحاكم بأمر الله كان فى حياته قد لقب ابنه محمدا بالخليفة المستكفى بالله . وقد توفى إلى رحمة الله صغيرا قبله فلذا عين ابنه الصغير خليفة ولقبه المستكفى بالله ، بيد أن الملك الصالح لم ينفذ الوصية وفضل ابن أخيه ابراهيم عليه وجعله خليفة وسماه الواثق بالله . ولما كان هذا ميالا للعب واللهو ، فقد نفى إلى قوص فخلفه محمد بن ابراهيم فى الخلافة وهذا أيضا كان سفيها رذلاً فأبعد إلى قوص . وقد دفنوا بها . وبعد ذلك صار أحمد بن المستكفى بالله سليمان خليفة بمصر ودامت أيامه ثلاث عشرة سنة حيث مات فى طاعون سنة ٧٥٣ بمصر فى عهد الملك الصالح ابن الملك الناصر ودفن بجوار السيدة نفيسة . وبعده تولى حكم مصر المعتضد بالله ، ولما مات هذا ودفن أيضا بجوار السيدة نفيسة تولى الخلافة المتوكل بالله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر فى مصر .

وفى سنة ٧٨٥ هـ تولى الخلافة برقوق من الجراكسة فبادر إلى خلع المتوكل من الخلافة بحجة أنه طامع فى السلطنة وقد حبسه فى قلعة الجبل ستة أشهر أخرجه بعدها من الحبس وعينه خليفة . وفى سنة ٧٩٧ بعث يلديرم بايزيد خان من سلاطين آل عثمان رسولا إلى الخليفة المتوكل هذا يجدد بيعته من باب التبرك به ، فدعا له الخليفة بالخير والتوفيق . وردّ رسول السلطان ومعه منشور شريف وسجادة ثمينة نفيسة .

هذا وقد استمر حكم الخليفة المتوكل من عزل وتنصيب وحبس ثم تنصيب خمسا وأربعين سنة حيث توفى إلى رحمة الله بعد ذلك فى عهد فرج بن برقوق ودفن بجوار السيدة نفيسة . ولقد كانت الأحوال العامة سيئة جدا فى مصر والشام في عهد المتوكل هذا ؛ إذ هاجم تيمور لنك أخيرا بلاد الشام سنة ٨١٦ هـ ودمرها تدميرا وكان ذلك فى وقت انقطع فيه فيضان النيل وعم القحط والغلاء البلاد وظهرت الفتن والفساد بها من جراء ذلك . ثم تولى الخلافة الواثق بالله عمر بن ابراهيم ابن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله وقد توفى إلى رحمة الله فى مصر سنة ٧٨٨هـ وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة . ثم جاء بعده المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله محمد ، فبقى فى الخلافة ٣٣سنة حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٨٤٥ هـ وقد سار فى جنازته السلطان چقمق ،

وقد دفن بجوار السيدة نفيسة . وخلفه أخوه المستكفى بالله سليمان (ابن) المتوكل على الله محمد فى منصب الخلافة ولبث تسعة شهور فقط إذ توفى إلى رحمة الله وحضر جنازته أيضا الملك الظاهر السلطان چقمق وقد دفنوه عند أخيه المعتضد فى قبة بجوار السيدة نفيسة . وتولى بعده القائم بأمرالله حمزة بن المتوكل على الله محمد وقد غضب عليه بعد خمس سنوات من خلافته ، سلطان مصر (اينال) ونفاه إلى الأسكندرية فمات بها سنة ٨٦٣ هـ حيث دفن بجوار أخيه المستعين بالله . وبعده تولى الخلافة المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد ، مدة (٢٥) سنة حيث مات سنة ٨٨٤ هـ وقد حضر جنازته السلطان قايتباى . ودفن أيضا مع سائر آل عباس فى المدفن الخاص بهم بجوار السيدة نفيسة . ثم صارت الخلافة إلى المتوكل على الله وجاء بعده عبدالعزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله فتولى الخلافة (١٩) سنة ومات سنة ٩٠٣ هـ ودفن بجوار السيدة نفيسة فى عصر الملك الناصر محمد السلطان قايتباى .

ثم جاء المتوكل على الله بن المستمسك بالله يعقوب ، الذى كان فى عهد فاتح مصر السلطان سليم الأول منزويا ومنقطعا عن الناس وقد اصطحبه السلطان فى عودته إلى إسلامبول حيث أكرم وفادته وبالغ فى إكرامه حتى توفى السلطان سليم إلى رحمة الله وتولى السلطان سليمان القانونى فأكرمه أيضا إكراما زائدا حتى أغرقه فى بحار إحسانه وإنعاماته الشاهانية . فهذا الخليفة هو الذى قلد السلطان سليمان فى جامع أبى أيوب الأنصارى لأول مرة سيف الخلافة وبايعه على ذلك . لأن هؤلاء العباسيين هم الخلفاء القدماء . ومن الغريب أنه لما جاء المتوكل على الله هذا نعيُ أبيه المستمسك بالله فى مصر ، أذن له السلطان سليمان فى السفر إلى مصر محفوفا بالتجلة والإكرام ليحل محله فى الخلافة . وهكذا دامت أيامه ٢٣ سنة حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٩٠٥ هـ فى عهد ولاية «درويش باشا» لمصر . وقد دفن بجوار السيدة زينب ، فانقرض به آل عباس بمصر أيضا إذ كان المتوكل على الله هذا آخر خليفة منهم بها . وكان عددهم ١٧ نفرا بلغ مجموع مددهم ٣٣٢ سنة .

هذا وكانت خلافة هؤلاء العباسيين بمصر اسمية وتعظيمية فقط ؛ لكونهم من آل عباس العظام ، أما أمور الربط والحل والعقد والقبض والبسط من مظاهر السلطان والقوة فكانت فى أيدى الجراكسة قوة واقتدارا وما كان عليهم إلا أن يأخذوا منهم البيعة لأنفسهم .

هذا ويطلق على هؤلاء الخلفاء ، خلفاء رسول الله وقد جاء بعدهم :

دولة آل طاهر

هم ملوك البلاد الخراسانية عددهم خمسة وأولهم الخليفة طلحة ثم الخليفة عبدالله ثم الخليفة على ثم الخليفة محمد . . . . ومدد حكمهم جميعا تبلغ ٧٨ سنة ولم يملكوا مصر قط . وبعدهم .

الدولة الصفارية

وهؤلاء أيضا كانوا ملوكا لخراسان وبلخ والعراق وأصفهان . عددهم تسعة أولهم يعقوب بن الليث ثم عمر بن الليث وطاهر بن الليث فيطلق على هؤلاء «الليثيون» (الليطيون) وهم أبطال مشاهير بلغت مدة سلطنتهم ٥٢ سنة . ولم يملكوا مصر أيضا . وجاء بعدهم .

الدولة السامانية

كلهم تسعة ملوك أولهم اسماعيل السامانى وأحمد السامانى وناصر السامانى ونوح السامانى وعبدالملك السامانى ومنصور السامانى ونوح السامانى ومنصور السامانى وعبدالملك السامانى . هذا وعوضا عن أن يقال لهم سلطان أوخليفة يطلق عليهم لقب«سامان» فإذا أرادوا الجمع قالوا ، (السامانيون) . وقد حكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين وبلغت مدد سلطنتهم ١٢٨ سنة[١] وبعدهم :

دولة آل زيار

حكموا بلاد خراسان وجرجان وطبرستان والعراق . ويقال إن أنوشيروان كان قد اعتزم الزحف من بغداد إلى بلاد اليمن ولكى تبايعه اليمن قدموا له الطاعة فعدل عن ذلك . وعددهم ستة . يطلق المؤرخون عليهم هذه الأسماء : (مرداويج العادل) و(شمكير العادل) و(بيسترين العادل) و(قابوس العادل) و(منوجهر العادل) و(أنوشيروان العادل) . مدة سلطنتهم ١٥٤ سنة[٢] وقد روى أن النبى عليه السلام قال إنى ولدت فى عهد ملك الكفار أنوشيروان العادل . ولكنى لم أر ذلك فى التواريخ . ومما لاشك فيه أن أنو شيروان هذا قد عاش كثيرا . وبعدهم :

دولة آل بويه (الدولة البويهية)

هم سبعة عشر ملكا مدة سلطنتهم (١٢٧) سنة[٣] . وبعدهم

(١) ، (٢) ، (٣) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خال فى الأصل . (د . متولى)

الدولة السبكتكينية (دولة آل سبكتكين)

هم أربعة عشر ملكا مدة سلطنتهم ١٧٦ سنة . وبعدهم :

الدولة الغورية (دولة آل غورة)

هم خمسة ملوك مدة سلطنتهم ٦٩سنة[١] بعدهم :

الدولة الخوارزمية

هم تسعة ملوك مدة سلطنتهم ١٣٦ سنة حيث كانوا ملوكًا فى (خوارزم) بعدهم :

الدولة السلجوقية (دولة آل سلجوق)

السلاجقة ثلاث طبقات ، الطبقة الأولى حكام إيران وما وراء النهر وعددهم أربعة عشر ملكا[٢] . يقال لهم (سلاجقة إيران) مدة سلطنتهم (١٢٠) سنة[٣] .

الدولة السلجوقية الثانية

قامت ببلاد كرمان وعدد ملوكها ١١ ومدة سلطنتهم ١٥٩ سنة[٤] .

دولة سلاجقة الروم

هم أربعة عشر ملكا . قدموا فى الأصل من ما وراء النهر إلى ديار اليونان أعنى بلاد قرامان وقونيه وسيواس والروم فملكوها وتحكموا فيها . فيطلق على هؤلاء الملوك لقب «كيانية الروم» لأن أوائل أسمائهم مصدرة بلفظ (كَىْ) مثل كيقباء وكيخسرو وكى أرسلان . لأجل هذا سمى هؤلاء الملوك ب(كيانية الروم) .

هذا والسبب فى علو شأن آل عثمان ورفعة قدرهم ، هم هؤلاء الملوك الكيانيون وسيأتى ذكرهم فى محله إن شاء الله . بعدهم :

دولة تاج الدولة[٥]

هم ستة ملوك يطلق عليهم فى الألقاب السلطانية لقب (آل التاجية) حكموا الشام والعراق . ومدة سلطنتهم (. . .) سنة . بعدهم :

---

(١) ، (٣) السنة من وضع د . السعيد ، بمكانها خال فى الأصل (د . متولى)

(٢) عددهم ثمانية (انظر خليل أدهم ص٢١٤) . (د . السعيد)

(٤) سلاطين هذه الدولة ٦ ومدة حكمهم ١٥٠ عاما (انظر خليل أدهم) . (د . السعيد)

(٥) لعله تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان فهو رأس أسرة سلاجقة الشام . وعدد سلاطينها خمسة ومدة حكمهم ٢٤ سنة من٤٨٧هـ إلى ٥١١هـ (١٠٩٤ ـ ١١١٧م) انظر خليل أدهم ص٢١٥ . (د . السعيد)

الدولة الأتابكية (دولة آل أتابك)

قامت بدمشق الشام وملوكها ستة ومدتهم ٥٢٦ سنة . بعدهم

الدولة العمرية (دولة آل العمرية)

هذه الدولة ظهرت للوجود بعد مضى مائتى سنة من الهجرة النبوية حيث فتح أحد ملوكها الأمير عمر الموصل وجزيرة ابن عمر وآمد وملطية واتخذها دارا للملك ، عدد ملوكها ثلاثة أولهم الأمير زياد وابنه الأمير سقمان وابن هذا ، الأمير عمر الذى فتح ملطية . حيث انتقلت الدولة والحكم بعده لأولاد البنات . . . وقد بلغت مدة سلطنتهم . . . سنة . بعدهم

دولة أتابك الكبير

عدد ملوكها ستة . أولهم نور الدين الشهيد الذى كان ملك الشام وسلطانها حينما كاد الكفار يعمدون إلى إخراج النبى عليه السلام من قبره الشريف ، حيث جاءه الرسول فى المنام وقال له(أدركنى يانور الدين فأنقذنى) فبادر السلطان إلى المدينة المنورة وفتك بالكفار الذين قصدوا قبره الشريف بالسوء ، ثم أخذ يحيط التربة الشريفة بسياج من حديد وصُفْر ورصاص ملمع . وبذلك يكون نور الدين الشهيد ابن آق سنقر البرسيقى ، أول من بنى القلعة فى مدينة الرسول . وقد تملك هذا السلطان الشام والعراق وأذربيجان والبصرة والحسا وسيس وطرطوس وأذنة . بيد أن آل الأتابكية هؤلاء قد انقسموا إلى ست طبقات كل واحدة تتألف من ستة ملوك أولاها :

دولة آل الصلاحية

كان هؤلاء فى خدمة دولة نور الدين الشهيد . ولما هاجم فرنجة أسبانيا الأشرار بلدتى رشيد ودمياط بديار مصر واستولوا عليهما وأطلقوا بهما يد النهب والسلب استنجد أهالى مصر بالسلطان نور الدين الشهيد[1] . فما كان منه إلا أن عين من أمرائه وقواد جيشه ، أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، قائدين لحملة عسكرية قوامها مائة ألف جندى وأمرهما بالزحف على مصر . ولقد جاءا واستوليا على

(١)هذا خلط فالمعروف أن مجئ أسد الدين إلى مصر حدث لنصرة أحد وزيريها على الآخر . (د. عزام)

عسقلان ويافا ورشيد ودمياط حيث انتزعاها من أيدى الكفار ؛ الأمر الذى جعل أهل مصر يفتنون بشجاعة صلاح الدين وببسالته الفائقة . إذ صار حاكمها المطلق ولكنه لم يجعل الخطبة والسكة باسم مولاه نور الدين ، بل باسم الخليفة المتقى بالله من خلفاء الدولة العباسية ببغداد . ولما سمع نور الدين نبأ هذا الأمر بالشام تأثر من ذلك وبادر إلى طلب صلاح الدين يوسف ليحضر إليه بالشام ؛ بيد أن صلاح الدين ساوره القلق والخوف على نفسه فتلكأ فى الطريق وتباطأ ملتمسا لنفسه الأعذار والعلل . حتى أنه أخذ فى سنة ٥٧٢ هـ فى إنشاء قلعة مصر الداخلية بأموال الغنائم الكثيرة التى كان قد حصل عليها من الكفار . ثم بنى حول مصر من جوانبها الأربعة سورا عظيما بلغ طوله سبعة وعشرين ألف وثلثمائة ذراع مكى ولا يزال قائما حتى الآن . وفى أثناء ذلك جاءت الأخبار بأن السلطان نور الدين قد توفى إلى رحمة الله فأصبح صلاح الدين يوسف ملكا مستقلا بمصر . ثم استولى على الشام وحلب وهكذا خضع له فى (جزيزة مصر) السبعة عشر ملكا الذين بها .

وجملة هؤلاء الملوك الصلاحيين تسعة أنفار[١] ومدة سلطنتهم واحد وثمانون عاما[٢] .

وفى عهد صلاح الدين هذا ، قامت حرب ضروس سنة ٥٦٢ هـ بينه وبين الكفار الافرنج فى برج العظام لايزال صداها فى آذان الناس وتحكى أخبارها ووقائعها فى كتب التواريخ . وبالأموال الكثيرة التى اغتنمت فى هذه المعركة الدامية ؛ ابتنى رحمه الله مدرسة عالية بجوار الإمام الشافعى بمصر لاتزال آثارها ورسومها باقية على الدهر . ثم جاءت بعدهم طبقة أخرى من الأتابكية .

دولة أيوب بن شادى الكردى

يقول بعض المؤرخين إن يوسف صلاح الدين أيضا من هؤلاء الأيوبيين . وعدد ملوك هذه الدولة أيضا سبعة فمنهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى حاصر قلعة عكا أربعة وأربعين يوما خاض خلالها غمار حرب شعواء حتى فتحها فتحا مبينا . ثم بادر إلى هدمها هدما وجعل عاليها سافلها لكى لايستولى عليها الكفار مرة أخرى ، وسنذكر ذلك فى محله . وأعقبه الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين وهو مدفون فى جامعه . ثم جاء الملك الكامل وصار خليفة (كذا) وأعقبه الملك الأشرف ، الذى فى عهده سلمت القدس صلحا للافرنج فى سنة ٩٣٥ هـ . وبالجملة كان هذا الخليفة من

(١) عددهم تسعة (انظر خليل أدهم ص٩١) . (د . السعيد)

(٢) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خالٍ فى الأصل . (د . متولى)

الأيوبيين ، ساءت أعماله وصبت عليه الويلات والمصائب فمات كمدا وغيظا فى الشام وعمره ستون سنة ودفن بها . وتولى الملك بعد ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد مات بمصر ودفن بها . وهؤلاء هم آخر البحرية وكانت أولهم الملكة شجرة الدر خاتون وعددهم جميعا ٢٨ نفرا مدد سلطنتهم ١٣٦ سنة واشتهروا فى التاريخ باسم المماليك البحرية . وبعدهم :

دولة الجراكسة (دولة جراكزة)

لما كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى من السلاطين الأتراك ، ولى نِعَم الچركس والأباظية ، فقد أطلق على هؤلاء الچركس لقب (المماليك البرجية) . وقد جاء بعده الملك الكامل محمد الذى توفى بالمنصورة بالغا من العمر ستين عاما ونقل نعشه إلى مصر ودفن فى جامع (؟) وقد بنى هذا الملك فى مصر فى مكان يقال له بين القصرين أربع مدارس خصيصا للمذاهب الأربعة ، وأنشأ قلعة فى جزيزة الروضة لاتزال آثارها باقية . وجاء بعده المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب حينما توفى والده فى المنصورة ، إذ كان حينئذ فى بلدة « حصن كيفا» بكردستان . وقد أخفت والدته شجرة الدر خبر وفاة زوجها بالمنصورة حتى يعود ابنها المعظم تورانشاه من حصن كيفا سريعا بصحبه من بعثته إليه فجاء المعظم فى ثلاثة شهور إلى مصر التى كان الكفار قد احتلوها فانتزعها منهم وقتّلهم تقتيلا .

هذا وقد ثار مماليك هذا الملك العظيم عليه وقتلوه والتحق بالشهداء من الملوك والخلفاء فى سبيل الله . وانتقل الحكم إلى والدته شجرة الدر وهى الملكة التى كست الكعبة المعظمة بالأستار السوداء التى لاتزال تعد آثارًا إسلامية خالدة يطلق عليها اسم الكسوة الشريفة . ولم تتيسر هذه المأثرة العظيمة لملك من الملوك قط .

وتولى الملك بعدها زوجها المسمى أيبك التركمانى ملقبا بالملك المعز .

دولة آل كمانيان [1] [آل التركمان]

هم ستة ملوك ومن جنس الأتابكية . ولقد امتعضت شجرة الدر أخيرا من زوجها فاستاءت منه استياء بالغا وهو «أيبك» التركمانى السابق الذكر . إذ كان هذا سببا فى

(١) كذا فى الأصل وفى نسخة يلدز من الأصل (تركمانيان) بمعنى آل التركمان وهذا هو الصحيح . (المترجم)

مقتل ابنها المعظم تورانشاه ، وزاد الطين بلة أن تزوج عليها ابنة ملك الموصل ، فأثار كل ذلك حفيظتها عليه وأعطاها الفرصة لتأليب جواريها على زوجها حيث هاجمته فى الحمام . ولكنه لم يكن غافلا عما يدبر له من المكايد فأظهر سلاحه الذى كان قد أخفاه وأشهره فى وجوههن . وماذا يستطيع أن يعمل شخص واحد إزاء مائة امرأة ! وحينما كان هذا العراك دائرا كانت شجرة الدر تنظر إلى المعتركين من الشبابيك المنبثة فوق سطح الحمام فانهارت قبة الحمام بحكمة الله وسقطت شجرة الدر فى جانب أيبك التركمانى محطمة وهنا بادر خصمها إلى قتلها فورا ، تاركا الجوارى لحالهن . ولكن الجوارى انتهزن هذه الفرصة وهاجمنه جميعا هجمة واحدة فقتلنه شر قتلة . فلا يزالان مدفونين فى قبة واحدة جوار السيدة نفيسة فى حى المخللاتية بمصر ؛ كما أن ابنها الشهيد المعظم [تورانشاه] مدفون هناك أيضا . وبذلك انقرضت دول آل أيوب وانتقلت السلطة إلى مماليكهم . وقد نصبوا خلال ذلك على البلاد ابن أيبك التركمانى ، المدعو (على) البالغ من العمر الخامسة وهو من بنت ملك الموصل السابق الذكر ولقبوه بالملك المنصور . وقد حكم هذا ثمانية شهور وفى عهده عظم شأن هولاكو التترى . . . وهاك صنف آخر من الأتابكية .

دولة أكراديان [دولة الأكراد]

ملوك هذه الدولة تفرعوا من (شادى الكردى) وهم سبعة أيضا وقد اضطربت أمورهم فى مصر حتى اضمحلت دولتهم وذهبت ريحهم . ومدة سلطنتهم . . . . سنة بيد أن أعظمهم شأنا هو السلطان محمد الكردى وهو الذى أخذ بيد الإمام الشافعى وأتى به إلى مصر مرة أخرى . وبعد ذلك فتح بلاد النوبة سنة ٦٦٧هـ ثم انتزع طرابلس الشام من أيدى الإفرنج سنة ٦٨٧هـ . وتوفى إلى رحمة الله فى ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وعشرين يوما . وقد خلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين الذى زحف إلى عكا وفتح قلعتها حيث انتزعها من أيدى الافرنج .

ولقد جاء بعد هذا الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى مسند الحكم للمرة الثالثة فى سنة ٧٣٣هـ حيث عثر فى عهده على الحاكم بأمر الله مقتولا فى جبل الجيوشى فبنى عليه قبة عالية حصنها بالرصاص الأزرق السماوى اللون . وأما هو نفسه فمدفون مع والدته فى أرض مدفن الإمام الشافعى . بعدهم :

الدولة القراخطائية

عدد ملوكهم ثمانية وهم أيضا من الأتابكية . وقامت دولتهم فى ولاية كرمان ومدة سلطنتهم ٨٤ سنة[١] .

دولة آل أيوب

رجال هذه الدولة هم الذين صاروا حكام اليمن وعمروها وعددهم سبعة وجدهم أتابك مدفون بمدينة (مزيب) باليمن . مدة سلطنتهم ٥٧ سنة[٢] .

دولة آل الملاحدة

ملوكها ثمانية ، حكموا ولاية(قوهستان) . مدة سلطنتهم ١٨٢ سنة .

دولة بنى أرتق

قامت فى بلاد حلب وملطية وديار بكر وعدد ملوكها خمسة وعشرون . وكانت دولة عظيمة . يطلق لقب (مرازبان) عليهم من بين ألقاب التشريف . ومدة سلطنتهم ١٣٤ سنة .[٣]

دولة آل مروان

كانوا حكام ديار بكر والموصل والجزيرة . عدد ملوكهم سبعة . ومدتهم ١٠٩ سنة[٤] .

دولة بنى مرداس الكلابى

كان ملوكها حكام حلب ومرعش عددهم سبعة وألقابهم الملكية كلمة (كوردون) كذا (تحريف كوردان = الأكراد) . هذا ولا يزال أكراد جوم من سلائل هؤلاء الملوك والحكام . مدتهم ٥٨ سنة[٥] .

دولة بنى أسد

هم حكام الحلّة وتكريت وشهرزور . عددهم سبعة . وفى كردستان يطلق على هؤلاء لقب (آل شيران) بمعنى (بنى أسد) . وعنوانهم فى الألقاب السلطانية هكذا (يزدن) شير وابدال شير وضياء الدين شير . مدة سلطنتهم ١٤٢ سنة[٦] .

---

(١) أسر هذه الدولة فى كرمان سنة ٦١٩ براق حاجب الملقب بـ (قتلغ خان) انظر خليل أدهم ص٢٦١ . (د . السعد)

(٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) انظر خليل أدهم ص ص ١٠٢ ، ٢٣٨ ، ١٦٢ ، ١٥٧ ، ١٦٣ على التوالى . (د ، السعيد)

دولة بنى حمدان (بنى همدان)

قامت دولتهم فى ولايات الموصل وحرير وأردلان ورومية (زومية) ومُدمى ودمبولى عدد ملوكهم ستة .

دولة ابن عقيل بن أبى طالب

عقيل[١] هذا هو أخو سيدنا على رضى الله عنه قام أولاده بإحياء الحكم والملك فى الوصل والحلة وتكريت . عدد ملوكهم عشرة[٢] ومدة حكمهم (١٠٣)[٣] سنة هذا ولما أرادوا الخروج إلى مصر حال الأمويون بينهم وبين ما يريدون فقامت حرب ضروس بين الطرفين فانهزموا .

دولة آل التركمانيين

عدد ملوكهم خمسة يطلق عليهم فى الألقاب السلطانية لقب أمير . وكان أولهم الأمير «كربوغا»[٤] الذى حارب الافرنج وجاهدهم فى أنطاكية وانهزم أمامهم سنة ٤٩٥هـ وهرب إلى أصفهان لاجئا . وهو مدفون فى ضاحية مدينة (هويدا)[٥] . مدة سلطنتهم (. . . .)

الدولة الدانشمندية

كانوا ملوك سيواس وبافرة وأماسية وقيصرية . وهم سبعة ملوك . وأولهم مدفون بقلعة (نيكسار) ويدعى (ملك غازى) . وهؤلاء هم أول من وضعوا السيف مع آل سلجوق فى رقاب الروم . ومدة سلطنتهم (٢٠٦) سنة[٦] .

دولة آل قرا يوسف

ملوك هذه الدولة من جماعة القراقوينلية . وكانوا من عظماء الحكام والملوك وعددهم عشرة تمكنوا من الاستيلاء على ولايات ديار بكر وآذربيجان والعراق وفارس وعنوانهم فى الألقاب السلطانية لفظ (بك) . فمنهم «أوزون حسن» الذى خضع لتيمور الفاقد البصيرة والنور فمشى فى ركابه حتى إذا ما قضى تيمور نحبه أقدم أوزون حسن على محاربة أولاد تيمور وكسرهم شر كسرة واستولى على بلادهم وصار سلطانا ذا شأن وبنى فى ولاية أرزن

---

(١) بنو عقيل بطن من خمسة بطون يطلق عليهم بنو كعب وهم مضريون ، (خليل أدهم ١٥٩) .

(٢) ثمانية فقط (انظر خليل أدهم ص١٥٨) . (د . السعيد) .

(٣) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خالٍ فى الأصل . (د . متولى)

(٤) لعله قوام الدولة أبو سعيد كربوغا الذى استطاع أن يلحق إمارة بنى عقيل (٣٨٦ ـ ٤٨٩هـ) ـ بعد ضعفها إلى أملاك السلاجقة فى سنة ٤٨٩هـ . (د . السعيد)

(٥) لعلها محرفة من كلمة (يهودية) إحدى ضواحى أصفهان التاريخية (المترجم) .

(٦) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خالٍ فى الأصل . (د . متولى)

الروم قلعة سميت باسمه (حسن قلعة) . وبعد ذلك حينما وقعت معركة حامية بين أوزُن حسن وبين أبى الفتح السلطان محمد الفاتح فى سهل ترجان تعرض فيها جيش أوزُن حسن كله لنضال سيوف الجيوش المحمدية . فاضطر إلى الفرار والتسربل بسربال العار والشنار حتى وصل تبريز حيث مات بها كمدا وغيظا ودفن بصحن جامعه الذى بناه هناك ولقد صارت عبارة (بطلان كيد الخائنين) تاريخا لتلك المعركة التاريخية الدامية . مدة سلطنتهم ٩٢ سنة من ٧٨٢ الى ٨٧٤هـ (١٣٨٠ ـ ١٤٦٩)[١] .

دولة الآق قوينلية

ملوك هذه الدولة أيضا صاروا حكاما فى ولايات ديار بكر وأذربيجان والعراق عددهم تسعة[٢] . وألقابهم « باى» وقد كانوا ملوكا كراما محسنين وعلى جانب كبير من الصلاح والزهد والتقوى ، فلقبوا لذلك بلقب (باى) ومدة سلطنتهم حوالى (١٠٨) سنة[٣] ، وإليهم ينتهى فرع من فروع الشجرة العثمانية السلطانية ، فكلاهما جاء من بلاد ماهان .

هذا وقد صرح محمد چلبى الأدرنة لى فى تاريخه أن أوزُن حسن من أسرة وعشيرة الآق قوينلى . ولكن غيره ذهب إلى أنه من أسرة القراقوينلى . وأما كاتب السطور الضعيف فيقول إنه من أسرة وعشيرة القوينلية سواء أكانت هى آق = بيضاء أم قاره = سوداء .

دولة آل شاهشاهان إيران وتوران

نشأ ملوك هذه الدولة فى أردبيل من سلالة الشيخ صفى الدين الذى كان فى بادئ أمره شيخا من شيوخ الطريقة فى بلاد العجم يحكمها بالقطبية ثم خلفه ابنه الشيخ جنيد الذى صار قطب الأقطاب وذاع صيته فى الآفاق . ثم ابنه الشيخ ابراهيم خان ابن الشيخ الخواجه على بن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفى الدين أبى اسحق الاردبيلى الذى هو أول جميع الملوك الذين بلغ عددهم حتى الشاه عباس الأول خمسة ملوك يطلق عليهم « الشاه» فى الألقاب السلطانية . وهم الآن يملكون بلاد أذربيجان وايران وتوران وكنجه وشيروان ، وينعتون فى اللسان العجمى بألقاب «خداوند كار» و «شاهشاهان» و«شه» و«شاه» و«شاهنشاه» «وخسرو» و «شهريار» و«سرْوَر» و«تاجدار» و«صاحبقران» و«شاه إيران وتوران» .

---

(١) التواريخ من وضع د . السعيد ، ومكانها خالٍ فى الأصل (انظر خليل أدهم ص٤٠٤) . (د . متولى)

(٢) عددهم ثلاثة عشر . (انظر خليل أدهم ص٤١١) . (د . السعيد)

(٣) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خالٍ فى الأصل . (د . متولى)

الدولة الشيروانشاهية أو الدربندية
(دولة آل الدر بنديين)

هم تسعة ملوك يطلق على كلٍّ منهم «ملك الملوك» كان حكمهم يمتد حتى بلاد كنَجه وسواس وشماقى وباكو وباب الأبواب . وكانوا فى غاية التمسك بالسنة . وهم من نسل أنو شيروان . وقد انقرضت دولتهم بتسلط (الشاهات) ملوك إيران ؛ فبلادهم تارة يحكمها سلاطين آل عثمان وتارة يخضعها لأمرهم ملوك إيران والحال على هذا المنوال حتى الآن .

الدولة الشامخالية (دولة آل شمخاليان)

ملوك هذه الدولة أيضا من نسل أنوشيروان وهم فى غاية التمسك بالسنة ولا يزال يطلق عليهم حتى الآن لقب (شام كال = شام خال) . وشمخال اسم طائفة من الغز . الغز= أوغوز ، ولا يزال لهم من الجند نحو ثمانين ألفا . يخطبون فى جوامعهم لسلاطين آل عثمان بحيث يذكرون أسماء ملوكهم بعد هؤلاء السلاطين . وموطنهم فى شمالى جبال ألبرز ويملكون من الأراضى هنالك ماتتسع لسبعة خانات وحكام . فقرابوراق خان من هؤلاء الملوك له من المدن طرخو ، وقووز ، وأندرى ، وطابسران . وفى شمالهم تقع باب الأبواب (دميرقبو) على شاطئ بحر الخزر . وفى شرقيهم كَنجه وشيروان وشماخى وفى جنوبهم بلاد تيمور خان من (مملكة كَرجستان) ولا يزالون يحكمون بلادهم فلهم شأن ودولة (أيد الله دولتهم) إذ هم فى جدال ونضال مستمرين مع العجم فبلادهم جبلية صعبة المرتقى وعرة المسالك فضلا عن بسالتهم الفائقة وحبهم للغزو والكر والفر .

دولة آل الأوزبك

قامت دولتهم فى بلاد بلخ وبخارى وخراسان . وقد دخلوا فى الإسلام بخطاب نبوى وصلهم على يد رسول من قبل سيد المرسلين . فكبار أولياء الله فى الإسلام قد نشأوا فى إقليم خراسان . فلا يزالون مؤمنين صادقين وموحدين متقين . دولتهم باقية مؤبدة . لم يملك من هؤلاء بلاد مصر لبعد دارهم فإنهم مقيمون فى الإقليم السادس والسابع . فجميع جهادهم وغزواتهم مع العجم والهند .

دولة آل جنكيز

ورد فى تاريخ ميرخوند أن جلوس جنكيزخان يقع فى سنة . . .[1] هذا وملوك هذه الدولة ينتظمون فى اثنتى عشرة فرقة . كل منها ينقسم الى عشرة أوخمسة عشر خانا أو ميرزا وكخانات القرم والداغستان والمغول أو البغول والقوموق والقالموق أيضا اثنا عشر ملكا (طايس) . ولكل طائفة ملك منهم يسيطر على مليون من الجند (عشر مرات مائة ألف) . كل الأقوام والشعوب الآتية منحدرة ومتفرعة من جنس التتر وهم : القزاق ، والأزبك ، والنوغانى ، والهشدك ، والمسكوف ، والصين ، والختاى ، والخُتن والفغفور ، واللبقة ، والبادران ، والهند والسند والعجم وأتراك التركمان وآل عثمان .

وعلى قول تاريخ تحفة الدول الذى هو تحفة بمعنى الكلمة ، كان سيدنا آدم أيضا على الحالة التى عليها التتر الآن من حيث الظعن والرحيل والإقامة . لأن الله سبحانه وتعالى قد زين وجه الأرض فى بادئ الأمر بأقوام التتر الرحل ثم ظهر العرب بعد سيدنا إسماعيل الذى إليه ينسب نشوء اللغة العربية . ويذهب هذا القول أيضا إلى أن امرأة «شيث» من حيث أنها كانت حورية من الجنة تتكلم العربية التى هى لسان أهل الجنة ، بخلاف أولاد آدم الذين كانوا يتكلمون لغة أخرى دامت لعهد سيدنا اسماعيل حيث شاعت العربية بعدها .

وفى الواقع لا توجد حتى الآن أقوام على وجه البسيطة أكثر من العرب والتتر . فلقد قام الضعيف كاتب هذه السطور بسياحاته الكثيرة ورحلاته العديدة فى بلاد القرم والداغشيان والقالمق والنوغاى والهشرك وفى سهول القفجاق ، فلم ير أقواما أخرى سوى التتر إلا قليلا . وكلهم ما عدا القالموق مؤمنون موحدون بالله لهم ملوك مسلمون .

دولة آل جنكيز (بشبه جزيرة القرم)

تقوم هذه الحكومة فى جزيرة القرم البالغ مساحتها سبعمائة وسبعين ميلا . لها جيش يبلغ مائة ألف ولهم من الخيول مائة مرة مائة ألف (يقصد عشرة ملايين) . إذ ليس لهم من مظاهر الدولة والثروة سوى الخيل والجمال والغنم وقطعان البقر . ولقب ملكهم (خان) وينعتونه هكذا (كَراى خان) وقد استولى من هؤلاء الملوك (خانات) «طوختمامشن خان» على بلاد القرم وانتزعها من أيدى الكفار الجنويزيين .

---

(١) ولد تيموجين فى (٥٤٩ هـ ـ ١١٥٥م) ولقبه أحد الشامانات بلقب چنكيز سنة (٦٠٢هـ ـ ١٢٠٦هـ) ، ثم هلك فى (٦٢٤هـ ١٢٢٧م) . (د . السعيد)

هذا ويتولى أحد أقرباء الخان أو أحد أولاد إخوته منصب وزير اليمين ويلقب بـ (قالفا سلطان) ويقيم فى المدينة المسماة (آق مسجد = المسجد الأبيض) كما أن لقب وزير اليسار «نور الدين سلطان» ولقب وزير الوسط (أقا) . وأما رؤساء القبيلة فألقابهم شيرين ، ومنصور ، وسجود ، وأولان هو الذى ولد للخان من بناته . ويطلق على طائفة الجند والعسكر لفظ (فراجى) ولقب واسم قوم القرم عامة (بارداق) .

هذا ولما فتح السلطان بايزيد الثانى من آل عثمان قلعتى أقكرمان وكيلى ، جاءه من خانات القرم أولا «منكلى كراى» وقدم الطاعة للعثمانيين ووفى بعهده دائما حيث قام بإمداد العثمانيين وسك نقوده بأسمائهم . وللآن يذكرون أسماء سلاطين آل عثمان فى الخطب على المنابر قبل أسماء ملوكهم ، يقولون بعد ذكر السلطان العثمانى (كراى خان الغازى) . وقد بلغ عدد الخانات حتى عهد السلطان محمد الرابع ، عشرين خانا . أيد الله دولتهم ، فإن هذا الضعيف قد نال شيئا كثيرا من نعمهم وإحسانهم .

الدولة الجنكيزية فيما وراء النهر

ملوك هذه الدولة من نسل الأزبك أيضا . يبلغ عددهم اثنى عشر ملكا أيد الله ملكهم إلى آخر الزمان . فهؤلاء دخلوا فى الإسلام سنة ١١٩هـ فى عهد هشام بن عبد الملك حيث كان خليفة الشام إذ أرسل إليهم كتابا يدعوهم فيه إلى الإسلام فأسلموا . ولاتزال سلطنتهم باقية .

الطبقة الثالثة من آل جنكيز

قامت هذه الدولة فى بلاد إيران وتوران وصحراء القفجاق والصين والخطا والخُتن ، وكان عدد ملوكهم ثمانية عشر . ولقد أقدم من هؤلاء التتر «هولاكو» على الزحف إلى بغداد بجيش عرمرم قوامه مليون جندى بتحريض من الناصر الطوسى وخيانة من الوزير ابن علقمة ، فجعل عاليها سافلها وقتل المستعصم بالله العباسى حيث انقرضت دولة آل عباس بموته . فما كان من أولاد وأنسال العباسيين الصغار الذين كانوا يهيمون على وجوههم فى البرارى والصحارى إلا أن هربوا إلى مصر لاجئين ، فتولوا هنالك الخلافة وصاروا كالمشايخ .

هذا وكان هولاكو هذا يملك جيشا كثيفا عظيما . وجملة ملوك هذه الطبقة تبلغ ١٨ ملكا حكموا ٤١٥ سنة ولقبهم أيضا (خان) .

الطبقة الرابعة من آل جنكيز وهى دولة آل تيموركوركان صاحب الخروج والطغيان

قامت دولة هذه الطبقة فى الممالك الإيرانية والتورانية وفى صحراء القفجاق والهند والسند وملتان والصين والماچين[1] والخطا والخُتن والمسكوف والبلغار و(بولنده) والقرم والداغستان وبلاد الكَرجُ (كَرجستان) والعراقين العربى والعجمى ، وبلاد الروم والشام وفى سائر الممالك المحروسة ، فكان يمشى فى ركابه واحد وأربعون ملكا مترجلين مذعنين له . حتى أنه بعث بكتاب إلى السلطان يبلديرم بايزيد العثمانى يدعوه إلى تقديم طاعته ومبايعته له . بيد أن السلطان بايزيد أقدم على طرد رسوله ، مما حدا بالأمير تيمور المحروم من النور أن يزحف بجيش لجب يموج كالبحر ، نحو يبلديرم والاشتباك معه فى سهل (أنقره) حيث دارت رحى معركة حامية أسفرت عن اندحار جيش آل عثمان من جراء سوء تدبير وزراء «يبلديرم بايزيد» الذى واصل مع ذلك الحرب والقتال ، وهو مهموم ومغموم وإن كان رابط الجأش ثابت الجنان ، يصول ويجول فى ساحة الوغى وحيدا ممتطيا جوادا غير مدرَّب يطارد التتر أينما كانوا وإذا بجواده يكبو به فيسقط تحت سنابك الخيل ولكنه يقوم ويتلقى هجمات التتر الذين يُحدقون به من كل الجهات ، بكل ثبات وقوة جنان . ولكنه اضطر للتسليم لهم بعد مقابلة ساعة من الزمن ، فأخذوه إلى تيمور فأكرمه هذا غاية الإكرام وأحسن وفادته بتخصيص خيمة خاصة له بجانبه للإقامه بها ثم تقديمه إياه فى المجالس السلطانية على جميع العظماء والملوك الذين لديه . وذلك بالرغم من أن يبلديرم بايزيد كان يكلم تيمور بكل جرأة وشجاعة من غير أن يتولاه الجزع والخوف فكان يناقشه بكل صراحة وقوة جنان .

هذا وقد اقتضت حكمة الله جلت قدرته أن يتوفاه الله إليه وهو أسير فى أيدى تيمور من مرض الحمى المحرقة التى انتابته فنقل جثمانه إلى (بروسه) ودفن فى صحن جامعه بها .

ولما شرع تيمور فى الرحيل من هنالك بادر السلطان «محمد چلبى» بن يبلديرم بايزيد إلى مطاردة تيمور وتعقب جيشه انتقاما لوالده حتى أدركه فى سهل يقال له وادى طاشاق (طاشاق أو واسى) فجرت بينهما معركة دامية ، أظهر خلالها السلطان محمد من

---

(١) چين وماچين أى شمال الصين وجنوبها . (د . السعيد)

الشجاعة والبسالة ما تذكره الألسنة والمجالس بإعجاب وتقدير . إنهم سلخوا جلود عسكر التتر المهزومين وأقاموا منها خياما آووا إليها بضعة أيام فى ذلك السهل الفسيح ، فسمى السهل المذكور (طاشاق أو واسى) = سهل الخُصى وهذا اسم نابٍ ليس من الأدب شرحه وتفسيره . وبعد أن هرب تيمور من ميدان المعركة بمن بقى من جيشه توجه نحو (قراباغ) . وأمضى الشتاء به ، وما أقبل أول الربيع إلا وأقدم على فتح بلاد الشام فجاء إليها وغنم منها ألف خزانة مصرية من الأموال ثم عطف نحو مصر ولما وصل المحل المسمى (عزت الهاشم) (لاشك أنها محرفة من غزة الهاشم) تلقاه ملك مصر السلطان برقوق من جهة والأمير فرج من جهة أخرى ، كما هب لمنازلته جنود (كُرتباى) وهكذا أحيط بالتتر من كل جانب فاقتحموا جموعهم واكتسحوا صفوفهم كما ينقض الذئاب الجّائعة على قطعان الغنم حتى قضوا عليهم جميعا . ولا تزال عظام قتلاهم فى المعركة الدامية المذكورة موجودة فى تلك الصحراء الواسعة الأرجاء تتألف منها آكام وتلال هنا وهناك .

وهكذا فشل تيمور وجيوشه فى الاستيلاء على مصر وعاد عنها مهزوما مدحورا وهو مدفون فى بلد [سمرقند] ومدة سلطنته [٣٦] سنة .

الطبقة الخامسة من آل جنكيز أولاد تيمور كوركان

قامت دولة هؤلاء فى ممالك إيران وتوران وهمذان وأصفهان الموصوفة بأنها نصف العالم[١] ووان وجيلان وآذربيجان . بيد أن بلاد أولاد تيمور هؤلاء تفرعت إلى إحدى وأربعين مملكة يحكم كل واحدة منها واحد منهم ثم صاروا ستة معسكرات متطاحنة ومتصادمة . ولما كان أوزون حسن زعيم الآق قوينلية من الملوك الذين اضطروا إلى المشى فى ركاب تيمور كوركان ، فقد انتهز الفرصة واعتزم الثأر لنفسه من أولاده ، فأقدم على الفتك بعدة من هؤلاء وبسط سلطانه على ولايات ديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وآذربيجان وصار ملكها المستقل صاحب الحول والطول . هذا وأولاد تيمور وأحفاده لم يعيشوا كثيرا ما عدا ابنه الكبير الذى بقى حتى صار سلطان الهند[٢]

---

(١) يقول عنها الفرس : اصفهان نصيف جهان (د . السعيد) .

(٢) فاتح الهند هو ظهير الدين محمد بابر بن ميرزا عمر شيخ بن أبى سعيد بن محمد بن ميران شاه بن تيمور . (د . السعيد) .

الطبقة السادسة من دولة آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان سلاطين الهند والسند

دولتهم قديمة . وقد اعتنقوا الإسلام عندما تلقوا الكتاب النبوى الدرى بالقبول والإذعان . ولهم ملوك ذوو شأن عظيم على مذهب الإمام أبى حنيفة يسيطرون على بلاد واسعة الأرجاء . إذ أن أول من ملك بوجه البسيطة بلادا عظيمة مترامية الأطراف هم ملوك الهند ثم ملوك آل عثمان . هذا وإن يكن لملك المسكوف أيضا بلادًا واسعة تمتد حدودها إلى بحر الظلمات إلا أن أكثر ولاياتها غير مسكونة من هول الشتاء وشدة البرد ، كما أن الهند بلاد حارة جدا بيد أن هواءها معتدل ومناخها لطيف ، ولهذا كانت قراها وبلدانها عامرة وغنية . ولقب ملوكها وحكامها راجا (رايا) فمثلا يقال الراجا أورنكزيب . بحيث إذا مثل أحد الرعايا بحضرة الملك فبدل أن يخاطبه «يا مليكى» يقول «يا راجاى» . هذه هى ألقابهم السلطانية . وبلاد الهند من السعة بمكان تحتوى على ١٧ مملكة كل منها تعتنق مذهبا بعينه ونحلة مستقلة .

دولة سلاطين السند

لقب ملوكها (موغان) فيقال موغان سيد ، موغان تاد ، موغان راى ، موغان سرشاد ، وهكذا . بيد أنهم تابعون لملوك الهند وهم يعبدون النيران . ولا تزال دولتهم باقية إلى اليوم .

دولة سلاطين مونتان

أسماء ملوكها هكذا ، داريا مونتان ، رادود مونتان ، هلاس مونتان وتسمى رعاياهم «بنيان»(؟) وهذه الطائفة توجد بكثرة فى الحبشة وسواكنها وفى خارقوا ومصوع . ويتعممون بعمامات بيضاء وكلهم من عابدى النار . وملوكهم مونتان تابعون أيضا لملوك الهند . فلا يزال سلطانهم ممدودا ودولتهم باقية وجميع شعوب هذه البلاد تعبد النيران والأبقار والفيلة والشمس والقمر والأشجار . ومع ذلك فإنهم مقرون بوجود الله البارى .

هذا ولو أردنا أن نكتب شيئا عن هؤلاء مثلما هو مدون فى كتب التاريخ لطال الشرح وضاق المقام . وليس من عادتى أنا هذا الضعيف التصدى لنقل ما لا أعلمه علم اليقين أو لم أره رأى العين . وقد ذكرت هذا بقدر ما اقتضاه المقام .

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

إن بلاد هذه الدولة وإن كانت غير واسعة الأرجاء مثل الهند ، إلا أنها بلاد سهلة فسيحة الأرجاءتحتوى على اثنتى عشرة ألف مدينة فى ساحل البحر المحيط يطلق على ملوكها اسم خاقان . لا يخافون أحدا من الملوك والسلاطين ، ولهم رعايا كثيرة وجمهور كبير . فإذا ذهب تاجر من بلد ما إلى بلد فى الصين فأول شئ يعمله هو أن يقدم متاع تجارته إلى ملك الصين كهدية قائلا إن ملك الهند وملك العجم مملوكى سدتكم السنية يسلمان على صاحب الجلالة . فبهذه الطريقة الأدبية يحظى التاجر بمقابلة ملك الصين وينال عطفه عليه حيث ينعم عليه لدى عودته إلى بلاده من الأموال القيمة والأمتعة النفيسة ما يساوى عشرين ضعفا فأكثر من أمتعته التجارية . وهكذا يعود التجار من الصين إلى بلادهم مسرورين سالمين غانمين ، ولاتزال دولتهم قائمة .

أحوال دولة السلطان فغفور

تمتد حدود هذه الدولة إلى عالم الظلمات . وكل من ملك هذه البلاد يقال له(فغفور) . فى سنة ١٠٣٠هـ هاجمها القالمق واستولوا عليها ومزقوا شمل مئات الألوف من الشعب الفغفورى وأكلوهم أكلا حتى أنهم قبضوا على الفغفور (رحجنان شاه) وطبخوه ثم أكلوه أكلا . لأن القالمق من الشعوب التى تأكل لحوم الإنسان أيضا . فمن ذلك اليوم انقرضت دولة الفغفور ولا يزال القالمق يحكمون بلادهم حتى الآن .

ذكر أحوال دولة ملوك الديالمة

يطلق على ملوكها فى الألقاب السلطانية اسم (كاشانيان) أى الكاشانيون وهم سبعة عشر ملكا سنياً تبلغ مدة سلطنتهم مائتى سنة بلادهم هى الديلم وكاشان وكرمان .

ذكر أحوال ملوك بلخ

وهم ملوك سنيون يطلق عليهم فى الألقاب السلطانية اسم (دارا) . ولقد هزم اليونان (فيما مضى) الملك دارا هذا فى محل يقال له «قرادره» بجوار الموصل . وبذلك صار الشعب الرومى مسيطرًا على البلاد الإيرانية (إيرانشهر) وبات العجم خاضعين لليونان يدفعون لهم الخراج . ولاتزال هذه الدولة قائمة وملوكها سنيّون .

دولة آل اينجو (دولت آل انجوليان)[١]

ملوكها هم ملوك الشعب المغولى . فبلسان المغول يطلق لفظ (أنجور) على ملوكهم . حكمهم كان جاريا فى البلاد الإيرانية وهم ثلاثة ملوك . وفى سنة ٧٠٠ هـ ثار الشعب المغولى ثورة عامة على أنجوره هذا وقتله . وينعت ملوكهم هكذا حيدر أنجور وأسعد أنجور .

دولة آل مظفر

قامت هذه الدولة فى فارس والعراق وكرمان . عدد ملوكها ثمانية . يطلق عليهم لقب جعفر مظفر . دامت حكومتهم مائة وخمسة من السنين . وهذه أيضا من طوائف الملوك .

دولة آل چوپان

قامت فى البلاد الإيرانية وآذربيجان . عدد ملوكها اثنا عشر ملكا . لقبهم (أمير) مدة سلطنتهم . . .

دولة آل ايلكان (الدولة الجلايرية)

قامت فى بلاد آذربيجان . وعدد ملوكها ستة ويطلق عليهم لقب (قامى) وهم من طوائف الملوك وكانوا فى غاية من العدل والإنصاف . مدتهم ٧٥ سنة .

دولة آل كرتباى

قامت فى خراسان وبلاد الغور . وكان ملوكها يذكرون فى الخطب على المنابر باسم الملك كرتباى . وكانوا ملوكا سنيين وعددهم ثمانية ومدة سلطنتهم ثمان وثمانون سنة .

الدولة السربدارية (دولة آل سربداران)

قامت هذه الدولة فى ولايات سبزوار وخراسان . ويطلق على ملوكها «سربداران» عددهم سبعة ليسوا على شئ من الحسب والنسب . ولقد صاروا ملوكا تغلبا وغصبا . وهم أيضا من طوائف الملوك .

---

(١) لا شك فى أنها محرفة من كلمة «اينجويان» أى آل اينجو . (د . عزام) .

ذكر أوصاف دولة آل عباس

قامت هذه الدولة فى بلاد بغداد ذات العمران كالجنة وفى بلاد البصرة والاحساء واليمن ومكة والمدينة حتى امتد سلطانها إلى أم الدنيا مصر والشام وحلب ومرعش وديار بكر وأرضروم حتى بلاد الكرخ .

هذا وفى الأزمنة القديمة كان يطلق لقب (كسرى) على الذين يملكون بغداد القديمة . وجمعه (أكاسرة) . وقد خضعت بغداد هذه للعباسيين بعد بعثة صاحب الرسالة المحمدية . وعدد ملوكها جميعا ثلاثون . مدتهم خمسمائة وثلاثة وعشرون عاما وشهر واحد ويوم فقط . والعباس هذا هو عم الرسول وابن عبد المطلب وهو أكبر من الرسول بسنتين عاش ٨٥ سنة ومات بعد الهجرة النبوية باثنين وثلاثين سنة وقبره فى البقيع بالمدينة المنورة . وقد خلفه فى الحكم ابنه السفاح الذى حكم تسع سنوات وثمانية شهور وعاش خمسين سنة ، وقبره فى الكوفة . وجاء بعده ابنه أبو جعفر ثم ابنه أبو عبد الله محمد المهدى وابن هذا محمد الهادى ثم أبو جعفر بن عبد الله ثم ابنه الآخر أبو منصور هارون الرشيد . . . وأربعة من أولاد هارون الرشيد هذا تولوا الخلافة وهم ، أبو عبد الله ، وأبو العباس ، وأبو اسحق محمد المعتصم بالله ، والخليفة المأمون . فالمأمون هذا قد وصل مصر وزار جبل الهرمين واستخرج من الكنوز والدفائن ثم برح مصر إلى اليونان ونزع منهم بلاد أذنه وسيس ومسيس وقرا كورك وطرسوس وهو مدفون فى زاوية مظلمة من زوايا جامع النور بداخل القلعة إلى اليسار . هذا ولما كانت عقيدة الخليفة المأمون مختلفة وكان ممقوتا ومكروها من الناس فلا يزار قبره . وكانت خطب الجمع قبل عهد العباسيين تتلى على المنبر والخطيب جالس ، ولما جاء أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله (بن) عباس وتولى الخلافة تلاها وهو واقف . وهكذا بقيت العادة حتى الآن .

وينعت العباسيون فى اللسان العربى بهذه الألقاب ، الخليفة وأمير المؤمنين والسلطان والملك والخاقان والمؤيد من عند الله . . . وصفوة القول أن ثلاثين خليفة من العباسيين كانوا يرسلون عمالا من قبلهم إلى مصر من بغداد فيحكمونها بواسطتهم ودام الحال على هذا المنوال حتى استولى هولاكو الملعون على بغداد وانقرض به ملك الخليفة المستعصم بالله وهرب وأولاده إلى مصر .

وقد أنشأ المنصور الدوانقى منهم ملطية سنة ٣٠٥ هـ ثم عمد إلى مكة ووسع حرمها الشريف فأحدث بها منارة (مأذنة) ومات سنة ٣٥٨ هـ (كذا) بالغا من العمر ثلاثا وستين سنة فدفن بالمعلى بمكة المكرمة رحمه الله .

وكان فى عهد هؤلاء الخلفاء العباسيين اثنا عشر طبقة من الملوك فى سائر البلاد كلهم مسلمون يذعنون لهم ويسكون النقود ويخطبون بأسمائهم .

دولة آل ساسان (الدولة الساسانية)

عدد ملوكها تسعة ومدة سلطنتهم ٩١ سنة .

دولة الديالمة

عدد ملوكها خمسة وعشرون ومدة سلطنتهم ٢٠٠ سنة .

الدولة السلغرية (دولة آل سلغريان)

عدد ملوكها خمسة عشر ومدة سلطنتهم ١٠٣ سنة . ثم قام فرع من دولة آل عباس فى بلاد الكرد (كردستان) وانقسم هذا أيضا إلى اثنتى عشرة طبقة .

الدولة العباسية الكردية (دولة آل عباس الأكراد)

قامت الطبقة الأولى منها فى جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل . حيث أن لحكامها الآن عشرين ألف جندى من حملة البنادق . والطبقة الثانية ، هى حكومة سيد خان الذى يملك الآن أربعين ألف جندى . والطبقة الثالثة ، هى حكومة (حاكم صوران) التى تملك عشرين ألف رجل من الجند . والطبقة الرابعة ، هى حكومة (أردلان) التى تملك عشرة آلاف رجل من الجند . والطبقة الخامسة ، هى حكومة (حاكم حرير) التى تملك خمسة عشر ألفا من حملة البنادق . الطبقة السادسة هى حكومة (بنيانشى) التى لها من المقاتلة والرجال خمسة آلاف . الطبقة السابعة ، هى حكومة حاكم المحمودى الذى يملك ثمانية آلاف عسكرى وهى فى غاية الشجاعةوحسن التنظيم والدربة حيث يتفوقون فى ذلك على جميع عساكر كردستان الأشداء . والطبقة الثامنة هى حكومة (حاكم حكارى) الذى يملك زهاء أربعين ألفا من المشاة والعتاة حملة البنادق وعشرة آلاف من الفرسان المدربين .

هذا وإن كاتب هذه السطور حينما انتدب بعد تخلى أفندينا ابشير باشا سنة ١٠٦٥هـ عن إيالة (وان) لملّك أحمد باشا لحمل المقرر والخلع والكساوى التشريفية لحاكم حكارى (يزيد بن شير) عز الدين شير ، شاهد عن كثب مدى ماعليه ذلك الجيش الحكارى العظيم من الدربة والتنظيم وإتقان فن ضرب النار .

والطبقة التاسعة ، هى حكومة حاكم حيزان الذى يملك عشرة آلاف من العساكر والطبقة العاشرة هى حكومة حاكم بتليس الذى يملك عشرين ألفا من الجنود ويهيمن على عشرين عشيرة قوية .

والطبقة الحادية عشرة هى حكومة (حاكم حظو = حزو) الذى يملك ثمانية آلاف من أقزام خالتى وجكوانى ويزيدى (من الأكراد) .

والطبقة الثانية عشرة هى حكومة (حاكم بالو) الذى يملك عشرة آلاف جندى .

فهذه الحكومات الاثنا عشر مستقلة فى شؤونها حسب قانون نظام السلطان سليم الأول لا يسرى على حكامها العزل والتنصيب وينتقل الحكم والولاية من الحاكم إلى أولاده بعرض الوزير وتصديق السلطان على ذلك وإقراره حيث يكتب فى البراءات والأحكام الصادرة عبارة (جناب عزت مآب) ، كما أن أهالى تلك الولايات يطلقون على حكامهم هؤلاء لفظ ولقب (خان) ويعد حكام هذه الولايات الاثنتى عشرة أنفسهم من سلالة العباسيين وأحفادهم .

وعلاوة على ما تقدم فإن للأكراد إمارات وراثية يبلغ عددها مائتى (اوجاق) أسرة قديمة وفى ولايات أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرزور وبغداد ، حيث أن أمر تنصيبهم وعزلهم فى يد والى الولاية . وذلك كلواء (أكل) وميافارقين و(كارنى) و (هروان) و(اسبير) و(وزريقى) و(باركيرى) وملازجرد وغيرها من السناجق .

وقد قمنا بالسياحة والمنة لله فى هذه البلاد الجبلية الصخرية الكردستانية زهاء سبع سنوات ، حصلنا خلالها على معلومات قيمة ومشاهدات عجيبة وكبيرة لو أردنا تدوينها كما رأينا وشاهدنا لوجب علينا أن نكتب مجلدا ضخما . وان «كردستان» هذا لو لم يكن سدا منيعا وحاجزا قويا بين آل عثمان والعجم لكان العثمانيون فى حيص وبيص وقلق وخوف مستمرين من العجم الذين هم أعداء ألداء وخصوم شرسون .

هذا وإن الذين ملكوا مصر من الأكراد هم من هؤلاء الأكراد العباسيين .

الدولة الكيانية (دولة آل كيانيان العجم)

قامت هذه الدولة فى بلاد إيران وما وراء النهر . عشرة آلاف نفر[1] . مدة سلطنتهم . . . سنة .

الدولة الأشكانية (دولة آل أشكانيان)

عدد ملوكها سبعة ، بلادها همذان ، ودرجزين ، وأردبيل . مدة سلطنتهم ٧٨ سنة . كان آباؤهم وأجدادهم ملوكا أيضا فى زمن الجاهلية قبل الرسالة المحمدية فهؤلاء السبعة صاروا ملوكا فى العهد الاسلامى بعد المأمون وأطلق عليهم لقب الاشكانيين .

دولة آل قروانيان

عدد ملوكها ستة ومدة سلطنتهم . . . سنة .

دولة مامانيان

عدد ملوكها . . . ومدة سلطنتهم . . . سنة .

الدولة الساسانية (دولة آل ساسانيان)

. . . نفرا ومدة سلطنتهم . . . . سنة .

دولة آل ماهان

نشوء هذه الدولة فى أول الأمر فى ديار «ماهان» من بلاد ماوراء النهر بيد أن ملوكها اضطروا إلى الرحيل والهجرة منها بسبب مطاردة آل جنكيز لهم ، إلى بلاد « أخلاط» ملتجئين إلى السلطان «أوحد الله» الذى هو جد حكام (بتليس) بدليس . ولما كان هؤلاء الملوك على جانب عظيم من البسالة والشجاعة افتتن الأهالى بهم ونصبوهم أمراء وحكاما عليهم مدى الأيام حيث دام حكمهم فى « أخلاط » مدة مائة وسبعين سنة . فاضطروا بعد ذلك أيضا إلى الجلاء والنزوح عن الوطن تاركين أموالهم وأملاكهم فرارا من مطاردة الجنكيزيين لهم أينما حطوا وحيثما وجدوا . وقد التجأوا إلى السلاجقة بقونية . وبينما هم يواصلون السير فى الطريق إلى الروم . مروا بنهر (مراد) فأخذ رئيسهم سليملنشاه

---

(١) الظاهر أن العبارة هكذا (وعدد ملوكها أحد عشر نفرا) (المترجم) .

فى النزول إلى النهر بجوار قلعة جعبر الواقعة عليه ليغتسل فيه فغرق فى الماء . وتعين أرطغرل رئيسا على القوم فسافر بهم إلى صحراء قونية ، وإذا بحرب عظيمة تدور رحاها بين آل سلجوق وبين جموع التتر ، وكان أرطغرل وأتباعه يشاهدونها من فوق جبل عال . ولما تبينوا الغلبة فى جانب التتر والهزيمة لاحقة بالسلاجقة لامحالة بادر أرطغرل الشهم الهمام إلى الهجوم بمن معه من الجنود البالغ عددهم سبعمائة فتى على هؤلاء الغالبين من التتر وأمطروهم بوابل من السهام وأخذوهم بالسيوف البواتر من كل جهة حتى مزقوهم شر ممزق ، لأن حب الانتقام وأخذ الثأر من هؤلاء التتر مازال كامنا فى نفوسهم من يوم خروجهم من ماهان .

ولا شك فى أن هذه الفتوحات العظيمة الفجائية قد أحيت السلاجقة من جديد وجعلتهم ألسنة شكر ودعاء لأرطغرل وقومه ، فأغدق ملك السلاجقة عليه الإنعامات والخلع والرتب ، وجعله أميـر من أمراء السدة السلطانية ثم أعطاه مال قارون وأباح له امتلاك جميع الأراضى التى يفتتحها من (تكفور) بروسه ونصبه قائدا على تلك الجهات .

ومن حكمة الله البالغة ودلائل توفيقه أن النجاح كان حليف أرطغرل أينما قصد وتوجه ، فكان ينتصر فى جميع حروبه ويوفق فى جميع غزواته وجهاده ويعود إلى البلاد محملا بالأسلاب العديدة والغنائم الكثيرة فيوزعها على القاصى والدانى . فأرطغرل الماهانى هذا هو جد آل عثمان . فلا تزال جثث هؤلاء الملوك والحكام موجودة غضة بكامل أسلحتهم على عروشهم الاثنى عشرة تحت القبب العالية بمدينة أخلاط المذكورة . ولقد رآها كاتب هذه السطور حين زيارته لها . ومن الأمثال الشهيرة المتداولة بين الأصدقاء والأحبة القول بأن فلانا أصبح كقدير أخلاط مشيرا بذلك الى الجثث التاريخية .

ولا شك فى أن آل ماهان هم أجداد العثمانيين المؤيدين من الله إلى قيام الساعة والمسيطرين الآن على جميع بلاد العراق وعاصمتها بغداد الشبيهة بجنات الفردوس والخلد ، وعلى أم الدنيا مصر القاهرة نادرة العصر ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، وبلاد المجر والروم والعرب والعجم . وهم الموصوفون بسلاطين البرين والبحرين وحماة الخلافة .

ذكر دولة آل رسول

عدد ملوكها خمسة عشر . ملكوا اليمن وعدن وصنعاء وصنعان . ويطلق على بلاد اليمن اسم جزيزة العرب ، وهى من الأقاليم العربية يحيط بها بحر القلزم من الشرق إلى الجنوب ومنه إلى الغرب . والجهات الأخرى محاطة بالبر بحيث يقطعه خط من الشرق إلى الغرب من بحر الأحساء إلى بحر اليمن .

هذا وهناك عدة وجوه لتسمية هذا الاقليم باليمن

١ - إذا توجه المرء نحو الشرق فى بلاد اليمن بقى هذا الإقليم فى يمين الشخص فقالوا اليمن من اليمين .

٢ - وقالوا إن الإقليم يقع فى يمين الكعبة الشريفة . وفى الجاهلية كان يطلق لقب (تبع) على ملوك اليمن ويجمع على (تبابعة) . ولكن حكامها الآن يسمون ملوكا من يوم ما ملك هؤلاء السادة الكرام . وأما الآن فيسمى واليها (الإمام) . وقد خضعت اليمن للسلطان مراد الرابع العثمانى ولكن أهاليها ينتحلون مذهب الزيدية الذى يبيح نكاح المتعة جهارا أعنى أن الواحد منهم يستأجر امرأة لنفسه لبضعة أيام يتصرف فيها ثم يتركها لآخر . وينقسم الإقليم إلى أربع حكومات لا تخضع الواحدة للأخرى . وسكان الجبال منهم عربان صغار الأجسام مجردون من الثياب . ولكنهم رماة بارعون ومحاربون ماهرون . والشعب عامة فى غاية الصلاح والتقوى لأن أكثرهم من الشرفاء وأحفاد الصحابة الكرام . ففى عهد النبى عليه الصلاة والسلام قد نزح أكثر الصحابة إلى إقليم اليمن . وقد ورد فى حقه حديث (عليكم . . . .) وكم به من الأولياء ذوى الكرامات الظاهرة .

دولة شرفاء مكة أعنى آل هاشم

قامت دولتهم فى الحجاز والطائف والمدينة ووادى القرى حتى مدينة ثمود . وقد اتحد شرفاء مكة هؤلاء مرارا مع شرفاء اليمن فبذلوا الهمة والجهود للاستيلاء على بلاد مصر ، غير أن عملهم لم يكلل بالنجاح قط . وعدد ملوك هذه الدولة ثمانية وثلاثون حسينيا من النسب الطاهر . لاتزال دولتهم قائمة حتى الآن ويطلق عليهم آل الحيدرى أيضا .

دولة شرفاء مكة أعنى آل قتادة

عدد ملوكها سبعة ينتهى نسبهم إلى على بن أبى طالب ويزعمون أنهم من أولاد الأنبياء من عهد إسماعيل عليه السلام . وأن أجدادهم قبيلة جرهم التى هاجرت من اليمن إلى مكة وتوطنت بها حيث تقدم إسماعيل إليها وتزوج منها بنتا فأنجبت منها سيدنا . . . . الذى بلغ من العمر أربعين سنة فنزلت عليه صحف باللسان العربى ويقال إن اللسان العربى تمت المحافظة عليه من ذلك اليوم .

ومن جهة أخرى نصرح بأن هناك فى الممالك المحروسة التى زرناها مئات ألوف من العشائر السيارة فى البرارى والصحارى والسهول لها رؤساؤها وأمراؤها كما أن فى جبالها الصخرية وصحاريها المقفرة قبائل وطوائف وجماعات لها زعماؤها وحكامها ولكن ليس لهم خطب تتلى ولا سكة تضرب . فلذا صرفنا النظر عن ذكر هؤلاء مع أنهم أيضا من أصحاب السيف والقلم حكوماتهم مؤيدة من الله الحكيم الذى أعطاهم الحكم وأسباب السيطرة بحيث يتمكن خليفة وجه البسيطة بواسطة هؤلاء الرؤساء والزعماء من تأديب العبيد العنيدين فيقى الناس شرورهم وفسادهم فى الأرض ، كما ورد فى الشعر الفارسى .

وهنا أورد المؤلف بيتا من الشعر معناه :

«إذا لم يكن السلطان قائما فى بلد فإن بيوت المظلومين تكون طعمة للظلمة» . وما ذلك إلا لأن الله تعالى جعل نفع الخلفاء لعباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيث[1] الطاهرين . فماذا لله تعالى إذا لم تكن الخلافة العظمى وأسباب السلطنة العليا قائمة فى وجه الأرض إذن لم يكن هناك لا إيمان ولا إسلام ولا يقوم قائمة للاعتقاد والطاعات ولا العبادات ولا سائر الأوامر والنواهى الإلهية وهكذا تختل الأمور الدينية ويسودها الفساد والتشويش ، كما فى الآية الكريمة فى سورة الحج ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾ فهى دليل قطعى على ما نقول . نسأل الله تعالى أن يديم عهد الخلفاء على ظهر الأرض . وكذا الحديث الشريف الذى معناه (لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا) .

---

(١) لعلها رجال الغيب . (د ، السعيد) .

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

أول من قام بالخلافة على وجه الأرض فى الإسلام ، هم الخلفاء الراشدون المرشدون وكلاء صاحب الرسالةِ المحمدية . وإليك أسماءهم الشريفة . أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ولقبهم فى اللسان العربى (أمير المؤمنين) ويطلق هذا اللقب أيضًا على الإمامين الحسن والحسين والخلفاء الأمويين والعباسيين . وأول من ملك مصر من هؤلاء الخلفاء الأربعة الراشدين هو سيدنا عمر بواسطة عمرو بن العاص . ثم من بعده ملكها الأمويون ثم العباسيون الذين هم طبقتان . إحداهما كانت ترسل من قبيلها نوابا من بغداد والأخرى هم هؤلاء الخلفاء الذين أتى بهم الظاهر بيبرس وهم آل عباس الذين تاهوا فى الصحارى والبرارى فرارًا من التتر بعد استيلاء هولاكو على بغداد وانقراض العباسيين بها . وقد أقامهم خلفاء بمصر .

ديار مصر والإخشيديون

كلهم خمسة أنفار ومدة سلطنتهم (٣٥) سنة . فى عهد هذه الدولة عمد ملك عظيم الشأن من الفاطميين ببلاد المغرب يدعى معز الدين (قاهرة)[١] إلى عبد من عبيده السود الأحباش يدعى أزهر ، فأعطاه مبلغ عشرين ألف كيس وأرسله إلى مصر يستأذن الإخشيديين بمصر فى السماح لبناء أثر له عظيم بها . ولما جاء العبد المملوك أزهر إليها وأجيب الطلب ، شرع فى بناء (جامع الأزهر) الذى صار سببًا فى تدفق حشد من البنائين والحفارين والعمال من بلاد المغرب إلى مصر فملأوها عن آخرها . وبفضل إحسان (أزهر الحبشى) إلى علماء مصر وإغداقه الإنعامات وإجرائه الصدقات على الناس من كافة الطبقات تمكن من ملء الجامع قبل أن يتم بناؤه بآلاف من الطلاب والعلماء وذوى الحاجات . وبينما الأمر يجرى على هذا المنوال إذا بأهل مصر يسمعون ذات يوم حينما أوشك الأزهر على الانتهاء من البناء . أن معز الدين «قاهره» زاحف إلى مصر . وقبل أن يستعدوا للدفاع عن مصر دخل معز الدين مصر وانتزعها من أيدى الإخشيديين وأم جامع الأزهر وصلى به . وقد سميت مصر ، القاهرة لأن فاتحها من المغرب هو معز الدين (القاهرة) . عدد الملوك أربعة عشر ومدة سلطنتهم مائتان واثنتان وستون سنة .

(١) هكذا هنا ولكنه يذكره فيما بعد باسم المعز لدين الله الفاطمى القاهرى المغربى الخشاب .

المماليك البحرية (آل بنى البحرية)

عددهم ثمانية وعشرون . ودامت حكومتهم مائة وستًا وثلاثين سنة . هذا ولما اغتال مماليك مصر . الظافر بالله بن الحافظ لدين الله من الفاطميين وأقامت عوضًا عنه أبا القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله وشاع خبر هذا الحادث فى بغداد وبلغ ذلك مسامع المتقى بالله من الخلفاء العباسيين ، ابتهج لذلك أيما ابتهاج ، فبادر إلى تعيين أحد وزرائه وهو الملك نور الدين محمود بن زنكى حاكمًا للشام ومصر . ولقد جاء هذا الوالى بعسكر جرار وفتحها ثم ذهب إلى الشام وحاصر قلعتها إذ أن حاكم الشام المدعو ناصر الدين طغتكين قد بالغ فى الدفاع وأبلى بلاء حسنا فى القتال ، ثم اضطر إلى التسليم بمن فى القلعة صلحًا لنور الدين محمود وكان ذلك فى سنة ٥٦٤ هـ .

الدولة الچركسية (دولة آل چراكسة)

أول ملوكها برقوق وآخرهم طومانباى . ومدة سلطنتهم [١٣٩] سنة . وجملة ملوكها [٢٥] نفرا . وهؤلاء الچراكسة قد تخلفوا أولاً من نجم الدين الصالح الذى كان له اثنا عشر ألف مملوك من الخيالة والفرسان . وفى رواية أخرى أن أصل هؤلاء المماليك هم أولئك العبيد والأرقاء الذين اغتنمهم السلطان فرج من تيمور المحروم من البصيرة والنور ، حيث عاد بهم إلى مصر محملين بالمال الكثير والرقيق الوفير . فالچركسى والأباظة (أباظه) والكرخ والروس قد تخلفوا فى مصر من عهد السلطان فرج .

فالسلاطين الذين حكموا مصر كما أوضحنا سابقًا مذكورون على الترتيب . وبعد هؤلاء الچراكسة جاء العثمانيون .

أول من ملك مصر من آل عثمان

هو السلطان سليم الأول . وسنذكر إن شاء الله فى محله جميع وقائع غزوه لمصر . هذا ولقب ملوك مصر القدماء لفظ (فرعون) وجمعه فراعنة . ومنهم من كان يلقب بـ (عزيز) ومنهم من يدعى «قبابطة» وجمعه أقباط .

ولما فتح السلطان سليم مصر أطلقوا عليه خادم الحرمين الشريفين «وذلك بموجب الخطبتين اللتين أنشأهما كل من أحمد أفندى ابن كمال باشا وأبى السعود أفندى . كما أن السلطان سليمان حين افتتح المجر (انكروس) لقب بـ (صاحب قران زمان) . وفى سنة

٩٢٩ هـ حينما انتزع السلطان سليمان جزيرة رودس من أيدى كفار مالطة انتزاعًا أفضى إلى فتح سبعمائة وستين جزيرة أخرى فى البحر الأبيض المتوسط ، بادر أيضًا كل من ابن كمال باشا وأبى السعود أفندى إلى نعت السلطان وتلقيبه بسلطان البرين وخاقان البحرين . وكذا أطلق علماء الروم[1] ، لقب سيد العرب والعجم على السلطان سليمان القانونى حينما فتح بغداد الشبيهة بالجنة . وكذا وصف هذا السلطان بعبارة فاتح المغرب حينما تم له فتح طنجه والجزائر وتونس وطرابلس من بلاد المغرب . وكذا وصف السلطان بفاتح المغارب والمشارق حينما أتم الطواشى سليمان باشا والى مصر بإذن من السلطان سليمان القانونى فتح سبعة أقاليم وسبعة بنادر فى بلاد الهند . حقًا إن السلطان سليمان الذى حكم البلاد ثمانية وأربعين عامًا[2] قد أكثر من فتح البلاد والقلاع بالأقاليم السبعة من المعمورة وأضافها إلى ممالك آل عثمان رحمة الله عليه .

هذا وكان آل عثمان فى بادئ الأمر يلقبون هكذا ، غازى عثمان بك وأورخان بك ويبلدرم بك ومراد بك . . . . إلى أن تولى الحكم أبو الفتح محمد الثانى (الفاتح) فأطلق عليه علماء الروم لقب (أولو الأمر) . لأن أبا الفتح كان محبًا للعلماء ومقدراً للفضلاء فاستقدم جميع العلماء المتبحرين والمشايخ الفطاحل من الأقاليم السبعة وقربهم إليه وأخذ يعاشرهم ويجالسهم ويباحثهم إذ كان هو أيضًا من السلاطين العلماء العاملين ، والكمل المجاهدين فى سبيل الله . ولما كان مقيمًا فى سرير ملكه كان يتحلى بزى العلماء فيضع على رأسه عمامة مثلهم ، ويجلس مجلسه بالديوان السامى على نسق مجلس العلماء . ولم يكن قبله أحد من السلاطين يلبس زيًا عرفيًا[3] هكذا سواه . وإن وصف تيجان الملوك السابقين وعمائمهم ليس فى الإمكان الآن . بيد أنه غير خاف على أهل الدراية وأصحاب الحب والهيام الواردين على مدينة «بروسه» .

ولما فتح السلطان أبو الفتح اسلامبول كان معه فى أثناء ذلك سبعون شخصًا من كبار أولياء بلاد العجم والعرب وخراسان والعراق . أمثال الولى آق شمس الدين وأنصار ده ده الولى الكورانى . ومن المجاذيب الولى . . . . . ومن العلماء العظام الملا الكورانى وأمير

(١) علماء الروم أى علماء الترك . (د . السعيد) .

(٢) الصحيح ستة وأربعون عاما . (د . متولى) .

(٣) العرفى : عمامة مستديرة كان السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١م ، ٨١٦ - ٨٢٤ هـ) هو أول من لبسها ثم لبسها فيما بعد مشايخ الإسلام وكبار العلماء . (د . السعيد) .

بخارى و . . . . . وغيرهم من كبار العلماء . فبعض هؤلاء العلماء لقبوا السلطان محمد بأبى الفتح محمد الثانى ولكن علماء الروم اقتصروا على تلقيبه بالسلطان وأما مشايخ العجم فإنهم لما شاهدوا مدى إحسان السلطان يوم الفتح وكيف يغدق النعم على الناس وكأنه ملك الإحسان ، فقد بادروا إلى وصفه بلفظ (خنكار) خانكار . وقد جمع أبو الفتح محمد الثانى عساكر الإسلام فى اسلامبول بعد الفتح فى ميدان السهام (أوق ميدانى) وأقام لهم مأدبة فخمة وملأ ذيله خبزًا (خوانا) ووزعه على الغزاة المسلمين . و(خوان) يطلق فى اللسان الفارسى على الخبز . وحيث أن السلطان قد وزع فى ذلك اليوم المشهود «خوانًا» فقد سماه علماء العجم بلفظ (خوانكار) . وفى رواية أخرى أنه فى أثناء محاصرة السلطان لمدينة اسلامبول قام جلالته بإنشاء مائتى سفينة من نوع «الفرقاطة» فى المحل المسمى الآن (لوند چفتلكى) وقد جرها مفتحة الشراع فوق الجلود المفروشة فى ميدان السهام حتى حديقة ترسانة وأنزلت إلى البحر . وذلك بواسطة عساكر (عربستان)[1] ورأى القبطان (شاه قولى) فلبثت هنالك هذه السفن على أهبة الاستعداد مجهزة بكل التجهيزات من عدد ومعدات . ولا تزال آثار السحب والجر فى ميدان السهام ظاهرة بادية .

ولما شاهد الملك الملقب «بتكفور»[2] وهو واقف فى المحل المسمى الآن «سراى تكفور» بداخل قلعة اسلامبول ، كيف أن سفنًا تمشى على الأرض وهى مفتحة الشراع ساوره القلق وتسرب إلى نفسه اليأس من نجاة القسطنطينية من العدو . لأنه كان قد قرأ فى كتبهم بقوة علم النجوم ، أن محمدًا معممًا بعمامة القضاة من قوم محمد وملته سوف يأتى إلى القسطنطينية على رأسه عمامة قاض ، وهو راكب بغلة وبساطه من السيور والقايش ، وثيابه من الصوف وحذاؤه من اللون السماوى الأزرق وأنه بواسطة إجراء السفن على الأرض سيتمكن من الاستيلاء على القسطنطينية وهذه العبارات مسطورة فى العمد المربع المنصوب فى ميدان السباق (آت ميدانى) وهى ظاهرة لمن يمعن النظر فيها .

---

(١) هذه الكلمة محرفة من «عزبان» وهو صنف من الجيش العثمانى كان يستخدم فى الحدود والموانى البحرية ولا يسمح لأفراده بالزواج . فلذا سمو «عزب» وجمعه «عزبان» و«عزبلر» .

(٢) تكفور كلمة يونانية الأصل أو رومية ، كان العثمانيون فى عهودهم الأولى يطلقونها على حكام ولايات الأناضول والروملى من البيزنطيين قبل استيلائهم عليها . (د . أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ، ص ١٠ ، القاهرة ١٩٧٦م)

هذا وما أن شاهد الكفار ورأوا أن السفن تجرى من البر إلى البحر حتى عمدوا إلى البحث عن تدبير ينجيهم من الورطة التى وقعوا فيها . وإذا بهم يرون فى الأفق أن نجدة قادمة إليهم بإذن الله وهى ظهور اثنتى عشرة قطعة من سفن «الغليون» أمام القرن الذهبى أمام «سراى بورنى» موفدة من قبل كفار فرنسا . وهكذا كان الكفار جميعًا مطمئنين لناحية البحر منهمكين كلهم فى القتال فى الجهات البرية وكان الملك تكفور حينذاك فى سراى تكفور فى (اكرى قپو) فلم يكن يتصور أحد قدوم أو ظهور شىء فى جانب البحر أو أن يطير طائر فى السماء فى تلك الجهة . لأن ألف مدفع من «مدافع باليمز»[١] كانت موضوعة فى (سراى بورنى) ومائة مدفع فى (قيز قله سى) وخمسمائة مدفع فى الطوبخانة القديمة التى يقال لها الآن (كراج قپوسى) فى حى غلطه .

ولقد رأيت وأنا صغير تلك المدافع موجودة فى كراج قبوسى تطلق فى أيام العيدين ابتهاجًا وفرحا . ولما ندب السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا إلى بغداد ونصبه قائدًا عامًا لحمايتها ، كسرت تلك المدافع وصبت منها مدافع صغيرة من نوع «باليمز» وأرسلت بالسفن إلى الإسكندرونة ومنها إلى قلعة «بيره جك» (البيرة) فى مدة ثلاثة أيام حيث أرسلت منها إلى بغداد بمراكب تسمى (كلك) (طوف) فى نهر مراد .

ونقول أن مضايق القرن الذهبى المثلثة (ساج أباغى) (سراى بورنى) هذه كلها كانت محصنة ومجهزة بمدافع «باليمز» الجبارة فلذا لم يكن بهم أى خوف ولا قلق على أنفسهم ، وقد تقدمت السفن القادمة بنجدة لهم بلا وجل إلى ميناء البطريكخانة المسماة (فنار قپوسى) وأطلقوا وابلاً من النيران من البنادق وبضع طلقات من المدافع ابتهاجًا بسلامة الوصول ثم ألقوا المراسى وأخذ بعضهم ينزل إلى البر وبينما هم كذلك وإذا بسفن السلطان محمد من الفرقاطات البالغ عددها مائتين تنزل إلى الميدان بقيادة الرئيس (شاه قولى) كالصاعقة تنقض على سفن الكفار وتستولى عليها جميعًا من غير أن تترك لها الفرصة لأن تطلق طلقة واحدة . وحينما استحوذ على تلك السفن البالغ عددها اثنتى عشرة وأخذ يجرها ويسحبها إلى حديقة الترسانة كان من فيها من كفار فرنسا يصيحون بلهجتهم الخاصة بقولهم (كى پرلار سينوركى پالار) Ki Perlâr Sinyor Ki Perlâr

(١) مدافع باليمز : مدافع ضخمة استعملها العثمانيون فى الحروب ، وهى نمساوية الأصل Balimoz ثم انتقلت إلى إيطاليا Pallamezza ، ثم حرفت فى التركية فأصحبت بال يمز Bal yemez ومعناها الحرفى : من لا يأكل العسل

فيجيب عسكرنا نحن لا نقسمها[١] ، لا نقسمها بل نأخذها كلها فى تشغيلكم فى أعمال التجديف وفى التشهير بكم فى البلاد سائحين فيها معكم لنأخذ الكفار كلهم من نواصيهم ونوقعهم فى ذلك الأسر . ولاشك فى أن هذا الحادث الفجائى قد فت فى عضد الكفار وأوقعهم فى حيص بيص .

هذا ولما وصل نبأ الفتح المبين والانتصار الباهر لمسامع السلطان أبى الفتح الذى كان حينئذ مشغولا بمجاهدة «باب أدرنة» بادر إلى الركوب من مرفأ ياودُود زورقا وجاء إلى حديقة الترسانة ، حيث شاهد فيها اثنتى عشرة قطعة من السفن كالكتل السوداء من الجذوع والأورمة الجهنمية ، مليئة بالغنائم والأسلاب فأخذ منها العشر الشرعى حسب الأصول ، ووزع الباقى منها على المجاهدين الذين قاموا بالغزو والهجوم .

وحدث أن كانت إحدى تلك السفن تحمل بنت ملك فرنسا وهى بارعة فى الجمال كأنها الشمس يبهر سناها العيون ، وكانت مخطوبة لملك استانبول الملقب بتكفور ولقد كان هؤلاء الكفار قد هاجموا بلاد الإسلام للحصول منها على جوار خاصة لهذه العروسة العظيمة والدرة اليتيمة ، فكانوا أغاروا على بلاد عكا وغزة والرملة وأسروا منها زهاء ألف بنت من بنات الأمة المحمدية وهن كالأقمار والشموس . وكانت هذه الجوارى الأسيرات أيضًا موجودات بين تلك الغنائم حيث سلمهن السلطان لأمانة الشيخ آق شمس الدين وذهب هو بنفسه لمباشرة حصار القلعة وإتمام فتحها . وقد تم ذلك بإذن الله وأمره الكريم فى اليوم الذى عينه وحدده بالضبط الشيخ آق شمس الدين من شهر تموز (يوليو) فى سنة ٨٥٧ الهجرية . وقد وقع لفظ (آخرون) تاريخًا لذلك[٢] .

ولما فرغ السلطان محمد من فتح القسطنطينية عقد قرانه على بنت ملك فرنسا ، وأمر بالأفراح العظيمة وتوزيع الصدقات وخلع الخلع ، بعد أن دعا له الشيخ آق شمس الدين بالبركات ، قائلا له : إنى لأرجو منك أن تقوم بواجبات السلطنة والحكم كما ينبغى ، وأن تفرق الخبز وتوزع الخيرات والإحسانات على الغزاة المؤمنين الذين شاركوك فى شرف فتح اسلامبول حتى يكون إطلاق لفظ (خوانكار) عليك صحيحًا وجديرًا . فما كان من السلطان أبى الفتح محمد إلا أن أنعم بالإقطاعات الكثيرة كبيرة وصغيرة بها

---

(١) هذا لعب لفظى فإن لفظ «بارلاره» يشبه لفظ «پاره له» التركية ومعناه التقطيع والتقسيم . لـ (د . عزام) .

(٢) لفظ (آخرون) بحساب الجمَّل يساوى ٨٥٧ وهو يوافق التاريخ الهجرى لفتح القسطنطينية (د . متولى) .

تيمارات وزعامات على جميع الغزاة المسلمين ، وبذلك تلقب بخنكار (المنعم والمحسن) . وجريا على عادة تلقيب السلاطين بالألقاب فقد أصبح سلاطين آل عثمان يلقبون بلقب . . . . وخادم الحرمين ، وسلطان البر والبحر ، وسيد العرب والعجم ، وصاحب قران (المسعود) الشرق والغرب . هذا هو سبب تسميتهم بلفظ (خُنكار) والسلام .

هذا وكان عربان مصر ينادون بقولهم (الله ينصر السلطان سليم) حينما فتح مصر . وأما العجم فيطلقون على آل عثمان عبارة (شاه بلاد قيصر) كما يقولون لشاههم (شاه بلاد إيران) ويطلق على أمير الحج بمصر لقب سلطان البر ، وإنه لجدير بأن يطلق عليه لقب السلطان لأن إعانة جيش آل عثمان لقافلة الحجاج المسلمين خدمة كبيرة وعظيمة . كما أن هناك من عربان الصحارى بعض أصحاب البيوتات الشريفة نزلنا عليهم ضيوفًا فى أكثر سياحاتنا وعديد رحلاتنا . ويطلق العربان على هؤلاء الرؤساء أيضًا لفظ سلطان البر . بيد أن عربان بر الشام وسكان باديته يطلقون على مدن صحاراهم مثل هذه الألفاظ : آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل بنى رباع وآل بنى زهد . وكذا يقولون نظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر ، كما أن رجال شرطة مصر (صوباشيه) يختارون من بين رجال فرقة (المتفرقة[1]) فيلقب رئيس شرطة مصر أيضًا بعبارة والى مصر لأن وظيفة الصوباشية (الشرطة) قديمة جاءت إلينا من عهد الفراعنة إذ الفرعونية أيضًا ناشئة من الصوباشية ، وذلك أن أحدًا من الصوباشية عثر ليلة من الليالى بملك عصره طائفاً متنكرًا فقبض عليه في سوق الصليبة وصلبه فورًا ونادى بنفسه سلطانًا وفرعونًا مستقلاً هاتفًا بقوله (أنا ربكم الأعلى) ثم مرت الدهور والشهور فلم يبق بعدها أثر لوظيفة الصوباشيه قط حتى أن سيدنا الإمام الشافعى حينما قدم إلى مصر لم يكن بها (صوباشى) .

حكاية غريبة

لما جاء الإمام الشافعى من بغداد إلى مصر ووطئت قدماه أرضها أغار اللصوص على بيته وسلبوه جميع تآليفه وثمرات اجتهاده التى كانت مدونة فى أوراق كثيرة غير منظمة تقدر بالأحمال ومئات المجلدات . فتألم الإمام كل التألم لما أصابه من ضياع تلك

---

(١) فرقة من الفرسان كانت تُمنح الإقطاعيات ويرأس كل مائتى فارس من هذه الفرقة (متفرقة باشى) . (د . السعيد) .

الكتب والتآليف التى أفنى عمره فى تصنيفها وجمعها . ولذا هرع إلى سدة السلطان «محمد أكراد» وطلب منه أن ينصب فوراً من رجاله رجلاً شديدًا بطاشاً فتاكًا فى وظيفة الصوباشية ليقوم بالمحافظة على الأمن . فأجاب السلطان طلبه وعين رجلاً شديد البأس فى وظيفة الشرطة وإذا به رجل حازم عارف بخفايا مصر ملم بأمورها فقد عمد أول ما ابتدأ العمل إلى إقامة حفلة مولد فى منزله فى ليلة من الليالى ودعا إليها جميع علماء مصر وفى أثناء السمر وتجاذب أطراف الحديث فى شتى المواضع قال الصوباشى يا مشايخ ، هلا سمعتم أن الإمام الشافعى تكرم وتسبب فى تعيينى صوباشيا لمصر وهذا حسن ولكنه الآن يطالبنى بأن أرشوه وأعطيه البراطيل نظير عمله ذلك ، فهل هذا جائز فى المذهب الشافعى؟ فأنتم علماء مصر هل تسيغون أن يلحق بنا هذا الظلم؟ فما كان من هؤلاء العلماءالذين كانوا يكنون الحقد والحسد للإمام الشافعى لكونه صار صاحب مذهب مستقل ، إلا أن قالوا جميعًا يا أيها الوالى إياك أن تعطيه فلسًا واحدًا فإننا غير معترفين بمذهبه فالمذهب القديم لصاحب التفسير الجريرى (جرير)[1] وأما كتبه الحديثة وغيرها كلها فقد سرقناها منه وسنحرقها بعد بضعة أيام كلها بالنار ثم نرجمه هو أو نبعده إلى السودان .

وقد تلقى الصوباشى هذا الخبر الخطير بكل هدوء ولباقة وقال أيها النقباء والأساتذة الفضلاء أكملوا تلاوة المولد فستأخذون صُرركم وعطاياكم كاملة مستوفية . قال هذا وذهب هو بحجة القيام بطواف فى المدينة ، إلى قصر السلطان «محمد أكراد» رأسًا ورفع إلى سدته ما سمعه من هؤلاء العلماء كلمة كلمة من غير زيادة ولا نقصان ، فما كان من السلطان إلا أن ركب فرسه وذهب بنفسه مع الصوباشى إلى مجتمع العلماء فى بيت الصوباشى وكبسهم وضرب نطاق الحصار عليهم وحبسهم هناك حتى فتشت بيوتهم ، فوجد بها جميع أموال وأوراق الإمام الشافعى المسروقة وانعقد الديوان السلطانى فى صباح الغد وصدر منه تفويض تام من السلطان وبإذن الإمام الشافعى وموافقته إلى الصوباشى باتخاذ ما يلزم نحو مجازاة هؤلاء العلماء السارقين ، وعلى هذا قام الصوباشى بقتل مائتى عالم من الذين خالفوا الشافعى ولم يبايعوه على إمامته وارتكبوا جريمة التشيّع . وعامل مائتين آخرين بالصفح والمغفرة لقبولهم التوبة عما بدر منهم فى حقه

(١) المقصود أنه محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وكان شافعيا ثم كون فرقة الجريرية . . . (د . السعيد) .

وتعهدهم بالعمل بمذهبه كما يريد . وهكذا ظهرت كتب الإمام الشافعى للعيان وراج مذهبه بمصر من ذلك الزمان .

هذا ولا يزال يقوم الصوباشى كل صباح فى مصر بالأمر ومعه ثلاثمائة قواص حاملين النبابيت فى أيديهم واثنا عشر جلادًا يفتحون له باب الشرطة وفى حضور جميع أتباعه وجنوده ، يرفعون كلهم أيديهم إلى السماء داعين لله تعالى بقولهم اللهم ارحم قدوتنا وباعث رفعتنا سيدنا الإمام الشافعى ، ثم ينتشرون فى الأرض ويلجون الأزقة والشوارع متجسسين وباحثين عن اللصوص والسارقين والنشالين . فيلقون القبض عليهم أينما كانوا . إذ أن جميع أولاد الزنا من لصوص مصر وأهل الفساد منهم مسجلون ومقيدون فى دفتر الصوباشى الجبار . وإذ كان الصوباشى حاملاً تفويضًا مطلقًا فإنه يسمى (والى الولاية) ويهابه الأشقياء على اختلاف ألوانهم ومشاربهم لأنه يقدم على قتل من يشتبه فى أمرهم حالا سواء أكان مذنبًا أم لم يكن كذلك ، وذلك بمجرد المرور أو العثور عليهم إذا كانوا متلبسين بأوضاع غير مقبولة ، إلا أنه يقال لا يمكن ضبط فلاحى مصر (أهل مصر) إلا بهذه الطريقة ، فالأمن لا يتوطد والنفوس لا تصلح إلا بها . ولاسيما أن بين هؤلاء الأشقياء والعابثين بالأمن من يتواطأ مع من هم على زى العلماء والمشايخ ذوى العيون المكحَّلة وحملة المسابح والمساويك من الوعاظ والناصحين فى الجوامع والزوايا .

وصفوة القول أن علماء مصر قد يرتكبون أنواع الأعمال غير المشروعة ، فمنها أنهم يبيعون وقفًا من أوقاف الله باسم الاجارة الطويلة إلى الغير لمدة تسعين سنة فيتبادله نسله بطنًا بعد بطن بالوراثة كالملك تمامًا[١] وعلى هذا المنوال قد وضعوا أيديهم على مئات من الأوقاف كدور القراء والحديث ، والمدارس ، فجعلوها بيوتًا ومنازل لهم . فلهذه الأسباب لابد لمصر من حاكم حازم جبار شديد البطش . ومع ذلك فإنهم يثورون ضد نفوذ الحكومة دائمًا ، والأمر الآن لصاحب الملك والأرض فقط .

---

(١) يتحدث عن «الحكر» . (د . السعيد) .

الفصل الحادى عشر

فى بيان الثمانية والأربعين سلطانًا وملكًا من حكام جزيرة مصر[١]

ليكن معلومًا لرحالة بلاد الروم (الترك) أن البارى تعالى قد خلق فى الربع المسكون من الأرض ، الاقيانوسات والمحيطات والبحر المتوسط وما فيها من مئات الألوف من الجزر الآهلة بالسكان من بنى آدم . والعلم عند الله . غير أن الله سبحانه وتعالى قد خلق فى بحار الهند والصين والسند اثنتى عشرة جزيرة . وحيث أن كاتب هذه السطور الفقير لم يتيسر له السفر إلى جانب الهند فقد امتنع عن الكتابة عن تلك الجهات .

هذا وإن سبعمائة وستين جزيرة ما بين صغيرة وكبيرة فى البحر المتوسط تخضع لحكم آل عثمان . فمثلاً جزيرة القرم فى البحر الأسود وجزيرة قبرص وكريت المفتوحة حديثًا ، كل واحدة منها تبلغ مساحتها سبعمائة وستين أو سبعين ميلاً على قول المهندس بطليموس وقول (پادار أوكولون) فاتح الدنيا الجديدة وكذا جزائر مدللى ، ولمنى ، وساقز ، واستانكوى ، ورودس فى حكم آل عثمان وهى جزائر ذات خصب وحدائق غناء يبلغ مسطح كل واحدة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل . وفى البحر المتوسط أيضًا جزيرة تدعى «مسينا» مسطحها يبلغ سبعمائة ميل فى غاية العمار والخصوبة لم يدخلها من يوم عمارها أحد من الغزاة والمعتدين وهى خاضعة الآن للأسبان وملكتهم مثل جزيرتى ميورقه ومينورقه اللتين يبلغ مسطح كل واحدة منها سبعمائة ميل أيضًا وهما من الخصوبة والعمران على جانب عظيم . وهناك فى المتوسط جزيرة «قورسيقا» على مقربة من بلاد الجزائر يبلغ مسطحها سبعمائة ميل على جانب عظيم من الخصوبة واتساع العمران ، تخضع تارة للأسبان وأخرى للبرتغال وهى الآن فى حكم الأسبان .

وإذا خرجت أيها القارئ من مضيق سبته (جبل طارق) وتوغلت فى المحيط مسافة ألفى ميل إلى الغرب[٢] تصل إلى جزيرة الانجليز وهى جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس . وتقع عاصمة الملوك الانجليز المسماة انجلترا (لوندرينه) الواقعة على نهر (لوندرا) فى تلك الجزيرة الكبيرة وهى مدينة عظيمة

---

(١) يسمى المؤلف القطر المصرى «جزيرة مصر» لأن «طوطيس» أحد ملوك القبابطة حينما أجرى نهر النيل إلى بحر السويس صارت مصر جزيرة وأطلق عليها اسم «جزيرة مصر» (انظر ذلك ضمن ما قاله المؤلف تحت عنوان «بيان قبر محى الدين العربى» . (د . متولى) .

(٢) الصحيح إلى الشمال (المترجم) .

جدًا وهناك غيرها من المدن فى غاية العمران يبلغ عددها سبعمائة مدينة كما يذكرها الرحالة الروم (الترك) حسبما هو مشهور فى أنحاء العالم وهناك جزيرتان أخريان فى المحيط تدعى إحداهما برنده والأخرى .... يبلغ مسطح كل واحدة منهما ألف ميل وهما خاضعتان دائمًا لحكم الانجليز ولكنهما ليستا كجزيرة الإنجليز عامرتين وأهلتين بالسكان .

وصف الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة مصر

هى أرض القاهرة المعزية وجزيرة أكبر من جزيرة الانجليز . ولقد قام جميع المهندسين والحكماء الأقدمين من كل الملل بالطواف حولها ألف مرة فى البر والبحر وسجلوا طول النهار وعرض البلد وحالة الجو والمناخ ، فوجدوا أنها جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية عشر ألف ميل وأن شكلها مربع وجانبها الشمالى المتجه إلى النجم هو البحر الأبيض المتوسط الذى يبتدئ من مضيق «سبتة» حتى بحر العريش حيث يبلغ طول السواحل فى تلك المسافة ألفى ميل ، وتحتوى على بلاد سبتة وطنجه ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، ورشيد ، وجربه ، وكبريت ، وبنى هلال ، (هكذا!) والإسكندرية (بعد مرور الصحراء فى الصحراء) ودمياط ، وقلعة التينة ، والعريش ، وبعد مسيرة يومين يأتى بحر السويس في طريق برى لا بحرى .

هذا ولقد ذكرنا أن السلف من الملوك كانوا قد قطعوا هذه الأرض وحفروها بحيث صارت مصر جزيرة . وإذا سرت فى ساحل البحر السويسى تأتى أرض الصعيد الأعلى وبها من المدن والبنادر كثير . كما أن فى الساحل الشمالى لبحر السويس المتجه إلى النجم مقابل الساحل السابق الذكر ، فى أرض الكعبة (الحجاز) ..... توجد قلاع (المويلخ) وينبع وجدة وأراضيها . ففى الجانب المقابل لهذا أيضًا حيث جزيرة مصر ، توجد أرض الحبشة التى توجد بساحلها المطل على بحر السويس بنادر بُرغا ، وقصيرة ، ورَيدة ، وأبرش ، وآجون ، ودنقلاب وبندرات ومدينة سواكن التى هى مركز باشا الحبشة ، وبندر مدينة قف ثم جزيرة دهْلَك ثم جزيرة قلعة مصوع ثم قلعة خارق أوا ثم بندر زوله Zule ثم قلعة هندية ثم بندر توزله ثم بندر بهلولة ثم بندر مدينة زيلع حيث المسافة من ميناء السويس إلى هذا المحل تبلغ ألفى ميل . فهذه البنادر والمدن الواقعة فى ساحل بحر القلزم أعنى بحر السويس مدن عامرة محسوبة أيضًا من جزيرة مصر .

هذا والأراضى الواقعة وراء ذلك مبتدئة من البحر المحيط حيث مضيق زيلع المعدود من جزيرة مصر مارة بمنبع نهر النيل حتى مضيق سبتة يبلغ طول مسافتها أربعة عشر ألف ميل وهى تحتوى على بنادر ومدن عامرة كلها تخضع لملك البرتغال وليس لأحد غيره سلطة عليها . لأن هذا الملك قد تمكن من الإحاطة بالأربعين حاكمًا الذين هم فى جزيرة مصر . من الجهات الثلاث . ولقد كانت مصر جزيرة عظيمة وكبيرة جدًا بحيث كان خط الاستواء واقعًا فى الشلال الكائن على مسافة عشرين منزلاً ومرحلة من بلاد مصر ، فإن كاتب هذه السطور حينما كان بها كان الليل متساويًا مع النهار بربع الدائرة . فالإقليم الأول والثانى واقعان فى جزيرة مصر ، كما أن أول الإقليم الثالث يحوى مدن اسكندرية ، ورشيد ودمياط وقلعة التينة فهى لذلك جزيرة واسعة الأرجاء وعديدة الأقطار ، يشقها النيل المبارك من الوسط حيث يأتى من الجهة الجنوبية نابعًا من جبل القمر الكائن فى صحارى وبرارى قاحلة مليئة بالحيوانات السامة والزواحف لا يقطعها المرء بالسفر أقل من سبعة شهور ، فيصب فى بحيرة متكونة من النيل نفسه الذى يأخذ بعده فى قطع مسافة الطريق التى تبلغ مدة سبعة أشهر حتى يصل فرع منه إلى رشيد ويصل الآخر ، وهو الأصل إلى دمياط ، ويطلق عليه حين يلتقى ـ وكأنه البحر ـ بالبحر الأبيض (مرج البحرين) إذ النيل يحلى الماء الأجاج فى البحر لمسافة ثلاثمائة ميل ويجعلها حمراء بحيث أن ركاب السفن القادمة من الروم إلى مصر حينما يريدون التحقق من اقترابهم لمياه مصر يعمدون إلى شرب ماء البحر فإذا وجدوه سائغًا لذيذًا تيقنوا أنهم على مسافة مائتى أو ثلاثمائة ميل من رشيد أو دمياط وإذا كانت السماء صحوا والنهار منيرًا فيرون لون البحر أحمر من ماء النيل فيحمدون الله على ذلك ويضحون فى سبيله الأضاحى والقرابين .

هذا وفرع آخر من النيل يجرى نحو السودان الواقع غربى جزيرة مصر . ويقال أن فرعًا آخر منه كان يصب فى البحر الأبيض مارًا ببلاد بنى هلال الواقعة فى المغرب ، تجاه جزيرة كريت ومازالت مجارى ووديان هذه الفروع ظاهرة للعيان ، حتى جاء سيف ذو اليزن وقطع مضيق الشلالات وجرى النيل كله إلى مصر وانقطع عن الجرى إلى بلاد بنى هلال التى أملحت بعد ذلك وصارت قاحلة . كما أن فرعًا من النيل بعد أن ينبع من جبل القمر يجرى إلى ولاية السودان الواقعة فى الغرب ويصب فى البحر المحيط .

وفى بلاد مصر مئات وألوف من الترع المتفرعة من النيل ، إلا أنها ليست أصلية بل اصطناعية حيث تجرى فيها المياه عند طغيان النيل وفيضانه . وسنذكر إن شاء االله الترع بالتفاصيل فى محلها . وهناك أرض خالية تقدر بأراضى إقليم تقع بعد خط الاستواء جنوبى جزيرة مصر ، لم يطلق عليها اسم إقليم ما لعدم توطن الإنسان فيه لشدة الحر وكثرة الزواحف السامة به ولقد نقل لى محمد إدريس فى بلاد الفونج أن تلك الأراضى يسكنها ويملكها الآن البرتغاليون الجدد .

وبلاد مصر هذه جزيرة يحكم أكثر من نصفها سلاطين آل عثمان وعلاوة على سياحتى فى هذا القسم من هذه الجزيرة الكبيرة فإنى قد ارتدت البلاد الجنوبية أيضًا وها أنا أذكر أوصاف مدنها وسلاطينها أصحاب الخطبة والسكة وغيرهم من ملوك مع ألقابهم فأولا :

سلاطين شرفاء آل الأدارسة

قامت دولتهم فى بلاد المغرب وعدد ملوكها خمسة . ولما كان أولهم يدعى إدريس فقد وصفوا جميعاً بالأدارسة . وينتهى نسبهم إلى سيدنا على وكلهم حسنيون ومدة خلافتهم (٢٠٣) سنة[١] .

سلاطين آل حمود

قامت دولتهم فى الأندلس وعدد ملوكها [١٣] نفراً . أولهم (ناصر دين الله)[٢] وثانيهم المؤمن بالله وهكذ لهم مثل هذه الأسماء ومدة دولتهم [٤٢] سنة .

سلاطين الموحدين

قامت دولتهم فى بلاد المغرب وجزيرة الأندلس . عدد ملوكها ثلاثة عشر وابتداء ظهورهم ونشأتهم من الشام . مدة دولتهم [١٤٤] سنة .

سلاطين آل طاش[٣] (لعله يقصد يوسف بن تاشفين)

قامت مملكتهم فى فاس ومكناس عدد ملوكها سبعة ومدتهم (. . .) سنة ويطلق على هؤلاء أيضًا لقب الملك .

---

(١) السنة من وضع د . السعيد ، ومكانها خال فى الأصل . (د . متولى) .
(٢) المقصود علىّ الناصر لدين الله . (د . السعيد) .
(٣) فى نسخة يلدز (طاس) بالسين . (المترجم)

سلاطين آل الملثمين

قامت دولتهم فى بلاد المغرب والأندلس . وعدد ملوكها ستة . وكانوا على العموم ملوك جزيرة مصر ما عدا إقليم الحبشة . وأصل هؤلاء الملوك من بلاد اليمن من قبيلة حمير الذين حضروا فى غزوة الشام فى عهد الخليفة عمر . ثم التحقوا جميعًا بعد فتح الشام بجيش عمرو بن العاص ووفدوا معه إلى مصر حيث استمروا فى معيته هنالك وصاروا من أتباعه وأنصاره حتى تعين رئيسهم حاكمًا على بلاد «أوجله» وعندما جردت حملة عسكرية قوامها خمسون ألف من الجنود من مصر إلى طنجة بلاد المغرب حيث كان كفارها قد طغوا وبغوا . وكانت الحملة بقيادة موسى بن نصير وكان الملثمون قد أرفقوها أيضًا بحاكم أوجلة هذا . فذهبت الحملة وحاصرت قلعة طنجة حتى انتزعتها بحد السيف . وقد استوطن الملثمون هذه القلعة ولبثوا بها وتناسلوا حتى صاروا خلفاءها فخلافتهم الآن جاءت من هذه الناحية . ومدة سلطنتهم مائة وخمس عشرة سنة[١] .

سلاطين بنى مرين (سلاطين آل بنى حرين)

وهم من ملوك فاس ومرانكش (مراكش) . عدد ملوكهم سبعة عشر . فبعد أن حكموا مائتين وثمانين سنة . انتقلت دولتهم بكل ذلة ومسكنة إلى الغير . بيد أنهم كانوا شجعانًا وأبطالاً إذ أخضعوا الأسبان والبرتغال لأمرهم بفضل إغارتهم الشعواء بألف قطعة من السفن عليهم ، وإطلاق يد النهب والسلب فيهم .

سلاطين شرفاء آل كامل

قامت مملكتهم فى المغرب وفاس ومراكش (مرانكش) . وعددهم سبعة يطلق عليهم لقب (شرفاء الكاملية) . إذ كانت أسماؤهم هكذا ناصر الدين الكاملى وسليمان الكاملى . ولقد زحف منهم «سبوع الكاملى» إلى مصر بجيوش جرارة كالبحار المتلاطمة . فلما اقتربوا من مصر ودخلوا بلدة منها تدعى (حوش عيسى) وهى لا تزال موجودة فى أرض البحيرة هلكوا جميعًا بريح صرصر عاتية أغرقتهم فى بحار من الرمل الكثير . وهكذا انتهت أيام شرفاء الكاملية هؤلاء بانقضاء أيام هذا الملك المسمى بسبوع الكاملى . فجاء الكمال مؤذنًا بالنهاية المحتومة .

---

(١) ، (٢) السنة من وضع د . السعيد ، وهى خالية فى الأصل . (د . السعيد) .

دولة بنى الأغلب

قامت دولتهم فى أفريقيا . وعدد ملوكها عشرة يسمون (الأغلبيون) كانوا دائمًا فى نضال وقتال مع الأسبان . مدة حكمهم ١١٢ سنة . ولا يزالون مضرب المثل . فإذا تكلم أحد باستعلاء قيل له : أمن بنى الأغلب أنت؟ . إذ كان عشرة منهم بإذن الله وحكمته يغلبون أضعافهم من أعدائهم أينما كانوا وأينما توجهوا . ومدة سلطنتهم [١١٢] سنة .

دولة بنى كلب فى جزيرة صقلية

عدد ملوكها تسعة . وتنحصر مهارتهم فى الانتقام من الأعداء بفضل سفنهم القوية . مدة سلطنتهم [١٢٨] سنة .

دولة آل باديس (من بنى حماد)

قامت فى ولاية أفريقا وعدد ملوكها ثمانية ومدة سلطنتهم . . . . سنة[١]

دولة بنى حفص (حفظ)

قامت فى ولاية تونس وأفريقية . وعدد ملوكها اثنان وعشرون . فى سنة ١٠٣[٢] فتح هذه الديار عبد المؤمن الأموى بتجريد ألف قطعة من السفن عليها . وقد ترك بنو حفص هذا حكامًا زادت شوكتهم وعلا قدرهم يومًا فيوما حتى صاروا خلفاء لقبت ذريتهم وسلالتهم بآل بنى حفص ، نسبة إلى بنت سيدنا عمر المسماة (حفصة) .

دولة سلاطين فاس

فى بلاد المغرب بلدة عظيمة تدعى (فاس) ولما كانت عاصمة سلاطينها فقد اشتهر ملوكها بسلاطين فاس . ودولتهم قائمة من يوم عهد العباسيين وأسماء ملوكها هكذا ، هارون فاس ، منصور فاس . . . ويمتد سواد بلادهم حتى شواطئ البحر المحيط ، بيد أن البرتغال يغيرون عليهم ويستولون على قلاعهم أحيانًا لأنهم مشاعون ومشتركون مع هؤلاء الإفرنج من البرتغال .

دولة سلاطين مرانكش العظام

لا يوجد أقدم من هذه الدولة من الدول التى قامت فى جزيرة مصر تسيطر على ألف

---

(١) عدد آل حمّاد تسعة حكموا بالجزائر من ١٠٠٧ إلى ١١٥٢ هـ . (د ، السعيد) .

(٢) فى نسخة يلدز سنة ٦٠٣ هـ . (المترجم) .

ألف من العساكر كلهم مالكية فلم تتعرض دولتهم إلى الغزو والتعدى من أية جهة . ولقد وهب الله بلاد مراكش وبلاد الهند المال الكثير الذى يربو على مال قارون . هذا ويطلق على ملوكها اسم السلطان ويقال أن وجوه سكانها بيض تلمع وتضوى كالنور . ولكنى لم أرهم ولم أجتمع بهم فلم يتيسر لى السفر إلى بلادهم . وهذه الدولة أيضًا مجاورة للبرتغال وتقع فى جنوب بلادهم .

دولة سلاطين السودان

يطلق على ملوكها بدل السلطان لفظ «سودان» هكذا ، سودان محمد ، سودان عبدالله ، سودان على . هؤلاء وكثير غيرهم من الناس يعتنقون جميعًا مذهب الإمام مالك . ولا يتم الاعتراف بخلافة أحد منهم حينما تنتقل من واحد إلى آخر ، إلا إذا اتفقوا على اختيار واحد منهم ، فدولتهم الحالية قائمة بالحكم منذ سبعمائة سنة . ولها عسكر لا يحصى ولا يعد ، وقلاع حصينة يبلغ عددها سبعمائة . رجالها فى غاية الشجاعة والبسالة يحاربون البرتغال دائمًا . وقد اختلط هذا الضعيف كاتب هذه السطور بأفراد هؤلاء القوم فى بلاد الفونج فرآهم بيض الوجوه والأجسام ، كبار العيون والحواجب ، ضخام الأجسام ، وأكثرهم ملاحون .

أوصاف دولة سلاطين بلاد الفونج

الفونج قوم سمر اللون يسكنون شواطئ النيل فى أراض ذات حرارة شديدة تقع على مسافة عشرين مرحلة فى داخل منطقة خط الاستواء ، ويلقب حكامهم ب (الملك) ولهم اعتقاد تام بآل البكرى فى مصر ، وملوكهم شديدو الإيمان بالله والتمسك بعقيدة التوحيد مع تقوى وزهد كبيرين . وليس لهم عملة خاصة . بيد أنهم يوصفون فى الخطب على المنابر بقولهم (الملك عطاء الله) وقد يلقبون بلفظ (ماى) الذى معناه السلطان .

وإلى الجانب الشمالى من هذه البلاد تقع

دولة ملوك البربرستان

يطلق على مدينة هذه الدولة اسم (دنقلة) وهى تقع على شاطئ النيل وجميع أهاليها وسكانها سمر اللون إلا أن فيهم حسانًا من الرجال والنساء على جانب عظيم من الجمال . وليس لدولتهم عُملة خاصة ولكنهم فى خطب الجمع يذكرون ملوكهم فيقولون

الملك إدريس . والملك حمد ، والملك حسن ، وسيذكر هذا إن شاء الله فى محله . وسكان بلاد البربر هذه أناس متقون موحدون صلحاء وهم شافعيو المذهب . . . وينعت ملكهم بألقاب (قولو دنقول) عبد الدنقول وإدريس دنقول ، وحامد دنقول وهكذا . ولغتهم هى اللغة العبرية رأسًا لأن سيدنا إدريس بعث لأهالى هذه الديار .

دولة آل قرمانقه

يطلق على ملوكها (قاقان) فمثلاً يقال (عادى قاقان) و «زوال قاقان» ، و«إدريس قاقان» وهم ملوك مسلمون ، سحنهم ووجوهم ضاربة إلى الحمرة . والشعب قوم من الكفار يأسرهم الجلابون فيأتون بهم ويبيعونهم فى مصر أرقاء وحديثهم بالسريانية وهى لغة صعبة وغامضة جدًا .

دولة آل بغه ونسكى (بجانسكى)

يطلق على ملوكها بغنسكى تقع بلادها فى الجانب الغربى من الصحراء وسكانها قوم من البدو زرق العيون حمر الوجوه سريعو العدو والجرى يبزون الغزلان فى العدو . وليس لدولتهم سكة . ويوصف ملوكهم حينما يذكرون فى خطب الجمع بلفظ (عمران) ومعناه السلطان ؛ فيقولون مثلاً على عمران ، وكمال عمران . هكذا يضيفون لفظ عمران على آخر أسمائهم مهما كانت كصهيب عمران أيضًا .

وخلاصة القول أنهم قوم عرايا كثيرو العدد جدًا لا يحصون ، يحتلون ما بين النيل المبارك وبلاد الحبشة من البلاد الواسعة الأرجاء الممتدة حتى ساحل البحر المحيط ، فلهم أراض مشتركة ومشاعة مع البرتغال . وسلاحهم يتألف من القرون . قرون الغزلان والوعول وهى فى غاية الحدة والمضاء تنغرز فى جسم الإنسان مثل النصال والأسل . وأكثر اختلاطهم وحياتهم مع البرتغال فى البيع والشراء والأخذ والعطاء . فلديهم من عروض التجارة عاج الأفيال المعمرة ألف سنة وقرون الخرتيت (الكَركَدن) وجلود الضب والتماسيح وكذا التبر والزباد (المسك) . ولا يعرف أحد لسانهم ولهجتهم سوى أولاد الحرام من البرتغال الذين وفقوا إلى التفاهم معهم بواسطة علامات وإشارات رتبوها فيتعاملون بها . على أن أئمتهم فى خطب الجمع يبينون لهم ما هو الحشر والنشر والبعث بعد الموت بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ولسانهم عمرانى كما يقال . ولكنى ما سمعت مثل هذا اللسان وسأذكر إن شاء الله نبذة من ألفاظه بالإجمال .

دولة ملوك ذى اليزن

يطلق على ملوكها ألقاب كهذه . ناصر اليزن ، وقاسم اليزن . وذلك مخفف من قولهم (ذى اليزن) . أعنى أنه نسب ينتهى إلى سيف ذى اليزن فلذا يقال لهم (آل ذى اليزن) . فهم مسلمون موحدون شافعيو المذهب سودانيو السحن ليس لدولتهم سكة نقدية خاصة ، إلا أن خيرهم وتبرهم كثير جدًا لكنهم لا يعرفون قدره .

ولقد رأيت فى بلاد الفونج مدينة تدعى (شولمقاى) مشتركة ومشاعة بين ذى اليزن والفونج فوجدت بها أناسًا من ذى اليزن كلماتهم غامضة ولهجتهم صعبة فاضطررت للاستعانة على فهمها بواحد من الفونج يعرف لغتهم فاتخذته ترجمانًا لى وسألتهم فقالوا إن لنا اثنى عشر ملكًا ، كل واحد منهم يملك مئات الألوف من الجنود ونحن محيطون من الخلف ببلاد الحبشة فلو لم نكن موجودين لكان البرتغال قد استولوا عليها . بيد أن الذى نقل لنا هذا القول منهم كان يشبه تمام الشبه نسناسًا وقف على رجليه فهؤلاء الناس كلهم مخلوقات ضعيفة ونحيفة كأنهم نمل أسود له أرجل الجراد ، ومع ذلك يهابهم بنو آدم وذريته عامة . وهناك أقوام أخرى لا يعرفون ما هو الكفر والضلال ولا الجنة ولا جهنم ، وكأنهم نوع من الحيوان الناطق . ولكن هذا الضعيف لم يرهم قط .

دولة بنى هلال

تقع بلاد هذه الدولة فى ديار المغرب بجانب (أوجله) وهى الآن مدينة بنى هلال تجاه جزيرة كريت (كرميوين) . وكانت مدينة عظيمة جدًا أغار عليها الأسبان وقتلوا ملكها . إذ كان آل هلال ملوكًا عظامًا انقرضوا من هول تلك الإغارة الشعواء والصدمة القتالة . فقوم بنى هلال الموجودون الآن هم من ذرية هؤلاء الملوك والحكام ، وهم الآن عربان وبدو رحل يبلغ عددهم مئات الألوف ، كما أن لهم كثرة هائلة من الأغنام والمواشى التى تنتج كميات كبيرة من السمن النفيس ذى الرائحة المسكية ، حيث رأيته بعينى رأسى حينما كنت فى كريت مع عسكر الإسلام . ويصدر من هذا السمن أيضًا إلى مصر كميات لا بأس بها .

وقديمًا كان يطلق على ملوك هذه الدولة أسماء مثل نور الله الهلالى وصنع الله الهلالى ، وفضل الله الهلالى وهم يحتلون صحارى بلاد المغرب .

دولة آل أفارقه

يتألف رجال هذه الدولة من جنود عظام يسكن كثير من أغنيائهم المدن كحكام وضباط يطلق عليهم (أفريقه) جمعه أفاريقه .

دولة ماى بورنو (نسخة يلدز بورنق)

ملوك هذه الدولة سنيون على المذهب الحنبلى متمسكون بدينهم أشد التمسك والشعب أيضًا موحد مؤمن شديد الإيمان . يطلق على ملوكهم (ماى) فمثلاً يقولون ماى سنجال ، ماى عباس ، ماى صادق ، يعنى أنهم بدل أن يقولوا سلطان يقولون ماى . وليس لدولتهم عملة خاصة ويستوردون بدل ذلك خرز البغال من مصر فيشترونه بالتبر حيث يضعه ملوكهم ونساؤهم فى رؤوسهم بدل الدر واللآلئ . وحجاجهم يأتون كل سنة إلى مصر قاطعين الصحارى والفيافى فى ثمانية شهور حيث يغرقون مصر فى قدومهم هذا بتبر الذهب . ويقال لملكهم (ماى سنجال الدين) وقد تيسر لى ملاقاته حينما قدم مصر حاجًا ومعه ألف جمل من المال ، فوجدته يستر وجهه مثل النساء حينما يقع نظره على المحارم وينام على وجهه فى الأرض وينكفئ ثم يكلم الناس ويحدثهم وكان هذا الملك رجلاً أسمر اللون أدكنه . وقد توفى إلى رحمة الله حيث وقع فى عقبة الموت الذى لا بد منه فى مدينة العقبة نفسها لدى عودته من الحج وقد دفن بها .

دولة آل آفنو

رجال هذه الدولة سبع قبائل ، إحداها مسلمة ، وليس لهذه الدولة عملة خاصة ولكن الخطب باسم ملوكها ، وهم سمر اللون . والقبائل الأخرى لا تعرف شيئًا عن الضلالة والإيمان . ولما كانوا لا يختتنون قط فإنهم معرضون للأسر والرق بعد القتال وإثارة الحرب ، حيث يساقون إلى أوجله ومصر فيباعون .

هذا وإن هناك كثيرًا من الملوك والحكام فى هذه الجزيرة الكبرى ، إلا أن كاتب هذه السطور لم يتمكن من الاتصال بهم والاطلاع على أحوالهم . وفى الجملة من المستطاع أن يقال أن فى مصر وأقطارها الواسعة من الأمم العرايا ، بقدر ما هو موجود على وجه البسيطة من الأناس اللابسين المكسوين .

دولة الجزائر

كانت أراضى هذه الدولة مملكة ذات سكة خاصة خاضعة لأمر الأسبان . ففى سنة [. .] فتحها السلطان سليمان خان على يد الباشا خير الدين بارباروس . ولا يزال يحكمها باشا له رتبة وزير . وللمملكة خطبتها وسكتها وجيشها الذى يقدر باثنى عشر ألفًا من الضاربين بالنار .

دولة ولاية تونس

كانت هذه أيضًا مملكة ذات سكة خاضعة للأسبان ، وفتحها السلطان سليمان خان فى سنة (٩٨٢هـ) على يد (قلج على باشا وسنان باشا) (فى الأصل طورغود) فهى الآن إيالة يحكمها وزير . ولها سكة وخطبة وعشرون ألف جندى من الأشداء .

دولة ولاية طرابلس (الغرب)

وهذه أيضًا كانت خاضعة للأسبان فتحها سليمان خان سنة [٩٥٨هـ] على يد الباشا [طوغور] ولا تزال عملتها رائجة وخطبتها قائمة ، ولها جيش قوامه عشرون ألف جندى تخافهم الكفار ويهابهم العدو ويرتعد منهم فرقاً ، وكانت خاضعة للكفار وكانت أيضًا ذات سكة وبلاد واسعة الأرجاء يحكمها ملك . وكان يكتب على سكتها (صاحب النصر صالح النصر ضارب البر والبحرين السلطان بن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره) ولها ذهب مُمَسَّك (صاف ومركز) لأن تربتها تحتوى على كميات هائلة من التبر . وفيها نجوع عربان تدعى «محلات» يذهبون إلى قتالها فى بعض الجهات بأشد الجيوش فتكًا مثل الجزائرلية والتونسية والطرابلسية لاستيفاء مال السلطان منها .

فلو أننا استرسلنا فى وصف مشايخ هؤلاء العربان لاحتجنا إلى مدونات كبيرة .

هذا وفى سكة غيرهم من السلاطين يكتب عادة بعد لفظ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) اسم السلطان الذى أصدرها وضربها . ولاشك فى أن هؤلاء المذكورين من الملوك والسلاطين يسيطرون على عدد من المساجين والمعتقلين من أقوام وشعوب آفنو وبورنو وقرمانق وبفنسكى وفونجى بحيث أن كل ملك أو سلطان لايزال فى قتال وحرب مع هؤلاء مما يتيح الفرصة للنخاسين والجلابين للاستحواذ على عدد كبير من هؤلاء الأقوام فيعرضونهم فى مصر للمزايدة بالأسواق . وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى فى تلك الجهات النائية مخلوقات مضحكة يتخذها الناس هزواً .

وقد بينا لك أيها القارئ وصف السلاطين بالجانب الغربى من بلاد مصر . والآن نشرح لك الجانب الشرقى منها . فإذا سألنا سائل عن الشرق والغرب من الجوانب فنقول أن النيل المبارك يشق جزيرة مصر من وسطها فتقطع الجزائر وفاس ومرانكش والسودان فى الغرب . وأما الشرق فالحبشة ودهلك وزيلع وبلاد الفونج .

دولة ملوك دومبية

هى دولة لقوم سود الوجوه لايعدون ولا يحصون . مذهبهم «بنانى» أعنى أنهم يعبدون النار . وأنهم أصحاب مال وفير وثروة كبيرة تقرب من ثروة قارون .

دولة آل جابية

رجال هذه الدولة أيضًا أقوام كثيرون قد استولوا على الجبال والوهاد ويطلق على ملوكها (زاد قائى) وهم من ذرية كنعان بن نوح . سمر الوجوه مقطبوها يعبدون الشمس . وخلاصة القول أن فى بلاد الحبشة سبعين ملكًا يعتنق كل واحد منهم مذهبًا خاصًا . وكلهم سود البشرة لأن شدة الحرارة واقعة على هذا الطرف مسامتة ولكن الجانب الغربى ليس كذلك إذ فيه أناس من البيض وجهات عامرة آهلة بالسكان ولاسيما فى سواحل البحر .

أوصاف دولة ملوك الحبش

كان يطلق اسم (النجاشى) فى زمن الجاهلية على ملوك هذه الدولة . فلما سيطرت دولتهم الكبرى على الدنيا كلها . أطلق عليهم لقب السلطان . وبعد ذلك فى سنة [٩٤٥هـ] وفى عهد سليمان القانونى فتح هذه البلاد أوزدمير من بقايا جند السلطان الغورى الجركسى وكان فى نجدته كل من سنان باشا والطواشى سليمان باشا . ولا تزال آثار ذلك الفاتح من جوامع وعمارات خيرية والقلعة باقية بها . فهى بلاد وإيالة يحكمها وزير . ولها سكة وخطبة . وفى مدينتها أناس من جميع الأجناس والألسنة وعديد اللغات والأقوام وليس منهم أحد على دين الإسلام . لأن اختلاطهم ومعاشرتهم دائمًا مع كفار البرتغال الذين أضلوهم فأوقعوهم فى الكفر .

هذا وقد تم بيان ما كان من الأحوال والوقائع فى مصر ها هنا . وقد جاءت المناسبة لأن نذكر ملوك الملة المسيحية المسيطرين على الأرض من القديم .

الفصل االثانى عشر
فى بيان الملوك الضالين ذوى الأفعال السيئة
من المشركين الطاغين

أول من تملك فى الأرض وسيطر وصار سلطانًا على البسيطة فى الجاهلية هو «كيومرث» من أولاد النبى نوح وهم العمالقة . وكان الملوك المعاصرون لسيدنا عيسى أربع طبقات ، سبق ذكرها . ولكن نذكرها هنا أيضًا لما اقتضاه المقام .

فنقول أن الطبقة الأولى تسمى (پيشداديين) البيش داديه والطبقة الثانية الكيانيين (كيانيان) والثالثة الاشكانيين (اشكانيان) والرابعة الساسانيين (ساسانيان) ولكن الطبقة الدارانية لا تزال أحفادها وسلالتها موجودة بفضل دعاء الرسول لهم إلى آخر الزمان .

دولة كسرى

ملوكها هم الپيشداديون (الدارانيون) وكسرى لقب مفرد جمعه (أكاسرة) وكانت بلاد بغداد والكوفة والاحساء والعجم وخراسان وإيران وتوران فى تصرف هؤلاء الملوك والسلاطين وتحت نفوذهم ، حتى عهد السيد الرسول الذى ولد فى عهد الملك العادل أنوشيروان وقد دعا لهم بالخير والبركة ، فلما قضى آل جنكيز على دولتهم نزحوا إلى بلاد الكرج فتوطنوها ولا يزالون بها . . . . .

آل داويان

رجال هذه الدولة خاضعون لحكم آل عثمان فيقدمون لبيت المؤن السلطانى على طريق الهدايا مائة ألف باز وشاهين والجوارى الحسان والغلمان كاللؤلؤ والمرجان والشعب الداويانى نظرًا لأن مساكنهم ذات جو لطيف ومناخ معتدل فقد تناسلوا تناسلاً عظيمًا وانقسموا فى بلاد الداغستان خمسة أقسام (طبقات) .

الطبقة الأولى : الكرج

هذه الطبقة تخضع للآن لسلطان آل عثمان من عهد صفر باشا (لعلها سفر باشا) .

الطبقة الثانية : (آل آچيق باش) آل ذى الرأس الحاسر

رجال هذه الطائفة يخضعون لولاة أرضروم تارة ويعصونهم تارة أخرى فيشنُّ عليهم هؤلاء الولاة حربًا عوانا ويطاردونهم شر مطاردة حتى تنهب أموالهم من الذهب والفضة

ومن الأوانى وغيرها من الأمتعة وتسبى نساؤهم وجواريهم الحسان وغلمانهم الممشوقو القوام عند ذلك فقد يرضخون ويقبلون الصلح وهم ولاشك فى غاية الشجاعة ومزيد البسالة فلقبوا لذلك بذوى الرؤوس الحاسرة كناية عن الإقدام والجرأة والاستعداد لاقتحام المهالك .

الطبقة الثالثة : آل كوريل

يبلغ عدد رجال هذه الطبقة زهاء أربعين ألف نسمة وهم فى غاية الخضوع والطاعة ومسالمون جدًا .

الطبقة الرابعة : آل شوشاد

هم سلائل أحد أولاد «أنوشيروان» حيث كان يدعى (شوشا) وهم جنود كثيرون لا يعدون ولا يحصون ، إلا أنهم مسالمون هادئون .

الطبقة الخامسة : آل مكرل

رجال هذه الطبقة ليست من الشجاعة على مكانة غيرهم من الجماعات الأخرى فيهم رعايا مسالمون غير محاربين ، يقيمون فى ساحل نهر «چوروغ» فيما وراء قلعة (كونيه) على مقربة من طرابزون وفى شواطئ البحر الأسود .

هذا وكل هؤلاء المذكورين من الملة المسيحية الإنجيلية . فلهم قلاعهم ومدنهم وأماكنهم الخاصة اللطيفة ومساكنهم العالية البهجة . ومن أراد الاستزادة فليراجع وصف المحلات والمواطن التى زرناها سنة ١٠٥٦هـ حيث يتضمن تفاصيل كثيرة عن هذه البلاد .

الطبقة السادسة : آل التاجدار أعنى قوم المجر

ثم إن أحد أبناء أنوشيروان المدعو هرمز (تاجدار) ذو التاج اتخذ «عراق داديان» الواقع فى سفح جبل ألبرز مسكنًا له وهو يحمل تاج نوشيروان .

هؤلاء الناس سكنوا فى قلعة ترابية لا تزال تسمى (تورك أورى) فى صحراء (خريستوس) الواقع بجوار (أكره) التى انتصر فيها السلطان محمد . ولما سئلوا عن اسمهم قالوا (من چار= نحن أربعة) فأرسل الخبر إلى ملك البلاد بأنهم «منچار» ثم تحرفت

الكلمة فصارت مجار . هذا وانتقل تاج ملكهم بعدهم إلى ملك النمسا (چاسنار) . ولما فتح السلطان سليمان القانونى قلعة (وشنجراد) وشغراد وجد التاج المذكور بها فأخذه وحفظه فى خزائنه ، وأخيرًا وهب سلاطين آل عثمان هذا التاج للملك فرديناند حيث تراه الآن فى ديوان ملك النمسا . وقد سبق ذكره فى وصف رحلاتنا التى قمنا بها سنة ١٠٧٤هـ إلى ألمانيا . وليكن معلومًا الآن أن أصل المجر هم الكرج وهم قوم قدماء جدًا جاءوا من بلاد العجم وصاروا مجرًا كما هو الآن .

الطبقة السابعة : ملوك موسكو

وهؤلاء أيضًا من سلائل أبناء أنو شيروان ، إلا أنهم سادوا وعلا شأنهم حتى صاروا أصحاب بلاد عظيمة وفضلاً عن سيطرتهم على إقليمين كبيرين من أقاليم الدنيا السبعة ، فقد صاروا يحكمون أيضًا الدنيا المظلمة وهم من الملة الإنجيلية ، فإذا مات ملك من ملوكهم حتى الآن يأتون بأمير من أمراء الداديان ببلاد الكرج فينصبونه ملكًا عليهم ويلقبونه ملكًا (قرالا) . وأحوال هؤلاء مذكورة بالتفصيل في سنة ١٠٦٦هـ فى سياحتنا وزحفنا مع خانات التتر إليهم ، فليرجع إليها . هذا وديار موسكو هذه تتألف من ثمانية وأربعين بانا[١] (بانلك) وثمانية عشر (أورباى) أعنى الوزارة (والإيالة التى يحكمها الوزير) .

ملوك دولة (لَه) بولونيا

ملوك هذه الدولة أيضًا من نسل «الداديان» وينقسمون إلى ستة أقسام كلها إنجيليون ولقب ملوكهم (بان) حتى . . . . .

دولة التشك (چَهْ)

لقب ملوكها (چهدام) وهو صاحب سكة وشعب ذى بأس شديد

مجر أردل الذين لا دولة لهم

يزعمون أنهم من أحفاد وسلائل (منوچهر) يلقب ملكهم بـ (يورامده) و(بتلان غور) أعنى الملك العظيم . بيد أنهم مشهورون بين الناس بلقب ملك فقط وهم الآن خاضعون

---

(١) بان : حاكم أو رئيس باللسان الصقلبى . انظر :
Demeynard Dictionnaire Turc. Francais: Supplement (د . السعيد)

لسلطان آل عثمان وبلادهم مقسمة إلى أربعة أقسام أحدها (حايد أوشاخ) والآخر (أردل) والثالث قوم (صاز) وقوم آخر (سيكل) وجميع رعاياهم وجمهورهم من الأفلاق ولهم سكة نقدية ، فالسكة التى تسمى القرش القاطع للورق من عملاتهم وتسك (نك) فى قلعة (بانيا) . ولهم ولايات وبلدان عامرة ولما كان هذا الضعيف قد اشترك فى غزوات إسلامية كثيرة فى هذه البلاد فإنى قد كتبت عنها كثيرًا فليراجع سياحة سنة ١٠٧٣ هـ .

دولة المجر الوسطى

ملوك هذه الدولة أيضًا يزعمون أنهم من نسل منوچهر . لأن لغتهم تحتوى على شىء كثير من الكلمات الفارسية . وقلاعهم هى فولك وسمندره ، وكرمات ، وقلعة الفيران . ومقاطعاتهم ضيقة ولكن سكانها كفار شجعان ذوو شهامة . وعملتهم تسمى (زولطه) . وشأنهم فى تدهور وسقوط منذ أن انتزعت منهم مدينة (أكره= آجره) حيث يخضعون الآن لملك النمسا . وهم يلقبون ملكهم بلفظ (پلطنوش) بلاتنوش .

دولة بنى اسفاج (من بلاد السويد)

مملكة عظيمة على ساحل البحر المحيط وصاحبها من الكفار الغلاظ الأشداء له رعايا من التتر الرحّل يبلغ عددهم عشرة ملايين . كما أن عدد الطوائف العسكرية بها لا يعلمه أحد ولا هم أنفسهم . ولقب ملوكها هكذا (أنپر إسفان) (وأنپر رادال) ولها عملة خاصة . هذا وإن ملك النمسا يعجز عن تأديب هؤلاء القوم . فلا يزال القتال ناشبًا بين الطرفين منذ مائة واثنتين وعشرين سنة بالرغم من انقضاء عهود ملوك عدة منهم .

دولة فلمنك العتيقة

يطلق على هذه الدولة اسم (فيامنك) أيضًا . وهى مملكة واسعة الأرجاء تحتوى على أحد عشر خليجًا من خلجان البحر المحيط فى الناحية الشرقية منه . ففى الألقاب التعظيمية يطلق على ملكها (مستردام) ومعناه الأعظم الجليل الشأن إذ يتملك ثلاثمائة من السفن فى البحار . والأشجار الكبيرة التى توجد بهذه البلاد لا يوجد فى غيرها أمثالها . كما أن السفن التى تبنى هنا لا نظير لها سوى بلاد الانجليز . فدولة فلمنك هذه أيضًا ذات سكة نقدية . ولاسيما أن السكة الذهبية والريالات المسكوكة ليس لها نظير . عاصمة الدولة (أمستردام) وقد كتبت عنها (١٠٧٣هـ) فى السنة التى زرتها .

دولة دانمرك (دانيمارقه)

لقب ملكها (أنكور) وهى أيضًا تقع فى ساحل البحر المحيط تجاه جزيرة الإنجليز فلها ولايات واسعة وهى إحدى الممالك السبع التابعة لملك النمسا ، ذات سكة ذهبية وريالات مسكوكة (مصبوبة) عاصمتها أمستردام .

دولة دونقارقيز (دنكيرك)

يطلق على ملكها (دونقارقه) . وهذا يعادل لقب السلطان . ولهم غير هذا من الأسماء والألقاب . ولما كان كاتب هذه السطور فى رمضان سنة ١٠٧٤هـ فى زيارة هذه البلاد ، كانت تتولى أمرها شقيقتان بالاشتراك معاً فى الحكم . وعاصمتها (لونچاط = لونشاط) التى يقيم بها وزراء الدول السبع . لأن بإزائها تقع جزيرة الانجليز الكبيرة . وهذه المدينة ميناء العالم الجديد حيث بها أناس كثيرون من يستوردون منه التبر والبلسانته Pelesante وشجر العالم الجديد وعظام الأسماك الشبيهة بقوس قزح . ويدفعون عنها الرسوم الجمركية للملوك السبعة خصيصًا . ومدينة لونچاط مثل اسلامبول فى الحجم وعدد السكان غير أنها تظهر أوسع منها لتخللها بالحدائق الواسعة التحتانية ولتباعد بيوتها ومنازلها على حين أن بيوت اسلامبول مؤلفة من عدة أدوار وطبقات . وهواء هذه البلاد لطيف وجوها بديع وقد سبق ذكر ذلك فيما تقدم فلينظر هناك . وعلى سكتهم النقدية نقوش صورة بنتين جنبًا إلى جنب . ولهؤلاء القوم نوع من السفن تحتوى كل واحدة منها على سبعة عنابر وثلثمائة مدفع برونز وتسع من الركاب ما يتراوح بين ألف شخص وثلاثة آلاف ، تمخر عباب البحار إلى الهند والصين والعالم الجديد (أمريكا) فهى سفن دونقارقية كبيرة وعظيمة جدًا إذ فيها الأسواق والطواحين والحمامات والحدائق وغيرها من المرافق العامة جديرة بالوصف والمشاهدة والتنويه عنها .

دولة النمسا

وتدعى أيضًا (نمچه) ويقال لملكها ملك الألمان . ومع ذلك فإن لملوكها ألقابًا كسائر الملوك والسلاطين . فيقال «چاسار النمسا» والإمبراطور ومعنى هذا الأخير الشاهنشاه (ملك الملوك) إذ يحكم سبعة ملوك وقد امتد نفوذه وسلطانه على ملك بولونيا السابق الذكر . وله رعايا كثيفة من الجمهور وحشود عظيمة من العساكر والجنود .

وحكمهم مستمر منذ ألف وسبعمائة عام ولهم ألف وسبعمائة قلعة تعادل واحدة منها سد القهقهة وعاصمة الدولة (پچ) و (براق = پراغ) . وسكتها منقوش عليها صور ملوكها . ويزعمون أنهم من سلائل الشاه (هوشنك) .

هذا وكان تاج ملوكهم (جرونا) موجودًا دائمًا ومحفوظًا فى قلعة (پوزن) Pojen (بودابست)[1] . استولى العثمانيون على (أويوار) فقد نقلوا التاج المذكور إلى قلعة (براق) . وأما جميع أحوالهم وشرح أوصافهم الأخرى فإنها مذكورة فى رحلتى سنة ١٠٧٤هـ فليراجع هنالك .

دولة الإنجليز (إنكليز)

فى ألقاب ملوكها يقال لهم (ايرلندا) فهم ملوك عظام أصحاب سكة نقدية غير أنى لم أذهب إلى بلادهم قط ، وأعلم أنه لم يظهر منهم فى وقت من الأوقات بادرة عصيان فهم قوم تجار يعيشون من ربح التجارة والسياحات . وبلادهم تتألف من ثلاث جزائر عظيمة وعاصمة الدولة هى مدينة لندن (لوندرة) العظيمة الواقعة على نهر لوندرة فى جزيرة انجلترة البالغ مسطحها ثمانية آلاف ميل . فليس للإنجليز حكم ولا سلطان فى المناطق والبلاد الألمانية .

دولة المجر الصغير

ملوك هذه الدولة خاضعون لقيصر النمسا وقد شقوا عصا الطاعة عليه مرارًا . وخضعوا لسلطان آل عثمان حيث تقع معظم بلادهم تحت تصرف العثمانيين . ولقد كانت مدن بوزكا وقنيزه ، وأوسك ڤالبوڤا وپچوى ، وشكلوس ، وسكتوار مملوكة لهم وتحت تصرفهم . والآن هم منحصرون فى ولاية (مصلوون) فقط . وتسمى عاصمتهم (ألغرادجك) و (چقه طورنه) ويطلق على ملوكهم لقب (هرسك) وهم كفار على سبع طبقات كل واحدة منها لها اسم خاص . فأولاً ابن زرين (زرين أوغلى) يقيم فى (طورن) . وابن بكان (بكان أوغلى) يملك ولاية (اسلوون) . وابن نراج (نداز أوغلى) يملك بلاد الخروات وهم كفار على جانب كبير من البسالة و(كپان أوغلى) يملك ولاية صماى و (شوار أوغلى) الذين لهم الولاية التى باسمهم فى حدود نهر راية الصعبة المسالك والطرق الوعرة إذا انهزمنا

(١) وورد فى نسخة يلدز ڤينا . (المترجم) .

هنا بقيادة الوزير أحمد باشا الكوپريلى سنة ١٠٧٤هـ من جراء سوء التدبير وعدم الحيطة . و(دودشقه أوغلى) الذين لهم سكة تدعى الپنس (Penez) فبلاد الدودشقة ، بلاد جبلية عظيمة واقعة على شاطئ خليج البندقية وراء بلدة (زادارا) ففى سنة . . . كان الملك أحمد باشا قائدًا فى حملة عسكرية قوامها ثمانية آلاف عسكرى حيث قمنا بغارة شعواء على ولاية (ألين) كما هو مشروح فى محله . هذا وهناك بلدة هرسك أخرى لم تدخل فى منطقتها فلذا لم نكتب عنها شيئًا .

دولة البندقية (ونديك)

يطلق على ملوكها لقب (بج پرم) ولها أربعون أميرًا ينتخب من بينهم سبعة يسمون (باى) ثم يختار واحد من هؤلاء البايات السبعة فيدعى (بجيرم) ويتولى الحكم والإمرة وعاصمة هذه الدولة (البندقية) . وكل مدنها وبلادها متاخمة ومشتركة مع مدننا وبلادنا ، فإذا ارتكب واحد منهم أمرًا مغايرًا لقواعد الصلح والسلام فيعمد إلى الفرار والهرب مثل الجرب الإفرنجى . ويصل إلى بلادنا ويغيب فيها عشرين سنة أو أكثر هائمًا على وجهه . فهؤلاء طامات كبرى ملاعين ، وأصحاب تدبير لا يخضعون للصلح إلا بكل صعوبة .

دولة الدوبرة ونديك (جمهورية رغوزه) Raguze

يطلق على ملوكها لقب (چارنا) ويستعمل بينهم اللغة اللاتينية . هذا ولما علموا بفضل مهارتهم فى علم النجوم والزايرجه أن آل عثمان سيظهرون على الأمم ويستولون على البلاد ، فإنهم بادروا إلى ساحة الغازى أورخان فى بروسه وعقدوا معه معاهدة صلح وصداقة تتألف من سبعين بندًا تتضمن الشروط التى قدمها الطرف الواحد مقابل الشروط التى فرضها الثانى بحيث صارت المعاهدة مؤلفة من مائة وأربعين بندًا . فعبارة «الطائر فى السموات والسابح فى البحار» موجودة فى دفاترهم ووثائقهم القديمة بحيث إذا جار عليهم أحد بشىء فإنهم يقدّمون حالاً خطوطًا سلطانية وعهودًا متوارثة من ملوكهم السالفة تعد بالألوف . بيد أنهم فى جميع الأوقات عرفوا بالاستقامة ولم ينقضوا العهود قط مع الملوك .

وعاصمتهم هى قلعة «دوبره ونديك» على مقربة من قلعة (نووه) فى سنجق هرسك . وولاتهم صغيرة وهى واقعة تجاه خليج البندقية .

ولاية التفاحة الحمراء (قزل الما)

وهى دولة البابا وية

يطلق على ملوكها البابا . وهو على زعمهم وكيل سيدنا عيسى ومرشد جميع الكفار فى الأرض وفى البحار ، حيث يخضعون له ويركعون مقدمين الاحترامات . والغريب أنه يقوم برياضة شاقة مستديمة بالصوم والإمساك حتى يضعف ويصير قديدًا كالهيكل العظمى ويصل إلى مدى تكاد روحه تفارق جسمه . وعلى هذا المنوال يمكنه أن يعيش زهاء مائتى سنة . ومن الثابت أن البابا الذى مات فى عهد السلطان مراد الرابع كان قد عاش ثلاثمائة سنة .

وقد قيل فى ذلك شعر معناه :

يا أسفًا على هذا الذى بقى فى أسْر شباك الجهل

وهذا ليس غريبًا عند كاتب هذه السطور فإنه رأى بعينى رأسه فى صحراء القفجاق أناسًا من تتر القالمق يعيشون مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة سنة . مع الاحتفاظ بقدرة الركوب على الخيل ، وذلك من غير أن يتبع نظامًا خاصًا من الرياضة النفسية والصوم .

دولة فرنسا

يطلق على ملوكها روا (Roi) وهى مملكة عظيمة لها قرابة بآل عثمان وحكمها جار فى البحر الأبيض المتوسط وفى سواحل البحر المحيط ، وعاصمتها مدينة (باريس)

ولها ألوف من القلاع والسفن المسماة بالغليون .

دولة جنويز (جنوه)

لقب ملوكها جنوان بلادها ضيقة قليلة المساحة وسكانها كفار يعيشون على التجارة . وهم الآن فى حالة السلم والصلح مع آل عثمان وكان عدد سفراء الدول فى إسلامبول سبعة فقط وبقدوم (باليوز)[1] (سفير) هذه الدولة صار عددهم ثمانية .

(١) أصلها باليوس وهى كلمة إيطالية قديمة كانت تطلق على سفراء فرنسا وسفراء البندقية بوجه عام ، وكانت تطلق خاصة على قناصل هاتين الدولتين . انظر قاموس دى مينار (د . السعيد) .

دولة إغراندوقه

هى مملكة أمة إفرنجية أخرى من الملة المسيحية فى ساحل البحر الأبيض . عاصمة دولتها مدينة (آلاغورنه) وليست بلادها واسعة مثل فرنسا . وسكانها يعيشون فى البر والبحر على التجارة . يلقب ملكها بإغراندو . فله جند وسفن من الغليونات .

الدولة البرتغالية

يطلق على ملوكها لقب (. . .) وهم كفار متعاظمون أشداء لم يقبلوا الصلح مع أحد فى وقت من الأوقات . وهم وإن كانوا من الإنجيليين إلا أن مذهبهم لا (بابوى) ولا لوثرى . عاصمةملكهم قرب مضيق سبته وسواحل جزيرة مصر المطلة على البحر المحيط كلها تحت حكم ملوك هذه الدولة ، كما أن لهم فى بلاد الهند سبعمائة جزيرة . فهؤلاء البرتغاليون يرحلون إلى الصين وبلاد الختا والختن طائفين حول جزائر هذا العالم مئات المرات يحملون متاجرهم العظيمة وهم أكبر عددًا وأعز شأنًا من جميع الكفار الآخرين حيث تمكنوا من إخضاع بلاد الهند لأمرهم .

ملك أفلاق

كان له دولة عظيمة . والآن يخضع لسلطان آل عثمان ويدفع لهم الجزية . وبلاده واقعة على نهر (الطونة) الدانوب . وفى شمالها ولاية أردل حيث الحدود مشتركة ، وعاصمة البلاد (بوقرش) و (ترقووش) .

دولة بوغدان

وهذه أيضًا دولة كبيرة ، أخضعها السلطان بايزيد الولى لحكم آل عثمان فى تاريخ يدل عليه لفظ (فتحنا) وذلك بالاستيلاء على قلعتى (آقكرمان وكيلى) وأجبرها على دفع الجزية .

هذا وكانت بلاد الروملى هذه تتألف سابقًا من عدة ممالك مسيحية يحكمها ملوك أقوياء انقرضوا كلهم بحيث ضغط آل عثمان الذين ضموا بلادهم إلى بلاد المسلمين . وذلك كممالك الصقالبة والكوريل والتوت والخروات (الكروات) والصرب والبلغار واللاتين والهرسك والوينك واللاز والهايلاز والقزاق الأبيض والروس المنحوس . والأرناؤوط والروم وأرانطة المورة وچكونة الروم ومساينة الروم ولاز الروم وأمثالها حيث

خضعت كلها لسلطان آل عثمان ، تدفع ملوكها الضالة الجزية كل سنة إليها محتفظين باستقلالهم ماعدا الكروات والبلغار واللاز والصرب والوينك والأرنؤوط . حيث بحمد الله صاروا رعايا وتابعين للدولة مباشرة .

وأما فى جهة الأناضول فالممالك كما يأتى :

بلاد الشراكسة (ولاية چركزستان)

ليس لهذه الولاية ملوك ولكن لهم أمراء ورؤساء من بينهم يسمون «ميرزا» وكلهم أصحاب قبائل وعشائر ، وأمراؤها :

أولاً : ــ چركس جزيرة التامان . خاضعون للباشا والى كفه .

ثم ــ چركس (شفاكه) فى الضفة الأخرى من نهر القوبان وهم مسالمون ومطيعون . وچركس (شفاكه) الكبرى ، وهم عصاة وعتاة . وثم چراكسه (زا) وهم عصاة . (وچراكسة زانا) الكبرى و (مامالوقه) و (حاتوقاى) وكلهم عصاة . ثم چراكسة ولاية (بولتقاى) وهم غير مطيعين ، ثم چركس ولاية (بوزدوق) وهم عصاة عتاة أشداء وكذا چركس ولاية (ممشوخ) بغاة وأشقياء . . وبعدهم چركس ولاية بسنى الذين يقال لأميرهم (طاوسطان) فى حين أن لقب الأمراء الآخرين (ميرزا) . ولهم أربعون ألف جندى .

هذا ولما كان كاتب هذه السطور فى معية وركاب السلطان «جانى بك كراى» بن محمد كراى خان فى غزوة سنة ١٠٧٧هـ لبلدة «ضحوم» فقد شاهد بنفسه دخول چراكس القبار طاى فى الإسلام أفواجًا بحمد الله وعونه فى تلك السنة المباركة ، وكيف أنهم قتلوا خنازيرهم جميعًا وألقوها فى نهر (جنجك) ثم أنشأوا جوامع ومساجد كان كاتب هذه السطور أول من أذن فيها وصلى بهم الصلوات الخمس . إلا أن جميع الچراكسة سوى هؤلاء القبارطاى لايتقيدون بدين من الأديان . فإذا قلت أنهم كفار صح هذا القول . لأنهم يقتلون الناس من غير حساب . وإذا حسبتهم مسلمين فليس عندهم طاعة لله ولا يعبدونه بشكل من الأشكال . وعلى كل فإنهم قوم غريبو الأطوار والعادات . نسأل الله تعالى أن يهديهم إلى نور الإسلام .

وبعد هؤلاء كلهم يأتى چركس ولاية (طاغشتان) الذين يخضعون أحيانًا لسلطان الداغستان الملقب (شمخال خان) ويسكنون فى سفوح جبل ألبرز الذى هو آخر الحدود

لمسكن أقوام الچراكسة الذى يمتد من بلاد القرم إلى هذه الحدود بالغًا من الطول والسعة سبعًا وتسعين مرحلة ، بيد أن فى شمال بلاد الچركس هذه توجد أربع ممالك لشعب القالموق فى دشت القفجاق .

بيان القالموق الذين يسكنون دشت القفجاق وغيره

أ- فى جانب قلعة ترك الواقعة فى شرق صحراء (هيهات)

دولة طيبسى شاه (طيساشاه)

فشعب هذه الدولة يتألف من مليون من القالموق الذين اجتازوا نهر (أديل) أى الڤولجا إلى هذا الجانب من دشت القفجاق وسكنوا به . وهؤلاء قوم لا يعرفون ما هو الإيمان وما هو الكفر وما هو الحشر والنشر ولا يفكرون قط فى الآخرة ولا الدنيا فلا هم عندهم ولا غم ولا حلال ولا حرام يأكلون لحوم جميع الحيوانات والدواب التى على وجه البسيطة ويكتسون بجلودها وفرائها ، لم يذوقوا فى عمرهم طعم الخبز ولا الماء . ولا يعرفون الأمراض ما هى ولا علم لهم بالطاعون ولا بذات الجنب ولا الحمى ولا غيرها من الآلام والأوجاع والأمراض فإنهم أصحاء سالمون منها . ولم يروا البراغيث والقمل والبق والبعوض ، وشربهم مقتصر على البوظة والقميز[1] ولبن الخيل . وأعمارهم طويلة يعيش الواحد منهم زهاء مائة وثلاثمائة سنة . ولقد ذكرت أحوالهم فيما مضى حينما قدمنا الداغستان . ثم يأتى بعدها قرب ظهور تيمورلنك :

دولة موينجاق شاه بن طيساشاه

وهذه الدولة أيضًا طوائفها تتألف من مليون من القالمون الذين لا يعرفون ما هو الإسلام ولا الإيمان وما هو الكفر والضلال إلا أنهم أشجع من طوائف القالموق وأشد بأسا .

دولة قالموق قوبان

طوائف هذه الدولة تبلغ مائة ألف عشيرة تتوطن على شاطئ نهر قوبان وقد يقومون بإغارات شعواء على نوغاى أرسلان ونوروزبك الساكنين فى بلاد الچركس كلما وجدوا

---

(١) القميز : حليب الإبل أو الخيل يخمر ويشرب فى أواسط آسيا خاصة . (د . متولى) .

إلى ذلك سبيلا ، فيأسرون منهم كثيرًا حتى بلغ عدد الأسرى النوغاى المسلمين بين هؤلاء القالموق أكثر من خمسين ألفًا . وهناك بعد نهر أدبل

دولة جاقار (قاجار)[1] قالموق

يقال إن طوائف هذه الدولة تبلغ خمسمائة ألف . غير أن كاتب هذه السطور لم يرهم قط ولم يجتز نهر أديل إلى الجانب الآخر ولكن جميع طوائف القالموق تهاب هذا القسم منهم .

دولة القالموق خارقى السماء (دولة كوك دلن قالموق)

سكان هذه الدولة يقدرون بخمسمائة ألف من الملاعين الدهاة يسكنون فيما بين نهرى أديل و«جايق» وهم أكثر مكرا وأفعل سحرا من سائر القالموق .

دولة أورمبت قالموق

ويبلغ عدد سكان هذه الدولة أيضًا خمسمائة ألف من الملاعين ، يسكنون فيما وراء نهر أديل (أتل) وفيهم من قوم النوغاى عدد لا حصر له ، ويقال أنهم نوع آخر من النوغاى .

دولة صقار قالموق

يقال أن عدد قوم (صقار قالموق) هؤلاء يبلغ ثمانمائة ألف نسمة من الملاعين يسكنون صحراء القفجاق الكبرى ، لهم عربات يرحلون بها من مكان معشوشب إلى آخر أكثر كلأ وعشبا وأوفر فاكهة وخيرا ، وهم يملكون من البلاد مقدار ما يحكمه سبعة عشر ملكا ، وهم يسرحون فى بلاد الصين وما إليها من بلاد الخُتن والفغفور والبلغار حتى أنهم ليجتازون بلاد الظلمة عند ما تتجمد المياه ويكثر الجليد ، إلى الجانب الآخر منها حيث يظنونه عالما منيرا (يلمد راق) فلذا يعيشون آمادا طويلة كما يزعمون .

ولقد مرت أوصافهم وشرح أحوالهم فيما مضى من السطور ، ولاشك فى أن بنى الأصفر هم هؤلاء القوم العجاب لأنهم يهيمون على وجوههم في وادى الضلال والكفر ، ثم نذكر قوم الأباظة الضالين .

---

(١) يظن ناشر الأصل أنه (قاجار) هكذا لا جاكار ولا جافار .

ذكر أحوال الطائفة الأباظية الضالة

وهم يسكنون فى ساحل البحر الأسود يعيشون كما تعيش العشائر والقبائل المتنابذة المتطاحنة يقاتل بعضهم البعض قتالا مرا شديدا ، فهم أناس عقولهم فى عيونهم لا هم لهم إلا البطش والفتك بالآخرين ، لا مذهب لهم ولا كتاب ولا يؤمنون بالبعث والنشر مثلهم كمثل الچركس الذين تقع بلادهم فى الشمال حيث الحدود مشتركة ومشاعة ولذا يشتبكون تارة فى قتال الچركس وتارة فى حرب (المكرل) الذين تقع بلادهم فى الجانب الشرقى منهم حيث يكون نهر (فاشه) حدا فاصلا بينهم .

هذا وأصل الأباظية والچراكسة من العرب كما سبق بيانه ، فموطن چراكسة مصر وأباظتها الأصلى هو هذا المكان ، وسنذكر حالهم عشيرة بعد عشيرة فيما يأتى .

منها أولا ما كانت مشتركة مع بلاد مكريل فنقول .

ولاية أباظة چاچ (چاچلر)

هم قوم يبلغ عددهم عشرة آلاف يتكلمون بلغة مكريل ولقب أمرائهم (چاچه) ثم

ولاية أباظة أرلان .

وهؤلاء أيضًا يبلغ عددهم عشرة آلاف من الأبطال . ميناؤهم على البحر (لاچيغاد) .

ولاية أباظة چندا

ميناء هذا القوم (قاقر) ولهم أمير ويبلغ تعدادهم خمسة عشر ألفا . وفى هذه الطائفة يوجد الأباظيون أصحاب النسب الصحيح ، ومنها يخرجون وفيها ينشأون وأن عدد من فيها من الحسان البارعات فى الجمال ، ما لا يوجد مثله قط فى غيرها من طوائف الأباظة . ويطلق «چندا الجبل» على هذه الطائفة . وإذا سرت إلى الغرب مسيرة ثلاثة أيام تجد .

ولاية أباظة چندا الكبرى

وتتألف هذه الولاية من خمس وعشرين قرية . لها خمسة عشر ألف من الجند ولها أيضًا ميناء على البحر ، وتقع بلاد چراكسة (مامشوخ) فيما وراء جبال هذا الصنف من الأباظة الذين هم فى نضال دائم وقتال مستمر مع الآخرين . وإذا سرت إلى الغرب مسافة يوم تجد .

ولاية أباظة كچ

ويبلغ عددهم ألفين ولهم جيش من الفرسان . ولهم شهرة فى الفروسية .

ولاية أباظة آرت

يقدر عدد هذه الطائفة بثلاثين ألفا وهم مشهورون بالجرأة المتناهية فى التلصص والسطو ، واسم ميناثهم على البحر (كپوس) وهى ميناء لطيفة ومدينة شيقة تجارية تشتو بها أكثر السفن القادمة من سواحل اسلامبول . وفى جبال هؤلاء الأرت . . .

ولاية أباظة صدشه

هذه الطائفة لا هى چركس ولا هى أباظة صحيحة ، يبلغ تعدادها عشرة آلاف . هذا ولما سأل (سيدى أحمد باشا) حينما كان بها كاتب هذه السطور عن صفة هذه البلاد وأصولها أجابه عن كل شىء من وصف للجبال والوهاد وشرح للأمور وبيان عن سائر الدقائق ، فأعجب بها الباشا وقال لى والله أنك لست أباظيا بل إنك من (فتيان الصدشه) . ثم واصلنا المسير على البحر نحو الغرب ثلاثة أيام .

ولاية أباظة قاش

لهذه الولاية أمير له عشرة آلاف من الجنود الأبطال ، ميناء الولاية غير عامرة كثيرًا لأن أهاليها عصاة عتاة إلا أن فيهم من المسلمين الذين جاءوا فى الأصل من مصر والروم (الأناضول) وتخلفوا فيها ، وعلى كل فهى بلاد الخيرات والخصب . وبعد ثلاث مراحل منها تأتى .

ولاية أباظة سوچه

هذه الولاية لها أمير وجيش يبلغ عدده عشرة آلاف . وميناؤها فى غاية النشاط والعمل تقع تجاه (كفه) . وبعدها بمرحلتين تأتى .

ولاية چركسى بوزودق

لهذه الولاية أمير وميناء وجيش قوامه عشرة آلاف . من أباظة (بوزودوق) هؤلاء وبعد مرحلتين فى البر على ساحل البحر الأسود تأتى .

ولاية عشيرة قوتاسى

ولهـذه الولاية أميـر أباظى ومـيناء وجـيش قوامـه سـبـعة آلاف . ويقع ميناء (أناپا) القريب من (طمان) على مسافة مرحلتين من هؤلاء الأباظة الذين هم فى غاية الهدوء وحسن الطاعة ، لأن قوات من جنود القرم وطمان لا تكاد تنقطع من الإقامة بينهم .

وهنا يتم شرح أحوال اثنى عشر صنفا من الأباظة الذين فيهم كثير من الحسان والغانيات ذوات الجمال الباهر والحسن النادر ، فأصلهم من العرب ، وذلك لأن هذه البلاد كانت خاضعة لحكم كفار جنوه حتى إذا ما جاء عهد الخليفة سيدنا عمر ، وفد إليها هؤلاء الناس من البلاد العربية وبعد أن شقوا عصا الطاعة بها على الحكام لجأوا إلى الجنويين الذين أسكنوهم هذه البلاد محدثين لهم لسان الأباظة .

ولهذه الطائفة من الأباظة اثنتا عشرة قبيلة أخرى فى الجبال النائية لم نسافر إليها ولم نرهم ولكننا سمعنا بأسمائها واختلطنا برجالها وهى كما يأتى :

عشيرة (يوسوخو) فى الجبال القريبة من «مكريل» ، عشيرة (آج چپسى) عشيرة (بَشْلَب) ، عشيرة (مكلية) ، عشيرة (آپيغا) ، عشيرة (والاقربيش) عشيرة (چماقورش) . عشيرة (ماچا) ، عشيرة (پانچارش) ، ويوصف رؤساء هؤلاء كلهم أيضًا بلقب (بك) ولكل منهم عسكر يتألف من عدد يتراوح ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفًا .

هذا ونظرا لوعورة بلادهم ومسكنهم فإنهم فى غاية الشقاوة والتلصص يعجز عن كبح جماحهم الأباظة والچركس ، غير أن أصل عسكر مصر وموطنه الأول هو بلاد الأباظة والجركس هذه ، الذين لا يزالون يعمهون فى ضلالتهم وكفرهم ؛ إلا أنك إذا عرضت على الأباظى ، المسلم والكافر وسألته أيهما تحبه لأظهر ميله حالا إلى المسلم ، فإذا تشرف هؤلاء القوم بالإسلام فلاشك فى أنهم يكونون من أشد المسلمين تمسكا به المتغالين فى قواعده لأن هؤلاء الأباظة والجركس ليس فيهم كفار بمعنى الكلمة وإذا وجد منهم أحد على هذه الصفة فإنه يقتل حالاً مع أنه ليس بينهم كنيسة ولا كتاب معلوم فهم جبليون على فطرتهم فى غاية من العتو والعصيان .

ذكر أحوال الروس المناحيس أعنى القازاق أهل النفاق

الروس قوم ملاعين ينقسمون إلى سبعين فرقة منتشرين فى الأرض تحت نفوذ

وسلطان ملك بولونيا وملك (مسكو) ، ويخضعون تارة لحكم خانات التتر وتارة ينصرفون عنهم إلى مسكو وتارة إلى ملك «كراكو» . ويغيرون تارة أخرى بخمسمائة سفينة على سواحل البحر الأسود فينهبونها نهبا كليا فظيعا ويعودون إلى ولاياتهم المنحوسة محملين بالغنائم فى السفن .

هذا ومن كان منهم فى جانب نهر (أوزى) هم خطمان «قرداش قازاق» ثم (دوروزنقه) ثم خطمان (سِرْكه) ثم خطمان (اخمل نچ) ثم خطمان (براباش) ثم خطمان (أندريا) ثم خطمان (شَرَمَتْ) ثم خطمان (زاپورسقه) ثم خطمان (خرنستيان = خريستما) ثم خطمان (أومان) ثم خطمان (كورلو = جرلو) ثم خطمان (چهرل) . وهكذا لهؤلاء الكفار مئات من الخطمانات (الإمارات أو الأمراء) أمثال هؤلاء المذكورين عدلنا عن ذكرها ، وأما الذين ذكرناهم من هؤلاء الكفار فنهبناهم فى غزوة سنة ٥١ . . (مع إسلامكراى خان لولاية ألين) وكل هؤلاء تابعون لدولة بولونيا ، وأما الخاضعون لمسكو فهم سبعون خطمانا يستوطنون شواطئ وحوض نهر (تن) = (دون) الذى يجرى من تحت قلعة «آزاق» و«خطمان تن» هو قائد السبعين الخطمان الآخرين الذين يذكر كل واحد منهم بأسماء قلاعهم التى تقع فى شواطئ نهر (تن) وهى مبنية من الأخشاب وأغصان الأشجار ، فهم على هذا الترتيب (چركز) كرمن ، ثم (منجه) كرمن ، ثم (سوا) كرمن ، (إسوار) كرمن . ثم (موزيك) كرمن . ثم (توقاى) كرمن . ثم (پراصن) كرمن . والخلاصة أن بلاد هؤلاء الطوائف تمتد هكذا من آزاق على ساحل الدون (تن) إلى مسافة ثلاثة شهور محتوية على أراضى سبعين خطمانا . ويذكرون بأسماء كرماناتهم فهم جميعا القازاق العاقين . وانتهى هنا بيان هؤلاء الملاعين .

وأماكفار الروم والأرمن واليهود والقبط والسود ، فإنهم رعايا يخضع كل منهم لملك من الملوك أو السلاطين ولا سيما ملوك آل عثمان فإن فى بلادهم كثيرا من الأرمن والروم لا يوجد مثلهم فى أية بلدة من بلدان الملة المسيحية ، فكانوا مسيطرين سابقا على الشام وحلب وأنطاكية .

دولة آل قيصر الروم

وجمع قيصر (قياصرة) وقد عاش الملك هرقل (حزقيل) منهم أكثر من غيره فتمكن من بسط سلطانه على مصر أيضًا ، لأن جميع الملوك الذين ذكرناهم حتى الآن مسلمين

كانوا أو نصارى ، قد طمع كل واحد منهم فى احتلال مصر والقدس والسيطرة عليهما ، فالذين ملكوا مصر فعلا هم كما يأتى :

دولة القبط

يطلق على ملوكها (قبابطة) وجمعها (أقباط) . مدة حكم هذه الدولة ٤٠٠ سنة وطبقة واحدة من أسر هذه الدولة فيها ٤٧ ملكا ، ثم حدثت فترة من الزمن بلغت ثلاثمائة سنة حيث استبد خلالها بالحكم العمالقة وعاد الحكم بعدها إلى دولة القبط . حيث دامت هذه المرة ١٦٨ سنة وعدد ملوكها . . . بيد أن الذين كانوا فى عهد سيدنا عيسى ويحيى وزكريا كان يطلق عليهم . . . **دولة اليونان .**

حيث اعتنقوا دين المسيح . وهناك صنف آخر يطلق عليه .

دولة البطالسة

أول ملوك هذه الدولة من يدعى (بطليموس) وهو من الحكماء الثمانية .

فلذا يقال لهم (بطالسة) وعددهم أربعة عشر نفرا كان كل واحد منهم أرسطو زمانه فى العقل والذكاء وسعة الأفق . ومدة سلطنتهم ٢٠٧ سنة .

هذا وأفلاطون وبقراط وسقراط وأرسطاليس وفيثاغورث الفلاسفة كلهم من اليونان وكذا الاسكندر فاتح العالم فى وقته يونانى ، حيث كان اليونان فى عهده مسيطرين على العالم من المشرق إلى المغرب ، حتى ليقال أن الذى حكم الدنيا من أقصاها لأقصاها أربعة من الملوك اثنان منهم مسلمان والآخران كافران . فالمسلمان هما سيدنا سليمان واسكندر الأكبر اليونانى ، وأما الكافران هما «يانقو بن ماديان» و«بختنصر» والخلاصة أن اليونان كانوا مسيطرين على العالم وعلى جميع الأمم المسيحية ، والآن لا تزال هناك أمم كثيرة من الكفار بحيث يقول المؤرخون وعلماء الهيئة إن وجه الأرض يشبه جلد بقرة سوداء فيقابل ما به من شعرات سوداء عدد الكفار ذوى القبعات السوداء وأن ما بأطراف عينى البقرة وحوالى قرنيه من الشعرات البيضاء ليرمز إلى عدد الأمة المحمدية . ومع ذلك أنها بحمد الله وعونه وبركات معجزات نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، قد شتتت شمل الكفار وجعلتهم شذر مذر ، وسيكون المسلمون دائما منصورين وظافرين إن شاء الله . ولا سيما أن الدولة العثمانية أعقبت تلك الدول الإسلامية التى ذكرناها فيما

مضى من السطور.وأخذت مكانتها تحت الشمس . فنذكر الآن كيف جاءت تلك الدولة الإسلامية الكبرى إلى الحكم بعد ملوك الأمم النصرانية التى بلغ عددها مائة وأربعين كما سبق أن بينا ، فرسخت أقدامها فى البلاد المذكورة .

الفصل الثالث عشر
فى بيان ظهور دولة آل عثمان وسطوع نجمها

على أقوال مؤرخى الروم وتحقق ذوى العقل والفهوم ، حسب قوله تعالى : ﴿وما منا إلا وله مقام معلوم﴾ كان السلاطين والملوك الذين سبق ذكرهم ، هم الذين يتوطنون وجه الأرض ويحكمونها ، غير أن هناك اختلافات كثيرة فى شأن أمة الروم (أى الترك) ولكن الثابت أنها بشعوبها العديدة الساكنة فى تلك البلاد ، بتقدير الحىّ القيوم ، قد انحدرت فى الأصل من ولد عيص بن اسحق وينتهى نسبهم إلى يوسف وإلى نوح عليهما السلام . فأول من جاء من هذا العرق الطاهر فرسخ قدمه فى بلاد الروم ، هم آل سلجوق حيث اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبا وقالبًا فى سنة ٤٧٦هـ فاستولوا على ملطية وقيصرية وعلائية وقونية وسائر بلاد الروم فصاروا حكامها المستقلين .

وأما آل عثمان فمنشؤهم الأصلى وأول ظهورهم كان من بلاد ما وراء النهر حيث هاجر ، لحكمة ربانية من مكان يدعى (ماهان) سليمان وأرطغرل من أجداد آل عثمان ، فرارا من ظلم ووطأة التتر والمغول والبغول غيلان السهول . وجاءا بحاشيتهما إلى مدينة (أخلاط) وأقاموا بها سنة ٦١٦هـ ثم رحلوا منها إلى شواطئ نهر الفرات قاصدين بلاد الروم . وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل ذات يوم فى مياه نهر الفرات أمام قلعة «جعبر» غرق في بحر الفناء فأخرجوه ودفنوه هناك وحل محله فى رئاسة العشيرة وزعامة القوم (أرطغرل) الذى بادر إلى لم شمل جماعته وتوجه بهم نحو علاء الدين السلجوقى وفى أثناء الطريق حينما صعدوا هضبة عالية مُطِلّة على سهول قونية نظروا فى الأطراف يستطلعون الأحوال فوجدوا أن هناك طائفتين تقتتلان بشدة ولكن علائم الفشل والهزيمة كانت بادية على الجيش الذى يلبس جنوده العمامة البيضاء وهم عسكر قونية ، بخلاف التتر الذين كانت أمارات القهر والظفر ظاهرة عليهم ؛ فما أن رأى ذلك (أرطغرل) حتى صاح قائلا : ألسنا موتورين ومنكوبين بالتتر منذ القديم ألم يهزموننا ففررنا منهم إلى هذه البلاد؟ فلننضم إذن إلى علاء الدين ونعينه على بلواه ونأخذ بناصره ، ثم رفع علما محمديا أبيض واقتحم الميدان بجميع رجاله يركض وراء جموع التتر الزاخرة ويصيح مكبرا الله! الله! . وقد أطلق العنان لأسلحته الفتاكة تعمل في أقفية التتر الذين أخذتهم النار المحمدية من كل الجوانب فتبدل قرارهم فرارا ، وثباتهم هزيمة وعارا ، وانتعش

السلاجقة من جديد وعادت إليهم الحياة فأحاطوا بالتتر من كل الجهات والجوانب حتى قضوا عليهم أجمعين ولم يبقوا على أحد منهم . وعند ذلك عاد السلطان علاء الدين إلى قونية غانما مظفرا فخلع على أرطغرل بك خلعا سنية وإنعامات سلطانية فاخرة ، كما أسند إليه إمارة الجناح الأيمن فى جيشه وكلفه أن يكون قائد الجيش الزاحف إلى تكفور بروسه . فجاء أرطغرل بك إلى هذه البلاد وأحاط بجوانب بروسه الأربعة ، مطلقا أيدى النهب والسلب والغارات فى بلاد بيله جك ، أولو آباد ، واينه كول ويالاق أباد وغيرها من المدن والبلاد وبعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى عاد بها أرطغرل إلى السلطان علاء الدين وأغرق جنوده وعساكره بتلك الغنائم الكثيرة والأسلاب الهائلة . فضلا عن أن هذا النصر المبين قد زاد من شأن علاء الدين وقدره وذلك بفضل معونة أرطغرل له وتعضيده إياه .

هذا ويطلق على ملوك السلاجقة هؤلاء لقب «السلطان» فكان نفوذهم وسلطانهم يمتد حتى أُسكدار [على البوسفور] ولم يكن للكفار مقدرة أو جرأة على الظهور في تلك البلاد قط . لأن السلطان علاء الدين كان يملك جيشا كثيفا يتألف من جنود سبعين قائدا كل واحد منهم صاحب طبل وعلم برتبة أمير اللواء موزعين هكذا :

فى مرعش آل ذى القدرية . وفى أذنه آل رمضان . وفى سيواس الملك غازى من الدولة الدانشمندية وفى قسطمونى آل [جاندار] ، وفى أماسية آل فرهاد وفى كوتاهية آل كرميان وفى أنقره آل سبحان ، وفى ولاية صاروخان آل صاروخان باى ، وفى إقليم عماد آل عماد باى ، وفى إقليم سنقر آل سنقر باى ، وفى اقليم كسكين آل كسكين باى وفى إقليم تكه آل تكه باى ، وفى ولاية حميد حمايت باى ، وفى إقليم منتشه منتشه باى وفى إقليم أيدين أيدين باى ، وفى لاندره آل قرمان باى ، وفى يالاق أباد أرطغرل باى .

والحاصل أن السلطان علاء الدين كان له سبعون أمير لواء موسومون بهذه الأسماء والألقاب . وفى عهد هذا السلطان السعيد توفى إلى رحمة الله تعالى ، سلطان العلماء مولانا بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى في مدينة قونية وكان ذلك سنة ٦٨١هـ (هكذا) حيث خلفه نجله مولانا جلال الدين الرومى . وقد كان سلطان العلماء المذكور هو الذى وضع الألقاب التى أوردناها لهؤلاء الأمراء وسيذكر كل واحد منهم في محله .

وقد زحف بعد ذلك السلطان علاء الدين إلي جهة أرزن الروم (أرضروم) بجيش كثيف فأصيب بهزيمة فى محل يقال له (فناده) ومرض من جراء ذلك وأقدم ابنه غياث الدين حبا فى جاه الدنيا ومفاتنها على تجريع والده السلطان علاء الدين السم الزعاف والقضاء عليه بهذه الوسيلة . الأمر الذى أثار العسكر عليه فقطعوه إربا إربا وهكذا مات الوالد والولد فى يوم واحد ونقل نعشاهما من هذا المحل إلى قونية ودفنا فى القلعة الداخلية وبه انتهت أسرة السلاجقة . وعدد سلاطينهم ٢٦ ومدة دولتهم كلها [٢٣٨] سنة .

وقد اجتمعت بعدهم كلمة جميع علماء الروم على تنصيب «أرطغرل» بك عوضا عنه وبايعوه على ذلك . وهذا الحاكم أيضًا مدفون في قصبة (سكود) حيث مات متأثرا من جراحه التي أصابته وهو قادم من غزوة «بروسة» ولما استشهد صاوجى بك بن أورخان فى غزوة طومانج دفنوه أيضًا بجانب أرطغرل فاجتمع علماء الروم مرة أخرى وانتخبوا عثمان بن أرطغرل خليفة له فى رأس المائة السابعة [٦٩٩هـ - ١٢٩٩م] حيث بايعه جميع أعيان الدولة السلجوقية ورجالها البارزين مبايعة صادقة على ذلك . فتاريخ ميلاده سنة ٦٥٦هـ . وهكذا تولى عثمان أول آل عثمان فى سنة ٦٩٩هـ وعاش ٦٩ سنة وبلغت مدة سلطنته ٢٦ سنة حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٧٢٦هـ . وقد خلفه ابنه «أورخان بك» ومدة سلطنته ٣٥ سنة [وفى عهده السعيد] قام سليمان باشا نجل الغازى أورخان هذا ومعه قرا مرسل بك وأجه يعقوب بك بتأليف حملة قوامها أربعون من الفدائيين واجتازوا البحر الأبيض من المحل المسمى [بابسكى] على مقربة من (قبو داغى) بواسطة أطواف إلى الضفة الأخرى وأنزلوا بها خيولا وجنودا أغاروا بها على بلاد غليبولى ونهبوها نهبًا . وأول ما فتحوا من البلدان فى جهة الروملى هى مدينة (ايبصالا) التى صلوا بها صلاة الجمعة فى بادئ الأمر قائلين (ابتدا صلاة) فتحرفت هذه العبارة من كثرة الاستعمال وصارت (ايبصالا) . ثم اقتحم سليمان باشا بعد أن تم له نزول العسكر والقوات الكافية ، قلعة غليبولى وفتحها بالسيف وصار «غازيا» بمعنى الكلمة . وقد وقعت عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) تاريخا لهذا الفتح الباهر حيث تسلمها فى سنة ٧٦١[١] وغنم الغزاة والمجاهدون أموالا وذخائر كثيرة أثروا منها ثراء عظيما وقد تزوجوا

---

(١) حساب البسملة بالجمل لا يوافق هذا العدد كما يدعى المؤلف بل هو ٧٨٦هـ وهذه السنة بعد وفاة أورخان . (د . عزام) .

بالنساء اللاتى أسروهن وتناسلوا منهم . هذا وقد كان فى البلاد التى يطلق عليها اسم الروملى ، اثنا عشر قوما وشعبا من الكفار مثل الروم والبلغار والأفلاق و(السرف) الصرب والونيك والخروات واللاتين والبشناق واللاز وغيرهم . فأخضعهم سليمان باشا لأمره وأذلهم وجعل بلادهم خرابا يبابا ولم يترك لهم فرصة لرفع رؤوسهم ضده فواصل الإغارات واتبع الغزو بالغزو حتى وصل إلى شواطئ نهر (الطونة) الدانوب وعاد منها وأيدى جنوده ورجاله ملأى بالغنائم والأسرى والسبايا اللاتى تخطفهن شبابنا الأبطال بالزواج فخلفوا منهن رجالا أجسامهم في بياض الفضة وقوة الحديد . وهؤلاء أيضًا نشأوا نشأة عسكرية عثمانية واستعدوا لإنزال الضربات القاصمة بالكفار أينما كانوا ، ولقد دام الحال على هذا المنوال مع سليمان باشا حتى توفاه الله إلى رحمته (فى بولاير) متأثرا من جراحه التى أصابته من جراء سقوطه عن صهوة جواده إذ كان يطارد به البط البرى بباز كان معه . وهو مدفون للآن في قبة منيرة هنالك وبجانبها جامع وعمارة خيرية وتكية وتاريخ وفاته (رحمة الله عليه) سنة ٧٦٠هـ . وأول من دخل الروملى هو سليمان باشا ابن أورخان .

هذا ومدة عمر أورخان ٨٣ سنة وكان جلوسه على العرش فى سنة ٧٢٦ وميلاده فى سنة ٦٧٨هـ ووفاته سنة ٧٦١هـ حيث خلفه نجله الغازى خداوند كار [مراد الأول] فى الحكم فبلغ عمره من السنين ٦٥ سنة حيث ولد سنة ٧٢٧هـ . وتوفى سنة٧٩٢هـ أو ٧٩٣هـ وحكمه ٣١ سنة وهو الذى فتح مدينة «أدرنه» وواصل الحرب والغزو حتى استشهد فى ساحة الوغى وميدان الجهاد فى محل يدعى قوصوه (قوس أوه = السهل العظيم) حيث ظهر كافر على قيد الحياة من بين جثث القتلى المبعثرة هناك وتقدم إلى السلطان متضرعا ثم طعنه بسكين كبيرة كان يخفيها الجانى ويدعى (ميلوش قوبلاق) فقضى عليه حالا . ثم نقلت جثة مراد الأول إلى بروسه ودفنت فى المحل المسمى الآن (اسكى قابليجه) . وقد خلفه بعده نجله الغازى يلدرم بايزيد ولد سنة ٧٤٨هـ وجلس على العرش سنة ٧٩٢ هـ وبلغ حكمه ١٦ سنة[١] .

وقد كان يلديرم بايزيد سلطانا شجاعا حازما ، حيث قام بغزوة خاطفة من الأناضول إلى بلاد الروملى فاستولى فى مدة سنة على بلاد الأفلاق والبغدان ، ولذلك لقب

(١) السنوات هنا مذكورة بغير دقة . (د . عزام) .

بالصاعقة (يلديرم) . نعم كان يلديرم بايزيد مقداما فى غاية البسالة والجرأة وقد بلغ من العمر ستين سنة ومدة سلطنته ١٦ سنة . وسبب وفاته أنه حارب تيمور وانهزم فى القتال ووقع فى الأسر ولبث فى سجن تيمور مدة فتأثر من ذلك بالغ التأثر وأصابته حمى محرقة قضت عليه بعد أيام وقد نقل جثمانه إلى بروسه ودفن بجانب جامع يلدرم وقد خلفه ابنه چلبى سلطان محمد خان فى الحكم سنة ٨٠٤هـ وكان ميلاده فى سنة ٧٧٦هـ وبلغت مدة حكمه ٣٠ سنة وعمره ٣٤ سنة[1] . ثم خلفه ابنه مراد بك سنة ٨٣٤هـ (٨٢٤)هـ وحكم ٣١ سنة وبلغ من العمر ٤٩ سنة حيث توفى سنة ٨٥٥هـ وقد خلفه ابنه أبو الفتح محمد الغازى وحكم ٢١ سنة وكان ميلاده فى سنة ٨٣٥هـ فبلغ من العمر ٥١ سنة حيث توفى إلى رحمة الله سنة ٨٨٦هـ . وخلفه ابنه بايزيد خان سنة ٨٨٦هـ وحكم ٣١ سنة حتى بلغ من العمر ٩١ سنة وتوفى سنة ٩١٧هـ . ثم جاء ابنه سليم الأول المولود سنة ٨٧٢ هـ وجلس على العرش وهو يبلغ من العمر ٤٣ سنة . وقد توفى إلى رحمة الله سنة ٩٢٦هـ بعد أن حكم ٨ سنوات وكان قد بلغ من العمر ٥١ سنة . ثم خلفه ابنه سليمان خان المولود سنة ٩٠٠هـ وحكم ٤٨[2] سنة وعمره ٧٤ سنة . وخلفه ابنه سليمان الثانى المولود سنة ٩٢٩هـ والجالس على العرش سنة ٩٧٤هـ والمتوفى سنة ٩٨٢هـ . ثم خلفه ابنه مراد الثالث المولود سنة ٩٥٣هـ فحكم من ٩٨٢ حتى ١٠٠٣هـ ٢١ سنة حيث توفى وقد خلفه ابنه محمد الثالث المولود فى سنة ٩٨٠هـ فى بلدة مغنيسا ، وكان جلوسه على العرش يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ هـ وبلغت مدة حكمه تسع سنوات وعمره ٤٨ سنة . ولما توفى إلى رحمة الله سنة ١٠١٢هـ خلفه ابنه أحمد المولود بمغنيسا وكان أثناء جلوسه على العرش بالغا من العمر أربع سنوات حيث كان ذلك فى اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٠١٣هـ وقد ارتحل إلى دار البقاء سنة ١٠٢٦هـ وبلغت مدة حكمه ١٤ سنة وخلفه فى الحكم بعده أخوه مصطفى خان فى ١٣ ذى القعدة سنة ١٠٢٦هـ حيث حكم سنة وثلاثة أشهر ثم خلع عن السلطنة وتولى مكانه السلطان عثمان فى ربيع الأول سنة ١٠٢٧هـ وحكم خمس سنوات فاستشهد بعدها فى ٨ رجب سنة ١٠٣١هـ ، حيث أعيد مصطفى إلى الحكم مرة ثانية فى هذا الشهر من

---

(١) بعد هزيمة بايزيد اضطرب حكم العثمانيين فولى العرش الأمير سليمان (٨٠٦ - ٨١٣هـ) ومحمد چلبى (٨٠٦ - ٨١٦هـ) وموسى چلبى (٨١٣ - ٨١٦هـ) ومصطفى چلبى (٨٢٢ - ٨٢٥هـ) . (د . السعيد) .

(٢) الصحيح ٤٦ سنة . (د . متولى) .

نفس السنة . ثم خلع مرة أخرى فتولى الحكم بعده السلطان مراد الرابع ابن أحمد خان في سنة ١٠٣٢هـ وقد دام حكمه ١٧ سنة وعمره [٢٨] ثم خلفه إبراهيم بن أحمد خان في سنة ١٠٤٩هـ واستشهد في ١٠٥٨هـ بعد أن حكم ٩ سنوات وجاء بعده إلى الحكم في سنة ١٠٥٨هـ ابنه محمد الرابع الذى هو الآن سلطان العصر والأوان أطال الله عمره وأيد سلطنته إلى الأبد ، أمين يا معين .

ولا شك في أن الله سبحانه وتعالى قد شمل هذه الدولة العثمانية العلية الشأن بنظرة منه عالية فأنالها التوفيق والنجاح في كل فتوحاتها حتى تم لها الاستيلاء على بلدان سبعين ملكا ، والسبب في وصف ملوك وسلاطين هذه الدولة بألقاب «خادم الحرمين الشريفين ومولى ملوك الروم والعرب والعجم» والباعث أيضًا على أن يفوقوا جميع الملوك والسلاطين في جميع أنحاء العالم هو فاتح مصر العظيم السلطان سليم شاه ابن بايزيد خان رحمة الله عليهما . فلنذكر الآن كيف امتلك مصر ذلك الفاتح العظيم .

سبب فتح السلطان سليم مصر

غير خاف على المؤرخين والعلماء بالتاريخ أن السلطان أبا الفتح محمد خان الغازى قد قام في بادئ أمره بحرب (أوزن حسن) وقاتله في سهل «ترجان» حيث هزمه شر هزيمة ثم عطف عنان عزيمته نحو بلدة طرابزون (طرب أفزون) الواقعة على شاطئ البحر الأسود ، فحاصرها برا وبحرا حتى استولى عليها في مدة وجيزة . وقد أقام ابنه السلطان بايزيد الولى ، حاكما عليها . فقام بأعباء الحكم والإدارة بها بكل حزم ونصفة حتى وهبه الله تعالى نجله سليم الأول الذى أثار الكون بظهوره في برج الشرق وطلوعه كالشمس في سماء الدولة والإقبال وبروز شأنه يوما فيوما في الأرجاء .

هذا وبينما كان أبو الفتح محمد متوجها من دار السلطنة إلى قتال الأشقياء والعصاة المسمين بآل قرمان وافاه الأجل المحتوم في المكان المعروف بـ (مالته) على مقربة من اسكدار فانتقل الحكم إلى نجله السلطان بايزيد الذى بادر إلى أخذ عشرين ألف جندى من جيش نجله الأمير سليم ، وكانوا أبطالاً يقول لسان حال كل واحد منهم (أنا لا غيرى) فوضعهم في إمرة حاكم مستقل لبلاد «السرف» آمرا إياه أن يغزو بهم وينهب

أطراف تلك البلاد ، الأربعة . وذهب هو بنفسه إلى اسلامبول وتسلم عرشه آل عثمان وتفرغ لتصريف شئون المسلمين وفى خلال ذلك كان الأمير سليم يغزو بلاد الكرج والمكريل والداريان وينهبها نهبا شديدا فيكتسب بذلك خبرة بالبلاد ووقوفا على أحوالها ، حتى اشتبك يوما مع «ميراخان» من أقرباء «أوزن حسن» في قتال وحروب دامية أسفرت أخيرًا عن استيلاء الأمير سليم على قلعة (جانخه) بقوة السيف وقد اغتنم أموالا كثيرة أرسل منها مقدار ثلاثمائة قنطار من الأوانى الفضية هدية إلى والده السلطان بايزيد فسر منها كل السرور وبعث نظير ذلك إلى سليم خلعا سنية فاخرة وكتب شكر وتقدير . وما لبث سليم أن اتخذ (جانخه) مركزا لحكومته وزاد عدد جيشه بعشرة آلاف من الجنود حملة البنادق ورماتها .

هذا والسبب فى تسمية بلدة (جانخه) هذه باسم (كمشخانه) الذى معناه البيت الفضى هو احتواؤها على سبعة مناجم للفضة تجرى فيها كالعيون . ومن حسن حظ الأمير سليم ودلائل توفيقه أن ظهر فيها منجم ذهب أيضًا فبادر إلى سك نقود منه بلغ مقدارها مائة ألف جنيه ممسّك منقوش عليه (السلطان بايزيد بن محمد خان ، عز نصره ضرب فى جانخه سنة) وأرسلها إلى والده فسُرّ منه كل السرور وأعرب عن إعجابه وتقديره له قائلا يا سليم اهنأ بالبلاد التى فتحتها بجدك وإخلاصك وإنى قد أنعمت بها عليك وأصدرت بها مراسيم كريمة وفرمانات عالية . وقد أثر هذا فى الأمير سليم وأثار فى نفسه الأبية النخوة والحماسة فانقلب أسدا هصورًا أو أفعوانا ذاسبعة رءوس فأخذ يصول ويجول يمينا وشمالا حتى فتح فى بضع سنوات خمسا وأربعين مدينة عامرة وقلعة حصينة أمثال قويلى حصار ونيكسار وبايبورت . وأسپر وتورتوم وأرزنجان ، إذ كان كلما قصد جهة فتح الله عليه فينتصر ويظفر بالأعداء بفضل الله تعالى وقوته .

ولما كان السلطان بايزيد الولى متجها بكل قلبه وإخلاصه نحو فتح قلعتى «متون» و«كورون» الكائنتين في ولاية المورة الخاضعة لإفرنج البندقية ، انتهز الفرصة كل من القزلباش [الايرانيون فى عهد الصفويين] وحاكم ذى القدرية المتسلطين المتغلبين فى «مرعش» المدعو علاء الدولة واتحدوا قلبا وقالبا وهاجموا البلاد العثمانية واستولوا منها على بلاد توقات وسيواس وأماسيه حتى بلدة «عثمانجق» وهكذا صار سلطان العجم يشيع وينتشر فى البلاد ، على أن الأمير سليم كان يصدهم ويفتك بهم تارة ويقطع عليهم خط الرجعة أحيانا ؛ ولكن الغزاة والمهاجمين كانوا أقوياء وأكثر جندا وأعز نفرا . فلذا كان

الأمير يبدى أسفه الشديد لهذه الحالة ويتمنى إنزال ضربة قاصمة بهؤلاء الأعداء النهازين للفرص فحدث أن ساق السلطان بايزيد الولى مرة جيشا كالبحر الخضم فى سهل «ترحاله» لقتال العجم ، ولما التقى الجمعان وحمى وطيس القتال بين الطرفين إذا بعلاء الدولة صاحب إمارة «ذى القدرية» ينزل الميدان ويقتحم ساحة الوغى ومعه اثنا عشر ألفا من فرسان الجيش المرسل من قبل السلطان الغورى ويضع السيف فى رقاب جنود بايزيد الولى . وبعد معركة طاحنة لا يتصور العقل قسوتها ووطأتها ينهزم العثمانيون قبيل غروب الشمس فيعتصم الأمير سليم يومئذ بجبال (جانخه) [لعلها جانيك الحالية] فيخلو الجو حينئذ للحلفاء من العجم والتركمان والغوريين (المصريين) ؛ فاستاء الأمير سليم من المصريين كل الاستياء وتحرق شوقًا إلى لقائهم فى أقرب فرصة . فكان ليل نهار يقول إن منحنى الله عرش آل عثمان يوما ما فإنى أعاهد الله تعالى على أن تكون أول غزوة لى فى سبيل الله ؛ إلى بلاد العجم وأن تكون الثانية إلى بلاد آل ذى القدرية والثالثة إلى الديار المصرية . أليس من المفارقات العجيبة أن يكون البلدان الأخيران مسلمين ويقدمان على إنجاد العجم على المسلمين . وعلى كل فالأمر بيد الله يصنع ما يشاء ويختار وهو الفعال لما يريد . نعم كان الأمير سليم يردد هذا القول ويصطبر وينتظر الفرصة . ولكن سلطان العجم كان آخذا فى الانتشار يوما فيوما ، حتى وصل الحال بالعجم إلى أن وصلت سراياهم وطلائعهم إلى أبواب أسكدار فيتخطفون الناس ويسبون النساء من البلاد ويأتون بهم إلى وكالات وخانات مدينة «سيواس» حيث يباعون بيع الشياه ، مما أفضى إلى خضوع آل عثمان لهم وتقديمهم لهم العطايا والأتاوات من الأبسطة والطنافس والجوالق وغيرها من الأمتعة المتنوعة . كان يحدث هذا والسلطان بايزيد الولى منخرط فى سلك الطريقة الخلوتية ومتجه بنفسه إلى الرياضة وتصفية القلب من أمور الدنيا وشئون الدولة ، غير عابئ بها ولا مشتغل بمشاغلها وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يتصل بأولياء الأمور فى الآستانة سرا ويتفاوض معهم فيما آل إليه الأمر وتفاقم الحال فى أنحاء المملكة العثمانية ، وقد أرسلوا إليه يقولون كن لنا ظهيرا بعدد من العسكر أقدم بهم حالا إلينا ، فقد ساءت الحال ولا تسمح الأحوال بعد الآن بالانتظار والصبر ونحن مستعدون وموطئون النفس على تسليم العرش إليك بمجرد قدومك .

فما كان من سليم خان إزاء هذا إلا أن عمد إلى ابنه سليمان خان وكان قد ولد بطرابزون ونشأ بها مثله وكان يحبها حبا شديدًا حتى أن الشاه إسماعيل كان حينما يطعن

فى سليمان خان ويرسل إليه كتبا مليئة بالشتائم كان يقول فيها أيها اللاظ وابن اللاظ (إشارة إلى أنه ممن نشأ فى طرابزون بين اللاظ) وقد صار فتى غضّ الإهاب قوى البنية ورشحه لحكومة (كفه) ورجا من والده الموافقة على ذلك فأجاب والده السلطان الطلب . وعند ذلك بادر الأمير سليم إلى وضع خمسة آلاف من الجنود الشجعان الأبطال فى مائتى سفينة وأرسلهم إلى (كفه) الواقعة على ثلاثمائة ميل من طرابزون ، فذهب سليمان وصار حاكمها المستقل بلا منازع حيث شرع فى حشد الجيوش والعساكر . وأعقب ذلك سفر الأمير سليم فى يوم موافق يستصحب معه خمسمائة سفينة تحمل عشرة آلاف من الجند ، وقد ظهر ليلة من الليالى على حين غفلة أمام ميناء كفه وقلعتها فدخلها واجتمع بخان التتر (منكلى كراى) وأطلعه على جلية الأمر . وما كان من خان التتر إلا أن وافقه وحبذ رأيه وباركه وأمده بأربعين ألف جندى من جيشه الخاص . علاوة على الجيش الذى حشده الأمير سليم الذى شرع فى المسير نحو الآستانة يقطع المنازل والمراحل ويواصل الليل بالنهار ، حتى وصل محلا يدعى (پراوادى) وأقام بوادى «أوغراش» حيث التقى هنالك بجيش السلطان بايزيد ، الذين فكروا فى الأمر مليا قائلين أننا إن لم نحارب هذا الأمير الفتى الفتاك الطموح الآن ، فإنه سيستولى على مقاليد الأمور ، ويتمكن منا جميعا ولا يبقى حينئذ على أحد منا ، فالأوفق أن نقاومه ونبادئه بالقتال من غير أن ندع له الفرصة السانحة .

وهكذا باغتوا جيش الأمير سليم ، وما كان يتوقع ذلك قط ، فلم يكن جيشه مستعدا لهذا القتال المفاجئ . وقد ابتدأ بقصف المدافع ورمى وابل من السهام المسمومة وإطلاق البنادق النارية ، حتى أسفر القتال فى وادى أوغراش عن هزيمة جيش الأمير سليم . وقد ولى الأدبار ولاذ بالفرار والهزيمة نحو ساحل نهر الدانوب واضطر الأمير سليم إلى الاعتصام بالسفينة التى كانت راسية فى ميناء «وارنه» بساحل البحر الأسود ، وسافر بها عائدا إلى مركز حكومته القديم طرابزون (طرب أفزون) وقد نال منه الخجل والتأثر كل منال ، فانزوى بها مدة لا يرى وجهه لأحد من فرط الاستحياء والغيرة التى ثارت فى نفسه . ولكن نائبه المدعو (صارى قيابك) كان قائما بشئون الحكم بطرابزون و(ماللى على بك) كان قائما بشئون الدفاع والحراسة فى (جانيخ = جانخه) . كما كان الأمير سلميان قائما بالحكم فى كفه [ميناء القرم] .

قصة الأمير سليم

هذه القصة ينقلها هذا الضعيف من الثقة ، وهو والده المرحوم الدرويش محمد ظلى الذى كان يبلغ من العمر مائة وسبعة عشر عاما حين انتقاله من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة . وهو وإن لم يكن طاف فى البلاد مثلى ، كان قد أدرك عهود تسعة من السلاطين العثمانيين ، وعلاوة على ذلك كان متشرفا بصحبة السلطان سليمان خان أثناء غزوه لقلعة سكتوار [فى المجر] ، كما أنه كان فى صحبة السردار مصطفى باشا الذى فتح جزيرة قبرص ، وقد أوفده الباشا إلى البلاط العثمانى حاملا مفاتيح قلعة (باغوسه) بعد فتح الجزيرة لرفعها إلى سدة السلطان سليم الثانى الذى أنعم عليه بخلع سنية مع إسناد منصب رئاسة صاغة القصر السلطانى إليه مدى الحياة فأصدر مرسومه الكريم بذلك . وفى عهد السلطان أحمد قام والدى هذا بإنشاء الميزاب الذهبى لمكة المكرمة (يقصد الكعبة) حيث سافر إليها بوظيفة أمانة الصرة الشريفة وقام بوضع ميزاب الرحمة فى سطح الكعبة .

والغرض من ذكر هذا هو أن أبين أن والدى كان ذا تجارب وإلمام تام بالأمور وشيخا حنكته التجارب وصقلته الحوادث والوظائف عالما بما يقول ويروى ومثله كلٌ من الأفاضل قوزى على أغا البالغ من العمر مائة وثمانية وأربعين عاما وكان صاحب ركائب السلطان سليمان ، وعبدى أفندى صاحب منزل ابن تاجر الأرز (برنجى زاده) الواقع فى حى «زيرك» وقراقز محمد أفندى بقرب حمام العرب ، كان هؤلاء الشيوخ الطاعنون فى السن يجتمعون غالبا فى مجلس واحد يتجاذبون فيه أطراف الحديث . وكان هذا الضعيف يستمع إلى حديثهم ويسر به أيما سرور فرأى فى ليلة من الليالى شخصا مهيبا ، وإن يكن ضعيفًا ونحيفا ، يدخل المجلس يسنده خدمه وأتباعه . فما كان من الحاضرين إلا أن هبوا جميعا وخفوا لاستقباله ورحبوا به أيما ترحيب حتى أتوا به إلى صدر المكان بكل تجلة وإكرام قائلين : شرفت على الرحب والسعة يا عزيزنا حليم أفندى ثم شرعوا جميعا يتناولون المكيفات التى أخذت تلعب بعقولهم وترفع التكليف عنهم فتعيد إليهم الذكريات وتحملهم على مواصلة السمر والتندر وقد أمالوا طواقيهم . وقد ابتدأ قوزى على أغا صاحب ركائب سليمان خان قائلا يا عزيزى حلمى أفندى! أنا أناشدك باسم السلطان سليم الأول سيدك ، ومولانا سليمان خان . أن تحل لنا هذه المشكلة فتذكر لنا بالتفاصيل كيف كنتم متنكرين بعد انهزام سليم الأول أمام جيش والده (بايزيد خان) فى وادى

«أوغراش» على مقربة من «حاجى أوغلى بازارى» وكيف عدتم إلى طرابزون واختفيتم بها؟ وعند ذلك شرع المذكور يقول إن المرحوم سليم خان أرسل إلينا أنا و(قره نديم) يدعونا إليه يوما من أيام انزوائه فى طرابزون (طرب افزون) فلبينا طلبه ومثلنا بين يديه وخاطبنا قائلاً ؛ ما رأيكما يا أبطال فى أن نقوم بسياحة متنكرة معا . فما وسعنا إلا أن نقرأ البسملة والفاتحة إيذانا بالموافقة من غير أن نسأل عن الوجهة التى نقصدها . حينئذ أخرج سليم خان من جيبه مصحفا شريفا واستحلفنا عليه بألا يُفشى هذا السر أحد ما . وقد أقسمنا بالله كما أراد اتباعا للقول المأثور (لا بأس أن نضحى برءوسنا ولا نفشى بأسرارنا) ثم دخلنا غرفة الملابس والمخزونات فلبس كل واحد منا جبة بكتاشية وحمل فى يده بلطة مسلمية وتحزم بمقلاع داودى ووضعنا على رءوسنا تيجانا وأحدية . ثم تقلدنا حزاما من الجلد الممسك الأحمر ومعنا حقيبة مليئة بتحف وكتب ، ولكل واحد منا فروة وإحرام موضوعان على أكتافنا . وخرجنا من الخزانة فإذا بحمار مهيأ لنا لنحمله حقيبة الكتب والإحرامات . وسرنا على بركة الله بكرةً لا يعلم الناس ماذا يجرى حولهم ونحن نغادر طرابزون . ولقد كان (سليم دده) حينذاك قويا مهيبا وسيم الطلعة أغر الجبين . وأما أنا هذا الضعيف وقره نديم زميله فكنا أيضًا شابين قويين نناهز العشرين كأننا من ملاعبى القرود . وقد آلينا على أنفسنا ألا نذكر شيئا من شئون الدولة واسمها وما يتعلق بها بألسنتنا قط . طيلة أيام رحلتنا فى هذه البلاد التى طالما قمنا بها برحلات الصيد وأسفار القنص والطراد ، ثم نذهب إلى بلاد بعيدة كانت لنا بها فتوحات عظيمة . وهكذا سرنا سبعة أيام سويا حتى دخلنا بلاد الشاه (شامخال) سلطان داغستان . ونزلنا فى جوامع بلاد الخان «قرابوداق» عدة أيام ضيوفا نتعبد فيها ونستريح ، وقمنا بعدها وسرنا حتى اجتمعنا بالخان «شمخال» الذى سألنا قائلا «من أين أنتم آتون أيها الدراويش» فرد عليه «سليم دده» قائلاً : إننا قادمون من بلاد الروم . وبعد أن لبثنا عنده ضيوفا بضعة أيام توجهنا نحو مدينة (طر خو) ومنها إلى مدينة (قوين) ثم إلى مدينة (دميرقپو) فى حدود العجم ومن هناك أخذنا كتب توصية من الخان العجمى إلى قلعة (ماكو) ثم إلى جيلان وكنجه وشيروان ثم سرنا على شاطئ بحر الخزر حتى دخلنا مازند ران فأقمنا بها ثلاثة أيام بلياليها ثم غادرناها إلى قم كشان ومنها إلى جبل الديلم . ثم إلى جهة الأمام بخراسان فأقمنا بها شهرا جددنا خلاله حياتنا الروحية بتجديدنا البيعة لآل البيت والثقة بهم فأخذنا العهد على الشيخ الذى يقيم هناك وقد حملنا منه الكتب إلى بلاد الروم لأنجال الولى العارف بالله الحاج بكتاش . ولقد مررنا بمائة وسبعين قصبة ومدينة حتى

وصلنا مدينة أصفهان التى هى فى السعة نصف الدنيا كما ورد فى المثل (أصفهان نصف جهان) فأقمنا بها ثم أخذ كل واحد منا يسيح فى أطراف المدينة وشوارعها وضواحيها يشاهد ما بها من الغرائب ويتمتع بما فيها من الملذات والنعم الكثيرة ، وكان «سليم دده» يتردد على القهاوى ويلعب الشطرنج حتى اشتهر بإجادته اللعب فى سائر أنحاء المدينة . لم يكن يستطيع أحد من أساتذة هذه اللعبة أن يكسب دورًا أمامه . ولقد تملك العجز والدهشة جميع أهل أصفهان من مهارة (سليم دده) في لعب الشطرنج فأخذوا يتساءلون دهشين إن لعب شاههم الجميل مع هذا الدرويش الماهر فى الشطرنج فأيهما يغلب الآخر . وأخيرا أنبأوا الشاه اسماعيل بمهارة درويش قدم إلى أصفهان حديثا فى لعب الشطرنج وكيف أنه يغلب سواه فأمر الشاه فورا بإحضار ذلك الدرويش إليه . وذات يوم ونحن جلوس في التكية إذا بحمار أبلق وراءه أغا ذو وجاهة تقدم إلينا يحيينا بقوله زادكم الله حبا يا دراويش ، فرددنا عليه بقولنا زادكم الله جمالا وكمالا أيها الزعيم . وعند ذلك قال الأغا إن الشاه يستدعيكم إليه وهو فى انتظاركم فاستعدوا لأذهب بكم إليه . ولما ذهبنا نحن الثلاثة بجببنا الفاخرة إلى حضرة الشاة بادر «سليم دده» إلى فتح حزامه وإخراج نايه الإسرافيلى وضرب نغمة محمدية ثم ثناها بنغمة حيدرية ثم ترنم اثنتى عشرة نغمة أخرى رمزا إلى الأئمة الاثنى عشر ثم ذكر أسماء الله الحسنى (الواحد الفرد الأحد القادر الأول والآخر والظاهر والباطن) ثم ضرب اثنتى عشرة نغمة أخرى لهذه الأسماء الحسنى صاح فى عقبها بقوله «الحق» ثم تقدم إلى الشاه واضعا يده على صدره ومميلا طاقيته ثم خاطبه بصوت آلهى عاشق ثم حياه تحية فارسية ثم انتحى مكانا وأخذ يترنم بأبيات تركية معناها أيها الملك آفاق معدلتك نيرة ساطعة فكن سراجا وهاجا لمحافل الدهر ، مثل الشمس .

وكن تارة كالنارنجة تعطر الربوع وكالوردة المفتحة تزدان الحدائق بها تارة أخرى .

ولا يحرم الله العالم من وجودك .

وقد أعجب الشاه إسماعيل بهذه الحركات والأقوال أيما إعجاب وسر بها أبلغ السرور فقام له وتقدم إليه وأخذه إلى جانبه يدا بيد وأجلسه معه وخاطبه متلطفا قائلا : مرحبا أيها الرجل من أين أنت قادم؟ فقال «سليم دده» إنى يا سلطانى قد تربيت فى كنف (الولى الحاج بكتاش) في بلاد قيصر ثم طفت البلاد وتنقلت بها فذهبت إلى القرم ثم إلى بلاد الخان شمخال وبعدها إلى مشهد خراسان فى بلاد بخارى لزيارة الأكابر ، وأخذت كتبا ورسائل من بعض المشايخ وجئت الآن إلى ديار الكمال والجمال للتشرف

بلقاء شاهى وملكى ذى الوجه البشوش الضاحك والطلعة البهية» . وقدم الكتب والرسائل المشار إليها إلى جلالة الشاه الذى ابتهج بها كثيرا وقال ، يا رجل على الرحب والسعة» . وفى أثناء ذلك فض الشاه كتاب الشيخ وتلاه وما أن فرغ منه حتى عين لنا مكانا ننزل فيه فى قصره العالى فلبثنا فى أصفهان مدة غير قليلة حيث نادم (سليم دده) فيها الشاه إسماعيل فى غالب الأوقات وحادثه وجالسه حتى ارتفع التكليف بينهما ، فقال له الشاه ذات يوم يا سليم دده يقال أنك ماهر فى لعب الشطرنج ، فأجاب نعم يا سلطانى هذا صحيح فرد الشاه بقوله إذن هيا نلعب معك دورا يفوز به البخت أو العرش . قال سليم دده أنا لا أستطيع ملاعبة الشاه لأن جلال الملك والسلطنة يمنعنى من ذلك فقال الشاه ، لك أن تعمل ما بدا لك ، فتصرف كيف تشاء ولا تفكر فى صفة الشاهية والملك . قم أيها الرجل فالمجال أمامك متسع . عند ذلك قال سليم دده إن فى هذه الأقوال تطامنا من الشاه كبيرا وتواضعا يشكر عليهما ، وعلى كل فالله سبحانه وتعالى لطيف وخبير بأحوالهم .

ولما شرع سليم دده فى لعب الشطرنج ، مر بخاطره الشريف أنه إن غلب الشاه فى هذه اللعبة الفريدة فعسى أن يكون ذلك عنوانا للظفر به وآية على خضوع بلاده له بقوة سيفه وحدة حسامه . وإذا بحكمة الله سبحانه وتعالى تتجلى وتظهر بوادر الغلبة والظفر حيث يموت ملك الشاه ثم ينشد ويقول ، حينما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق ، واسحب الفيل من بيته فالشاه ميت لا محالة ، ثم يقدم على إماتة الشاه بالفيل . فما كان من الشاه إسماعيل عندئذ إلا أن ثار غضبه ورفع يده وصفع سليم دده صفعة سلطانية . فصاح سليم دده أيها الشاه إنك خالفت الوعد ونقضت العهد إذ قلت آنفا اعمل ما بدا لك . ولا تلتفت لرتبة الشاه وجلال السلطنةفإنى ما عملت إلا بقدر معرفتى بأساليب اللعب ومقتضاه ولكن يأتى يوم لا أفى بعهد حينما ألعب وأميت شاهى . قال هذا ورمز إلى ما يبطنه فى نفسه . ولكن الشاه إسماعيل لم يفطن إلى ما يقصده من هذا القول . ثم لعبا ذلك اليوم ثلاث مرات غلب فيها جميعا سليم دده ، الشاه إسماعيل الذى ثارت ثائرته واشتد غضبه ولكن «سليم دده» نال مرامه وغرضه من الشاه خلال ذلك من الحصول منه على الإذن السامى بزيارة الأمكنة المقدسة التى كانت زيارتها محظورة كل الحظر . فضلا عن حصوله على الإحسانات الشاهانية من أنواع الجواهر والهدايا القيمة . فمن تلك الزيارات زيارة ضريح الترك التركمانى الخواجه أحمد يسوى أستاذ الحاج بكتاش ولى . ثم غادر أصفهان وساح فى بلاد كثيرة حتى وصل إلى حفرة الأستاذ

اليسوى وزاره ثم زار عددا من كبار أولياء الله فنال رضاهم ودعواتهم الطيبة ثم تشرف بمراقد جمع من أولياء الله أيضًا وبعدها عاد إلى تبريز وهمذان وأردبيل ودركزين وبغداد الشبيهة بالجنة ودَرْنه ودَرْتنك وشهربان ، وأقام ببغداد أربعين يوما تمكن خلالها من زيارة مراقد الإمام الأعظم ، وعبدالقادر الجيلانى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى ، وسلمان پاك[١] ، وجومرد القصاب ، والإمام موسى[٢] ، ومعروف الكرخى ، والإمام الحسين ، والإمام على ، حيث تمكن من تعفير وجهه بتراب عتبات هؤلاء الأولياء الكرام مستمدا المعونة والبركة من روحانيتهم العظيمة العالية[٣] .

قدوم الأمير سليم فى سياحته من بغداد إلى الكعبة

وسار الأمير سليم من بغداد مع حجاجها إلى الكعبة الشريفة فى سبعة عشر يومًا فزارها حاجا ثم أخذ في زيارة الأحياء من أولياء الله الكبار بها وقام أيضًا بزيارة أمكنة أخرى . ثم التحق بحجاج مصر وذهب معهم إلى زيارة المدينة المنورة وتقدم لزيارة ذلك الحرم النبوى المقدس بعد أن اغتسل جيدا ، فتمسك بالشباك النبوى وصاح صيحة قوية مزقت قلوبنا جميعا قائلا يا رسول الله إنك خلفت فى الدنيا ما سمى «الناموس المحمدى» فما هذا الناموس المحمدى الذى يجعلك تنام هكذا بين كفرة الجراكسة المصريين وهل هذا يعد ناموسًا؟ ها أنا ذا أعطيك عهدا وميثاقا إن يسر الله لى ببركتك فتح مصر أن أجعل بلاد مصر كلها وقفا عليك ، وأبنى بها قلاعا ، وأرسل كل سنة لأمتك الكساوى والصرة وسائر العطايا والهدايا . قال هذا وتضرع وابتهل وبكى وأبكى كثيرا ، ثم كرر هذا العمل من التضرع والابتهال سبع مرات ، وإذ بشخص متشح بملابس رثة يقول من تحت شباك الرسول يا سليم أنا كفيل لك وضامن ، فاذهب إليها وقم بعملك كما تريد وإياك وظلم العباد والتعدى عليهم ؛ وعليك بمراعاة علماء مصر ثم أشار بيده قائلا ومكررا لفظ «رح» ، رُح» وفى الوقت نفسه ارتفع صوت من القبر الشريف يقول : دَستور يا سليم دستور يا سليم! فحمد الله «سليم دده» عند ذلك ورافق حجاج مصر فى القدوم إليها ، وقد وصلها بعد أربعين يوما ونزل فى تكية (ميمندى) بالقرافة الكبرى .

---

(١) مزار سلمان الفارسى الصحابى .

(٢) موسى الكاظم من الأئمة الاثنى عشر .

(٣) لم نسمع بقصة الأمير سليم هذه ، ويبدو أنها قصة مختلقة ومتوهمة من وضع المؤلف ومن نسج خياله أو من إشاعات كانت رائجة فى ذلك الزمان . (د . متولى) .

ولما زرنا أبا السعود الجارحى ومرزوق الكفافى سلم عليهما سلاما حارا فرد أبو السعود الجارحى عليه بقوله عليك السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين وحاكم مصر ، سلامتك يا سليم ، سلامتك «رُحْ» بالعجل إلى بلاد الروم . هكذا كشف عن الغيب . وكذا أظهر مرزوق الكفافى الكرامة وكشف عن الحال فقال بالتركى ـ وكان يتقنها ـ ما معناه : عَجِّلْ بالعودة وتسنم عرش السلطنة ثم أسرع في غزو بلاد العجم وبعد هذا تعال إلينا حينما ندعوك ولا تقم الآن بمصر وهكذا أخرجَنا كبارُ الأولياء من مصر بسرعة ؛ بيد أننا لم نر مثيلا فى بلد ما للظلم والجور اللذين شاهدناهما في مصر فى مدة الاثنى عشر يوما التى قضيناها بها . لأن سلطانها الغورى كان حينئذ يبنى قناطر المياه فى مصر ، فيظلم الأهالى ظلما شديدا ويسخر الأهالى حتى العلماء فى حمل الأحجار وسائر الأشغال الشاقة ، وكان هو عاجزا عن ضبط الطائفة العسكرية والجنود وردعهم عن إيقاع الظلم والجور والتعدى على الأهالى[1] .

ولما تبين لنا هذا بادرنا إلى امتطاء صهوات خيولنا الأصيلة وزرنا المشايخ وتزودنا بالإجازات وكتب التوصية منهم إلى (خليل بن رمضان) من حكام آل رمضان فى أذَنَه ليقوموا بخدمتنا حين العودة إلى بلادنا .

هذا ولقد رجعنا إلى أذنه فى عشرين يوما ومنها إلى أرضروم في مثل هذه المدة ومنها إلى طرابزان في أربعة أيام ، حيث اجتمع (سليم دده) بوالدته المشفقة الحنون وتشرف ببركات دعائها الطيب . وحينما سأل عن أحوال والده السلطان بايزيد الولى علم أن شئون الدولة آخذة في الاضطراب والاضمحلال فإن أهالى الأفلاق وأردل والبُغْدان الكفرة شقوا عصا الطاعة وثاروا ثورة لا يعلم إلا الله مصيرها ؛ مما جعل أولياء الأمور فى السلطنة يضربون أخماسا لأسداس حائرين فيما يعملون ، وعاجزين عن اتخاذ أي تدبير ناجح ، ولذلك أخذوا يتلاومون قائلين أن الأمير سليم كان قد توجه إلينا لإنقاذ الدولة قبل سنتين فحاربناه وقاتلناه حتى هزمناه فوا أسفا على ذلك الأمير البطل السعيد الذى حرمنا من خدماته مدة سنتين . وماذا نعمل الآن؟ ولا ندرى هل استشهد الأمير فى تلك الحرب المشئومة أم فُقِدَ فى جهة ما ، وهل نعمد إلى «سليمان خان» ابن الأمير سليم خان ، وهو الآن مقيم فى (كفه) ونقيمه سلطانا علينا؟ هكذا كانوا يتساءلون وهكذا كانوا يبدون الأسف

(١) وسياحة الأمير سليم هذه لم نسمع بها أيضا فى بطون الكتب ، ويبدو أنها سياحة مختلقة ومتوهمة من وضع المؤلف نفسه ومن نسج خياله أو من شائعات كانت رائجة فى ذلك الزمان ، فلا علم لنا من خلال المصادر بزيارة قام بها الأمير سليم إلى بلاد فارس أو إلى بغداد أو إلى الحجاز ومصر قبل أن يتولى العرش . (د . متولى) .

والندم وبينما هم كذلك إذا بخطاب الأمير سليم (الدرويش) يصل من طرابزون إلى الآستانة فى سبعة أيام بفضل ريح التوفيق تهب فى البحر ، فيسركل السرور لهذه البشرى كل من فى الآستانة من رجال الدولة وأعيان الأمة المحمدية وسوادها إذ علموا أن الأمير سليم على قيد الحياة ومتمتع بصحته الكاملة . فيبادرون إلى إرسال الكتب وإيفاد الرسل إليه يدعونه إلى تسلم مقاليد أمور الدولة وتسنم العرش من غير أن يصطحب معه جيشا ولا جندا ، وقد تضرع إليه هذه المرة رجال قيادة الجيش العليا والعلماء وسائر رجال الدولة والدين قائلين فى كتبهم أنه قد بلغ السيل الزبى وطفح الكيل ووقع اختيارنا واتفاقنا جميعا على إجلاسك على منصة السلطنة وعرشها السامى ؛ فأرسلوا كتبهم ودعوتهم على جناح السرعة إلى الأمير فوصلت فى سبعة أيام إلى طرابزون وبادر الأمير سليم إلى السفر إلى (كفه) بسبعمائة قطعة من السفن المسماة (شايقا) و(قراموسل) واجتمع بابنه سليمان واحتضنه بلهفة وشوق حيث وجده شابا أنيقا باسلا وسليمانيا رقيقا فقبله بين عينيه النرجسيتين .

هذا وكان محمد كراى خان (حاكم القرم) قد تولى منصب الخانية حديثًا وسافر بجيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف جندي إلى «أدِرْنَة» فلما وصل إلى مقربة منها جاءت الأنباء أنه لحكمة يعلمها الله قد قام الكفار بالزحف من جهة هنغاريا (أنكروس) واستدعى الأمر ندب الأمير سليم إلى جهة بلغراد . فلما وصل الأمير إلى (صوفيا) عمد الجيش الإسلامى إلى الذهاب ببايزيد خان إلى إسلامبول ، وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يعود هو أيضًا من صوفيا ويتبع أثر الجيش الإسلامى وكان بايزيد إذا رحل من منزل من منازل الطريق حل مكانه الأمير سليم حتى بلغوا جميعا سهل (چورلو) فقام الجيش بثورة عامة وأخذوا يتصايحون . أنهم لا يقبلون سلطنة سليم ولكن المنصفين منهم والعقلاء كانوا يقولون أن دولة آل عثمان فى زوال وتدهور وأخذوا يعقدون مجالس للتشاور وتبادل الآراء وبينما هم كذلك إذ بجيش الأمير سليم يصل إلى الميدان ويمتشق الطرفان الحسام وتدور رحى معركة حامية تسفر عن اندحار الثائرين وانهزامهم فيعلن خلع السلطان بايزيد وسلطنة سليم الأول فى سهل «چورلو» هذا وخاطب بايزيد بعد ذلك ابنه داعيا عليه بهذا الدعاء :

«يا سليم ! إنك انتزعت الملك منى فى سهل (چورلو) بالقوة والعنف . وأسأل الله سبحانه أن تنقلب مقهورا فى هذا السهل نفسه! فاللهم اجعل سيفه قاطعا وعمره قصيرا

واجعل الانكشارية فى حرب دائما ، وبارك فى رواتبهم حتى يتصدروا أولادهم واحفظ أجسادهم من الإهانة فى ساحة الوغى ، واجعل الفرسان كثيرى النعم قليلى البركة وعظيمى المظهر ، واجعل أجسادهم طعمة للفتك والتقطيع في ميدان القتال ولا تبارك فى المدرعين ، واجعل أرباب الاقطاعات والامتيازات مشغولين بالقضايا والمنازعات طامعين فى ترك أموالهم ميراثا لأبنائهم[١] .

هكذا دعا بايزيد على جميع طوائف الجيش الانكشارى من رعايا آل عثمان وجنودهم ثم أرسله سليم إلى ديمتوقة ، فـفاضت روحه أثناء الطريق فى موضع يدعى «هاواسه» ، وأما كيف مات ولماذا فأمر لا يعرفه أحد .

بيان استقلال سليم الأول بالسلطنة في سنة ٩١٨هـ

لما انفرد السلطان سليم الأول بالحكم والسلطنة ، قمنا معه نحن الثلاثة ـ هكذا يقول حليمى چلبى ـ فى يوم البيعة (يبنى باغچه) في استانبول (اسلامبول) بسياحة كالأولى فى الفجر وقت الشافعية ، وقد تنكرنا فلبسنا زى الدروايش وطلعنا من الغرف السليمانية من وراء الحجاب فتوجهنا نحو أبى أيوب الأنصارى ثم إلى أبى الفتح وزرنا مرقديهما وبعد ذلك دخلنا ثكنات قدماء الصولاق[٢] ؛حيث استقبلنا رؤساؤهم بحفاوة وترحيب وقدموا لنا الفطور والقهوة . وفى أثناء الكلام قال لهم أيها الرفاق الغزاة هل تريدون سلطانا قادرا على الركوب والنزول دائب الحركة أم تريدون سلطانا معتكفا فى زاويته يمضى الأوقات بالدعاء والتضرع؟ فقالوا جميعا يجب علينا أن نقوم دائما بواجب الغزو والجهاد حتى تحل لنا الرواتب والمخصصات التى نتناولها من وقف الله ، فقد أحاط بنا العجم والكفار من جهاتنا الأربع ولم يتركوا لنا بلدا . عند ذلك بادر (سليم دده) إلى تحليفهم بالله قائلا إن رجعتم عن قراركم وتصريحكم هذا تكونوا قد نكثتم أيمانكم وصرتم من الحانثين . وحلف الكل على ذلك وتقدم «سليم دده» نحو باب الهمايون فنفخ فى الصور على الأصول البكتاشية ثم دخل الباب الأوسط ونفخ فى الصور مرة أخرى ونال

---

(١) قد يستشكل على القارئ ما فى هذا الدعاء من تناقض ولكنه هكذا ورد فى الأصل . (المترجم) .
(٢) صنف من الجند كانوا يخدمون فى ركاب السلطان فى أيام مخصوصة . (المترجم) .

الإحسان المعتاد من كتخدا البوابين والحراس وواصل السير حتى وصل باب الأغا الأبيض ونفخ فى الصور وأخذ الانعام والهبة المعتادة ، وبينما هو كذلك إذ سنحت له الفرصة بالدخول بين غلمان القصر وتسلل بينهم دون تكلف وتوجه نحو الغرفة الخاصة التى نشأ فيها سليم خان نفسه واقتحمها وجلس على عرش السلطنة مستقرا ثابتا كأنه سد الاسكندر ، وقد أمال تاجه وهو بتلك البزة الدرويشية ، وإذ بغلمان القصر ومماليكه الخاصة يفاجأون بسطوع النور وتلألئه فى أنحاء القصر فيهرعون كلهم نحو العرش السامى فيهجم أربعون منهم مسلحين بالساطور على الدرويش سليم فيبادر إلى فتح ذراعه مشيرا إلى تميمة الإمارة وعلاماتها ، فيعرفون عند ذلك أنه أمير من أمراء البيت العثمانى ، لأن كثيرا من الناس لم يكن قد رآه وعرفه حق المعرفة . وقد تقدم إليه أولا العارفون به من قدماء الخدم وقبلوا أعتابه قائلين أيها الأمير سليم نحن فى شرف خدمتك ماثلون أمامك ، هكذا تمت بيعة الأربعين أغا من أغوات الفرقة الخاصة ولسانهم يردد معنى قول الشاعر . أنت روح القلوب الميتة يا سليم! ودواء للأفئدة المريضة يا سليم! .

ثم طير الخبر السار إلى الذين كانوا منتظرين حسب العادة فى «بينى باغچه» للقيام بتقديم الطاعة وأداء البيعة الشرعية من قبل شيخ الإسلام والوزراء السبعة وجماعة العلماء والصلحاء وأعيان الدولة ورجال الأمة حيث تدفقوا وحدانا وزرافات ، وبايعوه على المنوال السابق .

ولما جاء دور جنود الانكشارية وتقدموا أفواجا أفواجا ؛ رأى أصحاب الغرف القدماء منهم أن الذى كان معهم منذ مدة وقد أكل معهم الطعام وحلفهم اليمين هو السلطان بعينه ، فدهشوا وطار لبهم وتبلبلت أفكارهم . ولما قال لهم السلطان هل تفون بوعودكم ، صاحوا جيميعا نعم يا مولانا نحن مستعدون للتضحية فى الخدمة ، هيا بنا نعبر إلى أسكدار ونخرج من باب «أدرنه» . قالوا هذا وجددوا بذلك العهد وأكدوا الميثاق .

وفى اليوم التالى خرج السلطان فى حفل عظيم وموكب كبير مهيب إلى مقام أبى أيوب الأنصارى ، حيث تقلد فيه سيف السلطنة ثم واصل سيره بالموكب الفخم إلى القصر العالى وقد أمر المنادين أن يعلنوا فى الناس بأن السلطان معتزم على السفر إلى الجهاد والدوام فيه سبع سنوات . وفى اليوم الذى يليه أقام الصدر الأعظم پيرى باشا سرادقا عظيمًا خارج باب أدرنه وآخر أعظم منه فى أسكدار ثم أرسل إلى جميع الملوك

والسلاطين رسلا وكتبا يعلن بها سلطنة السلطان سليم ، فجاءت هداياهم ورسلهم بكتبهم يخطبون فيها ود السلطان سليم الذى هابه الكفار الضالون ، إذ طلبوا بكل خضوع تجديد معاهدات ومواثيق السلم ، وقد بعث الباشا المذكور آنفا إلى الشاه اسماعيل كتابا يقول فيه ، إن البابا «بايزيد» ذا البساط والكليم (كناية عن التقاعد والتكاسل) قد ولت أيامه وجاء إلى العرش البابا ذو الدبوس العظيم ، والذى غلبك فى السنة الماضية بأصفهان ثلاث مرات فى لعب الشطرنج فاستعد للقائه وهو قادم إليك ليأخذ منك ثأر تلك الصفعة التى صفعتها له . وقد أسقط في يدى الشاه إسماعيل حينما وصله هذا الكتاب الشديد اللهجة وصاح قائلا ، أواه واندماه! إن الدرويش سليم الذى غلبنى فى السنة الماضية فى لعب الشطرنج كان هو بعينه «سليم» سليل آل عثمان ، فواويلاه ويا مصيبتاه! وكاد يقطع نفسه . هكذا نقل حليمى لكاتب هذه السطور الفقير إلى الله تعالى والكثير الذنوب والقصور ، قصة «سليم خان» هذه أمام هؤلاء الرجال الطاعنين فى السن والمتقدمين فى العمر ولا شك فى أن هذا النقل صحيح لأن خدام (سليمان خان) وهم من أقرانه ، ووالدى المرحوم كانوا معه وواقفين على هذه الأحوال ، فلم يعارضوه فى النقل والسرد قط ، بل استمعوا له وأصغوا إليه تمام الاصغاء .

بيان حرب السلطان سليم
مع الشاه إسماعيل فى چالدران

زحف السلطان سليم بعد ذلك بجيش عرمرم كالخضم إلى شاه إيران فوصل صحراء «جلدر» سنة ٩٢٠هـ حيث التحم الجيشان ودارت بينهما رحى حرب ضروس تبين خلالها أن ابن ذى القدرية والسلطان الغورى قد أنجدا الشاه بجنود مصر ، فمكنّا جَيشَ إيران من الأعجام من التفرغ لمحاربة جيش الإسلام (العثمانيين) وإعمال سيوفهم البتّارة فى فرقنا الأساسية واشتداد وطأتهم عليها ، لأن الأعجام معروفون بحسن استعمال السيوف وإجادة الضرب بها .

هذا ولقد كان الطرفان متعاهدَيْن على عدم استعمال المدافع والبنادق فى هذه الجهة (من البلاد الإسلامية) فخطر ببال (سليم خان) عندما رأى هذه الحال الأليمة ما سبق أن حدث له من ملاعبته الشاه إسماعيل الشطرنج فى أصفهان وقول الشاه له أنه لا دخل لصفة الشاهية فى اللعب ثم نقضه عهده هذا وصفعه إياه حين غُلب فى اللعب ثم رده

عليه بقوله : يا شاهي سيأتي يوم أنقض العهد أنا كذلك . تذكر سليم كل هذا وصاح قائلا ها قد جاء وقت نقض العهد فأمر بإطلاق المدافع . وكان (إياس باشا) حينذاك رئيسَ الانكشارية فبادر إلى إطلاق النار حسب الأمر السامى على الأعجام الذين انهزموا شر هزيمة وتشتتوا شذر مذر ولم يبق أثر ما لجيش إيران الذى كان يملأ القرى والبلاد ، فى مدى سبع ساعات . وقد لاذ الشاه إسماعيل بالفرار وولى الأدبار ومعه سبعة من رجال حرسه الخاص لا يلوون على شىء وشاهدت امرأة الشاه إسماعيل وصاحت قائلة : لله درك يا سليم يا بطل ، لقد هزمت شاهنا وجعلته يبول على سرجه ، وهو راكب على فرسه ، ويفر من الميدان . ولكن الشاه قابلها بالإحسان والإنعام حتى أسكتها وأنقذ نفسه . ولا شك أن معركة «چلدر» هذه مشهورة ومعروفة ولا داع للإسهاب فيها .

وقد أسرت زوج الشاه إسماعيل وهى (تاجلى خانم) ومعها أكثر من مائتين من الجوارى الحسان وقدمت إلى استانبول ومعها أموال قيمة وافرة ، ثم ذهب سليم إلى بلدة (أماسية) وأمضى فيها الشتاء وهو يستعد لإثارة حرب أخرى فى بلاد العجم . وبينما هو كذلك إذ جاءه النبأ بأن ابن ذى القدر علاء الدولة قد توجه من (مرعش) بسبعين أو ثمانين ألف من الجيوش الجرارة قاصدا الصعود إلى هضبة (كوكسون) . فبادر السلطان سليم إلى تعيين [سنان] باشا قائدا لتجريدة عسكرية وندبه لقتال علاء الدولة فهزم شر هزيمة وقتل هو وأولاده فى المعركة ، ووقع فى الأسر زهاء سبعين رجلا من أقربائه وجىء بهم جميعا مكبلين إلى سليم خان وأيديهم مشدودة إلى أقفيتهم . فأرسل سليم هؤلاء القتلى والأسرى وفيهم سالم بك عمنا إلى السلطان الغورى بمصر .

ولما رأى الغورى رأس علاء الدولة ورءوس أولاده وأقربائه ، صاح قائلا : أواه كان لنا قائد طليعة من الأبطال يصمد للعدو اللدود ويوقفه عند حده . ومنذ اليوم تقع تبعة الأهبة والاستعداد لقتال آل عثمان علينا مباشرة ، ويكون هذا من أول واجباتنا . ثم بادر الغورى إلى إطلاق المساجين والمحبوسين ومنهم عمنا الذى جاء إلى القدس وجرد نفسه من شئون الجندية وآلات القتال وجاور هنالك حتى مات . ولقد عثر على قبره المنقوش عليه تاريخ وفاته ، فى مكان يطلق عليه «طورزيتا» وأصلحته .

وأما الأحوال فى مصر حينذاك فقد كانت سيئة جدا لا على الرعايا والبرايا من الجمهور المساكين فحسب ، بل على حريم الذوات الكرام الذين يشار إليهم بالبنان ،

ويقال فى وصفهم فلان بن فلان ، إذ كانوا يضطهدون فى كل مناسبة وأوان فى الوكالات والفنادق والخانات على أيدى أشقياء العسكر ومجرمى الجراكسة المناجيس وظلمهم المتواصل واسترسالهم فى الثورة والطغيان ، مما اضطر جمعا من كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة بمدينة مصر فى ذلك الوقت إلى الحضور إلى ساحة أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى وبث شكواهم إليهما فبادرا إلى عقد مجلس من العلماء والصلحاء للتشاور وتبادل الآراء وانعقد المجلس وتداولوا الآراء قائلين إن أعطيت مصر للمغاربة فإن بلادهم بعيدة عنها لا يستطيعون القدوم إليها سريعا للتصرف فيها وإن وقعت تحت أمر العجم فإن فى عقيدتهم ومذهبهم لشبهة وريبا ، وإذا عادت إلى حكم الأكراد فليس لدولتهم دوام ولا ثبات فهيا بنا إذن نستعين بآل عثمان الذين هم مسلمون موحدون ؛ فضلا عن تقديرهم للعلماء وتفضيلهم الصلحاء وتقريبهم المشايخ وأهل الشريعة السمحة ، وأصحاب السيف والعلم ؛ مما جعلهم ينتصرون وينالون الظفر بالعدو أينما توجهوا وكيفما شاءوا . وقد استقر آراؤهم واجتمعت كلمتهم على هذا الرأى وانتهت مشورتهم بقراءة الفاتحة والاتفاق التام . وعند ذلك قام كل من أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى وصاحا مشيرين بقولهما (يا سليم تعال يا سليم تعال!) وكان هذا يحدث والسلطان سليم جالس مع وزرائه فى مشتى (أماسيه) يتجاذب معهم أطراف الحديث فى صفاء وسرور وبينما هم كذلك إذ بالطواشى سنان باشا ويونس باشا يدخلان المجلس فجأة ويقولان يا سلطاننا قد سمعنا ثلاث مرات لفظ (يا سليم تعال) فما معنى هذا؟ فيرد السلطان ويقول ، إننا قمنا بسياحة مع حليمى [چلبى] وذهبنا إلى مصر وقد كشف الله تعالى الغطاء عن أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى فقالا لى (يا سليم اجلس على تخت أبيك) وأردفا ذلك الكشف الصمدانى بقولهما (احضر إلى مصر حينما ندعوك إليها) . فما استمعتما الآن من الأصوات والنداءات ما هى إلا نداء هؤلاء المشايخ الكرام . عجلوا إذن بأسباب السفر والزحف إلى مصر .

قتل سليم الأول لإخوته وأولادهم

وفى الوقت الذى كان الوزراء ورجال الدولة متفرغين للاستعداد وأخذ الأهبة للسفر إلى مصر والزحف إليها ، إذ بالمستغيثين والقصاد يحضرون إلى الأبواب السلطانية ويقولون : يا سلطاننا إن أخاك الأمير (قورقود) من جهة وأخاك الأمير (أحمد) من جهة

أخرى قد رفعا علم العصيان علينا فتعرضت البلاد كلها لخطر الضياع والسقوط فكيف تقوى الآن على السفر إلى مصر؟ فما كان من السلطان سليم إلا أن عطف عنان عزيمته إلى ناحية الأمير أحمد والتقى به فى جوار (ينى شهر) على مقربة من (بروسه) ودارت بينهما رحا معركة عظيمة سقط فيها الأمير أحمد عن جواده فقبض عليه وجيء به وقد غلّت يداه إلى قفاه ، إلى حضرة السلطان سليم الذى لم يرحمه وخنقه فورا فى السرادق السلطانى ودفنه بجوار السلطان مراد الثانى فى مدينة «بروسه» هذا وقد فر أحد أولاد الأمير أحمد هذا ويدعى الأمير (مراد) من هذه المعركة إلى الشاه إسماعيل بأردبيل ومات هنالك بعد ثلاث سنوات ودفن بها . وأما ولداه الكبير علاء الدين والصغير الأمير . . . فقد لجأ إلى ساحة السلطان سليم فعفا عنهما لصغر سنهما فماتا فى إسلامبول مطعونين ودفنا بها ، كما أن السلطان سليم قد قتل كلا من محمد خان ومحمود والنجل الأكبر وموسى وأورخان أولاد أخيه الأمير شاهنشاه ، وكذا عثمان ابن أخيه السلطان عاليشاه حيث قبض عليهما ؛ حينما توجه إلى قتال أخيه أحمد خان وهؤلاء الشهداء كلهم راقدون فى «بروسه» بجانب تربة الغازى أورخان (كان هؤلاء الأمراء قد صدرت منهم أعمال وحركات غير ملائمة تدل على الانشقاق والتفرق وانقسام المملكة إلى ملوك متنازعين كما حدث فى عهد السلطان بايزيد الولى . وقد تنازعوا وتقاتلوا فعلا حتى نفرت منهم الرعايا واضطر أكثر الناس لأن يتبعوا العجم ويخضعوا لهم كارهين) .

ثم عطف الشاه سليم عنان عزيمته إلى الأمير قورقود الذى كان قد جمع حوله ألفًا من أشقياء الترك وتصدى لقتال السلطان ، ولكن الدائرة دارت عليهم أجمعين وتشتتوا شذر مذر ، حيث لجأ الأمير قورقود مع كتخدا (پياله) إلى غار فى سنجق (تكه) ومع كل منهما حصانه ، فلبثا به بضعة أيام ذليلين كئيبين لا يجدان شيئا يقتاتان به . حتى اضطرا إلى إعطاء أحد الحصانين إلى أحد الأتراك ليأتى لهما بشيء من الخبز والشعير . ولم يكن التركى يأخذ الحصان ويخرج إلى الطريق حتى قابله حاكم المنطقة وأخذ يسأله من أين لك هذا الحصان حتى اضطر التركى إلى إرشاده إلى الغار الذى به الأمير قورقود وكتخداه پياله فأتى إليهما وألقى القبض عليهما ثم ذهب بهما إلى حضرة السلطان سليم يرسفان فى القيد ، حيث قتلهما السلطان فورا بلا رحمة ولا شفقة ونقل جثتيهما إلى بروسه ودفنا فى تربة المرحوم الغازى أورخان .

وبذلك تم للسلطان سليم الأمر والسلطان بلا منازع ، يحكم كما يريد ثم بادر إلى استدعاء نجله الأمير سليمان من بلدة (كفه) إلى (أدرنة) وأسند إليه شئون الدولة وأمور الإدارة والحكم ليتمرن على ذلك فيبرع فى تصريف الأمور وفق سياسة البلاد . وقد وكل إليه ذلك لأنه كان فى غاية الفطانة والرشد ؛ فضلا عن أن جميع كبار أولياء الله كانوا قد بشروه بقولهم يا سليم! لا فائدة لك فى إخوتك والشخص الذى يكون بحق خليفتك وحامل رسالتك هو نجلك الوحيد «سليمان» لا غير والحق أن السلطان سليم لم يخلف سوى سليمان الذى كان قد ولد مثل أبيه فى طرابزون ولا تزال والدته مدفونة بها فى جامع خنكار فى حى (بوزديه) ؛ بيد أن سليمان ولد فى سنة ٩٠٠هـ أى فى رأس المائة فيكون صاحب رسالة وظهور حسب قول صاحب الرسالة الشريفة ما معناه (أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها) . وبناء على هذا اقتنع السلطان سليم بأن الدولة والاقبال من خصائص سليمان ، فأقدم على قتل جميع أخوته ثم واصل سيره وذهب لزيارة (أمير سلطان) فى بروسة وحينما دخل التربة قال : (السلام عليكم يا أهل القبور) فارتفع صوت من قبره الشريف يقول (عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم ، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) فتحير الحاضرون والسامعون كلهم من هذا . وتقدم ابن كمال باشا وقال يا سلطانى بشراك أنك تفتح مصر وهذا إرهاص بذلك .

قتال سليم الأول للسلطان الغورى فى مرج دابق حين ذهابه لفتح مصر

ما كاد السلطان سليم الأول يسمع نداء «القائل» هيا تقلد سيف الغيرة والحماسة وتوجه إلى تلك الجهة» حتى تناول السيف وتقلده فى ضريح الولى أمير سلطان . وقد تلا كمال باشا الفاتحة على هذه النية الشريفة ومسح الجميع وجوههم بأيديهم متبركين . وعاد سليم إلى قصره العامر بعد أداء هذه الزيارة المباركة وبادر إلى دعوة علماء الروم ومفتى المذاهب الأربعة لديه وطلب منهم الفتوى الشرعية بجواز الزحف إلى مصر وفتحها . وقد عمد الوزير الأعظم الطواشى سنان باشا إلى إظهار أربعين فتوى سبق أن وردت من مصر فى هذا الشأن ووضعها أمام علماء الروم . فاطلعوا عليها وعلموا مضمونها وصاحوا قائلين ؛ إن كان علماء مصر وأولياء الله الكبار بها قد أصدروا مثل هذه الفتاوى الشريفة وأباحوا بها قتل حكام مصر ، فأولى بنا أن نقر هذه الفتاوى . ونص فتاواهم هو ما

يأتى : ما قولكم فى سلطان من سلاطين المسلمين يدعى أنه خادم الحرمين الشريفين ، يقدم العون والمساعدة لقوم من الروافض الفاسدين الذين يعرفون بذوى الرؤوس الحمر[١] والذين يبيحون سب الخلفاء الراشدين الأربعة من أصحاب النبى وإهانتهم ، حينما يقوم أحد سلاطين المسلمين بقتالهم لمنعهم من عملهم ذلك ، ويشهر السيف على ذلك السلطان المسلم القائم بقتالهم للقضاء على سب الخلفاء؟ والجواب على ذلك هو أن ولاية مثل هذا السلطان غير جائزة وخلعه فرض عين . إذ هو داخل بعمله هذا فى مذهب الرافضة ، فيجب نهب إقليمه وولايته وهدر دماء تابعيه ، يقتلون ولا يؤسرون ونساؤهم حرام علينا لا يتخذن جوارى وإماء . ويجب الزحف إليهم ونزع البلاد منهم .

وقد تناول سليم الفتوى بيده وسلمها إلى الاثنى عشر نفرًا ثم أرسلهم إلى السلطان الغورى بمصر . حين وصول هؤلاء الرسل إلى مصر أحضرهم الغورى فى ديوانه وأخذ كتاب السلطان سليم وفتوى العلماء وتلاهما ثم قال إن سليم شاه سبق أن قتل علاء الدولة ابن ذى القدرية مع سبعين رجلا من أقربائه ، وأرسل رءوسهم مع أسرى مقيدين بالحديد إلينا ، والآن أرسلكم إلينا بحجة الرسالة والوفادة لنأخذ منكم ثأر هؤلاء الضحايا . وقدم عشرة من هؤلاء الرسل إلى الجلاد فضرب أعناقهم فورا وقد أبقى منهم اثنين على قيد الحياة ليرجعا إلى سليم حاملين رسالته التى مضمونها :

«إنى ما دمت حيا لا أمكنه من دخول مصر ، ليستعد للقائى فى سهل مرج دابق تحت حلب ، فإن كان عنده شىء من الرجولة فليبرز لى فى ساحة الوغى» .

ولما وصل هذا الكتاب إلى السلطان سليم ثارت ثائرته فجمع العلماء وسألهم رأيهم فأجابوا بالإجماع أنه لا يجوز بعد الآن التقاعد عن العمل لأن قتل الرسل لا يجوز فى عرف الملوك الكفار ؛ فكيف يقع من ملوك الإسلام؟ ولا شك أن قتل الغورى بعد الآن مباح وحلال . فانهض أيها السلطان واعمل ، لأن الذنب الآن ذنبهم والجرم صادر منهم لا لوم عليك ولا تثريب .

وعند ذلك تهيأ سليم للعمل وفوض أمور الدولة فى استانبول إلى (قراپيرى باشا) كما عهد بسردارية الروم إلى نجله (سليمان خان) وتوجه هو بالجيش من بروسه يقطع

(١) يعنى قزلباش بالتركية . (د . عزام) .

المراحل ويطوى المنازل نحو قونية ، حيث زار ضريح سلطان العلماء مولانا [جلال الدين الرومى] وتمسح بأعتابه الشريفة مستمدا من روحانيته القوة والتوفيق . ثم واصل السير حتى اجتاز سهل «رمضان أوغلى» ودخل بلدة «أذنة» مركز الدولة الرمضانية وأقام بها مدة . ولقد نزل بها سابقا أثناء سياحته عائدا من مصر يحمل كتاب توصية من أبى السعود الجارحى إلى خليل بك آل رمضان حيث نزل ضيفا عليه ووعده حينئذ بأن يبقيه فى إيالته محتفظا بأملاكه وإقطاعاته وسائر أوقافه ومخصصاته ، حينما يملك مصر ويفتحها ، وقد نفذ وعده ذاك ، هذه المرة وزاد عليه أن منحه لواء «بشعار طوغين» مع تعينه قائدا لطليعة الجيش الزاحف إلى مصر . فتقدم خليل بك مرحلة أمام الجيش مصحوبا بعشرين ألفًا من نخبة الجنود وفى خلال ذلك وصلت الأنباء بأن أسطولاً عثمانيًا مؤلفا من ثلاثمائة سفينة من نوع «القادرغه» ومائتين من «الشايكا» و«القرامرسل» و«الغليون» محملة جنودا كثيرة تموج كالبحر وموسوقة بمهمات حربية وذخائر لا تعد ولا تحصى ، قد وصل ميناء طرسوس قادما من اسلامبول ؛ فسر السلطان سليم من ذلك كل السرور ودعا لپيرى باشا نائبه وبعث مع أحد الحجاب إلى مصطفى باشا بالاك قبطان الأسطول أمرا بألا يفارق الأسطول السواحل وأن يظل دائما قريبا منه . أقلع قبطان باشا من طرسوس وذهب إلى الاسكندرونة وألقى المراسى بها فى الوقت الذى غادر فيه السلطان سليم أذنة بجيش مؤلف من ثمانين ألف جندى مدربين غاية التدريب وسار حتى دخل حدود الممالك المصرية وذلك لأن الحد المصرى فى ذاك العهد كان فى ولاية أذنة ، وتوغل فى الدخول حتى وجد نفسه فى سهل «مرج دابق» على مقربة من «كلس» وأقام معسكره به وتقدم إلى السلطان ، درويش يقول «إذا أردت النصر والظفر بعدوك فعليك أن تذهب إلى مقام داود الذى هزم جالوت بإذن الله تعالى وأمره ، فتسند ظهرك إليه قبل مجىء الغورى . وترى حينئذ كيف يتجلى الإله عليك بالنصر المبين والتوفيق الباهر . لأن ذلك المكان مبارك ومظهر من المظاهر الإلهية ولا شك . إذ أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل آية ﴿**وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك**﴾ على حبيبه المصطفى ؛ فبادر يا سليم إلى ذلك المحل واتخذه كسد الاسكندر» قال هذا ثم غاب بغتة كما ظهر بغتة . فعمل سليم بموجب ذلك وهرع إلى ذلك المكان وأقام معسكره به وأحاطه من كل الجوانب بخيام جعل الحرس فيها وربط أطناب الخيام والمضارب بعضها ببعض ونام الجيش كله مستريحا آمنا .

الهزيمة الأولى للسلطان الغورى على يد سليم الأول

وصل الغورى صباح اليوم التالى بجيشه الذى لا تسعه الأرض من الكثرة ، ونزل تجاه عسكر آل عثمان وشرع فى ترتيب الطلائع والحرس الأمامى من سبع جهات .

والدليل على كثرة جنوده ووفرة عساكره أنه كان له فى جيشه عشرون ألفًا من السقائين ذوى النبابيت وعشرون ألفا من الخيامين وعشرون ألفا من السياس ومثلهم من القواصين الفلاحين ، وفضلا عن ذلك كان له اثنا عشر ألفا من الفرسان المشاهير ذوى الخيول البلق ، وأربعون ألفا من الفرسان وثمانون ألفا من الأغوات الخاضعة لحاملى رتبة أمير الأمراء (ميرميران) وأمراء الجراكسة .

فالخلاصة كما تقول (تواريخ شهابى) ، أن جنود الغورى كانوا يبلغون ما عدا حشراته الأخرى ، مائتى ألف من حملة السيف ومتقلديه . وبهذه الجيوش الجرارة قابل الغورى سليم شاه فى «مرج دابق» وهو لا يملك سوى ثمانين ألفا من العساكر العثمانية .

ولما استعدت الفرق للتقدم والتحفز واندفعت الطلائع إلى مواضع الوثب ، التحمت الجيوش الجرارة من الطرفين فى حرب ضروس وقتال مرير دامت معاركها سبع ساعات نجومية واستمرت حملاتها السلطانية بكل قسوة وشدة حتى أسفرت أخيرا عن هبوب ريح النصر والظفر على جانب السلطان سليم ، إذ صارت جنود الغورى طعمة لسيوف العثمانيين ، وقد نادت فلولهم مع سيدهم الغورى : أين أنت يا مصر وكيف الفرار إليك . قال بعض المؤرخين أن الغورى قتل فى هذه المعركة إلا أن ذلك غير صحيح . فإن من المحقق أنه وصل مصر وحشد جيشا آخر كبيرا بها[1] .

هذا وقد لبث سليم شاه فى مرج دابق عشرين يوما وحصل على غنائم لا تعد وأسلاب لا تحصى حتى صار كل جمال أو مُكارٍ فى الجيش بعد ما كان مأجورا يملك قطارا كاملا من الجمال أو البغال تحمل له أموالا كأموال قارون من الغنائم والأسلاب . لأن عساكر الغورى كانوا قد دفنوا أرزاقهم وأموالهم فى الأرض عالمين أن غدا يوم المصاف والمعركة الكبرى . . ولما تشتت شملهم وانفرط عقد اجتماعهم وانهزموا شر

---

(١) من المؤكد حسب جميع المصادر أن الغورى سقط ميتا من فوق صهوة جواده فى ميدان معركة مرج دابق وتسلطن مكانه طومان باى . (د . متولى) .

انهزام بادر العثمانيون إلى تلك الكنوز والدفائن من الأموال والأرزاق فاستحوذوا عليها وفرقوها على الناس هنالك حتى لم يبق منها شىء ثم نهض سليم شاه وجاء إلى قلعة أعزاز وأقام بها مدة وكانت العساكر الإسلامية يطاردون الجراكسة ويسلبونهم أموالهم على ظن أن كل واحد منهم يملك أموال قارون ثم يقتلونهم أينما وجدوهم ، وهكذا فر كل رجال الغورى الكبار البارزين أمثال وزيره الأول (سنيال) وكريباى[١] وقاداباى وأما جان بزدى[٢] وزيره بالشام فقد مل من روحه فهرب وكذا «الغزالى»[٣] الذى التحق بغزلان الصحارى وهام على وجهه حقبة من الزمن ، وأما خيرى باى حاكم حلب من قبله ، فقد هرب من حلب والتحق بركاب السلطان سليم مقدما له طاعته وخضوعه وصار أخلص عبيده ورجاله ؛ إذ كان السلطان سليم قد وعده بمكافأة حسنة إذا أخلص فى العمل معه وقدم له المشورة والنصيحة السديدة فى المهمات والملمات ، وأنه إذا تم له ما أراد منها فسيعينه حاكما مستقلا لها ويضع تحت أمره جيوشا جرارة يوجهها حيثما يشاء ويريد . وكان قد عهد إليه بالفعل بمناصب وخلع كثيرة وأعطاه سنجق «كوستنديل» ببلاد الروم‌للى ، ولما حضر إلى معسكر الجيش الزاحف إلى مصر واجتمع بالسلطان فى جنوب حلب الشهباء ، شرع يبدى نشاطا عظيما فيما يكلفه من الأمور ، من ذلك أنه أقنع علماء حلب وصلحاءها من الأئمة والخطباء والمشايخ ، وكذا حاميتها من الطوائف العسكرية ، بتقديم الطاعة والخضوع للسلطان سليم وتسليمه المدينة صلحا وسلما ، فجاءوا بمفاتيح القلعة إلى حضرة السلطان وسلموها بكل إخلاص إليه ونالوا منه الانعام والإحسان . هكذا تم فتح حلب بالسلام والأمان . فأسندت إيالتها إلى «قراجه باشا» وقضاؤها إلى «چملكجى زاده كمال چلبى» . ثم أقام السلطان سليم بعساكره وجنوده الظافرة فى سراى السلطان فى حلب وأخذ فى زيارة مقام سيدنا زكرياء في الجامع الكبير ، وسائر أعيان الأولياء واستمد المعونة والمدد من أرواحهم الطاهرة ، ثم أرسل إلى البلاد الواقعة حول حلب كتبا يستميلها إليه ، ويطلب منها أن تقدم إليه خضوعها واعترافها بسلطانه . وإليك بيان القلاع والولايات التى قدمت طاعتها وسلمت مفاتيحها وهى مرعش ، عينتاب ، ريحانية ، المعرة ، الرها ، بيرجك وحران وكلس ، وعزيز (تصحيف أعزاز = عزاز) حلب ،

---

(١) فى نسخة يلدز قورت باى .

(٢) هنا لعب لفظى حيث ذكر (جان يزدى) ومعناه الملل من الروح تجاوزا بدل «جان بردى» منح الروح ، وهو «جانبرد غزالى» .

(٣) الغزالى هو جان بردى الغزالى وهو شخص واحد . (د . متونى) .

وحماه وحمص ومداك ، وشجر [شغر] ، وأنطاكية ، واللاذقية ، وجبلية ، ومرقب . وحصن ، وطرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وعكا ، والرملة والزيدانية ، وبعلبك ، وشقف وطبرية ، وفلسطين ، ولجون ، وعجلون ، ونابلس والقدس وغزة هاشم ، إلى غير ذلك من البلاد حتى بلغ عددها مائة وأربعين قلعة حصينة منيعة وسلمت كلها مفاتيحها بالأمان والسلام بكل سهولة وخضوع تام .

وقدم الطاعة والخضوع من عربان الصحراء آل سليمة وآل رشيد وآل رباح وآل عمرو وآل حد وآل بنى زهدى وآل بنى عرابى وآل بنى سالم . والخلاصة أن سبعين قبيلة من العربان وجميع الطوائف الدرزية واليمانية والزيدية والمروانية والهوبارية والماروكنية والعقلية والقزيلية والشهابية والشهبازية والنصيرية والسانكية وبالاختصار جميع الملل الضالة والطوائف المنحرفة التي تقيم بجبال بيروت وصيدا ؛ حينما سمعوا بفتح القلاع كلها بادروا إلى ركاب السلطان سليم وتمسحوا بتراب قدميه ثم قدموا أنفسهم رهائن وهم يتلون الآية الكريمة ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ . ثم نهض السلطان من حلب إلى خان تيمان [طومان] ومنها إلى :

قلعة المعرّة

حيث أعطى إمارة هذه القلعة إلى عطا بك ، ومنها إلى :

قلعة حماه

(حماها الله تعالى) حيث خرج أهالها لاستقبال السلطان سليم خان وتمسحوا بأعتاب جلالته مقدمين طاعتهم ومسلمين قلعتهم له فتعين طرخان بك أميرا لها . ومنها إلى .

قلعة حمص

حيث خرج جميع أهاليها مشاة لاستقبال الموكب السلطانى العالى مقدمين الطاعة فعين احتمان زاده أميرا عليها .

طرابلس الشام

أعطيت هذه الإيالة لـ(كوزلجة قاسم باشا) الذى أُمر بأن يحضر بالأسطول الهمايونى إلى ميناء طرابلس . ثم واصل السلطان سليم السفر بكل عظمة وأبهة إلى الشام ولما وصل بموكبه السامى وأصبح على مقربة منها هرع أهلوها كلهم وعلى رأسهم (جانبرد)

وزير الغورى بالشام وقدموا الطاعة والخضوع لجلالة السلطان معتمدين على شفاعة (خيرى باى) السابق الذكر . وقد تمسحوا بتراب أقدام جواد السلطان فبادر فحباهم عفوه ومغفرته عن جرائمهم السابقة . فأعيدت إلى (جانبرد) إيالة الشام ؛ كما كانت سابقا وأنعم بقضائها على «منلا أفندى» . ثم دخل سليم شاه بموكب عظيم حافل دمشق الشام حيث فرشت طرقها بالديباج والشيب والنسيج المقصب بالذهب ؛ وهكذا تم فتح قلعة الشام .

فتح قلعة الشام

وقد انطلق المنادون من قبل السلطان يعلنون فى أطراف المدينة قرار تمضية أيام الشتاء فى هذه المدينة ، حيث أمر السلطان خلالها بإنشاء القلعة الداخلية لدمشق وعهد بذلك إلى «صارى أرسلان» أمير اللواء الذى كان نائبه فى طرابزون عند ما كان السلطان أميرها وخرج منها سائحا فى أنحاء العالم . هذا ولما عاد السلطان سليم من فتح مصر إلى الشام ووجد القلعة كاملة البناء وتامة الهندام كما يريدها ، أعجب بها أيما إعجاب وعانق بانيها «صارى أرسلان» من فرط سروره وسمى القلعة باسم بانيها المذكور . ولا يزال اسم القلعة الداخلية فى الشام التى تنتسب إلى سليم الأول معروفا وشائعا بصارى أرسلان لهذا السبب . وأما القلعة الخارجية فمنسوبة إلى «معاوية بن أبى سفيان» فهى من آثار بنى أمية .

هذا وفى خلال ذلك جاء الحمام الزاجل من مصر إلى الشام بكتب إلى (جانبرد) فبادر إلى تقديم هذا الحمام مع الكتب الواردة إلى سليم شاه ففتح جلالته بيده الكريمة الكتب ووجدها تتضمن أن الغورى بعد انهزامه فى معركة «مرج دابق» وفراره هو وجيشه من الميدان حينما وصلوا قطية وصحراء أم الحسن ، كان قد نال التعب منهم كل منال وأهلكهم الجوع والعطش[١] ؛ وهنا أحاط العربان سكان الصحارى ، الباقين منهم على قيد الحياة والناجين من هول ما لقوه فى طريق الصحراء من المشاق والهزيمة ؛ الأمر الذى أفضى إلى عدم نجاة أحد من جموع الغورى سوى ستين شخصًا كانوا فى خدمته المباشرة فوصلوا القاهرة سالمين ، وأنه الآن آخذ فى الأهبة وحشد العساكر والجنود وتنظيمهم . وقد نصب (طومان باى) قائدا على هذا العسكر الجديد .

(١) من المؤكد كما سبق أن قلنا أن الغورى قتل فى معركة مرج دابق ولم يفر إلى مصر كما يقول المؤلف . (د . متولى) .

وكان الكتاب مسطورا ومؤرخا في صباح اليوم الذى وصل فيه من مصر إلى الشام وقت العصر ، مما أثار عجب السلطان سليم فقال إن مصر حقيقة مملوكة للماليك .

بيان قبر محيى الدين العربى[1]

حدث فى يوم من أيام الشتاء الذى كان السلطان سليم يقضيه فى الشام أن كان العالم الشهير ابن كمال باشا منكبا على الكتب والتنقيب فيها إذ وجد فى رسالة للشيخ محيى الدين العربى هذه العبارة الدرية (إذا جاء السين ودخل الشين ظهر مرقد الميم) فاستخرج منها أن السين إشارة إلى سليم و(دخل الشين) يدل على أن سليم يدخل الشام و(ظهر مرقد الميم) يدل على أن قبر محيى الدين هو الذى سيظهر ؛ بيد أن سليم خان لم يؤمن بهذه الرموز الجعفرية ولذا قال هيا بنا نركب توا ونذهب لزيارة محيى الدين ونظهر قبره للعيان . وتنفيذا لهذا دعوا إليهم عددا من الطاعنين فى السن من أهالى الشام وسألوهم عن مكان قبره فلم يستطع أحد الإجابة عن ذلك ، فقال البعض منهم ، تدل هذه الرموز على أنه فى ضواحى الشام ولكن مكان القبر نفسه غير معلوم بدليل (ظهر مرقد الميم) . فتألم سليم خان من ذلك ونام متأثرا ليلته ، فرأى فيما يراه النائم أن الشيخ محيى الدين جاءه وخاطبه بقوله يا سليم! كنت منتظرا قدومك إلى الشام فمرحبا بك يا سليم! أبشر قد يسر الله لك غزو مصر وفتحها ، فعليك أن تركب غدا صهوة جواد أسود من اصطبلك العامر فهو الذى يأت بك ويرشدك إلى قبرى ، ثم تبادر إلى نقلى وإنقاذى من أرض المذلة والمهانة وتبنى لى ضريحا وتربة عظيمة فى الصالحية وتبنى بجانبها جامعا ومدرسة وعمارة خيرية وكتابا للأطفال وحماما ومحكمة ودارا للحكم وأسواقا وعيونا جارية . ثم تحفر ترعا وتشق جداول وتجرى المياه فيها حتى تجعل صالحيتى هذه عامرة آهلة صالحة . وبعد ذلك كله تنصرف لمهمتك التى جئت لأجلها ، فالله مؤيدك وناصرك فى فتح مصر . فلما استيقظ سليم خان من نومه بادر إلى طلب الحصان الأسود من الاصطبل العامر مسرجا . فقيل له أن ليس هنالك حصان بهذا الوصف ولكنه ألح فى طلبه هذا وأصر حتى وجدوا له بغلة نحيفة جرباء هزيلة ينطبق عليها الوصف فعنوا بها غاية العناية بكل سرعة وعجلة حتى جعلوها جوادا أصيلا مسرجا بسرج يليق بركوب السلطان فركبها سليم خان ولجامها على غاربها لتذهب كما تريد ، فتوجهت الدابة نحو

(١) المقصود محيى الدين بن عربى .

الصالحية وصعدت كومة من الزبل والأوساخ ووقفت عليها وأخذت تبحث في الأرض بحوافرها بكل لهفة وشدة حتى أن سليم خان اضطر من جراء ذلك للنزول من صهوتها واستمرت فى الحفر والبحث حتى ظهرت صخرة مربعة الشكل عظيمة وانقطع الحيوان عن الحفر والبحث ووقف عن الحركة ورجع بكل هدوء ووقف بجانب سليم خان كأنه يقول له ها هو قبر محيى الدين . ولما أمعن سليم خان النظر فى الصخرة رأى فيها هذه العبارة منقوشة عليها بخط كوفى جلى جميل (هذا قبر محيى الدين) . والظاهر أن القبر دُفن فى الزبل وطُمر لأن الناس قديما ما عرفوا قيمة كتبه الصوفية وما فهموا مزاياها حينذاك فكفّروه ، واتخذوا قبره الشريف مزبلة وكوموا الأقذار والأتربة عليه حتى ضاعت معالمه . ثم بادر السلطان سليم إلى حشد المهندسين والبنائين وسائر العمال والفعلة من الشام وأمرهم بنقل الأتربة وإزالة الأقذار وتطهير المكان من كل ذلك . حتى أنه رحمه الله أخذ ينقل الأنقاض والأتربة بيديه الكريمتين ، مما حمل العساكر الإسلامية كلها على الاشتراك فى هذا العمل الشريف بحيث أزالوا فى طرفة عين جميع الأقذار والأوساخ وطهروا المكان تطهيرا كاملا . ثم شرع السلطان سليم فى إنشاء العمارات الخيرية ذات السطوح المرصصة الشامخة وهى خان وجامع وعمارة ومدرسة وكتاب وتربة ومحكمة ودار للضيافة ودار للشفاء إلى غير ذلك مما سبق ذكره تفصيلا فى وصف الشام فى [ج٩ رحلة أوليا چلبى] .

ثم خلا سليم شاه فى قشلاق الشام ليشتغل بعلم الجفر حيث جمع أناسا من الذين لهم إلمام بهذا العلم وأخذ يباحثهم فى مجالس خاصة . فسأل ذات يوم أثناء المناقشة فى الجفر الجامع سيدنا الشيخ ناصر الطرسوسى ، قال يا سيدنا هل أكون يوما من الأيام من الذين يتيسر لهم فتح مصر أو أموت من جراء منافسة المنافسين وغيرتهم الممقوتة؟ فأجاب الشيخ فورا . بشرى لك يا مولاى إن سيدنا عليا قد شهد لك وصرح فى حضرة الرسول بأن سليم آل عثمان سيمتلك مصر ، حيث ورد فى الأثر (قال سيدنا على كرم الله وجهه لابد أن سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب) . والغرض من لفظ جزيرة العرب هى جزيرة مصر . لأن (طوطيس) من ملوك القبابطة حينما أجرى نهر النيل إلى بحر السويس صارت مصر جزيرة وأطلق عليها اسم جزيرة مصر . فأمل يا سلطانى أن تفتح جزيرة مصر ببركة قول سيدنا على السديد ، وتحوز بذلك لقب «خادم

الحرمين» لأول مرة فى التاريخ . إذ لم يتيسر لأحد من آل عثمان حيازة هذا الشرف هكذا بشره الناصر الطرسوسى بفتح مصر . وقال عالم آخر يا سليم! إن الله سبحانه وتعالى قد أظهر فى القرآن الكريم إنك فاتح مصر ، حيث استخرجه الإمام على ﷺ فأخبر به الحسين فنقله زين العابدين فنقله إلى السرىّ السقطى ومنه روى الجُنَيد . لأن كل حرف من حروف القرآن الكريم والفرقان المجيد إشارة ورمز إلى المستقبل وما سيأتى من الأحداث حتى يوم القيامة ، حسب قوله تعالى ﴿وعلمناه من لدنّا علما﴾ . وهذا القدر فيه كفاية لمن يفهم ولا يجوز الافشاء بأكثر من هذا . وإليك الآية التى تدل على ما قلنا : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ فلفظ (ولقد) ١٤٠ واسم سليم ١٤٠ فيكون المراد من (ولقد) (سليم) . ولفظ (ذكر) يساوى ٩٢٠ وحيث أن الجملة (من بعد الذكر) معناها «بعد ذكر» أى بعد ٩٢٠ ستكون أنت فاتح مصر[1] . و(أن الأرض يرثها) أعنى أن لفظ (الأرض) إذا ذكر معرفا بالألف واللام يكون المراد «أرض مصر» ، كما أنه إذا ذكر من غير الألف واللام يكون مطلق الأرض ، وهذا مقرر فى قواعد علم الجفر و(عبادى الصالحون) يعنى أن الله سبحانه وتعالى قد اعتبرك وعَدَّك من عبادى الصالحين الوارثين لأرض مصر . فهذه البشرى وهذه النعمة كافية لك فاذهب إلى قصدك والله معينك وظهيرك .

ثم سأله سليم شاه يا شيخ كم تكون مدة سلطنتى يا ترى؟ فأجاب الشيخ لا أدرى يا سليمى (ما عدا جدا) و(لا يعلم الغيب إلا الله) قال هذا ورفع المجلس وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بيده . وتبين أخيرا أنه يشير إلى ثمانية لأن لفظ (جدا) يساوى ذلك ، حيث أن سليم شاه فتح مصر وعاد إلى استانبول وتسلطن ثمانى سنوات ومات . فعلم الجفر هكذا علم رمز وسر ، تحقق منه سليم صحة الأخبار ووقوع الأحداث . وبعد ذلك أمضى سليم خان الشتاء في دمشق حتى إذا ما ابتدأت أمطار الرحمة فى الهطول وسقى الأرض ، شرع سليم خان فى مغادرة الشام تاركا المرضى من العسكر الضعفاء فى رعاية جانبردى وكوزلجه قاسم باشا ، وواصل السير بالجيش الإسلامى نحو غزة قاطعا المنازل والمراحل مارا بجنين ونابلس حتى دخل القدس فزار بها أضرحة الأنبياء واستمد من روحانيتهم ثم برحها إلى خليل الرحمن مسرعا وزار بها أيضًا الأنبياء كلهم ثم هرع نحو غزة هاشم فدخلها عسكر الإسلام (لسه ماس)[2] سنة ٩٢٢هـ .

---

(١) هذه الأرقام المذكورة بحساب الجُمَّل . (د . متولى) .

(٢) لعلها من مايس أى ٣ مايو (د . عزام) .

فتح قلعة غزة هاشم

دخل سليم خان هذه القلعة صلحا وسلما وأقام بها سبعة أيام للاستجمام والراحة فجاءه خلالها مشايخ العربان من الأطراف خوفا من صولة السلطان وسطوته ، وقدموا الطاعة إلي أعتابه السامية وسدته العالية فجاء أولا بنو زهد ، وآل رشيد وآل رباح وآل معن ، وآل شهاب ، وآل ترابى ، وآل حرفوش ، وآل حبش وآل سعيد . وثانيًا بنو سوالم وبنو عطا وبنو عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو حوران وبنو بصرى وبنو جعفر . ومشايخ نابلس وصفد وعكا والرملة . ومشايخ فلسطين وغزة والقدس وخليل الرحمن والكرك والعقبة وصقر بأسرهم وتوابعهم جميعا . وقد بلغ عددهم سبعة وسبعين شيخا وقد تقدموا إلى أعتاب السلطان فقبلوها خاضعين مخلصين ؛ مما أثار عطف السلطان عليهم فشملهم بإحسانات شاهانية وإنعامات سلطانية سامية . وبذلك صاروا من رجاله المطيعين المستعدين للبذل والتضحية فى سبيل تنفيذ أوامره العالية . بحيث تعهدوا بتقديم أربعمائة ألف جمل تحمل المياه لعساكر آل عثمان يحضرون بها على جناح السرعة فى صحراء القطية وأم الحسن . وغادر سليم شاه بعد ذلك غزة نحو مصر متوغلا فى جوف الصحراء وبينما هو كذلك إذ بحكمة الله وفضله العظيم تُرسَل الأمطار الغزيرة مدرارا تغرق أرجاء الصحراء ، وتخيف الذين كانوا يخشون قلة الماء قبلا أن يغرقوا من كثرة السيول وتدفق الماء . وهكذا واصل الموكب السلطانى السير بسلام وأمان حتى وصل المحل المسمى (خان يونس) حيث بادر السلطان إلى قتل «يونس باشا» وأخذ يبنى بما خلفه من المال قلعة خان يونس ووضع بها الحامية اللازمة من العسكر للمحافظة على الغادين والرائحين وسائر المواصلات . ثم غادرها إلى العريش قاطعا المراحل والمنازل وتقدم منها كل من الوزير الأعظم الخادم سنان باشا وخليل بك من آل رمضان وخير بك الجركسى ، طلائع للجيش الكبير إلى الأمام وأسرعوا بالسير حتى مروا بصحراء القطية وأم الحسن ووصلوا المحل المسمى (الصالحية) فلاحت لهم حشرات الچراكسة بين حدائق النخل المحيطة بالمحل المذكور ، ومما كان منهم إلا أن باغتوهم وجعلوهم طعمة للسيوف البتارة آسرين أكثر من ألف چركسى من أطراف الصحراء فقتلوهم جميعا ووزعت أسلحتهم وأدوات قتالهم على الذين أتوهم مطيعين من العربان . وواصلوا السير حتى وصلوا المحل المسمى القُرَين فأحضر به بعض الجواسيس الذين قبض عليهم ، بين

يدى السلطان سليم وأجبروا على الكلام فاعترفوا بأن السلطان الغورى معسكر فى صحراء (بلبيس) مستعد للقاء العدو[١] . فأطلق السلطان سراحهم بعد اعترافهم بذلك .

بيان حرب الغورى[٢] للمرة الثانية

مع سليم خان ومصيره

لما وصل الموكب السلطانى السليمى من «القرين» إلى «بلبيس» واشتبك الجيشان في القتال المرير فى تلك الصحراء الواسعة ، أطلقت المدافع والبنادق بكل شدة حتى حجب دويها الهائل وما أثارته من النقع ، العسكرين أحدهما عن الآخر فلم يعلم أى الطرفين أصيب بالفشل والهزيمة ، غير أن حكمة الله وعظمته تجلت فى هذه الأثناء إذ أزالت النقع الأسود الذى كان مخيما على ساحة القتال . فظهر للعيان إندحار جيش الغورى وتمزق عسكره شر ممزق من صدمة المدافع العثمانية الهائلة ، وانطبق عليهم القول المأثور (موتوا بأمر الله) . وهنا انتهز الجنود العثمانيون الفرصة وحملوا عليهم مرة أخرى حملة صادقة فكادوا يقضون عليهم قضاء مبرما ، وإذا بطومان باى يظهر فجأة فى الميدان وينقض على الجموع العثمانية كالذئب الجائع الذى يصول على قطيع الغنم . فدارت لذلك رحى معارك دامية وقتال مرير فى غاية الشدة من وقت الزوال إلى المغرب بصورة لم يسبق لها مثيل منذ طلوع الكوكب المعروف . «المريخ» ولما دقت الطبول والكوسات تؤذن بوقف القتال . انصرف العثمانيون والغوريون إلى معسكراتهم وشرعوا فى تضميد جراهم وخياطة دروعهم وإصلاح أمورهم . فدفن العثمانيون ليلتها سبعة عشر ألفا من شهدائهم الأبطال ، وقد أبدى «خيره بك»[٣] يومها من آثار الشجاعة والاقدام وجليل الخدمات والفعال فى سبيل نصرة العثمانيين ما لاتزال تذكره تواريخ مصر بالإسهاب والإعجاب وعلم الغوريون بعد ذلك أن خيره بك مع العثمانيين . وفى صباح اليوم التالى حينما شرعت الطبول تدق إيذانا بالحرب وشاع فى الجيش أن الغورى نفسه قد تجرع كأس الحمام فى هذه المعركة الدامية تحمس جيشه وثارت ثائرته فانقض بكل قواه مستبسلا على العثمانيين ونزلوا عليهم كالقضاء المبرم أو الموت الأسود ، يصولون في الميدان يمينا وشمالا ويعملون سيوفهم البتارة فى صفوف عسكر الإسلام ويمزقونها ؛

---

(١) ، (٢) ليس الغورى ولكنه طومان باى . (د . متولى) .
(٣) الصحيح هو خاير بك . (د . متولى) .

فقامت سوق الأرواح والمهج رائجة رخيصة . وهنا نزل عسكر الرومللى بأسلحتهم وبزتهم العسكرية المهيبة إلى ساحة الوغى وشرع جنود الانكشارية فى هجماتهم المتوالية السريعة الصادقة يصلون العدو النيران من بنادقهم الفتاكة كما أن المدفعية أخذت تطلق النار من ثلاثمائة وستين مدفع من المدافع الشاهانية . فتحول الجو وأرض المعركة إلى نار نمرود يصول فيها الجيشان كالسمندل[1] وقد عقد الدخان الأسود المنبعث من البارود سحابا كثيفا على سماء الميدان وساحة القتال .

وفى خلال ذلك ظهر للعثمانيين بوادر انصراف عسكر الغورى من الميدان وتقهقره إلى الوراء وتنحيه عن القتال شيئا فشيئا . ولكنهم تأنوا فى الأمر مليا خشية أن يكون ذلك منهم خدعة ومكرا . ولذلك لم يطاردوهم ومشوا وراءهم مشى النمل حتى تحقق لهم أخيرا أن الغوريين قد تبدل قرارهم فرارا ، وأنهم تمسكوا بأذيال الهزيمة والعار ، لأن صحراء بلبيس كانت قد اصطبغت حينذاك بالدماء المهراقة القانية وبالسرابيل الحمراء الساقطة على الأرض بلا بسيها ، وأصبحت الساحة وكأنها حديقة غناء مكسوة بالشقائق والورود الحمراء ، بينما يسرح الأبطال العثمانيون فى أرجاء تلك الساحة الحمراء ، وأيديهم وسيقانهم مشمرة وملطخة بالدماء وصدورهم عارية ورءوسهم حاسرة تتلو ألسنتهم القرآن وهم يسعون إلى خيمة السلطان حاملين الرءوس والسيقان ليأخذوا عليها إنعاما وإحسانا ، وبعد هذا عاد الغزاة المجاهدون إلى أماكنهم للاستجمام والراحة . وهمّ السلطان سليم بالنهوض حالا نحو مصر ليضرب نطاق الحصار عليها . ولكن «خير باى» لم يقتنع بهذا الرأى وقال مخاطبا السلطان «يا سلطانى إن الخيول متعبة جدا وقد تعب الجنود الذين أبلوا فى القتال المرير بلاء حسنا وكسروا العدو مرتين فالكل فى أمسّ الحاجة إلى الراحة والاستجمام ، . ولذا يحسن أن ننتظر قليلا ولاشك فى أن عقارب الفتنة والفشل ستدب بين العدو فيخيبون فى تدابيرهم ويخفقون فى أعمالهم الآتية أيضًا» قال هذا ومنع السلطان من مواصلة سيره نحو القاهرة . وقد أقام الجيش في بلبيس ثلاثة أيام يصلح من شأنه ويستريح إذ ظهر أن الغورى سقط يوم المعركة فى جانب الصحراء ووجدت جثته الهامدة فى سجادته وهو قاعد عليها مستقبلا القبلة ورأسه طائر

---

(١) السمندل حيوان خرافى لا يحترق فى النار (عزام) .

مفقود ، وذلك لأن چركسيا حينما رآه ميتا مقتولا حز رأسه وأخذه معه خشية أن يأخذه العثمانيون الغزاة . وقد أخذ العثمانيون جثته بالسجادة إلى حضرة السلطان فى خيمته ، حيث وقع نظر چراكسة خيرى باى عليها وصاحوا قائلين إنها حقيقة جثة الغورى ، ومع هذا فلا يجزم قطعا أنها جثة الغورى لكون الرأس مفصولا ومفقودا . بيد أن حادثة ظهرت بعد سبعة عشر عاما من وقوع هذه المعركة دلت على خلاف ما ذكر . وهى أن معلما من معلمى المدارس ببلبيس حينما دنا أجله وشعر بقرب رحيله من هذه الدنيا صرّح لأهله ومعارفه بأنه هو السلطان الغورى نفسه ثم أسلم روحه إلى بارئها وقد فتشوه بعد ذلك فوجدوا أن الخاتم الذى بإصبعه والندبة التى بأذنه من أثر ضربة السيف يدلان على أنه صادق فى قوله أنه الغورى ويثبتان دعواه تماما .

ومما لا شك فيه أن الغورى فقد فى المعركة ، معركة بلبيس هذه ولم يظهر له أثر فى الوجود ، فلذا دب الخلاف وقامت الفتن بين أنصاره وجيشه الذى تركه من غير رئيس ولا قائد يركن إليه ، كما تنبأ بذلك خير باى . وأخيرا اختاروا ابنه (السلطان محمد) ملكا على البلاد ، ولكن جيش مصر انقسم إلى شطرين يقول أحدهما كيف يمكن أن يقوم مثل هذا الشاب الغرّ بشئون الدولة وما يتطلبه الأمر العصيب الذى نحن فيه اليوم من الاستعداد وأخذ الأمور بالحزم والشدة لتتسنى لنا مقاومة الجيش الرومى الشديد البأس المتعطش للدم؟ فالصواب إذن نصب «طومان باى» سلطانا لنا . ويقول الثانى بصواب الرأى الأول ، وهكذا اشتد الخلاف وتفاقم النزاع بين الطرفين فاقتتلا شهرا كاملا داخل مصر حول هذا الموضوع ، حتى سادت الفوضى والاضطراب وعم النهب والسلب فى البلد ، وأخيرا انتصر فريق معسكر «طومان باى» فبادر هذا إلى تعيين من يدعى (دندار) نائبا عنه ، وتلقب هو نفسه بلقب الملك الأشرف وفى اليوم نفسه نهض ومعه جميع كبار الجيش وقواده إلى سلط(؟) واقتتل مع السلطان سليم قتالا شديدا على مقربة من الخانكة حيث منى بالفشل الذريع ولكن عسكر الإسلام أيضًا أصيب بخسائر جسيمة زعزعت قواه ؛ مما جرأ «طومان باى» على أن يبعث إلى السلطان سليم فى اليوم التالى يدعوه إلى القتال ويشتبك معه فى الخانكة أيضًا فى حرب ضروس لا هوادة فيها ثم يقول له ، لا يجوز أن نتقاتل بالمدافع والبنادق لأن تبادل النيران هكذا من شيمة الكفار . وما قال طومان باى هذا إلا لأن المصريين كانوا عاجزين عن الحرب والقتال بالمدافع

والبنادق بخلاف السيوف يحسنون استعمالها مثل الأعجام فهم مهرة فى استعمال السيوف وركوب الخيل واللعب بالرماح والمزاريق . والخلاصة أنه قد جرت عشرة آلاف اشتباك بينهما فى الطريق من بلبيس حتى أبواب مصر فكان آخرها فى صحراء (سبيل علام) الواقع فى وادى (الريدانية) حيث دارت فيها رحا معركة حامية لم يسبق لها مثيل حتى فى عهد سيدنا على رضى الله تعالى عنه .

وقد تساءل المصريون أخيرا قائلين إلى متى يهزمنا العثمانيون وننذحر أمامهم فلنجمع قوانا ولنهاجمهم مرة واحدة ونقصد السلطان سليم نفسه تحت رايته ونمزقه شر ممزق . ثم تعاهدوا وتحالفوا على هذا واقتحموا الميدان . وبينما الحرب يشتد أوارها ويحمى وطيسها فى «سبيل علام» ، إذ انقض كل من «طومان باى» و«قورتباى» وباى آخر ، على راية الإسلام لتنفيذ ما تعاهدوا عليه من الفتك بالسلطان سليم . فبطش طومان باى بالوزير الأعظم الخادم سنان باشا على ظن أنه سليم شاه ، بأن ضربه بالحربة وأسقطه عن جواده لأن سنان باشا هذا كان حليق اللحية مثل سليم شاه ويتشبه فى لبسه وركوبه به . وأما «قورتباى» فظن وزير السلطان هو السلطان فصرعه عن جواده . . . وخلاصة القول أن كلا من الثلاثة أسقط وزيرا من وزراء العثمانيين وبطش به فصاروا ضحية فى سبيل السلطان سليم . ثم تعين (يونس) باشا وزيرا أعظم واستمر القتال ، حتى المغرب ومكث العثمانيون في العادلية ودخل المماليك كلهم القاهرة واعتصموا بها . وغداة اليوم التالى كان العثمانيون يطاردون عدوهم مطاردة الكلاب في شوارع مصر حتى اضطروهم إلى دخول القلعة وضربوا عليهم نطاق الحصار ؛ الأمر الذى أفضى إلى خضوع جميع العربان لأوامر السلطان بأسرع من لمح البصر ، فامتنعوا عن تموين المدينة بالغلال والأرزاق ، فضلا عن إحاطتهم بمصر من الجوانب الأربعة إحاطة السوار بالمعصم ، وجاء فى اليوم نفسه جميع عربان بنى جابر وبنى سيف وبنى سوار (أوار) وبنى عيد وبنى حماد وسائر مشايخ العربان الذين فى الضفة الأخرى من النيل ، إلى ساحة السلطان سليم وتمسحوا بتراب جواده الكريم ، فنالوا منه الخلع والكساوى وسائر الإنعمات أكثر مما كانوا يحلمون به ، فعادوا لابسين تلك الخلع السلطانية متسربلين بالكساوى والتشريفات المقصبة إلى قبائلهم مسرورين فخورين بما نالوا ، وأخذوا يحشدون جموعهم ويجمعون أتباعهم وجاءوا إلى غربى النيل مرتقبين للقتال ومتحفزين للحرب والطعان ، وهكذا حالوا دون اجتياز أحد من القاهرة إلى الضفة الغربية من المحصورين .

هذا وقد سبق أن قلنا أن جنود الإسلام قاموا فى بادئ الأمر بضرب نطاق الحصار على القلعة الداخلية ، حيث قام «كُوزلْجه قاسم باشا» من قمة جبل الجيوشى بضرب هذه القلعة باثنى عشر مدفعا ، كما أن جيش الروملى دخل جامع السلطان حسن وأقاموا المتاريس فى ميدان الرميلة ، بينما اتخذ الوزير الأعظم المتاريس والاستحكامات فى جهة باب الوزير ، كما أن .... باشا قد اتخذ متاريسه ومخافره فى جامع النظامية ، وأما الجوانب السفلى من هذه المدينة الكبرى فقد حاصرها عامة جنود الولايات العثمانية كالأناضول ومرعش وسيواس وحلب وأذنه ودياربكر وأرضروم وطرابزون ، فكان هؤلاء أيضًا ليل نهار فى قتال شديد ونضال مرير يصيح فيه الطرفان الله ! الله ....

هذا وبينما تضرب طوائف الجند من القپوقولى[1] والسپاهية وأتباع الزعماء والمدفعية والجبجية[2] أبراج القلعة الداخلية العليا . إذا ببوابى وحجاب القلعة الداخلية وهم المعروفون ببنى ألواح يعمدون بتوفيق الله وحكمته إلى فتح باب المطبخ الخلفى ويرسلون إلى سليم خان يعلمونه بذلك فبادر سليم خان ومعه أعوانه وطوائف الباب الخاصة ووزراء القبة السبعة إلى القلعة الداخلية تلك يقتحمونها جميعا . وفى أثناء ذلك يبرز لهم عربى أعمى ـ كان يبيت هنالك ويقيم منذ أربعين سنة تحت الباب المذكور وهو يصيح دائما بقوله (شوى شوى سلطان سليم) ـ ويتقدم نحو السلطان سليم وهو يجتاز الباب فيقبض على عنان جواده الكريم ويصيح قائلا كالمعتاد (سلطان سليم شوى شوى) ثم يسلم روحه إلى بارئها منتقلا من هذه الدنيا الفانية . وقد حسبت الجملة التى كان يصيح بها بحساب الجُمَّل فوجد ذلك تاريخا (للفتح) ولايزال هذا الرجل مدفونا فى باب المطبخ ويتقاضى أولاده وأحفاده رواتب وجرايات من الخزانة الأميرية .

هذا وبينما كان «سليم خان» واقفا تحت سلم الديوان السلطانى المنسوب لقايتباى إذا بقذيفة من مدفع يسمى (شاهى) تنزل من القلعة بجانب رأس السلطان سليم فيضطر إلى مغادرة المكان إلى غرف «الشطار» من العساكر والجنود والخدم ، والاعتصام بها حيث أنها بناء حجرى متين ، ثم أخذ الجيش الإسلامى يرفع الأعلام البيضاء على أبراج القلعة الداخلية من أقصاها إلى أقصاها ؛ فلفت هذا أنظار من بأسفل القلعة من المدينة فأيقن الناس أن القلعة قد تم فتحها من قبل العثمانيين الذين كانوا حينئذ يعلنون

(١) صنف من العساكر العثمانية . (المترجم) .
(٢) السپاهية أى الخيالة ، والجبجية : نوع من العساكر لابسة الدروع (د . متولى) .

سرورهم وفرحهم بالفتح المبين بكل الوسائل ، فلذا عاد القتال إلى أشده ودارت رحى معركة حامية ، وقامت حرب ضروس ليست حرب الإمام على بجانبها شيئا مذكورا ، وتبين أن القائمين بهذا الهجوم الفجائى وموقدى ناره هم الاثنا عشر ألف زنجى الذين كان السلطان الغورى يسكنهم فى الميدان المسمى «قرا ميدن» وقد سمى هذا الميدان بالميدان الأسود أو ميدان السود لهذا السبب ، ولقد اجتاح عسكر الرومللى هذا الميدان الأسود وأخذ يصول ويجول يمينا وشمالا فيكسر السود كسرا مبيدا ، وقد تكدست جثثهم تكدسا هائلا هنا وهناك حتى اسودت الساحات الفسيحة وسمى الميدان بقرا ميدان (الميدان الأسود) لهذا السبب أيضًا .

فتحت مصر بحرب عظيمة سنة ٩٢٢هـ ـ الجملة التي قالها ابن كمال باشا تاريخا لذلك : فتح ممالك العرب (سنة ٩٢٢هـ) ـ تاريخ آخر قاله الشيخ نصر الله : كسلطان سليم شوى شوى (سنة ٩٢٢هـ) ـ تاريخ آخر (فاتح ممالك العرب ٩٢٣هـ) .

لما تم فتح القلعة الداخلية العليا وأنعم على جميع الوزراء والوكلاء وأعيان الدولة ورجال الديوان حسب مراتبهم ودرجاتهم بخلع فاخرة وتشريفات سنية ملأت قلوبهم سرورا ونفوسهم غبطة وحبورا ، بادر سليم خان بمقتضى القول المأثور (الكريم إذا وعد وفى) إلى إسناد إيالة مصر إلى (خير باى) مع الإنعام عليه برتبة الوزير ، كما منح منصب قضاء مصر لقاضى عسكر الرومللى أحمد أفندى الشهير بابن كمال باشا .

ولما كان اليوم التالى يوم جمعة فقد صلى السلطان مع جميع العسكر والجنود فى جامع السلطان قلاوون بالقلعة الداخلية العليا ، حيث خطب ابن كمال باشا فوصف السلطان سليم بقوله (خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان) . فما كان من السلطان إزاء هذا النعت الشريف إلا أن سجد لله سجدة الشكر والحمد .

هذا ولما سمع الجراكسة المناحيس فى القلعة السفلى خبر وزارة «خير باى» وتوليه مصر . هاجوا وماجوا وثارت ثائرتهم فأغلقوا الدروب والشوارع وقبعوا فى بيوتهم التى كانت مليئة بالزاد والماء والعُدد . فاستعدوا للمقاومة إلى النهاية وحاربوا فعلا عسكر الإسلام وقاتلوهم سبعين يوما بكل جلد وقسوة كما حدث سابقا ، حيث كانوا يلقون الأوساخ

والقاذورات عليهم من فوق السطوح والمآذن ويقذفون فوقهم كل ما يقع تحت أيديهم حتى أن أهالى مصر قويت عزيمتهم وأخذوا ينادون من جديد (الله ينصر السلطان طومانباى) وهم فى المدينة السفلى التى خطبوا بها سبعين يوما باسم السلطان طومانباى لا غير. وعلى هذا المنوال تقدم كل من طومانباى وكرتباى . . . لنجدة أهالى المدينة السفلى أكثر من سبعين مرة . مما شجع الناس فى البيوت وفوق السطوح على إلقاء القاذورات من الشبابيك والنوافذ . وهذا ما حمل السلطان سليم أخيرا على أن يخصص رواتب لسيدات مصر ، فسهل ذلك فتح مصر السفلى أيضًا . فأصل الرواتب والمخصصات التى تصرف حتى الآن للجوارى والسيدات فى مصر هى تلك الرواتب التى خصصت لهن أيام الفتح .

وفى النهاية عهد السلطان سليم إلى «خير باى» بالقيام بعمل سريع يقضى به على طومانباى قضاء مبرما . فطلب خير باى إلى «ابن خبير» بالقيام بهذه المهمة باذلاً له الوعود الكثيرة بالإنعام والإحسان والهدايا . فحدث ذات يوم أن علم ابن خبير باعتصام طومانباى بمكان صعب المنال كالقلعة في إقليم الفيوم ، فأطلع السلطان سليم على جلية الأمر . وبادر السلطان إلى إمداده بمصطفى باشا أمير أمراء الرومللى ومعه جنوده المدربون وتكليفهما بالزحف إلى الجهة المذكورة للقبض على «طومانباى» وكان فى خلال ذلك مطمئنا على نفسه غافلا عما يخبئه له القدر ، بينما كان نائما في مخبئه جاءه سيدنا النبى فى نومه وخاطبه بقوله يا طومانباى إنك قد دافعت عن عرضك حق الدفاع وقمت بواجبك فى الذود عن شرفك بكل غيرة وحمية ، ولم يبق أمامك إلا أن تذهب إلى سليم ليرسلك إلى . والغازى سليم أيضًا سيأتى إلى قريبا . وقد عنى بلفظ (غازى سليم) ١٤٢٣[1] (نسخة ١٤٦٣) وفى الواقع أن سليم خان بعد أن عاد من مصر إلى اسلامبول لبى نداء ربه وكان ذلك بعد مضى ١٤٦٣ يوما على تلك الحوادث (رحمة الله عليه) .

هذا ولما استيقظ طومانباى من النوم أسرع فتوضأ وصلى ركعتين ثم ركب جواده وسار فى الطريق حتى التقى به مصطفى باشا وجنوده وقبض عليه وأخذه ويداه مغلولتان إلى قفاه ، إلى سدة السلطان سليم وكان حينئذ يرى فيما يرى النائم أن النبى ﷺ يقول له : «ياسليم ابعث إلىّ طومانباى ثم امش فى جنازته محتفلا ، ووف بعهدك لى وهو أن

(١) غازى سليم = ١١٥٨ فقد وقع فى الكتاب غلط أو تحريف . (د . عزام) .

(٢) هنا اضطراب شديد كما تكون الحال فى الأحلام ، فإن لفظ «غم يمه» التركية تساوى بحساب (الجمل أكثر من ١٠٠٣ كما أن السلطان الذى كان فى ذلك التاريخ هو السلطان محمد الثالث وفى عهده حدثت الثورة بمصر . وأما السلطان محمد الرابع فكان عهده من ١٠٥٨ إلى ١٠٩٩هـ (المترجم) .

تجعل مصر وقفا على خدمتى بعد فتحك إياها حيث تبقيها على حالها من غير تغيير . وأما أنت فبادر حينما تعود إلى اسلامبول بالحضور إلىّ ، فيسأله سليم بقوله : «يا رسول الله لمن أعطى مصر؟» فيقول رسول الله وحبيبه يا سليم «إن مصر فى حمى الله وهى باقية فى أيدى المسلمين إلى انقراض الدنيا فلا تغتم قط» (غم يمه) .

وفى تاريخ (. . .) سيملكها الملك كعب الرابع ابن إبراهيم من نسلك . وعبارة لا تغتم (غم يمه) تساوى بحروف الجمل ١٠٠٣ ثم إن لفظ «كعب» يساوى ٩٢ بحروف الجمل كما أن لفظ محمد يساوى ٩١ فيكون المقصود من «كعب» هو محمد الرابع ابن إبراهيم الذى أعاد الأمن إلى مصر في التاريخ الذى تضمنته عبارة (لاتغتم = غم يمه)[٢] . ثم استيقظ سليم مذهولا دهشا وشرع يصلى ثم إذا بالحاجب يخبره بأن طومانباى قد حضر .

فى بيان مباحثة الملك طومانباى مع السلطان سليم ونقاشه له فى حضرته ثم مصرعه على يديه أخيرًا

لما انتهى سليم شاه من الصلاة خرج لطومانباى قائلا : مرحبا بالأخ طومانباى! فرد عليه طومانباى بقوله حسن إنك قد رضيت لى بالأخوة ، وقد كنا قبل چراكسة كفرة ملعونين تبحث أخذ أموالنا وممالكنا من أيدينا ، والآن قد أصبحنا إخوة أليس كذلك؟ فإن كان أخوك كافرا فما ذا تكون أنت؟ يا محير المتحدثين! فأجاب سليم شاه : فى سبيل الملك والسلطان هكذا يكون الأمر والشأن ، ورد عليه طومانباى قائلا : وهل كان الملك الذى طلبته ونشدته موروثا لك عن والدك حتى تطمع فيه طمعا خسيسا فتريق فى سبيله دماء الآلاف من عباد الله الطاهرين من جنود الفريقين؟ من يستطيع الإجابة يوم القيامة عن المسوّغ لهلاك هؤلاء الناس؟ أجاب سليم شاه : إنك قد أنجدت بهم جنود العجم وبذلك استحقوا القتل والهلاك حتما ووجوبا فردّ عليه طومانباى حاشا وكلا . لم يذهب منا أحد نجدة ومددا إلى العجم ، بل إن علاء الدولة لكى يزجّ باسم مصر فى هذا الخصام ألبس فرقة من أشقياء التركمان أردية حمراء بعث بهم إليهم موهما أنها نجدة مصر للعجم ، فلذا قطعت يا سليم رأس علاء الدولة وبعثت بها إلى السلطان الغورى تشفيا منه . فماذا كنت تطلب بعد ذلك؟ قال سليم شاه ، ألم تقتلو رسلنا؟ قال طومانباى إن عشرة من رسلك هؤلاء قد أطالوا ألسنتهم فى حضرة السلطان الغورى فلذا أمر بقتلهم وأما الاثنان اللذان سكتا ولم ينبسا ببنت شفة فقد أعتقا ولم يمسهما أذى . . . ثم قال سليم خان : ولما ذا حاربتنى طوال هذه المدة؟ فأجاب طومانباى أنت هاجمتنى فى عقر دارى

وعرّضت أهلى وعيالى للهلاك ، وبلادى ومأواى للدمار والخراب ، وحاولت أخذها منى . وسأطالب يوم القيامة يوم البعث والنشور بتقديم حساب عما فعلت . قال سليم : إذن كيف حضرت بين يدى؟ قال طومانباى : إن النبى ﷺ قد بعثنى إليك فلذا حضرت .

ولقد رأى سليم أن كل ما قاله طومانباى صحيح وحق ، فسأله أخيرا لماذا يقول الناس (الله ينصر السلطان طومانباى) . قال طومانباى : أنى كنت أنصف الناس وأرحم الفقراء والمساكين وأظلهم بجناح الرحمة والعدل فلذا لم يتخلوا عنى قط ولا يزالون يواصلون الحرب والقتال فى سبيلى فى الجهات السفلى من المدينة معتصمين بالأزقة والبيوت ، وأنت يا سليم تمسَّك بأهداب العدل والإنصاف حتى يحبوك فيتبعوك ويتخلوا عن مواصلة الحرب والقتال .

وبعد ذلك أشار السلطان سليم إلى «خير باى» فبادر هذا إلى أخذ طومانباى وذهب به إلى باب زويله (زويل) وصلبه هناك وبقيت جثته معلقة سبع ساعات أنزلت بعدها واحتفل بدفنها بمشهد عظيم سار فيه السلطان سليم حتى العادلية خارج باب النصر ماشيا على قدميه وقد حمل النعش مرة بنفسه على كتفه . لأن السلطان طومانباى كان حافظا للقرآن وعلى جانب عظيم من العلم والدين والعدل والانصاف وقد دفن فى العادلية التى هى من آثاره الخيرية ومنقوش على قاعدة تابوته المرمرى فى ضريحه تاريخ (تسعماية ثلاثة وعشرون) وعليه قبة عالية وبجانب المدفن جامع لطيف وحوله بيوت وغرف لسكنى الغادين والرائحين ، كما أن هناك مكانا خاصا لوزراء مصر وولاتها يؤمونه عند قدومهم لأول مرة مصر فيقيمون به ثلاثة أيام يستريحون فيها من وعثاء السفر وعناء الطريق ويستجمون ثم يدخلون مصر باحتفال عظيم وموكب حافل .

هذا ويؤم قبة طومانباى هذه كل المعزولين من قضاة مصر ووزرائها وكذا جميع مرافقى الخزائن الصادرة إلى اسلامبول يقيمون بها مدة ويقرأون الفاتحة على روح صاحبها مستمدين منها القوة والبركة ثم يرحلون إلى مقصدهم ، وخلاصة القول أن هذه القبة مزار ومقصد للخاص والعام وأن حى العادلية هذا فردوس عظيم يتنزه فيه الناس .

هذا وقد صلب السلطان سليم طومانباى ودفنه ولكنّ الحرب والقتال كانا ناشبين فى جهات عديدة فى داخل مصر . وما ذلك إلا لأن دولة طومانباى وسلفه الغورى كانت دولة عظيمة وقد كان الناس مستائين وممتعضين أشد الاستياء من عمل «خير باى» ومما لأته

للعثمانيين ثم توليه الحكم والوزارة لهم بها ولذا ظل الچراكسة معتصمين بالبيوت والسطوح داخل الشوارع يواصلون القتال والنضال بكل الوسائل وكانوا يعتقدون أن خير باى بتحريضه أولاد العرب من المصريين على أن ينادوا (الله ينصر السلطان طومانباى) ليسمع سليم خان ذلك فيغضب ، كان سببا إلى مقتل طومانباى على يدى سليم ، فكأنه قد حرض على قتله ، فهو المسئول عن هذا العمل ، لذلك كان المصريون مستائين من خير باى يواصلون القتال ليل نهار . وأخيرا أخذت الحمية «خير باى» وعمد إلى العربان جميعا ومنّاهم بالوعود والعهود حتى استمال قلوبهم ثم حشد جيشا من الأروام الذين ضمهم حديثا جنودا إلى جيوش آل عثمان . وقد أخذ هؤلاء كلهم فى قتال عساكر مصر وجنودها سبعة شهور حتى أخضعوهم تماما وقد صار «خير باى» وزير مصر وحينئذ طاب سليم نفسا واستراح قلبه من هذه الناحية .

وفى هذه الأثناء جاء الأسطول العثمانى المؤلف من سبعمائة قطعة من السفن ودخل ميناء الاسكندرية وأنزل الجنود والرجال والعتاد فى البر حيث اقتحموا قلعتها وفتحوها عنوة ووصل الخبر السار إلي مقام السلطان سليم ، فأمر بإقامة احتفالات عظيمة سبعة أيام إيذانا بتمام الفتح والاستيلاء على مصر والإسكندرية ودمياط ورشيد ، الأمر الذى أفضى إلى أن يمتد سلطان آل عثمان إلى مكة والمدينة لأول مرة فى التاريخ .

فلذا بعث السلطان سليم إلى شرفاء مكة وتبابعة اليمن ونجاشى الحبشة وقاغان الفونج وملوك (فور) و(دنقلا) و(آفنو) و(بورنو) وسلاطين السودان وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب وإلى العباسيين فى بغداد[١] وإلى ديار الهند وإلى شاه العجم الشاه إسماعيل . وبالاختصار إلى جميع سلاطين الأمم والدول وملوكها ، كتبا ورسائل قال فيها : أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين . . . فأعلن بذلك أنه صار سلطان مصر بلا منازع ، ثم أخذ فى تنظيم أمورها وضبط شئونها الضرورية بتفقد أحوالها والاطلاع على خباياها ومداخلها ومخارجها ، يباحث فى ذلك أولياء الأمور المختصين بها فى قصر مصر فى الجناح الخاص بالسلطان قايتباى .

سمع فى ذات صباح ضجة وصخبا دون أن يدرى سببا لذلك ، فبينما هو يبحث عن ذلك وقع نظره إلى ركن من القصر ورأى فيه أوهاقا معقودة بحبال إفرنجية غليظة يبلغ طول

(١) هذا غلط شنيع من المؤلف أو من الناسخ . (د . عزام) .

كل حبل أربعين أو خمسين باعا فأشمأزت نفس السلطان من ذلك المنظر ، وكره القصر وانتقل إلى قصر العينى ، ونزل فى قبة منه ، هى الآن مسكن البكتاشية ، وأمضى فيها سليم بضع ليال ، لأنه من أتباع الطريقة[1] ، ولا تزال المقصورة التى نزل فيها ظاهرة للعيان فى القبة العالية في الجهة اليمنى . ثم انتقل منها إلى جزيرة الروضة التى هى بحق (روضة من رياض الجنة) .

قصة سليم خان المروعة مع كرتباى الفدائى بقصر أم القياس[2]

نزل السلطان سليم بعد ذلك ضيفا فى قصر الخليفة المأمون الواقع فى أم القياس . وبات فيه بضع ليال متمتعًا بما لذ وطاب من النعم منهمكًا فى اللهو والشرب . فقد عجز حراسه من خدمة الفرقة الخاصة عن المحافظة عليه وحراسته ولا قوا فى سبيل ذلك صعابا ومشاقا . وكان السلطان نفسه متفطنا لهذا أيما تفطن . حتى قيل أنه لم يكن يغفل ليلا ولا نهارا ، لما كان يساوره من الخوف والقلق على نفسه . يقول مصاحبه «حليمى چلبى» كنا فى ليلة من تلك الليالى العصيبة ساهرين حتى منتصف الليل فى قصر أم القياس متمتعين بأسباب السرور وأنواع الفرح فى غرف النوم . وبينما كان الناس نائمين غافلين عن أحوال الدنيا قبيل الفجر إذا بسليم خان يصيح صيحة مدوية عظيمة من داخل القصر مناد بأعلى صوته ، أيها الغلمان أين أنتم! وفى لمح البصر رأينا شخصًا عاريا عاتيا صنديدا فى يده سكين كأنه سيف الضحاك الجبار العاتى الشهير[3] ينطلق كالسهم من لدن السلطان ويجرى كالغزال في خفه وسرعة نحو هوة عميقة عمقها ستين باعا من أرض القصر فيغيب فيها عن العيان . ثم رأينا سفينة ملتصقة بالقصر تعلو ساريتها قبة القصر وتناطحها ، وقد ثبت أن الفدائى المذكور نزل منها .

وقصر أم القياس فى بحر النيل لا يزال علوه بالغا مائة باع . عذب سليم خان جميع خدمة ولا سيما من كانوا فى النوبة فى تلك الليلة . ولكن پرويز أغا الذى كان من صلحاء

---

(١) هذا أيضًا من أوهام المؤلف ولا شك فى أن سليمًا كان سنيًا لا شيعيا كالبكتاشية ، وإن يكن قد صانعهم كثيرا لانتماء الجيش الانكشارى إلى طريقتهم (د . السعيد) .

(٢) كرر المؤلف كلمة أم القياس كثيرا . وكأنه سمع المقياس فتوهمهما أم القياس والتزمها فى كتابه (د . عزام)

(٣) الضحاك ملك من الملوك الخرافيين تسلط على إيران ألف سنة وقصته فى الشاهنامه . (د . عزام) .

الأمة بمصر حينذاك وكان قائما بوظيفة رئيس الركائب ، تقدم إلى السلطان مسترحما وقال له يا سلطانى ائذن لنا فى الكلام لشرح الحقيقة وبيانها ثم اقتلنا كما تريد . إننا نقوم بوظيفة الحراسة الخاصة هذه من يوم فتحنا مصر ، بكل صعوبة ومشقة فبينما نحن قائمون بالعمل بتيقظ وانتباه أكثر من كل ليلة مضت ، إذا بسيدنا الرسول ﷺ قد ظهر لنا وتجلى علينا من الباب وأزاح النقاب الأصفر عن وجهه الكريم مظهرا جماله السامى وكان لابسا حلة من ليف النخل ونعلا أصفر وعمامة صفراء من صوف الجمل ولها طيلسانان فسلم علينا ورددنا عليه السلام ، وأراد رفقائى أن يطردوه قائلين أيها السيد من أين جئت إلى هنا وقد دخلت بينهم وبينه لأتحدث إليه لنعلم من هو . فقال الداخل علينا أنا الرسول . وبينى وبين سليم عهد ووعد بأن يخدمنى وأنا أخدمه ، فهو فى حمايتى إلى أن ينقرض الزمان . فاطمئنوا ولا تنزعجوا واستريحوا كما تريدون . وإن وقع شىء فأنا أوقظ سليما وأنبهه للخطر . قال هذا ونزل من السلم وذهب وبادرنا إلى تعقب أثره فلم نجد من الناس أحدًا وتحيرنا فى الأمر وتساءلنا قائلين ما هذه العجيبة؟ وبينما نحن كذلك غلب علينا نوم عميق وصرنا كأصحاب الكهف ولم نستيقظ من النوم إلا على صياح سيدنا السلطان وهو شاهر سيفه خارجا من الباب يتعقب أعرابيا يلقى بنفسه إلى اليم ويغيب عن الأنظار ، هذه هى القضية والأمر لسيدى السلطان بعد ذلك . فقال سليم خان . نعم! على هذه الصورة جاءنى أيضًا الرسول ﷺ فى المنام وقال يا سليم قد أمرت خدمك وحراسك أن يلتزموا السكون والراحة ويطمئنوا عليك كل الاطمئنان ، فلا تغضب عليهم وخذ حذرك فإن هناك من يقصدك بسوء ويريد الفتك بك . ولكن لا تخف منه فلن يلحقك منه أذى . والآن استيقظ وخذ حذرك فلما استيقظت من النوم وجدت ذلك المارد الملعون فوق رأسى فقفزت من مكانى شاهرا سيفى ومهيبا بغلمانى هؤلاء الذين كانوا جميعا نائمين . فما حكيته يا برويز أغا مطابق وموافق لما رأيته أنا تماما . فلذا عفوت عنكم جميعا وعدلت عن قتلكم بعد أن عزمت عليه ، ثم أنعم عليهم بأموال كثيرة ورقاهم إلى رتبة الإمارة المصرية . ثم عاد سليم خان إلى القصر وأطلق المنادين في أنحاء المدينة يعطى عهد آل عثمان وميثاقهم بالعفو عن الذى جاء تلك الليلة واقتحم غرفة نومه للفتك به ، وأنه يمنحه السلامة والأمان على نفسه فلا يخاف ولا يخشى . وإذا بشخص ضخم نورانى الوجه باهر الطلعة يدعى الغازى كرتباى الجركسى يتقدم إلى سليم شاه ويسلم عليه من غير وجل ولا خوف ويجلس فى صف النعال من غير أن يؤذن له

بالجلوس . ولما سأله سليم خان هل أنت الذى أردت قتلى تلك الليلة أجاب نعم أنا ذلك الرجل . فقال سليم خان لماذا أقدمت على هذا العمل الخطير . فقال الرجل وكيف لا أقدم على ذلك وقد هجمت على ولايتنا وسطوت على بلادنا واستوليت على أهلنا وعيالنا ، بعد قتل آلاف من عباد الله وتشتيت ألوف ومئات آخرين ولقد استشهد فى الحروب التى أشعلت نيرانها وأثرت نقعها سبعة من أولادى وقد اغتصبت أملاكى وأموالى الكثيرة ومنحتها الأجانب والأدهى من ذلك أننى حُرمت من صحبة ولى النعم والسيد الهمام طومانباى الذى كان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته ، وهو كذلك ملك شجاع وعادل عظيم البسالة والإقدام ، لذلك استقر رأيى أخيرا على أن أقتل سليما فاستأذنت الحضرة النبوية فجاءت الإشارة قائلة أن دولة الدنيا هذه دنيئة سافلة وإن رضى الله تعالى وحكمته البالغة قد اقتضت زوال دولة الجراكسة وقيام دولة آل عثمان ، لذلك صار سليما فى حمايتى وحراستى فلا تتعرض له ولا تؤذه أبدا . وأخيرا نفد صبرى وسئمت نفسى الحياة . فقلت يا رسول الله أنى قد آليت على نفسى بأن أذهب إلى سليم لأبطش به وأنتقم لنفسى فى هذه الليلة . فقال رسول الله إن أقدمت على ذلك فإنى أوقظه من نومه . ثم أيست ووضعت رأسى فى كفى وأقدمت على تنفيذ ما انتويت واضعا نصب عينى جميع ما حل بى من الويلات والمصائب ولا سيما فراق أولادى وأهلى . وما وصلت إليك يا سليم حتى رأيتك تستيقظ من النوم فجأة . . ولا أدرى ما جرى بعد ذلك فإن لبى قد طار وألقيت بنفسى فى اليم . وإلا فإن هجمتي تلك ما كان يثبت لها خمسون رجلا من الأبطال . لأنى قد هزمت بمفردى خمسمائة فارس عدة مرات وإنى لفى عجب مما حدث فى تلك الليلة ، فقد سبحت فى الماء حتى وصلت جزيرة فى الضفة الأخرى ومنها ذهبت إلى قرية أخذت منها جوادا وامتطيت صهوته . والآن إذ أعلنت العهد والأمان جئت إليك واثقا بك ومعتمدا على عهدك ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فسر السلطان من هذا الكلام السديد وخاطبه بقوله أيها العدو الصادق القول والعمل الصحيح الكلام ، المستقيم الأطوار والحركة . ثم قهقه وأغرق فى الضحك وقال ليس لك أن تمكث فى مصر منذ اليوم فاذهب من وجهى حيث تشاء وأجاب كرتباى ما علاقتك بمصر وماذا لك فيها؟ ألا تعلم أن مثل هذه الدنيا كمثل القلعة المبنية من الخشب القديم هى مصيدة بل دار للتزوير ونسج الأباطيل ، فهى ليست مملوكة لأحد . فإن كان لك عقل يدرك فغادر مصر حالا . فإن كنت لم أستطع قتلك والقضاء عليك فإن هناك

مئات الألوف من الذين احترقت أكبادهم من أعمالك القاسية ولابد أن يتمكن واحد منهم من الفتك بك والانتقام منك يوما فتكون العاقبة وخيمة .

ولما سمع سليم شاه هذا الكلام الصريح والقول السديد أعجب به مرة أخرى وأرفقه بحاشيته إلى اسلامبول بعد أن أنعم عليه بخلع سنية كثيرة . هذا وفوض السلطان جميع أموره إلى خير باى بعد ذلك . وتوجه نحو دمياط ورشيد والاسكندرية متفقدا شئونها .

الفصل الرابع عشر

فى سفر السلطان سليم إلى جهات دمياط ورشيد والإسكندرية

لما جاء الأسطول الهمايونى المؤلف من مائتى قطعة من السفن الحربية وألقى مراسيه فى بولاق مصر ناشرا أعلام الزينة والفرح ومعالم السرور على ساريات سفنه عمد السلطان إليها وأركبها عشرة آلاف من الجنود المنتخبين المجهزين بالأسلحة الكافية وتوجه معهم إلى «دمياط» بعد أن أطلق المدافع والبنادق أثناء مغادرته بولاق وسار فى النيل مارا بمائتى بلدة ومدينة واقعة على فرع النيل الذى تقع عليه دمياط حتى وصل بندر دمياط وقلعتها مسافة خمسمائة ميل . وضرب خيمته العالية بجوار الشيخ أبى الفتح حيث قدمت له زهاء عشر خزائن مصرية هدايا وتحف من أعيان المنطقة فقابل السلطان ذلك بتوزيع الخلع والكساوى والهدايا والإنعامات عليهم وعلى الناس . ثم أطلقت المدافع والبنادق إيذانا بالفرح والسرور إعلاما بالرحيل ، من القلعة المذكورة إلى (مرج البحرين) حيث اغتسل به فقصد المكان الذى التقى به موسى والخضر عليهما السلام وزاره وصلى به ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى وشرع فى زيارة الشيخ شطا وسائر كبار الأولياء مستمدا من روحانياتهم القوة والمدد . وبعد ذلك استأنف السير عن طريق البحر المالح إلى مدينة رشيد فوصلها بعد يوم كامل فقوبل بالتجلة والإكرام والتهليل وإطلاق المدافع من قلعة التينة الواقعة على شاطىء البحر . وما أن استقر به المقام حتى تقدم أعيان البلد بهداياهم وتحفهم مسلمين مفاتيح القلعة للسدة الملكية . وقد قام السلطان بعد ذلك بزيارة (كوم الأفراح) وكبار أولياء الله ، كما أنه دخل حمام عباد الله واغتسل به ولا زالت المقصورة التى اختصها بالاغتسال بذلك الحمام موجودة وهى مقفلة لا تفتح إلا للمرضى الذين يقصدونها للاستشفاء ، فيجدون الشفاء بها بإذن الله ، ومن هنا ركب السلطان الزوارق والمراكب الخاصة وقصد ملتقى بحر رشيد والبحر المالح وشرب من مائه الصافى ثم واصل السير والسفر حتى دخل قلعة الإسكندرية الواقعة على مسيرة ستين ميلا ، ولم يكد يدخلها حتى شرعت سفن الأسطول العثمانى المؤلف من سبعمائة قطعة مختلفة الحجم ، والحصون الخمسة التى بها تطلق نيران مدافعها وطلقاتها المدوية ، إيذانا بقدوم السلطان سليم ؛ بحيث ظهرت الإسكندرية كأنها شعلة نار أو أنها «سمندل» فى نار نمرود . وقد أقام السلطان سرادقه العظيم فيما بين الميناءين من الأرض وقابل بها أعيان

الولاية وهم يقدمون له الطاعة بتسليم مفاتيح القلاع الخمس مصحوبة بهداياهم العظيمة المتنوعة ؛ فقابلهم بالإنعام بخلع سنية عديدة .

ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع السلطان الغورى بظهور نجم السلطان سليم وسطوعه فى الأرجاء أراد معرفة طالعه وطالع خصمه سليم خان ، فجمع الكهان والرمالة وأهل الجفر وفاتحى الفأل والبخت والناظرين فى علوم الكف والحروف من ذوى الشأن وأصحاب الدعوة وسألهم عن ذلك . فأجابوا جميعا بأن الشخص الذى يشغل بالك سيلحقك منه ضرر عظيم . فاضطر الغورى عندئذ لأن يحتاط لنفسه ويستعد لدفع الضرر المتوقع ، ولذا بادر إلى نقل جميع أمواله ومقتنياته الخفيفة الحمل والثقيلة القيمة والثمن إلى قلعة الإسكندرية . ثم شرع فى تحصيل أموال سبع سنوات قادمة من جميع بلاد الأطراف وخزنها أيضا فى الإسكندرية ، وجعل خمسين سفية من نوع (القادرغة) على أهبة الاستعداد للسفر دائما فى الميناء وأردف ذلك كله بتدبير آخر هو عقده معاهدة صداقة ومودة مع سلطان المغرب المدعو (يعقوب) للوفود إلى بلاده حينما يضطره سليم خان إلى مغادرة الديار المصرية ، بحيث يأخذ حينئذ جميع هذه الأموال المخزونة معه ويذهب بها إلى تلك البلاد ليتسلطن بها متربصا الفرصة للعودة إلى مصر وفتحها ثانية .

نعم ! هكذا كان الغورى قد وضع جميع أمواله وخزائنه الكثيرة فى قلعة الإسكندرية هذه ولكن (العبد يدبر والله يقدر) إذ أن السلطان سليما نصب وزيره قرابيرى باشا نائبا عنه فقام هذا الرجل بإعداد أسطول عظيم من سبعمائة قطعة من السفن الشراعية الكبرى ثم جاء هذا الأسطول وحاصر قلعة الإسكندرية ، فى الوقت الذى كان السلطان سليم يقطع المراحل ويطوى المنازل فى الطريق البرى حتى التقى بخصمه الغورى بجوار مصر . فنشبت رحا معركة حامية بينهما أسفرت أخيرا عن اندحار جيش الغورى وفقدانه ؛ مما سبق ذكره وحضر السلطان سليم إلى قلعة الاسكندرية وفتح أبواب الخزائن وأخذ منها فى الدفعة الأولى مبلغ سبعة وخمسين ألف كيس مصرى من النقود واثنى عشر ألفا من الذهب الممسّك .

هذا ولما كان الغورى قد انهزم فى المرة الأولى أمام السلطان سليم فى (مرج دابق) جنوبى حلب وولى الأدبار مهرولا نحو مصر ، كانت الراية النبوية المحمدية قد وقعت فى

يد سليم خان فاستبشر بها وتبرك وحملها معه ليلا ونهارا ، حتى أنه جعل حمل ذلك العلم النبوى قانونا عثمانيا فى الجيش فحمله لأول مرة فى الجيش سباهى يدعى حاجى على . . . ، كما أنه غنم العلم الأحمر المنقوش عليه عبارة (نصر من الله) من الغوريين ضمن الأموال التى كانت فى الإسكندرية . وصندوقًا مرصعا بالجواهر يحوى سنا من أسنان النبى عليه السلام التى سقطت فى غزوة أحد وكذا خصلة من شعر اللحية الشريفة وإبريقًا من الحصير المطلى من داخله بالقار ومسبحة من شجر (الصنوبر) وزوجا من القبقاب مصنوع من خشب البقس وعصا من الخيزران الأبلق وحذاء ، وزوج قباء أحدهما من القطن الأبيض المائل إلى الخضرة ، وقطعة صوف أسود وحزاما من الوبر وكذا رداء وعمامة منه ، وطاقية مشغولة بالإبرة ؛ كانت هذه المخلفات كلها محفوظة فى أقمشة مزركشة مطوية داخل صرة مقصبة بالذهب الإبريز منقوش عليها عبارة (هذه مخلفات رسول الله) . فعندما زارها سليم خان تمسح بها بوجهه وتبرك قائلا (الشفاعة يا رسول الله) ثم طوى الصرة وختمها بنفسه . ثم تعمم السلطان بعمامة سيدنا يوسف تبركا وصار يحفظها دائما فى علبة مجوهرة كما أنه شاهد سكينا لسيدنا يوسف وساعة له كان يعرف بها أوقات الصلوات أيام السجن وهى من صنع يده ، وكذا بساطا ، والكل كان فى داخل علبة خاصة فتحها السلطان بنفسه ثم أخذ العمامة اليوسفية وتعمم بها حيث اشتهر بعدها لبس العمامة اليوسفية فى عهد خلافته ولذا سميت أيضا بالعمامة السليمية . لأن أبا الفتح محمدا وبايزيد الولى كانا يعتمان بالعمامة العرفية ولكن سليما اعتم بالسليمية . هذا وظهرت فى خزينة الإسكندرية عمامات قلاوونية نسبة إلى السلطان قلاوون . وجدت أيضا سيوف الخلفاء الراشدين وكذا ملابس السلاطين السالفين وعُددهم وأسلحتهم وآلاتهم الحربية منها خمسون ألف بندقية مرصعة بالجواهر ومزدانة بآثار الصنعة الفاخرة ، وعشرون ألف سيف مصرى فى غاية الإبداع وعشرة آلاف من الزرود وعشرون ألفا من الأقواس وعدد لا يحصى ولا يعد من الخيول والزمبرك والنشاب والكنائن و(التجافيف) وأربعون ألفا من التروس الحلبية والدمشقية وعشرة آلاف من الرماح الدمشقية وعدد لا يحصى من الدبابيس الدمشقية وعشرون ألفا من الزرود ومثلها من «القتلاوى» وثلاثون ألفا من المغافر وعشرة آلاف من الأطباق (المرتبانية) التى كانت صناعة يد الغورى نفسه ؛ فقد تعلم هذه الصنعة من أحد رجال الله الأولياء فصار يعمل المرتبانى دائما ويرسله هدايا للكبار والأعاظم فيرسلون له ما يملؤه من الذهب الإبريز . ولذا احترف هذه الصنعة وجعلها مهنة له وديدنا لطمعه فى المال .

وهكذا ظهرت فى خزائن الإسكندرية مثل هذه النوادر أشياء كثيرة نقلت كلها إلى سفن الأسطول الذى سافر بها إلى إسلامبول . وقد بادر سليم خان بعد كل ذلك إلى زيارة أولياء الله الأحياء بالإسكندرية فاستجلب رضاهم ودعواتهم الصالحات ، كما زار الأضرحة واستمد من روحانية أصحابها الموتى المعونة والتأييد . ثم عاد إلى مصر بالفرقاطات والعقبات باحتفال كبير ولبث بها مدة أسبوع ، فقام فى أم القياس بقطع الخليج باحتفال عظيم لم يسبق له نظير فى مصر التى لا تزال تذكره بإعجاب وتقدير حتى ليقال أن سليم خان أراد أن يتخذ مصر عاصمة لملكه الواسع ويقيم بها ، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يوافقوه على ذلك .

الفصل الخامس عشر
قوانين مصر فى عهد السلطان سليم خان
ابن بايزيد خان

لم يكد السلطان سليم خان يعود إلى القاهرة ، حتى بادر إلى أداء صلاة الجمعة بجميع أهل ديوانه بإذن من علماء مصر فى جامع عمرو بن العاص ، فحضرها كل من حضر من المصلين ، لأن كلا من الوليين أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافى كانا حاضرين فى ذلك اليوم المشهود ، وبإذن منهما وإشارتهما المطاعة ، تلا سيدنا أبو العلاء خطبة الجمعة ووصف السلطان عقبها بقوله (سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان أيد الله سلطنته إلى انقراض الدوران) كما أن العملة المسماة «شريفى» قد سُكت بإذن من الوليين الصالحين المشار إليهما منقوشا عليها عبارة «صاحب النصر ضارب النصر عز النصر فى البر والبحر السلطان بن السلطان سليم شاه بن بايزيد خان عز نصره . مصر سنة ٩٢٢» .

هذا وعقد سليم شاه ذات يوم ديوانه السامى الحافل بالأعلى والأدنى من الأعيان والشيب والشبان ثم نهض فيهم قائما فقبض على يد «خير باى» وأجلسه على سرير النيابة والخلافة وقد وضع بيده الكريمة على رأسه العمامة المسماة بالمجوَّزة السليمية وكان قد رصعها بإكليل من أكاليل قلنسوته السلطانية التى كان يلبسها حينذاك ، ثم خلع عليه فروة عظيمة كما قلده خنجرا ذا حزام ذهبى مرصع . ثم رفع يده إلى السماء ودعا له بالتوفيق ثم قال يا «خير باى» إنى قد جعلتك وزيرى ونائبى فى هذه البلاد مؤملا فيك الإخلاص فى العمل والصدق فى القول ولا أنتظر من وراء فتح مصر سوى التمكن من خدمة سيدنا الرسول وحرمه الشريفين فى كل وقت ، فكل ما حصلت عليه منها هو أنى حصلت على شرف لقب (خادم الحرمين الشريفين) ، وإنى لذلك قد وقفت جميع حاصلات مصر على خدمة سيدنا النبى ، ألا فاشهدوا بذلك جميعا . وأنت يا خير باى ! منذ اليوم ناظر على وقف الله هذا ، نظارةً مطلقة فعليك بحسن الإدارة والخدمة . قال السلطان هذا وأنعم عليه باثنى عشر شاطرا من ذوى المغافر الذهبية المستغرقين فى المرصعات وبثلاثمائة من الغلمان المخصوصين ذوى الأحزمة المرصعة وباثنى عشر جوادا من الخيول المطهمة ذات السروج المزركشة والمرصعة بالأحجار وبفرقة موسيقية

مؤلفة من اثنتى عشرة آلة ، وسبعة من الكوسات الملكية وبسرادق عظيم مزخرف مقام على ثلاثة أعمدة كبيرة وأربعين عمودا صغيرا ، ثم عمد السلطان إلى رجال غرفته الخاصة فعين منهم أمراء فى رتبة ذى الطوغين[١] [باشا من الدرجة الثانية] ، كما أنه نصب مائة من كبار عسكره وعماله رؤساء على الچراكسة يتصرفون فى أمورهم ويقومون على شئونهم .

كان الديوان السطانى ينعقد ثلاثة أيام من أيام الأسبوع ، فقد كانت أعماله تعطل فى أيام الجمعة والسبت والأربعاء ، فكان قاضى العسكر يعقد الديوان أربعة أيام ، ويقدم كل يوم من تلك الأيام لأهل الديوان وخدمه والقادمين إليه من مسافات بعيدة ثلاثمائة صحن من الطعام تقدر قيمتها بمبلغ كيسين مصريين من النقود[٢] ، فأمر بأن يخرج إلى الديوان الملكى ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأهل الديوان وخدمهم ولعباد الله القادمين من جهات بعيدة ؛ كما أنه قرر لجاويشية الديوان خمسة خراف وإردبا من الأرز وكيلتين من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأقتين من شمع العسل كل يوم ، وخصص مرتبات لأئمة المساجد ومؤذنيها .

وبأقاليم مصر ثمانون كاشفا لكل منهم ديوان خاص يمد فيه السماط صباحا ومساء على نفقة السلطان ، وكذا البكوات الچراكسة الذين يبلغ عددهم مائة بك ، ولمائة أغا من أغوات البلوك ، لكل منهم سماط يؤمه الخاص والعام ممن لهم حاجة إلى الطعام ، كلما نقرت الطبول والكوسات إيذانا بذلك . فهكذا كانت نعم السلطان مبذولة للجميع على الدوام . وليس لسلطان آخر نعم مبذولة دائما على هذه الوتيرة . ثم إن هناك مبلغا قدره ستة ملايين قرش وسبعة وأربعون ألف آقچه من الخاصة السلطانية غير داخلة فى القانون .

هذا وكان ولاة بغداد والحبشة واليمن والعراق يلبسون فى الغزوات أكاليل على عمائمهم السليمية . وإذا وجد معهم خان التتر فيقف والى مصر بعده ، ويليه والى العراق ثم والى المجر . فهؤلاء الوزراء الخمسة يقومون مقام السلطان ويتصدرون سائر الوزراء لكونهم لابسين سليمية ذات طرة .

---

(١) طوغ : شارة فى عمائم السلاطين والكبراء فى تلك العصور (د . عزام) .

(٢) الكيس من الآقچه العثمانية يساوى ٥٠٠ قرش . والكيس المصرى يساوى ٨٢٣ قرشا ، وفى باب الخزينة ذكر بأنه ٨٤٦ قرشا . (د . متولى) .

كان القانون السليمى يقضى بأن يسارع وزير مصر بجيشه الخاص إذا عين قائدا لليمن أو الجيش أو العراق أو غيرها من الأقاليم والولايات لمكانته الملكية الخاصة ، ولكن الحال تغيرت الآن ، فقد سيطر مماليك مصر وجنودها على جميع الأمور ووضعوا أيديهم فى هذا العصر على جميع المقاطعات التى فى القانون السليمى ، ولم يبق شىء لأتباع الباشا . ويعيش وزير مصر مع رجاله الألف فى القلعة الداخلية ، ويكتفى ضباطه وأغواته برواتبهم ومخصصاتهم الخاصة . ولهم أربعة وعشرون إقطاعا (زعامت) يتكففون بإيراداتها التى لا تكاد تسدحاجاتهم .

وكان القانون السليمى يحتم صرف معاشات ورواتب سنوية إلى ثلاثمائة أغا من أغوات والى مصر الخاصة وغلمانه وخدمه وحراسه الليليين ولجميع خدم أغوات الباشا الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف . وتلك الرواتب والمخصصات تتألف من أغطية الرأس والقمصان والسراويل وأقمشة أخرى خاصة وأحذية وأخفاف . وكذا يصرف كل سنة من وقف شجرة الدر على كسوة الكعبة المشرفة وخدم جميع الأغوات السلطانية لأن الملكة شجرة الدر كانت قد خصصت رواتب سنوية لأغوات السلاطين السابقين جميعا . فلذا عمد السلطان سليم إلى فحص وقف شجرة الدر ، فوجد أنها كانت تقوم بكسوة الكعبة بالحرير الأسود كل سنة . وقال السلطان قامت سيدة بمثل هذا العمل فمثلى أنا وقد نلت شرف السيطرة على المدينة المنورة ومكة المكرمة أولى بأن يكسو الحرمين بالديباج والشيب والمقصب والستائر المرصعة بالدر والجوهر . ولكن علماء مصر ولا سيما أصحاب المذاهب الأربعة بها ومعهم خليفة أبى السعود الجارحى خالفوا السلطان فى عزمه فقالوا أن العمل المبرور الذى قامت به شجرة الدر لم يسبقها إليه أحد من السلاطين والملوك السابقين فهو خاص بها دون غيرها حيث وفّقها الله له بمقتضى كتاب وقفيتها المحفوظ حتى الآن ، ولا يخفى أن شرط الواقف كنص الشارع . فأبدى السلطان سروره لهذا الرأى واغتباطه بهذا العمل المبرور قائلا : هنيئا لهذه السيدة الموفقة التى يسر الله لها عملا مبرورا كهذا لا يتيسر لأحد من السلاطين السابقين واللاحقين . ثم تساءل عما يمكنه أن يعمل لمكة والمدينة من الخيرات غير الكسوة ، فوفقه الله للقيام بما يأتى :

صنع ستار من الأطلس الأخضر المحلى بالذهب لباب الكعبة الشريفة ، وتجديد بناء باب مقام إبراهيم وتلبيس صندوق قبره بالذهب ، وتزيين ستار منبر الحرم بالذهب وتجديد الحرم وترميمه وتجديد رصاص قبة المنزل السعيد الذى ولد فيه النبى صلى الله وعليه وسلم ، وذلك المنزل مشهور ببيت آمنة . وقد خلّد السلطان فى مكة أكثر من ألف أثر وبناء ، كما أنه أول من أمر بالدعوة فى خطب المنبر لآل عثمان بمكة المكرمة وكذا خلف من الآثار فى المدينة المنورة شيئًا كثيرا ، فقد أقام على القبر النبوى الشريف فسطاطا محلى بالدر والجوهر . وسائر الأحجار الكريمة النادرة تسر العين من النظر إليها ، علاوة على أوقاف خيرية عظيمة وآثار كثيرة أنشأها بها ؛ كما أنه بإشارة من ابن كمال باشا قاضى مصر أصدر أمره بتحرير جميع قرى مصر وبلادها البالغ عددها ألف قرية ، وإحصاء ما فيها من الطيور فى السماء والدواب فى الأرض والسابحات فى البحار والأنهار والمياه من الحيوانات والمنافع ، ثم وزعها بعد ذلك بطريقة الاقطاع على الملتزمين والأمراء والجنود فجعل غلاتها كلها وقفا مرصودا لخدمة الحرمين الشريفين .

هكذا حررت أراضى إيالة مصر وقسمت إلى أربعة أقسام . فالقسم الأول . . . قرية وقف على خيرات وعمارات السلاطين السابقين وإحساناتهم المتعددة . فأطيان هذا القسم باقية كما هى وقت التحرير ، فى أيدى نظارها على أن يقوموا بتحصيل غلاتها حسب شروط الواقف فيصرفها فى وجوهها المعينة من رواتب الأئمة والخطباء والمشايخ والمعرفين والمسّاحين ، وما بقى منها بعد ذلك كله يضبط لجانب الميرى .

والقسم الثانى هى قرى الكشوفية أعنى القرى . . . المخصصة المفروزة خصيصا للباشا من قبل السلطان ، حيث يقيم فى كل واحدة من تلك القرى كاشف معه مائة جندى يسهرون على جباية أموال الكشفية للباشا . ومقدار ذلك مائتا كيس فى السنة ، بيد أنه إذا تعطلت فى زماننا هذا قرية ما أعنى أن صاحبها وملتزمها عجز عن دفع المال الذى عليها وتنازل لأجل ذلك عنها ، فإن الباشا الوالى يأخذها منه وتكون البلدة من قرى الكشوفية فينقل الباشا إليها الرعايا ويزرعها ، وهكذا يحصل على مالها المقطوع ويستمر الحال على هذا المنوال إلى أن يظهر طالب لها فينقل تكليفها والتصرف فيها إلى اسم هذا الطالب لأنه هو الذى قام بإحيائها وتعميرها .

والقسم الثالث يقال له الأطيان الأميرية ، هو القرى والأراضى التى ترصد غلاتها لأموال السلطان فى الإيالة المصرية ويبلغ مقدار أراضيها سبع عشرة «كاشفية» وتحت

إمرة كل كاشف من قبل الميرى مائة جندى من البلوكات السبعة ، كما أن الكاشف يتخذ بضع مئات من الجنود السَكبان[١] يستعين بهم كلهم على جباية أموال السلطان فى ولايته فيورد هذه الأموال أقساطا كل قسط يسمى الثلث الأول والصيفى والشتوى ، ويوردها إلى خزائن السلطان ومواجب (رواتب) المماليك .

ولأولئك الجنود من أفراد البلوكات السبعة الذين يسيرون فى ركاب الكشاف بلدة بلدة ، عوايد من الأموال يتراوح مقدارها لكل واحد منهم بين خمسمائة وستمائة وألف قرش . ويحدث أن رؤساء هؤلاء الجنود لا يكتفون أحيانا بما يعطى لهم وقدره خمسة أكياس مصرية ، بل يقدمون على إطلاق بعض المجرمين من قيود الكاشف وأغلاله نظير رشوة يأخذونها على تلك الجريمة .

والقسم الرابع هو القرى التى إذا مات ملتزم أموالها تضبط للميرى ويعلن الباشا بيعها بواسطة الدلال فى المزاد السلطانى فتباع القرية بأربعين أو خمسين أو مائة كيس بجميع من فيها من الرعايا والمخلفات ويقبض الباشا ثمنها حسب القانون السليمى . هذا والملتزم الذى يشترى البلدة المبينة فى التحرير . . . عليه أن يورد مالها لحساب رواتب مكة والمدينة السنوية وما يتبقى من ذلك فهو له مهما بلغ مقداره سواء أكان مقداره كيسا أم مائة كيس ، كما أن له أن يعمر القرية ويتصرف فيها مدى الحياة ، فإذا مات عنها لا تنتقل القرية إلى أولاده بل ترجع إلى الميرى مرة أخرى .

والقسم الخامس هو ما كان فى نظارة أمين خراج «الجوالى» المفروضة على الذمّيين بمقتضى أحكام الشريعة الغراء من اليهود والقبط والأرمن والإفرنج . . . فأموال هذا القسم تسلم إلى الدفتردار فى الديوان السلطانى لترسل من تلك الأموال الصرة إلى مكة والمدينة مع أمير الحج كل سنة . . .

القسم السادس مخصص للأغوات الذين اعتقوا فى إسلامبول وفكت رقابهم فى الآستانة العلية . وهذا القسم يتألف من القرى العامرة بمصر والمشمولة بنظارة أغا دار السعادة الشريفة[٢] . . . على أنه إذا مات منهم أحد تعود تركته واستحقاقه إلى الباشا . . . هذا وفى عهد إبراهيم باشا قد ورد خط شريف بخصوص ضبط أموال المتوفين من

(١) ضرب من الجنود المشاة .

(٢) قصر السلطان ومقام حاشيته .

الأغوات السود ومصادرة مخلفاتهم لجانب الميرى وتعيين أحدهم (من الأغوات) أمينا لبيت المال وجمع مخلفاتهم قلت أو كثرت وحفظها فى مكان وتعيين الباشا الوالى أيضا ملاحظا من قبله لختمها بالجمع الأحمر ثم عرض الموضوع إلى الأعتاب السلطانية باستانبول ، ووفود أحد الحجاب منها حاملا الأمر بالتصرف بتلك المخلفات والقرى بالإحسان بها إلى عبيده أو بيعها ، وقيام الأغوات السود بأداء أموال القرى كما ذكرنا سابقا حسب ذلك الأمر والتصرف بالباقى كيفما يشاءون .

والقسم السابع هو القائم بإدارة أموال واستحقاق جميع جنود الانكشارية والطوائف العسكرية من العزَبان والمتفرقة والمتطوعين . وحملة البنادق وأقلام السباهية والأيتام والجوالى . يضبط الباشا الوالى أموال هذه الجهات كلها بواسطة قلم الكشيدة[1] [لعلها الشطب] . ولكن منذ سنة ١٠٧٠هـ قد تغلب الانكشارية والعزبان على خزينة هذه الأموال وإدارتها بحجة أن الفلاحين إخوانهم وصاروا هم المسيطرين عليها فإذا كلفوا بالسفر إلى ساحة القتال والحرب يسطون على بيت المال لسد نفقات فرقتهم ؛ وهكذا ينفقون على أنفسهم من تلك الأموال . وإذا أسلم مسيحى وذهب إليهم فيكسونه حالا ؛ كما أنهم إذا التجأ إليهم غريب يكسونه ويمونونه ويعطونه فرسا . وإذا أسر أحد من رفقائهم هؤلاء من قبل الكفار بادروا إلى فك أسره وتخليصه من أيديهم ، ولو كان ذلك بمبلغ عشرة آلاف قرش .

ومنذ السنة المذكورة آنفا أصبح الباشا لا يستطيع التعرض لبيت مالهم العظيم وإن كانت له سلطة كاملة على بيوت مال أخرى خاصة أو عامة ، فجاويشية البلوكات السبعة وقاضى العسكر يكلّفون من قبلهم نواب القسّامين بتحرير ذلك وضبطه ثم تسليمه إلى خزينة الباشا بإذن من أغا الباشا . وما ذلك إلا لأنه كله مما التزمه الباشا وتعهد بصرف ماله المحصل فى وجوهه . فإن كان للمتوفى وارث أثبت وراثته فإنه بموجب سجلات جاويشية البلوكات السبعة والقسامين يطلب جزءا ضئيلا من التركة أى بنسبة أذن الجمل إلى جسمه فى القدر والحجم .

(١) كشيدة كلمة فارسية معناها المسحوب أو المرسوم ولا يتعين أن تستعمل فى معنى المكشوط أو المشطوب . (د . عزام) .

القسم الثامن ، هو إدارة الصرة التى تجبى أموالها من القرى المخصصة لمصالح مكة والمدينة ويبلغ مقدارها الثابت ألفًا وخمسة وستين جنيها ذهبيا من مال مصر العام واثنين وستين ألفا من الجنيهات الذهب مما حصل من أموال تلك القرى فتسلم الصرة كل سنة بواسطة أغا الباشا ومعه سبعمائة من جنود بلوكات مصر السبعة إلى أمين الصرة فى الشام الشريف ومنها ترسل إلى المدينة المنورة . ولكن العادة جرت فى العهد السليمى على أن ترسل تلك الصرة من إسلامبول . وكان أيضا من قوانين العهد السليمى وعاداته إرسال ستة آلاف كيس من مصر وستمائة من الأوقاف ، كما أن أمير حج مصر كان يصحب معه كل سنة صرة من الأموال لشرفاء مكة ومجاوريها ومشايخها جميعا .

القسم التاسع ، هو ما رصده السلطان سليم أيضا من إيراد وغلال بعض القرى والمدن فى إيالة مصر ، لصالح مكة والمدينة وذلك كبلاد (مطوبس) و(دارود[1] شريف) ومدينة (صنبو) وغيرها من القرى والبلاد التى يبلغ عددها سبعمائة ما بين قرية وبلدة وقصبة . وكانت هذه الحاصلات والإيرادات ترسل بالسفن المحمدية إلى مكة والمدينة . وهكذا صارت المدينتان المقدستان عامرتين بالخيرات والنعم . وسنذكر إن شاء الله غيرها من المقررات والمبرات التى وضعها سليم خان فى محلها .

(١) لعلها ديروط . (د . متولى) .

الفصل السادس عشر

فى بيان النيابات وأمراء اللواء فى إيالة مصر والمخصصات السنوية لبكوات السناجق ، وجميع الكشوفيات ، حسب القانون السليمى

تأتى سلطة أمير الحج المصرى فى مقدمة هؤلاء جميعا ، ويوصف هذا الأمير فى مصر بأنه سلطان البرين ، لأنه من بكوات مصر الذين يحمل بعضهم طوغين من شعار الدولة . وتقضى الأصول أن يكون مركزه فى السويس ، ويطلق العربان فى طريق مكة لقب «سلطان البر» على أمير الحج المصرى لعظمة حكومته وسعة سلطته ، فهو يشرف على أربعين ألف حاج فى كل عام .

ويليه فى الرتبة أمير السويس الذى يقوم كل عام بنقل آلاف من الحجاج على مائتى سفينة معدة لنقل الغلال فى بحر السويس إلى جدة ، فى حراسة سفينتين حربيتين من نوع [قادرغه] . ولهذا الأمر راتب سنوى من ديوان مصر قدره اثنا عشر كيسا . ويأخذ من أنبار[1] يوسف . . . إردبا من الغلال فى كل عام فيوزعها على الجنود والبحّارة والربابنة وسائر طوائف الملاحين من المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين قيدت أرجلهم ، ويقوم بالرحلات والأسفار ويوقد فى سفنه الفوانيس ، ويرفع فوقها الأعلام الذهبية . ويطلق عليه «سلطان البحر» .

والسلطة الثالثة هى سلطة بندر جدة وهى باشوية ، ومستقلة استقلالا كبيرا ، يحمل صاحبها أحيانا طوغين من شعار الدولة الخاصة بالباشوات ، لكى يكون له السلطان على أمراء مكة وشرفائها . فلذا يطلق العرب من بدو وحضر على هذا الباشا عنوان «وكيل السلطان» . فحكومته عظيمة كبيرة القدر ، لأن ملوك الهند والسند واليمن والحبشة وسواكن جميعا يرجعون إليه ، ويعتبرونه وكيل السلطان الأعظم ، ولذلك يرسل إليه سلطان الهند هدايا قيمة وكتبا كريمة فى كل عام .

والسلطة الرابعة فى إيالة مصر هى إدارة أشراف مكة ويقال لشاغلها «سلطان الشرفاء» فيذكر اسمه فى الخطب بعد أسماء آل عثمان وحكمه نافذ فى البلاد حتى فى بغداد والبصرة والإحساء واليمن . وإذا أراد أن يحشد جيشا فإن فى إمكانه أن يجند عسكرًا يتراوح بين أربعين وخمسين ألفا من الفرسان .

---

(١) الأنبار : مخزن الغلال ونحوه . وقد حرّف فى اللهجة المصرية إلى عَنبر (د . عزام) .

والسلطة الخامسة هى إدارة اليمن التى كانت خاضعة لحكومة مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع فى سنة ١٠٣٣هـ . حينما استولى الأئمة الزيديون عليها ولا يزال الحكم فيها لهم .

والسلطة السادسة هى إدارة إقليم الحبشة حيث يحكمها الآن وزير من آل عثمان وهى سلطنة واسعة الأرجاء .

والسلطة السابعة هى إدارة بلاد الفونج . ولأن ملكهم من البكريين لا يكادون يخرجون عن طاعة مصر وأوامر ولاتها الحاكمين .

والسلطة الثامنة هى إدارة طرابلس ، والتاسعة إدارة تونس والعاشرة ايالة الجزائر وهذه الإيالات الثلاثة تابعة لإدارة مصر ولا يزال لكل منها نقدها وسكتها الخاصة .

ويقوم من مصر كل عام أغا من أغوات والى مصر حاملا كتب التقرب والاستمالة إلى كل من أولئك الرؤساء فى النيابات العشر المذكورة .

وكان بمصر نفسها أربعون من أمراء اللواء وحاملى رتبة «ميرميران»[١] ذوى الطبل والعلم مع طوغ أو طوغين . وأما فى زماننا هذا ففيها اثنان وعشرون من البكوات الذين يرفعون العلم ويضربون الطبل فى اثنين وعشرين موضعا يقام فيه السماط المحمدى كل ليلة ، وكل منهم مكلف بعمل خاص ، فمنهم من يقوم بتوصيل الخزينة إلى الآستانة مع خمسمائة نفر من رجاله ، وآخر يكلف ومعه رجاله الخمسمائة بنقل الأشياء الصادرة إلى خزائن (كيلار)[٢] آل عثمان العامرة ويتناول ٣٣ كيسا من المال فى كل عام . وأما تلك الأشياء فهى (٥٠٠,٠٠٠) إردب من الأرز يحصل من بنادر دمياط وفارسكور و(بضاى برمبال)[٣] ورشيد و(٢٠٠٠) قفص من السكر و(٣٠٠) كيس (فردة) من البن و(٢٠٠٠٠٠) إردب من العدس . وكل هذا ينزلونه فى بندر رشيد ومنه يحملونه فى السفن المسماة «جريم» ويسيرون بها إلى الإسكندرية حيث يخزن إلى أن تهب ريح موافقة للسفر إلى استامبول .

وكان «بك» آخر يقوم بشئون دفتردارية البلد ، وهو يتصدرهم جميعا لأنهم جميعا فى حاجة إليه .

---

(١) ميرميران : أمير الأمراء كلمة مير مخففة من أمير . وميران جمع مير . (د . عزام) .
(٢) باللغة الفارسية والتركية كيلار : مخزن وحرف فى العامية المصرية إلى كرار (د . عزام) .
(٣) لعلها إيتاى البارود . (د . متولى) .

وكان هناك أربعون من البكوات الچراكسة فى القانون السليمى ، ولم يبق منهم الآن سوى عشرين ، يرأس كل واحد منهم مائة نفر . وإذا عين بك من هذا الجانب سردارا لختم آل عثمان فإن أحد بكوات مصر يؤمر بالسفر مع الخاتم .

وبك يقوم بحماية مدينة بولاق مع خمسمائة من رجاله الأشداء . وبك يحرس مصر القديمة بفرسانه الخمسمائة ، وبك يحرس الإمام الشافعى بفرسانه الخمسمائة ، وبك يخفر «سبيل علام» ومعه خمسمائة فارس . وسبيل علام هذا يرحل منه الرائحون والغادون والحجاج وسائر الزوار ، يراقب البك منه القوافل البرية والبحرية وبك آخر مأمور بالسفر مع الحجاج إلى السويس وبخفارة قافلتهم ومعه خمسمائة رجل . وأما الآن فإن هناك أغا يرافق قافلة الحجاج ، والتجار إلى السويس ذهابا وإيابا مع خمسمائة من رجاله . وبك آخر يظل دائما مستعدا للسفر إلى أية جهة يظهر فيها الثوار والأشقياء ، ومعه خمسمائة رجل ، بأمر وزير مصر وحاكمها ، يبادر إلى جهة الثورة والاختلال بالتجريدة اللازمة .

وثمة بكوات مستعدون للعمل بمن معهم من الرجال دائما حينما يطلب إليهم ذلك .

وهؤلاء البكوات يتقاضون نظير أعمالهم مبلغا من المال معينا يتراوح بين عشرة واثنى عشر كيسا فى العام وإردبا من الغلال باسم «العليق» للخيل من الأنبار العام .

فى بيان رتبة بكلر بك[١] فى إيالة مصر

[إن بك دمياط] يعين من قبل السلطان بطوغين ويتقاضى من ديوان مصر ستة أكياس فى العام وله إيراد مثل ذلك من دمياط ، كما أن له إيرادًا من المدينة نفسها ترد من غير وجوهها الظاهرة يبلغ ستة أكياس أيضا . ففى نظير هذه الأكياس الثمانية عشر من الإيراد يخرج «بكلر بك» للسفر فى البحار الستة بسفينتيه الحربيتين من نوع «قادرغه» تحت رئاسة القبودان باشا ومعيته حتى يقبل الشتاء فيأوى هو بسفينته إلى ميناء «دمياط» .

ومدينة «رشيد» أيضا سنجق ورواتبها كرواتب دمياط ، ويقوم حاكمها بالسفر فى البحر الأبيض بسفينتيه من نوع «القادرغه» . وكذا سنجق «الإسكندرية» الذى يتقاضى

(١) بكلر بك بالتركية مثل ميرميران المركبة من العربية والفارسية . ومعناها بك البكوات أو أمير الأمراء (عزام) .

راتبا سنويا كراتب دمياط ورشيد من ديوان مصر ، ويخرج فى معية القبودان باشا . وسنجق الإسكندرية عظيم وذو شأن ، فلذا يكون أميره سردارا فى اجتماع سنجقى دمياط ورشيد وتكون له الرئاسة على ستة قادرغات ، ويرافق بها مع الأسطول السلطانى ، سفن التجار ذهابا وإيابا .

والسنجق الرابع بمصر هو الشرقية والخامس الغربية والسادس المنوفية والسابع البحيرة ، وكانت «أوجله» وهى منجم التبر من الذهب بأرض المغرب ، كاشفية عظيمة منذ فتح سليم خان مصر . وفى أيام إبراهيم خان حين كان مقصود باشا والى مصر تغلبت طرابلس على «أوجله» ولا تزال تحتلها حتى اليوم .

والسنجق الثامن المنصورة والتاسع القليوبية والعاشر (جيزة يوسف) والحادى عشر بنى سويف والثانى عشر (فيوم يوسف) والثالث عشر المنيا والرابع عشر منفلوط والخامس عشر هو السنجق الكبير والولاية العظيمة «جرجا» والسادس عشر الواحات العظيمة والسابع عشر (أبرم) .

وفى كل عام يرسل إلى هذه السناجق رجال من قبل كل بك ومن قبل البلوكات السبعة ، للقيام بأمور الضبط والربط من شهر توت إلى شهر توت بالحساب القبطى وبجباية الأموال السلطانية وتوريدها إلى مدير المال (دفتردار) حيث تصرف منها رواتب ومخصصات الجند ، وترسل منها الخزينة المعتاد إرسالها إلى السلطان .

وفى كل من هذه السناجق بضع مئات من القرى والقصبات العامرة وأكبر أولئك البكوات والحكام شأنا هو حاكم جرجا الذى يمتد حكمه إلى بلاد الفنج والبربر والسودان وأوجله وبلاد المغرب بواسطة خمسة آلاف من جنوده . ويحمل بك هذه الولاية أحيانا طوغين من شعار الباشوية فى الدولة ؛ فهى ولاية عظيمة واسعة ينتج منها مائتا ألف إردب من الغلال فى العام ، يخزن فى مصر القديمة ، وتصرف منها الجرايات لجميع جنود مصر ويجبى منها من المال السلطانى ما مقداره مائتا ألف كيس . كما أنها تورد لثمانين حاكما ما يلزمهم من «الغالية» [قالية] ، وتعطى أيضا مائة كيس من المخصصات والرواتب لمن ينخرطون فى سلك جنود جرجا ويكون ذلك محسوبا عليها .

ثم إن ولاة هذه الولاية جعلوا (ولاية الصعيد)[١] تدر أربعمائة ألف إردب من الغلال فى العام ، يبقى له مبلغ من المال صاف قدره مائتا كيس مصرى بعد كل المصاريف ، فهى ولاية عظيمة يقال لها الصعيد الأعلى ، وكأن مصر عبارة عن ذلك الصعيد الذى ليس له نظير من حيث الخصوبة ووفرة الخيرات والبركات . وسنذكر ذلك فى محله إن شاء الله .

ولباشا جرجا ديوان كديوان والى مصر يعقد فيه مجلسه العالى حيث يكثر العمل وتزداد الحركة حتى يعجز القلم عن وصفها . وتنقسم أراضى حاكم جرجا إلى أربع وعشرين كاشفية يخلع حاكم جرجا على رئيس كل منها خلعة فاخرة بدون تدخل والى مصر فى ذلك .

وهذه أسماء تلك الكاشفيات خارج القانون : كاشف منفلوط ، كاشف المنيا وكاشف (شرق الفيه) وكاشف (شرق أخميم) وكاشف أبو تيج ، وكاشف طحطا ، وكاشف الواحات ، وكاشف (المنية) وكاشف (بلابش) ، وكاشف فوه العليا ، وكاشف قنا وكاشف قوص وكاشف (أقصرين) فى غرب النيل . وكاشف عسيرات وجرجا وكاشف بندر (وتمة) فى الغرب وكذا كاشف سيوط فى الغرب . وأما كاشف (ريان بن عايد) وهو شيخ العرب ، وكاشف (شرق سليم) ففى الشرق . وكشافو (شرق المريح) وبهجور وفرشوط وقصاص وإسنا فى الغرب . و(سنهوط) فى غرب النيل . وكاشف (قصير بهانس) فى الغرب . و (برديس) متصل بأعالى جرجا . وكاشف (شرق تمام) و(الوانية) قائمقاميتان فى غرب النيل . وكذا كاشف (جزيرة) فى الغرب . وكاشفية (أبرم) .

وكانت إيالة الصعيد تتألف من أربع وعشرين كاشفية حسب القانون تكون لكاشفيها الكوسات[٢] ثم ألحقت بها ستة من الكاشفيات ذات الكوسات وهناك بعض المشايخ من العرب ليس لهم كوسات ، فصار عدد الكاشفين أربعا وأربعين كاشفا يقومون جميعا بخدمة جند مصر وأهاليها بتقديم الغلال اللازم لهم .

---

(١) فى هذه الجملة أخطاء إملائية أبهمت المعنى وذلك أن الكلمة المترجمة لكلمة (الصعيد) مرسومة فى النص التركى هكذا : Sayda والكلمة المترجمة بعبارة (تدر) مرسومة هكذا Yurudr ومعناها التسيير أو السوق وربما كان المعنى أن والى هذه المنطقة كان يصدّر كل عام أربعمائة ألف أردب من الغلال (د . السعيد) .

(٢) الكوسات جمع كوس وهو بالفارسية الطبل الكبير يضرب فى الحرب وعلى أبواب الملوك والأمراء (د . عزام) .

الفصل السابع عشر

فى قوانين وقواعد ديوان مصر وعاداته فى عهد السلطان سليم خان فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر وما أدراك ما ديوان مصر ؛ إنه ديوان عظيم فسيح الأرجاء إذ هو ديوان السلطان الغورى ديوان عظيم يسع خمسة آلاف شخص ، وفى جانبيه غرف يجلس فيها رؤساء سبعين قلما ومحاسبوها مع وكلائهم يمسكون الدفاتر . وفى وسط الديوان المفروش بالبساط ينعقد المجلس خمس مرات فى الأسبوع لسماع دعاوى وطلبات أرباب الحاجات فيطلع الباشا الوالى عليهم وعلى يمينه الباشا الدفتردار وغيره من البكوات بعمائهم المسترسلة على يساره يجلس بالترتيب أغوات السباهية[1] والمتطوعين وحملة البنادق والانكشارية والعزبان . ثم يتناولون الطعام فى ثلاثة آلاف صحن وطبق حيث يخدمهم كتخدا الجاويشية ورئيس المدرعين ورئيس المعمارية ورئيس الشرطة وجاويشية الانكشارية والعزبان بكساويهم التشريفية ، دون أن يجلسوا إلى المائدة . فيتناول جميع أرباب الديوان الطعام بكل أدب وهدوء حسب الأصول ، ثم ترفع الصحون والأطباق كلها ويأتى الخدم بالطشوت والأباريق الغورية فتغسل الأيدى وتنشف ويدعو داعى الديوان الدعاء المعتاد ، وحينما يذكر اسم الرسول الكريم يقوم الكل إجلالا له مرتين وحين يذكر آل عثمان يقومون مرة واحدة . وعندما ينتهى الدعاء وينفض الناس ويبقى أرباب الحاجات يتقدم كتخدا الجاويشية إلى الأمام ينادى قائلا ، هل هناك من يشكو؟ فإذا كان هناك شاكون يفصل فى أمورهم وتقطع خصومتهم بوسيلة من الوسائل . ويذهب الباشا بعد ذلك إلى غرفة العرش فيخلوا الميدان لكل من كتخدا الباشا [مدير مكتبه] والباشا الدفتردار ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية ، فإذا كانت هناك قرى خالية من ملتزميها وقد انتقلت إلى جانب الميرى ، يعلن الدلال المختص بالبيع لمن يزيد ، حيث تباع القرية لمن رسا عليه المزاد . ثم يشرع كل من الدفتردار والروزنامجى فى تحصيل بقايا الميرى فيرسلان إلى الملتزمين الذين لم يوردوا ما عليهم من الأموال للخزينة ويحضرونهم فى هذا الديوان الذى فى وسطه حبال غليظة مشدودة بحلقات وبكرات بالسقف . وإذا

---

(١) صنف من الفرسان فى الجيش العثمانى ذوى الاقطاع كانوا يذهبون إلى الحرب بخيولهم وبأسلحة الدولة . وسپاه بالفارسية الجيش .

حضر الملتزم المقصّر والمتأخر عن الدفع يحف به عشرات الجلادين (اللهم عافنا) . ويوثقونه من ذراعيه بتلك الحبال الغليظة ثم يشدونها شدا حتى يرتفع الرجل ويعلق فى الهواء وهو عريان ، لا يستره شىء أمام هؤلاء الحاضرين من رجال الدولة وأعيانها ثم يضربونه ضربا مبرحا بكرباج «فونجى» متخذ من قضيب الفيل ، فيصل صياح المضروب وصرخاته إلى عنان السماء ولا حياة لمن ينادى ولا مغيث لمن يستغيث ؛ حيث لا يجرأ أحد من الحاضرين أن يشفع له ، لأن الشفعاء والوسطاء يتعرضون لمثل هذه المعاملة فيما إذا لم يأتوا هم بالمال المطلوب من الملتزم ، بعد ثلاثة شهور حيث يقال لهم إن كنتم تكفلونه فعليكم أن تؤدوا المال إلينا فى المهلة المقررة ؛ الأمر الذى يجعل الابن يتبرأ من أبيه والأب من ابنه وأعيان مصر يعرفون هذا كل المعرفة فلذا لا يتقدم أحد منهم بالشفاعة والرجاء لأحد من المتأخرين فى الأداء ، ثم إن الرجل المضروب على هذا المنوال إذا كان له مال مهما كان ضئيلا يبادر فيخرجه ويدفعه . ولو بقى بعد ذلك على الحصير وإلا يسجن فى مكان يقال له (أرقخانه) وهو سجن فظيع جدا حتى تعد جهنم وبئس المصير بجانبه «أعرافا» فمن بات فيه ليلة يهون عليه الموت ويستعجله . وأخيرا تباع أملاك المدين وقُراه حتى يتخلص من سوء السجن . والحكم هنا والكلمة للباشا الدفتردار لأن الرواتب والمواجب مطلوبة منه ومن كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ؛ كما أن الدفتردار يكاد يكون من بكوات مصر المعروفين فيعين من قبل السلطان لدفتردارية مصر حاملا طوغين من شعار الباشوية . هذا وإيراد إيالة مصر العام كل سنة يبلغ ٤٥٠٠ كيس مصرى . وكل كيس يساوى خمسا وعشرين أوقيه وأربع بارات تساوى درهما . فعلى هذا الحساب والتقدير يساوى الكيس المصرى الواحد ٨٣٣ قرشا . [وفى باب الخزينة ذكر بأنه ٨٤٦ قرشا] ويحصل الدفتردار كل سنة من الوارد والمصروف ما يساوى ستة وعشرين ألف كيس . . . وتحت أمره ثلاثة آلاف من الخدمة والعمال . وتختم اثنتا عشرة خزينة مصرية ناتجة من الطريق السلطانى بخاتم ديوان هذا الباشا واثنتا عشرة خزينة مصرية تحصل من جهات أخرى ؛ فيكون جميع ما يتحصل من أرض مصر من الخزائن أربعا وعشرين خزينة ولكل واحدة منها معتمد (قبو كتخدا) وصراف بالقاهرة وإذا ورد المال إلى الديوان قام رئيس الصرافين بعده وضبطه ، وإن وجد فيه نقصا كمله المعتمد . ورئيس الصرافين الذى يعمل بالديوان تحت أمر الدفتردار يهودى يعاونه ثلاثمائة من الصرافين اليهود ويتوجه كل واحد منهم إلى ملتزم فى الأقاليم ليمسك

حساباته . ومن المعلوم أن اليهود شياطين ومحتالون فى كل البلاد . ولكن يهود مصر فى غاية النزاهة والاستقامة ، حتى أن أحد الجنود إذا قبض راتبه ووجد فيه عملة مقصوصة أو مغشوشة وطلب إلى صراف يقابله فى الطريق استبدالها بعملة رائجة سليمة ، استبدلها له بلا توقف .

وصف دار سك النقود المصرية

لا شك فى أن دار سك النقود عِرض الدولة وشرفها ، فهذه الإدارة أيضا خاضعة لأمر الدفتردار ويبلغ عدد عمالها وخدمتها خمسمائة رجل من أتباع الدفتردار غير أن أمين الضربخانة هو أغا الباشا الكبير نفسه [وكيله العسكرى] والكلمة فى الضربخانة على كل حال لصاحب العيار الذى يخضع له أيضا الدفتردار فى المسائل الفنية إذ أن صاحب العيار هو المسئول عن عيار العملة وصحتها وسلامتها من الغش .فإذا وجدت سكة نقدية مغشوشة بادر أولياء الأمور إلى قطع يد صاحب العيار الذى ضربها فلذا يخضع له جميع عمال الدار وخدمه . وبدار سك العملة خمسون سمسارا يهوديا وخمسون فرانا وخمسون صائغا وعشرة من السحابين وعشرة من الوزانين وخمسون قَطَّاعًا (كهله دار) الذين يقطعون أسلاك الفضة ويجعلونها قطعا ثم عشرون صفاحا وعشرون طباعًا وعشرة دولابى وعشرة من الجلائين والوزانين وضارب سكة ، وعشرون من الملاحظين متفرغون لذلك ولا يعملون شيئا آخر . وكل واحد من هؤلاء الموظفين والعمال إذا حضر من بيته يجرد من ثيابه ويلبس ثوبا من ثياب الميرى . وذلك لتفادى ضرب السكة المغشوشة حيث يقوم الملاحظون بملاحظة ذلك دائما . وكل الأشياء والمواد تتبادل بينهم بالوزن أخذًا وعطاءً وبعد أن تضرب السكة لأول مرة يعيدونها إلى النار ثانية للاختبار فإذا خرجت من النار سوداء تعتبر مغشوشة ويبادر البك الذى فى الضربخانة وهو صاحب العيار إلى قطع يدى ضارب السكة من غير أن يستأذن الباشا الوالى أو يراجعه فى ذلك .

هذا ولرئيس ضاربى السكة يومية قدرها «شريفى» واحد ، وهو محبوس ومعتكف فى غرفة دائما يقوم بتسليم النقود المضروبة إلى صاحب العيار حيث تختم وتوضع فى الخزانة التى لها خمسون حارسا وهذا أمر عظيم جدا ، ومن لم يشاهد ضربخانة مصر فكأنه لم ير شيئا من ضربخانات البلاد الأخرى . فإن ضربخانة مصر يرد لها الذهب والتبر الخالص من جميع جهات جزيرة مصر الواسعة الأرجاء ويوضع ذلك فى طواحين

فيذاب ويصفى من ترابه وأدناسه ، ثم يجعل أسلاكا ثم تقرض هذه الأسلاك ثم تصفح القطع وتبطط حتى تسك وتضرب عملة وبعد ذلك تصقل وتجلى جلاء تاما حيث تنقل من يد إلى أخرى ومن حال إلى آخر سبعين مرة . وصنعة تلك النقود هذه صنعة صعبة وعظيمة جدا ولكنها حبيبة إلى النفس ومسلية ولذيذة . وذلك عند أهلها ومن يفهم مزيتها وأما الذين لا يفهمون مثل هذه الأشياء الدقيقة اللطيفة فإن ذلك عنده كالسم الزعاف الذى ينفثه الثعبان الهائل ، بل وأشد .

هذا وإن الذهب الكثير الذى يتجمع فى ديوان مصر كالجبال يصرف بعد حين ويكون خيالا لا أثر له ، مثله كمثل الزاهد فى الدنيا يعتبرها خيالا فى خيال .

وغرضنا من هذا التفصيل والإسهاب هو ذكر ما رأيناه وشاهدناه فعلا . وإلا فليس لنا والحمد لله مطمع فى حطام الدنيا . ونحن فى مصر من هؤلاء المجاذيب العشاق الذين يغبطهم الأكابر والأصاغر على ما يستمتعون به من الأذواق فى وادى العشق .

أوصاف حكام مصر وعمالها

يرجع الحكم فى ديوان مصر بعد الدافتردار إلى كتخدا الجاويشية . فالكتخدا هو «بك» حسب الأصول والقانون وله مائتان من الأتباع ما عدا أصناف الجاويشية الآخرين . وجميع الجاويشية يلبسون مجوزاتهم (عمائم) وهم يصحبون الكتخدا فى الذهاب إلى ديوان مصر والإياب منه . وهو الذى يشرف على جباية بواقى المال السلطانى بأمر الدفتردار . ويأتى بعده فى النفوذ رئيس المتفرقة لأنه مسئول عن تحصيل مال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى . وله مائتا رجل من الأتباع . ويليه فى الحكم رئيس التراجمة حيث يقوم باستلام وجمع عرائض الشاكين وطلبات المتقاضين ويرفعها إلى الباشا . فيترجم كلام المدعى والمدعى عليه أثناء التحقيق والمحاكمة . وبحسب القانون والأصول المتبعة يرتقى هذا الموظف إلى منصب رئيس المتفرقة ، وله خمسون تابعا .

هذا وإن باشجاويش الانكشارية وباشجاويش العزبان يحضران فى جلسات الدواوين الخمسة وينظران فى دعاوى زملائهم من الفرقتين المذكورتين . ويكون رقيهما إلى المناصب العالية بطريق ترقيتهما إما إلى قيادة قافلة الحج وإما إلى رئاسة القوة المحافظة على الخزينة ثم تعيينهما فى منصب وكيل أغا الانكشارية ثم أمير السنجق .

وفى ديوان مصر حاكم أخر يدعى «روزنامجى» وهو الركن الأعظم لمصر فى ضبط شئونها المالية والاقتصادية ؛ فكل طائر فى السماء ودابة فى الأرض وسابح فى البحر مقيد فى دفتر هذا الموظف المالى وهو إن أراد أن يظهر الباشا مفلسا عند عزله عن الولاية ، أمكنه وإن أراد أن يستر عليه ، عمل ذلك بكل سهولة . ومقامه يوازى مقام الدفتردار . ثم يأتى الروزنامجى الصغير الذى تخضع له بعض الأقلام وإدارة الأنبار اليوسفى .

ثم إن ولاة مصر يعينون من قبلهم روزنامجيا صغيرا قادرا على الكتابة والتحرير ليكون مراقبا للروزنامجى الكبير . ولكن يجب أن يكون هذا الموظف رجلا مستقيما وذا كفاءة إلى أقصى حد لأنه مرآة الباشا وعنوان شرفه حين عزله من الولاية . .

وهناك خمسون نفرا يمسكون دفاتر الروزنامجى وهم بذلك محيطون به من الجوانب الأربعة بحيث أن كل واحد منهم مختص بدفتر ولاية .

والموظف الذى يلى الروزنامجى الصغير فى المكانة هو مراجع الديوان ، وهو الذى يقوم بقيد واردات وصادرات أنفار البلوكات السبعة ورواتبهم وترقياتهم ، ويختار ممن يثق بهم الباشا الوالى ولا يكون من المصريين . ويحصل أربعين كيسا مصريا من المال . وله خمسون نفرا من الخلفاء . وأما إيراده فهو ما يتقاضاه من الرسوم حين القيد والنقل من سجل إلى آخر فى كل مناسبة من المناسبات . فإذا استقال واحد من عمله وأعطى عمله لآخر فإن المراجع يأخذ منه مرتب شهر ويحتفظ لنفسه بنصفه ويعطى نصفه لخلفائه يقتسمونه فيما بينهم هبة ، ولهم هدايا صغيرة أخرى كثيرة . كان المراجعون وخلفاؤهم يسكنون فى مكان بعيد عن الديوان ، وأمر (حسين باشا بن جانبلاط) حينما كان والى مصر بأن يجلس مراجع ديوانه مع خلفائه مع سائر الأفندية بديوان القاهرة .

ويجلس أفندى ديوان الباشا الوالى فى ركن من أركان الديوان العام وله اثنان وعشرون كيسا من الكشوفية خلاف الهدايا والهبات . ويجلس فى ركن آخر كاتب المراسيم (بيورديجى) وهو موظف مطلع على كثير من الأمور الخاصة بمصر ويقوم بوكالة أفندى ديوان القاهرة ، ويكتب جميع المكاتبات والمراسيم حسب النظام المصرى ، ويرسلها إلى الأقاليم بعد أن يختمها أفندى ديوان الباشا بختم الوالى (پنچهء بيوردى) . وأما إيرادات هذا الكاتب المصرى فيأخذها أفندى الديوان ولا يعطيه منها سوى كيسين مصريين فى العام .

وهناك ركن آخر يجلس فيه أمين الدفتر من قبل الباشا ؛ كما أن هناك من الكتبة والموظفين أمثال كاتب خزينة الخرج وكاتب (المحلولات) الخارجية وأمين الأوراق الخارجية والمراجع والمحاسب وكاتب الأيتام وكاتب الحوالة وكاتب الأرزاق . وكاتب البقايا وكاتب الانكشارية وكاتب العزبان . فهؤلاء كلهم يذهبون بعد فض جلسات الديوان إلى دوائرهم ومصالحهم فى الديوان مع خلفائهم لابسين حللهم الرسمية[١] وهذا بيان بالوظائف والأقلام :

قلم المشاة ، وقلم المقابلة والمراجعة ، قلم الكشيدة وقلم المتقاعدين وقلم الجراكسة وقلم السباهية وقلم الأيتام وقلم الطوشية وقلم الجوالى وقلم الأمراء وقلم الملتزمين وقلم الدشيشة وقلم الخزينة العامرة وقلم صرة مكة والمدينة وقلم السادة الكرام وقلم أنبار سيدنا يوسف أعنى أكلة الجراية وقلم المتفرقة وقلم الجاويشية وقلم المتطوعين وقلم حملة البنادق وقلم البحرية وقلم جماعة المشاة وأنفار السويس الذين يبلغ عددهم مائة وخمسة وعشرين رجلا . وأقلام المدفعية والمدرعين وحملة الحراب وصناع الخراطيش ، كل أولئك قد نقل إلى مستحفظى المشاة[٢] ، وقلم الروزنامجى الكبير وقلم الشرقية وقلم الغربية من أقلام المقاطعات وقلم المقاطعة الخاص بالمدينة ، وقلم المقاطعة الخاص بإيراد الغلال وقلم الأذرة والغلال وقلم الدشيشه الصغرى والقلم المحمدى وقلم المرادية وقلم الخاصة وقلم كاتب محلولات الدائرة السنية .

فى بيان أقلام أمين البحرين المضحكة وعدد خزائن مصر

اتضح مما ذكرناه أن هناك سبعين قلما ، مكتظة بالموظفين حسب القانون السليمى ولكن لا يوجد فى هذا الديوان المصرى منصب دفتردار الإقطاعيات الخاصة بالجنود كما فى سائر الإيالات وأمين الدفتر ، والتحرير على جانب الميرى وذلك لأن مصر كلها قيدت حين الفتح ، فلذا لا تسمع فيها أسماء مناصب كأصحاب التيمار والزعامة

(١) بعد كلمة (الرسمية) يوجد فى النص التركى عنوان طويل سقطت منه كلمتان ، وهو خاص بالموظفين الذين لا يلبسون زيا رسميا (خلعتسز اوطوران افنديلر) (د . السعيد) .

(٢) «مستحفظان» جمع مستحفظ على القواعد الفارسية . وهم صنف من الجيش الاحتياطى مؤلف من الذين تجاوزوا سن الأربعين يستخدمون للمحافظة على أمن البلاد أثناء انشغال الجيش بحرب ، استعملنا بدلها كلمة «مستحفظين» كما استعملناها أحيانا كما هى . (المترجم) .

(كلاهما إقطاع للجنود) وقائد الجيش (چرى باشى) وأمير آلاى ، ولكن بها قلما غريبا من أقلام الأفندية التى سبق ذكرها وهو قلم «أمين الخردة» فهو إدارة عجيبة فلذا ذكرناها بعد كل الأقلام وهذه الإدارة تجمع كل من بالقاهرة من اللاعبين بالأقداح والدوارق والكؤوس والقائمين بالألعاب البهلوانية الدالة على القوة والرياضة وكذا اللاعبين بالطيور والحبال والنيران والخيول والحمير والحيات والثعابين ورفع الأثقال ، وترقيص القردة والنسانيس وخيال الظل «والقراكوز» ومصارعة الديكة وأمور السيمياء . واللاعبين بالفيران والدببة ، وكذا قراء الأساطير والأقاصيص والمهرجين والمضحكين ووسطائهم من اللاهين واللاعبين وجميع من فى الجمارك من الباحثين والفاحصين والخردجية ، فكل ما يتحصل من هؤلاء من المال ولو كان خردة من الفضة خاضع لحكم وأمر كاتب أمين الخردة ، إذ أن هذه الأشياء الصغيرة تحصل منها أموال كثيرة تورد إلى خزينة الميرى حيث تحصل إيالة مصر جميعا فى السنة من الأموال ما يبلغ إحدى وثمانين خزينة مصرية . منها تسع خزائن سنويا لعسكر مصر ومماليكها رواتب ومواجب . وأما الخزينة العاشرة فهى مخصصة لمكة والمدينة ترسل لشرفائهما ، والحادية عشرة لباشا مصر والثانية عشرة لأغواتها وضباطها . والثالثة عشرة لأمير حاج مصر ، والرابعة عشرة هى التى تصرف لشئون المرمة والعمارة فى مكة والمدينة ولمصاريف الإنارة من الزيت وشمع الكافور والعود والعنبر وغيرها من النفقات ، والخزينة السادسة عشرة هى الصرة التى ترسل من مصر إلى الشام ومنها إلى المدينة ثم مكة . والسابعة عشرة ثمن ونفقات ما يرسل كل سنة إلى المطبخ العامر السلطانى بالآستانة من الأرز أو السكر الممسك والبن وأنواع المعاجين . والخزينة الثامنة عشرة لقضاة مصر والقسامين العسكريين .

هذا ولما تحررت أموال مصر وضبطت لأول مرة كانت فى إيالة مصر سبعة وسبعون ألف وقف فى حين ليس بها الآن سوى اثنى عشر ألفا من الأوقاف العامرة . وكل قاض من قضاة مصر حينما يتولى القضاء يقبض عن كل وقف جنيها ذهبا وهناك أوقاف تقبض عنها عشرات من الجنيهات ومائة جنيه أحيانا . وتجبى من فدادين ورزق هذه الأوقاف وأعيانها مال يقدر بمبلغ خزينتين مصريتين[1] يصرف رواتب ووظائف للمرتزقة والمستحقين ، والخزينة العشرون هى التى يحصلها كشافو مصر والحادية والعشرون هى

(١) الخزينة المصرية = ١٢٠٠ كيس مصرى ، والكيس المصرى = ٨٣٣ قرشا وفى باب الخزينة ذكر بأنه ٨٤٦ قرشا . (د . متولى) .

التى يحصلها أمناء مصر وملتزمو أراضيها وينفقونها على أنفسهم . والثانية والعشرون ، هى التى يحصلها الرعايا الفلاحون لأنفسهم . والثالثة والعشرون والرابعة والعشرون هما الخزينتان اللتان يحصلهما التجار الواردون على مصر من الأقاليم السبعة . والخامسة والسادسة والسابعة والعشرون هى الخزائن الثلاث ، وهى الغلال التى ترد كل سنة إلى الأنبار اليوسفى فيمتلىء بها كل الامتلاء حيث يوزع منها على الجنود جرايات ومخصصات .

وخلاصة القول أنه بحسب أقوال وتصريحات جميع أرباب العمل بمصر يحصل للميرى كل سنة من الأموال من ديار مصر زهاء ثلاثين خزينة حسبما هو محرر وكل خزينة مصرية تساوى ألفا ومائتين كيس مصرى . وسنذكر كل خزينة فى محلها إن شاء الله تعالى ، وقد أشرنا إليها الآن إجمالا لا على سبيل الحصر .

هكذا يا سيدى تجبى هذه الخزائن عما يطير فى السماء ويدب فى الأرض ويسبح فى البحر من الكائنات والبشر . وما ذلك إلا من عرق جبين الفقراء وعصارات آهاتهم وتحسراتهم .

مدح مقياس النيل المبارك وكثرة بنى آدم وأنواع الحيوان ووفرة الحمير بمصر

بما أن الله سبحانه وتعالى قد منح مصر ببركة النيل خيرات عظيمة فإن حاصلاتها وأموالها السلطانية وافرة ومتنوعة جدا . فإذا فاض النيل وعلا ثمانية عشر ذراعا فإن المال السلطانى يستحق ويجبى . وإذا صار عشرين ذراعا ، أثرى كل من الباشا والأمناء والملتزمين والكشافين والرعايا حسب مراتبهم ويقدرون على تسديد ما عليهم من الأموال المطلوبة . وإذا لم يفض النيل ولم يبلغ ثمانية عشر ذراعا (معاذ الله) فإن أراضى الإيالة لا تروى ولا تسقى ، ويعم القحط ويحصل العجز فى ذمم الأمناء والملتزمين جميعا ويتعذر تحصيل مال السلطان ، ولا تكمل الخزائن ، فيضطر الباشا إلى إكمالها من قبله وصرف مواجب الجند كلها من جيبه ، كما أن ثلاثمائة ألف من حملة البراءات السلطانية من الأئمة والخطباء والعلماء والصلحاء والمشايخ السادات وجميع المتولين ذوى الهبات والنظار يطلبون جراياتهم ومرتباتهم البالغة خزينتين مصريتين . فإذا تأخرت هذه الرواتب ولم تصرف لأصحابها فسرعان ما يتذمرون ويثورون ولكن النيل إذا فاض فيضانا عظيما

عم الخير ولم تتبدل الأحوال فتصرف الرواتب والجرايات بكل سهولة ويحمد للسلطان والباشا وسائر أهل الخير والهبات ويدعى لهم جميعا بطول البقاء .

والحاصل أنه لا يوجد بلد فيه أناس كثيرون يموجون كأمواج البحر المتلاطم وأراضيه فى الخصوبة والبركة والخيرات مثل هذه البلاد القديمة ، فليس لها نظير لا فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا فى غيرها من البلاد الخاضعة لسائر الملوك .

هذا ووجه تسمية مصر القاهرة بأم الدنيا هو أن القحط والغلاء إذا عما الدنيا كلها وسادا فيها فإن مصر هذه تمون الدنيا حسبما خلقها الله لهذا الغرض ، وبالعكس إذا أصاب القحط والغلاء مصر فإن محصول ألف مدينة لا يكفيها بل لا يكفيها حاصلات الدنيا كلها . لأن مصر بحق بحر الخلائق وخزينة الناس ومنبع الجماعات . ولقد رأيت فى رحلتى إلى مصر (سنة١٠٨٢هـ) سنة اثنتين وثمانين وألف فى سجلات المذاهب الأربعة أن ثمانمائة ألف شخص ماتوا بالطاعون ، حتى يقال إن إبراهيم باشا باع فى مدى شهرين قرية محلولة من ملتزميها تسع مرات لكثرة الوفيات بمبلغ عشرين كيسا كل مرة . ومع ذلك فقد كانت الشوارع مليئة بالسكان ومزدحمة بالناس يمشون كتفا بكتف فى أسواق مكتظة بالمترددين ، كما أن الدواب وحيوانات النقل من الخيول والبغال والحمير والأبقار والجواميس والغنم من ضأن وماعز تسرح فى الشوارع والأسواق وتسير قطعانا وجماعات . حقا إن فى مصر لحمير كثير يكاد المرء يظن أنها مستولية على البلد من كل الجوانب إذ يسمع من الحمارين أصواتا ترتفع وتقول ، ظهرك جنبك ، وجهك ، يمينك ، يسارك . . . . حتى أن بعض الحمارين الأشقياء حين مرورهم بالشوارع المزدحمة يتعمدون دوس البلهاء والمعتوهين من الأتراك . وأول مقام موسيقى تسمعه فى مصر صباحا هو نهيق الحمير فى مقام «السيكة» لأن حمارا واحداً إذا نهق فى اصطبل من الاصطبلات نهقت جميع الحمير فى البلد ويتردد صداها فى جوانبها فيخيل إليك أن يوم القيامة قد حان ، وأن أشراط الساعة قد ظهرت وخرج الدجال وقام الحشر والنشر . فتنطبق على الموقف والحال الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ وما ذلك إلا لأن أعيان مصر وأشرافها ونساءها يركبون الحمير الكثيرة ، ولهم فى ذلك مهارة حيث يقطعون المسافات الشاسعة بين أحياء المدينة من الأزبكية والصالحية ومصر القديمة وبولاق وقايتباى ، وهم ينادون ظهرك ظهرك ويعدون كأنهم يتسابقون . فليس من العار

والعيب عندهم أن يركبوا حميرا مخضوبة بالحناء عليها أطقم محلاة بالفضة وعباءات من المخمل . كأن الحمير فى مصر زوارق ومراكب وغيرها من وسائل النقل فى البلاد الأخرى . لذلك يوجد فيها عدد كبير من الحمير حتى ليقال أنه كان لعلى بك الجرجاوى أربعون ألف حمار يستخدمها فى نقل الغلال بأجرة قدرها عشر بارات يوميا للحمار الواحد . كما أن المشهور فى مصر والثابت أن رضوان بك أمير الحاج ، كان له أربعون ألف جمل . ولا تزال جمال كثيرة وحمير لا تعد ولا تحصى يستخدمها السقاءون فى مصر فى الشوارع بحيث لا يستطيع المرء أن يمر أو يسير فى الشوارع بسهولة وسلام من كثرتها . كما أن لمصر أعيادا كثيرة جدا . فلها كل عام اثنا عشر عيدا نذكرها فى محلها إن شاء الله تحصل فيها ضجة عظيمة وازدحام زائد من احتشاد الناس وكثرة الجمالين والحمارين والمترددين الوافدين من كل الجهات . فهذه الأعياد من ضمن ما اشتهرت بها مصر من الطنطنة ومظاهر الفرح ومعالم الزينة التى تستحق الرؤية والمشاهدة . والسلام .

الفصل الثامن عشر

فى بيان الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليمى ورواتبهم اليومية

١- أول طائفة من هؤلاء الجند هم «العزبان» الذين كانوا فى الأصل ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثةعشر نفرًاحين فتح السلطان سليم مصرحيث تشرفوا بلثم تراب حوافر جواد السلطان رافعين له الطاعة والخضوع التام فشملهم بعطفه السامى ودعا لهم بالخير والبركة بأن أبقى عليهم رواتبهم ووظائفهم كما كانت سابقًا من مأكول ومشروب وملبوس ، لأنهم منحدرون من ذرية سيدنا عمر وهم جنده الأولون الذين صحبوا عمرو بن العاص حينما غزامصر ولذلك كانوا يطيعون ولاة الأمور منفذين لمشيئتهم .

٢- طائفة المتفرقة الذين يبلغون من العدد ألفين وسبعمائة وسبعة وأربعين .

٣- طائفة جاويشية مصر ويبلغ عددهم ألفًا وأربعمائة وتسعة وأربعين .

٤- طائفة حملة البنادق ويبلغ عددهم ألفًا وثمانية وثمانين .

٥- المتطوعون وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون نفرًا .

٦- طائفة مستحفظان مصر ، يبلغ عددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وثلاثين وهم مائة وثمانية وثلاثون بلوكًا .

٧- جنود «المتفرقة» من طائفة مستحفظى مصر ، بلوكها واحد مؤلف من مائة جندى .

٨- جنود المدفعية عشرة بلوكات . . . . . نفراً .

٩- عربجية المدافع بلوك واحد عدد أنفاره الكاملة مائة رجل .

١٠- جنود الخزينة بلوك واحد والأنفار كاملة مائتان .

١١- جنود الملازمين من بلوك واحد . . . . . نفرًا .

١٢- متقاعدو القلعة بلوك واحد ومائتا نفر .

١٣- جنود الفرقة المدرعة المصرية ، البلوك . . . .الأنفار .

١٤- صناع الخراطيش بلوك واحد . . . .نفرا .

١٥- فرقة موسيقى القلعة بلوك واحد عدد أنفاره خمسون رجلاً .

١٦- جنود چراكسة مصر عددهم ألف ومائة .

١٧- عزبان بندر السويس وعددهم مائة وخمسة وستون .

هكذا نظم القانون السليمى حامية مصر من الجنود والعساكر . واليوم يبلغ عددها عشرين ألفًا وخمسة وعشرين نفرًا .

وأما نحن فنذكر ما رأيناه فى أيامنا فنقول أن السلطان سليمان خان حينما عين إبراهيم باشا وزيرًا عين معه وكيل أغا الإنكشارية باستانبول رئيسًا لانكشارية مصر برتبة «أميرسنجق» للمرة الأولى . وأسكن٤٢ أورطة من الانكشارية فى حصن بجوار الشيخ سارى بقلعة الجبل التى بناها صلاح الدين ، ولاتزال غرفهم قائمة حتى اليوم سوى أن بعضها معطل لاتخاذ الأغوات الذين كانوا يقيمون بها منازل أخرى ، وهم ضباط عظام لكل منهم مائة تابع . حيث يجلسون فى الديوان السلطانى مع البكوات وسائر أغوات البلوكات السبعة متسربلين بحللهم وخلعهم من الكساوى التشريفية فلرئيسهم مقام معلوم فى الديوان مع أنه يجلس بعد جميع الأغوات . وبعد أغا الانكشارية يأتى فى الحكم والنفوذ كتخدا الانكشارية وليس له مكان فى الديوان ولكن فى بابه تركزت السلطة الفعلية من حيث أمور الضبط والربط والقبض والبسط . فهو يضع على رأسه عمامة قلاوية قصيرة ويتنعل بنعل حمراء متسربلاً بفراء سمورى على قفطان من الأطلس .

ويليه فى السلطة الباشجاويش وهو يرتدى فراجية على قفطان أطلس ويضع على رأسه عمامة قلاوية ويلبس خفافًا وأحذية حمر اللون وله مقام خاص فى الديوان ، كأنه رئيس محضرى الباشا المندوب من قبل البلوك . ثم يأتى مقام صاحب بيت المال الذى يلبس الفرجية السادة وقفطانًا من الأطلس والعمامة القلاوية والخف الأحمر . وأما جاويشية الأورته والجاويش الصغير وجاويش الآلاى وسراج الأغا والكتخدا ، فإنهم جميعًا يشدون أوساطهم بأحزمةعلى رداء أسود ويضعون على رؤوسهم عمائم شبيهة بالقلاوية ويلبسون خفافًا حمرا وليس لهم حمل السكاكين . وما أن يعين أحدهم للنظر فى شئون بيت المال حتى يخلع رداؤه الأسود ويلبس فراجية من الجوخ .

هذا ويقوم هؤلاء الانكشارية وغيرهم من طوائف الجند باحتفال عظيم لا نظيرله فى البلاد الأخرى . وذلك حتى قدوم باشا جديد إلى مصر أو سفره منها مستورًا (غير مفضوح) أو استقبال أمير حج يأتى إلى البركة بصحبة الحجاج وحين توديعه كذلك .

الفصل التاسع عشر
فى ذكر الموكب الرسمى بمصر

حينما يصل الباشا الوالى إلى مصر يخف أهاليها لاستقبال وزيرهم بكل حفاوة وتعظيم فى المكان المسمى بالعادلية حيث يرسل منها الباشا أولاً عساكره وجنوده وأثقالهم إلى المدينة فيذهب كل واحد إلى منزله ليغير ملابسه ويلبس ملابس نظيفة ثم يرجع إلى طابوره وآلاية . ويدخل أولاً رئيس الشرطة (الصوباشى) بثلاثمائة من قوّاسيه من باب النصر ومعه خمسون من الزبانية قساة القلوب ، فيقومون بإفساح الطريق وإخلائه من الناس ثم يسير سعاة البريد المرافقون للباشا الوالى جنبًا إلى جنب راكبين ويعقبهم موكب المتطوعين بأعلامهم المختلفة وأقوادهم ذات الألوان النمرية وأثوابهم وتيجانهم السمورية ، ومعهم صبيانهم يسيرون اثنين اثنين ، ويتبعهم خدم المائدة والخزنة (الكيلارجية) راكبين ، ويسير بعدهم فراشو الخيم والسراجون ، ثم موكب المتفرقة المدججين بالسلاح والرماح الثقيلة ومعهم صبيانهم . ثم يأتى موكب «واجب الرعاية» يسيرون مدججين بالأسلحة والعدد وبهم تنتهى مواكب جنود الباشا وأتباعهم . ويسير بعدهم موكب جاويشية مصر بملابسهم السمورية وبخوزاتهم المقصبة المزينة بالطرر على خيول مطهمة حاملين دبابيس من الفضة الخالصة ، وعلى خيولهم التجافيف وطرر متخذة من ذيل فرس البحر وجلّ فضى . ثم يمر موكب المتطوعين مستغرقين فى المقصبات ، يسيرون تحت قيادة ضباطهم على نقر الكوسات حاملين رماحًا طويلة عليها أعلام حمر ومعهم صبيانهم من حملة الصاجات (جفته كوچكلر) . ويمر بعدهم فريق من جنود حملة البنادق من الأسلحة النارية وهم شبان من الشجعان يسيرون فى صفوف منظمة على جياد أصيلة ، ضاربين الطبول ويمر بعد ذلك جنود المتفرقة وهم أغوات الركاب مزينين بحلل فاخرة ، يسيرون على نقرات الكوسات ، أمامهم الخيول الدهم وخلفهم صبيانهم لابسين الدروع والمغافر ، ومعهم أغوات البلوك ، ويسير أغا الانكشارية وأغا العزب مع سعاتهم اللابسين أثوابا سودًا . ثم يأتى موكب البكوات الجراكسة فهم يسيرون بملابس فاخرة من المدربيات السمورية ممتطين الخيول المطهمة يسيرون مثنى مثنى ووراء كل واحد منهم يسير أربعون أو خمسون من غلمانهم اللابسين حللاً من القطيفة الفاخرة ، بيد أنهم لا يملكون كوسات . ثم يأتى موكب البكوات الذين فى رتبة لواء ،

وهؤلاء يسيرون بملابسهم الفاخرة وعمائمهم المسترسلة ، ووراءهم سبعون أو ثمانون من الأغوات الداخلية والخارجية بملابسهم النظيفة الخاصة ، وشطارهم الذين يمشون مثنى مثنى ، ولكن ليست معهم الفرقة الموسيقية ، ويسير كل بك مع آخر جنبًا لجنب بعظمة ووقار .

ثم يأتى موكب المشاة العزب (عزبان) وهم غزاة شجعان مسلحون تسليحًا كاملاً بالبنادق ويلبسون جلود النمور تتقدمهم أعلامهم وراياتهم وعلى رؤوسهم اللباد المزين بالقصب . وأما المحاربون القدماء فيلفون العمائم على الطرابيش ، وأما ضباط فرقتهم فيشدون الحزام على روائهم الأسود لأن الأصول المتبعة أن يترقى أنفارهم إلى الفرسان وضباطهم إلى أغوية الانكشارية أو كتخدا الجاويشية أو بكوية مصر ويسير وكيلهم وباشكاتبهم وباشجاويشهم فى هذا الحفل جنبًا إلى جنب راكبين .

وهم اثنان وسبعون بلوكًا من أيام سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه! وينقسمون إلى ثمانية ٨ چورجية ويطلق على كل منهم لقب (رئيس) حيث ينقسمون أيضًا إلى اثنين وسبعين أوضة بكل أوضة رئيس يقال له (أوضه باشى) ، وهؤلاء الأوضه باشية ليسوا ممنوعين من الزواج ، ولا يبلغون هذه الرتبة إلا بعد أن يبلوا بلاء حسنًا فى الأسفار والحروب ويقدُموا فى الخدمة ، وهم جميعًا متزوجون . ويلبس باشجاويشهم وجاويش آلاى الأورطة والجاويش الصغير والأغا وجوقدار الكتخدا كلهم مثل جاويشية الانكشارية الرداء الأسود والعمائم المسترسلة ويسيرون مشاة . فإن صار أحدهم من رجال بيت المال يلبس الفرجية ويطرح الرداء الأسود ويمتطى الجواد الأصيل . وجميع الچوربجية يركبون الخيول الأصيلة ويسيرون مع كتخداتهم المتقاعدين فى الموكب ، وليس لهم كوسات أو طبول ، إلا أنهم يذكرون اسم عمر رضى الله عنه فى كل مائة خطوة يصدر من أعماق قلوبهم ، فيملأون القاهرة بأصوات الله ، الله المدوية ، لأنهم جماعة طيبة مباركة يبلغ عددهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر جنديًا من حملة البنادق الطويلة ، مقامهم بباب العزب داخل القلعة وهو مكان رحب عُمَرىُ المقام وغرفهم مطلة على ساحة قراميدان الفسيحة وهى تتألف من اثنين وسبعين بيتًا خطابيًا .

وبعد مرور المذكورين بأدب ووقار تظهر أعلام موكب الانكشارية ثم مشاة مستحفظى الجيس المصرى ، يسير فى الطليعة شبانهم الصغار اثنين اثنين حاملين

بنادق مناسبة لحالتهم تحت الأعلام ، ويتبعهم رجالهم الضخام (بالايان)[١] ويسير بعدهم طوال الأجسام ويتبعهم المحاربون القدماء مدججين بالسلاح وقد ارتدوا جميعًا أردية حمراء وحملوا بنادق مرصعة بجواهر زنتها أربعون أو خمسون درهمًا ، وعلى رءوسهم اللباد وعلى أكتافهم جلود النمر ، وبأرجلهم أحذية يمنية حمراء . ويسير فى وسط فرقتهم ستة من ضباطهم وبأرديتهم السود وأسكفاتهم وهم ينظمون الموكب . ويمر بعدهم شيوخهم ذوو اللحى التى خطها الشيب فى جلود النمور . ويتبعهم «أوضباشيه» البلوكات المائة والثمانية والثلاثون وشيوخهم ، ونحو ألفين من شيوخ المشاة ذوى الجلود النمرية والتروس المذهبة والقاووق اللبدى . ويمر بعدهم زهاء سبعين أو ثمانين من المتقاعدين من رجال الكتخدائية والباشجاويشية والسردارية على خيول أصيلة يتبعهم نحوخمسين أغا ذوى خدم ، إلا أنهم لا يلبسون سراويل مصرية حمراء بل يلبسون الملابس الخاصة بالفرسان (سباهية) والمتفرقة والجاويشية وهذه الطائفة أيضًا من الانكشارية تسير بدون موسيقى وكوس ، ولكنهم يكبرون من وقت لآخر تكبيرات محمدية ، ويسير كتخداهم وأفندى الانكشارية وإمام الفرقة وسائر كتبتهم جنبًا إلى جنب راكبين ، وهم أيضًا جنود عظام ، يبلغ عددهم سبعة آلاف ومائتين وثمانية وثلاثين نفرًا . وليس لدى آل عثمان جيش مزين مثله ، ولأوضباشيهم حق الزواج ، فلذا هم جميعًا متزوجون . ومن أراد منهم التقدم والرقى أكثر من الاشتراك فى الحروب والأسفار حتى يتقدم فى السن فينقل إلى سلك لابسى الأردية السود إن فيه استعداد وكفاية لذلك فيعين فى وظيفة الكتخدا التى يحصل له منها ألف كيس مصرى من المال فى العام . وإذا تم مرور هؤلاء ظهر موكب ملازمى الانكشارية . وهؤلاء أيضًا صنف من الجيش الانكشارى إلا أنهم يضعون على رءوسهم اسكفات مزينة بطرفين من ريش مالك الحزين كأنهم الصقالب Slivaques الذين يمشون بجانبى ركاب السلطان . وإذا انتهى مرورهم ظهر خلفهم أعلام الباشا المصنوعة من ذيل الفرس وحجابه ورؤساء بلوك الحجاب ونحو سبعين أو ثمانين من جنود اللوند[٢] المسلحين ومعهم رئيس يهيئ المنازل فى السفر ورئيس المؤذنين . ثم يمر رئيس حجابى الباشا الوالى من خمسة عشر أو عشرين من غلمانه المزينين . ويسير بعدهم تسعة من أقواد فيل النوبة الباشا مزينة بعدد مطعمة بالجواهر يقود كل واحد منها

---

(١) جمع بالاى بالفارسية أى الطويل أو العالى . (د . عزام) .

(٢) لوند Levend = عساكر البحرية العثمانية والكلمة من أصل طليانى . (د . السعيد) .

سائس ذو مجوزة راكبًا على جواد أصيل . ويسير بجانبهم ملازمو الانكشارية المار ذكرهم ، ثم رئيس التراجمة ورئيس المتفرقة جنبًا إلى جنب وهم ركوب ويمر بعد ذلك كتخدا الجاويشية والروزنانجي .

ثم يمر شطار الباشا الوالي العشرة غارقين في المقصبات وعلى رءوسهم خوذات ذهبية . وبعد هؤلاء جميعا يمر الباشا بكسوته السمورية وسراويله المخملية متقلدا سيفا مذهبا على حزام مرصع ، وقد وضع على عمامته طرتين سلطانيتين ممتطيا جواده الأصيل ويسير بجانبيه حملة البنادق وسقاءو القافلة ، وخلفه سلحداره وجوقَدار لابسين على رأسيهما «أسكفه» حمراء . ويسير بعْدهما مدير مكتب الباشا والخازن وعشرون أغا من خواص الباشا ذوى الرتب ومن مائتين إلى ثلاثمائة أغا آخرين لابسى الدروع والجواشن مستغرقين في السلاح ، ومائتا فراش يمرون مثنى مثنى حاملين البنادق ويسير بعدهم إمام الباشا الهمام وأفندى ديوانه الشهير وأتباعه وشعار علم رسول الله الأخضر تحفه من جانبيه أعلام خضر وتسعة أزواج من الطبول يتبعها سراجو أغوات الخاصة والفراشون والسقاءون .

وإذا بلغ الباشا السراى بهذا الموكب العظيم أطلقت مدافع القلعة مائتى طلقة وعزفت موسيقاها أنغاما شجية إيذانا بالفرح والسرور ، ثم أنعم الباشا على الجنود بخمسة أكياس هدية لاحتفائهم به ، ثم يمد سماط محمدى عظيم يتناول الطعام منه جميع الموجودين ، حتى إذا فرغوا من الطعام رفعوا أيديهم إلى السماء داعين الله وشاكرين نِعمه . ثم ينعقد الديوان حسب القانون السليمى فيتلى فيه الخط الشريف «الأمر» الحامل لإمضاء السلطان . وينفذ هذا الأمر في هذا الديوان وإلا فهناك حساب آخر .

وبمصر حاكم آخر هو سردار حرس الباشا يقدم عادة من استانبول ، ويترقى إلى منصب أغا الانكشارية بعد أن كان چاويشا لهم ، فيقوم بقبض أموال الحرس من بيت المال وهو الذى يقوم بتأديب المذنب منهم ، ولكن ليس من القانون اشتراكه في المواكب وحضوره إلى الديوان ، فلا يحضر إلا إذا اقتضى الأمر حضوره وطلب إليه الباشا ذلك فحينئذ تذيع في مصر سمعة ذلك الحرس ويشتهر .

وهناك حاكم آخر وهو رئيس الشرطة (صوباشى) الذى له أن يقتل بلا سؤال من يجده في حالة مريبة وفي يده من الأوامر ما يخول له ذلك . وبيد رئيس الشرطة أمن البلد ، فعلى باب إدارته فرقة من الجيش الانكشارى تقوم مقام العسس .

ولا يجوز فى القاهرة لبس السروال الأحمر لغير الچراكسة ، وحملة البنادق والمتطوعين والمتفرقة والچاوشية . وإن فعل ذلك أحد سواهم عوقب . وأما غيرهم من المصريين والانكشارية والعزبان فلهم أن يلبسوا أردية من أنواع الجوخ «الحرَّانى» ويلبسونه على رءوسهم عمائم وعصائب ويتحزموا بأحزمة مختَّمة ويحملوا سكينا كسكين الطهاة لأن للانشكارية والعزبان مكانة فى مصر الآن . فقد رأيت كثيرين من أعيان المتفرقة والفرسان انفصلوا من فرقهم للالتحاق بالانكشارية والعزب . وأما محافظة قلعة القاهرة وجنود حصونها وأبراجها ورجال السجن العام والمتقاعدون فلا يسمح لهم بالخروج من القلعة لأنهم مكلفون دائما بحراسة الأموال المقدرة بألوف الأكياس . وكذا رئيس معمل البارود فإن له معملا فى ميدان السراى حيث يظل نصف رجاله فى ميدان السراى والنصف الآخر فى القلعة الداخلية حارسين مخازن البارود ، وبما أنهم محبوسون دائما فمخصصاتهم كبيرة . وفرقة موسيقى القلعة أيضا لا تستطيع مغادرة القلعة فإن رجال هذه الفرقة يعزفون بعد العشاء من كل ليلة على ثمانية أطقم من الأدوات فواصل يعجز رئيس الفرقة الموسقية الخاصة بوالى مصر عن الإتيان بمثلها . لأن أفراد تلك الفرقة قد تخلف كل منهم من وزير من الوزراء السابقين وله راتب ضخم . وليس هذا فحسب فإنهم يعزفون على آلاتهم فواصل موسيقية شجية من مقام «العشاق» قبل الفجر بساعتين تدمى قلوب العشاق . ومن العجب أنهم متفقون فى هذا مع مؤذنى القاهرة فى الوقت بحيث لا ينتهى المؤذنون من التسبيح والأذان من هذا المقام نفسه على مآذن جوامع القاهرة حتى تشرع فرقة القلعة فى العزف وتستمر مدة طويلة .

فى بيان مواجب (رواتب) الطوائف العسكرية التى مر ذكرها فى كل شهر وفى كل ثلاثة أشهر

يقضى القانون السليمى بصرف مواجب الانكشارية والعزب (عزبان) والمدفعيين والقائمين بأحوال الذخيرة والعربجية والموسيقيين (مهتران) فى كل ثلاثة أشهر . وأما المتفرقة والچاويشية وحملة البنادق (تفنكجيه) والمتطوعين والچراكسة و«الكشيدية» والأيتام والجوالية ففى كل شهر لهم مخصص (علوفه) . والآن نبين مقدار المواجب واليوميات فى عام واحد بالعملة التركية المسماة (أقچه) والكيس .

الأول المتفرقة هم بلوك واحد عدد أنفاره ٢٧٤٣ تبلغ يوميتهم ٤٤٦٢٦ (پاره) وتبلغ مع الإخراجات ٧٨٩٨١٧٦ پاره . والإخراجات استحقاق أفراد هذه الفرقة الذين يكلفون بمهمات لدى الكاشفين خارج القاهرة ، أو بالالتحاق بحاميات القلاع حيث ترسل إليهم مخصصاتهم (علوفة) . والباقى منها ٤٤١ و٧٥٣ و٧ (پاره) . والمجموع السنوى المستحق مع التفاوت يبلغ ٣٠٨ أكياس . ويكون الباقى ٥٤٤١ (پاره) وأما التفاوت فيبلغ ١٩٢٥٣٥ پاره . والتفاوت هو ما يضاف إلى إيراد الخزينة العامة من المبالغ المتحصلة لدى صرف المواجب والمخصصات بواقع «پاره» عن كل أربعين «پاره» .

والثانى الجاويشية (دفتر) وعددهم ١٤٤٩ نفرا يوميتهم ٢٥٠٥٥ پاره ، وإخراجاتهم ٤,٤٢٤,٧٢٠ پاره وبواقيهم ٤,٢٢٦,٥٥٨ [پاره] والمجموع ١٧٣ كيسا والكسور ١٥٥٧ پاره ، والتفاوت ١٠٨,١٦٢ [پاره] .

والثالث حملة البنادق (تفنكجيه) وعددهم ١٠٨٧ نفرا يوميتهم ٩٧٠٩ پاره تبلغ مع إخراجاتهم ١,٧١٨,٤٨٨ پاره ، وبواقيهم ١,٦٧٦,٦٦٥ پاره . والمجموع ٢٧ كيسا ، والكسور ١٦٦٥ پاره ، والتفاوت ٤١٨٢٣ پاره .

والرابع المستطوعون وعددهم ١٣٦٥ نفرا ١٢٥٧٥ پاره تبلغ مع الإخراجات ٢,٢٢٥,٧٧٢ پاره وبواقيهم فى اليوم ٩٩٤٠ پاره . وفى السنة ١,٧٥٩,٤٦٤ پاره ، وبواقيهم ١,٧١٦,٥٥١ پاره والمجموع ٢٨ كيسا والكسور ١٦٥٥١ پاره والتفاوت ٤٢٩١٢ پاره . (يظهر أن هذا سقط لأن الحساب اضطرب وتكرر) .

والخامس دفتر العزب القدامى (عزبان عقيق) وعددهم ٣٢١٢ نفرا يوميتهم ١٣٨٤٨ پاره تبلغ مع الإخراجات ٢,٤٥٠,٨٣٦ پاره ، وبواقيهم ٢,٣٩١,٠٦١ پاره والمجموع ٩٥ كيسا ، والكسور ١٦٠٦١ پاره .

والسادس دفتر عزب بندر السويس وعددهم ١٢٥ نفرا يوميتهم ٢٦٧ پاره تبلغ فى العام ٤٧٤٢٦ پاره ، والبواقى ٤٦١٨٠ پاره ، والكسور ٢١٨٨٠ پاره والتفاوت ١١٥٦ پاره .

والسابع دفتر المستحفظان وعددهم ٧٢٣٨ نفرا يوميتهم ٦٣٧١٦ پاره . (فى يوم ١١٢٧٨) والبواقى ١١,٠٠٢,٧٩٠ پاره والمجموع ٤٤٠ كيسا والكسور ٢٧٩٠ پاره والتفاوت ٢٧٥٠٦٩ پاره . وبلوكات فرقة المستحفظان هذه ١٣٨ بلوكا . وهناك بلوك واحد من متفرقة المستحفظان يبلغ عدد أفراده مائة نفر .

والثامن مدفعية القلعة وهى بلوك واحد عدد أنفاره ٥٥٠ نفرا .

والتاسع عربجية المدافع وهم يكونون بلوكا واحدا يبلغ عدد أفراده ١٠٠٠ رجل .

والعاشر عساكر قلعة الخزينة بلوك واحد مؤلف من ٢٠٠ رجل .

والحادى عشر متقاعد والقلعة بلوك واحد عدد أنفاره ٢٥ نفرا .

والثانى عشر فرقة الموسيقى التى بالقلعة (مهتران قلعة) الداخلية بلوك واحد عدد أنفاره ٦٠ نفرا .

والثالث عشر عمال الذخيرة وهم يكونون بلوكا واحدا .

والفرق التى وردت أسماؤها بعد فرقة «المستحفظان» يأخذ أفرادها مواجبهم مع أفراد هذه الفرقة .

تلكم البلوكات السبعة من جنود الإسلام الذين تبلغ مرتباتهم السنوية جملة ١٢٤ كيسا و٢٢١٦٧ پاره والسلام .

الفصل العشرون
فى بيان حكم قاضى مصر وحكومته وعوائده
وفوائده ونياباته والقضاة الذين بإيالة مصر

أقول قبل كل شيء أنه حينما فتح السلطان سليم خان مصر ، كان ابن كمال باشا أحمد أفندى قاضى عسكر الروم فى الجيش العثمانى ، فأنعم عليه السلطان بمولوية[1] مصر لأول مرة حيث جعله حاكما مستقلا بها . كما أنه كلف كلا من الغزالى (لعله جانبردى الغزالى) وابن كمال باشا هذا بتحرير أراضى مصر . فعلى هذا التحرير والمسح يبلغ إيراد مولوية مصر على وجه العدالة والحق مائتى كيس من المال ، فقاضى مصر يصرف شئونها القضائية بمائة من العمال والخدم ، وفى ديوانه قضاة من المذاهب الأربعة وهناك أيضًا عدد يبلغ المائة من المسجلين والمقيدين والشهود ومحضرى المحكمة وخدمها .

وفي معسكر إنكشارية مصر جهاز من الچورباجية وظيفته المساعدة فى أمور الشرع الشريف فى الأمور العائدة إليه فيطلق على هؤلاء الانكشارية لقب (ملازمين) ويلبس كل منهم ثوبا أسود وأسكفة مقصَّبة .

وهناك رئيس المترجمين وهو مصرى ، وكذا أمين السجلات ، حيث يجلس فى قبة حجرية بها سجلات محمدية قديمة من عهد سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه وهى مكومة مثل الجبال وخاضعة لحكم أمين السجلات هذا .

وهناك أيضًا مدير مكتب القاضى (كتخدا) وهو واسطة الرشوة ويد خفية لها .

وهناك كذلك نائب الباب ونائب المدينة «ومحضرباشى» وهو رجل مسن خبير بالأمور وحامل رتبة الرءوس العلمية من استانبول ومن كبار حجاب القصر العالى . وتحت يده ثلاثمائة محضر ، وهو يحصل خمسة أكياس من المال فى العام .

وحينما ينعقد الديوان السلطانى ، وهو يعقد خمس مرات فى الأسبوع يحضر إليه كل من المحضرباشى لابسا على رأسه أسكفا مقصبا وكتخدا القاضى لابسا على رأسه

---

(١) المولوية : إدارة القضاء العالى والقاضى الحامل لرتبة مَولَى «مُلا» .

عمامة مسترسلة ويقعد معهما المحضرون ممسكين بأيديهم العصىّ وخلفهما الانكشارية بأثوابهم السود واسكفاتهم ، سائرين اثنين اثنين . ويأتى بعدهم القاضى واضعا على رأسه القاووق وبجانبه چوقَدار الانكشارية ووكيل السوق ونحو عشرين أو ثلاثين من مشاة السرَّاجين ، ويعقبهم رجال سجلات الديوان ، يسيرون حاملين أكياسهم الحمر إلى الديوان السلطانى ، وليس فى بلد آخر مثل هذا النظام فى موكب القضاة . ويطلق على كبير القضاة بمصر اسم قاضى العسكر افندى وقد أطلق هذا الاسم لأول مرة بها على ابن كمال باشا حين فتح السلطان سليم مصر ونصبه فيها على قضائها ، فلا يزال يطلق على قضاة مصر حتى الآن ، وهو مقيم فى قصر عظيم يقال أنه كان قديما قصرًا للمعز لدين الله الفاطمى القاهرى المغربى .

وفى ديوان قاضى العسكر قاض آخر يقوم بوظيفة القسام العسكرى من قبل قاضى عسكر الأناضول حيث يقيد جميع المخلفات العسكرية بإذن منه ، فيضبطها الباشا بموجب ذلك القيد ، ويقيم بديوان الباشا ليلا ونهارا مندوب من قبل القاضى ومعه محضرون وشهود لاحتمال حدوث حادث فى الديوان بعد العشاء يتطلب البت فيه حسب حكم الشرع الشريف .

ولقاضى العسكر أربع وعشرون نيابة بداخل القاهرة فى كل منها نائب تركى (رومى) وقضاة من المذاهب الأربعة وخدم لقاعاتها ، فأولى النيابات وأعظمها محكمة باب الخلق ثم محكمة المشهد الحسينى ، ومحكمة باب النصر ، ومحكمة باب . . . ومحكمة القيسونية والمحكمة الجديدة بميدان الرميلة ، ومحكمة الطولونية ، ومحكمة باب الشعرية ومحكمة درب الجماميز ، والمحكمة القديمة بسويقة الدلالين ، ومحكمة باب الحديد ، ومحكمة خارج السور ومحكمة بولاق ، ومحكمة مصر العتيقة .

والخلاصة أن حاصلات كل هذه المحاكم الأربع والعشرين تأتى كل أسبوع للقاضى أفندى . وهناك نائب آخر يسير مع المحتسب فى الأسواق للتفتيش والتفقد فقط دون الإجراء والتنفيذ ، فليس فى استطاعتهما تنفيذ التسعيرة السلطانية لأن الجميع تحت الحماية ، فلذا لا يمكنونهما من ذلك .

وهناك نيابات تسمى الضواحى كنيابات بلدة شبرا وبلدة البساتين وقايتباى .

فى بيان الأقضية التى فى حكم قاضى القاهرة في الإيالة المصرية

من الأقضية الستة أولا قضاء الغربية أعنى المحلة الكبرى التى هى المركز لها . حاصلها السنوى أربعون كيسا مصريا ، فهو قضاء معمور أنعم به مرات بصفة المولوية بمبلغ خمسمائة آقچة . ثم قضاء دمياط حاصله ثلاثون كيسا ، ثم قضاء رشيد حاصله ثلاثون كيسا وهو قضاء شريف . ثم قضاء الإسكندرية حاصله على وجه العدالة أربعون كيسا ، ثم قضاء المنصورة يحصَّل منه عشرون أو ثلاثون كيسا . ثم قضاء (منيتين) وهذا أيضًا يحصل منه خمسة وعشرون كيسا . ويطلق على هذه الأقضية فى إيالة مصر الأقضية الستة الأولى . وأنعم بهذه الأقضية مرات عديدة على سبيل المولوية نظير مبلغ خمسمائة آقچة . ثم قضاء المنوفية ثم قضاء البحيرة (البرلس) . ثم قضاء (فوقرة) ثم قضاء سنديون ثم قضاء محلة أبو على ، ثم قضاء أبيار ، ثم قضاء نهارية ثم قضاء محلة مرحوم ثم قضاء بلبيس ثم قضاء ميت غمر ، ثم قضاء زفتى الشرقية ثم قضاء سلمون ، ثم قضاء خنك ثم قضاء الجيزة الذى أنعم به على شيخ الاسلام البولوى مصطفى أفندى ، ثم قضاء الفيوم ثم قضاء بنى سويف ثم قضاء (تزمين) ثم قضاء البهنسا ثم قضاء الفشنة ثم قضاء ملوى ثم قضاء منفلوط ثم قضاء أسيوط ثم قضاء أبو تيج ثم قضاء طهطا ثم قضاء واقطعه؟ ثم قضاء أشمونين ثم قضاء صنبوط الذى يخص النبى عليه السلام ، وهو فى حكم السادات وعامر جدا . ثم قضاء الجزيرة ثم قضاء سوهاج ثم قضاء المنشية ثم قضاء الواحات ثم قضاء جرجا ثم قضاء فرشوط ثم قضاء بويط ثم قضاء إسنا ، فليس هناك فى الجانب الغربى سوى هذه الأقضية وما سواها من البلاد بسكانها السود حتى بلاد السودان . ثم تأتى البلاد الخالية التى فى الجانب الشرقى من النيل حيث تقع بلدة «صاى» فى منتهى حدود مصر . ثم قضاء إبريم ، ثم قضاء أسوان ، ثم قضاء قوص ، ثم قضاء قنا ، ثم قضاء إدفو ، ثم قضاء شرق إخميم ، ثم قضاء السويس .

تمّ سرد أسماء الأقضية الستة والسبعين فى إيالة مصر ، ما عدا بعض أقضية أخرى لم نذكرها لعدم شهرتها ، ويطلق عليها لفظ مضافات . وتوجه هذه الأقضية كلها من الأستانة العلية ببراءات سلطانية بمعرفة قاضى عسكر الأناضول الذى يتبعه القلم الخاص بأقضية مصر ، قلم مستقل لا يتدخل فى شئونه قضاة قط ، كما أنهم بدورهم لا

يتصرفون فى مناصب الأناضول والروملى ، بيد أن قواعد القانون السليمى أن قضاة مصر بعد أن يجتازوا مناصب ما يسمى الأقضية الستة الرئيسية (تخت باشى) وهى الغربية ودمياط وإسكندرية والمنصورة وأمثالها ، يجوز لهم الحصول على المولوليات فى الأناضول والروملى ، وبذلك يخلصون من مناصب مصر ، وإلا فأنهم مقيدون بها كل التقييد لا مفر لهم منها .

هذا وكانت الأصول تقضى بأن يكون فى مصر أربعة مشايخ للإسلام للمذاهب الأربعة ، فكان شيخ الإسلام الحنفى بمصر فى زماننا هو مصطفى أفندى المولوى الذى نفاه كوپريلى باشا إلى مصر لعدم افتائه بجواز قتل الغازى دلى حسين باشا سردار جزيرة إقريطش وقد خصص لهذا الشيخ حاصل إيراد قضاء الجيزة ، بيد أن أحدا لايحتاج إلى فتاواه ولا يقصده فى ذلك قط ، لأن الذى يحتاج لمثل هذه الأمور يذهب إلى الأزهر فيناول أحد علمائه بضع فلسات ويأخذ الفتوى كما يريد ويهوى ، وفى الوقت نفسه يحصل غريمه وخصمه على فتوى أخرى على قول ضعيف أو رواية مرجوحة ، وهكذا يحاول الخصمان تحقيق غاياتهما وأغراضهما بكل الوسائل ، فينتهى الأمر إلى أن يعملوا حسب القول المأثور (الصلح سيد الأحكام) ويضيع حق أحد الطرفين لا محالة ويرغم على قبول الصلح .

والحاصل أن إحقاق الحق فى مصر من أصعب الأمور بل أنه بعيد الاحتمال ، وذلك لأن إحدى الجهات لابد أن تتدخل فى الأمر بالشفاعة والرجاء أو الإيحاء والإشارة بكل إصرار وإلحاح ، وقد يحصل أن يتدخلوا فى الأمر والقضية مباشرة ويتسببوا فى صدور حكم ظالم وقرار جائر .

وفى مصر عشرون ألف عالم يتصدون للإفتاء ويخترعون مسائل غريبة وعويصة وقضايا عجيبة يتفننون في معالجتها ، ولا شك في أن مصر بلد عجيب غريب الأحوال والأطوار جدير بالمعرفة والاطلاع ، وله علماء وفضلاء كثيرون يشاركون فى علوم كثيرة وفنون عديدة وليس لحكمائه أمثال ونظراء فى الكون إذ هم فى غاية الذكاء والألمعية ، كما أن أطفال المصريين وشبانهم فى غاية النباهة والنجابة وسرعة الخاطر ، فلذا يوجد بمصر عدد كبير من حفاظ القرآن يبلغ عددهم سبعة وخمسين ألفا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب ، فتراهم منبثين فى الدكاكين ومفترشين الأرض فى قارعة الطريق ورءوس

الشوارع وعلى أبواب الحمامات ولا سيما فى ميدان الروملى . وفيهم حفاظ يجيدون التلاوة وهم محترفون لذلك .

وبالجملة فإن عدد العلماء والقضاة والمدرسين قد يبلغ مائة وأربعة وسبعين ألفا هذا ويكاد علماء الحديث والتفسير يختصون بمصر ، وكذا فيها أكثر من اثنى عشر ألفا من الأئمة والخطباء وأحد عشر ألفا من المشايخ الكرام وفى الجامع الأزهر وأروقته الكثيرة زهاء اثنى عشر ألفا من العلماء الذين فى أيديهم الكتب وفى رءوسهم المساويك[1] وها نحن نبين العلوم التى تدرس فى مدينة القاهرة .

١ - الحديث الشريف وكما ورد فى الأثر (العلم علمان الأول علم الأبدان والثانى علم الأديان) علم الطب ثم علم الفرائض ثم علم التفسير وعلم الفقه وعلم الحديث وعلم التوحيد والعلم اللدنى وعلم البيان وعلم الكلام وعلم الكمال وعلم الآداب وعلم الصرف وعلم النحو وعلم المنطق وعلم المعانى وعلم اللغات وعلم العروض وعلم الخط وعلم النجوم وعلم الجفر وعلم الكف وعلم السيمياء وعلم الكيمياء وعلم الهيئة وعلم الحكمة وعلم الزيج وعلم دانيال وعلم الفأل وعلم جر الأثقال وعلم الرمل وعلم الوفق وعلم الأسماء وعلم التسخير وعلم الدعوة وعلم الفلسفيات وعلم الأدوار وعلم الزايرجة وعلم الاصطرلاب وعلم الحرف وعلم الحروف وعلم النارنجات وعلم طى المكان وعلم الإخفاء وعلم التعبير وعلم السحر وعلم الفراسة كل هذا موجود ولكن الأدب مفقود .

بيان توزيع الخزائن السابق ذكرها على جميع جنود مصر وغيرهم من العلماء والخلفاء والداعين لله ، وكذا الخزائن الأخرى التى تبذل مصروفاتها من مصر ، وصورة الدفتر الإجمالى الهمايونى لجميع ما يحصله الكتخدا إبراهيم باشا بموجب الخط الشريف من الإيرادات وكيفية إيرادها إلى حصن الخزينة

كان سبب تأليف هذا الكتاب بيان الشئون الآتية وإيضاحها ، وهى أنه بالمجلس الشرعى المحمدى العالى الذى عقده حامى العاصمة اليوسفية القديمة بانى مبانى العدل وهادم أساس الظلم والفساد ، وحافظ معالم الإسلام . ناصر ضعفاء الأنام وحامى حمى الدين والدولة ماحى آثار الظلم والذلة ، آصف[1] المكرم والوزير الأكرم الكتخدا

(١) لا يعوّل على الأعداد التى يذكرها المؤلف فى هذا الموضوع . (د . عزام) .

إبراهيم باشا وفقه الله لما يرضاه ـ مع الأمراء المصريين ، وخاصة مقدم ركب الحاج والبيت العتيق أوزبك بك أمير الحج ومحمد بك النوفالى مقدم جيش الأمراء وحسن بك وقانصو بك ومصطفى بك ويوسف بك الذين شغلوا منصب الدفتردار سابقا ، ومحمد بك وعلى بك ومحمد بك الجندى وعبدالله بك وعمر بك من حكام جرجا السابقين . ومن أغوات الفرقة السبعة محمد أغا رئيس المتطوعين ومصطفى أغا رئيس الچراكسة ، ومصطفى أغا رئيس المستحفظان ، وجعفر أغا رئيس العزب ، وسليمان أغا كتخدا رؤساء خدم الديوان المصرى المحصلين ، ومصطفى أغا ترجمان الديوان العالى ، ومحمد أغا رئيس المتفرقة الخاصة بالديوان ، وجعفر أغا رئيس الجبجية[٢] وكتخدائية البلوكات السبعة والجاويشية .

ومن أرباب الأقلام المصرية إيواز بك مدير الدفترخانة المصرية ، وعبدالرحمن أفندى الروزنامجى وأحمد أفندى كاتبه الأول وعلى أفندى كاتبه الثانى ويوسف أفندى مدير الحسابات ، ومصطفى أفندى وصالح أفندي من خلفائه ، ومحمد أفندى مكّاس الشرقية مقاطعه جى وكاتباه على أفندى ومحمد أفندى وحسن أفندى مكّاس الغربية وكاتباه أحمد أفندى وإبراهيم أفندى ، ومحمد أفندى مكّاس المدينة وكاتباه شعبان أفندى ومحمد أفندى ومرتضى أفندى مكّاس الغلال وكاتباه مصطفى ومحمد أفندى . ورضوان أفندى مكاس مصرف الغلال وكاتباه فضلى أفندى ، والأفندية كتبة الجاويشية والمتفرقة والجوالة والانكشارية والعزب والمتطوعين وحملة البنادق ، وعلى أفندي وحسن أفندى كاتبا فرسان اليمين واليسار ، ورجب أفندي كاتب الجبجية وإبراهيم أفندى كاتب الأيتام ومصطفى أفندى البلطه جى كاتب الكشيدة (لعله قلم الشطب) والأفندى كاتب الجوالى ، وعثمان أفندى الملقب بكاتب الأرزاق ، وسليمان أفندى كاتب الانكشارية ، وقصارى القول أنه فى حضور جميع أرباب ديوان مصر وأعيانها كبارا وصغارا .

وأنه حينما ولى هذا الوزير المكرم أمر مصر من قبل السلطان الذي يمثل عدالة الله فى أرضه ، ثم عرض عليه حين وصوله إلى مصر مجمل الأراضى وسائر الأموال الناتجة

---

(١) آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام ويتمثل به الفرس والترك كثيرا فى تشبيه عظماء الرجال .
(٢) الجبجية صنف من العساكر المدرعة . (د . متولى) .

من الأقلام الواردة إلى الخزانة ، إذ قيدوها فى الدفاتر بندا بندا مصححا خاليا من الغلط والسهو وتبين أن الدفاتر المصرية تنطق بأنه نظرا لعدم كفاية الأموال المحصلة لنفقات الإدارة المصرية من جراء الثورات والاضطرابات المستمرة من عهد الوزراء السابقين حتى أيام الوزير الحالى ، وأن النفقات السنوية تزيد على الإيرادات السنوية ، مما جعل ما هو مقرر إرساله كل سنة إلى الآستانة العلية - ويبلغ ألفا ومائتى كيس مصرى - ينقص بمقدار أربعمائة وأربعين كيسا وسبعة عشر ألفا ومائة وثلاثا وخمسين پارة . ونقص المعتاد إرساله إلى خزائن القصور العامرة فى الآستانة حسبما هو محرر بها من الذخائر السلطانية وغيرها من اللوازم الضرورية ، مبلغ واحد وأربعين كيسا وثلاثة وعشرين ألفا ومائة وخمسا وثلاثين پارة بحيث لزم لإتمام الخزينة كل سنة مبلغ أربعمائة وأربعة وثمانين كيسا مصريا وخمسة آلاف ومائتين وثمان وثمانين پارة .

فلذا عمد الوزير المذكور (أسبغ الله تعالى نعمه عليه) إلى إعمال الفكر واتخاذ التدابير الصائبة لضبط جميع القرى والأراضى التى انحلت وخلت من أربابها فى زمنه السعيد ، وحصّل جميع الأموال الضائعة ، بحيث صارت المتحصلات وافية بالنفقات التى أنفقت فى عهده ، وأرسل الباقى بموجب الدفاتر المجددة فى الأقلام إلى الآستانة ، مشفوعا بتقارير وخلاصات عن أحوال البلد . وهكذا نال ثقة السلطان وصار موضع رجائه والتفاته كما أن الدفاتر والتقارير التى رفعت إلى السدة السنية اقترنت بالموافقة السلطانية ، وتوجت بالخط الشريف الهمايونى الذى كان مضمونه ما يأتى :

فليكن معلوما لديك حينما يبلغك خطنا الشريف أنه قد ورد إلى سدتنا السنية دفتر خزينة مصر وكتابها الخاص ، فألفينا الإيرادات والمصروفات قد نظمت وفقا لمصلحة الدين والدولة بشكل واضح إذ صحح ما بالإدارة من خلل وقضى على الاختلاسات والاضطرابات التى كانت قائمة فيما سبق كما يدل على ذلك ما أرسل إلى ركابنا السلطانى من الملخصات والكشوف ، وقد حاز كل ذلك الرضا والقبول ، أسعدك الله فى الدارين ، وجعلك خليقا بالتمتع بنعمنا وإذ قد عرضت على سدتنا السنية والتمست منا بعض وصايا ونصائح فى بعض الشئون فإنا نوصيك بالنصائح الهمايونية الآتية :

لا يجوز منذ اليوم البدء بمنح مخصصات سنوية ومواجب أوبدل جراية أو فدادين محلولة من خزينة محروسة مصر ، مهما كانت قليلة ، وإذا ورد الأمر الصادر من بابنا

الهمايونى بمنحها ، فيجب عدم قيده فى السجل المخصص لذلك مبينا فيه مخالفته للقانون وعرضه على أعتابنا .

وإن عزل وال من ولاة مصر فيجب على أمير اللواء المعين نائبا عن الوالى الجديد ، ومدير المال والروزنامَجى والمكّاس وسائر الكتبة الذين لهم صلة بشئون الخزينة وخدماتها أن يبادروا بمحاسبة ذلك الوالى المعزول بموجب السجلات على وجه الحق والعدل ، وألا يتدخل فى ذلك من لا دخل لهم فى هذه القضية ولا علاقة لهم بشئون الخزينة .

ولا يجوز إعطاء المحلولات التى تحدث في أثناء تلك النيابة عن الوالى لأحد من الطالبين ، ويجب حفظ الطلبات المقدمة من قبل إدارة الأيتام بإشغال تلك المحلولات وتوقيعها حتى يحضر الوالى الجديد . ولا يؤجل مال الإيراد السنوى بالترك والإهمال بل يعجل بتحصيله بدون تأخير أو إمهال . وإن كان فى مقاطعة أو قرية عاطلة ـ سواء أكانت قرية مال أو قرية غلال ـ ما يقتضى التنزيل من الإيراد ، فإن الباقى بعد تنزيل ما يقتضى تنزيله يبقى في الخزانة ولا تنقص بعد ذلك من الإيرادات حبة ولا دانق ، ما لم يوجد ما يقتضى ذلك أو يوجبه .

يجب على والى الولاية ومعه الدفتردار والروزنامَجى ومدير الحسابات ، فتح دفاتر حسابات الخزينة وأنبار يوسف فى شهر توت من كل عام وإخراج ما يخص الخزينة من الإجمالات الواردة بأمرى الهمايونى ، والقيام بمراجعة إيرادات الخزينة ومصاريفها وإعادتها إلى أماكنها إن وجدت الإيرادات متعادلة مع النفقات ، وإكمال الوالى ما فى الإيرادات من النقص بما يحصّل من المال من المحلولات ثم قيده بمعرفة الدفتردار فى السجلات كى يعلم ما بالخزانة من الزائد والناقص ثم تسليم ذلك الإجمال إلى البك أمين إرسالية مصر لتوصيله إلى الآستانة وتسليمه إلينا مع الخزينة .

ينبغى أن تنفذ المواد المبينة على وجهها المشروح وأن يعمل حكام الإيالة المصرية ومحكوموها بما فى أمرنا الصادر فى هذا الباب من الأحكام .

وأنت أيها الوزير ، عليك أن تقوم بتنفيذ المواد المذكورة على هذا المنوال فى عهد حكومتك وأن تتجنب العمل على خلاف ذلك مباشرة أو بالواسطة ، ولأجل أن يكون هذا

الفرمان دستور العمل مدى الدهر عليك بحفظه في حصن خزينة مصر وإبقائه فيه . وذلك لإخراجه كل سنة فى أول «توت» وإنعام النظر فيه حينما يعمل الإجمال من الحسابات وفحص الإيرادات والمصاريف حتى يمكن رفع الخلافات التى تكون قد ارتكبت فى أثناء السنة ، حسب النصائح والتنبيهات الهمايونية الواردة فى فرماننا الهمايونى هذا . وحيث أنه قد صار فرماننا الشريف الجارى بقضائنا السلطانى وأمرنا العالى الواجب الإتباع بتنفيذ كل ذلك بالدقة والاهتمام حسب ما سبق شرحه حتى إذا طبق ما يحصله أرباب الأقلام من الأموال على ما دوّن من المفردات في دفاتر الخزينة التى وضعت حديثا تبين أن بالأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الشرقية ١٠٨٠ كيسا مصريا ١٢٣٩٤ پارة ومن الأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الغربية ٢٦ كيسا ١٧٧٢٨ پارة .

والخلاصة أن مصير حاصلات أقلام مصر السبعة والسبعين الناتجة من الرسوم المفروضة على الطائر فى السماء والسابح فى الماء والسائر على الأرض أمانة هنا ، حيث تنطق دفاتر الروزنامّجى بأن النفقات تبلغ ٢٦٥٢ كيسا مصريا ٥٠٤٣ پارة . ومن هذا المبلغ ٥٦٤ كيسا و١٠٠٠٠ پارة من الكشوفية الكبيرة و٥٤٧ كيسا و٩٠٦٥ پارة من مقاطعة الثغر(١) و١٠٠ كيس و٥٥٤٨ پارة من أموال متفرقة محصّلة من قلم المحاسبة ، و٤٠ كيسا من المال يقدمه والى مصر مقطوعة سنوية لتكميل الخزينة عن القرى المحلولة تحت حلوان البلد ، و٣٣ كيسا و١٥٠٧٠ پارة أموال متحصلة من القرى التى أوقفتها الملكة شجرة الدر على كسوة الكعبة الشريفة و٥٥ كيسا و١٢٥٠٠ پارة فى السنة من المال الذى يتكون من عملية خصم «پارة» من كل واحدة وأربعين «پارة» المعتاد خصمها منذ القدم من عموم مصاريف ديوان مصر باسم «التفاوت» .

ويبلغ مقدار أموال العادات والرواتب والجرايات والمراعى والفداديين التي تصرف حسب ما كان معتادا قديما على الزوايا والأضرحة التى بمصر ، وعلى العلماء العظام والمشايخ الكرام ، وعلماء بندر الإسكندرية ، وكذا مال مراعى الأمراء المصريين والجنود المنصورين وأموال جميع العلماء مبلغا قدره ١٨١ كيسا و٥٠٠ پارة فى العام .

وبما أن أثمان ما يلزم شراؤه من الأشياء للجنود القائمين بخدمة الحجاج والكسوة وغيرهم من الذين يرأسون الأعمال ويقومون بها حسب الوارد فى دفاتر الروزنامة هو مبلغ

(١) الإيجار بالمقطوعية .

٣٣ كيسا و٢٤٢٤ پارة حيث يكون ذلك مع مجموع رواتب العلماء والأمراء وأثمان الخلع مبلغا قدره ٢٧٨١ كيسا و٢٤٨٤٤ پارة . ولما كان ما يرسل إلى الخزينة العامرة حسب المعتاد منذ عهد السلطان يبلغ مبلغا قدره ١٢٠٠ كيس مصرى فيكون المجموع الكلى ٣٩٨١ كيسا و٢٤٨٤٤ پارة سنويا حسب ما هو مقيد فى الدفاتر وبذلك صار الإيراد السنوى مساويا للمصروف السنوى .

ثم إن دفاتر الروزنامة والمقاطعات وأقلام المتفرقة تدل على أن الباشا الوزير قد حصل بفضل عنايته وسعيه من يوم توليه حتى تاريخ الكتاب مبلغا للخزينة العامرة قدره ٢٣ كيسا و٢٠٠٠٠ پارة زيادة على المبلغ الذى أرسله إلى الآستانة .

وحينما عرض الباشا الوالى هذا الأمر على الحاضرين فى المجلس طالبا آراءهم فيه أفادوا بما يأتى : إنه حسبما هو مقيد فى السجلات يبلغ مجموع ما ورد إلي الديوان المصرى من المال مبلغا قدره ٣٩٨١ كيسا و٢٤٨٤٤ پارة في العام ، وأن المصاريف السنوية حسب ما ورد فى دفاتر الروزنامة وسائر الأقاليم ، ومع ١٢٠٠ كيس من المال المعتاد إرساله إلى الآستانة يبلغ ٣٩٨١ كيسا و٢٤٨٤٤ پارة وعلى هذا يصير الإيراد السنوى معادلا للمصاريف السنوية .

وبعد اعتراف المذكورين وإقرارهم بذلك واقترانه بالأمر الهمايونى الكريم واتخاذ الدفاتر المذكورة دستورا للعمل ، بادر الدفتردار وسائر الموظفين إلى التعهد بأداء ما وقع من العجز والنقص من أموال الخزينة العامرة وسائر الإيرادات والمصروفات فى عهد القائمقامية ، وقام الوزير المكرم الذى صار مظهرا لنص الآية الكريمة ﴿**قال اجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم**﴾ بامتثال الأمر السلطانى وإطاعة ظل الله فى أرضه حسب قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ . وبما أنك أيها الوزير عليم بأن طاعة أولى الأمر وامتثال أوامر من يتولى أمور الدين والدولة فرض وواجب وأن مخالفة ذلك مخالفة للشرع فعليك من الآن فصاعدا باجتناب التغيير والتبديل والتحريف والتحويل فى الأمور المذكورة وإياك وعدم الانصياع لقبول فحوى الآية الكريمة ﴿**فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم**﴾ ، فى شأن صرف المرتبات والإنعامات الممنوحة من الأعتاب السلطانية السامية لفقراء الحرمين الشريفين والمشايخ الكبار . . . أموال محروسة مصر التى هى مطبخ أرزاق

العالم ومنبع معايش بنى آدم مدى الدهور والأزمان ، فإن تلك الرواتب والمخصصات صدقة لا تنقطع .

وبمجوب الفرمان العالى والأمر الملكى واتفاق آراء الوزير المكرم والأمراء الذين وردت أسماؤهم فى هذا الكتاب وسائر أمراء مصر المشهورين وأعيان الديوان وأغواته قد أودعت دفاتر إيرادات الأقلام المصرية ومصروفاتها مع هذا الكتاب برج الخزينة لكى تكون دستورا صالحا للعمل ، يرجع إليه لدى الحاجة . . . (إلى أن قال باللغة العربية) .

تحريرا فى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ١٠٨٢ اثنين وثمانين وألف بعد الهجرة الأحمدية صلى الله عليه وسلم .

صورة امضاء قاضى مصر (ملا) أعنى حضرة أبى المعالى اسحق زاده أفندى الشهير ما فيه من تكميل خزانة المال وختمها بخاتم التصديق من عدول الرجال . وقع عنه العبد المنكسر البال ، الفقير إلى ربه ذى الجلال ، أبو الفلاح محمد الصالح بن اسحق القاضى بمصر المحروسة دامت دار الأمالى والأمان ، عفى عنهما ربهما يوم الحساب والسؤال تم هذا المكتوب فى شهر شوال .

فى بيان اصطلاحات اللهجات الخاصة بأهالى مصر

أولا إن اصطلاحات وعبارات أعيان مصر أم الدنيا كثيرة مختلفة الأنواع واللهجات .
ثانيا إن أغلب أهالى مصر القاهرة يتألفون من قوم المماليك مثل الچراكسة الهاشمية والأباظة القرشية وسائر أقوام صَدْشَه والكرج والمكريل والداديان والأچيق باش والروس وغيرهم[1] . ولقد اقتضت الإرادة الإلهية الأزلية أن يفد هؤلاء إلى مصر بسبب من الأسباب فيباعوا فيها بيع الرقيق - كما بيع سيدنا يوسف - لأسرة كريمة مصرية فتربوا فى كنفها وتدرجوا فى مضمار المعارف والفنون والآداب والكمال حتى صاروا ذوى مكانة واعتبار ، وقد بلغ بهم السن إلى الشيخوخة واكتمال العمر ، وقد وصل عدد منهم إلى منصب عزيز مصر أيضًا . بيد أن مصر من البلاد العربية فكان على هؤلاء المماليك أن يدعوا لهجاتهم الخاصة الثلاث جانبا ويتخلوا عنها ويقبلوا على التكلم باللغة العربية ، ولكنهم اخترعوا لأنفسهم لهجة خاصة ذات عبارات تتألف من كلمات عربية وتركية

(١) صحة هذه الجملة : إن بعض أهالى مصر القاهرة . . . (د . متولى) .

خليطة يقال لها (ملمّع) لأن لغتى الأباظة والچركس لغتان ثقيلتان لا يسهل استعمالهما دائماً .

وهذه اللهجة المخترعة الخاصة تستعمل بين أهالى مصر فقط . ولا توجد فى بلاد تركية أخرى . وإليك بعض مفرداتها : (رغيف) الخبز ، (وحدّ الله) ، و(الله يستُر) ، وكقولهم (فطور ايده لِم) أعنى لنفطر . وقولهم (بيُرون غدْوَه أيده لِم) يعنى تفضلوا لنتغدى ، و(عشْوه إيدَه لِم) أعنى لنتعشى . وكقولهم (أبرارأولدى) أي دخلت أول ليلة من رمضان وكبّر لها ، وقولهم (سلام أولدى) يعنى كبُّر للفجر وأسفر الصباح . وقولهم (نيل وفا ايتدى) يعنى وفى النيل وفاض . و(غشيم) لمن كان غير متمرن وغير عارف بعمله ، و(دُويدار) يعنى كتخدا رئيس الشرطة و(جُنْدى) بمعنى أغا و(سجّان) معناه التركى (زندانجى) . ويطلقون لفظ (موقّع) على كاتب الديوان ، و(عرفات) العارف والخبير بأصول الديوان وقواعده . و(فرّاش) الذى يكنس البيوت والمساكن و(زبّال) كناس الشوارع ، و(حمار) على صاحب الحمير و(جمال) على صاحب الجمال و(طباخ) على الأشجى و(كاشف) بمعنى الحاكم و(والى) بمعنى رئيس الشرطة ، و(حاجب) ، و(قوّاس) الخادم الذى يحمل القوس . و(مقدّم) هو الذى يسير أمام الحكام و(نايب غيبه) هو الذى يتصدى للقيام بأمور الواردين من الخارج . و(قِلجْدار) الذى يحمل السيف أمام الحكام . و(روشْنبا) أعنى صاحب النوبة ورئيس النواب وهى لغة صحيحة ، و(ركابدار) يعنى صحاب ركائب الحكام ومن يسير فى ركابهم ، و(مسودّة) الذى يخدم على السماط والمائدة و(أستدار) الجاشنكرية (رئيس الذواقة) ، (حاصل باشى) الموكل على الطهاة و(حاصل) مخزن الكيلا والمؤن و(رشيد) حاكم القرية و(شيخ البلد) حاكم الفلاحين فى القرى . و(فلاح) هو الذى يحرث الأرض و(غفير) بمعنى الحارس و(تخفير) الزراعة والفلاحة . و(عاطل) القرية التى لا حاصل لها ولا إيراد . وكقولهم (رَى اولمشدر) يعنى القرية المروية والمسقية ، و(شراقى) القرية غير المسقية . وقولهم (مساحه اولمشدر) يعنى القرية المشغولة الممسوحة . وكقولهم (كَفْردن فيض كلدى) يعنى جاء المال والقبض من القرية . و(شومنه) يعنى أنبار ومخزن القمح . و(جَرّافه) الصندوق الذي يوضع به التراب وتجره الثيران . و(نورج) الذى يهرس به الغلال فى الجرن و(جرن) هو بيدر القمح و(غلال) مجموع الحبوب من قمح وشعير وباقلاء وفول[1] و(حنطة) و(قمح) بمعنى واحد و(عليق)

(١) الباقلاء هى فى لغة مصر الفول . (د . عزام) .

هو جراية الشعير ، و(جراية) الشيء المعين من القمح ، و(يرجراية) يعنى الأرض التى سيزرع فيها الحب يرادف «التارلا» بالتركى أعنى الحقل ، وكقولهم (فدان يرى) أعنى الأرض ذات العشب والمرعى ؛ و(مُحتكر) الذى يقال له بالتركى (مطراباز) أعنى الذى يطلب الغلاء ويسعى للقحط و(مسبِّب) الذى يجرى وراء الكسب والربح . وكقولهم (سدايتدى) يعنى أتمه وأكمله ، و(غلق ايتدى) يعنى قفله وأغلقه . . . (أرق خانة) سجن المديونين وسجن قاضى العسكر و(ديلم) سجن الصوباشى . و(والى ديلمى) يعنى الحمال و(نشال شيال) يعنى الطرار قاطع الجيوب والهِمْيان : و(نصّاب) هو الذى يخدع الناس و(مملوك) العبد والرقيق ، و(مماليك) العبد الأسود ، و(طواشى) الأغا المحبوب الذى يقال له بالتركى «خادم أغا» و(وكالة) بمعنى الخان ، و(رَبع) الربع مجموعة الغرف الخاصة بالمتزوجين ، (وسطوح) هو سطوح المنازل ، و(مواليس) ذو الوجهين ، و(خورده) الجمرك . و(قيالة) النوم بعد الظهر والغداء . و(كَحك) الخبز المدور كالحلقة ، و(بقسماط) هو البكسمات ، بالتركى ، و(قراقيش) اللقمة المدهونة الدسمة . و(مُطَبّق) هو ما يسمى بالتركى ، «ياغلى كاغد» وكقولهم (بهديل ايتدى) بمعنى أن فلانا ضربنى وجعلنى كالرقاق . وكقولهم (بنى وتاح ايتدى) بمعنى جعلنى مجروحًا . وكقولهم (بن عَوَزمى يم) يعنى هل أنا فى عوز واحتياج؟ وكقولهم (يا خضرى) يعنى يا سلطانى و(يا نظرى) يعنى يا عينّى و(تلْت أول) الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة لميعاد المال الميرى و(تلت ثانى) هو الجزء الثانى ، و(صيفى مال) المال الذى يؤخذ في أيام الصيف و(شتوى مال) الذى يؤخذ فى الشتاء و(توت) هو أول السنة القبطية . و(خماسين) هو أول أيام الحر الشديد بمصر حيث يلاقى الناس فيها عذابا شديدا . (ملاق)[1] يطلق على مسافة من الأرض بين القريتين . و(لموم) عصيان العرب واحتشادهم . وكقولهم (بوغ ايتدى) بمعنى سلخ جلد الإنسان وحشاه تبنا ثم دخل به ديوان مصر ، فيطلق علي هذا العمل «بوغ» ويقال (شرّانى آتدر) بمعنى الفرس الجموح . ويقال (بطران آتدر) بمعنى الفرس الجموح . ويقال (بطران آتدر) بمعنى الفرس الكسلان الخامل . ويقال (ترعه يى جرفه إيتدى) بمعنى أنه طهر الترعة والقناة و(قين يِغنِى) بمعنى كومة الطوب والقرميد ، و(عُمال) بمعنى الفعلة و(بنّاء) بمعنى الذى يبنى الحيطان والمنازل و(غرامه) بمعنى التجريم أو

(١) يقال لها اليوم الملأ فى البلاد التى تقلب القاف همزة . (د . عزام) .

التعريض ، و(شرموطة) بمعنى الخرقة البالية وقطع منها و(ما يبالى) بمعنى الذى لا يبالى ولا يهتم . وكقولهم (ما له اوطوردى) يعنى أنه تعهد بتسديد ما عليه من الديون . و(برطيل) بمعنى الرشوة . و(باشمزه شبكه أولدى)[1] بمعنى أنه صار مصيبة علينا . وكقولهم (استحقاق در) يعنى يستحق ويستأهل لهذا و(كلفه ويردى) يعنى أنه أعطى النفقة .

نعت نقيب أشراف مصر من علماء السادات الكرام

إن السيد برهان الدين الرومى نقيب الأشراف أعظم العلماء الأعلام وأجل السادات الكرام . وهو السليل الطاهر للسيد برهان الدين من مدينة «اكردير» بسنجق حميد . وقد ظهرت لأجداده مئات الكشوف والكرامات . والسيد برهان الدين مقيم بمصر منذ سبعين عاما ، وقد بلغت أسرته الغاية من الكرم . لا يقصد مصر رحّالة من بلاد الروم والعرب والعجم والهند والسند ، وسمرقند وبخارا ، إلا وينزل ضيفًا على داره الكريمة فينال شرف صحبته ، ويصيب من نعمه ، ويكتسى بكساه المختلفة . ومن الضيوف من أقام بداره عاما أو عامين دون أن يشعر منه باستثقال ، ومجلسه يحفل دائما بمباحثة العلماء فى المسائل الشرعية ومعارف شتى . وله فى القطر المصرى سبعون نائبا فى سبعين موضعا ، تصل إليه محصولاتهم كل شهر . وقد خصص مركز الخانكة صدقة له ، وهو يدير مدرستين وسبع نظارات ، وله قرى عامرة ومزارع خصبة ، وتحت سلطانه ٤٦٠٠٠ نسمة من السادات الأشراف بالقاهرة والقطر المصرى . وإذا كان حفل وخرج الناس لاستقبال الباشا انقلبت الشوارع إلى خضرة من العمائم تحت العلم المحمدى ، وخفق لواء رسول الله بسناء النور المحمدى ، وهم يمرون بالآداب الرسولية فى صفوف منظمة راكبين جيادا أصيلة .

ذكرت فى هذا الفصل طائفة من جنود مصر وعلمائها وأمرائها وكاشفيها وملتزميها وكتبتها على وجه الاختصار ، وسوف أكتب عنها فى أماكنها مفصلا إن شاء الله .

أقام السلطان سليم الأول عليه الرحمة والغفران بمصر ورشيد والإسكندرية تسعة أشهر كاملة ، وأحصى جميع الطوائف إحصاء دقيقا ، وجعل طوائف الجند وكل طائفة فى

---

(١) ترجمتها الحرفية وقعت الشبكة على رأسنا . (د . عزام) .

موضعها وجعل العلماء والصلحاء والمشايخ على حسب رتبهم . ونظم جميع الأمور المهمة بقانون على أن يكون قانونا سليميا ، ثم أولم وليمة عظيمة لكبار أولياء الله والعلماء وأجزل لهم الإنعام والإحسان ، ثم استأذن منهم فى الرحيل فأذنوا له (داعين حامدين) بالسفر إلى بلاد الروم . وبعد ذلك زار مقابر أولياء الله الكبار ، فأمر بتلاوة مائة ختمة في يوم واحد فى المشهد الحسينى ووهبها لأرواح الأنبياء والأولياء ، وخرج بموكب عظيم إلى العادلية فأقام فيها مأدبة عظيمة لأعيان ديوان القاهرة ، ثم أمسك ابن كمال باشا بيده اليمنى والوزير المكرم خاير بك بيده اليسرى فآخى بينهما بأن جعل كلا منهما يقبل الآخر ، وصارا أخوين فى الدنيا والآخرة ، ثم قال أستودع الله أمور مصر وقد نصبتكما حاكمين وجعلتكما أمانة عند الله وفى أيدى أعيان مصر . وسلم ابن كمال باشا لعلماء مصر وشرفائها ، وسلم خاير بك لأعيان مصر من أمراء الديوان . ثم قرأ الفاتحة وسافر إلى الآستانة فى محرم سنة ٩٢٣ مفوّضا أمور مصر كلها إلى خاير بك .

كان خاير بك راغبا فى مرافقة السلطان سليم الأول حتى غزة ، إلا أن السلطان قال له : «وزيرى خاير بك إن أردت خيرا لمصر فارجع من العادلية ، فإن البلاد مفتوحة حديثا ، فلمن تتركها؟ افتح عينيك! «هكذا نبه السلطان سليم خاير بك فقفل راجعا إلى القاهرة .

اتجه السلطان إلى الشام ، وقد فرش خاير بك السلطان منزلا منزلا ببسط من الحرير حتى بلغ الشام وبذل الطعام والشراب والهدايا .

لم يكد السلطان سليم يرتحل إلى الآستانة حتى شرع خاير بك فى إدارة البلاد وتنظيمها ؛ فأول ما قام به من الأعمال أن جمع جنود الروملى والأناضول الذين أبقاهم السلطان للمحافظة على مصر ، خشية أن يتفرقوا فى المدينة ويسببوا الفتن ، وجعلهم جميعا فى قلعة قراميدان وفى داخل القلعة المؤلفة من سبعة أقسام ، واستتب بهذا الأمن والسلام فى مصر ، ولم يتجاسر أحد على تجاوز حده وصار وِجار الذئب وحظيرة الغنم سواء .

كان خاير بك عادلا فى إدارة الحكومة والحكم ، جريئا وكان على وفاق مع المصريين حتى لم يعد أحد ينظر إلى أحد نظرة سوء . فلذا قال المصريون «الله ينصر

السلطان خاير باى! » والحق أنهم إن أطلقوا على وزير مصر اسم السلطان فلهم وجه فى ذلك على شرط أن يكون فعله مستحقا لما يقال ، ويسلم حين عزله فهو حينئذ ملك حقا والرجاء قوى فى خروجه سليما إن شاء الله ، وسنكتب عنه فى موضعه .

وقد بنى خاير بك جامعا عظيما على الطريق العام بباب الوزير ، ولا يزال مسجدا نيّرا . وظل خاير بك وزيرا خمسة أعوام فى عهد السلطان سليمان القانونى ودفن فى جامعه أمام المحراب . ونظارة جامعه للوزير على حسب القانون ، ولا يزال وزير مصر يقوم بالنظارة على جوامع آل عثمان وخيرات الوزراء بمصر . وفيها مبان وجوامع عظيمة وسوف نكتب عنها وعن الخيرات والحسنات واحدا واحدا فى أماكنها إن شاء الله .

الفصل الحادى والعشرون

فيمن بنى قلعة مصر المحروسة أولا ، وبناة عماراتها ومبانيها العظيمة أوصاف أم الدنيا مصر القاهرة عمرها الله تعالى .

إن أوصاف مصر قد كتبت في ألوف من كتب التاريخ ، وأما أنا رحالة العالم ، ونديم آدم «أوليا» قليل البضاعة ، كثير السياحة فقد كتبت عنها هذا المختصر المفيد .

إن هذه الدنيا الفانية تخلفت من ألوف الدول ومصر جزء منها ، فأول من بناها نقروش بن غرباب بن شيث بن آدم ﷺ ، وأما بعد الطوفان فبناها ابيزاء بن حسان بن نوح . وقيل أن مصر القديمة هى المبنية فى ذلك العهد . ومصر اسم لجميع البلدان ، ولكن هذا الاسم أطلق خاصة على هذه المدينة ، إذ أن نقروش كان أحد بناتها وقد سماه آدم مصرايم ، فلذا سميت المدينة مصر . وكان اسمها الأول «مقدونية» بالعبرية . و«أمسوس» بالسريانية و«فسطاط» باليونانية و«مصرايم» بالقبطية . وهى معروفة بين العامة بأم الدنيا . وتسمى بالعربية القاهرة المعزية ، وقد سميت بالقاهرة لخروج معز الدين القاهر من المغرب وفتحها بقهر الأخشيديين سنة ٣٥٨هـ . ولما كان كل سكانها لايزالون يذكرون اسمى «ياقهار ، يا قابض» فقد صار رجال الله بها منقبضين .

كانت مصر مزدهرة جدا فى الزمان القديم حتى بلغ طولها علي حافة النيل مسيرة ثلاثة أيام ، ولما كان فرعون موسى مسيطرا على هذه البلاد العظيمة فقد اغتر وقال : ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ حاشا وكلا! وتُسمى كذلك القاهرة لأن فرعون اغتر بسلطانه وهزم فى قتاله مع موسى وغرق فى مضيق «قُلنذُر» ببحر السويس ، ففقد قومه وملكه وعرشه بمنف وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين ورغبوا فى إنهاضها وإحداث العمران فيها ، وكان تعميرهم كذرة فى الشمس وقطرة فى بحر ، وأقصى ما بلغوا من تعمير مدينة منف عاصمة فرعون أن أوصلوها إلى مقدار قصبة .

وأما مدينة الفسطاط ، وهى مصر القديمة ، فعمرها الملك طوتس جد الملك المقوقس وبينما كانت الفسطاط بأيدى الأقباط (القبابطة) اتحد اليونان والفرنج قلبا وغاية فهجموا فى سنة ٢١ واجتازوا مضيقى دمياط ورشيد بألفى سفينة فى أيام فيضان النيل وأغاروا على المنصورة ، وتقدموا حتى مصر القديمة فنهبوها واستولوا على ألوف من

الخزائن المصرية وساقوا الأقباط أفواجا كأنهم بحر من بنى آدم وجعلوهم أسرى ، وسيطروا على مصر القديمة وجعلوها وقفا على كنسية آيا صوفيا وصار الأقباط يعطون الخراج للروم .

وجبل المقطم الذى على مسيرة ساعة شرقى مصر القديمة يسمى إلى اليوم بجبل الجيوشى وجبل البجاميم وجبل التقاطع ، والجبل الشرقى ، وجبل المقطب أى قطب الأقطاب ، وجبل لوقان وجبل الحجان ، وأما الجبال الواقعة غربى النيل فتسمى الجبل الغربى ، وجبل الجزام وجبل الحرام وجبال الهرمين ، وهذه الجبال الشرقية والغربية تمتد من الجانبين حتى بلاد الفنج وبلاد البربر والنوبة . وبعض الأماكن بينها واسعة في أسفل مصر . ويجرى النيل بينها منحدرا من جبال القمر جنوبا ويصب فى البحر شمالا بفرعين أحدهما عند مدينة دمياط والآخر عند رشيد . وعلى ساحلى النيل جبال كثيرة بعيدة عنه موغلة فى صحارى واسعة . الجبلان الشرقيان المعروفان بالمقطم والجيوشى يحولان دون وصول نسيم الصبا إلى مصر . كما يحول المقطم دون بلوغ نور الشمس مصر القاهرة حين تكون الشمس فى الأفق . ولما كان ضوء الشمس المحرق يمس مصر فى الساعة الثانية بسبب ذلك الجبل ، كان ظل الجبال كسرداب ، ولهذا أنشأ الأقباط مغارات فى الجبل وسكنوها . ثم شرعوا فى بناء مصر جديدة ، ثم قدم إليها ملوك المسلمين من عمرو بن العاص فالأمويين فالعباسيين فالفاطميين . وقد رغب كل منهم عن مصر القديمة وعمل على تجديد مصر الجديدة وتعميرها .

وأما أنا الفقير ، كثير التقصير ، فقد شاهدت كثيرا من التلال والجبال والصحارى في سبعة وثلاثين عاما ، فى سبع عشرة مملكة . وكانت الكعبة الشريفة المملكة الثامنة عشرة وهى مقصد الجميع ومرامهم ، والحمد لله قد حججت وطوّفت بالبيت فى سنة ١٠٨٢هـ ثم رحلت إلى مصر ، فصار مقامنا المملكة التاسعة عشرة . والحمد لله قد بلغت العجالة منتهاها ودخلنا مصر القاهرة ، ولكى نتعم بكسب الهواء ونجدد شهوة الصفاء ركبنا الركائب الصافنات وشاهدنا مصر القديمة التى يتحسر عليها الملوك ، والتى تدعى الفسطاط ، وأمسوس ومقدونية ومصرايم وأم الدنيا والقاهرة المعزية ، والحق أنها تصدق على أسمائها ومجدها فى الزمن القديم ، وتنطبق على ما شاع عنها من الأساطير . وقد امتلأت الدنيا بأبنيتها الأثرية .

حكاية مناسبة

إن بغداد الموصوفة بأنها مدينة تشبه الجنة فى ازدهارها تعادل حيا من أحياء مصر[١] . قيل لرحالة من أى بلاد أنت؟ قال الرجل الظريف «من مصر» ؛ قيل له من أى حى بمصر؟ «قال من حى بغداد» . وقيل له ما هذا الجواب يا أيها الظريف ، وبين مصر وبغداد مسيرة ثلاثة أشهر في صحارى رملية؟ قال الرحالة إن ما أسميه مصر إنما هى الدنيا بل هى أم الدنيا . وأما ولايات بغداد والبصرة والاحساء واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان فكلها أحياء مصر . والحق أنه بقوله هذا نثر الدرر .

يحكى أن فرعون ادعى الألوهية بمصر فسمع خليفة بغداد عنه فقال أنه ملك بليدة فادعى الألوهية ، فماذا كان يفعل يا ترى لو ملك مدينة كبغداد ذات الجنات؟ ومفهوم هذا القول أنه بناء على أقوال مؤرخى اليونان كان فى العالم مدن مزدهرة منها مصر وبغداد والسند والعراق . وتلك المدن الأربع كانت أهم المدن على ظهر الأرض ، وقد كانت مصر أكثرها ازدهارا لوقوعها فى سرة الدنيا ، ولا تزال عديمة النظير في أديم الأرض .

بيد أن كثيرا من أهلها قد جلوا عنها فى سنة ٩١٢هـ فى عصر الچراكسة اللئام حيث ثار الجنود وطغوا وسمح الچراكسة لمماليكهم بارتكاب الظلم والطغيان ، فأشرفت بوابات المدينة وأسوارها وأسواقها العامرة على الخراب ، واندثرت بعض جهاتها العامرة فى الرمال والأتربة والأقذار ، وصارت مصر القديمة بلدة زواياها وأركانها أعشاش للبوم والمصمص Masmas والحمام . فهى مدينة كبيرة شمطاء ، قد بلغت السبعين من العمر بمضى الأيام والقرون ، وبليت حواشى بيوتها ، وباتت كل بوابة منها وكل سور ذا قلب هرم ، يخبر بلسان الحال عن كثير من الأزمان وجم من الأحداث .

وأما الفسطاط فكانت قلعة عظيمة عامرة تسمى مصر القديمة على ساحل النيل ومجرى السيل وكانت نادرة الدهر . وهى كأنها نُزُل نزل بها كثير من الضيوف ، أو كأنها عش أطار كثيرا من العنقاوات . ودارها المتنقلة من يد إلى يد تشبه رجلا خداعًا خدع كثيرا من ذوى الأطماع . فهى مدينة عتيقة ليست لقصة تاريخها غاية ولا لحكاياتها وروايات مجدها وشأنها نهاية . وقد رأيت داخلها وخارجها مطلسما بطلسمات غريبة فهى من حيث المنظر خير الأقاليم ، ومن حيث الخير أوسعها ، ومن حيث القرى أكثرها .

---

(١) هذا السطر ليس فى نسخة يلديز .

تمتد المملكة المصرية عشرين مرحلة فوق أسوان؛ وحصن فضاى (وفي نسخة يلديز «صاى») انتهاء حدودها، وهو مشاع بين مصر وبين ملك الفنج. وأما نهايتها الشمالية فقلعة الإسكندرية بساحل البحر. وحدودها القبلية تنتهى إلى مكة، وحدودها الغربية إلى أوجله.

وتحتوى الأراضى المصرية على كنوز عظيمة ودفائن جسيمة وخبايا كثيرة، ومطالب عزيزة. وقد روى أنها ليس فيها موضع يخلو من كنز خفى. لأن أهلها لايزالوان متمسكين بالمذهب الأرضى، ويدفنون أموالهم فى الأرض. كنت أنا الفقير لقرابتى من الكتخدا إبراهيم باشا وزير مصر، أقيم فى برج «قوصونلى طلسم» فى مكان معروف عند أغوات الباشا باسم مصيف الفقراء. فخرجت من حجرتى ذات ليلة وقت السحر فعلمت أنه قد حدث نزاع وشجار أمام مسكن جاويشية الألاى وجرح فيه بعض خدم الأغوات. فلما ذهبت إلى مكان الشجار وتحريت عن سبب النزاع، علمت أنهم وجدوا فى ذلك الموضع دفينة فى تلك الليلة. وبينما هم يعلقونها انتثر فى الأرض ذهب كثير، وتصادف أن كان هناك خدم السعاة وسواس الأغوات وحمّاروهم ولما لم يصيبوا شيئا منه، ثار النزاع والشجار، وكان أحد المماليك واقفا إلى جانبى كذئب جائع يعبث ويفتش فى أثناء الشجار، والتقط مائة وسبعين قطعة ذهبية، ورجعنا إلى مسكننا[1]. وكانت دفينة عظيمة، إذ كان المكان المحفور يسع خمسة رجال. والحق أنه ليس فى مصر مكان يخلو من دفينة لقد كانت القطع الذهبية خالصة إلى حد أنها يمكن ثنيها باليد كأنها شمع العسل وكل قطعة منها تزن ثلاثة مثاقيل. كتب على أحد وجهيها بالخط الكوفى كلمة الشهادة وعلى وجها الآخر اسم سلطان الزمان المأمون الخليفة عز نصره ضرب فى مصر».

وبالجانب الشرقى من مصر، عبر النيل يقع جبل جالوت. وفيه المغارات التى قاتل فيها داود ﷺ جالوت. وجانبها مقدار (منزل) مرمى مدفع المقطم[2] ويسمى أيضًا جبل التقاطع وجبل الجيوشى لأن الشيخ الجيوشى مدفون فى مسجده فوق أعلى قمة ذلك الجبل الشامخ، وأما تسميته بجبل التقاطع فلعدم وجود خط بينه وبين قلعة مصر الداخلية، ويسمى أيضًا بجبل بجاميم لأنه كان فى الزمان الغابر مسكنا لبنى بجم[3].

(١) فى نسخة يلديز «رأينا الدفينة صباحا».
(٢) فى نسخة يلديز «جبل المقطم».
(٣) نسخة يلديز «بنى بجم».

وهذا الجبل الشامخ يمتد من مصر إلى السودان جنوبا أربعين منزلا امتدادا مفصلا ، ويجرى النيل المبارك بينه وبين جبال الأهرام .

وصف ابتداء بناء قلعة مصر الداخلية بيد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى

كان صلاح الدين وزيرا للسلطان نور الدين الشهيد ملك الشام سنة ٥٧٢هـ . وهجمت على مصر أسبانيا اللعينة[١] بألف سفينة عن طريق دمياط فى أيام فيضان النيل وبلغت المنصورة ، فاستولت عليها ، ثم شرعت في نهب الجوانب الأربعة ، وبلغت السلطان نور الدين شكاوى من خليفة العباسيين ومن مصر ، فعين صلاح الدين قائدا على ثمانين ألف جندى ، وأرسله إلى مصر ، ولما بلغ صلاح الدين القطر المصرى وانتصر على الكفار فى المنصورة سميت المدينة بهذا الاسم وكان اسمها «ريحان» ثم انتزع دمياط وقلعة التين من أيدى الكفار . حتى إذا بلغ مصر سالما غانما استقبله المصريون بابتهاج عام وجعلوه سلطان مصر متفائلين به ومعجبين بتدبيره . ولما بلغ هذا النبأ مسامع السلطان نور الدين استقدم صلاح الدين إلى الشام ولكن صلاح الدين لم يعد إليها متعللا بأنواع من المعاذير . ولم يجعل السكة والخطبة لا باسمه ولا باسم نور الدين ، بل باسم آل عباس .

ولاحظ صلاح الدين غضب نور الدين وخشى مغبة عمله ، فبنى فوق جبل المقطم قلعة مسيطرة على مصر . وأحاط الجزء الأسفل من المدينة من جوانبها الأربعة بسور طوله ٢٩٣٠٠ ذراع مكى وأنشأ مدرسة قرب الإمام الشافعى . وقاتل كفار الفرنج بمرج عيون قتالا عظيما وانتصر عليهم . وكان نور الدين قد توفى بالشام ، فأغار عليها واستولى على خزائنها وصار صاحب الشام كذلك . ثم استقل بسلطنة مصر وعنى بشأنها وعمارها حتى جعلها عروس الدنيا بعد أن كانت أمها . ثم جاء من بعده ملوك كثيرون (سبعون ملكا) وعملوا على ازدهارها إلى حد أنها لا تزال حسرة الملوك حتى اليوم[٢] . أما أنا الفقير فسأبين أحوالها على قدر وقوفى عليها والله المستعان .

---

(١) نسخة يلديز «بنى بجم» .

(٢) لم تهجم أسبانيا على مصر مطلقا . (د . متولى) .

(٣) المقصود ، يحسون بالحسرة لعدم تمكنهم من امتلاكها . (د . متولى) .

وصف قلعة مصر الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية العليا قلعة جميلة فوق ربوة وعرة على رأس فى الطرف الشمالى من جبل المقطم . ومن جبل الجيوشى إلى القلعة مسافة مرمى مدفع . وبينهما منخفض صخرى عمقه مائتا ذراع . ويقطع منه الحجارون الحجارة اللازمة للولاية بلا انقطاع كما كان يفعل فرهاد(١) . والمكان بين القلعة وجبل الجيوشى صخرى بحيث لا يمكن الالتجاء إلى المتاريس حين الحصار . والطرف الجبلى لهذه القلعة بناء متين جدا . وتبعد هذه القلعة الشامخة عن النيل المبارك مسيرة ألف وخمسمائة خطوة شرقا . وجوانبها الأربعة صخور عالية بيض كأنها جدران بئر عميقة . إن بناء صلاح الدين هذا حصن حصين وسور متين قد ارتفع سَمكه إلى السماء ثمانين ذراعا مؤسس على أساس صخرى . وقلعة صلاح الدين تدعى القلعة الذهبية أيضا . وذلك لأنه حين حفر أساسها مطابقا لأحكام المنجمين فى ساعة السعد وضعت طبقة من تبر الذهب فى أسفل أسوارها كلها ونثر في أماكن الأبراج ذهب ممسك لكى تكون ميمونة الطالع . فلذا ورد ذكرها فى جميع كتب التواريخ باسم القلعة الذهبية . لأن مصر منجم تبر الذهب . ثم إنها بنيت على شكل مخمس بأمر مهرة المنجمين وتعليمهم . فقد قيل أن البناء المثلث يحل فيه النحس فلا يخلو من الفتن والفساد . ولكن كما قيل «العبد يدبر والله يقدر» فهذا البناء مخمس ، بيد أن طالعه نحس ، فهو لا يخلو من شجار وقتال مرات فى كل عام .

وللقلعة خندق محفور فى الصخر كأنه بئر يمتد من باب المطبخ حتى برج أغا الجيش الانكشارية . وعدد أبراجها اثنا عشر برجا قائمة كلها على أسس صخرية ، وهى برج الشرق وبرج الغرب وبرج الفرنج وبرج الباب والبرج المسطح (ياصى قله) وبرج صلاح الدين وبرج المعمار . . والأبراج مبنية بناء فنيا مزخرفا ظريفا ، وكل برج مؤلف من ثلاث طبقات ، ويتسع لألف رجل . فهو حصن ذو ثلاثة أقسام . وحُجَر الجيش الانكشارى فى إحدى طبقات البرج الذى بباب الشيخ صارى ، وهى أربع وأربعون حجرة ، وليس فيها

---

(١) فرهاد بطل قصة فى الأدب الفارسى ، عشق شيرين خطيّة كسرى برويز فلما سمع برويز بذلك كلفه أن يشق طريقا فى جبل بيستون من جبال كردستان ، ووعده أن يهبه شيرين حين يتم ذلك فشقه وذهب مثلا فى تحمل المشاق فى سبيل العشق . (المترجم) .

شيء آخر . وأحد أبواب القلعة ناظر إلى الغرب ، ومحيطها الدائرى ستمائة خطوة تقدر بألفين وستين قدما . ويتصل بها حصن آخر . وهو الحصن الأوسط ، وفى هذا الحصن مسجد الشيخ الصارى وزاوية الجاويش وزاوية الكتخدا وباب الأغا ومخزن البارود والضربخانة والطُبخانة ومصنع العربجية ، وحمام القلعة وثمانمائة بيت صغير وسبعون حانوتا . ولهذا الحصن ثلاثة أبواب يفتح أحدها إلى الغرب وهو باب حديدى مزدوج بين برجين وبداخله مدافع ضخمة طول كل مدفع ثلاثون شبرا ، وثمة مدفع بداخل مصنع العربجية ، وفيه أيضًا سبيل ذو فرعين متصل بالضربخانة يدعى سبيل الغورى . وجميع سكان الحصن فى حاجة إلى هذا السبيل . ويفتح بابه الثانى إلى ميدان الانكشارية غربا ، وبهذا الباب ينعقد ديوان فرقهم وهو مكان مبنى بالصينى القِشانى . وباب آخر فى الأسفل يدعى باب صلاح الدين . وحين يفتح هذا الباب في الصباح المبكر يحضر الكتخدا ومدير بيت المال وستة من الجاويشية وجميع البوابين ويفتحونه بالدعوات الصالحة ، وهو باب حديدى ذو ثلاث طبقات . وهناك أربع قطع من الرخام مثبتةعلى سور الحصن بين البابين المذكورين على يمين الداخل ، وعليها تواريخ الملوك السالفين وهى «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا (محمد) وآله وصحبه وسلم . أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا ... السلطان مالك الملك العادل صاحب الديار المصرية ، والبلاد الشامية والقلاع السواحلية ، والأقطار الحجازية ، سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض ، القائم بالسنة والفرض ، المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم ، والسيد والعادل والسلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عز نصره سنة ستة وتسعمائة» .

وكتب على هذه اللوحة الرخامية تاريخ قايتباى أيضًا ، وعلى لوحة أخرى أن هذه القلعة ذات الطبقات الثلاث ليوسف صلاح الدين .

وكان خاير بك أول من تقلد وزارة مصر فى عصر السلطان سليم وذلك فى سنة ٩٢٣هـ وحكم خمسة أعوام وشهرين وعشرين يوما ، وتوفى فى عهد السلطان سليمان القانونى . ولما مات خاير بك منحت وزارة مصر لمصطفى باشا البالاق ثم إلى أحمد باشا الخائن . وكان السلطان سليمان مشغولا إذ ذاك بحرب هنغاريا (أى انكروس)[1] وما

(١) هى المجر . (د . متولى) .

حواليها فطمع أحمد باشا فى الاستقلال بحكم مصر منتهزا هذه الفرصة ، وجمع حوله جماعة من بقايا السيوف من الچراكسة اللئام وأحدث شغبا وفتنة بمصر ، وما أن بلغ النبأ السلطان سليمان حتى ساق إلى مصر جيشا عرمرما برا ، وأرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا المقتول ، على رأس أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة حربية ، ولكن لم تأت الرياح بما تشتهى السفن ، فكانوا كلما زادوا عناية زادت الريح شدة وعنفا حتى اضطر الوزير إبراهيم إلى النزول إلى البر وتجديد الاستعداد ، بيد أنه لم يستطع القدوم إلى مصر بجيشه العظيم لينصف من يستحق الانصاف وليقتص ممن يستحق القصاص من أجل ظلمه .

وأما فى مصر فقد قام أعيان الديوان وأشرافها العظام وعلماؤها بشغب عام قائلين هل نتبع أحمد باشا الخائن ونشرع فى الشجار والقتال ونحن لم ننس بعد ما أصابنا من الصدمات فى حرب السلطان سليم؟ إنا لا نقبل أحمد باشا ! وقبضوا عليه وذهبو به إلى باب زويلة وشنقوه واستقر الأمن فى مصر .

أوصاف القلعة الداخلية وغيرها

قلعة مصر الداخلية حصن ذو ثلاثة عشر قسما ، ولما قدم الوزير إبراهيم باشا إلى مصر ، وأقام العدل والانصاف أرخ مصطفى چلبى بن جلال قدومه بالشطر الآتى :

«آصفِ سلطان عادل مصرى آباد ايلدى[١]»

حكم سنة[٢] وكان أول ما قام من عظام الأمور أن ضم إلى القلعة الداخلية حصنا آخر ، وذلك الحصن لايزال زينة للمدينة ومتانة للقلعة . محيط هذا الحصن الدائرى ثمانمائة خطوة ، وله باب حديدى مزدوج بين برجين بواجهته الغربية ويسمى قلعة السلطان سليمان . وهو حصن بديع لايزال قائما وسط قلعة صلاح الدين . فقد بنى فى إحدى زواياه برجا شبيها ببرج غَلَطَة (باستانبول) مؤلفا من عشرة أقسام لايقوى أى مهندس على هدمه ، ففيه مقرنصات متنوعة ومشربيات وطنف ، وبأركانه متاريس لضرب النار . وعلمه المرفوع على قبته العالية الزرقاء يشاهد من مسيرة فرسخين وليس فى هذا

---

(١) هذا التأريخ بحساب الجمَّل يوافق سنة ٨٢٩هـ ، وهو تاريخ خاطىء . (د . متولى) .

(٢) السنة غير مكتوبة فى الأصل وبمراجعة المصادر التركية يتبين أنها ٩٣١هـ (١٥٢٥م) . (د . متولى) .

البرج سوى الأموال السلطانية وهى كلها تحت الأرض . وفيه يحفظ الدفتردار ما يحصّله من الأموال . وليس فى خارج الحصن سوى منازل محافظ القلعة (دزْدار) والكتخدا والإمام والمؤذن ، وسوى زاوية وعنبر وصهريج ماء . ومن الانكشارية المحلية من محافظى القلعة من هم محبوسون ليل نهار .

وبنى خارج برج الخزينة هذا أمام مسجد قلاوون سورا متينا من طبقة واحدة ، وجعل له بابًا حديديا مزدوجا مواجهًا لذلك المسجد ، وأقام إلى جانبيه برجين عظيمين عاليين . ومن الأبراج العظيمة برج المهترخانة وهو برج ذو عشرة أقسام يسكنه مهترو[1] القلعة . وثمة برج شاهق آخر مواجه لقصر الباشا يسمى برج إبراهيم باشا وهو برج عظيم يتسع لألفى نفس . وبرج العنبر أيضًا مواجه للقصر . وهناك برج آخر على باب يوسف مسدس موزون ، وهو أيضًا مواجه لقصر الباشا ، والخلاصة أنها أبراج سبعة ذات قباب عالية مغطاة بالرصاص ، وفى كل واحدة منها أربعون أو خمسون مدفعا من المدافع الكبيرة والصغيرة ، موجهة إلى قصر الباشا حتى إذا سولت له نفسه العصيان نسفوا قصره بالمدافع .

ثم إن إبراهيم باشا أقام فى القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى من الانكشارية ورمم حجرها وعمرها ، وأدار شئون مكة والمدينة وفتش جميع الأوقاف ، وتصرف بالأموال السلطانية تصرفا حسنا ، ثم سلم وزارة مصر إلى كوزلجه قاسم باشا ورجع إلى استانبول .

وكان بأسفل باب الوزير فراغ بين حصنين ، فبنى قاسم «كوزلجه» سورا فى هذا المكان وبوابة كبيرة ، فلذا سمى باب الوزير . وإذا صعدت منه مائة خطوة ألفيت بابا آخر يدعى باب الأغا ، وهو باب حديدى يقام الدعاء به ، وإلى اليمين باب قسم من الحصن ، وإذا سرت بين سورى الحصن صاعدا ألفيت بابا حديديا مزدوجا وإذا دخلت منه فأنت في ميدان سوق القلعة . وهو ميدان فسيح يسع خيل الديوان . وبجوانبه الأربعة حوانيت ، وهنا أيضًا سور قلعة وهو سور أبلق مزخرف وبه باب حديدى مزدوج متين ، بين مسجد قلاوون وبرج المهترخانة تتجه جميع مدافعه السلطانية إلى الميدان ، ومسكن أغوات الباشا أيضا لا يقيم فيه سواهم وبه طريقان كبيران من جهة باب الكسوة والآخر يمر بين أعمدة ديوان قلاوون ، وليس هناك طريق غيرهما . ويوجد قسمان أيضا من الحصن فى

---

(١) لعلهم خدم القلعة أو فرقها الموسيقية . (المترجم) .

جهة مساكن العزب ولهما بابان حديديان مزدوجان ، ينظر الباب الكبير منهما إلى ميدان الرميلة ، وجميع البوابين يقومون بحراسته ، وما بين البابين مزين بالدروع والتروس وآلات الحرب والأسلحة .

فى وصف قصر قراميدان وطول ذلك الميدان وعرضه

يوجد حصن آخر ذو قسم واحد بناه خاير بك حين كان وزيرا لمصر بإقامة أسوار قراميدان الأربعة ، وأنشأ بداخله حديقة غنّاء (جنّة إرَم) خاصة بالباشوات . وكان قصر قراميدان للسلطان قايتباى فيما مضى ، ولا يزال مزدهرا حافلا بالورود والكروم والنخيل ، وينزل الباشوات دائما إلى هذا الميدان ويتلهون بلعب الجريد وهو ميدان تبلغ دائرته ثمانمائة خطوة . وفى نهايته حُجر فتيان الباشا (باشا دليلرى) ولهذا الحصن أيضًا أبواب حديدية فى أربعة أماكن . (وهنا تم الكلام عن القلعة الداخلية) . [وتبلغ أقسام قلعة مصر إلى تاريخنا هذا ثلاثة عشر حصنا كما يبلغ عدد أبوابها فى جميع الأقسام تسعة عشر بابا] .

فى بيان ما بالقلعة الداخلية من طلسمات

إن قلعة مصر حصن عال فيه برج شامخ يدعى مصيف الفقراء ، وهو برج مشرف على باب العزب . فقد أقمت أنا الحقير سبعة أعوام فى ذلك البرج ، فكان منزلا نشرف منه على العالم . وكانت تحت نافذتنا كتابة فى سعة سجادة كبيرة وبوسطها رسم طائر يبلغ حجمه تمثال رجُلين . وقد بسط جناحيه على رجليه وله رأسان . كنت مرة أصلح حجرتى وأرممها ، فخرجت منها ووقفت على صقالة وشاهدته فإذا بالنحات الماهر صنع للطائر رسما سحريا معجزا ، لو اجتمع نحاتو الدنيا لما استطاعوا أن يزيدوا عليه نقطة . تظنه لم يكد يفرغ منه الفنان فى حين أنه صنع منذ ألف عام . والحجر الذى صنع منه حجر صخرى أبيض . وقد أفاض عليه النقاش الماهر حسنا بالأصباغ والألوان حتى تخاله طائرًا ذا روح ! وله رأسان ينظر أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب ، ويكاد يمثل صورة الطائر على قرش زولطة[1] وليس بينهما فرق بيد أن ما فى هذا الرسم من فن ، سحرٌ مبين . وله لسانان . وإذا هبت ريح الشمال بشدة أخرج لسان الرأس الذى إلى الشرق صوتا حزينا يبهر الانسان ويخيل إليه أنه يسمع صوت نسر . وإن هبت ريح الجنوب سمع من

---

(١) عملة بولندية .(المترجم) .

لسان الرأس المتجه صوب الغرب صوت بجع مهيب . وقد صنع أحد اللسانين من النحاس الأصفر والآخر من الصلب النخجوانى . وبإنعام النظر ألفيت أن نهاية اللسانين متصلان بداخل الحجر كما يتصل السكين بقبضته . وإذا اصطدمت الريح بهذين اللسانين تحركا وأحدثا الصوتين فى الريحين . وأما في سائر الرياح فتُسمع منهما أصوات كأصوات الفاختة والعقعق والعقاب . وتحت جناحيه ثقبان يسعان إصبع رجل وداخلهما أجوف وتصدر منهما أيضًا أصوات عجيبة . وبطنه كبطن رجل بطين ، والريش منقوش نقشا حسنا ، وفيه ثقب أيضًا فى موضع السرّة تماما يسع يد رَجُل ، بداخله الأصداف البحرية التى تصقل بها الكاغد ، إذا هبت ريح الشمال خرج منه صوت مهيب . وكان بعض الأصدقاء يسمعون هذا الصوت فيقولون : قد هاج طائر أوليا چلبى وكان فوق رأس هذا الطائر المطلسم كتابة فى ثلاثة أسطر وهذا الطائر الغريب المنظر مطلسم فى البحر . وهو يظهر للزائر حين الصعود من باب العزب يعرفه كل المصريين . ولم أشاهد الخط المكتوب فوق رأس هذا الطائر إلا على سبيل معطل فى جهة النحاسين على حافة خندق بقلعة بلغراد الدانوب ولم أقدر على قراءته . وقد قرر رجال المعرفة من المصريين أن هذا الطائر لا يَصفِر صفير أى طائر من طيور مصر ، والحق أنه ليس فى مصر لا البجع ولا العقعق ولا الفاختة ولا العقاب ولا الزرزور ، وتلك حكمة عجيبة .

طلسمات العقرب

بالقلعة العليا عقارب ، ولكنها لا تلسع الإنسان ، وإن لسعته فليس للسعتها تأثير ، ويزول الوجع بعد بضع ساعات لأن هناك طلسما . وذلك لأن الديوان العتيق للسلطان قلاوون مبنى على أربعة وأربعين عمودا لا نظير لها فى الربع المسكون إلا فى أسوان ، وطلسم العقرب صورة عقرب من النحاس الأصفر معلق من ذنبها على حلقة من الحديد فوق العمود الأيمن فى العقد العظيم الذى بجانب منزل التتر ، وهى لا تزال واضحة .

طلسم الثعبان

وهناك ثعبان أرقط ملتف بالعمود المقابل للعمود الذى عليه طلسم العقرب . وعلى ذلك العمود سطران بخط الوفق[١] وهو طلسم الثعبان . وليس بقلعة شاهمران من الثعابين ما بخرائب قلعة مصر ولكنها لا تضر أحدا بأمر الله ، ولو كان حيوانا مخيفا .

(١) الوفق بكسر الواو هو الطلسم الذى يمنع حدوث المكروه . (المترجم) .

وطلسم أم أربع وأربعين

وثمة طلسم أم أربع وأربعين على عمود وعليه سطران من الوفق فلذا لا ضرر فيها من هذه الحشرة .

طلسم الحمى

والحمد لله ليست فى هذه القلعة من حمى الربْع والحمى المحرقة ، وإذا قدم مريض بالحمى من سائر البلاد فأقام بهذه القلعة ثلاثة أيام شفى منها بأمر الله . وذلك لأن العمود الذى بجانب باب وفيق محمد أغا الحلوانى . مكتوب عليه ثلاثة أسطر من الوفق هو طلسم الحمى .

طلسم القولنج

ويوجد على أحد العمد وفق القولنج أيضًا .

طلسم الطاعون

ويوجد أيضًا طلسم للطاعون منقوش على أحد العمد . ويقال أنه لأبى على بن سينا وهو رحمة من الله فى قلعة مصر . وليس له نظير فى سائر البلاد . ولكن يحدث الموت من الاسهال وذات الجنب واللقوة وكف الأسد وما شابهها من الأمراض المتنوعة ، ولا تزال الطلسمات المذكورة ظاهرة إلى اليوم وكل واحد منها لأستاذ ماهر قدم إليها وأراد أن يبين علمه وقدرته بكتابة وفق . فقد كتبوا على عامود أصفر لمنع إباق العبيد من القلعة ، وعلى عامود آخر لمنع اللصوص من السرقة ، فإذا رام عبد أو خادم خيانة سيده شلت يده . وعلى عامود آخر وفق لمنع المرأة من الزنا ، وعلى عامود لمنع الحريق فى مصر . ومن لطف الله أن هذا الطلسم لايزال فعالا . فالحريق ممتنع عن مصر بفضل هذا الطلسم . ويقال أن وفق الحريق هو المكتوب على العمود السُماقى الأحمر . وثمة وفق على عامود لنزول المطر في مصر أربع مرات في كل شهر . ووفق لمنع الرمد من عيون الصبيان . وموجز الكلام أن هناك أوفاقا كثيرة لاتزال حتى الآن . بيد أن بعض المغاربة والهنود الملاعين الذين لا يبالون بشىء والذين يبحثون فى كل ركن عن الخزائن والدفائن ظنوا تلك النقوش علامات الدفائن فتسلقوا بعض العمد وحكوا بماء النار

والزئبق تلك الآثار البديعة التى يعادل كل واحد منها عمر الدنيا وأبطلوا تأثيرها ، فلا حصلوا على دفينة ولا على أموال كمينة ، بل عادوا خائبين خاسرين دون أن يحملوا سوى وزر أعمالهم ومشاقهم . فالبراغيث والقمل والبق تلهب بدن الانسان فى مصر من ذلك الوقت حتى اليوم ، «اللهم عافنا» وليس فى بلد ما فى مصر من البعوض والبق فقد قيلت فيها أبيات وكتبت رسائل ، فى الاستغاثة ، وحتى أنا الحقير قد ألفت رسالة الاستغاثة من البق .

وطلسم كلبين مسعورين

يوجد بمصر أيضًا على الطريق العام بين قنطرة الأمير حسين وقنطرة المصطفى (تحريف من قنطرة الموسكى) حمام صغير يدعى حمام الكلب . وبداخل قبة صغيرة فيه تمثالان من النحاس الأصفر لكلبين متهارشين ليل نهار ، فلذلك ليس بمصر كلب مسعور ولهذا سمى ذلك الحمام بهذا الاسم ، وقد ورد هذا فى تواريخ الأقباط .

الفصل الثانى والعشرون

أوصاف قصر قلعة وزراء مصر

وهذه القلعة متصلة بالقلعة الداخلية إلا أن أبوابها غير أبواب تلك القلعة . ومفاتحها بيد رجال الباشا . والذى بنى هذه القلعة وهذا القصر هو يوسف صلاح الدين . ثم أضاف إليه كل ملك جاء بعده حتى صار قصرا منيفا كأنه أحد قصور آل عثمان ، فأول ما تشاهده باب الديوان ، وهو باب أصحاب العرائض أى أصحاب الحاجات . وإن دخلت منه سرت خمسين خطوة رأيت حوانيت الخياطين من الجانبين ، تجتازها وتبلغ باب السبيل ، وإن سرت خمسين خطوة أخرى قابلك بابان ففى اليمين على الطريق الموصل إلى دار المحافظ الباب الصغير ، وفى الجانب الأيسر بوابة الديوان الكبيرة ، وإذا نزلت مسيرة خمسين خطوة واجتزت بابا فأنت فى صحراء واسعة مؤدية إلى ميدان السراى ، وهو ميدان مساحته الدائرية ألف خطوة وبجوانبه الأربعة حُجر أغوات الباشا ومسجد الدُّهَيْشَة . ويطل عليه كذلك الكتخدا والمحافظ ، ومنزل خادم المائدة (الجاشنكير) ورئيس الكيلارجيه (الخزنة) وديوان السلطان قايتباى والسلطان الغورى ، ومنزل المراجع والبارود خانة ومنازل كتخدا (مراسل) البوابين والسعاة (شاطران) وصانعى البنادق . كلها تطل على هذا الميدان . ويفتح المطبخ إلى هذا الميدان ، وإذا دخلت منه فأنت فى قسم من الحصن فيه مطبخ عظيم . ويجتاز من الباب الذى على ميدان السراى بجسر مقام على عقد من عين واحدة ، وتحت الجسر حفرة في ارتفاع منارة ، ويوصل الجسر إلى مسكن المتطوعين ، وهو أيضًا حصن عتيق .

وأما المطبخ فحصن متين ذو ثلاثة أبواب ، وقد سُمى أحد أبوابه بوابة سليم لأن البوابين فتحوه للسلطان سليم فدخل منه هو وجنوده . وأرخ عربى أعمى هذا الحادث بقوله «سلطان سليم شويه شويه[1] ، سنة ٩٢٢» وذلك الأعمى مدفون بجانب الباب ولا تزال لأولاده مخصصات من الميرى وتعيينات المطبخ . وهو تاريخ عجيب حقا ، ويقول بعضهم إنه جفر . وباب سليم هذا لا يفتح دائما . ولا يستعمل إلا إذا كان الباشا قاصدا إلى

(١) إن كانت هذه العبارة غير محرفة فهى لا توافق تاريخ ٩١٢ ولا ٩٢٢ (د . عزام) ، وقد أورد المؤلف هذه العبارة نفسها منسوبة إلى الشيخ نصر الله فى ص ١١٦ من النص التركى (د . السعيد) وهذه العبارة بحساب الجمَّل تساوى ٩٣٢هـ (د . متولى) . .

جهة ، أو توفى أحد الأغوات ، أو حدث هجوم خفى ، أو كانت فى فتحه مصلحة خفية ، وهو باب حديدى عظيم متين . ويشتمل حصن المطبخ على مساكن مائة وخمسين من الطهاة ، ولهم أئمة ومؤذنون فى زواياهم . ومن لم ير مطبخ مصر الخليلى هذا فكأنه لم ير دار نعمة في مملكة . يطهى فيه ليلا ونهارا ثلاثة قدور من الحساء للرائحين والغادين . قدر من العدس وقدر من القمح وقدر من الأرز . وتبذل فيه ألوف القصاع والعلب للفقراء والمساكين صباحا ومساء . ويتسع المطبخ لمائتى موقد ، ويطهى فيه مائتا صحن من الطعام خمس مرات فى الأسبوع . وهذه النعم العظيمة خاصة بديوان السلطان الغورى تبذل للفقراء دون منة من أحد . ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ إنه مطبخ حافل بمائة من الطباخين ، يبهر من يشاهده .

وهناك دواليب البارود المتصلة بهذا المطبخ بميدان السراى الخارجى ، وهى مما ينبغى مشاهدته . وهى دواليب من الصفر تدار بالخيل ، يديرها أربعون حصانا تعمل ليل نهار بلا انقطاع . والبارود المصرى أقوى من البارود الإنجليزى .

والمبنى المشرف على المدينة من ميدان القصر قسم من حصن آخر وله ثلاثة أبواب تحت السواقى وباب تحت مسكن السعاة وباب تحت المبنى المشرف على المدينة ، وهذه الأبواب الخمسة كلها أبواب حديدية مزينة مزخرفة وذوات سلاسل . وبينها حجر المعاون وكاتب الحسابات وحوانيت الخياطين والسراجين والمزينين . وفى جهة دار الكتخدا دور متعددة الطبقات إلا أنها ليست فى ضخامة دور القلعة وهى مع ذلك قصور منيعة لوقوعها على أسوار حصن قصر الباشا . وفيه حمامات وأحواض شازوانات (نافورات)[1] وحجر مزينة بالقاشانى ودور الحرم . وفيه قاعة لاسماعيل أغا ، وهو كتخدا حسن باشا بن جانبلاط ، مزخرفة بالقاشانى ومشرفة على ميدان السراى . وليس لشاذرواناها وحوضها نظير فى هذا السراى .

أوصاف قصر وزير مصر

إن هذا القصر مضيفة مخلّفة من دول كثيرة ، فقد أقام فيها كل وزير على قدر نصيبه ثم ارتحل ، كأنه عُشّ حمام . إلا أن بناءه المقام على صخرة وعرة فوق سوره المرتفع مائة

(١) نافورة أو ميضأة . (المترجم) .

ذراع فوق سطح الأرض ، تذكّر طبقاتُه الثلاثة بإيوان كسرى . وكل حجر فى أساسه قطعة رخام فى حجم جسم فيل . وقد نقلها من جبال الأهرام بالجيزة فى سنة (. . .) عامل من عمال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يدعى قراقوش وقد هدم قراقوش بعض جبال الأهرام وبنى بحجارتها قلعة مصر وقناطر مدينة الجيزة ، وقد احتوت القلعة على ضروب من الطُنُف والنوافذ والمقاصير والقاعات ، وجميع دورها ناظرة جنوبا صوب جبل الجيوشى والإمام الشافعى وتدعى تلك الجهة القرافة الكبرى وهى مقابر عظيمة تشع نورا وضياء ـ ومجموعها ثلاثمائة وستون حجرة مزخرفة معمورة . وكل واحدة منها أثر لوزير أو ملك ، ولو تصدينا لوصف كل حجرة منها لطال الكلام .

وفي قسم الحريم ميدان فسيح يقوم فيه خواص الباشا (أغوات) بتعليم لعب الجريد والخيل والرمح والسيف والسهم والبندقية والترس والعصا والمطارق ، وبجوانب الميدان الأربعة حجر أغوات الحريم المؤلفة من دورين وثلاثة أدوار ، تفتح نوافذها إلى الحوش ، وتحت تلك الحجر اصطبل لأفراس الباشا التى تقيم بين أغوات الحريم . ويبلغ مجموع الأغوات أصحاب الرواتب المقيمين بهذا المكان عشرين رجلا . ويقيم فيه أيضًا الصراف والمهرداز وإذا اجتزت هذه الغرف ألفيت حجرة العرض الخاصة بالباشا ، وهى بناء قديم مذهب بناه قايتباى ، تفتح نوافذها إلى الإمام الشافعى . وحجرة الخزنة متصلة بحجرة العرض هذه ، وقد بنى الكتخدا إبراهيم باشا قصرين عجيبين فى مكان قريب من حجرة الخزينة بساحة دائرة الحريم ، أعجز عن وصفهما ، وقد كسيت جوانبهما الأربعة بالبلور والنجف وزجاج المُران فهما يشبهان قصر الخورنق . وقد أرخت أنا الفقير القصر الصغير بالبيت الآتى : قال أوليا چلبى لهذا القصر تأريخه تم القصر النادر المنيف سنة ١٠٨١هـ[١] .

وقد أرخ رسمى چلبى قصر جهانما ببيت آخر .

وقد كان رسمى چلبى هذا أحد خدم الباشا الممتازين ، نجيبا رشيدا بحرا فى المعارف عليما بالناس متعدد المواهب . ولما أنشأ أفندينا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة ليتلقى فيها الدروس ، قلت أنا الفقير التأريخ الآتى :

---

(١) نسخة يلديز ١٠٨٣هـ .

يوافق الشطر الثانى من البيت التركى سنة ١٠٨٢هـ (د . السعيد) .

«أوليا چلبى بوكاخه ديدى تاريخن اولدى اتمام أى بكم قصر بلند» سنة ١٠٨١هـ . وهناك فوق هذا القصر قصر الباشا الغازى ، وهو مشرف على جميع ضواحى القاهرة وقد كانت حجرة طعام الخدم الخواص قاعة عظيمة ، كسيت جدرانها الأربعة من الداخل بألوان الحجارة الدقيقة الملونة ، وقد نقش على رخام عتبتها العليا بخط التعليق لرسمى چلبى التأريخ الآتى :

«قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والإقبال سلطان سلاطين جهان حضرة سليمان خان عن سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والأقطار الحجازية ، محمد باشا ابن أحمد باشا أدام الله إجلاله إلى وقت تاريخ البنيان ، وهو خير مكان» سنة ٩٦٢هـ[١] .

وإذا اجتزتها داخلا ألفيت قاعة مزخرفة منقشة ذات صُفّة نصفية على الطراز الرومى مطلة على الحديقة الداخلية ، بناها سيدنا حسين باشا بن جانبلاط ، ليس لها نظير فى مصر . وإذ عمل لها الشيخ أحمد المالكى وفقا فليس بها أثر للبعوض وقد أنشأ بوسطها حوضا لطيفا فيه فوارة ، فصارت مكان الأنس حقا . وإذا تقدمت داخلا ألفيت قاعة بيرام باشا وهى أيضًا بناء أثرى عظيم ذو صفّة نصفية ، وقد نقش على بابها بالخط الكوفى التأريخ الآتى :

«بنى حضرة بيرام باشا وهو زين قصر الدنيا والدين ، هذا القصر الجميل العديم النظير ، فى زمن يسير ، فقل يا فتحى تاريخ اتمام بنائه : «ادخلوها بسلام أمنين» . سنة ١٠٧٣هـ .

وبداخل الباب هذا التاريخ تعالى الله زهى طاق مفرّح (تعالى الله ما أجمله من إيوان مفرح) سنة ١٠٣٧هـ .

وتحت قاعة بيرام باشا هذه ساحة طيبة جدا يتعلم فيها الخدم الخواصّ استعمال الأسلحة .

وتلى هذه القاعة قاعة السلطان قايتباى . وهى قبة شاهقة ، تتجه نوافذها كلها إلى جهة الإمام الشافعى . وتأتى بعد ذلك دائرة الحريم وهى ذات حُجَر متعددة الطبقات

(١) الظاهر أن المقصود من هذه العبارة أن محمد باشا بنى هذا البناء فى عهد السلطان سليمان خان . وقد اضطربت العبارة كما ترى . (د . عزام)

وخلوات وحمام وفوارات ، وفى هذا القصر حمام فوقانى مؤلف من قسمين أحدهما ذو حوض بديع خاص بالباشا والآخر لخدمه الخواصّ . وفيه أيضًا دكانان للحلاقين ورئيسُ الحلاقين من الخدم الخواصّ ، وفى ساحة هذا القسم حديقة مزينة بالزهور والورود ، وقد ألقت أشجار السرو والنبق والليمون والأترج وأنواع الكرم ظلالها الوارفة على «الخمائل القمريات» وفى هذه الحديقة حوض عظيم للسلطان قايتباى طوله ١٥٠ قدما فى عرض ٨٠ قدما ، فهو حوض عظيم كالبحر ، إلا أنه مغطى من فوقه ، وبجوانبه الأربعة عمد رخامية ، وبنى إبراهيم باشا مقصورة صغيرة على حافة هذا الحوض ، وكان يستريح فيها ، فينثر على غلمانه المدللين المغتسلين فيه كثيرا من الذهب ، فيزيل هموم الدنيا ، وينعم ويتلذذ بما يحدثون من الصخب والضجيج .

وكان بأسفل قاعة بيرام باشا موضع يشبه المزبلة ، فأمر سيدنا إبراهيم باشا بتنظيفه وجعل منه حديقة غنّاء مضاهية لحدائق العجم ذوات الطرق التى غرست بجوانبها الأشجار الباسقة ، طولها خمسمائة خطوة فى عرض مائتى خطوة ، وأنشأ في مجلس ذى قمرية حوضا عظيما ، ثم فتح قناة من الحوض الهائل الذى ذكرناه ، فجعلت المياه تنحدر من ارتفاع عظيم يدهش الإنسان من دويها ، وما فيه من الفوارات تقفز إلى علو منارة ، وليس فى مصر كلها ما فى هذه الحديقة من العنب .

وكان بأسفل قصره بمقدار طول منارة مزبلة كبيرة فأراد إزالتها كيلا تؤذى النظر ، فجمع ما فى مصر من ألوف حمير الزبالين ، ومن الحمالين والأجراء ورفع حِمل مائة ألف بعير وحمار من القمامة ، مرتين كل أسبوع ، ثم بنى أمامها سورا عظيما ، ثم أمر البستانيين فى ٧٦٠٠ بستان بمصر ، أن يأتى كل منهم بشجرة فأسس بها فى ثلاثة أيام حديقة شجراء مماثلة لحديقة أصفهان الموصوفة بنصف الدنيا ، وأجرى إليها المياه من الأحواض التى بالحدائق العليا . وهكذا حول الجهات الأربع من قصر مصر حدائق غناء . ثم نقب سور القلعة فى موضع بأسفل قاعة بيرام باشا وأوصله إلى الحديقة بسلم مكون من مائة وخمسين درجة محفورة فى الصخر ، وفى هذه الحديقة كان يتناول طعام الافطار فى شهر رمضان المبارك ، وفتح منها أيضًا طريقا آخر ثم بنى مقصورة أرضية فى ركن من هذه الحديقة مُطل على ميدان «القاواق»[1] وكان يستعرض الجنود من تلك المقصورة

(١) القاواق اسم نوع من الشجر يسمى شجر الحور . (د . متولى) .

وهم يتمرنون على استعمال الأسلحة ، فيقدم جوائز لمن يصيب الهرة بالرصاص والقثاء بالسهم . ويبلغ طول ميدان «القاواق» ٧٠٠ خطوة وهو مفروش بالرمل وقد نصبت فى وسطه سارية على رأسها كرة مذهبة ، ولعمرى إنه لمشهد عظيم حين يمطر الجنود تلك الكرة بالسهام .

وهناك أيضًا قصر لمقصود باشا ، مشرف على هذا الميدان ، وقد بنى حسين باشا بن جانبلاط حُجَرا مزخرفة وحماما لطيفًا وجعلها مضيفة للقادمين من استانبول ؛ وقد كانت مضيفة عظيمة مذهبة مفروشة بأفخر الرياش .

أوصاف ديوان السلطان الغورى

هو ديوان فوقانى عظيم يتسع لعشرة آلاف نفس . وقد جمع الغورى مهرة الصناع المصريين وبناه في ثلاثة أيام ولياليها ، محاولا أن يظهر عظمة ملكه ، حين كان مؤتلفا مع شاه إيران ، وبلغه أنه سيرسل إليه سفيرا عظيما ، وحقا إنه ليس فى مقدور البشر وقد كان إتمامه على هذا النحو علامة على انتهاء دولته . وقد كسيت جدرانه الداخلية بالرخام الملون وذهبت سقوفه ونقشت بضروب من الألوان وأرضه كلها رخام أبيض . طوله مائة وخمسة وثمانون قدما فى عرض خمسة وخمسين قدما . وبجوانبه الأربعة ثلاث وثلاثون نافذة من الصفر وست وعشرون نافذة من البلور وسقفه مقام على خمسة وثلاثين عرقا من سوارى السفن ، وفوق العروق سقف خشبى ـ وليس عليه قبة معقودة ـ وهو سقف مذهب منقوش تكل العيون من أضوائه .

ولهذا الديوان أبواب ثلاثة . يفتح أحدها إلى دائرة الباشا والثانى ينزل منه بعشرين درجة صخرية إلى الحوش . والثالث يؤدى إلى المضيفة التى سبق ذكرها وينزل منه أيضا بسلم صخرى . وجانبه المطل على ميدان السراى دهليز يجلس فيه رؤساء الأقلام فى أيام انعقاد الديوان . ولهذا الديوان أربع فتحات تتدلى منها حبال غليظة ذات بكر . وإذا انعقد الديوان جىء بالأمناء والملتزمين المدينين للميرى ، فيعلقهم الجلادون بتلك الحبال ويجلدونهم جلدا فظيعًا «اللهم عافنا» منه إنه تعذيب مخيف . ونصف هذا الديوان مفروش بجلد الشجران البلغارى . وتتجمع فى أيام الديوان أكوام من القروش على تلك الجلود ، ويعدها الصرافون من اليهود . وفى نهاية تلك الأبسطة إلى يسار مقام السلطان سليم ، فوق الصفة الخاصة لجلوس وزير مصر ، لوحة عليها طغراء السلطان مراد الرابع ، فاتح بغداد ،

بالخط الجليّ المذهب فى طول قامة رجلين ، وهو من خط يد السلطان نفسه ، كما أن له هناك درقة مصنوعة من تسع طبقات من جذر شجر التين ، ودرقة قد خرقها بطعنة رمح أو بضربة سيف ، وقد كتبت فوق رأس الباشا بخط غليظ الآية الكريمة الآتية : ﴿إن المتقين فى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ وأما الكساء الرخامى الذى يكسى الجدارين الأيمن والأيسر من ديوان الغورى فقد نقش أعلاهما وأسفلهما بخطوط متنوعة . وأما القطع الرخامية المربعة التى بالركنين الأيمن والأيسر لصُفّة الباشا فقد كتب عليهما الرخام الماهر بالخط الكوفى وفقا من علم الجفر يرمز إلى مجىء السلطان سليم إلى هذا الديوان ، أخفاه عن السلطان الغورى وإنه لرمز كأنه سحر مبين ، فقد عرضته على مئات من رجال العلم ولم يقدر منهم أحد على قراءته ، فعلى الرخام الذى إلى يسار الباشا «عز لمولانا السلطان» وعلى الرخام الذى على يمينه «سليم شاه خلد ملكه» وهذا أمر جد عجيب ، وإذا خرجت من تلك الصُّفة فأنت فى حجرة الكرسى يقيم بها الباشا أيام انعقاد الديوان ويسمع شكاوى الشاكين تطل منها نافذة على ميدان السراى ونافذتان أخريان إلى ديوان الغورى .

فى مدح ديوان السلطان قايتباى

وديوان السلطان قايتباى القديم خارج هذه الحجرة ، وهو مفروش بالرخام وقد أقيم سقفه المذهب المزخرف على خمسة أعمدة من الرخام المزخرف المنقوش ويصعد إليه من ميدان السراى بسلم صخرى ذى خمس وعشرين درجة ، وقد خضر السلطان سليم إلى هذا الديوان وأجرى الأحكام مرات كثيرة . ولا يزال رخام وجهة مقامه مكسوا بلوحة خضراء وقد كتبت على هذا الجدار بخط كبير جدا الآية الكريمة ﴿فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾ وعلى الجدار المقابل تلك الآية : ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ .

وديوان قايتباى أصغر من ديوان الغورى فطوله ثلاثون خطوة فى عرض عشرين خطوة وله ثلاث نوافذ ، وكتب على بابه ، تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة . وموجز الكلام أنه قصر ملكى عظيم يقصر اللسان عن وصفه ، وبأسفله مخزن مملوء بالمُؤَن تصرف منه تعيينات الأغوات جميعا . وكان باب هذا المخزن بابا لإيوان قايتباى فى

عهده ولا يزال يصعد منه حتى اليوم ببضع درج صخرى ، إلا أنه طريق مظلم ، ولا يزال يسمى باب المخزن ، وهاك التاريخ المكتوب على يمين ذلك الباب ويساره :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى وجزيل عطائه مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ناشر العدل فى العالمين ، السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد ملكه ، بتاريخ شهر محرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة[1] .

وعلى يسار هذا الباب مقام السلطان سليم ، داخل درابزين أخضر ، وقد جلس فيه السلطان سليم حين دخل من باب المطبخ لأول مرة ، فألقى عليه ثلاث قذائف من مدفعه بالقلعة ، ولا تزال أماكنها ظاهرة ، وقد كتبت فى دائرة بجانب تلك الآثار هذه العبارة : «مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى عز نصره» .

خشى السلطان سليم ضربات المدفع فانتقل إلى أسفل العقود التى تحت مسكن سعادة الباشا بجانب الباب الكبير المواجه لميدان السراى . ومكث فيه قليلا ونجا من القذائف ، ثم صلى ركعتين شكرًا لله ، ثم عقد ديوانا هناك ، ولا يزال وزراء مصر يعقدون مجلسهم فى ذلك المكان قبل ذهابهم لصلاة العيد جريا على قانون السلطان سليم . يدخل وزير مصر فى هذا القصر فينزل عن جواده ويجلس أسفل السلم الذى أصيب فيه سليم خان ، ويدعو إلى عقد الديوان يوم العيد ، ثم يبسمل فيصعد بعشرين درجة ويدعو الله فى ديوان قايتباى ويعقد الديوان ، فأول ما ينظر فيه دفاتر غلال وصرر الحرمين الشريفين ، لأنه خادم الحرمين .

والجيش الانكشارى المصرى يسمى «مستحفظان» . وفى الجوانب الأربعة من ميدان السراى خمسة أبواب . أحدها باب المطبخ والآخر باب الديوان الكبير وكلاهما حديديان متينان يحرسهما البوابون أبناء «ألواح» الذى سلم المفاتيح إلى السلطان سليم . والباب الثالث باب الحصن المشرف على المدينة . والرابع باب الكتخدا المظلم ذو السلاسل ، المقابل لسجن «آريقخانه»[2] والخامس هو الباب المظلم الذى ينزل منه إلى القراميدان ، وهو طريق مشقوق فى الصخور ، ومنه إلى باب آخر يدعى باب الطلسم ، وقد

(١) أصلحت هذه العبارة من نص في مصلحة الآثار العربية . (المترجم) .
(٢) أريقخانه بمعنى منزل أو مقر الضعفاء أو الحقراء . (د . متولى) .

ضربه دلى حسين باشا بعدة قذائف مدفع ، أحدثت فيه كدمات زاعما أن به دفينة إلا أنه عدل عنه قبل أن يتخرب . وهناك باب حديدى آخر إذا نزلت منه مائة خطوة وصلت إلى مصنع السروج . وجميع خدم الباشا الممتازون وسراجوه وسائسوه يقيمون بثمانين مسكنا بداخل ذلك الباب . ووسط المساكن ميدان واسع وإن نزلت مائة خطوة من مصنع السروج رأيت نخلة باسقة كشجرة هندى بجانب باب الاصطبل . وإذا نزلت خمسين خطوة أخرى ألفيت باب الاصطبل الكبير الذى فيه خيل الباشا وخيل خواص رجاله . وعلى مسيرة مائة خطوة أخرى حصن يقيم به حرس أمير الاصطبلات والسراجون شاغلين سبعين حجرة ، وحصن قراميدان خارج هذا الحصن ، وقد كتبنا عنه .

يبلغ مجموع مساحة قلعة الانكشارية وحصن سراى الباشا وحصن قراميدان ثمانية آلاف وخمسمائة خطوة ، ولما كانت جوانبها الأربعة كجدران بئر عميقة فليس بها خندق إلا فى مسيرة سبعمائة خطوة بجانب باب المطبخ ، نشأ من قطع الحجر للقلعة ، ومجموع أبراج القلاع سبعون برجا مكشوفا من فوقه ، وأما حصن القراميدان فليس به أبراج ، وبه أربعة أبواب منها الباب الحديدى الكبير المفتوح على ميدان الرميلة وبه سلسلة مشدودة عليه دائما وهذا الباب متجه إلى الجهة الشمالية ، وبجانبه باب صغير مسروق يجتازه فارس بصعوبة ، وأحد أبوابه باب الاصطبل وهو أيضًا باب حديدى يفتح إلى الغرب ، وله باب متجه إلى القبلة بجانب مقر فرسان الاستطلاع وهو باب زاوية وعلى مسيرة خطوة منه باب القرافة المتجه إلى الجهة الشرقية .

تتألف القلاع والحصون على ما كتبنا من ثمانية عشر قسما وسبعين بابا كبيرا وصغيرا تغلق كلها ليلا ، فلا يسمح باجتيازها . فمفاتيح أبواب الانكشارية فى يد قائدهم ومفاتيح باب العزب بيد رئيس تلك الطائفة ، وأما مفاتيح أبواب حصن الباشا فبأيدى البوابين وبيد كتخدا الباشا ، بينما قلاع مصر وحصونها كلّها (وسنبين ما فى هذه القلاع المنيعة) على الصخور العالية الوعرة من عباد الله ودوابه .

فى أوصاف سواقى بئر يوسف

لما بنى صلاح الدين يوسف قلعته رأى أن سكانها يحتاجون إلى الماء فجمع كل المهندسين والحجارين واستشارهم فى إيصال الماء إلى هذا الجبل الشاهق الوعر ، فقرروا ألا وسيلة إلى ذلك غير حفر بئر واستخراج الماء منها . وقدروا عمقها بمائتى باع وإذ عزم

صلاح الدين على إيجاد الماء فى قلعته بأى ثمن ، أمرهم بالمبادرة بتنفيذ ذلك منذرا إياهم بضرب رقابهم بسيفه إن عجزوا عن ذلك ، وما أن صدر هذا الأمر حتى اجتمع الصناع المهرة ، وشرعوا فى حفر بئر بلغوا نهايتها بعد أن حفروا مائة وخمسين ذراعا فى ثمانية أعوام . وهذا العمق ، لا الحبال تحتمله ولا من يستسقون منها . فلذا قطع الحجارون الصخر من حولها وجعلوا منها طريقا حلزونيا فصار شكلها كجعبة يدور حولها الطريق . وفتحوا للطريق كوات من البئر ليأخذ منها النور . وهو طريق شبيه بالطريق الذى يصعد منه إلى طبقات مسجد أيا صوفيا فى استانبول . يصعد منه الراجل والراكب بسهولة وينزل ، ويبلغ طوله حتى قاع البئر ٣٠٠٠ خطوة وهومكان مظلم وجدّ مخيف ، فلا يستطيع النزول إليه إلا الشجعان .

قسم الأستاذ الفنان البئر ثلاث طبقات ، فجعل الطبقة الأولى ستين باعا وفتح بجانب البئر مغارة وأنشأ فيها دواليب يديرها زوجان من الثيران ، تنزح الماء من قاع البئر فتصبها فى حوض عظيم محفور فى الصخر ، ومن هذا الحوض يرفع الماء إلى الطبقة الثانية بواسطة دواليب كالأول ويصب فى حوض محفور فى الصخر ، ثم يرفع الماء منه إلى الطبقة الثالثة بدواليب تديرها أربعة أزواج من البقر فيصب فى حوض . ومن هذا الحوض يوزع على نادى الانكشارية وجامع سليمان باشا الطواشى وإلى الأسبلة وبعض البيوت . إنها لبئر عجيبة خليقة بالاعتبار تجب مشاهدتها ، يقال إنها ليوسف ﷺ ، ولكن هذا القول غير صحيح ؛ فهى لصلاح الدين يوسف وليست ليوسف عليه السلام . وينزل إليها الزوار بإضاءتها بالمصابيح والأسرجة الهوائية فى ساعة ، وتعيش فى قاعها نحو مائة رأس بقر . وفى كل طبقة منها زرائب فى مغارات وأما ما فى الطبقة السفلى من الأبقار فتُنْقل إليها عجولا صغيرة وتربى فى الظلام ، وإذا نقلت كبيرة هزلت أجسامها وماتت لافتقارها إلى الهواء الضرورى للمحافظة على حياتها ، وأما العجول التى تربى فيها فتتعود الحياة في الظلام الحالك والهواء القليل وتعيش . والفلاحون الذين يديرون السواقى ويخدمون الأبقار ، يقيمون هم وأولادهم بالطبقات الثلاث ورواتبهم من أمين الساقية . ورواتب القائمين بإدارة السواقى التى فى الطبقات السفلى أزيد من رواتب عمال السواقى العليا . كما أن أبقارهم أكثر ، والدواليب تدور ليل نهار . وإذا وقفت فى أسفل البئر ونظرت إلى فتحتها رأيت دهشا حيران دواليب عجيبة طالعات نازلات لها دوى وضجيج كأنها الفلك الدائر . وموجز القول أن من ساح فى الدنيا ولم ير هذه البئر فكأنه لم

ير شيئا ولم يعرف ما الفن وما المقصد من كون الإنسان أشرف المخلوقات ، وما قدرته على إيجاد المعجزات ، والعارف بالله لا يكاد يلمحها حتى يقول : «همة الرجال تقلع الجبال» فهى عمل قد بلغ رتبة الكرامات وليس فى مقدور البشر حقا . والماء المستخرج منها بهذا القدر من المشاق فيه ملوحة قليلة ولكنه يُشرب حين الضرورة بسهولة ، وقد شرب منه جميع سكان القلعة حين حصار الغورى ، ولا يزال بعض الناس يستسقون من بئر يوسف دون أن يكونوا فى حاجة إليها .

وبأسفل الحصن الأوسط سبيل يتسع لاثنتى عشر ألف راوية ماء . وسبيل عند باب الأغا تسع عشرين ألف راوية ماء ، وكذا سبيل الشيخ «صارى» وصهريج محمد باشا اوكوز[1] فى السوق يتسع لعشرين ألف حمل بعير ماء ، وهو وقف عظيم . تحمل المياه إلى هذه الصهاريج من النيل على ظهور الجمال فتملأ . وهناك صهريج كأنه بحر قد أقيم بمائة عمود ، بين الحمام والحصن الأوسط وتحمل إليه حين الحصار مئات الألوف من أحمال الجمال من النيل وبئر يوسف .

فى بيان عقود الماء التى بناها السلطان الغورى وعددها

وأما المرحوم المغفور له السلطان الغورى ، فلم يكتف ببئر السلطان صلاح الدين يوسف بل عُنى فى سنة ٩٠٠هـ بتوفير الماء لسكان القلعة ومصر القديمة ، فبنى فى مصر القديمة ساقية شبيهة بقلعة ، أنفق فيها ألف كيس مصرى من ماله الخاص حسبة لله . ويصعد الراكب إلى تلك الساقية ثمانين ذراعا حلزونيا . ويُرفع الماء من خمسة أماكن من النيل بدواليب تديرها الأبقار ، ويفرغ فى أحواض ويجر منها فوق عقود الماء إلى القلعة فى ساعة . وعقود الماء بناء حجرى ضخم أقيم على ٣١٣ عقدا . وإذ صادف بعض أماكنه هوة فقد بلغ ارتفاعه ثمانين باعا وبعضه خمسين باعا . وفى مواضعه القليلة الارتفاع سدت نحو مائة من العقود .

فى بيان ما فى حصن سراى الباشا من دواليب الساقية

تجرى المياه فوق هذه العقود حتى أسفل القلعة فتملأ هناك آبارا هائلة ، وترفع منها

(١) كلمة أوكوز كلمة تركية بمعنى : الثور . (د . السعيد)

بسواقٍ وترسل إلى ساقية بقصر الباشا ، ومنها تُوزَّع على المطبخ والأسبلة وحديقة أغوات الباشا والأحواض وأسبلة السوق . ويوصل ماء النيل إلى قصر الباشا كذلك بثلاث طبقات من السواقى ، وفى حصن السراى ساقيتان لماء النيل أحدهما بأسفل قصر إبراهيم باشا والأخرى أمام دار المحافظة . وهذه الأخيرة ساقية ذات أربع عيون تديرها أربعة أزواج من البقر . والمياه المرفوعة بسواقى الطبقة الوسطى تذهب إلى بئر العزب والاصطبلات وبعض الأسبلة وسائر الأماكن ، وهى ممزوجة بالماء المالح . وثمة ساقية فى قراميدان خلف مساكن فرقة الباشا الاستطلاعية ، وحى أمير الاصطبلات وعمر بن الفارض وهذه الأخيرة أعمق الجميع وهى أيضًا تابعة للميرى وبئر يوسف والسواقى الكبيرة ذوات العيون الخمسة ، وساقية الطبقة الوسطى وساقية حى العزب ، وساقية بعين واحدة بقصر أغا العزب ، وهى تأتى من السراى مارة بأسفل مسجد السلطان حسن ، والدواليب العظيمة التى فى مصر القديمة ، وحصن الباشا ، كلها من خيرات السلطان الغورى ، ينفق عليها ٢٠٠ كيس كل سنة ، وتعمل فيها ٢٥٠ بقرة وأمين الساقية ضابط من الانكشارية . وإذا نظرنا إلى أن أعز ما في مصر هو الماء فهذه خيرات عظيمة . لأن النيل يجرى على مسيرة ساعة من مصر . والمياه التى ذكرتها تذهب كلها إلى القلعة الداخلية ، لكون مصر السفلى فى غنى عن مياه تلك العقود والسواقى . وأرض مصر منخفضة ، ففى كل بيت وكل قصر وشارع آبار كثيرة .

في بيان آبار مصر السفلى

أرسل السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٧هـ فرمانا إلى بيرام باشا والى مصر ، وإلى على بك الجرجاوى ، ورضوان بك أمير الحج يأمرهم بالإحصاء والتحرير ، فأحصوا ، من واقع دفتر الغزالى وتعداد ابن كمال باشا ، جميع عمارات مصر وخاناتها وجوامعها ومساجدها ومدارسها واحدا واحدا ، وبينوا فى تقريرهم الذى رفعوه إلى السلطان أن مصر مفتقرة إلى الماء ﴿ومن الماء كل شيء حى﴾ وقد أحصوا آبار مصر وبولاق ومصر القديمة فوجدوها ٢,١٧٤,٠٠٠ بئر كلها ملحة ، ومياه جميع الحمامات ملحة كذلك ما عدا بئر حمام القيصونى وسبع آبار أخرى ، فإن مياهها صالحة للشرب ، وإنها لحكمة عجيبة وأمر غريب أن تقع مدينة على شاطئ النيل العذب الماء وتكون آبارها ملحة «يفعل الله ما يشاء بقدرته ويَحْكم ما يريد بعزته» .

وأما ماء القلعة الداخلية العليا وهواؤها ففى غاية الجودة وفيها الحياة ، إذ أنها مصيف مرتفع تهب فيها أحيانًا رياح جد شديدة ، وتكون مياهها باردة فى الخماسين فلذا يحملون إليها بعض المرضى لتغيير الهواء واكتساب الصحة ، فلا تمضى أيام قليلة حتى يشفوا بإذن الله وينجوا من عللهم . ومن جودة هواء القلعة ولطافته تجد عيون صبيانها كحيلة كعيون الغزال فى حين أن عيون صبيان مصر السفلى كعيون الغول جاحظة . . . وتلكم حكمة عجيبة .

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان المحيط الدائرى لقلعة مصر السفلى وأبوابها وأبراجها ومتاريسها

أنا الحقير وغلامان لى لبسنا أحذيتنا وقت السحر فخرجنا مدججين بالسلاح من باب القلعة المواجه لباب الوزير ، وسرنا خمسمائة خطوة منحدرين شرقا حتى بلغنا باب النظامية ، وهو باب خشبى مواجه للشرق . وسرنا نحو ٥٠٠ خطوة شمالا فبلغنا باب القرافة المنحدرة وهو باب خشبى مزدوج يقابل الجنوب ، سرنا منه نحو ألف خطوة أخرى بين المدافن حتى ظهرت أسوار القلعة خطوطا سوداء وألفينا باب الدرب الأحمر الخشبى المزدوج ، وقد اختفى سور القلعة في هذا المكان . إلا أن داود باشا أقام سورا داخليا باللبن ، وبعد مسيرة خمسمائة خطوة بلغنا باب المغرب ، وكانت فيه قرافة المغاربة فى عهد المعز لدين الله وهو باب خشبى صغير أسواره مجددة ، والمقابر التى هنا داخلة فى أسوار القلعة القديمة . وبعد أن سرنا ألف خطوة خارج هذا الباب متتبعين سور القلعة ألفينا برج الكوم وهو أحد الأركان الشرقية لقلعة مصر . سرنا منه شمالا ألف خطوة متتبعين سور القلعة وبلغنا باب النصر وهو باب حديدى مزدوج ارتفاعه عشرون ذراعا وعلى عتبته العليا تأريخ الجعفرى وصلاح الدين . وبهذا الباب تمر مواكب الحجاج والوزراء رائحات غاديات ، وهو باب كبير يفتح شرقا ، سرنا منه شمالا نحو خمسمائة خطوة متتبعين السور فبلغنا باب الفتوح وهو باب حديدى مزدوج فى ارتفاع عشرين ذراعا ، متجه إلى الجهة الشرقية . وهذا الباب مزدحم بالناس لوجود حى واروش[1] الكبير خارجه ، ويختفى سور القلعة غربى هذا الباب بين البيوت والحدائق والبساتين . وقد ذرعت أنا الفقير المدينة سيرا حولها فوجدت أبوابا عليها متاريس القلعة وكوات لضرب النار ، وتحفظ مفاتيح الأبواب في أيدى أئمة مساجد تلك الأحياء .

وعلى مسيرة ألف خطوة من باب البحر سيرا حول الحدائق يأتى باب اللوق (باب بحر اللوق) وهو باب خشبى غربى . وأمامه بيوت للدعارة ومشارب البوظة ، وعلى مسافة مائتى خطوة خارج هذا الباب غربا يأتى «باب عبادة» وهو باب خشبى متجه صوب

(١) واروش : كلمة مجرية تطلق على الحيّ المحصن بالخنادق والمجاور للقلعة الرئيسية بالمدينة . (د . السعيد) .

الغرب ، وبجانبه مسجد ذو أربعين عمودا ومئذنة واحدة ، يدعى مسجد الوالدة عبادة وجسر الخليج الكبير . وعلى مسيرة ألف خطوة من خليج النيل يأتى باب البحر وهو أيضًا باب حديدى مزدوج ويبلغ ارتفاعه عشرة أذرع ، وبجانب سوره مسجد مزار تفرجكاه (المتفرَّج) بساحته شجرة نبق باسقة لا نظير لها بمصر ، وإذا سار المرء من ذلك المسجد بشاطئ الترعة نحو مائتى خطوة جنوبا فاجتاز حديقة العجم ثم سار حتى «باب قنطرة الدكة» يكون قد قطع سبعمائة خطوة . وبجانبها جامع الشيخ شاذلى وهو مدفون فيه ، ويمر خليج الأزبكية من تحت هذه القنطرة وعلى مسيرة ألف ومائتى خطوة منه جنوبا باب السكينية وجامع السكينية مسجد مفرح فى هذا الموضع ، وعلى مسافة ألف خطوة جنوبا سيرا بين الحدائق والبساتين عبر مصنع اللبن يقع باب الدباغين الخشبى المطل صوب الغرب ، فوقه متاريس قلعة وأمامه جسر بعقد واحد ، وعلى مسافة خمسمائة خطوة منه باب السقائين وهو باب خشبى ناظر إلى الغرب ، والمسافة بينه وبين جامع الجبية عبر الحى الذى بداخله ، مائتا خطوة ، وتقطع سبعمائة خطوة أخرى للوصول إلى باب الأصمعى وفى هذا المكان سوق تسمى الناصرية ، وفيه أيضًا مسجد أمير الاصطبلات ، وكلا الجامعين مرتفع بهيج جميل ، وعلى مسيرة ستمائة خطوة من مسجد أمير الاصطبلات ، عبر قنطرة السبع يقابلك الباب الجديد وهو باب خشبى على طريق كبير وعلى عتبته العليا متاريس وفتحات لإطلاق النار ، ومنه إلى باب عز الدين نحو الجنوب من طريق السيدة رقية بنت الإمام على مسيرة أربعمائة خطوة . ومسجد جمال الدين فى هذا المكان . وباب عز الدين خشبى يقابل الجنوب . وعلى مسافة خمسمائة خطوة صوب القبلة عبر المدافن يقع باب خرط النصارى ، ويقابل الغرب وعليه متاريس وفتحات لإطلاق النار ، وبداخله حانات مصر ونساؤها العاصيات وصبيانها . وبعد سير نحو ٨٠٠ خطوة حول المدينة بجانب سور ذى طبقة واحدة يوصل إلى باب السيدة نفيسة وفيه جامع السلطان خير الأم وباب السيدة نفيسة خشبى متجه نحو القبلة . وعلى مسافة مائتى خطوة شمالا خارج حى السيدة نفيسة باب القرافة الوسطى . وإذا دخلت منه وسرت خمسمائة خطوة جنوبا مارا بالقبر الطويل بلغت باب القرافة الكبرى ، وهو باب خشبى كبير ناظر إلى الشرق ومنه الطريق إلى الإمام الشافعى وعمر بن الفارض . وباب ابن الفارض على مسيرة خمسمائة خطوة بجانب سور قلعة قراميدان . وإذا سرت

خمسمائة خطوة أخرى إلى الجنوب الشرقى ألفيت بابًا خشبيا وجهه إلى الشرق وهو باب الجمالين ، وهو بأسفل سراى الباشا بقرب ميدان القاواق[1] .

تم هنا وصف الأبواب التى بجهات مصر الأربعة وقد بلغ بنا التعب والإعياء منتهاه ولكنا لم نكتف بهذا القدر بل قوينا العزم ومررنا بالقرب من باب المطبخ صاعدين سور قلعة ميدان القاواق . ، متخطين خندق القلعة ، ثم مشينا حول حُجَر الانكشارية بالقلعة الداخلية وبلغنا باب النظامية بقطع ألفى خطوة أخرى . ووصلنا إلى مسكننا بالنظامية قبل المغرب متعبين منهوكى القوى .

إن مجموع مسافة الأماكن التى بها أسوار القلعة المحيطة بالأحياء السفلى يبلغ على هذا الحساب خمسة عشر ألفًا وخمسمائة خطوة ، بها واحد وعشرون بوابة . و٢٤٠ برجا و٧٠٠ متراس ، وأما الأبواب التى فى أماكن غير مسورة فخشبية وعليها متاريس وفتحات لضرب النار .

ولما أسفر صبح اليوم التالى ركبنا خيلنا فأسرعنا إلى باب النصر . ونزلنا عنده من الخيل فأمسكنا القلم والدواة وشرعنا فى العمل قائلين «ما الحساب إلا بالتمام» فابتدأنا نجول فى الأحياء الواقعة خلف الأسوار المحيطة بمصر خارج باب النصر وباب الفتوح حتى سلخانة الأغنام ، وسرنا منها إلى جامع الظاهر بيبرس ، ومنه إلى قنطرة الأزبكية ثم إلى قنطرة الميمون ، وتبلغ مسافة هذا الحى الكبير ألف خطوة . وخلاصة القول أن مسافة الدائرة التى تحيط بمصر والتى تشتمل ما كتبناه عنه بالأمس من المواضع المسورة وأبواب الأحياء غير المسورة ، وهذا الحى الخارج عن السور والبالغ مساحته الدائرة ألف خطوة ، تبلغ ثلاثة وأربعين ألف خطوة ، وقد شغلنا هذا العمل يوما وإلى الظهر من اليوم التالى ، أى أننا درنا حولها فى سبع عشرة ساعة من الزمن ويشمل هذا الحساب القلعة الداخلية بأقسامها وحصن الباشا ، وأما مدينة بولاق ومصر العتيقة ومصيف السلطان قايتباى وأحياء الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض وأبى السعود الجارحى فخارجة عن الحساب المذكور لأنها أحياء تبعد عن مصر بمسافات . فالمسافة المحيطة بمصر المحروسة ثلاثة وأربعون ألف خطوة والسلام .

---

(١) القاواق كلمة تركية تعنى «شجر الحور» . (د . متولى) .

وأما الخندق الذى بالجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية والشمالية لهذا الحى فقد امتلأ قمامة ، وكان فى عصر صلاح الدين قلعة عامرة جميلة . وقد جرت فى بعض أطراف المدينة خلجان كترعتى الأزبكية والناصرية ، بدل الخندق وعلى شواطئها الأبواب التى ذكرتها ، وإذا كان الليل مر الحراس والبوابون ورئيس الشرطة (صوباشى) والدويدار بتلك الأبواب فأغلقوها . إذ أن فى مصر من أولاد الحرام من الفلاحين والقواصين والأشقياء واللصوص ما لا نظير لهم فى سائر البلاد .

فى بيان ما فى دروب مصر السفلى من الأبواب

وللتخلص من أولئك الأشرار أنشئت فى كل ركن بمصر أبواب مفردة ومزدوجة وقد بنى الأعيان طنفا ومشربيات من درب إلى درب ومن عطفة إلى عطفة جاعلين منافذها على الطريق العام لرمى الأشقياء منها بالسهام والنار حين الضرورة ، ولكل ركن باب والبوابون تابعون لإدارة رئيس الشرطة . ويبلغ عدد الأبواب كما فى دفتر رئيس الشرطة ٢٦٠٠٠ بابٍ ، فيها أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة ، تغلق الأبواب جميعا بعد عشاء كل ليلة ، ولا يستطيع أحد الخروج من منزله بعد ذلك ، وتسلم المفاتيح لأئمة مساجد كل حى أمانة ، والبوابون مسئولون عن كل شىء وكل حادث فى الليل ومعرضون للعقاب فلذلك يبيتون واقفين خلف الأبواب متكئين على نبابيتهم ، ويدفع السكان للبوابين «ديوانيا» من العملة المصرية كل يوم لقاء خدمتهم هذه .

الفصل الرابع والعشرون
فى بيان الأحياء وقصور الأعيان العالية وسائر البيوت

تشتمل مصر أم الدنيا ، فيما بيّنا لها من سعة ، بناء على إحصاء الغزالى ، على سبعمائة وأربعين حيا إسلاميا ، بها ثمانية وسبعون قصرا منيفا من قصور أسر السلاطين السالفين ، يقصراللسان عن وصف كل قصر منها ، فعلى شاطئ بركة الفيل قصر قايتباى وفى قلعة الكبش قصر السلطان الجاولى ، الذى بأسفله قصر محمد بك ، وبمقابله قصر نزير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج ، وقصر ذو الفقار بك أمير الحج أيضًا ، وقصر يوسف بك أمير الحج السابق ، وقصر الشيخ صارى ، وقصر محمد بك بيقلى[1] وقصور محمد بك النوفالى وعباس أغا ومحمد أغا البلطجى ورضوان أغا وشعبان أغا رئيس المتفرقة ، وبكير أفندى كاتب الانكشارية (يكى چرى)[2] ، وكنعان بك وطاشياتير ، ومحمدينى قابيلى ، والشيخ البكرى والحاج باشا وأوزبك ومسعود أغا ، واثنان وعشرون ألف منزل من منازل المسلمين . وللأقباط عشرون محلة بها ستمائة منزل ، ومجموع الأقباط الدافعين للخراج ٩٠٠٠ نفس ، يحصله منهم أمير البحرية .

ولليهود حى خاص فهم يسكنون جميعا فى جهة واحدة ، وأزقتهم ضيقة ، وهم مُضَايقُون ، وليس فى إمكان الحصان أو الجمل المرور من طرقهم ، ويسكنون منازل ذات أربع طبقات وخمس طبقات ، وقد جعل فى كل خمسين خطوة درب يغلق بابه . وأسواقهم فى حيهم ، فلا تمسهم حاجة إلى أسواق أخرى . وفيه نقطة للانكشارية للمحافظة على الأمن ، وعدد دافعى الخراج من اليهود ٦٠٦٠ نفسًا .

وللأروام أربعة أحياء وللأرمن حيّان ، ويبلغ عددهم جميعا ٣٠٠٠ نفس من دافعى الخراج . وثمت خراج ستة أو سبعة آلاف من ضيوف الكفرة . وليس فى مصر من غجر الروم ، بيد أن المصريين كلهم من قوم فرعون . ويسكن فى حى بشاطئ الخليج كفرة من الفرنج ولكن بما أن فى مصر وكلاء سبعة من ملوك الفرنج ، فإن نحو ثلاث آلاف من هؤلاء الكفرة يتمتعون بالإقامة فى مصر دون أن يدفعوا شيئا من الخراج !

---

(١) بيقلى كلمة تركية معناها «أبو شنب» . (د . السعيد) .

(٢) كاتب أو سكرتير الانكشارية (المترجم) .

وموجز القول أن فى مصر سبعين شعبا ، ويتكلم فيها مائة وأربعون لغة . ففيها من اللغات عدا عشرين لغة نصرانية ، اللغة المغربية ، والأندلسية ، والبرناوية والأفنوية والدنقلوية والبربرية والفنجية والقرمانيقا Kirmanika والبكنسكى Begenski والحبشية واللبنانية والسودانية والتلمسانية والربية والميبورية والفارية والرجوية والنوبية وأمثالها من اللغات التى لا يمكن التعبير عنها باللسان ولا التحرير بالقلم . بيد أن أنا الفقير سأكتب عن كل أحوال مصر وأجناس مخلوقاتها كلٌّ فى موضعه إن شاء الله .

وصف باب زويلة[1]

لما كان حسين القائد بالله بن المعز لدين الله بانى مصر الجديدة[2] خليفة بمصر سنة ٤٨٠هـ ، عين أمير الجيوش أبا النجم بدر الدين الجمالى الذى كان سابقا وزير المستنصر بالله العباسى ، وزيرا له ، فهدم الوزير الجهة الجنوبية من الأسوار التى بناها جوهر القائد ، وأقام بدلها سورا متينا عاليا لا يزال بعض أجزائه تحت الأكوام فى جهات قايتباى ، وباب زويلة بناه أمير الجيوش المشار إليه فى ذلك العهد . مضى عليه واحد وخمسون[3] عاما حتى كتابة هذا الحقير تاريخه . ولم أر فى رحلاتى بابا عاليا فيه ما فى هذا الباب من الفن والزخرفة ، لما بنى بدر الجمالى هذا الباب جعل له طلسما عظيما ولم يجعل له مصراعين فلذلك كان يظل مفتوحا دائما ، وكان إذا أراد أحد أن يخطو الحجر الأسود الموضوع بعتبته ، قاصدا دخول مصر لارتكاب جناية أو قتل أو نهب راكبا كان أو راجلا ، تعثرت قوائم فرسه فوقع على أم رأسه فهلك ، أو توقف فرسه جامدا ، فلم يكن سبيل للناهب والباغى واللص لاجتياز باب زويلة ، ثم إن هذا الباب فضلا عن أنه مطلسم ، كان موضع اجتماع موسى والخضر عليهما السلام . فلذا لايزال مزارا باسم مقام الأربعين ، وكان طلسمه فعالا حتى خلافة الملك الكامل ناصر الدين محمد ، وقد أراد الملك الكامل ذات يوم أن يدخل منه لتأديب الأشقياء المتحصنين بالجامع الأزهر فتوقف جواده . ولما همزه بالمهماز وثب الجواد وانقلب على رأسه وتمرغ الملك فى التراب ، فغضب وذبح على عتبة الباب مائة رأس من الغنم ولطخه بدمائها ، وأفسد الطلسم بنزع ذلك الحجر الأسود منه ، ثم ركب له مصراعين وصار بابا يفتح ويغلق كسائر

(١) هذا القسم ناقص فى نسخة يلديز .
(٢) يعنى القاهرة . (المترجم) .
(٣) الصحيح ٦٠١ عام . (د . متولى) .

الأبواب ، ولا يزال بابا عظيما ذا مصراعين حديديين ، بنى السلطان صلاح الدين يوسف القلعة للمرة الثالثة سنة ٥٦٦هـ ، وفى المرة الرابعة وسع بهاء الدين القَرامَلى الأسدى ، وكان أميرا طواشيا كبيرا ، قلعة مصر ٥٦٦ هـ فجعلها ٣٩٣٠٠٠ ذراع هاشمى ، خوفا من ملوك الشام .

الفصل الخامس والعشرون

فى وصف ما بمحروسة مصر من الجوامع التى بناها السلاطين وسائر الجوامع

بمصر ستة وخمسون ومائة جامع بناها السلف من السلاطين ، ولم يخلف ملوك وسلاطين بلاد الروم والعرب والعجم ، بل بلاد المسلمين قاطبة ، جوامع عظيمة بهذا القدر ، فكل جامع يشبه جنة وسأزورها تباعا وأكتب عنها إن شاء الله ، ومن تلك الجوامع ، الجامع القديم والمعبد العظيم ، المستجاب الدعاء كعبة الفقراء ، ملجأ الضعفاء بمصر القديمة .

جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه

لما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون الذى نشأت عنه مدينة الفسطاط من بعد ، نصب خيام جيشه فى مكان هذا الجامع ، وحفر حولها خندقا وجعل يدفع شهداء المسلمين الذين يستشهدون كل يوم فى هذا الموضع . ومن حكم الله ، أنهم لما فتحوا قلعة مصر القديمة واقتضى الأمر طى الخيام وحملها رأوا حمامة عششت فوق خيمة عمرو بن العاص ، فلما أخبروه بذلك قال : «لا تحلوا الخيمة ، فإن الحمامة ضيف ينبغى إكرامه حتى تفرخ وتطير فراخها . وكل من اعتصم بنا من طائر أو إنسان أو حيوان فهو فى أمن وسلام» . حتى إذا فرخت وطارت أفراخها اعتادت الوقوف أمام عمرو واستأنست به ، وحلوا الخيمة وكان فى هذا المكان ديران كبيران أحدهما للأقباط والآخر للأروام ، فهدمها أيضًا وأنشأ جامعا وضع أسسه من الخندق المحفور مقدما . وإذ عادت الحمامة وعششت فى الجامع أيضًا سمى «جامع الفسطاط» . أتم بناء الجامع بأربعين ألف جندى ثم صاروا يصلون فيه دائما . فهو مسجد عتيق ، جم المناقب ، ولكنى سأكتب عنه ملخصًا .

هو جامع عظيم مربع الشكل كأنه حصن ذو متاريس . فمساحته طولا وعرضا مائة وثمانون خطوة موسَّعة . في الجهة القبلية والجهة الخلفية التى بها بابان مائتان وثمانون عمودا عاليا من الرخام الأبيض . وفى يمين الصحن ويساره مائتان وأربعون عمودا أبيض . ولم يكن له فى ابتداء بنائه جدر فى أطرافه الأربعة ، فلذا أقيم كله على أعمدة ولا تزال رؤوس الأعمدة ظاهرة فى بعض أماكنه حتى اليوم ، وفيه أيضًا ثلاثمائة عمود . ودكة

المؤذن أيضًا على عمد ، فمجموع الأعمدة على هذا الحساب ثمانمائة وعشرون عمودا ، لها عقود كأقواس السماء المقامة على ثمانمائة وعشرين عمودا عاليا ، وفوق العقود سقوف مزخرفة منقوشة ليس فيها قباب . ثم بنوا حوله سورًا عظيما من اللبن كأنه سور قلعة ليزيدوا فى متانة الجامع . منبره ومحرابه من الطراز القديم . فأما المنبر فمصنوع من الخشب الدقيق المنقوش . وأما المحراب فمن صلى فيه ركعتين فى الجمعة الأخيرة من رمضان المبارك نال سعادة الدنيا والآخرة بلا ريب . وصحنه الفسيح كصحراء مفروش بحجر رخو أبيض . وفى وسط الصحن حجر فوقانية ، وكان يقيم بها سابقا السيد علاء الدين الطائى قطب الأقطاب ولايزال يقيم بها الشيخ يوسف الشناوى صاحب السلوك . ولا تزال فى أطراف الجامع الأربعة مئات من الزوايا المظلمة يسكنها العارفون بالله ، الذين يفطرون مرة فى الأسبوع ، ومنهم الشيخ على الفارضى ورمضان العارفى القيصرى من أصحاب الكشف والكرامات . والشيخ علي الفارضى من السلاطين العظام الذين يتلذذون بعلم الموسيقى إن قرئ أمامهم . وإذا كان يوم الجمعة الأخير من شهر رمضان فى كل عام ، اجتمع فى الجامع وخارجه مئات الألوف كبحر زاخر من الناس ليصلوا الجمعة . ويقال أن أرواح الأنبياء تحضر إليه فى ذلك اليوم بلا ريب .

ولهذا المسجد سبعة أبواب وأربع مآذن ، فى كل ركن مئذنة ، وهى مآذن على طراز قديم وبجهة الركن الأيمن مصلى داخل درابزين . وفيه مصحف من كلام رب العزة كتبه عمر وعثمان رضى الله عنهما بيديهما الكريمتين بالخط الكوفى على جلد الغزال . وبالقرب منه مقام دفن فيه سبعة آلاف من الصحابة الكرام . وبالركن الأيسر مزار مربع يقال له «مقام الأوتاد» وللجامع محراب آخر ، بالقرب منه قطعة مربعة من الرخام الأبيض على ارتفاع ثلاثة أشبار من الأرض كتب عليه بالخط الجلى هذا التاريخ (إنما بنى بالتمام المكان الشريف سنة ٨٣هـ ، عمّر العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عمر المجلى التاجر من أكابر تجار حوض الشريعة عفا الله عنه لجامع عمرو بن العاص ﷺ البروق سبع بوابل بيع لوجه الله غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين صلى الله عليه وعلى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .)[1]

(١) هذا النص مشوش مضطرب ولكن بالرجوع إلى إدارة الآثار الإسلامية تبين أنه ينطبق على عمارة كبيرة أجراها بالمسجد الرئيس برهان الدين إبراهيم بن عمر بن على المجلى رئيس التجار بديار مصر ، قد هدم صدر المسجد بأسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولا وعرضًا ، وأزال اللوح الأخضر وأعاد البناء كما كان أولا . وكان انتهاء هذا العمل سنة أربع وثمانمائة . المقريزى ، جـ٢ ، ص٢٣ . (المترجم) .

وكتب على لوحة فى طول باع بيمين المنبر أربعون أو خمسون بيتا بالخط الجلى تاريخا لما قام به بيرام باشا من تصليح وترميم له أيام أن كان وزيرا لمصر سنة ١٠٣٢هـ . وإليك بيت التأريخ :

سيرا يدركن ايكى اكسيكلى ديدلر تاريخى

أثرن ايلدى أصحـاب كـزينك احـيـا

سنة ١٠٣٢ هـ

شاهده اثنان من الضعفاء فقالا تاريخه . أحيا أثر الصحابة الكرام .

فى وصف عجائب جامع عمرو بن العاص

وفى جامع عمرو بن العاص موضع جد عجيب جدير بالمشاهدة ، وذلك أنه يوجد أمام المدخل القبلى عمودان من الرخام منصوبان جنبا إلى جنب ، ويزعم الناس أن من كان نجسا أو عاصيا لا يستطيع المرور بينهما ، وإن كان طاهرا أو بريئا مر . فمن الناس من هو بدين ضخم ويمر كالبرق ومنهم من هو ضعيف نحيل ولا يقدر على المرور فيخجل . ويحكى أن «شاطرا» ممتازا من شطار أحد الأمراء دخل بينهما بقصد المرور فعجز عنه ، فاجتمع الحاضرون وأمسكوه من يديه بصخب وجلبة وأرجعوه القهقرى ، وما أن خرج من المسجد حتى أسلم روحه لسبب مجهول ، أهو الخجل أم أمر آخر . وغسِّل الرجل في غمضة عين ، وحضر على جنازته ألوف من الناس بعد تأديتهم صلاة الجمعة ، إنها لحكمة عجيبة .

وليس جامع عمرو مزخرفا كسائر الجوامع ، وله ما يزيد على مائتى خادم ، وحوله نحو سبعين أو ثمانين بيتا من بيوت الفقراء . ولولاها لكانت جوانبه الأربعة خرابات مصر العتيقة .

وصف الجامع الأزهر (جامع جوهرالقائد)

هو بناء الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بناه سنة ٣٥٨هـ . قدم عبد من بلاد المغرب يدعى جوهر ، يحمل بضعة آلاف كيس من المال وشرع فى وضع أساس هذا البناء في ساعة السعد والبركة ، بإذن من سلطان الأخشيديين[1] . وكان يعمل معه عشرة

(١) بعد زوال سلطان الأخشيديين وما قصه المؤلف خرافة . (د . عزام) .

آلاف عامل وكل المغاربة . حتى إذا أوشك بناء الجامع أن يتم خرج المعز لدين الله من المغرب مغيرا فدخل مصر فى غفلة من أهلها ، وامتشق المغاربة المتسترون باسم العمل فى بناء الأزهر ، الحسام وانضموا إليه ، وانتزع المعز لدين الله مصر من يد الاخشيديين واستقل بالحكم . ولما تم له ذلك عنى بالأزهر فاستقدم العلماء من كل البلاد وخصص لهم الطعام والشراب من اللبن والتمر وقطر النبات (يعنى عصير القصب) ولا تزال أوقاف الأزهر أقوى الأوقاف فى القطر المصرى ، ولما كان مباشر الأزهر عبدا مملوكا يدعى «مباشر» فهو لا يزال يذكر بذلك الاسم . كما أن المعز لدين الله صار ملك مصر لبناء جامع الأزهر بأمواله .

ليس فى مصر جامع له ما للأزهر من جماعة . وإذ هو واقع فى عين «فعل» مصر[1] فهو مزدحم بالناس ليلا ونهارا ، فلا تجد فيه موضعا للسجدة . يجتمع فيه اثنا عشر ألف طالب ليل نهار ، وتطن أصواتهم كأصوات النحل ، مما يدهش الإنسان . وقد انهمكوا فى مباحثات علمية .

وطوله من باب فى جانب إلى باب بالجانب الآخر مائة وسبعون خطوة موسعة ، وعرضه من باب المجلدين عبر الصحن الأصغر وباب الصحن الأكبر حتى المحراب مائة وخمسون خطوة موسعة ، وفيه مائة وعشرون عمودا أبيض عشرون منها مبنية بالحجارة وهى الأعمدة الصغيرة التى بين الصحن والجامع . وسقوف الأزهر الخشبية الخضراء الملونة بألوان متنوعة مقامة على أربعمائة عقد ، وليست به قباب . ويبلغ ارتفاعه قامة ثلاثة رجال ؛ فهو ليس بناء حجريا عاليا كسائر الجوامع ولكن به روحانية ، فمن دخله لم يرغب فى الخروج منه . وبه محاريب للمذاهب الأربعة . وقد كتبت على محراب الحنفية هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم﴾ . ومنبره خشبى منقوش ، وبالجانب الأيمن منه محراب خشبى كتبت عليه بالخط الجلى الأبيض على أرض زرقاء لازوردية هذه الآية ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ .

وبالجامع مائتا خزانة ارتفاع كل منها خطوتان ، وتتألف كل خزانة من ست طبقات أو سبع . ويبلغ عدد الخزائن على هذا الحساب ٩٠٠٠ خزانة مملوءة كتبًا وسائر حاجات

(١) عين الفعل من اصطلاح الصرف . (د . عزام) .

طلبة العلم من طعام وشراب . وبالأزهر حوالى ألفين أو ثلاثة آلاف من مكفوفى البصر حفظة القرآن ، ولشدة ما يحدث من الصخب والجلبة من المباحثات والمجادلات العلمية بين الطلبة ، يعجز المرء عن القيام بأداء الصلاة . وصحنه الخارجى فضاء مبلط ببلاط أبيض فى مائة وخمسين خطوة طولا وعرضا وإذا أضفت إليه الإيوان (الصُفّات الجانبية) بلغ ١٧٠ خطوة ، وصحنه مفروش بأحجار غير ملمعة . وتحته صهريج تنزل فيه مياه الأمطار التى تتجمع فى الصحن . وليس هذا فحسب ، بل يملأ هذا الصهريج بحمل أربعين ألف بعير من ماء النيل الذى يوزع على الطلبة فى شهر تموز (يوليو) . وبالصحن ثلاث فتحات ، والصهريج كأنه بحر ماؤه زلال . والأماكن المخصصة لإلقاء الدروس فى أواوين الأزهر تسمى بالأروقة ، ففى جوانبه الأربعة خمسون رواقا ، أى أماكن أقوام من خمسين بلدا والحق أن كل رواق من تلك الأروقة حافل بعلماء المسلمين ، بحيث أن سكان أى رواق لايعرفون عن سكان أى رواق آخر لغتهم ولا سائر أحوالهم ، فكل مشغول بعمله ، وإذا حضرت الصلاة «والعظمة لله» فكأنه يوم الحشر ، يحمل كل منهم كتبه وثوبه ويجدد وضوءه ويصلى ، ثم يعود إلى مذاكرة العلم . لا جرم أنى أنا الحقير لم أسمع فى الأزهر كلام هذه الدنيا الدنيئة ، فما زرته إلا تجردت من العلائق الدنيوية ونلت حظوة من حالة أخرى .

والجامع الأزهر حافل بالعلماء المصريين الذين يقومون بإلقاء الدروس فى سبعين مكانا ، فهناك رواق الروم (الترك) فى ركن خاص يقيم به الأتراك ، وهو رواق نظيف جدا ومحبوب لسكانه ، وكثير الأوقاف ، والرواق العربى والرواق المغربى ليسا بنظيفين ، وسائر الأروقة هى رواق الفنج ورواق الأكراد ، والرواق البلخى ، ورواق التتر ، ورواق الداغستانيين ، ورواق العجم ، وموجز القول أن طلبة من خمسين أمة يقيمون بأروقتهم المخصصة لهم ، ويعملون دوما على تعلم علوم مختلفة . وبالأماكن المسماة بالأروقة حول الصحن مائتان وخمسون عمودا من الرخام الأبيض إلا أن خمسين منها مبنية بالحجارة ، فيكون مجموع العقود على هذا الحساب أربعمائة عقد . وبداخل الجامع وخارجه ١٢٠٠ مصباح توقد كل ليلة ، فلا يحتاج الطلبة إلى استعمال مصابيح الشمع الخاصة ، ولما بنى القائد الجامع الأزهر عمل له طلسما ، فلذا لا تجد فيه أثرًا للطيور كالعصفور والخطاف والحمام والحدأ ، فهى لاتدخله ولا تعشش فيه إنه لطلسم عظيم .

وعلى باب محرابه مئذنتان ، كل مئذنة خمس طبقات . وعدد أبوابه سبعة وهى أبواب من الصفر مصنّعة . وعلى يسار الصحن حوض مساحته «عشر فى عشر» وحول الصحن الكبير مدارس ودار للحديث ودار للقراءة وحلقات الدروس كثيرة والطلبة لا عدّ لهم ، ثم أن هناك ـ عدا الأروقة ـ ربوعا إذا دخلها المرء تاه فى حجرها ، وهى كذلك تكتظ بأعيان العلماء والصالحين .

وخلاصة القول أن بالأزهر اثنى عشر ألف نفس ، ولا يحدث اضطراب فى مصر إلا وخرج علماء الأزهر صائلين وجولتهم خطرة جدا «اللهم عافنا» ، إلى حد أن قاتلا أو لصا إن اعتصم به تائبا متطهرا فلا يقدر الحاكم على انتزاعه منه ووضع اليد عليه . ويتلى فى الأزهر ألف ختمة يوميا . وإذا أراد أحد أن يهدى إلى أرواح أبويه وأساتذته وأولياء نعمه ختم القرآن العظيم ، فتسعيرته ٣٠ پاره . وإذا زاد طالب الختم فى الدفع فهم لا يتورعون عن الاستيلاء على كيسه غصبا . إن الواحد منهم يختم القرآن فى سبع ساعات ، ولجميع الفقراء من طلبة الأزهر رزق مقرر من مطبخ الله صباحا ومساء وهو صحن من حساء الأرز والعدس ورغيف خبز ، وفى كل ليلة جمعة يقدم إليهم الأرز واللحم بالبصل والحلو . وبداخل الأزهر هزيم كهزيم الرعد ليلا ونهارا . وفيه قضاة حكام من المذاهب الأربعة . وقاضى الأروام هو مصطفى افندى برواق الأروام . فكم من المجرمين والقتلة صاروا علماء . ولما كان المصريون يؤمنون بفضل الأزهر فهم يتصدقون عليه كثيرا ويؤدون زكاة أموالهم له ، كما أن صُرّرا وعطايا ترسل إليه من سائر البلاد ، فأوقافه هائلة يقصر اللسان عن وصفها .

أوصاف جامع السلطان أحمد بن طولون

فى سنة ٢٥٤ قدم السلطان أحمد بن طولون من الأتراك من أرض العراق إلى مصر ، ورأى رسول الله فى منامه وبنى هذا الجامع الذى يخاله من يراه قلعة . فإن أركانه المربوطة بالصواميل ، وما فى جوانبه الأربعة من المتاريس ، ومتانة جدرانه المضاعفة لا تتوافر فى قلعة . جامع مربع الشكل ، ترتفع جدرانه أربعين ذراعا فكأنه بنى على شكل الكعبة الشريفة . وإذ كان محرابه وضع بإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم فهو أصدق قبلة ، ومتفق مع جميع المواقيت والبوصلات ، وفيه الروحانية ، لأنه محط أنظار الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم إن هذا الجامع كعبة الفقراء ، لأنه معبد عتيق ، فقد وردت

أوصافه فى تاريخ الأقباط وكانت أرضه تسمى «الحمراء القصوى» ويطلق على جبله اسم جبل الكبش . ولما كان عمرو بن العاص يحاصر الفسطاط ضرب بنو يشكر خيامهم فى هذا الموضع فسمى (جبل يشكر) . ثم بنى أحمد بن طولون قلعة على هذا الجبل فسميت بقلعة الكبش وقيل أيضًا أنه سمى بذلك الاسم لأنه كان فى عصر الأقباط طلسم كبش من الصفر فى ذلك الموضع ، ناظر إلى جبال الأهرام بالجيزة ، وإذا رفس برجله وثغا كثر الغنم فى ذلك العام وأقيمت عند الكبش سوق للغنم ، ولاتزال سوق الغنم تقام فى ذلك المكان حتى اليوم . ثم إن موسى عليه السلام كان يرعى غنمه فى ذلك الموضع ويتعبد . ومحراب مسجد أحمد بن طولون هو الموضع الذى اجتمع فيه موسى والخضر عليهما السلام وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أحمد بن طولون فى منامه قائلا : «يا أحمد ابن مسجدا فى مقام أخيك موسى النبى» فبنى الجامع على جبل الكبش فى مقام موسى وعلى رسمه القديم الطاهر ، فهو معبد عتيق ، ومن صلى فى محرابه مرة كانت مقاصده الدنيوية والأخروية مقضية عند الله .

وطول الجامع من بابه القبلى إلى بابه الغربى مائة وعشرون خطوة موسعة فى عرض مائتين وعشرين خطوة موسعة ، وداخل الباب من الجهة القبلية قباب حجرية معقدة على تسعين عمودا ضخما مبنيا بالحجارة ، وفى أواوينه المحيطة بصحنه من جهاته الأربع مائة عمود مبنية بالحجارة كذلك . وبين العقود مائة وستون لوحًا من الزجاج . وأبوابه ستة ويصعد إليه من بابه الكبير الذى بالجهة القبلية بسلم صخرى ذى ثمانى عشرة درجة وفى تلك الجهة هوة ، وكانت مياه بركة الفيل تجرى فى ماضى الأيام فى أسفل هذا السلم ويتوضأ منها المصلون فى الجامع ، ولا تزال آثارها ظاهرة ، وفى وسط الصحن قبة عظيمة كأنها قلعة ، وتحتها حوض شافعى ، وعلى يسار الصحن نخلة باسقة لانظير لها فى إقليم مصر . ويستدل من تمرها أنها تثمر بأمر رسول الله ثمرا شبيها بتمر نخيل المدينة المنورة . وصحن الجامع مفروش برخام أبيض غير مصنع وبه مقصورتان .

ولهذا المسجد مئذنة عجيبة ، بنيت فى جهته الشمالية عبر الطريق بعيدة عنه وليس لها نظير فى مساجد بلد من بلاد المسلمين ، فجميع المآذن يصعد إليها بسلم بداخلها ، وأما هذه المئذنة فقد اخترع لها المهندس الفنان طريقة لصعود المؤذنين عليها من حولها من الخارج ، وهى مع ذلك ليست بغليظة . وقد بذل فيها الأستاذ ضروبا من الفن لايمكن وصفها والتعبير عنها ، فلابد من مشاهدتها ومتى كان السماع كالعيان . ثم

أنها أعلى من كل المآذن كذلك ، وقد وضع على ذروتها العليا بدل الهلال ، شعار كسفينة مصنوعة من النحاس ، ويقال أنه طلسم ، ويقول بعض أرباب المعرفة أنها علامة لغرق مصر بفيضان النيل حتى ذروة تلك المئذنة . لا جرم أنها مشهد عجيب .

وأراد الخطاط الشهير أحمد القره حصارى ، وهو فى طريق الحج إلى بيت الله الحرام ، أيام السلطان سليمان ، أن يترك أثرا فى مسجد أحمد بن طولون ، فكتب على جداره الأيسر بسملة شريفة فى طول أربعين خطوة . وكل ألف منها طولها ثمانية أذرع ، ومدّة سينهاسحر مبين . وهى مجلوة ومنسجمة مع نقوش الجدار يخيل إليك أن الكاتب لم يكد يفرغ من كتابتها ، وكتب فى أسفلها : الفقير أحمد القرة حصارى سنة (   ) ولمسجد أحمد بن طولون وبسملة القره حصارى شهرة لدى الرحالين من الروم والعرب والعجم ، وقد كتب بجانب تلك البسملة حرف الـ «و» ولفظة «الله» يبلغ عرض الحرف ثلاثة أشبار . وفيه بسملة كذلك بيمين الباب القبلى للصحن ، تكاد تكون طبق البسملة السابقة ، بيد أنها مكتوبة بالأبيض ، وهى أيضًا فى طول أربعين خطوة كتبها حسن چلبى القره حصارى .

وله بابان بجداره القبلى يفتحان على سوق المغاربة ، ففى ركن الباب الأيمن منهما مئذنة قصيرة ذات طبقتين ومئذنة ذات طبقتين فى الركن الأيسر الذى به المحكمة . فمجموع مآذنه ثلاثة منها تلك المئذنة العظيمة المصنعة ، ومما هو خليق بالعبرة فى هذا المسجد منبره الخشبى المصنوع بالأويمة[1] فإنه لسحر حلال يحار فيه عقل من يشاهده ، ومحرابه المصنوع بالفسيفساء سحر معجز .

وصف جامع الحاكم بأمر الله

أن أميرا من آل عباس ، قدم إلى مصر من بغداد فى حادث هولاكوخان وأقام بقلعة الكبش . ولما كانت سنة ٩٣١ أمر باسم الخليفة وبنى هذا الجامع[2] . وهو جامع كأنه قلعة عظيمة ، ويشغل ما بين باب النصر وباب الفتوح ، مساحته مائتا خطوة طولا وعرضا . وجملة أعمدته مائة وخمسون عمودا أبيض مبنية بالحجارة ، وأسقفه ملونة بألوان

---

(١) الأويمه كلمة تركية تعنى : النقش ، الحفر . (د . متولى) .

(٢) خرافة فيها أثر من قصة قدوم أحد الأمراء العباسيين إلى مصر بعد استيلاء التتار على بغداد ومبايعة الظاهر بيبرس له بالخلافة . (د . عزام) .

مختلفة ، ليست بقباب معقودة ، وبوسط صحنه الواسع حديقة غناء ذات ورود وريحان وأشجار نبق ونخيل . وقد سورت جوانبها بسور . ومنبره خشبى مصنَّع منقوش بالأويمة ومحرابه على الطراز القديم وليس بمصنع ، وله ثلاثة أبواب أحدها بجوار القبة مطل على باب النصر والآخر مطل على باب الفتوح ، والثالث مطل على يمين الجامع ، ومآذنه ثلاثة إلا أن المئذنة التى على المحراب صغيرة لا يستطيع رجل الصعود إليها ، وربما يستطيع ذلك صبى . وأما الأخريان فمئذنتان متينتان كأبراج قلعة تتسع الطبقتان السفليتان لخمسمائة رجل ، وقد بنيت فيهما متاريس ، والطبقة العليا منهما مصنعة ومزخرفة أعجز عن وصفها ، والطبقة الثالثة صغيرة ومصنَّعة أيضًا ، والقسم الأعلى مضلَّع كأضلاع عمامة رجال الطريقة البكتاشية . وموجز الكلام أنهما مئذنتان تفنن فيهما الصناع . وقد بناه الحاكم بأمر الله . وخصص لجماعته لبنا وتمرا وقطر النبات ومع ذلك لم تكثر جماعة مسجده ، فلما رأى عدم إقبال الناس عليها أمر بإهمال الأزهر وتحويله إلى مزبلة ، وملأ جامعه بجماعة . ولكن علماء الأزهر الذين سيقوا إلى هذا الجامع ابتلوا بالنسيان وفقدوا ملكة العلم ، فاضطروا إلى الفرار من جامع الحاكم بأمر الله واحدا واحدا والعودة إلى الأزهر ، وكان الأزهر مملوءاً بقمامة ، فرفعوها على ظهورهم حتى نظفوه وطهروه واتخذوا منه مساكن لهم ، وظلوا كذلك حتى قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ فنجا الناس من شره .

كتب عن سفاهات الحاكم بأمر الله شيء كثير ، وقد قيل إن مذهبه كانت تشتم منه رائحة الاعتزال ، وذهب بعض المؤرخين إلى أنه لم يتقيد بمذهب ، فلهذا السبب لا تصلى فى جامعه جماعة كبيرة وإذ كانت فى صحنه محكمة ، فقد تحول وسط الجامع طريقا بين باب النصر وباب الفتوح .

وصف جامع الظاهر بيبرس

وهذا أيضًا جامع عظيم يشبه القلعة قد بنى فى الجانب الشمالى من القاهرة وعلى مقربة منها ، حارب الظاهر بيبرس الكفار فى القدس فى أيام حكمه فهزمهم شر هزيمة وفتح القدس الشريف ، وبنى هذا الجامع بالأموال التى غنمها فى تلك الغزوة وهو جامع يقصر اللسان عن وصفه ، وليس فى مصر جامع فيه من فنون العمارة ما فى هذا الجامع والله أعلم . فمساحته مائة وخمسة وثمانون خطوة طولا وعرضا ، وفى جهة المحراب مائة

وسبعون عمودا من السماقى الأحمر والبرقانى والزنبورى والرخام الأبيض ، يساوى العمود منها خراج الروم ، وقد أقيمت قبته الشاهقة التى فوق المحراب على اثنى عشر عمودا ، سماقيا ضخما ، وزخرفت داخلها بضروب من النقوش الملونة المذهبة والفسيفساء والزجاج الملوّن . وكسيت الجدران التى حول القبة بالسماقى وألوان من الرخام الخام . وقد زين القسم الذى فوق الجزء المكسو بالرخام بأنواع من الزهور وشجرة طوبى من الحجارة الدقيقة ذات ألوان بديعة تكل العين عن النظر إليها ، وبصحنه بعض أشجار النبق ، وله ثلاث مآذن قصيرة ولعلها ناقصة ، والله أعلم . وله ثلاثة أبواب ، ولكن جماعته قليلة ، وقبة محرابه مكسوة من فوقه بطبقة من الرصاص ، وفى مصر قباب مغطاة بالرصاص وهى منها . ويمر بداخل الجامع طريق عام . وسقفه المقام على الأعمدة محلاة بالسيلو والأزرق ، والقبة ليست مبنية بعقد . وجوانبها الأربعة زجاج ملون . وأما ما فى المنبر ودكة المؤذنين من الفن والزخرفة فليس مثله فى مسجد من مساجد مصر ، وأما ما فى باب القبلة من الفن المعمارى فلا يوجد فى مملكة أخرى ، فهو مسجد واجب المشاهدة حقا .

وصف جامع ألجاى أتابك

هو من وزراء السلطان حسن ، ومسجده أمام ايواس بك فى صف حمام الدفتردار القريب من مسجد السلطان حسن ، يصعد إليه بثمانى درجات من سلم ذى جناحين وجدرانه منقوشة باللونين الأبيض والأحمر ، وسقفه المذهب المزخرف مقام على عقود ومنبر محرابه يشتمل على ضروب من الفن ، وله بابان أحدهما على يمينه ، ويوصل منها إلى دورة المياه ، وهو مبنى على الطريق العام فليس له صحن . وبابه القبلى يوصل إلى الطريق العام . وقد كتب على يمين هذا الباب ويساره بالخط الجلى الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ وعلى يساره العبارة التالية : «أمر بإنشاء هذا الجامع المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى الوالى أمير النعى النحاى أتابك العساكر المنصورة الملك الأشرف أعز الله نصر بتاريخ سنة ٧٧٤[١]» .

(١) هذا التاريخ ينبغى أن يكون هكذا : «أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى الأمير ألجاى أتابك العساكر المنصورة الملكى الأشرفى عز الله نصره بتاريخ شهر رجب سنة أربع وسبعين وسبعمائة .
(المترجم) .

وصف جامع السلطان المؤيد

كان ملكا كريم الأصل ، وكان له هذا الجامع العديم النظير الذى يقصر اللسان عن وصفه . هو جامع فوقانى تحته طابق سفلى وحوانيت ، ويصعد إلى بابه ذى الثلاث جهات بسلم حجرى مزدوج ذى خمس عشرة درجة ، وبجانبه سبعون نافذة مطلة على الأسواق السلطانية . وهو مبنى فى مكان مزدحم بالناس ، فهو أكثر المساجد جماعة بعد الأزهر ، ثم إنه مسجد طلق الهواء نيِّر يشرح الصدر ، ومساحته ثلاثمائة وعشرون قدما طولا وعرضا بقدم متوسطة ذات خف وإن قستها بالخطو فمائة وستون خطوة ، وسقف جهة المحراب عقود خرفة منقوشة مقامة على أربعة وثلاثين عمودا رفيعا ، مذكرة بإيوان كسرى ، وليست به قباب وبإيوانه الدائر حول صحنه خمسة وتسعون عمودا رخاميا أبيض ، ومجموع أعمدته مائة وثلاثون عمودا ، وقد كسى جدار المحراب كله بقطع كبيرة فى طول قامة ثلاثة رجال طوال ، من السماقى المموج والرخام المختلف الألوان ، وصحنه الواسع كالصحراء مفروش بضروب من الرخام الملون المصنع ، والرخام الأبيض والفسيفساء ، فرشا يعز نظيره فى مساجد الدنيا ، وهو ملمَّع دائما لجفاف أرض الجامع لكونه فوقانيا ، والرخام الذى يكسو جداره الداخلى ملمَّع إلى حد أنك ترى فيه وجوه الناس وركوع المصلين وسجودهم وهو كثير الأوقاف ، وخدمه كثير ، يقومون بتنظيفه دائما ، ويتوسط صحنه حوض عظيم عليه قبة رفيعة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام ، ونافورته جارية دائما يجدد فيها الناس وضوءهم بلا انقطاع .

ولمسجد المؤيد ثلاث مآذن ، اثنتان منها مؤلفتان من ثلاث طبقات ، ومقامتان على جانبى الباب متقاربتين جدا . وهما مئذنتان رشيقتان تُعدان آية فى الفن . ومئذنته الثالثة بيمين المحراب البديع ، ومنبره خشبى ولكنه مصنوع بخشب مخروط خرطًا دقيقًا كأنه الصناعة الهندية المعروفة بالفسيفساء (فصو صكار) ودكة المبلغين العظيمة المزخرفة ، كأنها مقصورة مقامة على أعمدة منسجمة . ونوافذه السبعون أقفاص من الصفر ، ومائة وعشرون زجاجًا معقودًا . وموجز الكلام أنه مسجد بديع مُفرح . وأما مصابيحه المعلقة فلا توجد فى مساجد أخرى ، ففى قبة المحراب ثريا مشتملة على ألفى قنديل ، كأنها منارة مضاءة .

ولأن هذا الجامع بناء متين كالقلعة اعتصم به رجال الجيش الذين ثاروا على عمر باشا سنة ١٠٧٢هـ أيام أن كان والى مصر ، فانضم إليهم كثير من الطغاة وظلوا يقاتلون

ثلاثة أيام ولياليها ، حتى اضطر عمر باشا إلى مسالمتهم بالاستمالة والعفو عما ارتكبوا من الجرائم ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه بل نظموا صفوفهم واستمروا فى النهب والسلب فى بعض جهات المدينة ، فما كان من عمر باشا إلا أن رفع اللواء المحمدى الشريف وأخرج منادين ينادون أن من يطيع السلطان فليحضر إلى علم رسول الله ، وأن العصاة قد حل قتلهم ونهب أموالهم ، ورءوسهم ملك للسلطان ، ثم تقلد عمر باشا سيف عمر رضى الله عنه وأخرج خمسًا أو ستًا من مدافع «باليمز» ، وأنشأ متاريس فى جهة «حمام صوباشى» وأطلقت من المدافع بعض قذائف على جامع المؤيد ، والثوار مشغولون بإطلاق النار من سطوحه ونوافذه ، ومن العجيب أن أول قذيفة أطلقت على الثائرين أصابت رئيسهم فى رأسه فصاروا بلا رأس ولا رئيس . وانقلب قرارهم إلى فرار ، وأشربوا كئوس المنية وهم يفرون من زقاق إلى زقاق ومن حارة إلى حارة . ولما تم ذلك عاد الباشا إلى القلعة مظفرا منصورا ، وأمر بتتبع الثوار والقضاء عليهم ، وأعاد إلى مصر الأمن والسلام ، وكان عمر باشا عمريا فى عدله وشجاعته حقا! ولاتزال آثار القذائف واضحة على بعض جدران الجامع .

وصف جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون

كان ملكًا من الأتراك عظيم الشأن ، وثار عليه مماليكه فقتله فدائى يدعى يَلبُغا ، ثم قتل يلبغا كذلك بيد الملك الأشرف ، وهو من نسل السلطان محمد بن قلاوون ، ولقى جزاءه الجدير به ، وكان ليلبغا مملوك چركسى يدعى برقوقا ، وقد اشتهر ببرقوق العثمانى لكونه فى خدمة السلطان خداوندكار الغازى من سلاطين آل عثمان[1] قبل أن يصير مملوكا ليلبغا . جمع برقوق حوله الچراكسة والأباظيين وثار مطالبا بدم سيده يلبغا ، فانهزم واضطر إلى الفرار مع الذين كانوا معه من الچراكسة والأباظيين ، لجأ برقوق إلى السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبى سعيد بالشام وصار وزيرًا له ، وأرسل مقدار «خزينة مصر» من الذهب إلى مصر صدقة على روح سيده يلبغا وعمارة مسجد السلطان حسن .

بنى السلطان حسن مسجده العظيم الجدير بمثله فى ميدان الرميلة بالقاهرة ، وهو جامع وحيد تحت القبة الزرقاء . إنه وجميع ملحقاته قلعة أخرى شدادية صخرية

(١) لفظ خداوند كار لقب للسلطان مراد الأول . (المترجم) .
وذكر برقوق هنا يعتبر من خلط المؤلف المعهود . (د . عزام) .

الأساس ، ليس فيه بناء خشبى قط ، كما أنه لا يتصل به شيء . جوانبه الثلاثة طريق عام ، وأساس جدرانه من الحجارة الضخمة ، وكل قطعة منها فى حجم جثة فيل . ومساحته الدائرية ألفا خطوة . رآه السلطان سليم فاتح مصر من العادلية : فسأل ما هاتان المئذنتان الظاهرتان كأنهما قلعة؟ وقيل له هو جامع السلطان حسن . فقال : يا ترى هل يحاربنا الغورى متحصنا به[1] ؟! يعنى بذلك أنه حصن متين إلى حد أنه يفوق قلعة مصر متانة . ثار الجنود مرة فاعتصموا به ، فأطلقت عليه عدة قذائف من مدافع «باليمز» التى كانت فى برج العزب بالقلعة ، ولكن لم تؤثر فيه القذائف ، ولا تزال أماكنها ظاهرة حتى اليوم .

وبجدرانه الأربعة عشر طبقات من نوافذ المدرسة ، وهى حُجَر متعددة الطبقات والأقسام . وارتفاع جدرانه المحيطة به مائة ذراع . إنها لجدر شاهقة ، فقد زاد ارتفاعه عن إيوان كسرى إحدى عشرة ذراعًا . وقد زينت الجدران من الخارج بمقرنصات ، وله بابان يفتح أحدهما شرقا على سوق السپاه ، وهو جامع مرتفع عن الأرض يصعد إليه من بابيه بعشرين درجة من سلم حجرى . وفوق هذا الباب عقد على طراز المحراب ، بذل فيه الأستاذ الفنان الماهر قدرته على زخرفة الرخام إلى درجة أن جعله سحرا معجزا . فهو عقد باب انقلب إلى سماء فى ارتفاع ثمانين ذراعا ، وله مصراعان من الصفر المفرغ البديع ارتفاع كل منهما عشرون ذراعا . وبجانب الباب قطعة مربعة من الرخام الأبيض والأسود فى طول قامة ثلاثة رجال ، كتبت عليها كلمة الشهادة بالخط الكوفى العريض ، وقد ظلت ثابتة هذا الزمن الطويل ، وما فنيت وإذا دخلت من هذا الباب فأمامك ممر ضيق مفروش رخاما أبيض وصل إلى باب الصحن بعد مسيرة مائة خطوة . وللصحن أيضًا بابان يفتح أحدهما على ميدان الرميلة يوصل إليه بقطع مائة خطوة مفروشة بالرخام ، ويكاد هذا الباب يكون الباب المطل على ميدان السپاه فى ارتفاعه وزخارفه الفنية . وقد كتبت فوقه هذه العبارة .

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك في شهور سنة ٧٦٤هـ» .

---

(١) سليم لم يدخل القاهرة إلا بعد موت الغورى . (د . عزام) .

ومساحة الصحن مائة وثمانون قدمًا طولاً وعرضًا ، وبجوانبه الأربعة أربعة أروقة هائلة يصلح كل رواق منها أن يكون مسجدًا ، وداخل هذا الجامع يخالف الجوامع الأخرى إذ ليس به أعمدة كما فى سائر الجوامع ، فقد بنيت سقوفه كلها عقودا بجوانبها سبعمائة حجرة مدرسية ، يسكنها الآن خدم المسجد الجاهلون ، ويتوسط الصحن حوض مثمن ظريف بجوانبه الثمانية ثمانية أعمدة رخامية دقيقة ، بنيت عليها قبة عالية ، مبيضة بالجير ومزخرفة منقوشة .

ورد فى تاريخ فضائل مصر أن يزيد بن معاوية أرسل إلى المصريين فى سنة . . . بعد الهجرة رأس الإمام حسين بن على ، وهم يرفضونه ، فتُرك فى موضع مسجد السلطان حسن ، وظل آلاف من اليزيديين يدفعونه بأرجلهم . فنشأ فى أرجل الكثيرين منهم مرض التورم فصارت كأنها قربة منفوخة ، ولا يزال فى مصر ألوف من ذريتهم ذوو الأرجل القربية . ثم أراد الله حفظ الرأس الشريف ، فظهرت بركة حوله فاختفى عن اليزيديين ، ثم ذبح أحد محبى آل الرسول ابنه فوضع رأسه موضع رأس الإمام حسين وأخفى رأس الإمام فى موضع المشهد الحسينى الحالى ، ثم بنى المشهد فى أيام العباسيين . ولما كانت سنة ٧٦٤هـ أنشأ السلطان حسن هذا الجامع ، وتبرك بجعل الحوض العظيم فى موضع البركة التى ظهرت محافظة على رأس الإمام . وحكمة الله أنه لما ثار الأشقياء من جنود السلطان حسن قتلوه على حافة الحوض المبنى في مكانه البركة التى ظهرت محافظة على رأس الإمام ، وسال دم حسن كما سال دم الحسين في الحوض ، جف الماء فى لحظة! وجاء بعد ذلك أبناء السلطان حسن والوزير شيخون فأنشأوا ساقية لاستخراج الماء من بئر ، ولا يزال الحوض يُملأ بواسطة ساقية ، كما أن الناس لايزالون يجددون الوضوء من ذلك الحوض على أنه المقام الحسينى ، فيذكرون السلطان حسنا والإمام الحسين ، بتلاوة الفاتحة على روحيهما مترحمين[١] .

ودكة المبلغين مبنية على ثمانية من الأعمدة الدقيقة ، بناء عجبا لا نظير له فى مصر . وأما ما فى محرابه من صناعة الفسيفساء «الفصوصكار» الهندية والفسيفساء الدقيقة ، فتكاد تخرج عن مقدور البشر ، ومنبره عجيب تجب مشاهدته ، فقد صنع من الرخام الخام على طراز فريد لا يوجد له نظير فى مسجد . فقد نقش الفنان على رخام المنبر ورودا ومهربانيا (نوع من القماش المحلى) وزهر الفل الأسلمى المختلف الألوان نقشا يشبه الفن المعروف بالأويمة الفخرية ، نقشا لو اجتمع كل الحجارين وصناع الرخام

(١) لاحاجة إلى بيان ما فى هذا الكلام من تخليط وتخريف . (د . عزام) .

لما استطاعوا أن يزيدوا عليه نقشة ! فكأنه منبر معلق ، ويمر الناس من تحته . وكسيت ثلاثة من جدران القسم الذى فيه المنبر بألواح من الرخام الأبيض والسماقى الأحمر واليرقانى فى طول قامة ثلاثة رجال . والسلطان حسن مدفون فى قبة شاهقة بيضاء أمام المحراب . ويعلم الله أنه ليست فى الربع المسكون قبة مزخرفة مزينة نيرة مثلها ، وفيها ، عدا النقوش الذهبية المختلفة الألوان ، كتب نفيسة ومصاحف مزخرفة ، ومصابيح ثمينة ، وبسط مزركشة ، ومئات من قناديل ومصابيح ومباخر وأوانى ماء الورد المحلاة بالجواهر الثمينة التى لاتوجد أمثالها إلا فى قبة رسول الله الشريفة .

وهناك نافذتان ، إحداهما على يمين المحراب والأخرى على يساره ، وهما مواجهتان لقبر السلطان حسن . ولهما قفص من الصفر تستخدم إحداهما بابا لقبر السلطان ، وللنافذتان مصاريع ارتفاعها طول ثلاثة رجال فى عرض باعين . وقد حليت المصاريع من أولها لآخرها بالميناء بالسيلو Silu واللازورد الرمانى والأزرق والأحمر على الذهب والفضة . ويقال أن درفة منها تساوى خزينة مصر وهذا قول حق ، وليس فى قدرة أحد من الفنانين فى صناعة الذهب أن يلمسها بمطرقة أو مبرد حتى اليوم ، والبيت الآتى قيل عن هذا الجامع .

رأيت مساجد الدنيا جميعا ولكن ما رأينا مثل هذا

وللجامع مئذنتان عاليتان بنيتا على جدار جانبى المحراب . وسقطت المئذنة اليسرى فى عهد إبراهيم باشا الدفتردار ، فبنى مئذنة جديدة على أساسها إلا أنها صارت أقصر من الأولى بطبقتين ، وأما المئذنة اليمنى فشاهقة ، تنوَّر بخمس طبقات من المصابيح ، وليست فى القاهرة مئذنة أعلى منها . يُصعَد إليها بتسعين درجة من داخل المسجد حتى باب السطوح ، ثم يُصعَد إليها بتسعين درجة أخرى فى داخلها فمجموع درج السلم مائة وثمانون درجة إلا أن كل درجة منها نصف ذراع معمارى . فقد صعدت إليها مرة ، أنا الفقير ، فمكثت ثلاثة أيام عاجزا عن الوقوف على ركبتى . إنها لمئذنة شاهقة تقابل طبقتها الوسطى ، حسب القواعد الهندسية ، عتبة باب القلعة الداخلية ؛ فقياسا على ذلك يمكن معرفة مقدار ارتفاع القلعة ومبلغ جودة هوائها .

ويمر طريق من أسفل الجامع وبجانبيه مبان حجرية ونحو خمسين حانوتا ، ودورة للمياه وأحواض شافعية ، ومضيفة وكلها مبان عظيمة ذات أوقاف متينة يقوم بنظارتها أمناء خزينة مصر ووزراؤها والسلام .

وأمام مسجد السلطان حسن عبر الطريق :

جامع محمود باشا

هو من وزراء السلطان حسن ، أنشأ هذا الجامع حين كان واليا لمصر ، فرأى فيما يرى النائم أن السلطان حسن ارتقى سرير الخلافة وعقد ديوانا عاليا جمع فيه كل علماء مصر وقال لهم : «إن لى قضية شرعية مع محمود باشا الذى بنى مسجدا فى حدود الجامع الذى بنيته ، فسرق جماعة مسجدى فما جزاؤه شرعا؟ قال العلماء : (ابركنى) «ينبغى أن يخلع عليه ، لأنه بنى المسجد بأمنية التقرب إلى الله وسرق الرحمة» ، فما كان من السلطان حسن إلا أن غضب وأحضر الجلاد وأمره بقتلى ، فأبركنى وقتلنى ، وطلب محمود باشا إلى إمام مسجده تعبير رؤياه ، فعبرها بأنه يخلع عليه لباس حسن ، وأنها رؤيا حسنة ، وحدث أنه حين كان محمود باشا يمر بموكبه أمام مسجد السلطان حسن فى اليوم التالى ، إذا جندى يطلق عليه رصاصة فيقتله ويشرع فى الهرب ، ولكن جنود محمود باشا قبضوا عليه بعد أن أنزلوه عن فرسه ، فألقوه على جثة الباشا وضربوا عنقه بالسيف ، وحكمة الله أن السيف أصاب عنق الباشا وفصل رأسه عن جسده ، ثم إنهم قتلوا الجانى أيضًا بجانب الباشا . ولايزال الباشا مدفونا فى قبة أمام المحراب وقد أرخ استشهاده بالسطر الآتى : «عاقبت محمود شد» سنة ٩٧٥هـ .

وهو جامع فوقانى صغير ظريف ، مبنى على الطراز الرومى الجميل ، يُصعد إليه باثنتى عشرة درجة من سلم حجرى ، ومئذنته على طراز مآذن جوامع اسلامبول ، وعلى يساره عبر الطريق :

جامع أمير الاصطبلات الكبير (أمير آخور)

وهذا أيضًا جامع صغير فوقانى مصنَّع ، وكل جدرانه الداخلية مزخرفة منقوشة ويصعد إلى الباب الذى بجانبه الأيسر بست عشرة درجة من سلم ذى فرعين . ونُقشت على عقد هذا الباب الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وقل ربِّ أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرًا﴾ ، وعلى يمين الباب ويساره كُتِبت على رخام بالخط الجلى العريض العبارة الآتية :

أنشأ أيام هذه المدرسة المباركة من فضل الله ، المعز الأشرف المولى الموالى لتنغى (فانالى) أمير آخور كبير أعزه الله تعالى .

بابه أربع طبقات ومئذنته مبنية مضلعة بأضلاع أربعة . وهذان المسجدان ليسا من مساجد السلاطين ، وإنما كتب عنهما هنا لاتصالهما بمسجد السلطان حسن .

جامع السلطان الغورى[1]

هذا الجامع أحدث المساجد عهدا لأنه أنشىء بعد كل الجوامع ولهذا فقد سرق مهندسه الفنان من كل مسجد فنا ، فأظهر فيه ضروبا من آثار مهارته وفنه ، وأبان صنعته . فقد نسق المرمر والسماقى التى بجدرانه الداخلية تنسيقا بديعا ، ووفق بعضها ببعض إلى حد أنه لم يبق فيها موضع لرجل بعوضة وكأنها صنع الله ، ووفق بين الأحجار الرخامية التى فرشت بها أرضه توفيقا إن أمعنت فيها النظر خلتها قطعة واحدة وليس لها نظير إلا فى رخام قاعة قصر صاحب هذا الجامع . ولما كان الجامع فى سوق الغورى ، وسط المدينة كانت جماعته كثيرة جدا ، ولكن أبوابه تغلق بعد أداء الصلاة ، لأنه لا يمكن إنقاذه من فلاحى مصر بغير ذلك ، لأنه مسجد فردوسى شبيه بقصر ظريف طلق الهواء خفيف الروح ، فلو بقى مفتوحا لانقلب إلى مضيفة ، وهو مسجد عال عن الأرض يصعد إليه بتسع درجات ذى فرعين في السوق السلطانية . وله باب آخر خلفى فى جهة القبلة[2] يفتح على صانعى الطواقى يصعد إليه بعشر درجات أيضًا ، وله محراب مصنع فنى لو اجتمع مهرة صناع الفسيفساء الفصوصكار» الهندى على أن يأتوا بمثله من الفسيفساء لما استطاعوا ذلك ، أما منبره فمختصر مفيد ، لأنه مصنوع من خشب العود ، فلذا ليس فيه شىء من النقوش ، وجوانبه الأربعة قباب معقودة وليس فيها أعمدة قط .

وزين هذا المسجد بأنواع من المصابيح المعلقة الثمينة ، ونوافذه المواجهة للسوق السلطانية مزخرفة بالفسيفساء الدقيقة من الزجاج الملون حتى إذا ألقت الشمس نورها صار داخل المسجد نورا على نور . وليس لهذا الزجاج نظير إلا فى جامع السليمانية باسلامبول . بيد أن هذا الجامع بنى فى موضع ضيق ، فلذا ليس له صحن ، فهو كقصر منيف . وأما قبته التى فوق المحراب فقبة شاهقة زرقاء ، مكسوة بالقاشانى اللازوردى ومئذنته ذات أربع طبقات ، ذروتها العليا متشعبة .

---

(١) من هنا حتى «تربة السلطان الغورى» غير موجود فى نسخة بشير أغا وهذا الجزء مأخوذ من نسخة يلديز . (المترجم) .

(٢) ليس فى مسجد الغورى باب فى جهة القبلة وأظن المؤلف أراد الجهة المقابلة للقبة . (د .عزام) .

ويقابله عبر الشارع

تُربة السلطان الغورى

قبة شاهقة مكسوة من فوقها بالقاشانى اللازوردى بدل صفيح الرصاص . وهى لاتزال زاوية تقام فيها الصلاة جماعة ، ولها خدم . وهذه القبة أيضًا مرتفعة يصعد إليها بعشر درجات من سلم حجرى . وتربة الغورى زاوية ولكن ما أشبهها بقصر ملكى . فنوافذها المطلة على الأسواق السلطانية من جوانبها الأربعة مزخرفة محلاة بالذهب والألوان المتنوعة كأنها من صنع الله . استعمل فى بنائها من الفنون والزخرفة ما جعلها قصرا من قصور «إرم» يعجز اللسان عن وصفه . بناها المرحوم السلطان الغورى بهمة عظيمة وعناية فائقة فى زخرفتها لتكون له قبرا يُدفن فيه ، ولكن «العبد يدبر والله يقدر» فصارت زاوية للصلاة إذ فقد الغورى فى حربه مع السلطان سليم خان[1] . وفى هذه القبة خزانة يحفظ فيها فى علبة محلاة بالجواهر بعض مخلفات الرسول عليه الصلاة والسلام ومنها فوطته ومكحلته ومروده وبعض شعراته ، يعرضها الناظر على من يريد من الأعيان رؤيتها تبركا . وحدث أنى حين عدت من ولاية الفُنج وقد كلت عيناى من الحر ، تجرأت بلا حياء وكحلتهما مرة من تلك المكحلة ، وشاهدت نفعها إذ زاد نظرى قوة وبعدا .

وفى هذه القبة والجامع الذى أمامه طلسم عجيب . ذلك أنهما يمتازان بالخلو من البعوض والذباب والبق . وإذا زارهما غريب ذو قمل بضعة أيام مات قمله وبراغيثه ونجا من تلك الحشرات ، إنه لطلسم عجيب ، وقد شاهدت أنا الحقير تأثيره بنفسى إذ وقفت على أن ليس فيهما البعوض والذباب البتة ، فطالما كنت أذهب إلى القبة مع ناظرها فنستغرق فى نوم أهل الكهف ، ونستريح فى ذلك السرداب الطلق الهواء بعيدين عما يحدث الذباب من العذاب ، وكثيرا ما يشتاق إليها ظرفاء المصريين لذلك السبب ، وحاصل الكلام أنها موضع يجب مشاهدته والسلام .

وبعدها :

أوصاف جامع السلطان برقوق

كان ملكا مجاهدا في سبيل الله من مختارى دولة الچراكسة . كان فى أول أمره

(١) قتل الغورى فى معركة مرج دابق شمال حلب سنة ١٥١٦م ، ولم يتم العثور على جثته بعد المعركة . (د . متولى) .

عبدًا اشتراه يلبغا التركى قاتل السلطان حسن . حتى إذا قتل الملكُ الأشرف ذات يوم سيده يلبغا جمع برقوق أربعين أو خمسين ألفا من الشركس والأباظيين وقام بالمطالبة بدم يلبغا سيده المقتول ، فانهزم وطرد مع أعوانه ورفقائه إلى الشام . إلا أن برقوقا نجح فى الشام وعلت مكانته حتى قام بفتوح عظيمة فى عكا وصيدا وطرابلس الشام ، ثم عاد إلى مصر بجيش كالبحر وصار ملكا وخطب له بعنوان «الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن النمر؟ العثمانى» حتى عام [٨٠١هـ] وبرقوق أول سلطان من الشراكسة ، وبنى مسجده هذا بما جاء به من الشام من أموال الغنائم ، وهو مسجد مرتفع عظيم على الطراز القديم فى السوق السلطانية ، ويصعد إليه بثمانى درجات من سلم حجرى ، ومساحته مائة وسبعون قدما طولا وعرضا ، ويحيط بصحنه من جهاته الأربع أروقة مقامة على عقود حجرية ، وبصحنه حوض عظيم ، ومنبر المحراب على طراز قديم ، وله مئذنتان ذواتا ثلاث طبقات لا تشبه إحداهما الأخرى أية مشابهة فقد عنى الفنان الماهر بكل واحدة منهما عناية خاصة فأخرج للناس سحرا معجزا من الفن . وبابه المنفتح إلى السوق ليس له مثيل فى مسجد آخر . فعقوده وزخارفه البديعة و بابه ذو المصراعين النحاسيين يبعد أداء حقها من الوصف وخاصة بابه فإن له شهرة لدى رحّالى الدنيا ، ويعجز اللسان عن وصفه . وعلى المحراب الآية الآتية : ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ . وتحتها «أمر بعمارته فى أيام مولانا السلطان برقوق سنة ٧٧٧هـ»

وليس فى هذا المسجد عمود ، وكله مبنى بعقود حجرية وأما صحنه من الرخام المتنوع فليس له وجود فى غيره .

ويتصل بهذا المسجد (وبنى سنة ٦٣١هـ) :

جامع السلطان الملك الكامل محمد

كان ملكا شجاعا دينا كاملا من أعاظم ملوك الأيوبيين . ومسجده تحتانى (أرضى) وليس بحاجة إلى التعريف والوصف ، لأن طراز بنائه مطابق لطراز بناء مسجد السلطان برقوق مطابقة تامة فكأنهما بناء واحد . وإن كان ثمة فرق فهو فى المئذنة فمئذنته واحدة ومن طراز آخر ، وقبته العالية مصنوعة من خشب على شكل مدور ، وهى واحدة من القباب المغطاة بالرصاص . فالفرق بينه وبين مسجد السلطان برقوق إنما هو فى القبة والمنارة والسلالم .

وفى صفّه أيضًا :

جامع السلطان ناصر الدين

يتجلى من آثاره أنه كان ملكا حسيبا نسيبا من بنى أيوب[1] ومسجده يضاهى مسجد السلطان حسن ، فقد نظم داخله على نفس القواعد الهندسية المستعملة فى مسجد السلطان حسن ، عقود حجرية وليست به دعامة . ومساحته مائة وخمسون قدما طولا وعرضا ، ومنارته المزخرفة مبنية على مثال برج عسير الوصف ، وبصحنه حوض شافعى «عشر فى عشر» وعلى باب صحنه هذا التاريخ «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة السلطان العادل ناصر الدين بن محمد بن السلطان سيف الدين بن السلطان قلاوون الصالحى» .

وأمامه عبر الشارع :

جامع السلطان الملك الظاهر

هو من آل (   ) وهذا الجامع أيضًا مسجد عتيق مرتفع يصعد إليه بعدة درجات من سلم حجرى ، ومساحته مائة وسبعون قدما طولا وعرضا ، وبجوانب صحنه الأربعة أربعة أروقة مقامة على عقود ، وبصحنه حوض ، ومنبر محرابه من الطراز القديم . ومئذنته ذات ثلاث طبقات . وليس فى رخام صحنه أثر كبير للفن ، ولكنه جامع يشع روحانية .

وبإزائه عبرالطريق :

جامع السلطان قلاوون الصالحى

وهذا السلطان عظيم من [الترك] ومسجده فوقانى يعرج إليه من بابه المفتوح على السوق بسلم حجرى ، وبابه مصنع كثير الزخارف والنقوش وكتب عليه «أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى ، وكان ابتداء ذلك فى ربيع الآخر سنة (   ) .

ولهذا الجامع أيضًا أروقة أربعة حول صحنه العظيم ، منها ثلاثة مبنية بعقود وأما الرابع وهوالرواق الذى به المحراب فمسقف بسقف مذهب منقوش على أعمدة عالية من الرخام . ومحرابه فنى مزخرف بالفسيفساء بالصدف الدقيق . ومنبره مصنوع بألواح نقشت

(١) الناصر محمد بن المنصور قلاوون من الأتراك وليس من الأيوبيين (المترجم) .

عليها أزهار دقيقة جدا ، ويتوسط صحنه حوض شافعى «عشر فى عشر» تحت قبة عالية مزخرفة منقوشة بنجف دقيق ، مقامة على أعمدة رخامية ، ينبثق من فواراته السلسبيل ، ومنشذنته العالية المبنية على الطريق بعيدة عن الجامع ، ثلاث طبقات متداخل بعضها فى بعض كبرج قلعة ، ولما كانت البيمارخانة[1] والعمارة السلطانية على مقربة منه ، فإن جماعته كبيرة جدا . وأوقافه غنية يبذل منها الأرزاق لعدد يقارب خمسة آلاف نفس كل يوم ، وسوف أكتب عن عمارته وبيمارخانته فى محلهما إن شاء الله .

جامع السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب

هو من الأكراد . نظم شئون مصر وأصلحها وهزم جيوش الكفار فى المنصورة ورشيد ثم بنى هذا الجامع بالأموال التى غنمها فى الحرب وهو حفيد أخى صلاح الدين يوسف ابن أيوب بن شادى الكردى . ومسجده على الطراز القديم . ولكن به روحانية عظيمة . وبالجهة المقابلة للباب وهى التى بها المحراب أروقة مبنية بعقود ، وبطرفى صحنه غرف مدرسة مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام الدقيق فى كل جهة . ونوافذ المدرسة مواجهة للصفّة . والمحراب والمنبر مبنيان على الطراز القديم البسيط . ويتوسط صحنه حوض شافعى وله باب ومئذنة . والسلطان الصالح مدفون فى قبة عالية خلف السبيل الذى على يسار الصحن . وكان ملكا عظيمًا ، ملك بعده سبعة من أبنائه كما ملك بعدهم أبناء أبنائه ولاتزال أوقافه عامرة ، وقد كتب على محرابه تأريخ إصلاحه وترميمه .

أتحف الله مصرنا بوزير قد تسمى باسم الجليل الكريم .

تم تجديده سعد تاريخ[1] نجم إشراف أحمد المرحوم[2] .

سنة ١٠٦٣ هـ

وكان جامعا عتيقا ذاهبا فى القدم ، فلما جدد صار كأنه درة بيضاء تشع نورا على نور .

وثمت جامع آخر لسلطان من السلاطين الماضين ، يقع على الطريق العام من الجهة المقابلة ، وهو :

(١) البيمارخانه أو البيمارستان : كلمتان فارسيتان دخلتا التركية ، ومعناهما : دار الشفاء ، مستشفى . (د . متولى) .
(٢) تصحيح الشطر : تم تجديده بتاريخ سعد . (د . عزام) .
(٣) جمّل الشطر الأخير يساوى ١٠٥٣هـ . (د . عزام) .

جامع السلطان الأشرف

هذا أيضًا أحد الأيوبيين ، ومسجده غير المرتفع يعرج إليه بست درجات ، وهو مسجد مصنّع كأن الأستاذ الفنان لم يكد ينتهى من بنائه ، وطراز بنائه هو طراز بناء مسجد السلطان الصالح ، فقسم المحراب مقام بعقود ، ولكن ليس بجانبيه إيوان وإنما هى جدران ووسطه مكشوف وليس به صحن . والمسجد كله زخارف ، فجدره الأربعة مكسوّة من الداخل بألواح من الرخام المختلف الألوان فى طول قامة إنسان . وهو حافل بالمصلين لكونه فى السوق السلطانية . ومئذنته الوحيدة ذات ثلاث طبقات .

تلكم الجوامع التى بناها السلاطين بعضها قريب من بعض كأن الجدار جنب الجدار والمئذنة جنب المئذنة ، ومعظم مساجد القاهرة مبنية كذلك .

وبباب النصر :

جامع السلطان جانبلاط

جامع مرتفع عجيب يُصعد إليه بعشر درجات من سلم خارج سور القلعة وقد بنى في سور القلعة ويكاد يكون متصلا بباب النصر . وهو مسجد صغير بلا صحن ولكنى ما رأيت له نظير فى مصر بل فى الممالك التى رحلت إليها كذلك . ففيه قبتان شاهقتان مربعتا الشكل مدببتان بنيتا كلهما بحجارة كل قطعة منها فى طول ذراع ، ولم أر فى مملكة قبة من الحجارة ، وما غطى ظاهرهما بالجير أو الرصاص ، بل بقى حجرا خالصا . وبناء القباب من الحجارة فن خاص بمصر . ففيها قباب أخرى غيرهما من الحجارة . وهى على رسم فريد . وقد التزم البناءون المصريون القدماء أمرين اثنين لإظهار مهارتهم فى تزيين مصر ، فأما الأول فهو أن تكون قبة كل جامع نسيج وحدها وألا يكون شبه بينها وبين قباب الجوامع الأخرى ، وأما الأمر الثانى فهو أن تكون مآذن جوامع مصر مختلفة فى الفن والزخرفة وأن تكون كل مئذنة من طراز خاص ، ولمسجد جانبلاط أيضًا مئذنة رشيقة ذات ثلاث طبقات آية فى الفن وفى هذا الجامع يحيى أمير الحج المصرى ليلة مع العلماء والمشايخ بتلاوة قصة المولد النبوى والذكر حين عودته من مكة المكرمة مع المحمل الشريف فى اليوم السادس من صفر الخير ، وإذا كان الصباح ذهب أمير الحج بالمحمل الشريف فى موكب عظيم إلى الباشا الوزير وسلمه إياه . فلذا كان مسجدا مباركا .

وإن دخلت من باب النصر ودنوت من وكالة جعفر أغا فأنت أمام :

جامع السلطان بيبرس

هو من مماليك العباسيين[1] ومسجده ليس بكبير ، ولكنه روحانى لأنه أسس بأموال الغزو وليس فيه عمود قط ، فجوانبه الأربعة عقود (   ) مبنية على أربعة أواوين (صفة) وقد كُسيت جدره المحيطة بصحنه بقطع ضخمة متنوعة من الحجر الطبيعى كل قطعة منها فى حجم سجادة من الرخام اللماع ، وأما محرابه ومنبره فمن الطراز القديم ولا يحتويان على شيء كثير من الفن المعمارى ، وأما مئذنته ذات الثلاث الطبقات فتحفة فنية مُصنَّعة

وبجانب باب «صوباشى» وأمام باب الحديد :

جامع السلطان الحاج صالح آخر المماليك البحرية

والله أعلم لعل هذا الجامع أيضًا لصلاح الدين يوسف لأنه عتيق وصغير . وفيه أربعون عمودا ، ومحرابه ومنبره ليسا فنيين ، وبصحنه شجرة نبق باسقة ، وللجامع ثلاثة أبواب حديدية إلا أن بابه الموصل إلى قصر «الصوباشى» مسدود ، وهو أيضًا جامع مرتفع تحته ست قاعات هى سجون الصوباشى التى يعبرون عنها بـ «ديلم» أنها مُطْبَقات كأنها آبار جهنمية . يُسجن فيها القتلة والمجرمون الذين يجب قتلهم وله مئذنة عتيقة ذات طبقتين . وبجانب بابه القبلى محكمة شرعية .

وعلى مقربة من جامع النظامية :

جامع السلطان قايتباى الچركسى

عزل فى يوم واحد سبعة من ملوك التركمان وسمل عيون بعضهم فصاروا يستجدون فى الطريق ، وأولئك الملوك السبعة مدفونون أمام محراب الجامع ، فلذا يسمى مسجد السلاطين السبعة . والسلطان چقمق أيضًا مدفون بينهم ، وليس لهذا الجامع غير باب واحد يفتح إلى الجهة القبلية ، وقد كتبت على رخام بجانبى الباب الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله﴾ تاريخ شهر (. . .) سنة ٨٨٤هـ .

---

(١) لم يكن بيبرس من مماليك العباسيين . (د . عزام) .

وهذا الجامع مرتفع وصغير جدا ، وله مئذنة قصيرة ذات طبقتين وقبابه مبنية بحجارة ، وجماعته قليلة ، مع أنه فى مكان طليق الهواء .

وإذا سرت منه ففى القلعة الداخلية (قلعة الجبل) بأسفل باب الوزير مسجد الإمام الحسن[1] ، وبعد قرافة المجاورين داخل باب المدافن الملغاة :

جامع أرسلان قاى

جامع صغير مرتفع عن الأرض مقدار ست درجات ، وليس له صحن ولكن مئذنته المبنية من طبقتين عجيبة وآية فى الفن ، وأمام باب قبلته سوق القمح . وهو متصل بسور القلعة ، بيد أن السور رُدم بأتربة المدافن ، فلذا يخاف أهل الجامع من لصوص القاهرة .

جامع السلطان قلاوون

هو من الأسرة التركية ومسجده العظيم كأنه حصن آخر ذو متاريس فى القلعة الداخلية ، فمساحته مائة وخمسون قدما طولا وعرضا ، وسقف جهة المحراب قائم على ثمانية وثلاثين عمودا عاليا . وأما قبته الشاهقة التى على المحراب فمغطاة بالجير الأبيض فلذلك هى مفعمة نورا وضياء ، وقد زين داخلها بنقوش مذهبة تشبه نقش بهزاد[2] وهى مقامة على اسطوانات من السماقى الأحمر ، ومحرابه مزخرف بالفسيفساء من الحجارة الدقيقة ، ومنبره القصير من الرخام الأبيض ، وقد كتبت على باب المنبر الآية الكريمة ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ وعلى يمين المنبر مصلى خاص للباشوات داخل قفص مربع من الحديد . وهذا القفص شبكة مصنَّعة إلى حد أنها تعد سحرا معجزا من الأويمة الفخرية على الحديد أو كأنه من عمل سيدنا داود ، وليس لهذا القفص مثيل إلا على قبر رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة . وفوق العقود المبنية على واحد وعشرين عمودا من الرخام الأبيض لإيوانه المحيط بصحنه من جهاته الأربع ، سقف منقش مذهب ، ومزخرف بأنواع من اللون الأزرق واللازوردى والأحمر على الميناء المذهب وهو سقف منقش مزخرف وفيه صحون مثمنة الشكل كل صحن من تلك الصحون المزينة تتسع لإنسان . يقال أن السماط المحمدى الذى كان ينصبه السلطان قلاوون يوميا كان يشتمل على ثلاثة آلاف صحن مرتبانى[3] فجعل فى سقف الجامع

---

(١) فى نسخة يلديز «أم الحسن» .

(٢) بهزاد مصوِّر ماهر عاش فى إيران فى عهد الدولة الصفوية . (د . عزام) .

(٣) إناء من الصينى يأبى السموم . (المترجم) .

ثلاثة آلاف حفرة مزخرفة على صورة صحن لتكون ذكرى لتلك الصحون المرتبانية . وجدران الجامع كلها مزخرفة بالصدف الدقيق فى ارتفاع قامة خمسة رجال كأنها من النقوش الصينية ، وقد زخرف بعض مواضعها بالرخام الدقيق زخرفة هى السحر الحلال . وما رأينا فى مصر جامعا آخر كسيت جدره الداخلية كلها بألواح الرخام المنقوش المزيَّن كما فى هذا الجامع ، وقد سدَّ الباشا المعروف بـ «ضارب المدفع» طوپ آتان باب القبلة بيد أن بابيه الجانبيين المصنوعين من الصفر المفرغ يستعملان حتى الآن .

وأما دكة المبلغين الدقيقة المقامة على ست عشرة اسطوانة دقيقة من الرخام الأبيض فكأنها مقصورة من مقاصير «إرم» وأحد بابى الجامع على يسار المحراب ، وهو الذى يوصل إلى دورة المياه . وفى جهة حوضه مئذنة ظريفة ذات طبقتين من القاشانى الأخضر وصحنه مبلط كله بألواح من الرخام الأبيض ، وللجامع أوقاف كثيرة يقوم بنظارتها باشچاويش[١] الانكشارية . وفى هذا الجامع خير المؤذنين صوتا ، ويستمع الباشا إلى تمجيداتهم كل ليلة . وكثيرا ما يصلى فيه الباشوات صلاة الجمعة ، وقد صنع أستاذ فنان مزولة لمعرفة الأوقات الثلاثة ، وجعلها في صحن الجامع ، وهى آلة شبيهة بميقات على القوشجى[٢] .

وهناك جامع بميدان سراى الباشا وهو :

جامع الملك الناصر فرج

هو جامع السلطان فرج إلا أنه معروف لدى الناس بمسجد دهيشة ، وسبب ذلك أنه بنى فى موضع كان فى عصر الأقباط دير لفتاة تُدعى «دهيشة» فاشتهر باسمها ، وهو مسجد مرتفع عن الأرض ست درجات ، وله بابان جانبيان وليس به باب للقبلة وسقفه الخشبى الأخضر مقام على عمد مضلعة مبنية بالحجارة وعلى يمين الباب الكبير ويساره تاريخ السلطان فرج . وهو مسجد صغير بلا صحن وعلى يساره ميدان السراى تطل نوافذه على ذلك الميدان ، ومئذنته قصيرة ذات طبقة واحدة ومحرابه منحرف إلى ركن ، وله مؤذنان يؤذنان بصوت رخيم ، وخطيبه الشيخ سالم رجل من صلحاء الأمة لا مثيل له ولا بديل .

وبالقرب من بركة الأزبكية :

---

(١) باشچاويش . كلمة تركية الأصل تعنى : رئيس الجاوشية وقائدهم . (د . متولى) .
(٢) قوشجى ، كلمة تركية الأصل تعنى : مربى طيور الصيد . (د . متولى) .

جامع السلطان أوزبك

يرتفع عن الأرض بست درجات ومساحته مائة قدم طولا وعرضا ، وقد أقيم سقفه المزخرف باللون الأزرق على سبع وثلاثين أسطوانة رخامية ، منبره ومحرابه من الطراز القديم ، وله باب قبلى وبابان جانبيان ، ومئذنته ظريفة فنية جدا ، وهى ثلاث طبقات .

وبالدرب الأحمر :

جامع أم السلطان حسن

مسجد مرتفع يصعد إلى بابه الواقع على الطريق العام بثمانى درجات من سلم حجرى ، مئذنته أربع طبقات مصنَّعة وهو مسجد جد ظريف وكثير الزخارف إلا أنه لا صحن له ، نوافذه متجهة إلى الطريق العام ، وليس به عمد وسقفه المنقش مقام بعقود . محرابه ومنبره لا أثر فيهما للفن .

جامع السلطان المردانى

هو من تجار الأكراد ، كان جزارا ، وكانت امرأة تأتى إليه كل يوم فتشتري منه خروفا وتذهب ، فتعجب من ذلك وتعقبها ذات يوم ليعرف مكان ذهابها حتى بلغت مغارة بجبل الجيوشى فدخلتها ، وكان بها دُبٌّ مهيب قدمت إليه الخروف ، أكل الدب هدية المرأة ثم واقعها[1] . وقد شاهد مردان الجزار هذا المنظر حيران دهشا . ورأى أن بالغار كنزا كأنه سرداب افراسياب (دخمهٔ افراسياب) عاد الجزار إلى حانوته مطلعا على الحال وعالمًا بالسر ، حتى إذا كان الصباح جاءت المرأة كدأبها وابتاعت الخروف وانصرفت إلى حبيبها الدب ، فعلق الجزار على حزامه شاطور (أهل الفتوة) (جومرد) وذهب إلى المغارة وإذا كان الدب والمرأة يتبادلان الحب صاح الجزار صيحة هائلة وصال على الدب صولة قضت عليه بأمر الله ، كما يقال «من ضرب الضربة الأولى حصل على مراده» ثم استنطق المرأة فقالت «كان هذا الدب موكَّلا بهذا الكنز فجاء بى أبى إلى هذا الواصل» فوصلت إليه وصرت آخذ منه المال وابتاع منه خروفا أقدمه له طعاما ، ثم يواقعنى الدب . وهأنا قد

(١) من المعروف أن كثيرا من أساطير البطولة عند الترك تأثرت بدياناتهم الطوطمية القديمة التى يكثر فيها الزواج بين الإنسان والحيوان ؛ وقد ظلت أساطير هذا الزواج حيّة فى هذه الأساطير حتى بعد إسلام الترك ، ولعل أكبر أسطورة من هذا النوع هى أسطورة أوغوزخان جدُّ الترك المولود من ذئب وامرأة ولا شك أن قصة الدب والمرأة التى يرويها أوليا جلبى كانت من خيال العناصر التركية المتمصرة والوافدة من مناطق الترك بآسيا الوسطى (د . السعيد) .

أنقذت منه بعملك هذا وصار مال قارون إليك بعد الآن ، فافعل به ما تشاء ، أخذ مردان مالا كثيرا وحمل المرأة إلى الملك وقص له ما حدث بالتفصيل ، فأذن له الملك قائلا : «اعطنا عشر الكنز وتصرف بالباقى كما تشاء» . نقل مردان من أموال الكنز حتى شق عليه فبذل منه كثيرا لفقراء مصر ، وبنى هذا الجامع ، وإذ هو مشغول ببناء مسجده توفى الملك فنودى به ملكا .

وهو جامع مرتفع ظريف مصنَّع مزخرف ، وسقفه المزخرف مقام على ستين عمودا رخاميا وله صحن واسع وبابان جانبيان وباب قبلة ، ومئذنة ذات ثلاث طبقات . ومنبره الخشبى المنقش آية فى الفن ، ومحرابه مزخرف بالفسيفساء بالصدف ، ومزين بمصابيح ثمينة معلقة . وبالمسجد ثريات تشتمل الواحدة منها على ألف قنديل . ولما كان المصلون فيه كلهم من الأتراك (الأروام) فإن خدمه يحفظونه نظيفا دائما . وله أوقاف غنية ومن الخدم عدد كبير .

وعلى مقربة من السيدة نفيسة :

مسجد السلطان خير الأم

كانت صاحبته أما لسبعة من الملوك ، فلذا سميت «خير أم» . وهو مسجد عتيق ، قليل الجماعة ، ولكن به من الفنون القديمة ما يعجز اللسان عن تقريره والقلم عن تحريره مئذنته تخربت ، وأوقافه ذهبت مع الريح .

وبالقرب منه :

مسجد السلطان عبد العزيز

هو من العباسيين ، وجامعه الصغير مسقف بسقف عجيب مقام على اثنتى عشرة أسطوانة رخامية . محرابه بسيط غيرمصنع ، ومنبره من الخشب المنقش وله مئذنة فنية مزخرفة . وإذ كانت السيدة نفيسة مدفونة أمام محرابه فهو يدعى مسجد السيدة نفيسة . وسوف أصفه فى موضعه . وبالمدينة السفلى وداخل «القاوقجية»[١] :

مسجد البيكخانة[٢]

هو مسجد تحتانى إلا أن جماعته كثيرة جدا .

---

(١) قاوقجى : كلمة تركية الأصل معناها : صانع القلانس أو بائعها . (د . متولى) .

(٢) پيكخانة : كلمة فارسية الأصل دخلت التركية وتعنى : مكتب البريد أو إدارة البريد . (د . متولى) .

وفى سوق الوزانين :

مسجد حسام الدين

وهذا أيضًا مسجد صغير .

وهناك أمام قصر رضوان بك عبر الطريق :

جامع محمود باى

مسجد صغير بلا صحن بسوق الأحذية ، ولكنه نظيف جدا ومصنَّع ، وقد بنى محرابه على طراز خاص مزخرف بحجارة دقيقة ، وإلى جانبيه عمودان من «اليرقانى» فى سمك ذراع كأنهما من الكهرمان ، إذا مرض أحد باليرقان فداوم على لحسهما ثلاثة أيام من أيام السبت زال الاصفرار من جسمه بإذن الله . وله مئذنة فنية ظريفة .

وفى هذه الحارة أيضًا بالسروجية (سراجخانة)[1] .

جامع جانم بهلوان

مسجد بديع مرتفع عن الأرض بست درجات سلم . ومئذنته العجيبة ذات الثلاث طبقات من أجمل المآذن .

وهناك جامع آخر فوقانى ذو مئذنة ظريفة على مقربة منه يكتظ بالمصلين . وبأول الخيامية :

جامع الجانبكية

بجانبى بابه هذه الآية الكريمة ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا﴾ ثم عبارة «سنة اثنتين وثمانمائة» . وهذا الجامع أيضا مرتفع يصعد إليه بخمس درجات من الجانبين ، وهو صغير ولكنه جامع نورانى .

وبالقرب من سوق الصليبية :

جامع الحاجب السلطانى الأمير ألماس

جامع أرضى صغير بيد أنه نظيف جدا وروحانى لاتنقطع عنه الجماعة أبدا . فقد بنى بأموال أخرجت زكاتها ، فلذا يثوى فيه رجال من أرباب الأحوال . وإن أصاب أحدًا

---

(١) سرجخانة ، كلمة عربية فارسية دخلت التركية ، وتعنى : سوق السروج . (د . متولى) .

ألم فصلى فيه مرة ، اطمأنت نفسه وابتهج قلبه . وسقفه المنقش المذهب مقام على ثمانية وعشرين عمودا مجليا . وبصحنه شجرة نبق تثمر فاكهة كالجوز . وفيه صنابير حنفية[1] تحت قبة صغيرة بيضاء مقامة على أربع أسطوانات رخامية نحيفة . ومحرابه على الطراز القديم ، ومنبره رخام أبيض وعلى بابه :

«أمر بإنشاء هذا المكان المبارك الفقير الأمير ألماس صاحب ، فى شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، وكما له سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية» ومئذنته المصنَّعة خليقة بأن تكون محل نداء إلى الصلاة حقا .

وأمام سوق الصليبية :

جامع الشيخونية

كان وزير السلطان حسن ، كردى الأصل شجاع عمَرى السيرة كما كان اسمه عمر . وآثاره البنائية عمارتان متماثلتان . إلا أن العمارة التى على يسار الشارع العام جامع نيِّر . وكلا البنائين يرتفع عن الأرض مقدار سبع درجات سلم . ومساحة كل منهما مائة وستون قدما طولا وعرضا . وقد أقيم سقفاهما المزخرفان على خمس وأربعين أسطوانة من الرخام الأبيض . وللجامع باب واحد ، وصحنه مفروش بالرخام . وله أوقاف غنية فلذا تجده نظيفا دائما ، كأنه درة بيضاء . وقد صنع منبره من خشب منقوش بالأويمة ، وأما محرابه فمزخرف بألوان من الحجارة الدقيقة . وقد أراد أستاذ فنان أن يثبت قدرته على الرسم فرسم الكعبة الشريفة على جداره الأيسر يخيل لمن يراه أنه يرى الكعبة رأى العين .

أما العمارة التى أمامه ، وهى التكية الشيخونية ، فتكاد تكون طبق هذا الجامع وهى تكية قادرية سوف أكتب عنها حين الكتابة عن التكايا .

وإذا تركت الشيخونية صاعدا الى ميدان الرميلة ، فهناك :

جامع المحمدى

هو جامع فوقانى صغير له مئذنة عالية بيد أنى لم أدخله ولم أصل فيه . وتسير منه الى جامع ألتى بارماق[2] .

---

(١) أى مصنوعة وفقا لمذهب الحنفية فى الوضوء . واسم الحنفية فيما يظهر منسوب إلى مذهب أبى حنيفة . (د . عزام) .
(٢) ألتى بارماق ، كلمة تركية تعنى ستة أصابع . (د . متولى) .

هو مسجد ظريف مرتفع عن الأرض بست درجات سلم . واعظه وناصحه وكل المصلين فيه من الأتراك . وله باب واحد . وسقفه المقام على عمد ، منقوش نقشا عاديا بسيطا ، وليس به صحن . وهذا الجامع مرتفع عن الأرض ، جعلت تحته ستة حوانيت . ومئذنته الوحيدة قصيرة . والشيخ آلتى بارماق مؤلف السيرة النبوية يثوى أمام محرابه .

وبإزائه وأسفل منه قليلا :

جامع المرزبانية(١)

هو مسجد ظريف مرتفع عن الأرض بخمس درجات ، وسقفه المذهب مقام على عشرين أسطوانة لماعة ظريفة . وفى محرابه ومنبره كثير من الفنون الزخرفية وبصحنه نخلة باسقة .

جامع الداودية

صار بانيه داود باشا والى مصر بعد سليمان باشا الطواشى من وزراء السلطان سليمان خان ، وبنى هذا الجامع . وقد قام حقا بإجراء ما هو جدير بالوزراء من العدل والإنصاف ، ثم بنى هذا الجامع الذى ليس له نظير بين جوامع الوزراء . وهو مسجد مرتفع ينتهى الصاعد إليه إلى باب ذى ثلاثة جوانب ، بعشرين درجة من سلم حجرى . وبه ستون أسطوانة مزخرفة عليها ستون قبة معقودة مدورة مبيضة بالجير . وفوق كل قبة شعار من الرخام فى صناعة دقيقة . وصحنه الواسع مفروش بالرخام الخام . وأما محرابه ومنبره ومئذنته ذات الطبقة الواحدة فكلها على الطراز التركى . وله حرم تحتانى خلاف صحنه الفوقانى . وبنى هذا الجامع النورانى وسط ذلك الحرم الواسع كحصن ذى متاريس (بدن بدن) ، وليس له اتصال بشئ آخر ، وجماعته كبيرة جدا .

جامع اسكندر باشا

صار واليا لمصر بعد محمد باشا الدوقاكين ، وهو أيضا من وزراء سليمان خان وجامعه نيِّر وجميل حقا ويعز نظيره ، وملئ بالمصلين ليلا ونهارا كمسجد رستم باشا باستامبول . وهو مسجد مرتفع يُصعَد بثمانى درجات إلى أحد أبوابه وخمس عشرة درجة إلى باب آخر ، وبداخله ثمانى اسطوانات ، ونوافذه مطلة على الطريق العام . ومنبر محرابه

(١) مرزبان كلمة فارسية الأصل دخلت التركية وتعنى : محافظ الحدود . (د . متولى) .

بسيط ولكنه جميل ، وهو مبنى فى موضع ضيق مزدحم فلم يكن له صحن . ومن طرفه الأمامى يجرى الخليج المصرى . ومئذنته الظريفة ذات طبقة واحدة ومسدسة كمآذن مساجد الترك .

جامع منجك اليوسفى

هو من وزراء السلطان حسن . وكان له قصر منجك الصغير الذى بساحة « كوك ميدان» بدمشق الشام . وجامعه هذا ذو المئذنة الواحدة ، مبنى على صخرة عالية تحت جامع النظامية ، وهو جامع عتيق .

جامع الفتح النظامى الأصفهانى

هو جامع نيّر مطل على العالم من فوق ربوة خارج باب الوزير ، وبناء وضاء تبدو القاهرة كلها تحته . سقوفه منقشة لطيفة وليست به عمد . ومئذنته العالية الرشيقة ذات ثلاث طبقات . وقد بناه الشيخ نظامى الأصفهانى بأموال اكتسبها حلالا فى أيام السلطان محمد بن قلاوون الصالحى ، وتم بناؤه سنة ٧٣٦هـ . والشيخ نظامى الأصفهانى «قدس سره العزيز» مدفون فيه . وجامعه هذا تكية عظيمة لرجال الطريقة الخلوتية ، فلذا سوف ترد أوصافه فى أثناء الكتابة عن التكايا .

وبداخل باب العزب :

مسجد العزب

مسجد صغير ولكنه مكتظ بالمصلين لكونه أمام مقر العزب ، ولكن ليس به صحن وقد بنى له الكتخدا إبراهيم مئذنة رشيقة على الطراز الرومى (التركى) .

وفوق هذا الجامع داخل عطفة على سور القلعة :

مسجد السلطان المؤيد

كان باب الوزير تحت هذا الجامع فيما سبق ، وهو لايزال مسدودا وظاهرا . وهو جامع فوقانى صغير مرتفع ، وتفتح نوافذه التى على سور القلعة ، على طريق باب الوزير وليس به عمد ولا صحن ، ومئذنته بسيطة .

وبالقلعة الداخلية العليا :

جامع سليمان باشا

هو سليمان باشا الطواشى الأبيض (سليمان باشا الخادم) من وزراء السلطان سليمان خان ، وقد صار وزيرا لمصر مرتين ، وسافر الى الهند على رأس أسطول مؤلف من مائتى سفينة ففتح مدينة «بندر ديو» و «بندر صَرّتى» وسبع مدن أخرى ، وهزم البرتغاليين ، ثم وهب تلك القلاع لملك الهند ، وقد غنم أموالا جليلة . ثم فتح اليمن وعين أوزدميربك قائدا للجيش الذى خصص للهجوم على بلاد الحبش وفتحها . ولما عاد إلى مصر منتصرا غانما بنى هذا الجامع .

هذا المسجد بداخل القلعة ، ولم يدخل فى بنائه خشب ، وإنما هو بناء معقود كله وقبة وحيدة مدوَّرة زرقاء ليس بداخلها عمود . وقد كسيت جدر المسجد كلها من الداخل بألواح الرخام المختلف الألوان . وبنى محرابه بناء فنيا بحجارة دقيقة جدا . وإلى جانبى المحراب شمعدانان طول كل واحد منهما كقامة إنسان ، يوقَد عليهما شمعتان مصنوعتان من شمع العسل فى طول قامة إنسان . وليس مثل هذا فى جامع فى مصر . ومنبره الرخامى فنى ظريف . وبالجامع ألوف المصابيح المعلَّقة . وأمام محرابه أربعون نسخة من كلام رب العزة كل نسخة تعادل كنزا . وأبسطته الفاخرة تفوق كل وصف . وله بابان جانبيان وباب القبلة . وهو جامع صغير لا تزيد مساحته على مائة وعشرين قدما طولا وعرضا ولكنه درة يتيمة . وكذلك ساحته الخارجية لاتزيد على مائة قدم طولا وعرضا . وأوانيه الجانبية ذوات قباب صغيرة مدوَّرة مزخرفة مقامة على عشر اسطوانات ، وقد كسيت تلك القباب والقبة الكبرى بالقاشانى اللازوردى . وبباب المحراب فنون وزخارف تبلغ حدّ الاعجاز والسحر المبين . وجدران الأواوين مكسوّة بألواح الرخام والسماقى المختلف الألوان فى طول قامة إنسان ، وقد كتب عليها الرّخّام الفنان آية الكرسى بالخط الكوفى الذى لايشبه خطا من الخطوط الكوفية الأخرى : يتقاطر الرحالون من العلماء لمشاهدته .

وصحنه مفروش بالرخام الأبيض المجلى تنعكس فيه الوجوه . ولهذا الصحن ثلاثة أبواب ، منها اثنان جانبيان والثالث فى جهة القبلة . وقد دفن الشيخ «سارية» من الصحابة الكرام فى قبة عالية به . والشيخ سارية هذا هو الذى جعله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب قائدا للمسلمين المقاتلين بنهاوند من بلاد العجم . وقد حدث أن كان عمر

يخطب على المنبر فى يوم الجمعة فلمح ببصر قلبه أن سارية يوشك أن ينهزم فصاح «ياسارية الجبل الجبل!» ، فدهش المصلون من كلام الخليفة للمسافة التى بينه وبين سارية الذى كان فى جيش المسلمين المحاربين بنهاوند . ولكن سارية سمع صيحة عمر فجعل ظهر جيشه جهة الجبل وهزم الجيش الغازى بأمر الله فلما عاد سارية الى المدينة مظفرا منصورا سُر الذين كانوا بالمسجد حين صاح عمر « ياسارية الجبل الجبل» وسمعوا صيحته ثم سمعها منهم من كانوا بالمدينة وأرّخوها ، فزاد ارتباطهم بعمر وزاد حبهم له أكثر مما كان ؛ فالثاوى فى هذا الجامع هو ذلك الصحابى الكريم الشيخ سارية . وقد دُفن فى غار ثم بنيت عليه قبة وزاوية فيها حجرة وخادم ضريح . وعلى باب قبلة الجامع هذا التاريخ : « قد بنى وعمّر الجناب العالى مملوك سلطان السلاطين السلطان سليمان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين ، وهو أمير الأمراء المصرية سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين ، مسجدًا لوجه الله الملك المعين وطلبا لمرضاة رب العالمين ، ليعبد فيه عباد الله الصالحين . وكان تاريخه « فاركعوا لله مع الراكعين» سنة ٩٣٥هـ .

وعلى المصراع الأيمن لباب مصر كتابة كتبت بداخلها بالذهب الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا﴾ وعلى المصراع الآخر ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ «صدق الله العظيم» . وصحن الجامع فى الجهة الشرقية وفيه حوض وفوارة تجدد فيه جماعة المصلين وضوءهم من صنابير الحوض . وليس هذا الجامع مبيضا بالجير كسائر جوامع مصر بل هو مكسو كله بالصينى القشانى اللازوردى فلذا يخاله من يراه من بعد مغطى بالرصاص . ومئذنته طبقتان وهى أعلى مئذنة بمصر وذلك لأن الأرض التى بنيت عليها مرتفعة ، فلذا ليست فى مصر مئذنة أعلى منها وطرازها اسلامبولى . ومحرابه فى شبه قبة ، وتظهر من نوافذ المحراب حديقة غناء ذات ورد وريحان تعطر أدمغة المصلين فى الجامع بأريج زهور متنوعة . ولأن ناظر المسجد أغا الإنكشارية صارت له أوقاف غنية ثابتة . ثم إن الأغا يؤدى فيه فرائض الأوقات الخمسة ، فلذا هو نظيف جدًا وعامر «حفظك الله تعالى» .

وبداخل باب اللوق :

جامع البرمشى

مسجد عامر مزخرف ، كثير الجماعة . ومئذنته ذات ثلاث طبقات ، عالية رشيقة فنية .

وبالدرب الأحمر على رأس شارعين :

جامع القيشاس أى القاچمازية[1]

وهو جامع مرتفع صغير تحته حوانيت ، يُصعد إليه بثمانى درجات ، إلا أنه لطيف ونيِّر ومصنَّع وكثير الجماعة . وليس له صحن لأنه بنى فى مكان ضيق . وتمر الشوارع من جوانبه الأربعة .

وفوق هذا الجامع وتحت وكالة الكتخدا محمد الحبشى :

مسجد المهمندار[2] ، سنة ٩٥٣هـ

هو مسجد كأنه جامع من الطراز القديم يرتفع عن الأرض بخمس درجات وليس به زخارف كثيرة ، إلا أن جماعته كبيرة لكونه فى السوق السلطانية . ونوافذه مطلة على الشارع العام ، وله مئذنة عالية ذات طبقتين .

وبالدرب الأحمر أيضا :

جامع إبراهيم أغا

وهو من أغوات الانكشارية بمصر ، ومسجده مرتفع . وهو قريب العهد فلايزال جديدا مزيّنا ظريفا محبوبا كأنه لم يكد يخرج من يد الصانع الفنان . وليس فى استطاعتى تعريف منبره ومحرابه ، فهما لايوصفان باللسان . ومئذنته الرشيقة منارة عالية ممتازة .

وبالقرب منه :

جامع خاير بك المحمدى باشا

كان خاير بك من وزراء السلطان الغورى فأعرض عنه واتبع السلطان سليما ، ثم فتح السلطان سليم مصر برأيه وتدبيره وفوّض إليه وزارة مصر سنة ٩٢٣ هـ وقام خمسة أعوام ونصف عام بالولاية ، وبنى هذا الجامع . وصارت وزارة مصر بعد خاير بك الى مصطفى باشا لالَه الذى نصب بعد عام صدرا أعظم للدولة العثمانية . فعين مكانه قاسم باشا ثم أحمد باشا الخائن الذى خنقه الجنود .

---

(١) نسخة يلديز «جامع قاشماس» .

(٢) مهمندار : كلمة فارسية الأصل دخلت التركية ، وتعنى : مضيف . (د . متولى) .

وهذا الجامع نور مخض ، فقد كسيت جدرانه الداخلية بالأحجار النفيسة من اليشب اليرقانى والسماقى والرخام السحابى . وأما المنبر والمحراب فهما تحفتان فنيتان . وهذا الجامع لم يعقد بالجص ، بل سُقِّف كله . وبصحنه صنابير حنفية وبضعة أشجار من النخيل . ويثوى صاحب الجامع تحت قبة عالية على الشارع العام وقد حلى الجامع بمئذنة رشيقة لها نصيب من كل المآذن ، فهى مئذنة شاهقة ظريفة ذات ثلاث طبقات . بيد أن چراكسة مصر لا يلتفتون إلى جامع خاير بك ، ولا إلى ضريحه الذى يشع نورا ، لأنهم غضبوا عليه لزعمهم أنه كان السبب فى قدوم العثمانيين إلى مصر وانتزاع الملك من أيديهم ، فلذا يمرون بمسجده دون إلقاء نظرة إليه . وليس لمسجد من المساجد المصرية ما لهذا المسجد من كثرة الخدم ومتانة الأوقاف ، والنظافة والطهارة .

وعلى طريق باب النصر :

مسجد مرزوق الكفافى

مسجد مرتفع صغير ذو سقف مزخرف مقام على أربعة أعمدة . وهو زاوية الشيخ مرزوق الكفافى ، من مشايخ الطريقة البدوية . وله مئذنة مصنَّعة .

وبالقرب منه على طريق باب النصر :

مسجد جمال الدين

مسجد مرتفع صغير ذو مئذنة واحدة ، وليس له صحن .

وإذا سرت منه ودنوت من خان الكتخدا ذو الفقار عبر الطريق ، فأنت عند :

مسجد السلطان سُنقُر

مسجد مرتفع نيِّر على الأسلوب القديم فقد بنيت منارته على شكل مربع تشبه مقاصير متداخلة بعضها فى بعض ، فهى منارة فريدة فى طرزها ، وصحنه البديع مفروش برخام عظيم لماع .

وبإزائه عبر الطريق :

جامع الخانقاه[1]

مسج تحتانى عتيق ، قد أقيمت سقوفه المزخرفة المنقوشة على أربع وثلاثين

(١) خانقاه أو خانكاه ، كلمة فارسية معربة تستعمل فى التركية أيضا ، وتعنى : زاوية الدراويش . (د . متولى) .

أسطوانة مبنية بالحجارة . محرابه ومنبره من الطراز القديم . وله صحن واسع ، ومئذنته بسيطة من طبقة واحدة . وهو مسجد واسع .

وإذا اجتزت باب اللوق خارجا فهناك :

جامع ولد عبادة

مسجد غير مرتفع على حافة الخليج ، بصحنه شجرة نبق باسقة .

وبالقرب منه جامع غير مرتفع واسع بمئذنة قصيرة من طبقة واحدة وبصحنه شجرة نبق عتيقة كثيرة الفاكهة .

وعلى مقربة منه :

مسجد الأصمعى

مسجد تحتانى عتيق مزخرف جدًا ، بصحنه أشجار الجميز الباسقة ، ولكن جماعته صغيرة . وبابه مغلق دائما .

وبالقرب منه :

مسجد أمير آخور

مسجد مرتفع تحته حوانيت ، وليس له صحن .

المسجد الأبيض

هو مسجد مرتفع له صحن ، وسقوفه المزخرفة محمّلة على عشرين أسطوانة رخامية بيضاء ، بنى على حافة الخليج . وله منارة واحدة ، وبجوانبه الأربعة حديقة غناء ولأنه واقع على شاطئ الخليج يؤمه الناس متنزهين .

مسجد خان بك

مسجد نير (محبب إلى النفس) ذو مئذنة صغيرة ، ولكن جماعته كبيرة ، وهم جميعا خِضْريون[1] وبه بعض المنزوين من أرباب الأحوال .

---

(١) (نسبة إلى الخضر عليه السلام) أى الأولياء ولعلها بمعنى الزراع لأن المعروف أن الخضر يعيش فى الأماكن الخضراء . (د . السعيد) .

مسجد عبد القادر الطرطوشى

مسجد مكشوف الوسط ، وليس له صحن ، ومنارته ثلاث طبقات ، وبه أربعة محاريب للمذاهب الأربعة ، ومنبره خشبى .

وبداخل باب الحديد :

مسجد المغاربة

مسجد مكشوف الوسط ، به ستة وعشرون عمودا مبنيا بالحجارة ، ومساحته خمسون قدما طولا وعرضا .

وبالسوق السلطانية داخل باب الشعرية :

مسجد العمرى

مسجد بلا صحن ، أقيمت سقوفه المزخرفة على واحد وثلاثين عمودا ، ومنارته ثلاث طبقات .

مسجد عابدين بك

مرتفع يصعد إليه بعشرين درجة ، وتحته حوانيت . وقد أقيمت سقوفه المزخرفة المنقوشة على أربعة وعشرين عمودا من الرخام الأبيض ، لو اجتمع مانى وحسّان وبهزاد[1] من الفنانين لما استطاعوا أن يزيدوا عليها نقشة . وله منارة عالية من الطراز الاسلامبولى ليست عديمة النظير فى مصر وحدها ، بل ليس لها نظير فى مساجد المسلمين على وجه الأرض قاطبة ، منارة رشيقة سحرية الزخرفة ، كثيرة الألوان ، فقد بنيت على ست عشرة زاوية ، وبين كل زاويتين نوع من الحلية المعروفة بـ «ثلاثية الدرجات» تمتد من أساسها إلى شرفتها ، صنع الفنان هذا بالحجر ، فلو أراد (الخطائىّ) المذهّب أن يرسم مثله بجدول على ورق لعجز . فقد استعمل فى كل زاوية من أولها الى أخرها ضروبا من (الاسليمات) والأربطة والعقد والروميات حتى صارت كأنها نخلة سلطانية فى فرح ملكى ، وصنع لشرفاتها مقرنصات ودلايات ، فصارت ككأس دائرة الفلك . وهى بناء آية فى الرقة . حفظه الله .

(١) مانى صاحب مذهب المانوية . وكان ماهرًا فى التصوير وبهزاد مصور إيرانى فى عهد الدولة الصفوية . وأما حسان فلا أعرفه . (د . عزام) .

وإلى جانب باب الحديد :

مسجد مردة بك الإينالى

فوقانى على شاطئ الخليج ، أقيم سقفه على ست أسطوانات عالية ، وليس له صحن ونوافذه مطلة على الطريق العام وإلى الخليج ، وبداخله محكمة . وله منارة ذات طبقات ثلاث مسيطرة على العالم ، زخرفت (بشبابيك) ودلاّيات . وأصلحه القاضى منصور صهر الشيخ على الشمرلس حين كان ناظره ، فصار مسجدا يشع نورا ، هو مسجد بديع حقا . وله بابان ، وإذا خرجت من بابه الذى إلى يساره فأنت أمام جسر خشبى على الخليج .

مسجد الجندى

وهناك مسجد صغير بمئذنة قصيرة قبالة الخليج بسوق الدلالين يسمى مسجد الجندى . وبهذه السوق أيضا :

مسجد الداودية الكبير

مرتفع عن الأرض مقدار تسع درجات حجرية مزخرف ، ومنارته الرشيقة ثلاث طبقات ، ومحرابه مصنوع بالفسيفساء بالصدف الدقيق . وعلى باب منبره الآية الكريمة» : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ وكتب على باب الجامع البيتان الآتيان :

بناه على اسم داوود صدّيق ... وفى سبل الهدى قد جدّ سيرا

حمد ثنا فورخنا بنــــاه ... حقا حرا حمداً جزى الله خيرا[1]

سنة ٩٥٤هـ

وخارج باب الفتوح يوجد :

مسجد المطهر

مسجد قديم وبناء عظيم بمئذنة واحدة ، كثير الجماعة ولكن لم يتيسر لى دخوله ، وهو مسجد فوقانى مرتفع .

---

(١) ينبغى أن يكون : حمدناه فورخنا بناه أحمد جزاه الله خير . (المترجم) .

مسجد البندقانى

مسجد مرتفع ظريف ولكن لم يتيسر لى الدخول فيه ، وله باب فنى مصنّع ومنارة مزخرفة ذات ثلاث طبقات .

وبالقرب منه وفى طريقه :

مسجد الكتخدا محمد الحبشى

مسجد جديد مرتفع عن الأرض مقدار خمس درجات ، وسقوفه مقامة على أربعين عمودا . وله باب إلى القبلة ، ومنارة على الطراز الرومى (التركى) .

مسجد الحكيم قيصونى

مسجد بالقرب من الداودية الكبير إزاء منزل «أفندى الانكشارية»

مسجد الشيخ كريم الدين الدبوشرى ومسجد الهندى

مسجد صغير مرتفع ارتفاعا يسيرًا ، مبنى على شاطئ الخليج فى طريق باب الخلق يُصعد إليه من الشارع بثمانى درجات ، وتحته ثلاثة حوانيت . ونوافذه مطلة على البركة ، سقوفه ومنارته فنية مزخرفة . وهو فى السوق فجماعته كبيرة .

وثمة جامع عظيم آخر غير مرتفع مساحته مع صحنه مائة وستون خطوة طولا وعرضا وقد أقيمت سقوفه المزخرفة على مائة من الأعمدة العالية من ضمنها عشر اسطوانات من الرخام الأبيض استعملت فى بعض أماكن الجامع خارجا وداخلا ، وتحت دكة المبلغين ومحرابه مصنوع بالرخام والحجارة الدقيقة . ومنبره خشبى بيد أنه دقيق الصناعة فنى . وبقباب أبوابه الثلاثة ضروب من التصاوير منقوشة على حجر زنبورى . وبوسط صحنه العريض حديقة مسورة بدرابزين مربع قصير ، تعطر أدمغة المصلين بأريج الزهور وفيها نخيل باسقة . وإلى جانب باب القبلة منارة من ثلاث طبقات مكسوة بالقاشانى الأخضر الزمردى . وقد كتب إلى الجانب الأيمن من باب القبلة الآية : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وإلى يساره أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الباقى[1] . ولما كان المقيمون حوله من أعيان الأروام (الأتراك)

---

(١) نسخة يلديز : قوصون الباقى .

وأشرافهم فإن خدمه يعنون بنظافته دائما . وله خطيب من صلحاء الأمة ، إذا تلى القرآن الكريم والفرقان المجيد بصوته الرخيم انتعشت أرواح سامعيه . وهو شريك هذا الحقير (أوليا چلبى) ، فقد تلقينا العلم معا على يد أستاذنا الشيخ على السمرلسى . لا يوجد فى الشعب المصرى رجل ورع حليم سليم ، ذو صوت مؤثر ومثير ، خفيف الروح مثله . فلذا تحضر إلى المسجد جماعة كبيرة لسماع خطبته فى يوم الجمعة ، حتى يعجز المرء عن الحصول على مكان قبل الجمعة بساعة .

وبجوار بركة الفيل أيضا على مقربة من قنطرة سُنقر على شاطئ الخليج :

مسجد الشيخ إبراهيم الكاتب

له باب وحيد على الشارع العام ، يصعد إليه من طرفين بسلم ذى ست درجات وقد نقشت إلى يمين الباب ويساره الآية : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ ولكن ليس له تاريخ . وهو مسجد صغير لطيف بمئذنة ذات ثلاث طبقات تفتح نوافذه من جهة القبلة إلى الشارع العام ، ونوافذه الشمالية إلى الخليج .

مسجد الحبانية

مسجد صغير نيّر ، مقام على عشرين عمودا يعلو عن الأرض مقدار ست درجات ، وهو بناء متين ، على بابه منارة ذات ثلاث طبقات . وقد جعله الجاويش سليم الذى كان ناظرا له درة بيضاء .

وبباب الشعرية :

مسجد الشيخ الشعرانى

مسجد مرتفع يُصعد إليه بإحدى عشرة درجة ، وتحته حوانيت . وهو ليس بمسجد واسع ، وليس له صحن ، لأن أحد جوانبه على الخليج الذى يجرى داخل المدينة وسقوفه مقامة على اثنى عشر عمودا . ومحرابه ومنبره مختصران ، بيد أن منارته ذات الطبقات الثلاث فنية مصنّعة . والشيخ الشعرانى مدفون فيه . وللشيخ من المؤلفات ثلاثمائة مجلد .

وعبر الخليج على شاطئه تقريبا :

مسجد الشيخ الخلوتى

مسجد غير مرتفع أقيمت سقوفه على عشرين عمودا ، وليست به قبة معقودة . ومنبر محرابه بسيط ونوافذه مطلة على الخليج . وبصحنه حديقة صغيرة بها شجرة نبق باسقة ، تثمر ثمرة لذيذة . وفى ركن الشيخ وعلى مقربة من الميدان محراب من السماقى الأخضر قطعة واحدة لانظير له فى مصر ، ولكن نظيره فى القدس الشريف . وله مئذنة عالية رشيقة ذات ثلاث طبقات . وحول هذا المحل الخلوتى الشريف نحو سبعين أو ثمانين حجرة للفقراء ، سوف نكتب عنها فى موضعها .

مسجد بَشَك

هو من الچراكسة ، هرب إلى الشام سنة ٨١٣هـ فالتحق بتيمورلنك . ومسجده هذا تحتانى مزخرف لطيف . مبنى على الطريق العام . وسقوفه الداخلية والخارجية مقامة على ست عشرة أسطوانة ، وبصحنه نخيل . وهو مسجد مصنع ومحلى بزخارف كثيرة ، ومنارته الرشيقة ثلاث طبقات .

مسجد نقيب الجيش

مسجد قديم ومصنَّع جدا ، بالقرب من مسجد «قاراقوجا» بقنطرة الجماميز .

مسجد قاراقوجا

ومسجد قاراقوجا صغير ولكنه كثير الجماعة . وبدرب الجماميز أيضا وبإزاء قنطرة عمر :

مسجد كتكوت

هو مسجد صغير على الطريق العام ، وبه مغارة آية فى الفن والجمال ، وهو أحد الجوامع الكثيرة الزينة والزخرفة .

وعلى طريق باب الحديد تحت قلعة الكبش :

مسجد الأمير لاچين[1]

مسجد نيِّر لطيف مرتفع عن الأرض مقدار خمس درجات ، منارته الشاهقة رشيقة رقيقة للغاية ، ونوافذه تطل على الطريق العام . وقد أقيمت سقوفه المحلاة بنقوش وزخارف عجيبة على أربعة عشر عمودا . وكان صاحبه وزيرا للسلطان الملك الظاهر .

---

(١) لاچين ، نوع من الشاهين أبيض أحمر الرجلين . (د . متولى) .

وبقلعة الكبش أيضا وفوق سور القلعة :

مسجد الجاولى

تيسّر لى دخوله . وهو زاوية عالية ، لها منارة مربعة من ثلاثة أدوار . وإذا مشيت منه داخل جامع ابن طولون داخل الحى فأنت عند :

مسجد الأمير يوسف أزبك

مسجد فوقانى لطيف بنى على مفترق الشوارع بناء بديعا ، له سقوف محلاة بزخارف بديعة مقامة على أربعة عقود منقوشة ، ومحراب مرصع ، ومنبر خشبى مقرنص ودكة المؤذنين عجيبة الزخارف والحليات ، ومنارته من ثلاث طبقات مكسّوة جدرها بأنواع من الأحجار الملونة . ولا يوجد له صحن .

ولو أردنا الكتابة عن كل جامع من الجوامع التى بمصر وهى نحو ألف جامع ، لاقتضى الأمر كتابة مجلد ضخم ، فلذا اكتفينا بإيراد أسماء البعض من بقية الجوامع وهى :

مسجد الإمام الحسين ، ومسجد مسيح باشا فى طريق الإمام الشافعى ، ومسجد القيصونى القريب منه ، وإلى جانبه مسجد أم السلطان حسن ، وبالقرب من القبر الطويل مسجد الشيخ بدر الدين الوصائى ، وعلى مقربة من مسجد الخاتونية وباتصاله مسجد الأشرفية ؛ وإذا سرت داخل حى الخلالين فهناك مسجد شجرة الدر ، وهو مسجد قديم للملكة شجرة الدر التى كست الكعبة الشريفة بكسوة من الحرير الأسود . وبإزاء قنطرة الموسكى مسجد الزينية وهو مسجد ذو مئذنة واحدة . وعلى الطريق العام بأسفل باب الوزير مسجد آيتمُش الذى كان من وزراء الظاهر بيبرس ، وهو مسجد متين ذو مئذنة وقبة ، ومسجد الشيخ شمس الدين الحنفى وهو مسجد عامر وخانقاه قديم ، ذو جماعة كبيرة وبصحنه شجرة نبق باسقة مثمرة ، وله مئذنة واحدة . وفضلا عن هذه الجوامع فإن فى مصر آلافا من مساجد وجوامع وأوقاف مقيدة كلها فى سجل قاضى العسكر أفندى ، لأنه حين يدخل مصر يتقاضى من كل مسجد جنيها (ذهبا) على الأقل ، وثمة أوقاف كثيرة يتقاضى منها من خمس جنيهات إلى مائة جنيه حسب ثرواتها واتساعها . وقاضى العسكر افندى هو ناظر نظار الأوقاف جميعا فلذا قيدت فى سجله جميع الأوقاف التابعة لتفتيشه .

الفصل السادس والعشرون

فى بيان ما فى مصر من المساجد الكبيرة

وردت الآية الكريمة ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فى حق المساجد . وقال الله سبحانه وتعالى فى قرآنه العظيم وفرقانه المجيد فى حق من يعمر المساجد من المسلمين ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

فليكن معلوما لإخواننا المسلمين أن المصريين كانوا فى الأزمان الماضية جد مغرورين حتى أن أحدا منهم إذا ملك عشرة أنفارا استنكف العبادة فى مساجد غيره فخصص ركنا من داره يصلى فيه هو وأتباعه أو بنى له مسجدا خاصا . فلذا روى أنه كان فى مصر مائة وسبعة وسبعون ألف محراب فى أيام الأيوبيين والتركمانيين . ولا تزال هناك مساجد متصل بعضها ببعض فى قايتباى وبالقرافات . وأما المحاريب العامرة فمحفوظة الأوقاف حتى اليوم فعددها ستة وأربعون ألفا ، بعضها ذو مئذنة وبعضها لامئذنة له ، ونبين هنا ما اطلعنا عليه من المساجد وهى :

مسجد رئيس الطهاة فى القلعة الداخلية ، ومسجد قلاوون ، ومسجد السوق ، وبالقسم الداخلى مسجد الچاويش أغا ومسجد الباب ، ومسجد البرج الداخلى ، ومسجد غرف العزب ، ومسجد السراجخانة ، ومسجد القراميدان ومسجد (القوافين)؟ ومسجد الكلشنى ومسجد الخراطين ، ومسجد السادات ، ومسجد المغاربة ومسجد الشيخ البكرى ، ومسجد الدرب الأحمر ، ومسجد إبراهيم أغا ومسجد قنطرة الليمون ومسجد حسن الشاذلى ، ومسجد باب الخلق (الخرق) ، ومسجد الجماميز ومسجد الطباخين ، ومسجد الشيخ كنعان ، ومسجد شجاع الدين ، ومسجد رسول أفندى ، ومسجد ذو الفقار كتخدا ، ومسجد ريحان أغا ، ومسجد السيد على ، ومسجد أبارى . وخلاصة القول أننا لو أخذنا بإحصاء الغزالى وكتبنا عن جميع المساجد لاقتضى ذلك كتابة مجلد . وهناك مسجد المهمندار بالقرب من جامع القجمازية .

الفصل السابع والعشرون
فى بيان ما فى القاهرة من المدارس

منذ أن فتح عمرو بن العاص مصر حتى فتح العثمانيين تقلبت فى مصر سبع دول من الأموية والعباسية والإخشيدية والفاطمية والكردية والتركمانية والچركسية ، وبلغ عدد حكامها أربعين وثلاثمائة سلطانا ، بنى كل واحد منهم مدرسة . وقد أسهم وزراؤهم ووكلاؤهم وكبار الأعيان فى الإصلاح والتعمير ، فأنشأوا مدارس بلغ عددها ثلاثة آلاف وستمائة مدرسة . بيد أن مرور الأيام وتقلبات الزمن أثر فى أوقافها فدرست وتخربت المدارس . وأما المدارس التى لاتزال عامرة حتى اليوم فهى مدارس السلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الصالح والسلطان برقوق والسلطان فرج ، والسلطان الأشرف ، والسلطان سيف الدين والسلطان أيبك التركمانى . وموجز القول أنه لايزال فى مصر ستة وخمسون ومائة جامع للسلاطين وأبنائهم ، ولكل جامع مدرسة ، ولأن هذه المدارس مزينة بمنارات يخالها الناس جوامع وهى ليست بجوامع وإنما هى مدارس تلقى فيها الدروس .

وبالقرب من باب الخلق مدرسة اسكندر باشا[1] ، وهى مدرسة لها حجر على الطراز التركى (الرومى) وبصحنها حوض وشادُرْوان[2] ، ولها مدرس وطلبة . والمدرسة الداودية ولهذه المدرسة منارة من ثلاثة أدوار كمنارة جامع صرغتمس الذى تحت الصليبة وبها حوض عظيم ومحراب وحُجر ولها مدرس برتبة المولوية وناظر خاص . وبالقرب من الشيخ مرزوق الكفافى مدرسة تُدعى المدرسة القرافية ، وهى بناء مرتفع قديم ، وبالسراجخانة مدرسة سليمان باشا ، وهى على الطراز التركى ، وجميع حجرها قباب معقودة ، وبصحنها دورة المياه . وهى مدرسة لاتزال عامرة . وصاحبها سليمان باشا الطواشى الذى له مسجد عند الشيخ سارية بالقلعة الداخلية . وناظرها أغا الانكشارية ، والمدرسة الباسطية تلكم هى المدارس الثلاث العظيمة . وهناك مدرسة غير مرتفعة ذات بناء عظيم فى طريق عمر ابن الفارض وهى المدرسة الميمونية يخالها الناظر إليها مسجدا لمنارتها ذات الطبقات

(١) كانت فى باب الخلق ثم أزيلت لما أنشئ الميدان . (المترجم)
(٢) شادروان أو شادربان ، كلمة فارسية الأصل معربة ، وهى تعنى : خيمة ، سرادق ، مظلة كبيرة . (د ، متولى) .

الثلاث . وقد نقش إلى جانبيها الآية ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ وتحتها «سنة أربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية» . والمدرسة الحسابية مدرسة عامرة . وبداخل مصر مدرسة الملك الكامل ، وهى أول مدرسة بنيت فى القاهرة دارا للحديث . وفى الإمام الشافعى مدرسة الملك الكامل . وهناك حوض شافعى وسبيل أمام تربة الإمام الشافعى وقد جلب الملك الكامل ماء النيل إليهما من بركة الحبش التى بالقرب من قرية البساتين بواسطة عقود المياه ، وجعلها خيرات عظيمة . وله خيرات كثيرة فى مدينة دمياط . ولما انتهت دولة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ خلفه ابنه الملك العادل أبو بكر ومدرسة السلطان صلاح الدين التى بنيت سنة ٥٧٥ هـ بالقرب من الإمام الشافعى وهو صلاح الدين يوسف الذى بنى قلعة مصر الداخلية سنة ٥٧٢ هـ .

الفصل الثامن والعشرون

فى بيان دور الحديث التى بناها السلاطين فى مصر (القاهرة)

بالقاهرة ستون وثمانمائة دار لدرس الحديث لا يدرس فيها سواه . ومنها نحو الأربعين حول الجامع الأزهر . ويتلى البخارى ومسلم فى مسجد المؤيد ، والبخارى يتلى فى دار الحديث الأزهرية أيضا . ولو كتبنا عن كل من دور الحديث لكان مجلدا ضخما . والقاهرة معدن الحديث فيها أكثر من خمسين ألف محدِّث ، يحفظ كل واحد منهم عشرين أو ثلاثين ألف حديث ورواتها . وهناك عميان مشهورون بحفظ الحديث كحفظ القرآن الكريم ، لايستطيع سواهم من العلماء تلاوة حديث واحد أمامهم . ولعلماء الحديث مكانة أعلى من مكانة سائر العلماء بمصر ، فهم يعزونهم ويكرمونهم كثيرا . ومن حكمة الله أن من يملك ناصية الحديث يشع النور من وجهه . ولكل دور الحديث محراب وحجر للفقراء والمدرسين . وتتجمع فيها جماعات عظيمة ثلاث مرات فى الأسبوع لقراءة الحديث ، يفدون إليها من كل الأرجاء زرافات ووحدانا .

الفصل التاسع والعشرون
فى بيان ما بمصر من دور القراءة

بالقاهرة سبعون وثلاثمائة دار للقراء . كان السلف من السلاطين يعينون غالبا شيخا للقراء فى كل جامع يرأس الأئمة والخطباء والمؤذنين وقراء الرواتب إلا أن الأعيان وأصحاب الثراء لم يكتفوا بهذا بل أنشأوا قبابا ودورا للقراء فى سائر الأماكن ، يلقن فيها القراء طلبتهم البيت الآتى من كتاب الجزرية وهو :

والأخذ بالتجويد حتم لازم ‏ ‏ ‏ من لم يجوّد القرآن آثم

ويلقنونهم مخارج الحروف تلقينا جيدا ويقولون :

إذ واجب عليهمُ محتم ‏ ‏ ‏ قبل الشروع أولا أن يعلموا

وإذا أتموا الجزرية حفّظوهم ابن كثير ثم الشاطبية ، وهكذا يحفظون القراءات السبع ، ثم القراءات العشر ، ثم القراءات التقريبية حتى يتموا فن القراءة كله . ففى القاهرة أئمة يؤمون الناس على سبعة عشر قولا ، إلا أن الأشهر عندهم القراءة على رواية «قالون» و«أبى عمرو» . وأما عند الأتراك فالأفضل قراءة حفص . كانت هذه القراءات محظورة فى أيام خلافة عمر رضى الله عنه ، فلما توفى إلى رحمة الله شاركت ابنته حفصه عثمان رضى الله عنهما فى جمع القرآن وأخذ عثمان عنها هذه القراءة فسميت باسمها .(١)

وأما عند الأتراك فلم تشتهر إلى أيامنا غير قراءة حفص . وأخذ أستاذنا أوليا أفندى أستاذه الشيخ أحمد إلى إستانبول ، إلا أن علماء الأتراك ظلوا مقيدين قراءة حفص ، حتى إذا توفى الشيخ أحمد وُعيِّن أستاذنا أوليا أفندى شيخا للقراءة شاع علم القراءات السبع والعشر والقراءات التقريبية . ومتعلموا القراءات فى سائر البلاد إن قدروا على أداء الحروف حقها فإنما يقدرون عليها كالأتراك (الروم) إذ أن الشعب التركى شعب ذكى ومقلد رشيد ، فكأن قول القائل :

ذاك أيضا حلية التلاوة ‏ ‏ ‏ وزينة الأداء والقراءة
ذاك إعطاء الحروف حقها ‏ ‏ ‏ من صفة لها ومستحقها

---

(١) قراءة حفص مسماة بأحد القراء لا باسم حفصة بنت عمر كما يتوهم المؤلف . (د .عزام) .

خاص بالأتراك . وأما المصريون فطالما يقعون فى اللحن الجلىّ والخفّى ، ويخرجون الحروف باmالات التسهيل والترقيق ، بيد أن فيهم كثيرا من الحفاظ سريعى الحفظ ومنهم حفاظ عظام كالشيخ سلامة والشيخ عبدالحق والشيخ محمد الحمزاوى والشيخ حمد الله العصبوتى من حفاظ عصرنا ، فكلهم فصيح اللسان بديع البيان . وكان هناك سبعمائة من القراء أمثالهم . ولما تلوت القرآن أمامهم أقسموا قائلين« إنك تعلمت قراءة القرآن من سامى» . وفى مصر مكانة عظيمة لحملة القرآن .

الفصل الثلاثون

فى بيان ما بالقاهرة من الكتاتيب

بالقاهرة ألفان وخمسة عشر كتابا يتعلم فيها الصبية الحروف الهجائية ولهذه الكتاتيب أوقاف دائمة . وبها أيضا نحو ألفين من الكتاتيب الحسبية ضاعت أوقافها . ومن الأمور المعتادة أيضا أن يكون هناك مكتب فوق كل من الأسبلة التابعة لمائة وستة وخمسين جامعا من الجوامع التى بناها السلاطين ، وإن أضفنا إليها أسبلة الوزراء والوكلاء والأعيان والأثرياء ، بلغ عددها نحو أربعين ألف سبيل . ومن المحتم أن يكون فوق كل سبيل عال كتاب ذو شباك منقّش مقرنص يذكرنا بقصر يوسف . ومن دأب أعيان القاهرة أن يبنوا الكتاتيب فوق الأسبلة التى تغطى جوانبها بستائر ذات أهداب وأن يكون الصبية الذين يحفظون القرآن بداخلها . ويكون بالقاهرة على الحساب المتقدم ستمائة وسبعة عشر كتابا . وخيرها هى الكتاتيب التى بمساجد السلاطين ، وهى كتّاب السلطان الغورى وكتاب السلطان حسن ، وكتاب السلطان قلاوون ، وكتاب السلطان الأشرف وكتاب السلطان المؤيد .

وخلاصة القول إنه إذا كان النصف من رمضان جمع معلمو كتاتيب السلاطين والوزراء والأعيان الأطفال الذين يعلمونهم وهم من الأيتام والفقراء وعلى صدورهم ألواح مكتوب عليها آيات من كلام رب العزة ، وساروا معهم مارين بالأسواق يصيح بعضهم «ياحنان» وبعضهم «يامنان» وذهبوا إلى ناظر الكتّاب الذى يخلع على كل صبى ثوبا من النسيج المصرى(مصر آلاجه سى) وعراقية حريرية ، وأربعين أو خمسين پارة مصرية من الأوقاف الخيرية وهى رواتبهم . وإذا تم ذلك انصرفوا عائدين فرحين مسرورين متصايحين «ياحنان« يامنان» ، وتستمر هذه الحركة من نصف رمضان حتى يوم الوقفة ، فتشاهد الصبية رائحين غادين بين الكتاتيب ودور نظارها ، كأنهم يتظاهرون ، أنها لأوقاف عظيمة حقا .

وإذا كان الظهر أو العصر وشرع المؤذنون فى أداء الآذان بأصواتهم البلالية من منارات المساجد السلطانية ، والعظمة لله ، أخذ أربعون أو خمسون من الصبية الطاهرين ذوى الأصوات القوية العالية فى كل كتاب ، يسمعون الناس أذانا محمديا من نغمات «الحجازكار» و«السيكه» والحسينى مدة ساعة نجمية . وليس فى بلد من البلاد آذان

الكتاتيب هذا . وإذا تم أداء الصلاة اجتمع الصبية فى مكان واحد وتلوا سورة المُلك وداوموا على الصلاة الطويلة ، ووهبوا ثوابها إلى أصحاب الخيرات . وهذه العادة أيضا غير موجودة فى سائر البلاد . وكثيرًا ما يقوم الصبيان ذوو الأصوات الحادة الرخيمة بالآذان المسلسل متجاوبين ، فتنتعش أرواح السامعين . وإذا مر بعض الأعيان بمواكبهم وشربوا من أسبلتهم الماء السلسبيل ، قرأ الصبيان من فوقها بأصواتهم العالية ، الآية الكريمة ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ فانتهى ذلك بإحسان أهل الكرم إليهم . فجميع كتاتيب مصر على هذا الأسلوب والنظام .

وأما كتاتيب الأتراك (الأروام) ففى سبعين مكانا ، وليست كتاتيب مكلّفة كالقصور ، مبنية على أسبلة مزخرفة ، وإنما هى فى حوانيت الخطاطين المهرة والمعلمين فى داخل الأحياء ، وبالقرب من زاوية الكلشنى خاصة ، يتعلم فى كل منها ستون أو سبعون صبيا القراءة والكتابة والحساب ، وعلم القراءات وليس بها من صبيان الفلاحين ، والخضريين(!) ومعلمو الأتراك يسكنون بتلك الأماكن .

الفصل الحادى والثلاثون
فى بيان ما بمصر من الزوايا ومساكن الصوفية

تحفل القاهرة بثلاثمائة وستين طريقة صوفية[١] ، وخيرها جميعا طريقة العلماء والصلحاء أهل الشريعة ، وأهل الحقيقة والمعرفة ، أهل الحقيقة المحمدية ، ثم طريق صاحب الغار أبى بكر الصديق ﵁ . وهو أول من تلقى جهاز الفقر[٢] من رسول الله ﷺ وبايعه . ومنها نشأت الطريقة النقشبندية التى تسمى طريقة السادة (خواجكان) . وقد اشتهرت فى بلخ وبخارى وخراسان وبلاد الأكراد وتركيا (الروم) . وتفرعت منها اثنتا عشرة طريقة تنتهى كلها إلى نقشبند ثم طريق الإمام على رضى الله عنه ، والذى تلقى (قبل) جهاز الفقر من الرسول فنشأت الطريقة الخلوتية التى تفرعت منها ثلاثمائة طريقة خلوتية تنتهى جميعها إلى طريقة على الخلوتية ، ثم طريقة الإمام الأعظم وهى تاج الطرق كلها ، ثم طريق الإمام الشافعى ، ثم طريق الإمام مالك ثم طريق الإمام الحنبلى ، والقادرى ، والسعدى والبدوى والرفاعى والرايى Rai والدسوقى والبرهانى والواحدى ، واليسوى والكمبللى Kembilli والعباسى والأدهمى ، والبكرى والساداتى والريسى ، والعَلَوى والحيدرى والشمسى والمولوى ، والولدى ، والعشاقى والغنائى واليمنى والبكتاشى والقلندرى والصمودى والبَيْرَمى والحمزاوى والإدريسى وعمر الروشنى والكلشنى والسنائى والزينى والنعمة اللهى ، والنوربخشى ، والمطاوى والسناوى والسعودى والليثى والفارضى والخموشى . وموجز القول أن هناك آلافا من الطرق عدا الثلاثمائة والستين التى أوردنا ذكرها ، فقد ورد فى حديث الرسول« الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» ولكن مما لا يخفى على أهل البصيرة أن مشايخ الطرق قد افترقوا بحسب مشاربهم ، فذهب كل واحد إلى جهة واستقر فيها ، ثم أرسل فروعه إلى كل الأرجاء كأنه شجرة باسقة كثيرة الأفرع والثمر . وفى مصر أكثر من ثلاثة آلاف طريقة للفقراء كلها محمدية ، والمصريون كلهم أهل التوحيد ، ولاتزال فى القاهرة ألف وستون زاوية لتلك الطرق بيد أننا لانكتب هنا إلا عن التكايا العامرة .

---

(١) لا يعوّل على إحصاء المؤلف فى هذا الشأن . (د . عزام) .

(٢) اصطلاح صوفى يطلق على الطبلة والكاس والبيدق والمخلاة والبلطة . . . الخ . (د . السعيد) .

ففى القاهرة مثتا زاوية لطريقة السيد أحمد البدوى . وأما فى القطر المصرى فتبلغ عدد زواياها حسب سجلات خلفائه ألفين وستين زاوية بدوية . يحضر خلفاؤه جميعا مولدّه الكبير كل عام ويجددون البيعة . وذلك لأن الشعب المصرى برمته يعتقد بالسيد أحمد البدوى ويجلونه . فلا يقع أحد منهم فى ضيق أو ورطة إلا ويقول « يا الله يا سيد يا بدوى» . وإذا لزم لأحدهم أن يحلف اليمين فى محكمة أقسم « بسر البدوى وبسر أبو الميامين» ولهذه الطريقة مبان عظيمة بالقاهرة وأوقاف غنية ثابتة ونحو ثلاثمائة ألف من الأتباع الفقراء ذوى الرداء الأحمر والأبيض ، والعيون الكحيلة . وأما مقرها ففى وسط مدينة طنطا بالغربية على مسيرة منزلين من القاهرة شمالا ، وهو مقر عظيم سوف أكتب عنه إن شاء الله . وأما مركزها العام بالقاهرة ، فعلى الشارع العام بالقرب من سراى قاضى العسكر .

تكية الشيخ مرزوق الكفافى

هو أحد خلفاء الطريقة البدوية وأحد المشايخ الذين كانوا على قيد الحياة فى أيام السلطان سليم الأول ، وقال مع أبى السعود الجارحى« ياسليم تعال اجلس فى مصر» وتكيته فى جامعه ، يقيم فقراؤه فى أربعين أو خمسين حجرة ، بها طعام مبذول ، وشيخهم الآن الخليفة أحمد .

تكية الشيخ رفاعى

هذه الزاوية مركز عظيم إلى جانب مسجد السلطان حسن ، وهى تكية الطريقة البرهانية لها مائة ألف من الفقراء . ولهذه الطريقة أتباع كثيرون فى القاهرة يزينون الشوارع بخمسمائة راية بيضاء فى أيام الاحتفال بالمحمل الشريف . ومن مشايخهم العظام الشيخ إبراهيم الدسوقى البرهانى ابن أخى السيد أحمد البدوى (١) ومن معاصريه . والمصريون يعتقدون به مخلصين ، فلذا يقسمون به قائلين «بسر مُوَلّى النحاس» ومعنى ذلك أقسم بإبراهيم الدسوقى مدوّر الشعار النحاس (العَلَمُ أى الشعار الذى على المآذن) . والحق أنه إذا اقترب ظهور حدث من الأحداث بدأ الشعار النحاسى على قبر الشيخ إبراهيم الدسوقى يتحرك ويدور قبله ببضعة أيام ، فيُستَدل به على الحدث قبل وقوعه . ولإبراهيم

---

(١) إبراهيم الدسوقى ليس بن أخى البدوى . (د . عزام) .

الدسوقى أيضا مائة ألف من الفقراء . ومركزه على ساحل النيل بالقرب من رشيد وسوف أكتب عنه فى موضوعه .

تكية الإمام الشافعى

مقر عظيم يجتمع فيه كل ليلة السبت عدد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف من الفقراء والضعفاء ويحيون الليلة حتى الصباح ، يختم فيها القرآن الكريم أكثر من مائتى مرة . فهو حى خاص جميع سكانه من فقراء الشافعية . ويبذل لهم الطعام من وقف الله . وإذا كان مولد الإمام الشافعى اجتمع فى تلك التكية عشرة آلاف نفس من الأتباع بطعامهم وشرابهم لإحياء المولد . ويقال إن روح الرسول الأكرم تحضر هناك فى تلك الليلة .

وعلى مقربة منها :

تكية الإمام الليث

وهذه التكية أيضا مركز عظيم ومزار مبجل فى حى خاص جنوبى القاهرة وخارجها . وكان الشيخ الليث أيضا على قيد الحياة فى عهد السلطان سليم[١] وقال «ياسليم اجلس إلى مصر» ولليث كرامات كثيرة . ويسمى أتباعه بالسعوديين[٢] وهم رجال متصفون بالحلم والسلم .

تكية السادات

أوقف نصف القاهرة على هذه التكية . لما قدم إلى مصر من أرض المغرب كان النيل ممتنعا عن الفيضان ومصر مبتلاة بالقحط والغلاء ، فالتمس أهلها أن يدعو لهم بفيضان النيل ، فأمره الشيخ بالفيضان فما أسرع ما هاج وماج وفاض فى غير أوان الفيضان . فلذا صار المصريون يجلونه ويقولون «يا الله ، يا سادات» وتكيته مركز عظيم بها كثير من الفقراء .

تكية عمر بن الفارض

هذه التكية بأسفل جبل الجيوشى ، يجتمع فيها بعد صلاة الجمعة أكثر من خمسة

(١) الليث بن سعد من كبار الأئمة الفقهاء فى القرن الثانى الهجرى . فلم يكن فى عصر السلطان سليم كما يتوهم المؤلف . (د . عزام) .

(٢) هذا أبو السعود الجارحى الذى كان فى عصر السلطان سليم وذكره المؤلف قبلا . (د . عزام) .

آلاف رجل فيتلون سورة الكهف والأوراد والأذكار والتوحيد السلطانى ، ثم يشرع الحفاظ ذوو الأصوات الرخيمة فى تشنيف آذان السامعين وتمتيع أرواحهم بتلاوة الأعشار بصوت جميل حتى إذا أتموا تلاوة الأعشار بدأوا فى إنشاد قصيدة لعمر بن الفارض بصوت واحد حزين على نغمة الحجاز العشاق . فترى العشاق ثملين حيارى . لأنه يجتمع فيها فى ذلك اليوم جميع العشاق الصادقين ، والأبدال والأمناء والأوتاد والنجباء والنقباء والمجذوبون والملاميون ، وفيهم المحبون العظام الذين تشرفوا بمشاهدة جمال وجه الرسول عدة مرات . وسبب ازدحامهم ذلك أنهم يزعمون أن النبى يحضر بذاته الكريمة إلى تلك التكية كل يوم الجمعة . ويشتد الزحام إلى حد أنك لاتجد مكانا لوضع قدمك ، بيد أن الحضار لايظهرون أمارة تدل على التألم والامتعاض ولو جلس بعضهم فوق أكتاف بعض ، فهم جميعا فرحون متلذذون ، وتلك حكمة عجيبة . ثم إنه ليس فى هذه التكية فرق بين الغنى والفقير ، فكلهم يجلسون ركبة إلى ركبة كالأسماك . وبها نحو ستمائة من الفقراء غذاؤهم حساء العدس ، وهو يبذل لكل من يحضر من الإخوان . وفوقها :

تكية الشيخ شاهين

حقا إنها لصخرة «شاهين العظيمة» ، كأنها وكر نسر مسيطر على مدينة القاهرة برمتها . وبها مسجد بمئذنة . ويجتمع محبو الله فى هذه التكية كذلك بعد صلاة الجمعة ، فيقومون بالذكر والتوحيد ، وفيها نحو مائتين من الفقراء .

تكية الشيخ الجيوشى

إنها مقر شاهق مشرف على العالم من فوق جبل المقطم المشرف على قلعة مصر الداخلية ، فالقاهرة كلها تحتها . وهى لذلك طلقة الهواء جدًا . لها مسجد ونحو أربعين أو خمسين فقيرا . ويوصل كتخدا والى مصر مياه النيل إليها من القاهرة بواسطة الجمال ، ومنها تذهب إلى الدير .

تكية عقبة بن عامر الجهنى

وعقبة بن عامر الجهنى من أصحاب رسول الله . فقد جدد محمد باشا الخاصكى الزاوية والمسجد سنة ١٠٦٣هـ وجعلهما معا حصنا يعجز المرء عن وصفه . ولهذه التكية نحو سبعين أو ثمانين من الأتباع الفقراء .

تكية البساتين

تكية ذات حديقة غناء بها حوض وشادروان بقرية البساتين القريبة من النيل يديرها نقيب الأشراف ، لها مطبخ وعدة مقاصير ، وفقراؤها من الأشراف .

تكية رماة السهم

تكية متصلة بقدم النبى ، يحضر إليها القواسون ورماة السهام للرياضة والاستجمام لها مطبخ ومساكن وسواقى للمياه . وبها لكل بطل (بهلوان) حجر يتخذه هدفا وباتصالها تكية قدم النبى . وهذه الخيرات من أوقاف إبراهيم باشا الدفتردار ، وسوف نكتب عنها إن شاء الله فى أثناء الكتابة عن المتنزهات ، لأنها خيرات عظيمة حقا .

تكية السيدة نفيسة

إنها لدار عظيمة بها أكثر من مائتى فقير ، وبها خادم للضريح وناظر ويقدم الطعام لزائريها من الخيرات .

تكية الشيخ نور الله البدوى

إذا سرت من تكية السيدة نفيسة ودنوت من القبر الطويل فهناك تكية الشيخ نور الله البدوى ، وبها نحو مائتى فقير . وإذا سرت منها إلى عقود الماء التى بناها السلطان الغورى ، فعلى مقربة منها داخل المدافن :

تكية زين العابدين

وإنها دار عظيمة كأنها قلعة ذات متاريس . وبها أربعون أو خمسون فقيرا . كانت لها أوقاف غنية فى الأيام الغابرة ، إلا أنها ذهبت ولم يبق لها شىء .

تكية الشيخ

على مقربة من حارة السقائين بالقاهرة مسجد قديم عتيق بمئذنة واحدة وبميدانه يبيع فقراء المسلمين الغلال .

تكية الشيخ الخلوتى

تكية كبيرة على حافة الخليج بالقرب من قنطرة سُنقر بالقاهرة ، وبها صوامع

للفقراء . وبها محراب مصنوع من قطعة واحدة من السماقى الأخضر ، أعجز عن وصفه باللسان . يلبس الشيخ عزيز عبد الرحمن عمامته السوداء ، فيقوم بالذكر مع آلاف من الفقراء أمام ذلك المحراب . وتقام فيها صلاة الجمعة أيضا ، فلها جامع لطيف اشتهر فى القاهرة باسم جامع الخلوتى . وبالحديقة المتصلة بحرمها بئر يستخرج منها ماء حلو . وبمطبخها طعام يبذل للفقراء ليلا ونهارا .

تكية الشعراوى

تكية قريبة من باب الشعرية بالقاهرة ، والشيخ لايزال على قيد الحياة . وهو يقوم بالذكر لله ليلا ونهارا مع بضع مئات من الفقراء . ويخرج من مطبخها طعام للفقراء ليلا ونهارا .

تكية الشيخ شمس الدين الحنفى

وهذه أيضا دار كبيرة بالقرب من الخليج بها مسجد وتكية ذات حُجَر وبها نحو مائة وخمسين فقيرا يداومون على ذكر الله ، ويبذل منها الطعام للزائرين .

تكية الشيخونية

كان شيخون وزيرا للسلطان حسن ، وتكيته دار عظيمة لطريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى وقد أقيمت سقوفها المنقوشة المزخرفة على ستة عشر عمودا . وعلى حوضها العظيم الذى بوسط حرمها قبة عالية بيضاء تجملها ثمانية عمد ، وصحنها مفروش بالرخام الأبيض الخام . وإذا دخلت من باب فى ركنها الأيمن فأنت فى حرم مسقوف حوله حجر ذات عدة طبقات يسكنها فقراء القادرية ، الذين يقيمون ذكر التوحيد فى ذلك الحرم ، ويربو عددهم على المائتين . وفيهم رجال يجاهدون فى الرياضة فقرا وفاقة ، يشع من وجوههم النور . وهذه التكية منبع العلماء ، ولها أوقاف غنية متينة تبذل منها النعم للمترددين عليها . ويقوم بنظارتها إمام ولاة مصر . ويرد للإمام ما يربو على تسعين ألف بارة مصرية هدية حلوانا فى العام . ولها منارة عالية من ثلاثة أدوار على بابها الواقع على الشارع العام . وبإزائها عبر الشارع جامع الشيخونية وهو نظيرها تماما ، وقد بنيا على طراز واحد ، ونوافذها تطل على الشارع العام . والشيخ الحالى للتكية «أمير چلبى» وهو رجل حليم له طبع السادات الكرام ومحترم من الجميع . وبالقاهرة أربع تكايا قادرية ، إلا أن هذه أعظمها .

وبالقرب منها وبالصليبية كذلك :

تكية الشيخ الأبّار

هو رجل من الصالحين الكرام ، ولا يزال على قيد الحياة ، مقيما بزاويته ، ولا يفارقها أبدا . رجل منزو زاهد ، يعيش على صوم داود ، فطوره عشرون درهما من خبز الشعير وسلطانية من لبن ، وهو غذاؤه الدائم . إنه شيخ عالم فاضل كامل ورع زاهد وصاحب رياضة مستجاب الدعاء .

مناقبه :

كنت أنا الحقير فى حضرة الشيخ الأبار قبل نزول أحمد باشا الدفتردار من القلعة فقال لى فى أثناء الحديث ، ماذا يفعل الباشا؟ قلت إنه ملازم لخدمة مكة والمدينة ومشغول بدعائكم . فما أسرع ما كشف ، وقال : يا ترى هل يمر بعد ثلاثة أيام بزاويتنا ويسأل عنا ؟ وأشار إشارات واستنتجّ الحاضرون من إشارة الشيخ أن الباشا ليس محبا للفقراء ، فتطاولوا عليه ببعض الألفاظ ، فلم يكن من الشيخ إلا أن قال كلا ، كل من عند الله ، فلا تدعوا عليه ، فمن لطف الله أن الجراد المضر لايقيم بمصر بل يهلك ، فلن يظل فيها المضر من بنى آدم أيضا . ولا يعمر فيها من يقوم بالفتن ليلا ونهاراً ،ومن العجب أنه فى اليوم الثالث تماما اجتمع رجال الجيش فى ميدان الرميلة مدججين بالسلاح ، وثاروا ثورة عامة ، كانوا كالبحر المتلاطم الأمواج حتى إذا كانوا أمام باب العزب أنزلوا عبدالفتاح كاتب عنبر يوسف عن جواده فقطعوه إربا إربا ، ثم طالبوا الباشا بالنزول من القلعة وعزلوه . بلا سبب وأنزلوه من القلعة عنوة . فلما كان يجتاز شارع الصليبية مع أتباعه وأعوانه رأى خدم الشيخ الواقفين لتحيته فسلّم عليهم وسأل عن حال الشيخ ، ثم نزل ضيفا على قصر الحاج باشا ومكث فيه . وخلاصة القول أن إشارته منذ ثلاثة أيام ، حين قال «يا ترى هل يمر الباشا بزاويتنا بعد ثلاثة أيام ويسأل عنا» قد وقعت فى اليوم الثالث تماما .وله كشوف وكرامات غير ما ذكرنا . لايدخل فى يده ولا فى أيدى أهله وأولاده درهم ولا دينار من غير الحلال سوى أنه يقبل الأطعمة الواردة إليه عن طريق الهدية كالأرز والعسل والسمن والقمح ، وكسوته أيضا من الهدايا المخلوعة عليه . فهو ولىّ وسلطان للفقراء ، ويعيش الفقراء فى تكيته على لقمة الرضا والكفاف .

تكية الخواجكان

زاوية منبع الفقراء فى النهاية الشرقية لميدان الروميلى . جميع سكانها من فقراء الأزبك وبلخ وبخارى ، ولكن أوقافها ضعيفة ، فلذا يعيش فقراؤها مما يرد لها من النذور . ومن طريف ما يحكى عن بنائها أن السلطان سليما لما خرج من استانبول قاصدا فتح مصر رافق جيشه رجل نقشبندى يحمل على كتفه قطعة من عمود من الحجر السماقى الأحمر زنتها أربعمائة أقة ، وأوصلها إلى مصر تحت نظر السلطان سليم . فلما تم الفتح بنى له السلطان هذه التكية ، وعلقت قطعة العمود على باب التكية بسلاسل حديدية يشاهدها المترددون على التكية دهشين ، لأنها قطعة تزن حمل بعير ، وحملها كرامة حقا . وحاملها مدفون فى جانب التكية .

تكية الأزبك

هى زاوية صغيرة بلا أوقاف ، فيعيش سكانها على لقمة الرضا والكفاف . وهم جماعة من فقراء الأزبك والهنود والبلخيين والبنغاليين والسلمانيين والمغول والبوغوليين . وشيخهم من أرباب الأحوال ، فهم يجتمعون حوله كما يجتمع الفراش حول شمعة .

التكية النظامية

أنشئت سنة ٧٣٣هـ . كان الشيخ نظام الدين سلطانا عظيما فى الطريقة الخلوتية واستأذن من السلطان محمد بن السلطان قلاوون أن يبنى بماله الخاص تكية للفقراء فأذن له ، فبنى على ربوة عالية خارج باب الوزير دارًا عظيمة مشرفة على العالم ، لا نظير لها فى القاهرة . فيها مسجد لطيف وحُجَر لنحو مائتى فقير . وحجر المتزوجين منفصلة عن حُجر العزاب . وتقام مراسم الذكر فى ساحة عالية مفروشة بالرخام الأبيض . ويُقدَّم الطعام للمترددين عليها من مطبخها . وقد قمت أنا الحقير بنظارتها مدة سنة فى عهد مولانا حسين باشا ابن جانبلاط ، فجعلت الجامع والتكية درَّة بيضاء بإنفاق كيس مصرى من إيراد الأوقاف ، وصار الطعام يُقدَّم فى وقتين . وإيراد أوقاف التكية سبعة أكياس ومصاريفها أربعة . وهى أوقاف جدّ غنية . وقد أقام عمر افندى المصرى الذى توفى باستانبول ، أربعين سنة فى هذه التكية ، وتبحَّر فى مختلف العلوم والفنون . فهى تكية روحانية ، والشيخ نظام الدين الأصفهانى يثوى فيها .

وتحت جامع السلطان حسن :

تكية الواحدى

تكية يسكنها الهنود ، بها صحن صيفى وصحن شتوى وبضع حُجَر ، ليست لها أوقاف . ولكن ربط لها إبراهيم چلبى خازندار بن جانبلاط جرايتين ، وبنى فوق سقفها عشرة حوانيت . وفيها هندى قضى أربعين سنة دون أن ينطق كلمة دنيوية ، وهو يتعبد ليلا ونهارا أصم أبكم . وفيهم من يقف على قدميه ثلاثة أشهر ثم يقف ثانية ففيها ، فقراء من هذا النوع .

تكية الإمام الحسين

هى من بناء العباسيين بنيت سنة (. . .) وبناؤها جامع كبير . ولما كانت أعمدة الجامع فى حرم الكعبة جرت العادة أن تحضر كسوة الكعبة إليه بعد مشاهدة الوالى لها ، وتكسى بها تلك العمد فى كل عام . ولهذه التكية فقراء وخدم للضريح . وأوقافها مقدار حاجتها . ولكنها تتلقى كثيرا من النذور والطعام والشراب من جوانبها الأربعة .

وبالقرب من باب الحديد :

تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى

بناها بأمواله الخاصة سنة ٩٤٠هـ فى عهد السلطان سليمان القانونى . لها دار عظيمة (آستانة) على الشارع المحمدى (شاهراه محمدى) ، يُصعد إليها من باب حرمها بعشرين درجة من سلم حجرى ، وهذا الباب ثلاثة أبواب بعضها داخل بعض . وقد كتبت على إطار الباب الأول وهو الباب الكبير الظاهر على الشارع العام الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا﴾ . وإذا دخلت من هذا الباب قرأت بينه وبين الباب الأوسط أبياتا مكتوبة على لوحة بالخط الجلى معناها :

«إن خانقاه الكلشنى مفعمة ذوقا وصفاء ، وما يقام فيها من المراسم كلها من سنن المصطفى .

فلا تبتعد عن خانقاه الكلشنى أيها الفقير ، فإن فقيره هادى الناس إلى طريق السواء» .

وإذا اجتزت الباب الثانى فأنت أمام سبيل الفقراء الذى يقدم ساقيه للناس أكوازا مفعمة بالماء الصافى ، معطرة بالعود والعنبر . يُصعَد بعد ذلك إلى صحنه الأكبر المفروش بالرخام الأبيض ، وفيه محراب مصنَّع مزخرف ، كتبت على رخام فوقه هذه الآية .

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ ، وجوانب الصحن الأربعة حُجَر متعددة الطبقات لسكنى الفقراء ، تحت كل حجرة فسقية ، وإذا توفى صاحب الحجرة دفن تحتها ، ثم تباع مخلفَّاته وتُشتَرَى بثمنها أجزاء القرآن الكريم ، وتوقف ليتلو فيها الفقراء ويهدوا ثوابها إلى روحه ، ويذكروا اسمه بخير . وليس فى تكية خيرات كهذه ، كما لم نر تكية تحتها مقابر ، فهى خانقاه مؤسسة على نظام عجيب . وفيه الآن أكثر من ثلاثمائة فقير كلشنى ذوى نفوس طاهرة نزيهة ، يقضى كل واحد منهم وقته منزويا فى العبادة ، أليف رياضة وخلوة . وفى كل ليلة جمعة يفرش هذا الصحن بأبسطة حريرية ثمينة وتقام فيه صلاة العشاء ، ثم تُتلى سورة الملك والأوراد والأذكار ثم يشرع فى التوحيد السلطانى بأن يأخذ العشاق بعضهم بأيدى بعض ويشغلوا بسماع الأناشيد وتوحيد البارى جهرًا دائرين ، فتصير الخانقاه الكلشنية حديقة غناء . ينشد الذاكرون والشاكرون بالعزف على الناى ، وبالغناء أناشيد عندليبية من مقام العشاق فيسكرون عشاق الله . وينتهون بهم إلى مقام «الراست (الصدق)» وفى خلال ذلك يقوم الدرويش وبعض الفقراء بتبخير الخانقاه بمجامر يُحرق فيها العود والعنبر ، ونثر ماء الورد على وجوه الزوار وتقديم مشروب السكّر . يتلو الذاكرون فى هذا الحفل الذى يستمر سبع ساعات أو ثمانى ساعات ، أنواعا من التأليفات الغنائية كالمسلسل والنقش والذكر والعمل والدوبيت والتقسيم والصوت ، وبأصواتهم الرخيمة الحزينة ، المؤثرة . على اثنى عشر مقاما وأربع وعشرين شعبة وثمانية وأربعين تركيبا ، وأربعة وعشرين أصلا . بطريقة يرد بعضهم على بعض . وبينما هم كذلك يشرع أحد الذاكرين فى الغناء بصوت داودى برباعية أو مخمس من أشعار «الفضولى» أو الروحى البغدادى أو «عرفى»[1] أو عمر الخيام ، ليستريح الذاكرون من التوحيد المسلسل فما إن يسمع الفقراء تلك الأبيات على أنغام شجية مؤثرة حتى ينسوا أنفسهم فيندفعوا فى الذكر والتوحيد من مقام آخر ، ويداومون على الذكر على هذا النمط إلى ما شاء الله ، وأما حضار هذه الخانقاه فكلهم أتراك من أرباب العلم والمعرفة وأعيان الدولة ، ولا يدخله أولاد العرب .

---

(١) فضولى وروحى البغدادى من شعراء الترك وعرفى الشيرازى من شعراء الفرس . (د . عزام) .

ويثوى الشيخ إبراهيم الكلشنى وأبناؤه وحفدته فى قبة عالية بوسط صحن هذه الخانقاه . وإلى الجانب الشمالى من الخانقاه باب كُسِى بالفضة الخالصة ونقشت عليه ضروب من الطرق والأزهار وأنواع من الكتابات ، فكأنه باب مرصع . وقد نقشت على عتبته العليا الآية : ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا﴾ . وفوقها أبيات كتبها أستاذ فنان بالخط الفارسى المحلّى بالذهب واللازورد ، لم يؤثر فيه مرور الزمن وحرارة الجو والأمطار مقدار ذرة ، ولا يزال آية فى الجمال . وتأريخه :

«كفت تاريخ أمير أو تاريخ مات قطب الزمان إبراهيم» سنة ٩٤٠ هـ . وإذا دخل الزائر من هذا الباب بُهِت ، فإن التعاليق المزينة والمحلاة بالذهب مما يحير العقل . ففيه ما يربو على ألف من القناديل الفضية والنجف البلورية والقناديل وبجوانب مقصورته الأربعة أنواع من الثريات الجواهر التى هى سرج الليل وأنواع من القناديل والشمعدانات والمجامر وأوانى ماء الورد ، كل منهما يفوق الآخر فنا وجمالا . وقد أرسل إليه السلطان سيف الدين من ملوك خراسان مشكاتين وشمعدانين من النحاس الأصفر يخالهما من يراهما ذهبًا خالصا وبهما من الفن ما يعجز فنانو زماننا عن الإتيان بمثله . كل واحد منهما فى طول قامة إنسان ، يوقد عليهما بضعة آلاف من الشمع الكافورى كل ليلة والقبة مفروشة ببسط مزركشة ، وبوسطها يثوى الشيخ إبراهيم الكلشنى فى ضريح حوله مصاحف بخطوط ياقوت المستعصمى والشيخ (. . .) والقرا حصارى والدرويش محمد وعبد الله القريمى ، كل مصحف منها يساوى خزينة مصرية قد أهداها السلطان سليم والسلطان سليمان ، وبها كثير من الكتب المهمة من تأليفاته ، وخاصة كتابه « المعنوى» والديوان فإن منهما نسخا بخط يده . يثوى الشيخ بعمامته الخضراء قرب الجدار القبلى للقبة ، وقبره محبوب . وبالقبة من قبور أبنائه قبر الشيخ إبراهيم أفندى وابن الشيخ على الصفوتى بن أحمد الخيالى بن حسن بن الخيالى بن إبراهيم الكلشنى« قدس سره العزيز» . ويليه قبر الشيخ أحمد الخيالى المتوفى سنة ٩٧٧هـ ، ثم قبر الشيخ على الصفوتى بن الشيخ أحمد الخيالى ، وهو حفيد الشيخ إبراهم الكلشنى ، توفى سنة ١٠٠٥هـ ، ثم الشيخ حسن بن السيد الخيالى المتوفى سنة ١٠١٢هـ ، وقد خلفه صهره الشيخ محمد أفندى الذى توفى سنة ١٠١٤هـ ودفن فيها ، ولكن ليست له تكية وقد دُفن كثير من شيوخ الطريقة الكَلشنية والطريقة الروشنية وأعيانهما فى القبور التى تحت هذه القبة وتحت صحنها المحيط بها .

ارتحل الشيخ إبراهيم الكَلشنى إلى خراسان وبلخ وتلقى فيها جهاز الفقر عن الشيخ عمر الروشنى ، الذى تلقاه عن السيد يحيى الشروانى ، فلذا تنتهى سلسلته إلى على كرم الله وجهه . والتكية الكَلشنية خانقاه عظيمة ذات أوقاف غنية لانظير لها فى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم ، ولا فى بلخ . ونعمه النفيسة مبذولة لجميع المترددين عليه . وهى فوق ذلك مكان روحانى عديم النظير فى مصر . وليس فى تكية ما فى هذه الخانقاه من أرباب المعرفة ، فكل منهم عارف بالله ، قد أتم فنون الطريقة . وفيهم فقراء من أصحاب الأنفاس لو ضاع العِلْم عن العالم ولم يبق من يعيده لقدروا على إيجاده ، فكأن كل واحد منهم عبد الله الغاريابى وغلام الناصرى وغلام الشادى وفيثاغورث والتوحيدى من كُمَّل الأساتذة ، ولو كتبنا عن مقدار ما وقفنا عليه من شئونه لطال الكلام .

تكية قصر العينى

على شاطئ النيل غربى القاهرة متنزة بديع ذو شجر وطرق واسعة يدعى «قصر أبو العين» . وهو موضع عناية كثير من السلاطين والملوك السالفين ، إلا أن مؤسسه الأول كان السلطان الملك الظاهر ، ثم زاد عليه كل صاحب خيرات جزءا فصارت فيه قاعات وأروقة وقصور ذات طبقات عدة ، وحجر وأحواض وشادروانات وطنف ، ويحضر إليه أعيان مصر ليتمتعوا وينعموا فى تلك الحجرات بضروب من المتع .

والتكية البكتاشية وسط تلك الحديقة الغناء ، وهى قبة عالية بيضاء مطلية بالجير الأبيض ، داخلها ساحة عظيمة تتسع لألف نفر ، فرشت أرضيتها بالرخام الأبيض وجوانبها الأربعة مفروشة بفراء الأضاحى التى يجلسون عليها . ففى صدر المحراب فروة الشيخ محمد درة وتليها فروة خليفته الأول ، ثم الإمام ثم المؤذن ثم الداعى (دعاجى) ثم الفقيه(شريعتجى) ثم أستاذ الطريقة ، ثم صاحب العصا ثم صاحب القلم ، ثم مدير الذكر (ميدانجى) ثم مستقبل الضيوف ثم رئيس الطهاة ثم رئيس الخبازين ، وهكذا يجلس كل على فروته مُميلا عمامته ويقوم بالعمل الذى كُلِّفه . فهم جماعة من المريدين من أهل السنة والجماعة يؤدى كل عملا : فمنهم من يقوم بالتدريس ومن يقوم بتلاوة القرآن ، ومن يعمل على اكتساب العرفان ، ومنهم من يقوم بخدمة المترددين على التكية باذلين أرواحهم فى سبيل الأحياء .

وإن ألقيت نظرك من خلال الحواجز النحاسية الصفراء لنوافذ القبة التى بجوانبها الأربعة رأيت حديقة غناء مذكرة بـ «إرم ذات العماد» بها قبور بعض شيوخ البكتاشية العظام . وقد أحيطت جدران القبة من الداخل بآلاف من كعوب الأضاحى منظومة بالحبال كأنها مسابح . وإذا أرادوا أن يرغبوا بعض الزوار فى تقديم ضحية قالوا له مشيرين الى تلك المسابح« ألا ترغب أيها المُحِب فى أن يكون لك أيضا كعب فى هذه المسابح؟ » وقد زُينت الجدران بأشياء السلف من البكتاشيين كالعمائم والعصى والمواعين والكشكول[1] والمقلاع والفأس وغيرها مما يستعملها أهل الطريقة من الأعلام والطبول والنوافير والصنجات . وإلى جانبى المحراب أعلام وشمعدانات مذهبة ، وألوان من القناديل والمشاكى الثمينة . كان السلطان سليم قد زار مصر فى موسم السياحة ونزل ضيفا على هذه التكية وقضى فيها بضع ليال . فلما تم له فتح مصر قدم إليها مع خواص رجاله وأقام بها سبع ليال وفاء للعهد ، وسماها قصر بو العينى نسبة إلى نفسه . قال أوليا چلبى :

[قيل له قصر بو العينى أخذا بمنطق السلطان سليم ، هذا مجاز ، ولكنه حقيقة لأن تشبيهه أولى] .

حقا إنها مكان خليق بأن يكون متنزه الملوك . ولا تزال بها مقصورة صغيرة عالية فى ركن بات فيها سليم الأول ، ولا يقيم فيها أحد ، وبها كتب التكية الموقوفة وفى مطبخها الحيدرى رجال من أسر عظيمة حقا حُسَّر الرؤوس محلقين ، قد وصلوا إلى كنز الأسرار فى زوايا العزلة متجردين عن كل ما سوى الله . كلّف كل منهم عملا ، ففيهم أصفياء قد صُهروا فى تنانير الخبازين حتى خلصوا عن أدران العيب ، يقومون بتحضير خبز خاص أبيض طعاما للمحبين . فالأرز والحلوى يقدَّمان من مطبخها للمريدين والمترددين عليها صباحا ومساء .

ويحضر بعض الأعيان إلى هذه التكية أحيانا فيرجون من دده أفندى أن يسمعهم بعض أشعار المريدين ، فينادى المريدين العارفين أمثال شيدا دده ، وعاشق دده وقربان دده ، والبكار دده ، ورجعى دده ، وغواص دده ، وجوانمست دده ، ومدهوش دده ويقول لهم «أيها الأحباب إن لضيوفنا رغبة فى سماع أشعاركم ، فهل تتكرمون بإنشادها ؟»

(١) وعاء كان يستعمله بعض الدراويش ممن يزاولون التسول . (د . السعيد) .

فيردون عليه : سمعا وطاعة . ثم يقفون فى صحن التكية (الميدان) اثنين اثنين والعصا بأيديهم ومجموعة الأشعار على أحزمتهم ، فيشرعون فى الإنشاد متقابلين متخاصمين ، وبينما هم منهمكون فى الإنشاد ينادى شيخهم الوقور «صلوا على محمد المصطفى» ويرد الشعراء :

(بردل عالم فانى چونه دارد بنياد/ بركيسوى فرح بخش محمد صلوات)[1] وينشدون أبيات من كل أنواع الشعر كالدوبيت والمثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمسبعات والمثمنات والمعشرات ، ومن القصائد المعروفة بترجيع بند والمراثى والمستزادات والغزليات برد العجز على الصدر وغيرها من الموازين المشكلة ، فكأن كلا منهم حسان أوامرؤ القيس .

وإذا انتهى ذلك اندفع إلى الميدان دراويش من الشبان الراقصين(كوچكلر) أمثال (جان كلى) «وتن بالى» و(شير على) (وجان ولى) و(شحمة ممى) ، حفاة حُسَّر الرؤوس وقد لبسوا تنوراتهم [2] الثلاثينية وأمسكوا بعصيهم وفؤوسهم ونوافيرهم ، ووقف كل مقابل الآخر بصدره العالى الناصع كالورد المصرى الأبيض ، وشمَّر عن ساعدين بضين كافوريين ، وشرعوا فى التجاوب بنكات مستملحة تدور كلها حول الطعام والشراب من كلام قايغوسز أبدال ورموس أبدال لتسلية الضيوف . ولهم نكت عن الحشيش يتخدر من يسمعها من الضحك فيصير مسطولا .

وكل من زار هذه التكية من أرباب العرفان ترك فيها أثرا مكتوبا . وقد كتبت أنا الفقير الأبيات الآتية حين بنى إبراهيم باشا والى مصر القصر المنيف المشرف على ميدان الجريد بقصر العينى سنة ١٠٨١هـ وقد بلغ عددها أربعين بيتا ، نقشت على لوحة بالخط الفارسى المحلى بالذهب واللازورد وهى :

سبحان الله ما أجمله قصرا منيفا ذا أبراج . قد أقيم عرشا عاليا مشرفا على النيل . وقد جعلته دارا شبيهة بجنة المأوى فى خانقاه الحاج بكتاش . إنى جلت عليه فى الأقاليم السبعة ومارأيت له نظيرًا ، لا مثيل له إلا أن يخلق أستاذ الأزل مثله . منذ أنشأ إبراهيم باشا الغازى هذا القصر فلم يبق من قصر إرم وقصر يوسف غير اسميهما وقد

---

(١) ترجمته : (ليس للعالم الفانى أساس فى قلبه فالصلاة على طرّة محمد التى تسر الناظرين .

(٢) التنورة : ثوب واسع الذيل يلبسه أتباع مولانا جلال الدين الرومى أثناء قيامهم بمراسم طريقتهم من الذكر والسماع . (المترجم) .

دخلت أنا طوّاف العالم البلاد وجبت الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، فما رأيت له نظيرا ، وإن كان له نظير فهو هذا القصر مهبط السعد . كم بُذلت لأم الدنيا نِعَم . فلا جَم[1] رأى هذا المجد ولا اسكندر ولا دارا . اللهم اجعل بانى هذه الجنة فى مأمن من الأكدار ، فقد كان منبع العطاء . واجعله سالما ما دامت الأرض ، فإنه يصغى إلى قولى ويفهم المراد ويبذل الهمم . وأقول أنا «أوليا» مؤرخا داعيا «أدام الله هذا المقام عاليا ما دامت الأرض» .

(زمين طوردقجه طورسن بومقام آسمان آسا ـ سنة ١٠٨٢)

وقد زاد هذا القصر الملكى قصر العينى حسنا وبهاء .

تكية حسن بابا البكتاشى

هو صاحب علم رسول الله ، قد بنى تكية بكتاشية صغيرة ، بها نحو عشرين مريدا فقيرا من أرباب الأحوال ، تصرف أرزاقهم من مطبخ العزب بالقلعة .

تكية قيغوسزبابا البكتاشى

خانقاه صغيرة بدرب مظلم داخل عطفة قريبة من بين القصرين بالقرب من باب قاضى العسكر ، خالية من الأوقاف . بها نحو عشرين شيخا من المريدين الزهاد الأتقياء يعيشون بما يقدم إليهم من الهدايا (پارسه) . وبها صحن صغير وضريح نورانى . وفى كل يوم الجمعة يقدم للمترددين عليها خروف وأرز بلبن رائب مما يعطيهم الله ، وقد طار صيتهم بذلك يعطيهم البارى من خزائن الغيب .

تكية عبد الله الأنصارى

هو من الأصحاب الكرام ، وتكيته داخل منزل المراجع (مقابله جى) بالقلعة الداخلية ويتصرف بها الآن بعض المريدين من أتباع الطريقة البكتاشية . ولها أوقاف كبيرة .

تكية عبد القادر الجيلانى

تكية صغيرة بالقرب من سراى الكتخدا تحت زاوية الملك الظاهر . وقد دفن فيها أخو أبى أيوب الأنصارى وأخو الشيخ سارية رضى الله عنهم . بها نحو عشرة من المريدين يأتى طعامهم المؤلف من اللحم والأرز من قبل الباشا . ويحضر إليها فى كل ليلة جمعة

---

(١) جم : جمشيد من ملوك الفرس فى الأساطير ، ودارا من ملوكهم المعروفين فى التاريخ . (د . عزام)

فقراء من مريدى التكية الشيخونية ويقيمون حفلة ذكر عظيمة . كانت قريبة من منزلنا بالقلعة الداخلية ، فكنّا نزورها كل ليلة جمعة لنتمتع بسماع ذكر الله .

تكية قراقيا

تكية ضيقة للشيخ عبدالقادر أمام دار أمير آخور بقراميدان ، بها سبعة أو ثمانية من المريدين تُصرّف مخصصاتهم من العمارة الشيخونية .

تكية مصلى سبيل المؤمنين

أنشأها السلطان قانصوه الغورى سنة ٩١٢هـ ، ترتفع عن الأرض مقدار اثنتى عشرة درجة ، وكتب بالخط الجلى على الرخام الأبيض الذى بعقدها هذا التاريخ : «بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام أبى النصر عبدالله قانصوه الغورى بتاريخ جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وتسعمائة من الهجرة النبوية»

وفى هذه التكية يصلى على المقتولين تنفيذا للشرع فى ميدان الروميلى ، وعلى أعيان القاهرة حين يتوفون إلى الله ، فلهذا السبب سميت مصلى المؤمنين . وحول التكية حُجَر وسبيل ولكن لا مطبخ لها ، وقبتها المعقودة بالجير محملة على أربعة أعمدة فقط . وفى كل يوم جمعة يجتمع فقراء طريق المطاوعة ويقيمون بعد صلاة الجمعة حفلة ذكر فى هذه التكية ، ليس فى إمكان طريقة من الطرق المائة والستين أن تأتى بمثله . فهم حينما يذكرون الله باسم «اللهم» ويمدون أنفاسهم به يسمع لفظ «اللهم» فى حالتى الزفير والشهيق . وإذا بلغوا حالة الوجد رأيتهم كأن بعضهم يصول على بعض راكبا جوادا أصيلا بإحدى يده سيف وبالأخرى رمح . ويتظاهر بعضهم بأنه يطلق السهم على آخر الذى يتظاهر بمظهر المصاب ، وقد أزبَدَ فمُه ، ويتظاهر آخر بأنه تحاشى السهم فنجا منه ، ويقف بعضهم موقف المحارب الراجل الرامى بالمزراق بينما يقف الآخر موقف المدافع المصاب فيشتبكان فى القتال صائحين صاخبين قد احمرت عيونهما وأزبد فمهما كأفواه الجمال . وقد تبلغ بهم الحال إلى الاشتباك حتى يعسر على الشيخ أن يفرق بينهما . وبعضهم يقف أمام بعض كأنهم أسود زائرة متهيئة للقتال على حين ترى بعضهم قد وقع على الأرض وأخذ يتمرغ كأنه كلب أو قط بعد أن كان زائرا كالأسد . على حين يقف الآخر كالتنين ذى الرءوس السبعة يفحّ مهددا ويصول عليه الآخر زائرا كالأسد ، ولكن لا يكاد يدنو منه حتى يجف ما بفمه من زبد ويمتقع لون وجهه فيستره بكم ثوبه ويجلس فى ركن كأنه امرأة خجلة ولا تمضى لحظات حتى يهجم رجل صائح ويخيل إليك أنه

يصرعه ولكن سرعان ما يقع مصروعا وقد احمرت عيناه ويصوّت أصواتا تقطع مرارة السامعين . ثم يسرع إلى الاختفاء إما خلف الشيخ وإما خلف أحد الفقراء فيسكت . أقسم بالقرآن العظيم أن بهذه التكية حالا غريبة وسرا من أسرار الله ، يدهش من شاهده ويحار . فالطريقة المطاوعة محتاجة للمشاهدة ولا يمكن الوصول إلى مزاياها دون حصول علم اليقين وعين اليقين وليس الخبر كالعيان .

وتقام لهذه الطريقة حفلات ذكر فى يوم الجمعة فى عدة أماكن ، ومنها جامع الحاكم بأمر الله ، وهى حفلات لا أستطيع التعبير عنها باللسان ولا وصفها بالقلم .

التكية الكلشنية

هى تكية حسنة ذات طبقتين على ساحل النيل ببُلاق ولكن ليست واسعة يقيم بها نحو ثلاثين مريدا من الزهاد العفيفين أهل السلوك . ولها أوقاف متينة يبذل منها الطعام للمترددين عليها . ويجتمع فيها مرة فى كل عام جم غفير من علماء القاهرة وأعيانها فى أيام عودة سفن السيد البدوى ، فيقيمون احتفالا عظيما بالمولد .

تكية الشيخ فرج الله

وهذه أيضا تكية صغيرة على ساحل النيل ببولاق ، وشيخها عظيم يعتقد الناس فى ولايته ، يعيش مع أربعين أو خمسين مريدا على ما يرد إليها من النذور الكثيرة . وطريقته يمنية وتكيته بناء صغير قد اختفى فى ظلال الجميز والنبق ، فلا تؤثر فيها حرارة الشمس ، فكأنها حديقة من حدائق العجم . ويقدم لزائريها فنجان عظيم من القهوة اليمنية لكنها قهوة يستحيل تحضير مثلها فى أعظم دار من دور الأعيان ، كما أنه ليس فى استطاعة رجل من رجال الدولة بذل هذا المقدار من القهوة . فهى بركة شاذلية عجيبة . والشيخ فرج الله مدفون فيها . فهذه البَركة الخليلية إنما هى من روحانيته . وببلدة بولاق نحو خمس وأربعين تكية اكتفينا بذكر هاتين التكيتين .

تكية السلطان الأشرف

قبة عالية عظيمة مغطاة بالجير الأبيض فى مصيف السلطان قايتباى ، شبيهة بالتى فى قصر العينى تمام الشبه . وهذه التكية بناء مدور يسع صحنه ألف رجل وعليها قبة مزخرفة معقودة بالجير . وبُنيت خاصة بالطريقة الخلوتية ، ولها أوقاف متينة ، وبها أكثر من مائة مريد ، لكل منهم حجرة ، ومقدار واف من الطعام .

تكية السلطان قايتباى

خانقاه عظيمة قبالة جامع السلطان قايتباى ، مخصصة للطريقة البدوية ، يحتفل فيها مرة فى كل عام بإحياء مولد السيد البدوى . وبها نحو ثلاثمائة مريد كلهم متزوجون ينفق عليهم من عمارة قايتباى . وبذلك الحى إحدى عشرة تكية أخرى .

تكية السلطان طومانباى

تكية واسعة تحت قصر الضيوف بالعادلية يقيم بها نحو عشرين مريدا خلوتيا .

تكية المولوية

خانقاه عظيمة بالقرب من شارع الصليبية ، بها حُجَر ذات طبقات ومكان سماع(الذكر) ظريف ، ومريدون يقرءون كتاب المثنوى . وقد حدث أن ترك حسن زاده أفندى قضاء مصر مؤثرا حياة الفقر على حياة البذخ وأقام بها منعزلا . وفيها دُفِن الشيخ آدم الذى كان شيخ التكية المولوية التى بباب القلّة باستانبول ، وسافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وتوفى بمصر حين عودته عنها . (عدم دييه مزايدرك[1] كيتدى جنانه)= لقد مضى إلى الجنة ، وهو لا يؤمن بالعدم . والموضع الذى فيه تكية ابن طولون بالقاهرة يسمى قلعة الكبش وجبل يشكر أيضا وهو الموضع الذى كلم الله فيه موسى عليه السلام فتصدعت الأحجار من ذلك الجبل من تجلى الله سبحانه وتعالى ، فلذا لايزال ذلك الموضع مستجاب الدعوات وأكثر سكان التكية مغاربة وشيخهم رجل يُدعى عزيز نصر الله وهو شيخ مبارك حسن الحال ، يعيش على صوم داود ، رحمه الله .

تكية الطوبخانة[2]

هى من خيرات السلطان قايتباى على مسيرة ربع ساعة خارج القاهرة شرقا . قبة مزخرفة بضروب من الألوان ، ترتفع عن الأرض خمس عشرة درجة سلم . وأما ما بها من نقوش«المانى» و«ولى» و«جانى» «واليمانى» فليس لها وجود فى بلد آخر ؛ ففيها من الزهور والعقود المنقوشة بالألوان واللازوردى الأحمر اللعلى والزنجارى ما تكلّ منه عين من ينظر إليها . فهى قبة سحرية ولكنها مغطاة بالجير الأبيض وليست رصاصية زرقاء .

---

(١) فى نسخة يلديز : ده ده كز . وقد كان هذا التاريخ ساقطا من الترجمة العربية وإن كانت كلمة (دييه مز) هى الواردة أصلا فى هذه العبارة كان تاريخ الوفاة هو (٩٧٨هـ) فإن كانت الكلمة الواردة هى (ده ده كز) كان التاريخ ٩٤٨هـ . (د . السعيد) .

(٢) الطوبخانة : طوب تركية بمعنى مدفع ، خانه فارسية بمعنى منزل أو مقر . والكلمة معناها مصنع المدافع أو مقر قوات المدفعية . (د . متولى) .

وليس فى مبنى من المبانى الأثرية ما فى محراب هذه التكية من الفسيفساء وما بكساء جدرانها الأربعة من الحجارة الخضراء المعروفة باليشْم الهرقانى Harkani [١] وكذلك الحليات الذهبية والعُقَد المصرية . وهى تكية مبنية كقلعة للطريقة الأحمدية ، يسكنها نحو ثلاثمائة من المريدين ، ولها أوقاف موفية بإدارتها . ويقام بها مرة فى كل عام مولد عظيم يستمر ثلاثة أيام بلياليها . وبجهتها القبلية نخيل وحدائق .

تكية تيمور طاش

وهذه أيضا تكية خلوتية ذات قيمة عظيمة بالقرب من الطوبخانة ، وخانقاه علوية عظيمة يحضر إليها آلاف من محبى الله كل ليلة جمعة ، ويقومون بالذكر العلوى الحيدرى [٢] بنيت سنة ١٠٧٥هـ . ولها حدائق وكرم وحُجَر لإقامة المريدين ، وصحن لحفلات الذكر (سماعخانه) .

تكية السلطان الغورى

خانقاه لطريق السيد البدوى على مسيرة ساعة من القاهرة شرقا . وهى أيضا كتكية الطوبخانة حافلة بألوان من الزخارف والزينات كأنها الزون الصينى[٣] وقد فُرِشت أرضها برخام دقيق ليس فى طاقتى التعبير عنه . وبها محراب ومنبر ، وتقام فيها صلاة الجمعة . وهى فى حى خاص له سوق صغير ، ويقيم بها نحو ألف من الفقراء أتباع السيد أحمد البدوى الذين يعيشون على الكفاف لضيق أوقافهم وشيخهم رجل فاضل من صلحاء الأمة . ويقام فيها مولد عظيم مرة فى كل عام تُعقَد فيه حفلات الذكر .

تكية قدم النبى عليه السلام

فى عام ١٠٧٤هـ أنشأ إبراهيم باشا الدفتردار قبة عالية ومسجدا كبيرا أنفق عليه خمسين كيسا مصريا من أمواله الخاصة ، محبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فى موضع قدمه المباركة . وإنها لقبة يقصر اللسان عن وصفها . وبنى على ساحل النيل قاعات ومقاصير وأروقة ودواوين ذات طبقات متعددة ، ليتمتع الناس بمشاهدة النيل منها ، ثم

---

(١) هذه الجملة من تعديل (د . السعيد) .

(٢) الذكر العلوى الحيدرى هو الذكر الجهرى . (د . السعيد) .

(٣) الزون مجمع الدُّمَى والصور فى الصين . عزام . (د . عزام) .

بنى قصرا منيفا مطلا على ميدان الجريد ، وزين دوره الأرضى بأروقة . وإنها لخانقاه عظيمة :

ومسجده الظريف معبد ذو سقوف مربعة منقوشة تحملها أعمدة ستة من الرخام الأبيض . ومحرابه مصنوع صناعة بسيطة وجميلة ، ومنبره من الخشب الأحمر المنقوش وقد فرش المسجد بطنافس حريرية ، وزين بألوان من الثريات الثمينة ، وأمام المحراب حديقة زهراء . ومساحة المسجد مائة قدم طولا وعرضا . وقد كتب على لوحة بباب القبلة بالخط الجلى المُحلًى بالذهب واللازورد [1] تاريخ ١٠٧٨هـ .

وقدم النبى المباركة فى خزانة ذات باب فضى بقبة داخل باب بالجهة اليمنى من المسجد ، مملوءة بماء الورد . ويمسح الزوار وجوههم بالموضع الذى أثرت فيه القدم الشريفة . بيت : «إن صاحب تلك القدم وَرْد حديقة النبوة ، فعجل (يا أحمد)[2] بمسح عينيك بقدم ذلك الورد» .

وداخل القبة مكسو كله بالقيشانى ، ومحلى بأنواع الخطوط الجميلة لمشهورى الخطاطين . وللحقير كذلك أثر فيه . وقد خط إبراهيم باشا على لوحة ذهبية فيه طغراء (طرة) هى سحر مبين . وبالخزائن نفائس ثمينة . وقد نقش على باب القبة أبيات وفيها التأريخ وهذا معناها :

« فى هذا القمام البديع صورة قدم المصطفى ، وهى توتيا لعيون الكائنات . ومن مسح عينه بهذه الصورة مخلصا أشرق باطنه وسطع ظاهره ، وقد أرخ هاتف الغيب قائلا (أولدى حقاكيم مفرح رسم پاى مصطفى) ـ سنة ١٠٧٧هـ [3]

وكتب أيضا على باب القبة بالخط الفارسى تاريخ سنة ١٠٧٤هـ [4]

وعلى باب القبلة الخارجى لوحة كتب عليها شاعر يدعى زكى التأريخ الآتى :

«يرنده جامع عالى أساس بيهمتا ـ سنة ١٠٧٤هـ»

---

(١) جامع جنت مثاله دوشدى تاريخى تمام . . أولدى إبراهيم باشا جامعى دار سلام = ١٠٧٨ . (د . السعيد) .

(٢) أحمد هو اسم الشاعر قائل البيت (د . السعيد) :

(٣) سقطت هذه العبارة «وقد كتب على لوحة إلى يسار المحراب هذا التاريخ» باب رسم قدم پاك نبيّه تاريخ . ايتدى إبراهيم باشايى جهاندار آباد . (د . السعيد) .

(٤) البيت التركى هو : چون تماما أيره جك هاتف ديدى تاريخنى . ٰ . بويله أعماله موفق أولدى فردوس ارم . (د . السعيد)

وثمة تواريخ على الخزانات . وللشاعر نقش تاريخ بين النقوش التى على القصر وهو سنة ١٠٨٣هـ .

وللمسجد منارة رشيقة ذات طبقة واحدة مبنية على الطراز التركى كأنها شجرة سرو . وللتكية مطبخ كبير . وشيخ التكية رجل صالح من رجال الطريقة الخلوتية يُدعى محمد چلبى .

وعلى مسافة من هذه التكية حديقة بها أشجار الليمون والنارنج ، وسبعة أنواع من العنب . وبها ساقية وشاذروان وزاوية على محرابها كتبَ بخط فارسى مذهب ومحلى باللازورد ، على القرا حصارى هذا التأريخ .

« وضعت هذه الساقية باسم السلطان محمد وبنى بها سبيل ، حتى إذا تم بناؤه قال الهاتف تأريخه : بو ثواب اولدى روان سلطان محمد آدنه ـ سنة ١٠٧٧هـ » وموجز القول أن هذه التكية مزار للخواص والعوام ، وخيرات عظيمة قد أنشئت فى موضعها حقا . وبالقاهرة مئات من الزوايا والتكايا ، بيد أن التى لها شهرة وأبنية ضخمة هى التى ذكرناها . ولما كان بها مساجد وكتاتيب لتعليم الصبيان ذكرتها فى خلال الكلام عنها . وكان فى الزمن القديم ثلاثمائة وست وستون تكية عامرة جارية الأوقاف ومعظمها بالقرافة الكبرى ، حتى إذا قدم أحد الفقراء إلى مصر وأريد إكرامه أنزل ضيفا على تكية ، وإذا كان الصباح قدّم له شيخ التكية بارة مصرية حق الحمام ، وهكذا يقضى كل ليلة فى تكية وينفق عليه هذا المبلغ من جانب الأوقاف ولو بقى سنة . وإذا اتفق وجوده فى رأس السنة خلعت عليه أيضا (خرقة) . وكان بعض الفقراء يقضون السنة دائرين على الثلاثمائة والست والستين تكية التى بالقرافة على أن يلبثوا كل ليلة فى تكية ويأخذوا المبلغ المعين . وأما التكايا الكثيرة التى كانت داخل المدينة فبقى منها ماذكرناه آنفا ، أدام الله نعمها .

الفصل الثانى والثلاثون
فى بيان ما بمصر من العمارات التى ينفق منها على الأغنياء والفقراء

كانت بالقاهرة أم الدنيا عمارات للخيرات تابعة لسبعمائة جامع من جوامع السلاطين المتقدمين ، فضلا عما ذكرنا من عمارات التكايا والخانقاوات . ولكن كثيرا منها أبطلت لضياع أوقافها بضم الأطيان والبلاد الموقوفة عليها للأملاك الأميرية ، أو بتخّرب الأعيان الموقوفة . وكانت فى عصر الشراكسة مطاعم تابعة لستة وخمسين جامعا ، بيد أنها هى أيضا لاتقدم الطعام مرتين يوميا كما فى مطاعم الخيرات باستانبول ، وإنما تقدم منها بضعة آلاف صحن من الطعام فى ليالى الجمعة وأيام المواسم .

من العمارات المستديمة الخيرات بالقاهرة ، المطبخ العظيم الذى بقصر الباشا الوالى ، فإنه يقدم فى كل يوم ثلاثة قدور عظيمة صباحا ومثلها بعد العصر من الحساء للفقير والغنى ، والصغير والكبير .

عمارة السلطان قلاوون

مائدة هذه العمارة ممدودة للضعفاء والمساكين من الخواص والعوام «بالغدو والآصال» شهورا وسنين مصداقا لقوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» فكم قصاع وعلب وصحاف تملأ بحساء العدس والحنطة ، فضلا عن بضعة آلاف من الصحون التى تصرف على المرتزقين دائما . وفى ليالى الجمعة يصرف اللحم والأرز للفقراء أيضا . والطعام المقدم للفقراء أقل جودة مما يُقدم لأئمة المساجد وخطبائها ، إلا أنه مستديم . فقد كتب على باب المطبخ « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» . ولهذا المطبخ أربعون طاهيا ومثلهم من الخزنة . وإذا حضر بعض الأعيان لزيارة المطبخ أكرموا بمائدة ذات صحون قلاونية أثرية فى صوان وطشوت وأباريق منقوشة . وإنها لخيرات عظيمة رحمة الله على صاحبها . وأما خيرات غيره من السلاطين فليست دائمة . فقد استولى الظالمون على أوقافها ، فلا ينفق منها على الفقراء إلا مرة فى كل عام ، حين يقام له مولد . وإلا بعض مبالغ يعطيها النظار لخدم المساجد مضافة إلى مخصصاتهم ، كاللحمية والشمعية والخيرية وغيرها تقيد على حساب الوقف .

الفصل الثالث والثلاثون
فى بيان حمامات القاهرة

من الحمامات التى تشرِّف القاهرة والتى هى أوقاف يصرف دخلها للمساجد والجوامع ولسائر وجوه الخير مما أوردناه سابقا ، حمام سليمان باشا الطواشى الذى بالقلعة الداخلية . وهو حمام صغير ذو ثلاث خلوات وحوض شافعى ، ولكن بناءه لطيف ، وماءه الوارد من بئر يوسف ملح قليلا . وإذ أن رواده من الجنود فأثوابه نظيفة ، كما أن صاحبه والد لاكين نظاف كذلك . وبعد الظهر يخصص لاستحمام أمهاتنا وأخواتنا . وإذا كان نصف الليل طُهِّر الحوض ومُلِئ بماء جديد طاهر .

وبالقرب من جامع السلطان حسن بسوق السپاهى حمام مصطفى باشا وهو حمام كبير ليس بالقاهرة كلها حمام أكبر منه ولا أبهج ، ولامثله فى حرارة الماء وطيب الهواء وجريان الماء فى الأحواض والفوارات . ففيه خمس خلوات ، ولكل خلوة صنبور وقد فرشت أرضه بأنواع الرخام ، وزينت نوافذه بضروب من الزجاج البلورى والنجف والموران ، يضئ كل منها كنجوم السماء . ينبجس من فواراته ماء ساخن حتى يمس القبة . وبخارجه حوض داخل زجاج فيه سمك ، والماء المنبجس من فواراته يعلو إلى قبة الحمام . ويخدم فيه دلاكون (المكيساتية) ذوو أيد ناصعة ووجوه وردية مشرقة ، وعيون كعين المها أو غزال خُتَن ، حلوو اللسان ، قد لفوا أجسامهم العارية بمآزر زرقاء . وكل ما فيه من الأسباب من البشاكير الحريرية والقُشقوسية نظيفة طاهرة ، فهو حمام نظيف جدا . وحسن الهواء ، وبه قسم للنساء . مزدوج . ثم إن هناك حماما آخر يدعى «حمام بُسْتَك» وهو أيضا مزدوج ونظيف . وحمام الكتخدا إبراهيم القيصرى بالقرب من مسجد آلتى پارماق . ثم حمام الدرب الأحمر وهو أيضا مزدوج إلا أنه صغير . وحمام الصوباشى مزدوج ولطيف . وحمام السكّرية أنظف الحمامات كلها ، ولا يدخله اليهود ولا الأقباط ولا اليونان بموجب شرط صاحب الخيرات ، فلذا يتردد عليه كثير من الصالحين ، وهو ظريف جدا طلق الهواء .

وحمام الخرابة صغير ومزدحم بالمستحمين ، وخاص بالرجال ولا يدخله النساء ، ثم حمام باقيرجى باشا وهو جيد الهواء صيفا . وحمام السقا خاص للرجال . وحمام قاضى العسكر مزدوج . وحمام مرجوشى حمام ظريف فى سوق مرجوش . ثم حمام «باب

نام» ، ثم حمام باب الشعرية وهو مزدوج ، ثم حمام الشعراوى وهو أيضا مزدوج ، ثم حمام قنطرة الموسكى المزدوج ، وحمام«جيجى على بك» مزدوج وقريب من حى اليهود فلذا أكثر رواده منهم .

وحمام الكلب مزدحم فى موضع منخفض ، يستحم فيه الرجال والنساء مجانا . ولما شرعوا فى حفر أساسه للبناء فى الزمن القديم ظهر تمثال نحاسى لكلبين متعاركين تبين بعد ذلك أنه طلسم الكلب ، فغيَّر صاحب الخيرات أساس الحمام حفظا للتمثال سليما . ولوجوده سليما ليس بالقاهرة مرض الكَلب ، ولا يصيب أحد ضرر منه . وهذا هو سبب تسمية الحمام بهذا الاسم .

وحمام الحوض النفيس المسمى بهذا الاسم خاص بالرجال وجيد الهواء . وحمام البندقانى خاص للرجال ومزدحم بالناس . وحمام «مهدية سلطان» مزدوج . وحمام باب الخرق (الخلق) مفرد . وحمام قنطرة الأمير حسين وحمام الشيخ البكرى بالأزبكية وحمام قبودان حمامات مزدوجة وظريفة ومحلاة بأنواع من الزجاج . وحمام تحت الربع مفرد . وحمام عابدين الذى بحى عابدين بك مزدوج . وحمام قنطرة سُنقُر مفرد ، وحمام الحبانية وحمام درب الجماميز مفردان . وحمام مصطفى بك وحمام الدلال صقُدSukud وحمام مرزوق الذى بداخل الباب الجديد حمامات مفردة . وهناك حمام خاص للنساء بالقرب من سيدى الهندى ، وحمام صغير بالقرب من السلطان خضر ، وحمام طيلون وهى ثلاثة حمامات ظريفة متقاربة ، وأغلب روادها من المغاربة وحمام الصليبية قديم ومزدوج ولا يؤثر هواؤه فى الرأس أبدا . وحمام الدود ، وحمام القيصونية نيِّر لطيف جيد الهواء والماء قد بناه الحكيم قيصونى وفقا لقواعد الحكمة . وحمام باب الوزير مفرد . وحمام حى الصالحية الذى بالقرب من الإمام الحسين خاص للنساء . وحمام قنطرة الليمون مفرد .

تلكم الحمامات الواحد والأربعون التى دخلناها مرات كثيرة ولكن هناك أربعة عشر حماما لم يكن لنا نصيب فى دخولها .

ويكون بالقاهرة على هذا الحساب خمسة وخمسون حماما للخواص والعوام . ولكن من المحتم أن تكون هناك حمامات فى قصور السلف من السلاطين وأمراء الجند الباشوات من الدرجة الثانية (ميرميرانلر) وفى بيوت السادات والمشايخ والعلماء

والأغوات السود وأغنياء التجار ، حمام فى كل قصر وبيت على الأقل ، وفى بعضها حمامات . وأما قصور رمضان بك أمير الحج وقيطاس بك وعلى بك الجرجاوى[١] وذو الفقار بك وأبو الشوارب بك وقصور كثيرين من خواص الأغوات (مصاحب آغالى) ففيها قصور مشتملة على أربعة حمامات وخمسة حمامات ، فعلى هذا الحساب يبلغ عدد حمامات القصور التى بالقاهرة والتى أحصيت رسميا تسعة آلاف وستين حماما ، وهكذا عرض على السلطان مراد . ولكن العجب أن مياهها جميعا مالحة إلا مياه ما كانت قريبة من الخلجان ، فإنها تكون حُلوة حين فيضان النيل كماء حمام قيصون . ولكن الحكماء قالوا إن الماء الملح إذا سُخن أفاد الجسم وأصلحه . وفى كل حمام فسقية وحوض ، لأن المصريين جميعا شافعية ما عدا الأتراك ، والشافعى لا يُطهِّر إلا إذا دخل الحوض مقدار قلتين عند الشافعى مناسب لماء مصر وهوائها[٢] . ولا يوجد مستوقد تحت حمامات مصر ، وليس ماحولها خاليا . وحرارة الحمامات المصرية إنما تنشأ من حرارة مائها . وشادرواتها أيضا ذات مياه حارة . وكل ما بها من القلتين التى فى كل الأركان والأحواض مملوءة بالماء الساخن . وليست بها مجار للمياه المستعملة ، فهى تنساب على رخام الأرضية التى تسخن من شدة حرارتها إلى حد يمنع المرء عن وضع قدمه على الرخام . ثم إن حمامات مصر لا تحدث الدُّوَار ، وذلك لأنها ليست مكشوفة من تحتها ، ولأن مياهها حارة دائما ليلا ونهارا ؛ فقد جعل لكل حمام أربع طبقات وخمس طبقات من القدور الرصاصية تفيض المياه من بعضها إلى بعض حتى تنزل إلى الحمام فتسخنها . على أن هناك خزانات أخرى نحاسية للماء البارد وخزانات للماء الحار . إن تلك القدور المصرية ذات الطبقات المتعددة عجيبة حقا ولا نظير لها فى البلاد الأخرى . فهى فن لايصدقه العقل تجب مشاهدته .

والمصريون لا يستخدمون الخشب وقودا لتسخين الحمامات ، بل يستخدمون روث البقر المتكون من التبن والنباتات ، ويسمونه «جلّه» ولكل حمام عدد من الزبالين

---

(١) للاطلاع على ثروة على بك الجرجاوى يراجع تاريخ نعيما ج٥ ص ٤٤٨ .

(٢) يشترط الشافعية أن يكون فى الحوض الذى يتوضأ منه مقدار قلتين من الماء والقلة إناء كبير ليس كقلال مصر . (د . عزام) .

المأجورين يجمعون الزبالة بكنس شوارع القاهرة كنسا نظيفا بحيث لايدعون فيها ذرة من الأشواك ، وينقلونها إلى الحمامات فتجعل وقودا . فالقمامة رأسمال أصحاب الحمامات ، ينقلها الزبالون بالقفف ليلا ونهارا .

وأمور الضبط بحمامات القاهرة تابعة لرياسة فراشى الوالى (مهترباشى) ؛ فكل نزاع أو خلاف يحدث بين أصحاب الحمامات والصبيان الدلاكين أو بينهم وبين العصاة من رواد الحمامات يحله «مهترباشى» ويصلح بينهم . وجميع إيرادات الحمامات تنفق على وجوه الخيرات .

الفصل الرابع والثلاثون
فى بيان خانات السلاطين الماضين والوزراء والوكلاء

إن القاهرة حافلة بالخانات . وأمتن الخانات وأكثرها عمارا خان الخليلى الذى يشبه القلعة ، فهو خان عظيم فى مائة خطوة طولا وعرضا . وبجوانبه الأربعة مائتا حانوت مبنية بعقود جيرية ، فوقها أربعة أدوار من الحُجَر لسكنى النازلين فيها مع أزواجهم . وبوسطه ميضأة فوقها مسجد خشبى جماعته من تجار الأتراك (الروم) وبه من التجار الأغنياء من يملكون آلاف الأكياس ، ليس لهم نظراء إلا فى بولاق . وجميع أموال مصر القارونية فى هذا الخان . وله أبواب حديدية مزدوجة كأبواب القلاع وخارجة من جهاته الأربع حوانيت معقودة بالجير . وليس بالقاهرة سوق خاصة لبيع الأمتعة النفيسة ، فالأمتعة النفيسة الواردة من الأقاليم السبعة تباع فى هذا الخان بكثرة وبأثمان زهيدة .

وخان الحناء متصل بالخان الخليلى . وهو الذى يصدر منه الحناء إلى بلاد الأتراك والعرب والعجم ، فقد كومت فى حوشه تلال من مئات أكياس الحناء . وهو أيضا خان كبير واسع به ثلاثمائة حُجرة متعددة الطبقات ، فى هذا الخان يباع العبيد . وخان الدويدار الكبير الذى على مقربة منه خان كبير حقا ، وخان الدويدار الصغير عامر (هنا بياض فى الأصل) ثم خان الكتخدا قاسم ، ثم خان جاولى وهو خان عظيم ، ثم خان البندقانى ثم خان أحمد أغا القبرصى ثم خان آق قاش ثم خان مرتضى أغا ثم خان أبو طاقية ثم خان محمد أغا ثم خان جعفر أغا ثم خان الأسير وخان الجلابة . ثم خان رجب أغا . وخان الكتخدا ذو الفقار الحديث البناء يشبه قلعة عظيمة . وبجوانبه الأربعة حوانيت وبيوت من ثلاث طبقات مهيأة لسكنى الأُسَر ، مساحته مائة وخمسون خطوة طولا فى ثمانين خطوة عرضا ، وبوسطه زاوية . قال كاتب هذه السطور :

«أعجب أوليا حين شاهده فأرخ قائلا : بناى عظيم ـ ١٠٨٣هـ» وعلى مقربة منه خان الكتخدا محمد الحبشى وهو أيضا خان ظريف حديث البناء . وبداخل باب النصر خان الناصرية ، وبإزائه وكالة الزيت التى يرد إليها الزيتون وزيته من الشام والقدس وغزة ، فهى خان مُزيَّت . وأدوات الساكنين فيه وقلوبهم مزيتة كذلك . وبالقرب منه خان البكارية ،

ويليه خان الكردية ثم خان جعفر ثم وكالة البهار وهي دار محافظ الباشا . وفى هذه الوكالة تؤخذ الرسوم الجمركية على الأمتعة والبهارات الواردة من الهند واليمن والحبش وعدن ، فلذا سميت بهذا الاسم . وقد التزم الباشا الوالى هذا الجمرك بألفى كيس على أن يتحمل الضرر والنفع . ثم خان الكتخدا الحبشى وهو بالقرب من جامع الحبشكى . وله خان آخر أيضا حديث البناء متعدد الطبقات بالقرب من جامع شاه مردانية . وعلى مقربة من جامع الداودية خان مسعود أغا ، وتحت باب الوزير خان حافظ باشا .

هذا وهناك وكالات كثيرة بقيت فى عطفات ضيقة فلم تعد لها قيمة . وأما الخانات التى أوردنا ذكرها فكلها مبان ضخمة كقلاع ذات طبقتين وثلاث طبقات مشتملة على ثلاثمائة حُجرة . ولكل منها عشرات من البوابين والحراس .

وبمصر ثمانمائة وخمسون رَبْعا أى خانا لإقامة المتزوجين لا يسمح بالإقامة بها للعزاب وهم لا يرعون إلا أنفسهم .

الفصل الخامس والثلاثون
فى بيان ما فى فسطاط مصر من المستشفيات

كانت بالقاهرة قديما مستشفيات للمجاذيب ولعلاج المرضى ، ولا تزال مبانيها ظاهرة ، بيد أنها ليست مستعملة الآن لضم أوقافها إلى الأموال الأميرية . ولم يكن عامرا فى أيام رحلتنا إلا أربعة منها وهى :

مستشفى مقام موسى (بيمارخانة)

وهو مستشفى مجانى عديم الأوقاف بالقرب من بين القصرين . ويقدِّم بعض أصحاب الخيرات ما يلزم للمرضى من الطعام كما يقوم بعض الفقراء بخدمتهم مجانا . ويعطيهم بعض الأغنياء زكاة أموالهم .

مستشفى الجامع الأزهر

مستشفى الأزهر أيضا مجانى ولكن إيراده من النذور والصدقات والطعام أكثر من إيراد المستشفيات ذات الأوقاف المتينة ، وخدمه يتمتعون . ثم إنه ليس بالأزهر بل فى زاوية الشيخ محمد المطويسى Matvisi

مستشفى السلطان المؤيد

بناء عال طلق الهواء بجانب تكية الأزبك تحت باب الوزير ، وقد بنى كله بحجر بالجير بناء سلطانيا مزخرفا . به حُجر وقاعات كثيرة . وله باب مرتفع داخل تكية الأزبك . وبه مقاصير متنوعة ليستمتع فيها المرضى باستنشاق الهواء الطلق الصحى . ولكن ليست له أوقاف ، فلذلك يخدم فيه فقراء تكية الأزبك كما أن سكانه من مريدى تلك التكية .

مستشفى السلطان قلاون (بيمار خانة)

مستشفى عظيم فى سرّة القاهرة فى ركن من حرم جامع السلطان قلاون الذى وصفناه فيما سبق . بناء عجيب لا نظير له فى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم ، فقد بُنِى على أسلوب لو اختل عقل امرئ عالجه الحكماء فارتد عاقلا . بوسط حرمه العظيم الذى تبلغ مساحته مائة وخمسين خطوة طولا وعرضا ، والمفروش برخام مجلو ، حوض

عظيم يتفجر الماء من فواراته طول قامة رجلين ، وبجانب الحوض مصلى . وعلى الحوض قبة منقوشة السقف يحملها اثنا عشر عمودا رشيقا . وبكل جانب من جوانب الحرم الأربعة قاعة عظيمة تتسع لألف رجل ، بجانبيها أروقة ذات سقوف منقوشة معقودة بالجير . والقاعات مفروشة برخام مختلف الألوان يمثل نقش الأرتنك[١] . وبنهاية كل قاعة سبيل ارتفاعه طول قامة رجلين طويلى القامة ، يجرى منه الماء كالسيل إلى تلك الأروقة ، ثم يصب فى الحوض الكبير الذى يتوسط الحرم . وقد بُنيت القاعات الأربع كلها على هذا النظام . وينام المرضى تحت ألحفة حريرية فوق تلك الأروقة . وإذا ما قارب بعض المرضى الإفاقة سِمح لهم بالاستحمام على حافة تلك المياه الجارية ، وحولهم الممرضون يخدمونهم كأنهم فراش حول الشمع . بيد أن بعض إخواننا المجانين يقضون أوقاتهم فى أركان مظلمة ، وبعضهم يقضونها فى حُجَر مكشوفة ذات أحواض وفوارات مقيدين بالسلاسل هازمين كالرعد ، على حين يظل بعضهم هادئين . ولما كانت فى طبيعة أرض مصر اليبوسة ، فإن جميع أهلها سوداويون ، ولكنهم لقدمهم ذوو شهرة ومكر وحيلة فما إن يظهر مريض حتى يعرضه أهل الحى على الباشا ويستصدرون الأمر بوضعه فى المستشفى ومعالجته . وذلك لأن المستشفى لا يقبل المريض إلا بأمر منه ، لأنه يكلفه قرشا فى كل يوم . فقد كان فيه فى زماننا ثلاثمائة وستة بين مريض ومجنون .

وفى مكان صرف الطعام للمرضى من العمارة اثنا عشر طبيبا مع تلاميذهم يحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الطعام والدواء . وللحكماء أتباع من الممرضين لهم جرأة وطبع الجلادين ، يطعمون بعض الأخوان الفاقدى العقل خشافا من عصا الشُوم فيعقلون . وإذا قدم إلى مستشفى قلاون مريض مضى عليه ثلاثة أعوام أفاق فى أربعين يوما بإذن الله ، وانقلب لون وجهه الشاحب ورديا . لأن فيه حكماء كبقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدى وأبى على بن سينا ، كل منهم حكيم كالمسيح يحيى الموتى . لكن لا يظهر أن الحكماء من أهل هذه المدينة ، فكل الحكماء غرباء ، بيد أنهم من أبناء العرب ، لأن الطب علمهم . والطب ألزم العلوم ، فقد قال رسول الله «العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان» ويفهم من هذا الحديث أن الطب نشأ عند العرب . كان الطب موجودا فى عصر الإسكندر الأكبر وفليقوس وجالينوس ، حتى إذا جاء رسول الله اشتهر

(١) ارزنك = ارتنك اسم مجموعة نقوش مانى . (المترجم) .

حكماء المسلمين بالطب ، ثم وصل حكماء اليونان والفرنج إلى دقائق علم الطب فاشتهروا ولكنهم لا يزالون محتاجين إلى حكماء العرب ، لأن العربى إن عُنى بالمريض قلبا وروحا متمسكا بالزهد والتقوى وقوة العلم شُفِى بإذن الله ، ولا سيما حكماء مستشفى قلاون فإنهم جميعا من أكمل الأساتذة ومهرة الفصّادين ، فلا يجس أحدهم نبض مريض ويصف له الدواء الموافق لمزاجه حتى يُشفى بإذن الله . وذلك لأن فى بلاد الإقليم الأول بالصعيد والواحات والحبش وبلاد الفُنج وجبل القمر أنواعا من النبات والأعشاب والحيوان لا يوجد فى الهند أمثالُها . فترد تلك العقاقير إلى القاهرة فيستعملها الحكماء فى علاج المرضى فيُشفون . فلهذا اشتهر مستشفى قلاون فى بلاد الترك والعرب والعجم .

خُصَّ جانب من هذا المستشفى لعلاج النساء وهذا القسم أيضا بناء مكلَّف عظيم ، وجميع خدمه من النساء . وليس به رجال غير الحكماء وهم من المحارم ، فلذا يدخلونه بلا خوف ويعالجونهن . ولكن من العجب أن بعض النساء المريضات والمجذوبات تحبلن فى هذا المستشفى ، فقد ولد غلام فى عهد إبراهيم باشا وسمى «شفائى» . وموجز القول أننا ما رأينا فى البلاد التى جبناها مستشفى عظيم البناء كهذا المستشفى .

وصف عمل ترياق الفاروق الأعظم

ليكن معلوما للرحالين العلماء أن مادام على ظهر الأرض حكماء فهم يصنعون ترياق الفاروق فى كل البلدان ، ولكن لايمكن أن يكون ترياقهم كترياق الفاروق المصنوع بمصر ، فإن قرص الفاروق خاص بمصر وحدها .

بيان ما هو القرص

يُصنع ما يسمى بالقرص من جسم الحية . ولأوقاف السلطان قلاون أربعون مستخدما يقيمون بقرية ابن الخبير من قرى الجيزة ويقومون بالخدمة مرة فى كل عام . وتلك الخدمة هى صيد الحية التى يُصنع منها «ترياق الفاروق» . وإذا حان وقت صيد الحيات وهو شهر يولية ، اجتمعوا فى موضع ولبسوا ثوبا مصنوعا من اللباد الغليظ ، فلم يبق من أجسامهم عاريا إلا العيون ، وربطوابطرف عصى طويلة لباداً أبيض وذهبوا إلى جهات بهنسا والفيوم والجبل الأخضر ، ثم قصدوا مبكرين فى طراوة الصباح الأماكن

التى تعيش فيها تلك الحية ، وذلك لأن الحيات تكون مخدرة قبل اشتداد الحرارة . ومع ذلك تقاتل الصيادين قتالا شديدا حتى يصطادوا منها الآلاف ويضعوها فى قفف مدهونة بالفاروق فتنام ويخيطوا فتحاتها . وقد يحدث أن تثب حية فتلدغ الصياد من عينه فتقتله ، فهى حيات قاتلة ، وصيدها خاص بأولئك القوم وليس فى استطاعة غيرهم من بنى آدم . وهم جماعة من الصالحين أتباع الطريقة السعدية قد اختصوا بهذا العمل بأمر الله .

كان هؤلاء القوم يوما ينقلون القفف المحبوسة فيها الحيات محملة على الحمير ولما بلغوا قرية البساتين الجميلة أفلتت حية من قفة فلدغت الحمار الذى يحملها ، فوقع الحيوان المسكين فورم جسمه فى لمح البصر وصار كجثة فيل ونفق ، وصارت قوائمه كأعمدة وأخذ الصيادون يبعدون الناس عنه قائلين «ابتعدوا فإن جثة الحمار ستنفجر وتؤذيكم رائحتها .» فما إن رفعوا القفة عنه وحمّلوها حمارا آخر حتى انفجر وسالت عظامه ماء . ولكن الحمد لله لم يُصَب أحد بأذى . واجتمع الذين كانوا هناك ودفنوا الجيفة ثم نقلوا الأحمال إلى المستشفى وسلموها إلى رئيس الحكماء والناظر .

كنت أنا الحقير قد رجوت ناظر المستشفى مقدما أن يأذن لى بمشاهدة عمل الترياق .

فما أن أحضرت القفف حتى أخبرت فركبت جوادى وحضرت إلى المستشفى حتى إذا كنت عند باب « الفاروقخانة» فتح لى وأدخلت فيها ثم أغلق ثانية . وذلك لأنهم يخافون على علمهم من إصابة العين إذ يعتقدون «بأن العين حق» . كما يخافون على الأغراب من دخولهم مثل هذا المكان الخطير المملوء بآلاف الحيات القاتلة . والفاروقخانة هذه مدرسة عظيمة ، كسيت جدرانها الداخلية وأرضيتها بألوان من ألواح الرخام . ولايُدرَّس فيها غير الطب ، وحول حرمها أروقة ، وكانت الأروقة مفروشة فى ذلك اليوم . وكان عددنا ثلاثين رجلا . أولنا رئيس الحكماء (حكيمباشى) ، ثم الناظر وكاتب الأوقاف ومرشدها ، وعشرة من مساعدى الحكيمباشى ، والداعى واثنا عشر نفرا من الصيادين والطهاة والجزارين . أحكموا إغلاق الباب وأمروا مشددين بعدم فتحه لمن يطرقه من الخارج ، ثم طمأنوا الفقير وأمرونى بألا أخاف .فوقفت على منضدة للمصباح ذات ثلاثة قوائم وتأهبت للمشاهدة . قام ثلاثون رجلا وتوضأوا وصلوا ثم أعدوا جميع معداتهم للعمل .

وهناك نحو مائة قطعة من القُرمات الصغيرة طول كل قُرمة ثلاثة أشبار ونحو مائة شاطور حاد مما يستعمله الجزارون كأن كل شاطور سيف « الضحاك»[١] وشواطير عريضة الظهر مصنوعة من الحديد الإفرنجي . ونحو مائة دسيعة (مَجُور) كبيرة مجلوة لماعة تسع الواحدة منها رجلا ، وكم من الصينيات المطلية بالقصدير التى بقيت من زمن السلطان قلاون . ونحو إردب من الملح الناعم ، ونحو خمسين إناء كبيرا مجلوا من الداخل والخارج يشبه الحُبّ المستعمل للماء ولكنه واسع القاع ضيق الفتحة وفتحته تسع رأس إنسان . أحضروا كل تلك الأشياء ثم قام الرجل المختص بالدعاء فقام بعده جميع الحاضرين مبسملين محوقلين ودعوا أولا لأرواح آل عثمان ثم للسلطان قلاون صاحب الخيرات والحسنات ، ولقمان الحكيم وفيثاغورث والتوحيدى وأبى على بن سينا سلطان الحكماء ، وتلوا الفاتحة لسلامة الحاضرين من الحكيمباشى والناظر والكاتب والطاهى ولجميع المعاونين والمساعدين . وقام بعد ذلك كثير من الصيادين وثلاثة من جزارى الحيات وحلوا فتحة إحدى القفف الموضوعة وسط حرم المدرسة ، فاندفع منها آلاف الحيات السامة تتوثب يمينا ويسارا وثبات عالية صافرات فاحّات وهى تحاول تسلق الجدران ، فما أن رأيت ذلك حتى طار عقلى مع أنى كنت على منضدة مرتفعة . وظلت هكذا هائجة متوثبة حتى جمعها خدم الحكيمباشى والصيادون فى موضع ووضعوا عليها حراما مغموسا فى ترياق الفاروق فسكنت .

ولما تم جمع الحيات وتهدئتها جلس كبير الصيادين وثلاثة من الجزارين إلى جانب «القرم» ممسكين شواطيرهم وشرعوا فى استخراج الحيات واحدة واحدة ولاحظت أثناء عملهم هذا أنهم يتحاشون نوعا من الحية الصغيرة البيضاء ، وقد أسكرنى ماتضوع منها من شميم المسك ، فسألت الحكيمباشى عن ذلك فقال إنها حية المسك ، وهى لا تصلح لصنع ترياق الفاروق ، ولكنها تصلح لأدوية أخرى سوف ترى ذلك بعد قليل ، ثم جمعوا كل الحيات الصغار البيض فى ركن صغير مظلم بالمدرسة بعيد عن الشمس وقد مدوا بين الحائطين حبلا طويلا من الحرير الأحمر ، ونظموا فيها الثعابين من أعناقها بعضها بجانب البعض ، ثم قطروا فى أفواهها بقطن زيت الزيتون الوارد من مدينة «سوس»[٢] فماتت وأخذت تنتفخ وستبقى الثعابين معلقة أربعين يوما ولياليها ، وتنعقد

(١) ملك خرافى تسلط على بلاد الفرس ألف سنة وكان جبارًا سفاكًا للدماء . انظر الشاهنامه . (د . عزام) .
(٢) هى مدينة «سوسة» بالمغرب . (د . متولى) .

فى تلك المدة حبات فى بطونها تشبه حب القاقولة هى حب المسك التى تحدث الرعاف فيمن يشمها من شدة رائحتها .

وهناك نوع آخر من الحيات الصغيرة القصيرة التى لها رأس مدور كنصف قشرة الجوزة ، فُصل كذلك عن سائر الحيات ، فلما سألت عنها قيل لى أنها تسمى «الحية الصافية» وهى من سلالة الحية التى طردت مع آدم عليه السلام من الجنة ، وهى أيضا غير صالحة لعمل ترياق الفاروق ، ولكنها تصلح لصناعة أدوية لأمراض أخرى . هكذا فتشوا القفف العشر وفصلوا حية المسك والحية الصافية عن بقية الحيات . واتضح كذلك أن الحية الصافية لا تبيض كالحيات وإنما تلد كسائر الحيوان ، وتلك حكمة مخالفة لخلقة الحيات . وبعد ذلك أحصوا حيات الفاروق فكان عددها ثمانية آلاف وثلاثمائة حية سلمت لمتولى الأوقاف ، وقيدها الكاتب والمرشد فى السجلات بأنها تقدر بثمانمائة قرش .

ولما تمت هذه الترتيبات جلس كبير الصيادين وثلاثة من جزارى الحيات كل إلى «قرمة» فقال كبير الصيادين «بسم الله الرحمن الرحيم ، وبسم الله نية الشفاء» فأخرج من الأحرام حية كبيرة ووضعها على القرمة ، ثم جمع رأس الحية وذنبها بيده اليسرى فقطعهما بالشاطور الذى بيمناه وألقى الحية على رخام الأرضية بلا رأس وذنب . وأما الرأس فسحقه بظهر الساطور وألقاه مع الذنب إلى جهة أخرى . وهكذا مع بقية الحيات وبينما هو قائم بعمله نادى مرة «وحدوا الله» فرد الحضار جميعا « لا إله إلا الله» وحينما يقطع الحية يترك مع الرأس والذنب نحو ثلاثة أصابع ، ثم يأخذ الجزار الثعابين المقطوعة فيشق بطونها بسكين من ذهب ويستخرج منها الأحشاء والبيض ثم يلقيها إلى جزار آخر ، يسلخ جلدها بأظافره بمهارة تحسب أن الحية كانت بلا جلد ، لأنها تخرج من الجلد لحما أبيض ، وهى لا تزال تتحرك . ثم تنتقل إلى أيدى الحكماء ولا يلمسها الجزارون . يأخذ مساعدو الحكيمباشى الحيات المسلوخة فيغسلونها فى الأوانى التى وصفتها سابقا غسلا جيدا ثم يملحونها ويضعونها فى الحباب المطلية حتى تمتلئ ثم يضعونها فوق نار قوية وقودها خشب السنط ، ويقوم حكيمباشى بمراقبة الحباب ممسكا بيده الساعة ، ولسان الجميع يلهج بالحمد والثناء ، وهم خائفون خاشعون . ويحدث أحيانا

حينما يخرج الصياد بعض الحيات من الأحرام أن يبصق فى فمها فتسكر وتتخدر وتقطع بعد ذلك .

هكذا يعمل اثنا عشر رجلا من الصيادين والجزارين على تقطيع الحيات على هذا المنوال حتى يأتوا على جميع ما فى القفف العشر وتحفظ الرءوس والأذناب فى قنانى كبيرة لتركيب أدوية أخرى ؛ فقد سألت عما يفعلون بها ولكنى لم أفز بجواب . وإنى أظن بعقلى القصير ، والله أعلم ، أنهم يستخلصون ما بالرؤوس من السم فيرسلونه الى بلاد الفرنج . فقد شاهدت مرة أن قد أحضر إلى ملك دون قارقيز Dunquerque نحو ألف رأس من رءوس الثعابين منظومة فى حبل هدية فتقبلها الشرير مبتهجا مسرورا وسلمها لجروف (Grof) .

فن عظيم عجيب

إن تقطيع الحيات هذا فن عظيم . فلا يكاد الجزار يغلط أقل غلطة فى فصل جسم الحية عن رأسها وذنبها حتى يقوم حكيمباشى فيصيح «إرم الحية ، إرم الحية» فتلقى هى ورأسها وذنبها بعيدا عن أحشاء وبيض الحيات الأخرى . فما أسرع ما تنتفخ تلك الحية بعد أن كانت كالإبهام بتأثير ما برأسها من السم فى جسمها لغلط يسير فى القطع . ويبعدون كذلك القرمة والشاطور ، ويأتون بغيرهما . ومن العجب أنه قد حدث فى ذلك اليوم غلط فى قطع خمس وسبعين حية من مجموع ما فى عشر قفف من الحيات ، فأبعدت مع جمع الأدوات المستعملة فى هذه العملية . والحيات المرمية لاتحسب على الأوقاف بل على الصيادين والجزارين فتخصم من مخصصاتهم ومرتباتهم وتقيد تحت الحساب .

عجيبة أخرى

كان الصيادون يرشون ملحا ناعما على بقايا الحيات من الجلود والأحشاء والبيض ويقلبونها لتتملح جيدا ، فرفع أحدهم يده صائحا ، فلم يكد كبير الصيادين يسمع صرخته حتى أسرع إلى دسيعة وأخذ منها ثلاث من الحيات المغسولة المطهَّرة ولف بها إصبع الرجل . ورأينا بعد لحظات قليلة أن الحيات ورمت ، فرفعها ووضع مكانها حيات أخرى ولكنها ما ورمت فى هذه المرة وإنما تغير لونها قليلا ، فرفعها وأخذ إصبع الرجل فى فمه ومص الموضع المجروح وبصق على الأرض بصاقا أصفر ، ثم دهنوا الجرح بقليل من

ترياق الفاروق الذى أزال الألم وأنقذ الرجل من الموت مسموما . واتضح أن رأس إحدى الحيات المقطوع غلطا ألقى فى تلك البقايا فسم يد الرجل .

وموجز القول أنى ما رأيت رجلا من بنى آدم له روح من الصلب وقلب من الحجر كهؤلاء الصيادين والجزارين . وإنى شاهدت هذه العجيبة بيد أنى لم أكن مالكا لعقلى فى كل الأوقات ، فقد ندمت على حضورى لمشاهدتها . ومع ذلك سألت الحكيمباشى قائلا ماذا تصنعون بهذه الجلود والأحشاء والبيض والرءوس والأذناب التى وضعت فى الأزيار مملحة؟ فقال هذا شيء لا يعنيك . بيد أنى ألححت فى السؤال . فقال نبيعها لسفراء دول الإفرنج الذين بالقاهرة ، فيرسلونها إلى بلادهم ، فيصنع منها حكماؤهم عقاقير لعلاج أنواع مختلفة مما تنتاب الأجسام من الأمراض .

ملئ اثنا عشر حبا مجليا بحيات مغسولة مطهرة ووضع على مواقد المطبخ الذى فى ركن القاروفخانة وأوقدت النار تحت الأزيار بخشب السنط ، وجعل الحكيمباشى يراقبها ممسكا بيده الساعة وبالأخرى العصا ، والطهاة من أعوانه وهم من الأساتذة الكاملين الذين أتموا العلوم والفنون ، وليس للحكيمباشى عمل سوى الحضور وتحديد الوقت . تظل الحباب تغلى فوق النار مدة ثلاث ساعات ، حتى تتكوم فوقها طبقة من الزبد الأصفر وهو دهن الحية يرفعها الحكيمباشى بكبشة ويضعها فى زجاجات .

وهكذا استخلص الدهن من الحباب كلها وأمر بإيقاد النار تحتها لتغلى بما بقى فيها من لحم الحيات . وليكن معلوما أن ما يستعمل لطهى الحيات من الأدوات ليست قدورا وحللا نحاسية وإنما هى حباب من الصلصال مجلوّة داخلا وخارجا .

حتى إذا تم ذلك أخذ الحكيمباشى يخلط دهن الحية هذا بزيت الزيتون المغربى الذى يرد من مدينة سوس ، فيضع خمس أوقيات من دهن الحية على مثله من الزيت فى قنان مجهزة لذلك ثم يضع القنانى على نار ضعيفة ثم يزيد الحرارة وتظلل القنانى على النار مدة ثلاث ساعات ، يحصل فى نهايتها دهن شبيه بالسمن كل الشبه ، ذو نكهة مسكية وعنبرية تعطّر أدمغة الحاضرين . لم أستطع أنا الحقير أن أصبر فسألت عما عسى أن ينفع هذا الدهن فقال ينفع هذا الدهن فى الهند التى يكثر فيها أمراض الجذام والبهق والبرص ، فإذا دهن جسم من ابتلى بتلك الأمراض بهذا الدهن مرة واحدة شُفى بأمر الله . وأما فى مصر فلا فائدة منه إلا للجرب والخفقان ، فإن المريض بهما إذا أعطى منه درهما فى كل يوم مدة أربعين يوما شُفِى بأمر الله .

غلت الحباب بما بقى فيها من الحيات مدة ثلاث ساعات أخرى حتى نقصت مياهها مقدار شبر ، ثم أنزلت من المواقد ، فأخرجت الحيات المسلوقة « المهرّاة» من الماء ووضعت فى صينيات نحاسية كبيرة لتبرد . ثم استخرجت من الخزانات أوان كسلاطين وأباريق ومراجل تركها أصحابها من الأعيان منذ شهر بتوصيات ورجاء ، وقد كتبت عليها أسماء أصحابها وأنواع الأمراض التى يبتلون بها ، فملئت بمرق الحية بعد أن أضيفت إليها عقاقير أخرى وأرسلت إلى أصحابها . حتى إذا تم ذلك غرف خدم الفاروقخانة من تلك المرقة وثردوا فيها الخبز وشرعوا فى الأكل بشهوة ، فطار عقلى من هذا المنظر . ولم ينته الأمر بهذا بل جاء بعدهم دور الحكيمباشى والناظر والكاتب وسائر الخدم فملأ كل منهم فلجانة من المرق وشربها ، كما تكرموا بتقديم فلجانة للحقير ولم أقبلها بيد أنهما ألحا على حالفين بالأيمان المغلظة بأنها تزيد قوة البصر وتزيل ريح البواسير فقلت الأمر لله ، وما يصيب المرء مع الجماعة فهو عيد ، فتجرأت وأغمضت عينى وطبقت أسنانى وتجرعتها قائلا باسم الله على نية الشفاء ، وأنا أشم نكهة مسكية . ثم أعطِيت فلجانة أخرى ممزوجة بقليل من دهن الحية المخلوطة بزيت الزيتون المغربى فشربتها أيضا ، والله إن نكهة المسك لازمت دماغى مدة أسبوع .

فى بيان مسلوقة الحية

قد كتبت فيما سبق أننا حين قمنا من مكة وبلغنا «بدرحنين»[1] هجم علينا العرب فى ليلة واضطررنا للقتال دفاعا عن النفس ، فشق علىّ هذا العمل ، وظهرت على بدنى حرارة فلما شربت فنجانين من مسلوق الحية شُفيت منها فى أسبوع ولم يبق فى بدنى أثر من المرض وزادت قوتى ، وشاهدت فوائد أخرى .

قصة

ومن فوائدها ما أقص هنا . ذلك أنى كنت معاونا للانكشارية حين حاصر « بَنْلى Benli مصطفى باشا[2]» سنة ١٠٥٦هـ قلعة شبنبك من قلاع البنادقة المتاخمة لحدود البوسنة ، ودكها أربعين يوما ولياليها بالمدافع ولكن لم يتيسر فتحها ، فرجعنا إلى موضع

(١) ليس فى الحجاز موضع بهذا الاسم ولكن فيه بدر فى الطريق بين مكة والمدينة . وحنين فى الطريق بين مكة والطائف . (د.عزام) .

(٢) يلديز ـ تكه لى .

يدعى «دانيلوفا» وكان أحيط من جوانبه الأربعة مائتى ألف من كفار أسكوك uskok ودودّشكا Dudoska والإفرنج والخرواتيين وحاربناهم سبع ساعات حربا شعواء انهزم الجيش العثمانى بعدها فشرع الكفار فى إبادة المسلمين . وقد شاهدت سبعة من عبيدى وثلاثمائة وثمانين من رفقائى قتلوا على أبشع صورة ، فتركت كل ما معى من الأموال والأرزاق وهربت ممتطيا جوادا كان هدية من الوزير الأعظم قرا مصطفى باشا . وقد أرغم الكفار الحقير على قطع تلك الصحراء الواسعة ، بيد أنهم عجزوا عن اللحاق بى والاهتداء إلى مكانى ، إذ حفظنى الله عن عيونهم .

نجوت من المطاردة ولكن ضاقت الدنيا أمامى حين غروب الشمس ، فتركت الجواد ودخلت الأدغال حاملا سيفى ، وكنانتى وقوسى وقضيت سبعة أيام وست ليال فى تلك الأدغال أنيس الوحوش والطيور ، مكتفيا بجذور الحشائش وبعض الفواكه طعاما . ولكن لم يكن السير على الأقدام متفقا مع حمل السيف والقوس والكنانة ، فقد انقطع «الحزام» من ثقل ثمانين أسديا ومائة وخمسين قطعة ذهبية كنت أخفيها فيه ، فصرت ضعيفا عاجزا عن متابعة السير . فلم يكن بد من التخلى عن تلك الأشياء ، فأخليت الكنانة من الأسهم وصررت الحزام بمنديل وجعلتهما والسيف والبندقيتين تحت حجر كبير بأسفل صخرة واستودعتها الله . وأخذت القوس بيدى . ثم نزلت خفيفا إلى نهر هناك فتوضأت وصليت ركعتى الحاجة مستمدا من أرواح الأولياء والأنبياء قوة لروح «أوليا» المخلص هذا . وبينما أنا فى حيرة ودهش إذ سمعت صوتا باللغة البوسنوية ولهجتها يقول«بيره ميو Biremeeu » فأجابه صوت «اشتو وليش؟ JIsto wlis ومعناه بالبوسنوية ماذا تقول؟ . ورد عليه الأول« خوامو سنكو خودامو Hodamu snko Hodamu أى تعال يا بنى تعال . سررت من سماع اللغة البوسنوية واطمأن قلبى ولو أنى أوجست خيفة ، وبينما أفكر هل هؤلاء القوم من الخروات والأسكوك الذين يقتلون العثمانيين حيثما يجدونهم ارتفع صوت بالآذان واتضح أنه صادر من رجل مسلم جاء مع ابنه محتطبا ، فلما حل وقت الظهر أذن للصلاة . فلم أكد أسمع الأذان المحمدى حتى أسرعت إليهما مسلما عليهما وتعرفت بهما . قال الرجل الكبير باللهجة التركية البوسنوية . أهلا وسهلا ، وكيف حالك؟ وماذا تفعل فى هذه الجبال؟ قلت هذه جبال نعرفها جئنا مع بعض الرفقاء لنصيد فيها ونحن من رجال الانكشارية المقيمة بقلعة هلونة Helone وقال هل عندك علم بحال الجنود المهزومين ؟ قلت انهزموا منذ سبعة أيام وقدموا إلى قلعة هلونة . ثم قال وكيف

أخذوا قلعة كليش ؟ وموجز القول أنى صرت صاحبهما وسرنا نحن الثلاثة إلى قلعة غلاموج Glamog وبينما نحن فى طريق تلك القلعة قابلنا محافظها فى الطريق فحكينا له الحالة المحزنة بالتفصيل . ولم يكد يسمع القصة حتى أنزل أحد أتباعه من حصانه وأمرنى بركوبه ، فركبته حامدا شاكرا ودخلنا قلعة غلاموج بعد مسير ساعتين ونزلنا ضيوفا فى داره .

وهاك الحكمة : إننا حينما كنا بجانب قلعة الإسلام بِت سبع ليال فى العراء أنيس الثعالب وبنات آوى والأرانب والغزلان ، مقابل ساعة خفت فيها من الجن . فلما كان صباح اليوم الثامن قلت للمحافظ« ديزدار» إنى تركت فى الجبل بعض أشياء أريد أن أحضرها ورجوت منه أن يعطينى عشرة رجال ، فخرجنا راكبين وسرنا متتبعين الطريق الذى جئنا منه ، فلما وصلنا إلى الموضع الذى دفنت فيه أشيائى نزلت عن جوادى وسلمته إلى رفاقى قائلا إنى أريد أن أغتسل هنا وذهبت إلى الصخرة واستخرجت الأشياء كاملة إلا جلد الكنانة ، فقد أكله حيوان لا أدرى أهو ثعلب أو ابن آوى . ومهما يكن من شىء فإنى علقتها والكمر على حزامى والتحقت برفاقى وركبت جوادى ورجعنا إلى القلعة التى مكثت فيها ضيفا سبعة أيام .

ومن العجيب أنى كنت ذات ليلة نائما فوقع أمر شبيه بالاحتلام . فبينما كنت قلقا متقلبا من وجع ظهرى نزل منى دم ممزوج بصديد متقطع نحو ساعة من الزمن فمرضت بعد ذلك سبعة أيام . فلما تماثلت للشفاء أهدى إلى محمد أغا محافظ القلعة حصانا وكسوة كما أهدى إلىّ سائر أعيان الدولة أشياء مختلفة وعنوا بتطييب خاطرى ، وأعطونى أيضا خادما خاصا ثم أرسلونى فى رفقة عدد من رجالهم إلى قلعة هلونة للالتحاق بنبلى[1] باشا . حتى إذا التحقنا بالباشا استرحنا واطمأننا ، بيد أننا لم نجد أحدا من رفقائنا ، فقد استشهدوا جميعا بيد الأعداء ، ووقعت قلعة كليش بأيديهم وقتل كل الجنود المنوط بهم المحافظة عليها ، حتى إن تكه لى باشا اضطر إلى استدعاء أهل الولاية للمحافظة عليها . استقبلنى الباشا مرحبا وأهدى إلىّ جوادا وبدلة لمعرفة قديمة بيننا لأنه كان حما قريبنا «ملك أحمد باشا» لزواجه من أم «قيا سلطان» زوجة ملك أحمد باشا .

---

(١) يلديز ـ نكدلى

والمراد من سرد هذا الحديث ، والحديث ذو شجون ، أنى منذ الليلة التى حدث لى فيها حادث شبيه بالاحتلام لم يصدر منى ما يدل على الرجولة حتى الاحتلام ، وحزنت لذلك خشية انقطاع النسل . ومضى على ذلك سبعة وعشرون عاما . فلما قدمت إلى القاهرة وحضرت تركيب ترياق الفاروق بمستشفى قلاون وشربت فنجانين من مسلوق الحية ودهنها ، اختلمت فى تلك الليلة مرتين متواليتين . وحين الصباح ذهبت إلى المستشفى وقصصت للحكيمباشى ما حدث فأعطانى عشر أوقيات من مسلوق الحية ممزوجة بأوقية من دهنها . وما أن استعملت المسلوق خمسة أيام أو ستة حتى صح جسمى وقوى لحمى وشحمى إلى حد كان زملائى يكسرون عليه البندق ، ورأيت لها منافع أخرى .

مفعول قرص ترياق الفاروق

وحاصل الكلام أن رئيس الأطباء الحكيمباشى قدم من مرق الحيات لجميع الحاضرين . حتى إذا بردت الحيات المسلوقة التى وضعت فى الصينيات جلس هو وأعوانه من تلاميذه إلى تلك الصينيات ، وقد شمروا أيديهم وغسلوها غسلا جيدا فأخذوا يستخرجون حبالا ممدودة بجانبى سلسلتها الفقرية كأنها مقاط (سجيم) فى تخانة مبرأة ، هى ما يسمى بقرص ترياق الفاروق ، ينتج منه مثقال من كل حية . وليس كل جسم الحية صالحا لصنع الترياق ، فلذا يؤخذ منه ذلك الجزء ويوزع الباقى على الفقراء أو يُرمى ويُدفَن فى الأرض .

لطيفة محببة للمنهكين فى الجماع

يعطى يخنى الثعبان للعاجزين عن الوقاع ، فإذا تناوله عاجز واقع زوجه خمس مرات أو عشرًا ولم يستكف ، فتتأذى زوجه وتصبح مقيمة عليه قضية جماع حتما . وتشكو مستعيذة بالله أنها لا تطيق هذا البلاء ، كما أن آكل لحم الحية يعترف بأنه واقعها عشر مرات . ويصلح قاضى العسكر (افندى) بينهما على عشرين مرة !! . ولا يكاد يسمع ذلك حضور هذه الدعوى حتى يشربوا حساءهم داعين "رب يسر" . وموجز القول أن ما يستخلص من ظهور الحيات من الحبال تُدَق فى هاون خشبى ذى يد خشبية ثم يصنع منها شىء كالمعجون بعد أن يوزن بالميزان وهو ما يسمى قرص الأفعى . ويكون حينئذ

المعجون الأكبر "أبيض اللون" ثم يخلط هذا المعجون بمختلف العقاقير المدقوقة والمنخولة نخلا دقيقا ويمزج بالعسل الرومى (التركى) المغلى مرتين .

هكذا يصنعون من ترياق الفاروق ثلاثة مراجل فى كل عام . ترسل منها أولا قدرتان إلى عظمة السلطان ، وقدرة للوالى ، ثم ترسل منه هدايا إلى الوزير الأعظم (الصدر الأعظم) وشيخ الإسلام وكبير الأطباء باستانبول وإلى القاضى التركى بالقاهرة ويحتفظ ناظر المستشفى بما يتبقى منه فى خزانة المستشفى لاستعماله للمرضى الذين يعالجون فيه . وهكذا يصدر الترياق من مصر إلى بلاد الترك (الروم) والعرب والعجم والأفرنج وسائر البلاد . ويصنع دائمًا مرة فى كل عام . ولكنه صنع ثلاث مرات فى عام حين كان الفقير (أوليا) فى مصر وذلك لأن كبير أطباء المستشفى كان من كُمّل الأساتذة .

خواص الحية الصافية

وأما الحية البيضاء التى تسمى الصافية والتى يزيد عددها على ألف حية ، فقد فتحوا لها باب المدرسة ونقلوها إلى غرفة صغيرة ذات زجاج ، وفيها من ركنها إلى ركنها حبل غليظ . وربط الحكيمباشى كل حية من ذنبها بقيطان حرير أحمر وعلق بعضها بجانب بعض بذلك الحبل . هاجت الحيات وأخذت تتلوى ويلدغ بعضها بعضا حتى صارت حيات غليظة من تأثير السم . ولما تمت عملية الربط والتعليق أخرجوا من بالحجرة فأغلقوا بابها غلقا محكما . حتى إذا فتحوها بعد أربعين يوما وجدوا الحيات قد جفت وصارت قديدا رقيقا فى بطونها حبات سوداء كحب القاقولة ، ذات رائحة زكية تسكر من شمها .

وخواص أخرى للحية

وأما الحية الصغيرة الأخرى ذات الرأس الشبيه بنصف قشرة الجوزة فقد قطع الجزارون كل حية منها نصفين ثم وضعوها بجلدها الأبلق فى حقاق رصاصية محافظة عليها من النمل الذى يتهافت عليه . وذلك لأن لحم الحية ولحم الإنسان من ألذ اللحوم .

لطيفة غريبة

رأيت لذة لحم البشر عند الشعب القلموقى من آكلى البشر الذين يقيمون بصحراء

هيهات[١] ، فهم يأكلون موتى بعضهم ، كما يخنقون بعض من يأسرونهم من قبيلة نوغاى ويأكلونهم . ويخشون ضياع دمهم إذا ذبحوهم ؛ فلذا يخنقونهم ثم يطبخون لحومهم ويأكلونها . ويقولون أنه لا يوجد لحم ألذ من لحم البشر ولحم الخنزير والحية ، وألذ أماكن الجسم عصعص الخنزير ولحم ذلك الموضع من البشر . وفى بلاد الترك (الروم) كثير ممن لهم علم بذلك من التابعين لمذهب القلموق . وقد شاهدت أنا أيضا لذة لحم البشر ، إذ أن المرء لا يقبّل حبيبه حتى تزيد حياته بهجة وسرورا ، فعلمت من ذلك درجة لذة لحم البشر(!) .

ونتيجة الكلام أن من لم يذهب إلى مصر ولم يشاهد عمل ترياق الفاروق فكأنه لم ير شيئا عجيبا فى الدنيا . وإذا سكنت حية فى بيت رجل أو فى برج حمامه فأقلقت راحته ، أحضر أحد صيادى الحيات ودفع مبلغا من النقود . يأتى الصياد إلى البيت فيدخله صائحا صياحا خاصا ويستخرج من حزامه صفارة يصفر بها ويصفر بفمه صفيرا خاصا ، فما هى إلا دقائق حتى تخرج الحيات من شقوق مختلفة وتأتى إليه كأنها تهاجمه ، فكلما جاءت حية أمسكها ووضعها فى حقيبته وينقذ البيت منها ويريح أهله . بيد أن هذه الحيات غير صالحة لصنع الفاروق ؛ لأن حيات الفاروق نوع خاص يعيش فى الصحراء . إنى أذكر هنا قصة من قصص الحيات شبيهة بالكذب "ولكن علم الله وشهد الله" أنها قصة واقعية وليست كذبا .

كان رجل يدعى أحمد أفندى إماما لمولانا حسين باشا ابن جانبلاط سنة ١٠٨٥هـ وتسلطت الحيات على منزله فهجره . وكان له جواد أصيل يتناول علفه ذات يوم ولدغته حية من أنفه فمات وانتفخ كالفيل ، ودفن حيث مات لعدم إمكان نقله إلى موضع آخر ، وصار منزل الإمام مهجورا . وقابلت يوما مصادفة أحد الصيادين وأحضرته إلى منزل الإمام فما إن دخله صائحا ومصفرا حتى رأيت عشرة من الثعابين يزيد طول كل ثعبان على متر مسرعه نحو الصياد كأنها تريد أن تنهشه . فلما رأى الحاضرون ذلك المنظر المخيف هربوا وهربت إلى حجرة كاتب الديوان وجعلت أشاهد من نافذتها . وقد حارب الصياد الثعابين نحو ساعة من الزمن حتى هزمها أخيرا ووضع فى جرابه أحد عشر ثعبانا وانصرف شاكرا داعيا واستطاع الإمام أن يقيم فى بيته .

---

(١) صحراء هيهات هى صحراء القبچاق . (د . السعيد) .

حادث غريب

وبعد بضعة أيام من حادث منزل الإمام كنت فى ميدان الروميلى . وإذا برجل يرقِّص الحيات وقد اتضح أن الصياد باع الحيات كل حية بقرش إلى رجل من المتكسبين بعرض الحيات ، ولكن الله يعلم أنها صارت كبيرة مهيبة . وقد علمها صاحبها فى بضعة أيام ألعابا عجيبة ، فهى ترقص فى الميدان كالقردة . ولهؤلاء الصيادين سحر لعلهم أعطوه بكرامة الأولياء ، وإذ كان الصياد منهمكا فى ترقيص حياته ، وهى حيات الإمام ، وثبت حية إلى صف المشاهدين فنهشت رجل صبى . ومن لطف الله كان بين المتفرجين رجل من أتباع الطريقة السعدية فأمسك برجل الصبى ومص مكان النهش وأنقذ الصبى من التسمم . ثم أمسك الحية اللادغة وشرع يأكلها قائلا يا حىّ يا قيوم وسلام على نوح فى العالمين . وشرع الصياد فى الصياح حالفا بأنها حية إمام الباشا وابتاعها بعشرة قروش . ثم اشتد النزاع بين الصياد والسعدى ولم يمكن فضه حتى حضر أمين الخردة الذى يحكم أصحاب الحيات وأخذ السعدى إلى الباشا . وكان السعدى لا يزال يأكل بقية الحية وفمه مزبد . وصاحبها يتظلم صائحا حيتى ، حيتى التى كانت عظيمة كالتنين ولما شهد الحضار أمام الباشا بأن الشيخ السعدى أنقذ الصبى من الموت سر الباشا وطلب إليه أن يأكل أمامه حيتين أخريين ثم أعطاه خمسين ذهبا وأعطى صاحب الحية عشرة وأعطى الصبى خمسة ، ثم صرفهم . وكان هذا مجلس حكم غريب .

قصصنا هنا قصة ترياق الفاروق وما يتصل بها من العجائب . وذكرنا وصف مستشفى قلاون . والحق أنه ليس بالقاهرة مبنى أظرف من هذا المستشفى ولا أوقاف أثبت من أوقافه . إنه لمستشفى منبع الشفاء ، فيه رجال الفن غير الأطباء وموسيقيون ومغنون يمتِّعون المرضى والمجاذيب بالأغانى والأنغام الشجية . مستشفى فريد عديم النظير فى المسكون ، ودار خيرات تفوق كل وصف . وأما أول من صنع ترياق الفاروق فهو "ونوش بن مناقيوس" من ملوك الأقباط .

فى بيان ترياق الفاروق المصنوع من قرص الأفعى

ألف قدماء الحكماء ضروبا من الترياق ، بيد أن أهمها هو الترياق الأكبر الذى يستعمل دواء لستة وسبعين ومائة علة . ويتألف هذا الترياق من ستة وستين عقارا . ومن خواص "الفاروق الأربع" طرد ما بالمعدة والأمعاء من الأرياح الغليظة ، وطرد أربعين علة

أخرى . وإذا تناول من شرب سما أو لدغته حية مثقالا من ترياق "الطين المختوم" ، شفى بأمر الله . ويقول حكيم الجرجانى إن "الترياق الطين" نافع جدا لمن نهشته حية أو أراد التنقية التامة . ومن خواص الترياق اليابس إزالة سموم جميع الحشرات . ومن كان به الريح أو لسعته أم أربع وأربعين ذوب فى الماء نصف درهم من ترياق "أبّانوش" Abbanus شُفى . وأما "ترياق هرمس الكبير" فيقصر اللسان عن وصفه ، فإنه نافع لكل الأمراض . "وترياق الأمير" الغريب التركيب يجلب محبة الناس ، ويصفى اللون . وجميع الترياقات تُصنع فى مستشفى قلاون ، ولكن الذى صنع فى عهدنا هو :

ترياق الحكيم هليوش Halyus

هذا الترياق دواء لو أعطيت الدنيا بدله لما وزنته . ومن ملكه فقد ملك الدنيا وما فيها فإنه شفاء لجميع الأمراض . ومن كان مريضا بمرض من الأمراض الخطيرة كالجذام والبرص وتناول منه مثقالا ، تصبب عرقا بإذن الله ، وزال المرض من جسمه . وتركيبه :

قرص الأفعى على رأس العقاقير المؤلفة له ، ثم القرنفل والصاديج والزنجبيل وجوز البوع والقاقولة والجنطيانا والميعة اليابسة ، وقصب المر (أصيل[1] كَبْرَه[2]) والحناء وعود القهر ، وبذر الكرمس ، وبذر الجزر ، والفلفل الأسود ، ودار فلفل ، وحب القاز من كل ثلاثة دراهم ، والزعفران والنخوة من كل واحد درهمان ، وأربعة دراهم من قردمانة ، تُعجن هذه المواد كلها بمقدار واف من العسل الحر وتحفظ فى إناء زجاجى مدة ثلاثة أيام . ثم تؤخذ من كل من الأفيون واللادن والزعفران والميعة السائلة وتدق وتخلط بمثقال من ميعة الخمار خلطا جيدا ثم تضاف إلى المعجون الذى بالإناء الزجاجى ويحفظ كترياق الفاروق وسائر المعاجين ويؤخذ منه مثقال كلما مست الحاجة إليه ، ومنافعه لاحد لها .

(١) ، (٢) فى النص التركى asili وهى كلمة تركية قديمة بمعنى مفيد وأما كلمة كبره فمعناها ال (لصف) وهو الكَبَرَ . (د . السعيد) .

الفصل السادس والثلاثون
فى بيان ما بالقاهرة من الأسبلة

ليس لجميع مخلوقات الله شىء أعز من الماء وألذ منه ، وقد ورد فيه قوله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ ومدينة القاهرة فى أشد الحاجة إليه . وإذ لم تكن فيها خيرات أهم من خيرات الماء فقد لاحظ هذا كل من السبعمائة والسبعين حاكما الذين تقلدوا حكم مصر منذ عمرو بن العاص حتى يومنا هذا ، وبنى جامعا وسبيلا متصلا به ، كما بنى آلافا من الأسبلة فى مفترق الشوارع وأماكن مناسبة لمختلف الأحياء يتسع كل سبيل منها لعشرات آلاف حمل بعير ماء . وبنى كثير من الوزراء والأشراف والأعيان الكبار فى مختلف أحياء المدينة أسبلة جميلة تزينها أقفاص وشبابيك نحاسية مزخرفة يصعد إليها ببضع درجات . وقد زين كل سبيل بألوان من القيشانى واليشم واليرقانى والسماقى والرخام . ثم إن هناك أسبلة ظريفة بجانب بعض القصور وتحت بعض البيوت . وخلاصة القول أنه كان بالقاهرة ستة وأربعون ألف سبيل على حسب إحصاء الغزالى ، وأما الآن فأربعة آلاف سبيل . ثم إن هناك أسبلة كثيرة من الأسبلة العادية المنتشرة فى مختلف أحياء القاهرة على رؤوس الحارات . وأظرف جميع الأسبلة هو سبيل السلطان الغورى كما أنه أكثرها ازدحاما ، لوقوعه فى السوق السلطانية . ففيه أربعة من الخدم يصرفون الماء للظمأنين من الصباح حتى وقت الغروب . وهو سبيل عظيم يسع عشرين ألف حمل بعير من الماء ، وله أوقاف قوية ومبنى متين . ويقال إن جوانب صهريجه الأربعة مكسوة بالرصاص وذلك بسبب لذة مائه . وقد نقش فوق شباكه بالخط الجلى الآية الكريمة ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ .

تفنن المصريون فى نقش الآيات على أسبلتهم كما تفننوا فى بنائها ، فقد نقشوا على بعض الأسبلة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ وعلى بعضها ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ وعلى بعضها ﴿هنيئا مريئا﴾ .

ثم سبيل محمد باشا اوكوز[١] بالقلعة ، و "سبيل باب القلعة" كل منهما يسع عشرة آلاف راوية ماء . وسبيل إبراهيم أغا ، أغا الانكشارية وهو تحت باب ثكنات تلك الطائفة ، ويتسع لألفى راوية ماء . وقد نُقش على بابه التأريخ الآتى :

(١) اوكوز كلمة تركية الأصل معناها : ثور . (د . متولى) .

إن إبراهيم أغا ، وهو زبدة أرباب المجد ومظهر لطف الله ، فكر فى عواقب الأمور ، فبنى هذا السبيل الظريف إرضاء لله سبحانه وتعالى . وشرب [الشاعر] من مائه الزلال وأرخه قائلا فليمتلئ هذا السبيل دائما من ماء عينه سنة ١٠٣٧هـ (بو سبيله جوى عينندن طوله صو دائما) . ومن الأسبلة المزدحمة بعد سبيل السلطان الغورى ، سبيل السلطان الأشرف والسلطان حسن والأسبلة التى بالسوق السلطانية ، فكلها جارية . ولو كتبنا عن كل منها أوصافه وتواريخه لكانت كتابا فى حجم كتاب الـ "همايوننامه" . تلكم الأسبلة القديمة .

وأما الأسبلة التى أسست فى عهدنا فسبيل عباس أغا المعزول من أغوات استانبول وهو بناء جديد يتسع لعشرة آلاف راوية ماء ، فقد تفنن بانيه فى البناء والزخرفة فصار كمعرض النقوش الصينية . وفوقه كُتَّاب لتعليم الأطفال . وبنى عالى أغا ، خازندار السلطان محمد خان ، سبيلا مزخرفا يرد حياة الظامئين ، يسع ألف راوية ماء ويعلوه كُتَّاب للأطفال . وبالقرب من الداودية سبيل أحمد أغا الصاحب يسع أحد عشر ألف راوية ماء ، وهو سبيل ظريف يعلوه كتاب لتعليم الصبيان ، يذكرنا ما به النقوش بأرتنك مانى النقاش[1] . وبنى عبد الباقى الشورباجى سبيلا وكُتَّابا للأطفال بالقرب من دار القندقى (قوند اقجى)[2] وهو سبيل عظيم . وبنى محمد كتخدا الحبشى خانا وسبيلا بالدرب الأحمر ولكن أخطأه الحظ فبيعا بالمزاد العلنى الذى وقع على مصطفى أغا وهو مدير مكتب أغا دار السعادة باستانبول فأرسل الحجج إلى يوسف أغا مدير إدارة البنات (قيزلر أغاسى) ، وهو سبيل مزدحم جدا . وهو سبيل منقش جميل يتسع لأربعة آلاف راوية ماء ومزدحم بالناس . وفوقه كُتَّاب ظريف لتعليم الأطفال . وبباب النصر سبيل ذو الفقار كتخدا الحبشى وكتابه ، وهو أيضا سبيل عظيم يسع ألف حمل بعير ماء . وموجز الكلام أنه بُنى فى سبعة أعوام سبعون سبيلا جديدا . بيد أن ما بناه السلاطين السابقون من الأسبلة مكسوة الجدران من الداخل بطبقة من الرصاص ، فلذا تكون مياهها باردة فى شهر يوليو كأنها مثلجة . والأسبلة تطهر مرة فى العام من قِبل إدارة الأوقاف ثم تُملأ ماء أيام فيضان النيل .

---

(١) أرتنك ويقال أيضا أرزنك مجموعة صور «مانى» . (المترجم) .

(٢) قنداقجى ، كلمة تركية الأصل تعنى : مصلح البنادق . (د . متولى) .

وبنى محمد باشا الخاصّكى فى حى سيدى عقبة الجهنى تكية ومسجدا وعمارة ومدرسة وسبيلا يتسع لخمسة عشر ألف حمل بعير من الماء . وقد نُقش على شباكه هذا التأريخ .

"سبيل سلسبيل جوى كوثر"(١)

هذا وبالقاهرة آلاف من السقائين يجرون جمالهم وحميرهم المحملة بالماء وهم ينادون صائحين "ظهرك ، جنبك ، وشك" ويعجز المرء عن السير فى الحارات والأزقة من تزاحمهم . ومع ذلك لا يكاد الماء يسد حاجة السكان المزدحمين . فبالقاهرة عشرون ألف سقاء من النصارى وغيرهم حسبما هو مسجل فى سجل رئيس السقائين . ولكل دار كبيرة من دور الأغنياء جمل أو حمار خاص لحمل الماء إليها .

عجيبة القاهرة

ومن العجب ألاَّ ينزل الغيث بالقاهرة إلا ويحدث فيها أزمة الماء فتتعارك الناس للحصول عليه ، فى حين أنه لا ينزل بسائر البلاد إلا ويزيد الخصب والبركة ، ويبتهج الناس عامة مغرقين فى مياه الرحمة . وسبب ذلك دماثة التربة المصرية ، فلا يكادينزل قليل من المطر ويبل الشوارع حتى يعجز الخيل والناس والجمال عن السير فيها وحمل الماء إلى البيوت ، فيرتفع ثمن قربة الماء إلى خمس پارات . والأسبلة لا تفتح إلا للشرب فلهذا تشتد أزمة الماء لسائر الحاجات . فيكلِّف والى الولاية أى الصوباشى آلاف الزبالين بحمل الأتربة اليابسة على حميرهم وإلقائها فى الشوارع العامة لتسهيل السير فيها . ثم إن شوارع القاهرة ليست مبلطة ، فلذا ينتج من المطر وحل ، "اللهم عافنا" ، لا يوجد مثله إلا فى مدينة سلستره . ولكن البلاد المصرية ليست بلادا ساحلية فالمطر فيها قليل لا يهطل غير مرة أو مرتين فى العام . فلو هطل فيها دائما كما فى بلاد الترك لتخربت . فقد حدث أن هطل المطر والبَرَد سبعة أيام ولياليها فى سنة ١٠٨٣هـ فعجز الناس عن الزيارات والتردد على المساجد ليرفعوا الدعوات إلى الله سبحانه وتعالى ، وتهدم عشرون بيتا من بيوت الفقراء ووقعت أزمة ماء بالمدينة لاتزال تحكى عنها الأساطير . وكان العرب وهم يرون البَرَد الأبيض على أسطح المنازل وعلى الناس يقولون «إيش هذا ، ينزل قطن من

(١) يوافق هذا التأريخ سنة ١٠٣٩ هـ . (د . متولى) .

السماء .» وبينما الأتراك يحمدون الله على نعمه ويجمعون البَرَد ويأكلونه ، كان العرب يجمعونه فى بعض الأماكن ويضعونه فى أفواههم قائلين «اح ، نار باردة» . ومع ذلك هطل البَرَد قليلا واختفى ولو أنه هطل فى البحر مدة خمس ساعات . وكانت حبات البرد الذى نزل بالقاهرة كبيرة ومن لطف الله أن النبات والحبوب ليست فى حاجة إلى المطر فى مصر ، لأن الأراضى المصرية تنقلب بحرا أثناء فيضان النيل فى كل عام ، وتظل كذلك ثلاثة أشهر ثم ينحسر الماء منها فيزرع الناس ويحفظون محصولاتهم فى الأهراء (الصوامع أو المخازن) بعد ستين يوما هذا سبب عدم حاجتهم إلى المطر ، وقد جرت سنة الله كذلك .

الفصل السابع والثلاثون

فى بيان ما بالقاهرة من العيون (الحنفيات)

بالقلعة الداخلية العليا (قلعة الجبل) عشرون عين ماء من خيرات السلطان الغورى تأتى من النيل المبارك بعقود الماء المقامة على ثلاثمائة وستين فتحة ، حتى أسفل القلعة ثم يُجَر بواسطة دواليب دائرة ليلا ونهارا إلى صهاريج المياه الهائلة التى ينقل منها خمسمائة من السقائين الماء إلى تلك العيون (حنفيات) صباحًا ، ويسقون سكان القلعة بپارة مصرية لكل أربع قرب . فإحدى تلك العيون قبة عظيمة تحت دار سك النقود (الضربخانة) ، لها صنابير غليظة يأتى ماؤها من السواقى القريبة من سراى الباشا . ثم عين الشيخ سارية . ولفسقيات الأحواض ماء ملح قليلا يمر بسواق أخرى من بئر عميقة منحوتة فى الصخور الوعرة بالقرب من جامع السلطان قايتباى خارج حصن الانكشارية شمالا . وعين بمنزل رجال الباشا تحت ديوان السلطان قلاوون ذات أربعين عمودا ، وهى قبلة عظيمة لها صنبوران غليظان يتفجر منهما ماء زلال . ومن هذه العين ينقل السقاءون الماء إلى أتباع الباشا . وهو من ماء النيل المجرور بعقود السلطان الغورى . وعين فى قبة ظريفة لها صنبوران تحت أشجار الزيتون والنخيل بميدان سراى الباشا . وعين بالقرب من مصنع رئيس الخبازين لها ستة صنابير صالحة للوضوء وبهذا الماء الطهور يطفئ رجال الباشا نار الحر . وعين بمطبخ الباشا لها صنبوران غليظان وعين ذات صنبورين غليظين باصطبل الباشا الخاص تسقى منها الأفراس الأصيلة وماؤها من سواقى الغورى . وعين فى قبة عالية وسط مساكن العزب ينزل إليها بست درجات من حجر ، ولها صنبوران غليظان متجاوران . وعين داخل باب العزب فى مساكن حجاج المسلمين واصطبل خيل البريد التى تسقى منها ، وكل تلك العيون من ماء السلطان الغورى . وليست بالقلعة الداخلية وبالقاهرة عيون ذات مياه حلوة وإن قيل كيف يستكفى أهل القاهرة المعزية العظيمة الموصوفة بأم الدنيا التى تزخر بالسكان بتلك العيون الواحدة والعشرين؟ رد عليه بذكر العيون والآبار التى وردت فى التقرير الرسمى المقدم إلى السلطان مراد الرابع والذى ذكرناه فيما سبق . ولم يدخل فى هذا الحساب العيون والآبار التى تسقى منها الحدائق والبساتين ، فهى تذكر حين التكلم عن الحدائق .

الفصل الثامن والثلاثون
فى بيان ما بالقاهرة من الآبار والعيون والسواقى والأحواض الملحة

لما أجرى إحصاء عام لجميع ما بالقاهرة من العمارات والحوانيت التى بالسوق السلطانية أيام ولاية بيرام باشا فى عهد السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وبأمره وقدم عنها التقرير . كان بالقاهرة مائتان وأربعة وسبعون ألف بئر . لأن كثيرا من قصور وزراء السلاطين السابقين وأشراف القاهرة وأعيانها الأثرياء كانت تحتوى على خمسة آبار وستة آبار ، ولا يخلو بيت من بئر . وكذلك لا مندوحة عن بئر لكل مسجد وخان وعمارة ومدرسة ، وهى تعد بالآلاف وهناك أحواض طويلة على رؤوس حارات وبعض العطفات يسقى الناس منها خيلهم وأبقارهم وجمالهم وحميرهم ، ولكل حوض ساقية يظلها سقف منقوش مزخرف معتمد على أعمدة رشيقة ، تجر الساقية الماء من بئر بداخلها ثم تصبه فى الحوض بواسطة حليات مصنوعة بأشكال رؤوس الحيوانات كالسبع والتنين والعفريت . وبالقاهرة تسعة آلاف ومائتا ساقية ذات حوض كالتى ذكرتها ، كل ساقية منها لسلطان أو وزير أو عين من الأعيان . وعدد طرق القاهرة العامة من الشوارع والحارات والدروب والأزقة والعطفات ثمانية آلاف وتسعمائة طريق . ومنها سبعة عشر طريقا عاما بدون باب ، يمر عليها رئيس الشرطة (صوباشى) مع دويداره وستمائة أو سبعمائة من جنوده فى كل ليلة . وإذا كان الصباح يكنسها الزبالون الذين يعملون على حساب أصحاب الحمامات كنسا نظيفا ، ثم يرشها أصحاب البيوت والحوانيت بالماء ، فتصبح الشوارع والحارات طاهرة نظيفة رطبة . وبعض الناس يرشون الأزقة والعطف كذلك مستبردين . هذا فى الأوقات العادية ، وأما بعد قطع النيل فيجرى الماء فى أربعين موضعا داخل القاهرة وخارجها فينقل السقاءون الماء من الخلجان إلى البيوت بثمن زهيد كل حمل بعير بپارة مصرية ، وكل قربة بفلس . فينعم المصريون بالماء . وعلى سفح جبل الجيوشى بئر تسمى «بئر افناى» يقال إنها حفرها هاروت وماروت حينما نزلا من السماء وفيها أظهر علم النجوم ورصدا الكواكب وعلما المصريين علم النجوم والسحر حتى صاروا سحرة وهذه البئر لا تزال موجودة ولكنها جافة . وطهرها الحاكم بأمر الله ورصد منها الكواكب كهاروت .

الفصل الثامن والثلاثون (مكرر)
فى بيان ما بالقاهرة من الخلجان

جرت سُنَّة الله بأن تنقص المياه ويهبط مستواها فى شهر يوليو فى كل الدنيا إلا فى مصر ، فإن النيل تبدأ زيادته فى يوليو فى يوم يسمونه «توت» وهو أول يوم من السنة القبطية ، حتى إذا مضى سبعون يوما وبلغ ارتفاعه عشرين ذراعا عند مقياس الروضة اجتمع عند جسر صغير ذى عقد واحد يُدعى جسر «أبو المنجى»

تحت ساقية السلطان الغورى ، أربعون أو خمسون ألفا من أعيان القاهرة وأشرافها وعلمائها وصلحائها ورفعوا الدعوات والتضرعات إلى الله تعالى ، ثم رفعوا الأتربة التى تسد الخليج الذى فتحه المقوقس من ملوك الأقباط ، فاندفع ماء النيل المبارك كالسهم المنطلق من القوس وحمل زورق رئيس الشرطة (صوباشى) إلى قصر الغورية داخل القاهرة على مسيرة ثلاث ساعات . وقد بنيت على ضفتى الخليج داخل المدينة قصور منيفة وقاعات وبيوت ذات عدة طبقات وأحواض وفسقيات ، يقيم سكانها فى مقاصيرهم الطريفة المحاطة بحدائق غناء ، لسماع الموسيقى والغناء ليلا ونهارا مجتمعين مع الجيران والأصدقاء والخلان ، تمثل مجالسهم الممتعة مجالس السلطان حسين بايقرا[١] . ويستمر جريان الماء فى الخلجان ثلاثة أشهر حتى يستغنى أهل القاهرة عن الماء . وينعم أهل الحظ منهم بهذه النعمة خمسة أشهر ، لياليها كلها كليلة القدر ونهارها كنهار عيد الأضحى . كل ينتهز هذه الأيام فيجتمع مع أصدقائه فى الشرفات المزينة بالمقرنصات والسقوف المنقّشة ، فيقضون الأوقات فى السمر وصيد السمك بالشباك . كما أن حسان القاهرة ينزلن الخليج عرايا فيعمن فيه بأجسامهن البلورية كأنهن «أسماك الفضة» ويأتى بعض الراغبين فى صيد أمثالهن فيصيدونهن بحبالة القلب . إن أيام الخليج لأيام الإذن العام «دستور شاهى» بالقاهرة ، يقضيها الناس فى الحديث والسمر ، ويقضيها العشاق مع عشيقاتهم العرايا سابحات فى الماء متحاضنين يقبل بعضهم بعضا بلا خوف ولا حياء . وعلى الخليج آلاف الزوارق والقوارب تروح وتغدو . وكم «من أهل الحظ» يجلسون مع فتياتهم إلى دفات السفن المزينة المزوقة بالأعلام والقناديل ويشربون النبيذ متغنين

---

(١) حسين بايقرا : أحد السلاطين من ذرية تيمور لنك فى القرن التاسع الهجرى . وكانت حاضرة ملكه مدينة هراة وقد اجتمع إليه كبار العلماء والأدباء وله أياد بيضاء على الأدب والفن . (د . عزام) .

«فلنشرب الراح ما دام الكأس بأيدينا» . ويتغنى المغنون من مقامات «النوا» و«العشاق» و«السيكاه» و«الچاركاه» و«الراست» قائلين فلننعم ونطرب دائما فهذا أوان الحظ واللذة ربما لا يكون مثله . ويمر بالخليج رجال قد ربطوا زورقين بعضهما ببعض وفرشوا فوقهما يعزفون على العود والطنبور والصنتور والرباب والناى والمعزفة والجارطاى والقانون أنغاما وتقاسيم من اثنى عشر مقاما وأربعة وعشرين تقسيما ، كأن تقاسيمهم من تقاسيم الفارابى و غلام شادى .

هكذا ترى الخليج يعج بقوارب وزوارق وجوقات موسيقية على سفن كالعرائس مزينة بالأعلام والقناديل محملة بأهل الحظ والعربدة ، يتغنون صائحين صاخبين متراقصين مع المزامير . وليس فى هذه الأيام من عيب وحرج تستر عيوب القاهرة فى هذا المكان ، وتظهر أحاسيسها وتتجلى .

الخليج الثانى تحت قصر العينى ويقال له خليج أوزبك وهو خليج واسع يمر بحدائق القاهرة وبساتينها ، ويدخل بركة الأزبكية . ثم يمر بجانب حديقة العجم راويا حدائق وغيطان وبساتين كثيرة حتى يبلغ قنطرة الليمون ، ثم يمر بقنطرة بيبرس ويختفى فى أراضى القليوبية بعد أن يرويها . ويكاد هذا الخليج يكون خاصا برى الحدائق والبساتين وفيه مُتَع كثيرة للناس ، إلا أنه مجتمع أراذل الناس وليس مجتمع أهل العرض والشرف كالخليج الذى يجتاز المدينة . وأما الخليج العظيم الذى يجتاز القاهرة ويمر فى شمالها بقنطرة إبراهيم باشا الجديدة وبحافة «جميز العبد» فيستمر ثلاث مراحل حتى يبلغ بلبيس ويسقى أراضيها .

والخليج الثالث خليج السلطان برقوق الذى تحت البارودخانة بالقرب من بولاق وهو أيضا يروى حدائق بولاق وبساتينها وغيطانها ذاهبا إلى أراضى القليوبية وهو أيضا لا يخلو من متع للناس فى بعض أماكنه .

والرابع خليج السلطان قايتباى ، وهو يمر بين خليج بولاق وقصر السبتية ثم يروى أراضى الشرقية والقليوبية .

والخامس خليج السلطان ناصر الدين الذى يمر بين بولاق وبلدة شبرا ممتدا حتى الشرقية التى يروى أراضيها . تلكم خلجان حفرها قدماء المهندسين وسقوا بها الأراضى .

وهى صالحة للملاحة مدة ستة أشهر ، ينقلون فيها الغلال من مديرية إلى مديرية . ثم جاء الملوك ففصلوا من تلك الخلجان العظيمة ترعا لرى ما بجوانب القاهرة الثلاثة من الأراضى الصالحة للزراعة ، فصارت هى كذلك صالحة للملاحة . فبلغ المجموع أربعين ترعة تشق القاهرة من خمسة وأربعين موضعا ، فلذا تنقلب القاهرة جنة كلما امتلأت تلك الترع بالمياه .

ويكلف كتخدا والى مصر بإدارة تطهير الخلجان فى كل عام فيأمر كل صاحب منزل بتطهير ما يوازى حدود منزله . وأما الأجزاء الباقية فيطهرها حاكم القليوبية والشرقية باستخدام رجال هاتين المديريتين . ويكلف هذا العمل سبعة أكياس من المال فى كل عام . ويعين أحد الحجاب بمراقبة العمال الذين يستخرجون من الترع فى ثلاثة أشهر قاذورات لا حد لها .

الفصل التاسع والثلاثون
فى بيان ما بالقاهرة من القناطر

الأولى قنطرة أبو المنجى التى بالقرب من سواقى الغورى بموضع قطع النيل ، وهى قنطرة مبنية على عقد واحد ولكنها جد متينة ، لأنها هى أول ما يعترض النيل عندما يتجاوز حده وقت اندفاع الماء حين قطع جسر النيل . والثانية قنطرة السلطان على طريق قصر العينى بنيت سنة ٨٤١ هـ بناء متينًا على عقد واحد . والثالثة قنطرة السبع التى أمام الباب الجديد ، وهى ذات ثلاثة عقود متينة . وقد سميت قنطرة السبع لوجود تمثالين مهيبين من الرخام الأبيض لأسدين فى حجم حصان فى مدخلها من جهة بولاق ، فهما متقنان إلى حد أن من يراهما يخالهما أسدين حقيقيين . وهى قنطرة واسعة عندها مرفأ الخليج الذى تتجمع فيه الزوارق المستخدمة لنقل الناس إلى حيث يرغبون . الرابعة قنطرة السلطان إينال التى بحرم جامع الباب الجديد المتصل بها . وهى قنطرة خشبية مقامة على أعمدة خشبية لا يمر منها إلا المشاة ، فقد أقيمت خاصة لعبور المقيمين بالجهة الأخرى من الخليج لحضور المسجد لإقامة الصلاة ، ولكنها صارت بعد ذلك طريقا عاما . والخامسة قنطرة عمرشاه وهى قنطرة متينة مقامة على عقد واحد ، والسادسة قنطرة الجميز وهى قنطرة واسعة عظيمة مقامة على عقد واحد متين ، عليها حُجَر وشرفات وبجانبيها مشارب القهوة ونحو عشرين حانوتا . ويتسلى الجالسون فى مقاهيها بصيد السمك بالصنانير . والسابعة قنطرة سُنقر ، وهى مبنية بعقد واحد ولكنه عقد واسع جدا يذكِّرنا بإيوان كسرى . وفوقها وبجانبيها نحو أربعين حانوتا وبعض مقاه مزخرفة ذات سقوف منقوشة ، تطل نوافذها على الخليج . وفى هذه المقاهى يجتمع أرباب المعرفة من المصريين ، فهذه القنطرة شارع عظيم . والثامنة قنطرة باب الخلق (باب الخرق) وهى لإسكندر باشا وزير السلطان سليمان ، وله جامع خليق بالملوك بجهة النحاسين طلق الهواء يتمتع المصلون فيه بمشاهدة الخليج . وهذه القنطرة من عقد واحد ولكنها أعرض القناطر جميعا وأمتنها بناء وفوقها نحو أربعين حانوتا عظيما . وهذه القنطرة أكثر قناطر القاهرة ازدحاما . والتاسع قنطرة الأمير حسين وهى كذلك من عقد واحد . إلا أنها واسعة ، فوقها مقاصير مكلَّفة مطلة على الخليج من فوق المقاهى . كما أن عليها نحو ثلاثين حانوتا للزبادين والعطارين تطل نوافذها على الخليج . والعاشرة قنطرة الموسكى

وهى صراط واسع عال من عقد واحد . وبجانبيها حوانيت مزخرفة وثلاثة مقاه بها مقاصير نظيفة . وسميت بقنطرة الموسكى[1] حيث بناها مثقال شرفزاد من موسيقيى الحاكم بأمر الله ، والحق أنها قنطرة عظيمة ظريفة مكشوفة ، يجتمع فى مقاهيها جميع الموسيقيين الماهرين فى الفن ، فهى صاخبة دائما . والحادية عشرة قنطرة الفيت Feyt وهى ليست شارعا عاما بل هناك بناء عظيم مقام على جسر يبدو كقصر منيف . والثانية عشرة قنطرة البيوت وهى على مسافة قريبة من الأولى وحديثة البناء وليست مقامة لتكون طريقا عاما ولكنها دار بديعة يتردد عليها خواص الرجال من أهل الله ، ويبذل منها الطعام والشراب لكل طارق ، وهى دار الكاتب چلبى . والثالثة عشرة قنطرة باب الشعرية وهى جسر عظيم وبناء قديم على عقد واحد ، وطريق عام مزدحم وبجانبيه حوانيت ، والمقهى على مسافة بعيدة منه . والرابعة عشرة قنطرة الخُزُب Huzub وهى قنطرة مصنَّعة مقامة على عقد واحد ، فوقها مقهى من دورين ، الدور الأول ظريف جدا يجلس فيه بعض المترددين على المقهى مُدلِّين أقدامهم فى الماء يصطادون السمك بشباكهم الصغيرة ومن أراد منهم النزول فى الخليج والاستحمام فلا حرج من ذلك . وليست على هذه القنطرة غير ذلك المقهى المزيَّن . والخامسة عشرة قنطرة الخشخاش وهى عقد واحد وليست عامرة لأنها مهملة لا تستعمل للمرور وتجتاز الزوارق من تحتها . والسادسة عشرة قنطرة إبراهيم باشا أبى الخير وهى قنطرة من عقد واحد حديث البناء ، فقد أقيمت فى سنة ١٠٨٣ هـ لمرور العتاد الحربى والأخشاب المرسلة إلى السويس لشحنها إلى اليمن . وهى قنطرة ظريفة بالقرب من جامع الظاهر بيبرس خارج القاهرة . والسابعة عشرة قنطرة الوز وهى من عقد واحد ومكانها خارج القاهرة . والثامنة عشرة قنطرة جميز العبد وهى بناء عجيب من عقد واحد موقعها خارج القاهرة شمالا ومن خيرات الملك الظاهر . وعلى جهتها أشجار الجميز الباسقة التى ليس بالقاهرة ما يضاهيها تسمى جميز العبد ، يقصدها بعض أعيان القاهرة فى زوارقهم لينعموا فى ظلالها الوارفة بكل أنواع الاستمتاع .

انتهى الكلام هنا على الخلجان الجارية بالقاهرة والقناطر المقامة عليها . ففى القاهرة وخارجها على الترع التى بجوانبها ثلاثمائة وستة وأربعون قنطرة أو جسرا ، فإن فى القاهرة حدائق وبساتين كثيرة تجرى فيها الترع وعليها جسور لعبور الناس .

(١) الموسكى = مكان قنطرة على الخليج تنسب إلى الأمير عز الدين بن موسك ابن خال صلاح الدين الأيوبى . وذكر أوليا چلبى أنها مجمع أصحاب «الموسيقى» فلذا نسبها إلى رجل موسيقى . (المترجم) .

الفصل الأربعون

فى بيان ما بالقاهرة من البرك الكبيرة

فى سرة القاهرة بحيرة عظيمة تُدعى بركة الأزبكية ، تقطع محيطها الدائر فى ساعتين وإذا فاض النيل امتلأت كالبحر الزاخر تعمل فيها مئات القيّاسات والقوارب والزوارق لنقل الناس من شاطئ إلى شاطئ ومن قصر إلى قصر . ويصاد منها أنواع السمك . وبها زوارق تُدعى أبو الخير تجد فيها ما تشتهيه نفسك من طعام وشراب ، وهى تتنقل من دار إلى دار لبيع نُقل الطرب . وقد زينت أطراف بركة الأزبكية ببيوت ذات قاعات متعددة الطبقات وشرفات ومقاصير فى حدائق ذات أشجار باسقة ، وقصور مزخرفة محلاة بنقوش كنقوش الصين ، كما أن هناك جوامع حولها أعشاب خضراء من خيرات السلاطين الماضين ، يقصر اللسان عن وصفها . وهى جوامع تزيد البركة أبهة ورواء . ومن القصور البديعة التى حول البركة قصر رمضان أغا أمين العنابر ، وقصر محمد بك الفوال (بقلاجى) أمير جدّة ، وقصر حسام زادة وقصور أخرى .

وقصر السيد عزيز محمد البكرى الذى انتقل إليه من أجداده القدماء العظام خير جميع القصور . وهو يشغل الركن الجنوبى لهذه البحيرة . فيه قاعات ودواوين ومقاصير مختلفة وستون وثلاثمائة حجرة مزينة بأحواض وفسقيات ، ومساكن للمجاورين ومضايف فيها من لم يغادروها من عام وعامين ، يتناولون الطعام من السماط المحمدى ، ويكتسون مرة فى العام فى رأس السنة . وللسيد عزيز ولدان أحدهما الشيخ الأكبر ذو المواهب چلبى وأحسنهما السيد زين العابدين چلبى ، فهو شخص عظيم كريم النفس خفيف الروح محب الضيف لطيف العشرة ، كثير المعرفة ، نجيب رشيد . ولهما دور خاصة لسكنى الأسرة ، وبكل دار حمام . وأما القصر العظيم ففيه حمامات مكلفات . وهذان السيدان من سلالة أبى بكر الصديق رضى الله عنهم . قدم جدهما الأعلى مصر مع عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب . ومن ذلك العهد لم تخمد نار مطبخهما العظيم الذى يقدم منه الطعام صباحا ومساء للخاص والعام والغنى والفقير وهما يفخران بدوام نارهما . ولهما فى الديار المصرية ما لا حصر له من الأوقاف والبلاد والأطيان . والبكريون من أعيان مصر يحيون حياة رفاهية خليقة بالملوك .

ومن عادة السيد البكرى القديمة إقامة حفل عظيم بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى ليلة الاثنين الثانى عشر ربيع من الأول من كل عام .

يمكث الماء فى البركة ستة أشهر ثم يجف بتأثير الحر ، فتنمو أعشاب خضراء . وإذا كانت أيام المولد النبوى قدم مشايخ مائة وأربعين طريقة صوفية ونصبوا فى أرض البركة مئات من السرادقات والخيام التى يجتمع فيها العلماء والصلحاء وآلاف الفقراء ويقومون بذكر الله وتوحيده على نغمات المزامير والدفوف والطبول ثلاثة أيام ولياليها . ويشترك سكان المنازل التى على سواحل البركة بتعليق مئات الألوف من الفوانيس والمصابيح والقناديل على الشرفات والنوافذ ، كما يأمر نظار الجوامع بإنارة شرفات المنارات والدواوين المواجهة للبركة فى تلك الليالى ، فتنبعث أضواء إلى حد يخيل إليك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ولد حقا فى تلك الليلة . فهى بركة عظيمة تغمر القاهرة نورا فى تلك الليلة .

٢- بركة الفيل

هذه البركة أصغر من بركة الأزبكية قليلا . بيد أنها تمتاز بعمران جوانبها الأربعة ، فليس فيها ذراع مكى من الأرض الفضاء . تحيط بها أبنية ذات قاعات وأحواض وفسقيات فى حدائق غناء طلقة الهواء . وهى بركة كبيرة مستطيلة من الجنوب إلى الشمال وليس لها طريق لدخول الزوارق والقوارب وخروجها منها ، ويأتى ماؤها من النيل رشحا تحت الأرض من جهة الباب الجديد . بيد أن بها زوارق وقوارب وفلائك لأصحاب المنازل المطلة عليها يتزاورون راكبين فيها ، وهم من أطهر أهل القاهرة وأعفهم مع أن هذه البركة من أكثر أماكن القاهرة ازدحاما .

وأشرف المقيمين حولها نقيب الأشراف الهاشميين الشيخ الفانى السيد برهان الدين الأكروديرى من السلالة الحسينية . وداره موئل كل طارق منذ تسعين عاما يقدّم منه الطعام والشراب لكل رائح وغاد . ثم قصر شاهين أحمد أغا الخازندار المصاحب وعباس أغا المعتوق من إدارة البنات ومنزل شعبان أغا ضابط المتفرقة «وسراى بكر أفندى كاتب الانكشارية ، وسراى قانصو وكان قصرا سلطانيا ، فهو تحفة فنية يعجز اللسان عن وصفها ، ومنزل صالح أغا المصاحب ، وقصر محمد خليفة البالطه جى وقصر صهره وقصر سليمان أغا وقصر مصطفى أفندى شيخ الانكشارية وسراى خليل أغا

المصاحب وسراى قيتاس بك وسراى نذير أغا المحال على المعاش من إدارة البنات ، وسراى محمد أغا البوسنوى وقصر أمير الحج ، وقصر أبى المواهب وهو خير السادات ، وسراى مصطفى أغا مدير صانعى البنادق ، وسراى أحمد أغا باشچاويش الانكشارية وسراى سليمان بك ومنزل الچاويش سليمان . وخلاصة القول أن بشواطىء بركة الفيل سبعين قصرا من قصور السلاطين الماضين ومائتى منزل عظيم . وليس فى هذه البركة من سفن أبى الخير إلا سفينة واحدة ، تبيع الطعام والشراب متنقلة من قصر إلى قصر .

وأما تسمية هذه البركة ببركة الفيل فيقال أن ساحرا من سحرة فرعون أراد أن يظهر عمله ويثبت مهارته فتمثل فيلا وعاش حولها يرعى ما حولها من الأعشاب ويشرب من البركة فسميت ببركة الفيل . وفى رواية أخرى أنها سميت بهذا الاسم لأن الخليفة المأمون لما قدم إلى مصر أحضر معه مائتى فيل ووضعها فى هذا الموضع الرطب لكى تطيق تحمل الجو الحار[1] .

وإذا أقام أحد الأعيان المقيمين على شواطئها حفلا لمناسبة ما كمولد أو عرس زُينت شرفات ومشربيات وشبابيك جميع المنازل والقصور بالفوانيس والأعلام ، كما زُينت سوارى الزوارق والقوارب وأشرعتها برايات وأعلام وفوانيس وأطلقت المدافع والأسهم النارية التى تصعد إلى أوج السماء ثم تنقلب إلى الأرض كالشهب . وأطلقت آلاف من القذائف النارية البحرية التى تغوص متسابقة كالغواصين . ويمكث الماء فى هذه البركة عشرة أشهر . وكلما انحسر منها الماء جف مكانه اتخذها الناس بساتين تنتج بطيخا وشماما لذيذين جدا .

٣ـ بركة الرطلى

هى بركة مربعة الشكل حلوة قريبة من بولاق محيطها مسيرة ساعة . جانباها الشمالى والغربى بساتين . وأما جوانبها الشرقى والجنوبى والقبلى فكلها قصور عالية ، منها قصر محمد چلبى مدير الضربخانة ، تحيط به حديقة غناء ذات أحواض وفساق عظيمة ، وله فيها زورق (فرقاطه) . ثم قصر السيد أحمد العازى وسراى حسن البكرى وكثير غيرها من القصور العامرة . وهذه البركة تتردد عليها زوارق كثيرة .

(١) المعروف أن بركة الفيل منسوبة إلى رجل اسمه الفيل من أصحاب أحمد بن طولون كما فى خطط المقريزى . (المترجم) .

٤- بركة مصنع القرميد

هى بركة مربعة شكلا وحلوة ماء .

٥ - بركة الغسال

ماء هذه البركة رائق عذب فاتخذها الناس مكانا لغسل جميع الأشياء القذرة لسكان القاهرة ، فلذا سميت بركة الغسال . ومن خواصها أن الصيادين يصيدون السمك من بحر يوسف بالفيوم ، وهو على مسيرة يوم وليلة من القاهرة ، ويأتون به إلى القاهرة فى حالة تعفن شديد لا يستطيع الإنسان أن يدنو منه . فما أن تُنَزَّل القفف من ظهور الحمير ويغسل السمك واحدا واحدا فى هذه البركة وتقطر بعض نقط من الدم من خياشيمه حتى يصير السمك الميت طازجا حسن الرائحة كأنه صِيد فى ذلك الوقت . ويسمى هذا السمك سمك يوسف ، ومائدة يوسف ، وحوت يوسف ، وهو سمك مُنقَّش لذيذ الطعم ، فلذا ينهبه المصريون نهبا . فقد أكلت هذا السمك فى الفيوم كما يقال «أكلت السمكة حتى رأسها» ولكن لما تناولته مغسولا فى بركة الغسال وجدته غير ذلك ، إذ أنه صار سمكا طريا كمخ العظم ذا رائحة مسكية . فإن غسله فى هذه البركة يجعله ، بأمر الله ، لذيذا كالمائدة الربانية . ولهذه البركة خاصية أخرى ، هى أن مجذوما إذا استحم فيها أربعين يوما وشرب منها شُفِى بأمر الله .

٦ - بركة الدباغين

بركة مُدوَّرة بحى عابدين بك تحيط بها منازل عالية ، وبأحد جوانبها مدبغ . وماء هذه البركة أيضا حلو ، فلذا يتربى فيها سمك لذيذ جدا . ثم إن بها زوارق مصنوعة من القرع يركبها صيادو السمك . وطريقة صيدهم له أنهم يجذبونه أولا إلى المواضع الضحلة من شواطىء الماء ثم يصطادونه . ومن خواصها شفاء مرض اليرقان . فمن مرض بهذا المرض واصفرت عيناه وبشرته كالكهرمان ، واستحم فى هذه البركة ثلاثة سُبوت على الإفطار ، وشرب منها شُفى بأمر الله .

٧ - بركة قارون

بركة مخمسة من بناء قارون ، حولها حدائق عامرة . ومن خواصها أن من استحم فيها أربعين يوما زال منه النحس واكتسب المال ، فهى بركة لا يزال طلسمها فعالا وماؤها ملح قليلاً مع أنه من النيل .

٨ ـ بركة الشواربى

أنشئت هذه البركة فى العصور القديمة ولكنها مشهورة ببركة الشواربى نسبة إلى أحد أمراء مصر المشهور بأبى شوارب الذى بنى قصرا منيفا على شاطئها . ومن خواصها أن من كان مريضا بالصرعة فاستحم فيها سبعة أيام فى وقت الظهيرة وشرب من مائها شُفِى بأمر الله ، وهذا طلسم مجرَّب .

٩ ـ بركة الحبش

بركة مربعة كأنها بحيرة ذات ماء حلو . ومن خواصها أن امرأة إذا اعتراها الحيض فاستحمت فيها زال عنها الحيض (النفاس) فلذا تستحم فيها النساء العاصيات المقيدة أسماؤهن فى سجل رئيس الشرطة (صوباشى) . تلك حكمة عجيبة . سألت عنها بعض النساء فأجبننى بالتصديق .

١٠ ـ بركة بيبرس

بركة صغيرة بالقرب من جامع السلطان بيبرس خارج القاهرة . تُغسَل فيها الخضر كالسبانخ والخس والملوخية والبامية والفجل وغيرها من النبات ، فإنها إن غسلت فى هذه البركة عادت غضة طرية كأنها قطعت فى تلك الساعة ولو مضت عليها ثلاثة أيام .

١١ ـ بركة الكبش

بركة مثلثة تحت جبل الكبش بالقاهرة . كان بها فى عصر الكهنة زورق منحوت من الصخر يركبه أربعة رجال ويذهبون منها إلى النيل ويعودون إليها . ولا يزال ذلك الزورق تحت عقد بجانب قلعة الكبش . تلك من خواصها .

١٢ ـ بركة عين شمس

وهذه البركة أيضا من المطلسمات القديمة ، وبجانبها عمود مربع نقشت على جوانبه الأربعة أنواع من النقوش والخطوط الغريبة وعلى ذروتها خط إدريسى يقرؤه الأقباط ولا يقدر مخلوق سواهم على قراءته . ومعنى ذلك الخط الرمزى «انظر إلى وجهى واحفر تحتى ، ويوجد المال حيث يوجد العقل» . فقد هلك كثير ممن حاولوا قراءة هذا الخط وحل رمزه حتى خرج أخيرا ماء من تحته يمكث ستة أشهر بحيرة ويجف ستة أشهر ولا يزال بعض المغاربة المنقبين عن الدفائن يحفرونها حتى هذا الوقت .

وخلاصة القول أن بالقاهرة أربع عشرة بركة لكل واحدة منها خاصية . فقد أنشأ كل بركة منها أستاذ فنان فى الأزمان القديمة وجعل لها طلسما ولا تزال أحكامها نافذة وهى برك تزيد القاهرة مجدا وبهجة وتلطف جوها وتحيى أهلها بمائها الزلال .

فلذا لا تكون فيها الضفادع والحيات والعقارب من حشرات الماء

١٣ - بركة الحاج

وهذه البركة لاتزال مطلسمة . ومن خواصها أنها إن ملئت منها قربة وأخذت إلى الحاج ثم أعيدت إلى مصر وأفرغ ماؤها فى جرة وحفظ بها سنة لم تغير طعمه .

الفصل الحادى والأربعون

أوصاف بندر بولاق

بولاق مدينة عظيمة على ساحل النيل ذات دور عالية ، على مسيرة ساعة غربى القاهرة تقطعها بين الحدائق والبساتين والحقول . ومساحتها طولا من القبلة إلى الغرب ألفان وخمس خطوات وعرضها يختلف ما بين ثلاثمائة وثمانمائة خطوة ، وهى على ساحل النيل ميناء غنى جدا . ويدير بولاق أغا الرسالة مع مائة وأربعين رجلا من أتباعه ، موكلا من قبل سلطان الزمان . يقدم إلى الباشا عشرين كيسا «إرسالية» سنويا ، ويحصل لنفسه عشرين كيسا مصريا . وقد سجل فى سجل أغا الرسالة عشرة آلاف سفينة جميعا تابعون له ، ينقلون الغلال الميرية من أسوان إلى العنابر اليوسفية ويتم هذا العمل فى بولاق بوساطة «أغا الرسالة» ثم إن إدارة تلك السفن تابعة لـ «معرِّف البحرين» فهى تسافر إلى الصعيد لنقل الغلال منها مقيدة بسجلاته .

وأما الحكم الشرعى فى مدينة بولاق فتابع لقاضى القاهرة ، يقيمه نائبه الحامل لرتبة الثلاثمائة ، وأما تحصيل الأموال الميرية فيحصِّلها أمين الجمارك يعاونه فى ذلك مئتان من رجاله فى إدارة دفتردار القاهرة وهو ملتزم ذلك بكيسى مصرى عن كل يوم ، وكذلك تتدخل فى إدارة بولاق فرقة من الانكشارية المصرية برياسة ضابط انكشارى ، وهى تقيم بثكنة خاصة بها أمام مركز أمين الجمرك . وهى خانقاه الحاج بكتاش المزين جدرانه الداخلية بأنواع من الأدوات والأسلحة ، ومن القانون المتَّبع أن يقوم فى كل شهر أمير مصرى بالمحافظة عليها مع مائة نفر من أتباعه ، وإذا انتهى الشهر جاء أمير آخر .

وتنقسم مدينة بولاق إلى خمسة وأربعين حيا ، مجموع دورها ستة آلاف وسبعمائة دار عامرة وبها ثلاثمائة وستون محرابا وخمسون منبرا (خطبة)[1] وأعظم جوامعها :

جامع السلطان الملك الظاهر

جامع كبير فى السوق السلطانية ، أقيمت سقوفه المنقوشة على اثنين وثلاثين عمودا رخاميا عاليا ، وهو فريد فى مدينة بولاق وليس له نظير ، وأما ما فى زجاجه وسقوفه من النقوش فكأنها «أرتنك مانى النقاش» . ومنبره المطعم بالصدف لا نظير له إلا فى

(١) يقصد المساجد التى تُجمع فيها الجمع . (د . السعيد) .

جامع سيناب . وله محراب منقوش نقشا عجيبا ، كتبت فى جوفه بالخط الجلى المذهب المحلى باللازورد الآية الكريمة ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ وهذه الآية منقوشة على الرخام بخط ياقوت المستعصمى ، وقد نقشت تحت الآية بالخط الجلى أيضًا العبارة الآتية :

«أمر بإنشاء هذا الجامع الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر بن محمد بن چقمق ابن أبى سعيد فقير رحمة الله عليه» .

وحرم هذا الجامع مفروش بالرخام ، وله ثلاثة أبواب ومنارة ذات ثلاث طبقات :

جامع سنان باشا

جامع نورانى بالقرب من النيل ، ذو قبة مدوَّرة معقودة بالجص قطعة واحدة على الأسلوب التركى ، مغطاة بالرصاص . محرابه ومنبره تحفتان فنيتان . ومساحته مائة وخمسون قدما طولا وعرضا ، وأواوينه الخارجية تعلوها قباب مغطاة بالرصاص . وهذا الجامع ليس مزيَّنا بالرخام الملون كجوامع القاهرة ، ولكنه بناء بسيط جميل لايزال معماريو مصر يشاهدونه معجبين به كيف يستطيع أساتذة الفن الأتراك أن يعقدوا قبة هائلة كهذه قطعة واحدة ، لأن معظم القباب المصرية بناء مدوَّر من خشب السنط أو سقوف أو قباب صغيرة مبنية بحجارة كما فى جامع الجانبلاطية ، وأما قبة جامع سنان باشا فقبة مدورة ظريفة مبنية بالآجر كأنها خرجت من قبة الفلك . وهذا الجامع على ضفة النيل فليس له صحن ، وبجانبه ميضأة بها صنابير للوضوء ، وله منارة رشيقة على الأسلوب التركى وبجهته القبلية حديقة للورد ، ولا تزال أوقافه عامرة .

وهناك جامع أمام التكية الكلشنية يدعى «جامع ذوقداس» بدون صحن أيضًا ولكنه كبير الجماعة ، وله منارة قصيرة ، ثم جامع «الأستادارية» ، وما عداها كلها مساجد . وفيها إحدى عشرة مدرسة وست دور للقراء وثلاث دور للحديث وأربعون كتَّابا لتعليم الصبيان ، وست تكايا لإقامة الدراويش ، منها تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى بضفة النيل بها ثلاثون رجلا من العارفين بالله ، قد أتموا فنون المعرفة وبلغوا رتبة الروشنية (النورانية) ، فكل منهم محب لله عاشق ، وتقام فى هذه التكية حفلات عظيمة تستمر يومين وليلتين فى مولد السيد أحمد البدوى ، تُتْلى فيها قصص المولد النبوى ويُدعى إليها أعيان القاهرة ،

ويقوم الدراويش متواضعين بخدمة المدعوين شيوخا وشبانا ، وتقوم السفن البدوية بحفل عظيم حتى الصباح .

وببولاق ثلاثة وسبعون خانا بين كبير وصغير ، ولكل خان باب حديدى كأبواب الحصون ، ويحتوى بعضها على مائتى حجرة وثلاثمائة حجرة ، وبحرم كل خان زاوية . وأكبر الخانات وكالة الزيت ووكالة النطرون ووكالة سنان باشا ووكالة القرامانلى ووكالة الأرز ووكالة اليميش ووكالة ذو الفقار كتخدا ووكالة الكتخدا إبراهيم القيصرى ووكالة «قولقيران» كلها مشهورة ومبان متينة كالحصون ، وباقيها وكالات ذات مائة حجرة ومائة وخمسين حجرة ، يقيم بها تجار يملك بعضهم ما قيمته خزينة مصر ، ولهم شركاء وعملاء فى الهند والسند واليمن وعدن وفى بلاد الفرنج والأتراك ، ثم إن هناك مائتى مخزن على ضفة النيل منها اثنا عشر مخزنا ميريا تحفظ فيها غلال مكة والمدينة المنورة ، فمنها الشونة الصغرى وشونة الدشيشة الكبرى وشونة الدشيشة الصغرى والعنبر المحمدى ، والشونة المرادية وشونة الخاصكية ، وهى لزوجة السلطان محمد الرابع ، فاتح قندية وقمانيجه ، التى أنشأت مستشفى ومضيفة ومطعما فى مكة المكرمة فأنشأ مصطفى أفندى أمين الشعير ، هذه الشونة لحفظ غلال تلك المؤسسات ، وإنها شونة لو ضربت بعشرة مدافع مدة شهر ما هدمت ، ومحيطها ستمائة خطوة .

وبمدينة بولاق ستة حمامات ، منها حمام سنان باشا على ساحل النيل ، وهو حمام مشرق ظريف على الطراز التركى ، يُصعد إليه بست درجات سلم .

وبها ألف وستمائة حانوت ولكن لايوجد بها سوق لبيع التحف (بوستان) وبسوق سنان باشا المحوزة من طرفيها ببابين حديديين مائتا حانوت ، وبمنتصفها ساحة تباع فيها التحف الثمينة بأثمان زهيدة .

وبها عشرون مقهى عظيمًا مزينًا وهى الأماكن التى يستريح فيها التجار وأسواقها مزدحمة ازدحاما يعجز الإنسان عن السير فيها ، لكثرة ما يجتمع فيها الناس من كل أطراف العالم ، ترد إليها أنواع السفن عن طريق النيل من بلاد الترك والفُنج محملة بأنواع السلع ، فهى بندر الولاية كلها وغنية بالطعام والشراب والأخشاب وغيرها مما يحتاج إليه الناس من السلع ، وسكانها تجار ونجارون بناة سفن .

دار الصناعة (الترسانة) السلطانية

الترسانة السلطانية بناء متين بالقرب من المرفأ جدرانه الأربعة كجدران الحصون بيد أنها بلا متاريس ، ومساحة ومحيط الترسانة الدائرية ألفا خطوة بداخلها مئات الآلاف من خشب البناء الذى يرد من تركيا لإرساله إلى اليمن ، وبالترسانة أربعون رجلا يتبعون قبطان السويس ، وهم المدير (كتخدا) والملاحظ وأمناء المخازن والحراس والبوابون . وبناؤها مستطيل مكشوف من فوقه وداخله مكتظ بأنواع الآلات والأدوات ، وبه مخازن مملوءة بالنحاس والرصاص والقصدير والحديد ، وله بابان عاليان يطل أحدهما على البر من الجهة الجنوبية وثانيهما على ساحل النيل . ولما عُين الكتخدا إبراهيم باشا لحرب اليمن أراد أن تكون تلك المهمات الحربية تحت نظره دائما فبنى على الباب المطل على النيل قصرًا عظيما له فى بولاق وإن يكن له نظير فهو قصر السبتية . ففيه ضروب من الحُجر والمخازن والمطابخ وفى هذا القصر الملكى جهّز ما يلزم للحرب من العتاد .

وإذا سرت من الترسانة إلى أسفل مدينة بولاق شمالا عند قصر معروف بقصر السبتية ، وهو قصر ذو عدة طبقات فيه قاعات بها أحواض وفساقى ، وتطل شرفاته ونوافذه كلها على النيل ، وهو جميل المنظر ، طلق الهواء ، يقصده الوزراء لتغيير الهواء والاستجمام مرة فى كل أسبوع ، وبولاق معروفة أيضًا بكثرة الأولاد ، فهم يولدون بأمر الله أزواجا أزواجا ، وسكانها أهل طرب وأهل ذوق وشوق وعشق وتوحيد ، ولهم حدائق غنّاء هنا وهناك .

الفصل الثانى والأربعون
فى وصف مصيف السلطان قايتباى

كان السلطان قايتباى ملكا غنيا قويا ، مغرما بالركوب والصيد والقنص فعمّر هذه المدينة معجبا بجوها ، وذلك لأن بمصر خمسين يوما يطلقون عليها الخماسين يصاب المصريون فيها بالنحس والكثافة وأنواع العلل ، فيحيون خمسين يوما فى ضعف وخمول وكسل ، يزعجهم فيها الطاعون ويزيد اضطرابهم ، وقد تتأثر أطفالهم الصغار الرضع فيموتون بما يصيبهم من الصداع ، كما يصاب بعض المسنين فى أسنانهم ووجوههم وربما يموتون ، وقد نشأ ذلك من أن قوم موسى دعوا على قوم فرعون فنزل عليهم البلاء خمسين يوما هى أيام الخماسين التى يخشاها المصريون ، فى حين أن والى مصر يبتهج فيها لأن قرى كثيرة تنحل فيها فتعود هى وأموالها إلى الباشا الوالى ، ومن العجيب أنه بينما تحل تلك الأيام النحسة على المصريين فتزعجهم ، يحل الربيع على الأتراك بأيامه اللطيفة فيزيدهم بهجة وشرورا ، وكان السلطان قايتباى يقيم بهذه المدينة ستة أشهر لإزالة خمول أيام الخماسين ، فلذلك عمرها ، وهى فى موضع جميل مفرح طلق الهواء معروف بمصيف قايتباى حتى اليوم ، فالقاهرة وبولاق ومصيف قايتباى تكون مثلثا طول كل ضلع من أضلاعه مسيرة ساعة بين حدائق وبساتين ، وبالجهة الشرقية من القاهرة خارج باب النصر طريق عام يؤدى إلى العادلية ، وهو طريق استانبول وطريق الحج ومدينة قايتباى على ذلك الطريق ، وقد كانت على يمينه ويساره عشرة آلاف منزل عامر . حتى إذا انتقلت مصر إلى آل عثمان ودالت دولة الجراكسة انقرضت قصورهم ودورهم فلم يبق منها سوى أحد عشر قصرا ونحو ألف بيت من بيوت الفقراء ، وسبعين حانوتا وحماما وسبعين محرابا وسبعة عشر جامعا مما بناها السلاطين ، ومنها :

جامع السلطان قايتباى

هذا الجامع أكثر المساجد عمارا وزينة ، يُصعد إليه بثمانى درجات حجرية وليس به عمود قط . وقد حُملت سقوفه المنقّشة المذهبة على أربعة عقود عظيمة وكسيت جدرانه الأربعة من الأرض إلى السقف باليشَب الهرقانى المموه كالسحب والرخام السماقى المختلف الألوان ، وقد نُحتت كلها نحتا دقيقا ولمعت ثم ركبت تركيبا على صورة الفسيفساء monaique ، وله منبر لم يصنع قط أستاذ من أساتذة الخرط الدقيق منبرا

مُطعَّما بالصدف ومذهبا مثله ، ومحرابه الذى يشع نورا كأنه الفسيفساء الهندى المطعم بالفصوص ، ودكة المبلغين المحلاة تحفة من سحر الإعجاز ، وقد فُرشت أرضه بالحجارة الدقيقة فرشا بديعا . وتزينه ضروب من الثريات والقناديل ، ويثوى السلطان قايتباى فى قبة عالية مبنية بالحجارة متصلة بالجامع ، وهى قبة نيرة مفروشة بطنافس زاهية الألوان .

مناقب أثر قدم النبى ﷺ

فى قبة السلطان قايتباى أثر قدم النبى عليه السلام على حجر . وقد حدث أن كان السلطان أحمد خان العثمانى يبنى الجامع الجديد[1] فقال له أحد الوشاة : «مولاى ، إن بتربة قايتباى بمصر ، قدم رسول الله ، بقى بين العرب ، وهو خليق بأن يكون فى جامع مولانا» فما إن سمع السلطان أحمد هذا الكلام حتى أرسل الرئيس مراد إلى مصر حاملا أمره الشريف إلى والى مصر فبادر إلى قلعه من مكانه ، وبينما هو يعمل فى قلعه قامت ريح صرصر عاتية مصحوبة برعد وبرق ، فعدل الوالى عن العمل ورفع الأمر إلى الأعتاب السامية شارحا ما حدث . فأرسل السلطان رئيس حجابه حاملا أمرا آخر . حتى إذا وصل إلى القاهرة تُلى «إنعام شريف» فى قبة قايتباى وقلع القدم وسُلِّم إلى الرئيس مراد بالإسكندرية سبعة أشهر ، وفى ليلة وصوله أمر السلطان أحمد بإرساله إلى جامع أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه ، كما أمر الجيش العثمانى بإقامة حفل عظيم ، فلما طلع النهار خرج أهل استانبول كبارا وصغارا ، شيوخا وشبانا رجالا ونساء لاستقبال القدم الشريف وانتظروه . وذهب السلطان أحمد بموكبه العظيم إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى على حسب العرف العثمانى ، فمسح وجهه بالقدم المبارك ثم وضعه فوق رأسه ، وبينما كان يسير والقدم فوق رأسه نطق لسانه بداهة بهذين البيتين :

«هذه صورة قدم رسول الله ليتنى أحملها فوق رأسى دائما تاجا لى

إن صاحبها ورد حديقة النبوة فعجل يا أحمد وامسح وجهك بقدم ذلك الورد»

وقام الدرويش عمر الكلشنى ـ سلطان المغنين وأستاذنا فى الموسيقى ـ بتلحينها من مقام «پنجكاه» وجعلهما من التسابيح التى تتلى فى ليالى رمضان ، وإنها لنغمة موسيقية عظيمة ، وبعد ذلك وضع السلطان أحمد صورة القدم الشريفة بنفسه بين ذراعى

(١) يلديز = جامعه

نقيب الأشراف من العترة الطاهرة فى حفل عظيم . فقد خارت قوى نقيب الأشراف أثناء نقلها إلى استانبول من تزاحم الناس وصياحهم فزعين جزعين قائلين : «شفاعت يا رسول الله» حتى اضطر جنود الحرس السلطانى والعسس ورئيس الشرطة إلى التدخل ومنع الناس باستعمال القوة والقسوة بلا شفقة ولا رحمة ، ومع ذلك نقل القدم إلى الجامع الجديد بمشقة كبيرة .

فى بيان ما حدث للسلطان أحمد فى سبيل قدم النبى ﷺ

وفى تلك الليلة رأى السلطان أحمد فيما يرى النائم أن جميع ملوك المسلمين عقدوا مجلسا ورسول الله قاضى المجلس ، فقام السلطان قايتباى وقال يا رسول الله ، إن لى قضية شرعية مع عبدك أحمد من آل عثمان ، فادعه إلى تنفيذ شرعك الشريف . قال الرسول إن أحمد لى ، خدمنى وخدم البيت الشريف ، ولكنى أدعوه ، ثم قال قم يا أحمد ؛ فما أسرع ما قام أحمد قائلا لبيك يا رسول الله ومثل أمام سيد الكونين محييا «السلام عليك يا رسول الله» ورد عليه الرسول« وعليكم السلام يا أحمدى» ثم قال يا أحمد إن هناك من يشكو منك ومن عشقك[1] ، فادفع عن نفسك دفعا شرعيا أمام خصمك وكان السلطان أحمد واقفا فى مكان أدنى والسلطان قايتباى فى مكان كما أمره ، ثم قال الرسول قل يا قايتباى ما تشكو؟ قال قايتباى يا رسول الله ، إنك تعلم أنى جاهدت فى سبيل الله ودينه وبنيت ثمانمائة مسجد بأموال الغزو ثم بنيت جامعا اخترته أن يكون موئلا لنفسى واشتريت من السيد على الأبطحى من العترة الطاهرة صورة قدمك الشريفة بأربعين ألف ذهبى ، وحفظتها فى صندوق ذهبى بتربتى ، وصرت أكتسب ضمنا ثواب آلاف الفاتحة من زوارها الذين كانوا يزورونتى أيضًا فتنالنى الرحمة ، فلما سرقها هذا الظالم حُرمت الرحمة ، والأمر لك يا رسول الله ، قال الرسول لأحمد : وماذا تقول أنت يا أحمد؟ قال أحمد يا رسول الله إنى لا أزال وكيلا مطلقا وخادم الحرمين الشريفين ، وقد بلغنى أن أخى عبدك قايتباى بنى بضعة جوامع لاكتساب السمعة والشهرة وأن مرور الزمان وتقلب الأيام أثرا فى جامعه فأشرف على الخراب ، وأن صورة قدمك الشريفة قد غمرها التراب وتدوسها أقدام نجسة ، فأحضرتها إلى بلاد الترك اعتمادا على ولايتى ووضعتها فى

(١) أى عشقك إياى الذى أغراك بنقل أثر القدم إلى بلدك . (د . عزام) .

جامعى باحترام وإجلال والأمر لسيد الكونين ، وسكت ، قال قايتباى «إنى كنت متوليا الأوقاف بلا غرض فلم لم تقم بتفتيشها وفحصها بالعدل وإصلاح ما تخرب منها؟ ولم أدخلت إيرادها فى خزينة الدولة؟ فقد كانت أوقافى كافية لإصلاح عشرة من أمثال ذلك الجامع! . فما أن سمع السلاطين القدامى كلام قايتباى حتى تصايحوا قائلين : يا رسول الله! إن بنى عثمان خربوا أوقافنا وأضافوا أموالها إلى أموال الدولة منذ استيلائهم على مصر ، فخذ مصر منهم وسلم أمورها لدولة أخرى ، قال الرسول ﷺ : كلا إنهم سيظلون بأمر الله حتى ظهور المهدى ، وسيأتى منهم ملوك بعدد حروف آية الكرسى من «الله لا إله إلا هو» حتى «إلا بإذنه» ، ويملكون مصر وجميع بلاد الكفار ، حتى يزول الكفار من ظهر الأرض . ثم يذهبون إلى أرض الدنيا الجديدة وتقوم أشراط الساعة ، ولكن هنا حكمة يا أحمد . كان لى بمصر محبون من الضعفاء متعطشون لمسح وجوههم بتراب قدمى ، وكانوا ينالون مرادهم هذا بمسح وجوههم بهذه الصورة ، وأنت نلت هذا الثواب مصداقا للقول المشهور «الدال على الخير كفاعله» فعجِّل بإرسالها إلى تربة قايتباى الذى اشتراها بأموال الغزو . وانفض المجلس بذلك .

استيقظ السلطان أحمد من النوم ، فدعا شيخ الإسلام زكريا أفندى ، وقدسى أفندى نقيب الأشراف ، وقرا سنبل على أفندى ، وأستاذنا أوليا أفندى ومحمود الأسكدارى ، ووالدنا الدرويش محمد ظلى ، والدرويش عمر الكلشنى ، وقص عليهم ما حدث فى منامه بالتفصيل فطلبوا إليه إعادة وقف الله إلى مكانه بأسرع ما يمكن ، فأمر السلطان بإخراج قنطارين من الفضة الصافية من الخزينة ، وأمر أب الحقير الذى كان رئيس الصاغة بالقصر السلطانى فى ذلك العهد بعمل خزانة للقدم ، فعمل فى أربعين يوما ولياليها خزانة منقوشة بديعة مزينة بالميناء والذهب والخطوط الجميلة ، إنها تحفة فنية لا نظير لها فى القاهرة حتى اليوم ، وما إن تم صنع الخزانة حتى وضعت فيها صورة القدم وأرسلت إلى الرئيس مراد لإيصالها إلى الإسكندرية ، ومن الغريب أنها وصلت إلى الإسكندرية فى سبعة أيام بينما نقلت إلى استانبول فى سبعة أشهر عانى فيها الرئيس مراد أنواعا من المشاق والأخطار ، ونقلت من الإسكندرية إلى القاهرة فى يوم ، وأعيدت إلى مكانها الأول فى مسجد قايتباى باحتفال عظيم حضره آلاف من أعيان القاهرة ، ولله الحمد ، فقد مسحت بها وجهى وانشرح صدرى ، وشاهدت خطوط أبى الجميلة على تلك الخزانة البديعة ، وقد نُقشت عليها بالذهب هذه الأبيات :

بشـوق حضـرة السلطان أحـمـد — زيارة مـوطئ القـدم المكرم
فـحـركـه بجـاذبيـة اشـتـيـاق — على إقـدام أقـدام فـقـدّم
وسـيـره إلى قـسطنطينيـة — فـقـال له تقـدم خـيـر مـقـدم
وأدخل داره باليـمـن حـبـا — وتعظيـمـا لصاحـبـه المـعظم
حـبيب الله سـيـدنا مـحـمـد — عليـه ربنا صلى وسلـم
وأرجـعـه بإعـزاز عظيم — إلى تلقـاء مـوضـعـه المـقـدم
إلهى عَـمِّـر السلطان أحـمـد — وقـدّمـه على من قـد تقـدم
بحـرمـة صـاحب القـدم المعلى — له الدرجـات فى الأفـلاك سَلّم

نقشت هذه الأبيات كلها على الفضة الصافية بخط أبى وحفره ، وبإزاء قدم النبى صورة قدمين أخريين داخل خزانة ، وقد ملئت الخزانة بالكافور والمسك والعنبر ، ثم إن بهذه القبة بساطا (سجادة) معلقا على الجدار ، نسج عليه الفنان أبياتا آية فى الجمال ، يتضوع بالكافور والمسك والعنبر والورد ، فيتبرك الزوار بمسح وجوههم به مترحمين على قايتباى ، إنهما تحفتان فنيتان : قبة مصنّعة وجامع نيِّر . ولكن ليس بالجامع صحن وله منارة عالية ذات ثلاث طبقات ، وسبيل وكتاب ، ومدرسة ودار للقراء وعمارة لإطعام الخاصة والعامة . ثم إن هناك خانا ينزل عليه الضيوف وخانا للمجاورين ، وهو خان عظيم يحتوى على مائتى حجرة ، ولكن لا يقيم به أهل العفة خوفا من شر المضرين ، فسكانه جميعا فقراء ، وبه نحو أربعين حانوتا ، إنها لأوقاف هائلة لملك عظيم ، فقد شهدت مرة محاسبة ناظرها فعلمت أن لهذا الجامع عشرة آلاف كيس إيرادا سنويا يحصل من القرى ، ولهذه الأوقاف ثلاثمائة خادم ، وللسلطان قايتباى مسجدان فى كل ولاية فتحها ، ولا يزال له سبعمائة جامع لإقامة الجمعة والخطبة ، كما له آلاف من الخيرات والحسنات ، وقد أنشأ ثلاثمائة من الخيرات بمكة المكرمة وحدها ، رحمة الله عليه .

جامع السلطان فرج بن برقوق

مساحته مائة وثمانون قدما طولا فى مائة وعشرين قدما عرضا ، وسقوفه الزرقاء المذهبة محملة على ثمانية وثلاثين عمودا مبنيا ومنقشا نقشا عجيبا ، وحديقته التى تتوسط حرمه مزينة بأشجار النخل والنبق ، ودورة المياه أيضًا فى الحرم ، وهو جامع كبير

مزخرف مزين إلا أنه متطرف فى الصحراء ، فلذا لايقصده من المصلين إلا القليل ، وله منارتان لو اجتمع حجارو عصرنا ورخاموه لما استطاعوا أن يزيدوا عليهما أو أن ينقصوا منهما شيئا فقد بنيتا متناظرتين فى ثلاثة أدوار ، ونقشت على الباب الذى بيسار الجامع الآية الكريمة «بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾» ثم هذا التاريخ : «أمر بإنشاء هذه التربة المباركة بفضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان برقوق الشهيد تغمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جنته يا رب العالمين . وكان الفراغ من هذا المكان المبارك فى سنة ستمائة» .

ويثوى السلطان برقوق وأولاده فى قبتين مقامتين على رسم واحد وقطعة واحدة بحجارة منقشة بجانبى هذا الجامع ، وبالضريح مصحف من كلام رب العزة لا نظير لخطه فى جوامع أخرى ، وفيه أجزاء من مصحف آخر يسمى «مصحف البنت» (قيز كلامى) ، وهو مصحف كبير آية فى جمال الخط كتبته فتاة طاهرة فى الثانية عشرة من عمرها ، وإذا كانت الكاتبة من بنات السلاطين فقد دفنت فى هذه القبة . وخلاصة القول أن هذا الجامع مشرق طاهر فوق كل مدح ووصف .

جامع السلطان الأشرف

هو جامع مرتفع عن الأرض ، معقود كله بالجير وليست به خشبٌ ، وفوق بابه منارة بسيطة وشبابيكه كلها من النحاس الأصفر ، وبه سبيل وساقية ، وخانقاه ، وكتَّاب لتعليم الصبية وحوله نحو مائة منزل ، وبالقرب منه عبر الطريق :

جامع الأمير الكبير

وهذا الجامع ذو المنارةالمبنية ثلاثة أدوار ، فوقانى أيضًا وليس له صحن ، وبابه مصنوع على رسم باب جامع السلطان قايتباى ، وهما لصانع واحد ، وقد نقش عليه تاريخ «عشرين وتسعمائة» والأمير الكبير مدفون فى قبة متصلة بالجامع ، وقبته المبنية بالحجارة منقوشة داخلا وخارجا بنقوش دقيقة . فهى فضلا عن علوها الشاهق قبة لا نظير لها فى القاهرة ولا عديل ، وجدران الجامع مكسوة داخلا بضروب من الأحجار الثمينة . وبجانب الجامع سبيل يعلوه كتَّاب لتعليم الصبية ، وبإزائه نحو عشرين حانوتا وخان به نحو مائتى حُجرة لإقامة المتزوجين ، ويتصل بهذا الجامع جنبا بجنب :

جامع السلطان إينال

جامع مرتفع عن الأرض لاصحن له ولا عمود ، فقد حُملت سقوفه المنقوشة المذهبة على أربعة عقود متينة ، وصنع محرابه العجيب بالرخام الدقيق ، ومنبره الخشبى مصنوع صناعة فنية جدا ، وفُرشت أرضه بالرخام فرشا سحريا ، وزجاج شبابيكه بلور نقى ، وقد أصلحه المرحوم محمد القندقى (قونداقجى) كتخدا الانكشارية فجعله قصرا من قصور الجنة منقوش الجدران داخلا وخارجا . وعلى بابه منارة رشيقة كشجرة السرو بحديقة الورد . ليس هذا الجامع كبيرا كسائر الجوامع بيد أنه تحفة فنية زينة وزخرفة ، وقد نقشت على رخام أبيض بجانبى بابه اليسارى المطل على الشارع العام الآية : ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء﴾ ثم التاريخ الآتى «أمرنا بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر إينال عز نصره تاريخ ربيع الأول عام ستين وثمانمائة» .

وبمقابله على الشارع العام جامع السلطان الغورى ، لو تم بناؤه ، لما كان فى العالم بناء أعظم منه ، ولكنه لم يتم لانهزام السلطان الغورى فى قتاله مع السلطان سليم واختفائه .

جامع السلطان چقمق

وهذا جامع ظريف متين ذو منارة قصيرة ذات طبقتين ، ولكنه متطرف قليل الجماعة .

جامع السلطان فرج

جامع ملكى مرتفع عن الأرض على الطريق العام ، شبيه بناؤه ببناء الكيانيين[1] بناء ليس كبير الحجم ولكنه ظريف كقصر من قصور إرم ذات العماد . فقد نقشت جدرانه كلها داخلا وخارجا ، وصنع محرابه بالرخام صنعة تمثل الأويمة الفخرية ، ومنبره الخشبى تحفة فنية . وشبابيكه كلها أقفاص نحاسية ومطلة على الشارع . وأما ما فى منارتيه الرقيقتين المتشابهتين من الفنون المعمارية فمعجزة ، وله باب إلى الشرق ، معقود عقدا فنيا مزخرفا بدلايات بديعة ، وبجانبه دار للاستراحة يستجم فيها بعض أعيان

---

(١) الكيانيون أسرة من ملوك الفرس فى الأساطير الفارسية ، انظر الشاهنامه . (د . عزام) .

القاهرة ، وبإزائه عبر الطريق متنزه ، به قصر منيف يشتمل على قاعات عظيمة ، يحضر إليه عظماء القاهرة مرتين فى الأسبوع للاستجمام والراحة والاستمتاع بلعب الجريد وإطلاق النار . وبالمتنزه حوض عظيم وباتصال هذه المصطبة وكالة البهار التى كانت تحصَّل فيها الرسوم الجمركية للبهارات الواردة من الهند أيام مقصود باشا ، وقد كان عملا معقولا ، فإنها وكالة عظيمة تحتوى على مائتى حُجرة يخالها من يشاهدها من بعد قلعة .

جامع طومانباى
أى العادلية

جامع مرتفع عن الأرض عشر درجات وليس بداخله ولا بخارجه عمود . أقيمت سقوفه المنقوشة على أربعة عقود ، وكسيت جدرانه بأحجار مختلفة الألوان . ومحرابه من الرخام ومنبره من خشب الصنوبر المنقوش ، ودكة المبلغ المقامة على عمودين تحفة فنية وفرشت أرضه بالرخام ذى ألوان مختلفة ، وأقفاص شبابيكه من النحاس الأصفر ، وله بابان مصنوعان بالمقرنصات ، أحدهما فى جدار المحراب والآخر فى جدار القبلة[١] ، وليس له حرم محيط به ومنارته الرشيقة العالية ذات ثلاث طبقات ، وقد جعله ناظره بما أجرى فيه من الإصلاحات كقصر منيف . ويثوى السلطان طومانباى فى تركيبة من الرخام تحت قبة شاهقة بيمين الجامع . ونُقش على القبر بعد آية الكرسى ، تاريخ «سنة ست وتسعمائة»[٢] .

ملك طومانباى بعد انهزام السلطان الغورى أمام السلطان سليم ، وحارب تسعة أشهر حتى وقع فى يد سليم وشنقه على باب زويلة . ثم صلى عليه بنفسه ودفنه فى هذه القبة ، وهى قبة مبنية بالحجارة منقوشة ومذهبة داخلا وخارجا وظاهرها مغطّى بالجير وليس رصاصا ، ولها من جوانبها الأربعة أسوار متينة يمكن الاعتصام بها حين الحصار . بداخلها نحو مائة حجرة وقاعة ومضيفة وزاوية ودور لاستراحة الباشوات ، ومخازن ومطابخ ومقاهى وسواقى وأحواض وثلاثة أسبلة . وأما القصر المعروف بقصر العادلية ففى الميدان الخارجى ، كان طومانباى يقصد إليه مرة فى كل أسبوع فيعقد فيه مجلسا للقضاء وإقامة العدل .

---

(١) لعلها جدار القبة . (د . عزام) .

(٢) من المعروف أن طومانباى مات سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) . (د . متولى) .

جامع السلطان الطويل

جامع أرضى بمنارة واحدة ولكن لم يكن لى نصيب فى دخوله والصلاة فيه ، وقد التزمت والحمد لله ، وصف الجوامع التى دخلتها للصلاة ولتحصيل العلم .

وبمصيف قايتباى جوامع ومنارات ومساجد ومدارس وخنقاوات وخانات وحمامات وأسبلة وسواقى لا عد لها ، تدل على عمرانها فى الزمان القديم ، وأنها كانت مدينة معادلة للقاهرة عمرها الله ، وهى متخربة الآن ولكنها صحية لطيفة الحر فلذا لا يزال يقضى فيها أهل الذوق السليم من القاهريين أيام الخماسين المنحوسة ، مع أولادهم . ومنهم من يرسل أطفاله الرضع إلى مرضعات هناك لينشأوا أصحاء جمالا ذوى عيون سليمة ، لأن الأطفال الناشئين فى القاهرة تشبه عيون المولدين من العبيد ، وهذا مثل فى القاهرة ، وإذا حملت الزوجة فى أيام الخماسين أنجبت بأمر الله ولدا مصابا بأمراض ولا يكاد يبلغ الشهر الخامس أو السادس من عمره حتى تحدث خروق فى جمجمته تنزل منها مادة قبيحة لونها كلون البوظة ورائحتها كرائحة الخل ، فيموت . فى حين أن الأطفال الناشئين فى مصيف قايتباى لا تصيبهم تلك الآفة ، فمصيف قايتباى مكان طريف ذو هواء طلق منعش ، ولهذا السبب ينتقل إليه الناس .

الفصل الثالث والأربعون

مدينة الفسطاط العتيقة أى أم الدنيا

وردت أوصاف مصر القديمة ودرجة عمرانها فى آلاف الكتب القيمة . ولكنى سوف أذكر منها ما شاهدته بنفسى . فقد قيل أنها كانت بعد طوفان نوح تمتد من الشمال إلى الجنوب مسيرة ثلاثة منازل ، فجاء بختنصر وخرب الشام والقدس وبلبيس التى بأرض حسان والفسطاط ، ولكنها نهضت بعد ذلك نهضة أخرى ، وفى عهد الرسول ﷺ اتفق هرقل ملك الروم مع ملك أسبانيا وهاجموا مصر بألف سفينة عن طريق دمياط ورشيد أيام فيضان النيل ، وتقدما صعدا حتى الفسطاط وانتزعوها عنوة من الملك المقوقس!![1] .

كان بمصر القديمة[2] . فى عام ٤٣٥هـ ستة وثلاثون ألف مسجد ، وثمانية آلاف طريق ، وألف ومائة وسبعون حماما خاصا وعاما ومئتا ألف حانوت وفى عام ٤٣٨هـ قاتل عبيد المستنصر بالله الفاطمى فى القاهرة فقُتِلوا ووقع فى البلاد غلاء شديد وانتشر مرض الطاعون ، فلاذ أهل الفسطاط بالمستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على عظيم الفاطميين ، شاكين مما حل بهم من البلاء . فاختار المستنصر عشرة من أهل الفسطاط وبعثهم إلى القسطنطينية ، ولما بلغ هؤلاء القسطنطينية أرسلوا رجالا منهم إلى طغرل بك أمير عشيرة السلاجقة الذى كان مقيما بمدينة «أبا سلوغ» لطلب الذخائر وبينما كانت الذخائر المطلوبة فى طريقها إلى مصر توفى المستنصر بالله ، فعادت إلى الروم ، فهلكت مصر من القحط والغلاء ، ثم أرسلت رسل مرة أخرى إلى أرطغرل بك الذى طلب إلى تكور (حاكم) القسطنطينية ذخائر لإرسالها إلى مصر ، ولما كان الرسول بالقسطنطينية استأذن فى إقامة صلاة الجمعة فى دير أيا صوفيا فأذن له بذلك ، فصلى مع ثلاثمائة من المسلمين فى كنيسة أيا صوفيا وخطب باسم القائم بأمر الله الفاطمى . ولكن الخليفة عجز عن تحمل المجاعة ، فهجم الجيش المصرى على كنيسة القيامة بالقدس ونهبها قبل وصول الذخائر المطلوبة من قسطنطينية ، وما إن بلغ نبأ نهب الكنيسة مسامع القيصر حتى خرج بألف سفينة ونهب مدن سلفكه وطرابلس الشام وبيروت وصيدا وعكا والرملة من ثغور المسلمين . واستولى عليها وأخذ منها خمسة

---

(١) لم نسمع أن الأسبان هاجموا مصر . (د . متولى) .

(٢) من هنا حتى كلمة «جربلون فى الصفحة التالية منقول من الفصل الثانى والأربعين كما ورد فى نسخة يلديز .

أضعاف ما أخذت من كنيسة القيامة . وفى سنة ٤٥٩ هـ استولى الأروام والفرنج على مصر كذلك فابتليت عشرة أعوام بالطاعون ، فخاف المصريون من استيلاء الكفار على الفسطاط كما استولوا على غيرها .

فى سنة ٣٥٧ هـ قدم جوهر القائد وزير المعز لدين الله من بلاد المغرب وأسس مصر الجديدة على سفح جبل المقطم على مسيرة ساعة من الفسطاط . كان جوهر مملوكا لأبى المعز لدين الله ، فلقب بأبى الحسن ، وهو غلام رومى الأصل ، رباه الطواشى حتى صار وزيرا للمعز لدين الله فى سنة ٣٤٨هـ ففتح مدن فاس وتلمسان ومراكش وطنجة والسودان وأسوان والحبش كما فتح اليمن والعراق وإيران حتى الهند والصين[1] ، فى ستة أعوام ثم عاد إلى المغرب ثم قدم إلى مصر وبنى القاهرة سنة ٣٥٨هـ .

وأما تسمية مصر الجديدة بالقاهرة ففيها روايات أصلحها أن المنجمين اجتمعوا لرصد الكواكب ومراقبة ساعة السعد ، وشدوا حبلا علقوا عليه جرسا ليدقوه حتى تحل تلك الساعة إيذانا بوضع حجر الأساس للمدينة ، وقد وقف البناءون قابضين على الأحجار لإلقائها دون تفويت لحظة ، بيد أنه كما يقال «العبد يدبر والله يقدر» ، حط الغراب على حبل المنجمين فدق الجرس ، ووضع البناءون الأساس فى لمح البصر فبهت المنجمون وصاحوا قائلين«القاهرة» والقاهرة اصطلاح المنجمين تطلق على المريخ جلاد الفلك . فلذلك السبب لا تنقطع الدماء والقتال والنزاع والفتن والفساد عن القاهرة المعزية التى سميت بهذا الاسم لوضع أساسها فى طالع المريخ .

وأما الذى أجرى النيل أمام المدينة فكان «البود» بن قفط بن نصرا بن سام بن نوح عليه السلام وكان النيل يسمى فى ذلك العهد «بُلون» ولا يزال أهل النوبة يسمونه «جربُلون» .

تلك أوصافها قديما . وأما اليوم فهى مدينة قديمة على مسيرة ساعة جنوبى القاهرة على شاطئ النيل ممتدة من ساقية الغورى إلى الجمرك مسيرة ألف وثمانمائة خطوة طولا . ويتراوح عرضها ما بين ثلاثمائة خطوة وستمائة خطوة ، وجهاتها العامرة على شاطئ النيل الذى زُين بقصور عالية مؤلفة من عدة طبقات ، بناها أهل القاهرة مزخرفة بشرفات ومشربيات للاستمتاع بمنظر النيل حين فيضانه ، ومشاهدة الاحتفال بوفائه ،

---

(١) لم يستول الفاطميون على إيران أو الهند أو العراق . ونحن لا نعوّل على كلام هذا المؤلف حين يتكلم فى التاريخ . (د . عزام) .

تحيط بها رياض وبساتين ذات أحواض وفساقى يقصر اللسان عن وصفها . ومجموع ما بها من البيوت الكبيرة والصغيرة أربعة آلاف وستمائة بيت ، وهذه المدينة على ساحل النيل فهى ميناء ترسو فيه السفن والمراكب الآتية من بلاد الفُنج وولاية الصاى Say والنوبة والصعيد والواحات ، ويبلغ عددها عشرة آلاف سفينة ما بين صغيرة وكبيرة فى كل عام .

حكام مصر القديمة

يدير مصر القديمة تسعة رجال ولهم أمير من أمراء مصر الممتازين بالكر والفر والثروة والجاه ، يقيم شهرا بقصر خاص بالأمراء ، مع ثلاثمائة جندى مدججين بالسلاح يظل سماطه المحمدى مفتوحا وموسيقاه عازفة طول تلك المدة للأمراء المحافظين ـ عدا البوابين ـ والقانون المتبع فيها أن من سرق أحد القادمين إلى المدينة أو أحد سكانها وجب على الأمير المحافظ أن يقبض على السارق أو أن يرضى المسروق منه بوجه ما .

وثانى الحكام نائب القاضى الشرعى بمرتب ثلاثمائة وخمسين «آقچه» .

والحاكم الثالث رئيس الحجاب الذى يعينه الوالى وله مائة من الأعوان ، يخشى بأسه الكتبة والأمناء والطراسون والحمّالون زاعمين أنه خازن عنابر سيدنا يوسف . وهذه الإدارة معروفة بدقة القيد والكتابة والنزاهة ، فلا يضيع منها فلس واحد .

والرابع أمين العنابر وهو تابع لأحد ضباط الجيش المصرى ، له مائة جندى وألف رجل من خدم العنابر ، ويتبعه الملاحون كذلك .

وخامس الحكام ضابط انكشارى وله نحو خمسين جنديا .

والسادس أمين الجمرك ، يحصل رسوم الجمركية على السلع الطائرة فى السماء والسائرة فى الأرض والعائمة فى الماء .

والحاكم السابع رئيس شرطة مصر القديمة يقوم بالمحافظة على الأمن فى المدينة ليلا ونهارا مع ستين نفرا من رجاله .

والحاكم الثامن ضابط انكشارى معه مائتا جندى مسلحون من جنود الانكشارية ووظيفته المحافظة على الأمن . ومركزهم تكية بكتاشية بديعة مطلة على النيل ، فى ظلال أشجار باسقة ، فلا تؤثر فيها حرارة الشمس أبدا ، ويقوم السقاءون برش أرضها بماء النيل فهى رطبة منعشة دائما .

والتاسع أمين ساقية السلطان الغورى ، وهو ضابط من الجيش الانكشارى يقوم بخدمة الساقية مع سبعين أو ثمانين من رجاله ويروى القاهرة .

حصن مصر القديمة

«ذكر فتح المسلمين مصر من أيدى الكفار وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار» .

إن المدينة التى يسميها المؤرخون جميعا مصر هى مصر القديمة التى عمرت ثمانى عشرة مرة وسميت بثمانية عشر اسما ، فمن أسمائها «أمسوس» و«قصر الشمع» ، سميت بهذا الاسم الأخير لوجود مصباح مطلسم فوق برج شاهق بها ، ظل مضيئا فى عهد طوفان نوح حتى موسى ﷺ ، ولا يزال أساس ذلك البرج ظاهرا حتى اليوم ، ثم بنيت مدينة خارج الفسطاط باسم «المعسكر» بناها أبو عون بن عبدالملك سنة ٢٢هـ ، ثم قدم أحمد ابن طولون من ديار العراق سنة (٢٥٢هـ) وعمر مصر ، أقام أولا بالقصر الذى بناه أبو عون ، ثم بنى مدينة القطائع الظريفة ، وقد كانت مدينته تحتوى على مائة ألف منزل عظيم ، وظلت هذه المدينة عاصمة الملك حتى دالت دولة بنى طولون ، ثم قدم جوهر القائد بجيشه العرمرم من بلاد المغرب وبنى القاهرة ، حكم مصر ستة عشر ملكا من المغاربة والعجم ، أقام بعضهم فى المعسكر وبعضهم بالفسطاط وبعضهم بالقطائع ، أولهم محمد ابن سليمان وهو مملوك أحمد بن طولون وكاتبه ، ولقب بالكاتب لكونه من رجال لرد[1] lord ولا يزال له جامع باسمه بالقاهرة . وجاء جوهر القائد فى سنة ٢٥٨هـ وانتزع الملك من يد أحمد بن على بن الإخشيد وهو آخر ملوك هذه الأسرة ، فصار المعز لدين الله ملكا لمصر . وقد مضى على تولى العباسيين للحكم ٢٢٥ سنة كاملة ، ومضى على تولى الإخشيديين أربعة وثلاثون عاما وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما .

ويقول بعض المؤرخين أنه كان لملك يدعى ابن أرسلاوش قصر فى موضع الفسطاط ، له أبراج تنتقل فيها الشمس من برج إلى برج فى أول كل شهر ، وكانوا يشعلون النار فوقه فى تلك الليلة لإرشاد الناس إلى ذلك الحادث ، فلذا سميت الفسطاط باسم «أرسلاوش» ومعنى «ارسلاوش» بالعبرية «بيت الشمس» . ثم خربها بختنصر بن

(١) لعلها لور أو لُر وهى قبيلة كردية فى غربى إيران إقليمها يسمى لورستان . (د . عزام) .

فيروزد الكدوانى فبقيت خمسمائة عام خرابة ، ثم ضمت إليها مدينة «يشكى» ثم بنيت بالقرب منها مدينة «حمراء القصوى» ثم جاء أرجاليس بن مقراطيس ملك الروم وهزم ملك الأقباط وبنى مدينة مكان الفسطاط سميت «فوسطة أرجاليس» ، وقال بعض المؤرخين إن مصر كانت بعد بختنصر تابعة لملوك فارس الوثنيين ، فبنى ملك منهم يُدعى «حصن كسرى جوش» مدينة بمصر القديمة سميت «قبة الدخان» لوجود معبد نار عظيم بها ، ولا تزال آثار معابد النار واضحة خارج مصر القديمة ولا يزال حاكم مصر القديمة يقيم بالقرب من تلك القبة . ثم بنى أشمون بن قبطيم«حاكم مصر القديمة» مدينة «أوطى طيس» على سفح المقطم . ومدينة «أتريب» التى بالجيزة من بناء الملك أتريب ، وعلى مقربة من مصر مدينة تسمى «قندوم» بناها الوزير هرون للملك «هروبة» ولكن ليس لأحد من حكامها سلطة على قلعة مصر . لأن بيد الأقباط عهدا من عمر ﷺ بأن لا يدخل قلعتهم غريب . وهذه القلعة يسكنها رهبان الأقباط ، ولهم بها دير به نحو ألف قبطى وفيهم من ملوكهم الملك قبطيم وفلبانر وميخائيل وميكائيل وطوليس ، وهى قلعة قديمة ، ولكنهم يرصدونها دائما خوفا من اللصوص (المنسر) ولها باب منخفض بجهتها الغربية يدخل منه الحمار والراجل ولا يستطيع الحصان الدخول منه . محيط القلعة ألفا خطوة ، وديرهم العالى كأنه برج بها ، وقد أحيطت القلعة بخندق عميق يطهرونه مرة فى العام حتى اليوم ، وليس بها سوى الأقباط ولا يدعون أحدا يدخلها سوى الأقباط ، وبواب القلعة منهم ، وكانت هذه القلعة (قلعة مصر القديمة) عظيمة لا يزال ذلك ظاهرا فى جدرانها الداخلية ومتاريسها ، وأما القلعة التى يقيم بها الأقباط فكانت قلعة داخلية ، وهى قبلى المدينة وجاونبها مدافن وخرائب ، وأما حى مصر القديمة فعامر به مئتان وسبعون محرابا وجامعان عظيمان .

جامع عمرو بن العاص

سبق وصفه تفصيلاً حين الكلام على الجوامع ، وليس بالقاهرة جامع أكبر منه ولا ذو منارات أربع ، فسائر الجوامع كلها إما بمنارة وإما بمنارتين .

جامع السلطان محمد ابن السلطان قلاوون

جامع غريب على شاطئ النيل بالقرب من ساقية الغورى ، ومساحته مائة وعشرة أقدام فى مثلها ، وقد تهدمت جهته القبلية ووقعت عمدها على الأرض ، ولحرمه المحيط

من جهاته الأربع سقوف قديمة محملة على ثمانية وأربعين عمودا من أنواع مختلفة وله ثلاثة أبواب ومنارتان ، وقد نقش على جانبى باب القبلة بخط فى قامة إنسان هذا التاريخ : «بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أعز الله نصره بمحمد وآله ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة[1] .

جامع الأمير عابدين

جامع نظيف على شاطئ النيل بالقرب من الجمرك مقابل للمقياس (أم القياس) ، وقد جُملت قبابه الثمانى المدورة على أربعة أعمدة رشيقة ، ووسطه مكشوف وعليه قفص وجدرانه الداخلية مكسوة كلها بالصينى القيشانى ، ومحرابه صينى منقّش ، ومنبره مصنوع من الخشب صناعة فنية ، وعلى باب المنبر تاريخ سنة ١٠٧٠هـ . ومنارته طبقة واحدة من الطراز التركى وأما شبابيكه المطلة على الطريق العام فكلها شبابيك حديدية واردة من استانبول وليس لها نظير فى جوامع القاهرة .

جامع محمد بن حسين الكوفى

هذا الجامع تخرب أحد جوانبه ولكن به منارة منحرفة لانظير لها ، والله أعلم أنها هكذا ، ولكنها مع ما بها من الميل لا تقع ولا تتخرب ، وقد نقشت على بابه الأيسر الآية : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلوة وآتى الزكاة﴾ ثم «محمد بن حسين الكوفى سنة ستين وسبعمائة» .

جامع السلطان چقمق

بالسوق الطويلة جامع صغير يُدعى جامع الحسنات أقيمت سقوفه المنقوشة على ثمانية وثلاثين عمودا قصيرا مختلفة الألوان ، وعلى لوحة غنية لآية الكرسى ، بجانب الباب داخلا ، هذا التاريخ «أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر محمد بن أبو سعيد چقمق عز نصره بمحمد وآله وصحبه أجمعين» .

---

(١) توفى محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ فتصحيح التاريخ ينبغى أن يكون سنة ٧٢١هـ . (المترجم) .

جامع الملك الظاهر

هو جامع بمنارة واحدة ولكنه قليل الجماعة ، فلذا لم يتيسر لنا دخوله .

تلكم الجوامع وأما الباقى فكلها زوايا .

جامع الشيخ حسن السويدى

كان زاوية تحولت إلى جامع لكثرة المصلين فيها . وهو الآن جامع لطيف فى السوق العالى . وبهذه المدينة ثلاث مدارس وعشرون كتّابا وخمسة خانقاهات . وخانقاه الشيخ على باحى الذى بالقرب من الجمرك مزار يقصده الناس ، وهو بناء صغير ولكن به أشجار الجميز الباسقة المهيبة ، فلذا يقصده الخواص والعوام . وليست له أوقاف ويقصده الناس من الضيوف والمجاورين للاستراحة تحت ظلال الشجر والعبادة ، فكأنه روضة من رياض الجنة . وقد أنشأ فيه بعض أهل الخير محاريب وأروقة ولهم به خدم ، وفيه يحصل ضباط الانكشارية أتاوة من التجار المتجولين ، فهو موضع يُرتكب فيه ظلم عجيب ، رفعه الله ، إذا وقع فقير بأيديهم فلا يقدر على النجاة منهم بدفع نصف رأسماله ، كانت مصر القديمة مكان تحصيل الأتاوة فى أيام الفراعنة أيضًا . وكان الأقباط إذا اجتازوا النيل ، فى هذا الموضع مروا صاغرين ، وهذا الظلم من سيئات فرعون اللعين .

وكان بهذه المدينة سبعمائة حمام فى الزمن القديم . وأما اليوم فحمام واحد فى السوق الأسفل ، وإحدى عشرة وكالة ، وعشرة مشارب للقهوة ، وإذا كانت أيام وفاء النيل زُيِّنت المقاهى المعطلة ، وارتفعت منها أصوات الموسيقى فكأنها مجالس السلطان حسين بايقرا ، وبها ثمانون حانوتا مفتوحا وحوانيت مغلقة ، وليست بها سوق للتحف .

أنبار الغلال[1] التى بناها يوسف عليه السلام

إن لبناء أنبار يوسف شهرة فى كتب التواريخ ، ولكنى سألخص هنا مالابد من ذكره بيع يوسف أسيرا فى مصر حين كان «الريان» يملكها ، فاشتراه عزيز مصر وأحبته زليخا وافترت عليه وسُجن وسجن معه فتيان كما ورد فى القرآن ﴿ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ . فسّر يوسف حلم الذى رأى الطير يأكل

(١) أنبار كلمة فارسية : معناها المخزن ، وقد حرفت إلى عنبر . (د . عزام) .

من رأسه أنه سيُشنق . ومن العجب أنه ما انتهى يوسف من تفسير رؤياه حتى حضر الحُجّاب وأخرجوا الفتى من السجن وشنقوه . وذاع صيت يوسف فى السجن أنه يفسر الأحلام . ثم إن الملك ريان استيقظ يوما فقال : ﴿إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فأخرج يوسف من السجن لتأويل رؤيا الملك ففسرها . بأن سيحدث فى مصر قحط وغلاء مدة سبعة أعوام ، وبنى الملك أنبارًا هائلة برأى يوسف وتدبيره . بيد أن الأجل المحتوم لم يمكن الملك من إتمام ما أراد ، وانتقل الملك بأمر الله إلى يد يوسف فبنى هذا العنبر ، وقد حدث حقا جدب سبعة أعوام واشتهر فى الدنيا بجدب يوسف ، ذلك أصل بناء عنبر يوسف . بيد أنه تقلب فى أيدى آلاف الملوك واتخذ أشكالا مختلفة ولو أن أساسه هو بناء يوسف عليه السلام .

وأنبار يوسف الحالى حصنان مربعان متقابلان ، وهو موضع مهيب عجيب حقا يجب على كل امرئ أن يشاهده ، وقد ارتفعت جدرانهما المبنية بالآجر كسد اسكندر أربعين ذراعا ، وغطى أعلاهما بقفص من الغاب ، وإذا دخلهما الإنسان حار . والعنبر مكشوف ففيه ما لا يعد ولا تحصى من الحمام واليمام تتطاير فوقه كغمام أسود ، لتأكل مما به من الحبوب . ومن العجب أن آلافًا من هذه الطيور الطيبة تتناول طعامها من هذه الحبوب مرات فى كل يوم ومع ذلك لا ينقص منها شيء . وقد حدث أن ظن أولياء أمور هذا العنبر مرة أن هذا العدد الضخم من الطيور يستهلك كمية كبيرة من الغلال ، فأقاموا سقوفا على العنبر ، ولكن داهمهم ذلك العام جدب شديد وغلاء فاحش أنساهم جدب يوسف وجعله فرحا ملكيا بجانبه ، ولما فتحوا العنبر ليستخرجوا منه الغلال الضرورية وجدوها قد صارت رمادا أسود كما وجدوا آلافا من الطيور الميتة فوق العنبر ، وقد بلغت المجاعة حدا ، أكل المصريون بعضهم بعضا ، فلما اشتدت المحنة اجتمع العلماء والصلحاء وتشاوروا فأجمعوا على إزالة السقوف المقامة على العنبر ، وظل مكشوفا منذ ذلك العهد .

وفى رأس كل سنة يحضر والى مصر ومعه الأمناء وضباط البلوكات السبعة من الانكشارية ، والدفتردار إلى أنبار يوسف فيحاسبون أمينه وناظره بعد أن يسقطوا من الحساب اثنى عشر ألف إردب من الضائعات مما يغرق فى الماء ومما تأكله الطيور ، حسابا على الأموال الخاصة بالسلطان ، وفى هذا الأنبار بضع مئات الآلاف من أرادب القمح والفول والشعير الآتية من الصعيد أى من جهات جرجا ، وأما الجهة السفلى

لمصر ، أى جهات دمياط ورشيد فلا تأتى منها إلى مصر حبة واحدة من القمح ، بل لا تكفى محصولاتهم أنفسهم ، فإنهم ينتجون السكر والحناء والقطن والكتان والأرز ، ولايزرعون القمح إلا قليلا ، وخلاصة القول أن ما تسمى «مصر أم الدنيا» إنما هى ولايات الصعيد ، فهى أم مصر وهى التى تغذيها وتحسب الغلال المذكورة على السلطان مقابل خزينتين مصريتين . وعنبر يوسف أحد خزائن مصر .

وأما أنبار مكة والمدينة المنورة والدشيشة والمحمدية والمرادية ففى مدينة بولاق ، ولها كتبتها ونظارها وأمناؤها وكيالوها ، فهى إدارة خاصة ، كانت أقلام عنابر الدشيشة بيد الأغوات السود فيما سبق حتى إذا انقرض نظارها وتخربت أوقافها ، عرض الكتخدا إبراهيم باشا أمرها على السلطان ، فحولت إدارتها بالأمر العالى إلى إدارة الجيش الانكشارى ، وصار ناظرها ضابط (أغا) تلك الفرقة ، والغلال الخاصة بالحرمين الشريفين اثنان وأربعون ألف إردب ، وبالصعيد العالى قرى خاصة بمكة والمدينة المنورة يحصل منها نظار الأوقاف ويحفظونها فى شونها ببولاق ، ثم ينقلها عربان الدشيشة بعشرة آلاف بعير إلى بندر السويس التى ترسو فيها السفن المحمدية والمرادية والخاصكية ، فيسلمونها إلى رؤساء تلك السفن بموجب سجلات ، ويوصلها الرؤساء إلى جدة وينبع لتوصيلها إلى مكة والمدينة ولا يدخل شىء من غلال الحرمين فى أنبار يوسف ، كانت تلك الغلال تحفظ فى عصر الچراكسة فى أنبار يوسف ، حتى إذا فتح السلطان سليم مصر اشتكى أهلها إليه بأن جرايتهم ومخصصاتهم اختلطت بغلال الحرمين الشريفين ، فذهب خير أموالهم وبركتها لأكلهم من أموال وقف الله ، فرفع سليم هذا الأمر عنهم فأنشأ تلك الأنبار فى بولاق وهى أيضًا مكشوفة .

وبمصر القديمة مئات من أنبار الغلال وهى شون خاصة لأعيان القاهرة وكلها مسقوفة وليست لها بركة ، ولا يحفظ أحد بمصر غلالا فى الأنبار قاصدا إحداث الغلاء إلا ويصاب بأضرار فى ماله ونفسه وأهله وأولاده ، وأما عنبر يوسف فقد حباه الله ببركة خليلية عظيمة .

تنقسم إدارة الطوائف العسكرية بمصر إلى سبعين قلما ، وهى أقلام : الانكشارية والعزبان ، والمتفرقة والچاويشية ، والمتطوعين والسپاهية وحملة البنادق والمدرعين (جبه جى) والمدفعيين والمتقاعدين والجوالى والأيتام والطواشى والنسوان ، والأئمة والخطباء

والمشايخ والسادات . . . إلخ ، وتضم تلك الأقلام السبعون سبعا وأربعين ألفا وثلاثمائة وسبعين نفسا من عباد الله يحملون براءات سلطانية يتناولون بموجبها جرايات ومخصصات من أنبار يوسف فى كل شهر ، وبمصر أيضًا ست عشرة ومائة ألف نفس من المقيدين فى تقرير بيرام باشا فى حاجة إلى أنبار يوسف ، فحب قمح الله هذا يُبذل لأولئك جميعا ، الأغنياء منهم والفقراء والشبان والشيوخ ، ومع ذلك يظل الأنبار المبنى بمعجزة يوسف مليئا لا ينقص منه شىء ، إنه لسر قد أذهل جميع جبابرة العقل ولم يقدروا على حله ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ ، إنه من كلام رب العزة ورب العالمين المتكفل برزق مخلوقاته جميعا .

«يا كريم ، ترزق المجوسى والكافر من خزائن الغيب ، فكيف تحرم أحبائك وأنت تعطف على أعدائك» وأصل البيت الفارسى :

أى كريميكى كه أز خزاين غيب   كبر ترسا وظيفه خور دارى

دوستانـرا كجاكنى محـروم   تو كـه بادشمنن نظر دارى

وخلاصة القول أن بمصر عجائب كثيرة ، وأنبار يوسف العجيبة واحد منها وللحقير خضوع واحترام كثير لدولة آل عثمان ، ولكن عقلى القاصر حائر فى أمور أربعة أحدها الترسانة العامرة التى باستانبول والثانى مطبخ آل عثمان والثالث مصروفات مكة والمدينة المنورة والحجاج ، والرابع أنبار يوسف ، فإن مصاريف هذه المؤسسات الأربع تحير العقول .

سواقى مصر العتيقة

ومن الأماكن الخليقة بالمشاهدة فى مصر القديمة ساقية السلطان الغورى التى بالجهة الشمالية من مصر العتيقة ، وهى كأنها حصن متين فى شكل مثمن ، مرتفع عن الأرض ثمانين ذراعا مكيا ، تصعد إليه الخيل والبقر المستخدمة لإدارتها كأنها تصعد إلى رابية ، وهى ثمانى سواق ترفع الماء من النيل ، ثم ترسله إلى عقود الماء إلى قلعة الجبل ، وهناك موظف يُدعى أمين السواقى يقوم بإدارة ست وثلاثين ساقية يعمل فيها ثلاثمائة بقرة ومائتا خادم يصرف عليها مائة وخمسون كيسا من الأموال السلطانية سنويا فما أعظمها خيرات ، ومن هذه السواقى يذهب ماء النيل إلى قلعة الجبل مارا فوق

ثلاثمائة وستين عقدا مائيا ، يدفع به عباد الله المقيمين بالقلعة غائلة العطش داعين للسلطان الغورى «رحمة الله عليه» . كما شربت أنا الحقير ثمانية أعوام داعيا له ومثنيا عليه ، وبجانب تلك السواقى فم الخليج الذى فتحه الملك المقوقس يمر من تحت قنطرة أبى المنجى .

الفصل الرابع والأربعون

فى بيان النيل الذى يحيى مصر ويغنيها

جرت سنة الله بأن يقل نزول المطر فى الأقاليم المصرية ، وإن نزل فلا يكون كافيا لحاجة سكانها . ولذا شق الكهنة القدامى من النيل المبارك فى أماكنه المرتفعة ترعا وخلجانا على حسب القواعد الهندسية التى اخترعت بمعجزة إدريس عليه السلام ، وأجروها إلى ولاية بعد ولاية . وبهذه الطريقة تروى الأراضى كلها فيزرع الناس فيما يحمله النيل من الطمى ويجنون المحصول فى سبعين يوما ، ويحصلون على قوتهم .

وقد جرت سنة الله أيضا بأن تنقص المياه فى شهر تموز (يوليو) فى كل الدنيا . وإذا كان شهر أغسطس وهو يقابل شهر توت أول السنة القبطية ، لبس الناس ثيابهم المهملة التى لا تليق إلا للإحراق بالنار وشدوا زنانيرهم صاخبين ليدخلوا السرور فى قلوب من يحترقون بنار النور . وحكمة الله جارية بازدياد النيل فى تلك الأيام ونزول النقطة فيه ، أى بأن يصير ماء النيل أحمر ويجرى كأنه بحر مشبع بالطين ، بيد أنه لا يزيد فجأة وبسرعة ، بل يزيد ببطء تام فى سبعين يوما ، ثم يحدث قطع النيل وفيضانه .

وصف نقطة النيل المبارك

قبل حلول شهر توت القبطى بسبعين يوما يكون الجميع مهيئين لخدمة النيل ، من أغا الانكشارية ووزير مصر ومعه الأغا المحضر ورجال الانكشارية . وإذا اقترب يوم نزول النقطة استأذن الباشچاويش الوزير وذهب لتطهير المقياس (أم القياس) ، لأن هذا العمل من اختصاصهم منذ صدور القانون السليمى . وإذا أهمل تطهير المقياس فلا يعلم كم ذراعا زاد النيل المبارك . ويُجمع فى ذلك اليوم آلاف من السقائين الذين يسقون أهل مصر ، عند المقياس ، فيظهرونه وينظفونه ولا يتركون فيه نقطة من الماء .

ويقيم أغا الانكشارية وأغوات وشيوخ البلوكات السبعة المقيمة بالقاهرة ، أسمطة عظيمة مدة سبعة أيام ولياليها ، يدعون إليها بلوكا فى كل يوم . وإذا كان اليوم السابع دُعى الباشا الوالى إلى الحفل وأقيم أربعون سماطا واحتفل بالباشا احتفالا رائعا حتى إذا انتهى المدعوون من الطعام خلع الباشا على أغوات البلوكات السبعة وأغا الانكشارية صاحب الضيافة ، اثنتى عشرة خلعة من الخلع الفاخرة ، وقدم نحو مائة قرش لخدم الباشچاويش .

وأما جانبلاط زاده حسين باشا فلما يخلع إلا على الباشچاويش وقدَّم إليه كيسا من القروش . وكذلك هم لا يقدمون للباشا جوادا أو غيره من الهدايا .

ويركب الباشا من المقياس السفينة العقبة ويسير بها مع التيار إلى قصر العينى ، شاهدا شاطئ النيل ، ثم يذهب جميع أعيان الانكشارية وضابطها إلى المقياس ويحضرون وليمة عظيمة يقيمها الباشا الوالى ، ينصب فيها أربعون سماطا فى كل سماط مائتا صحن . حتى إذا انتهوا من الطعام والدعاء والثناء قدمت إليهم المرطبات وانصرفوا .

وفى عصر هذا اليوم يحضر علماء مصر وصلحاؤها وأئمتها وخطباؤها ، ومشايخها الكبار وتقام لهم وليمة خاصة أعجز عن التعبير عنها . وما إن يتم حضور العلماء حتى يشرع الدهماء والانكشاريون الذين يملأون مسجد المقياس فى إطلاق القذائف النارية المتتابعة من بنادقهم ، ويحسن إليهم الباشچاويش بصرتين مصريتين ، فينصرف نحو ألفين منهم . ولما كانت تلك الليلة ليلة الجمعة لا ينصرف أحد من العلماء ، بل يُحيون الليلة حتى الصباح بتلاوة قصة المولد النبوى الشريف ، ويقدَّم إليهم الباشچاويش ، وهم يتلون القصة مشروب النبات الحموى والسكر النبات ويحرق العود الماوردى . وإذا كان صباح يوم الجمعة أقيم لهم سماط مختصر للإفطار ، ثم يذهب العلماء والصلحاء إلى حافة حوض المقياس ويدعو الشيخ الرداد ، شيخ المقياس والمسلمون جميعا يؤمنون ، ثم ينصرف كل إلى عمله .

وبهذا ينتهى حفل سبعة أيام ولياليها لتطهير المقياس ، وقد أنفق فيه عشرة أكياس مصرية من المال وهو مبلغ ضخم . حفل يدوم سبعة أيام ولياليها ، يقوم بالخدمة فيه مائتان من الجنود ويذبح فيه من الغنم ألف رأس ، ومن الدجاج خمسون ألف دجاجة ، وخمسون ألف حمامة ، ويُستهلك مئات الألوف من الخبز ومثلها من الفطير المصنوع بالسمن . وسائر الأطعمة والأشربة على هذا المقياس . وقد حدثت هذه المصروفات أيام أن كان الكتخدا سليم رئيس الچاويشية .

وإذا انتهى تطهير المقياس والولائم والأدعية ، رشح النيل المبارك من أطراف الحوض الأربعة ودخل الماء فى الحوض حتى يصير سطحه مماثلا لسطح الماء فى النهر . وبعد التطهير بعشرين يوما يُبَلَّغ الباشا الوالى بأن النقطة ستنزل فى تلك الليلة فيبتهج ويأمر مدير قصره بإقامة ولائم عظيمة مدة يومين وليلتهما ، يُدعى إليها العلماء

والصلحاء والسادات الكرام والمشايخ العظام . ولا يُدعى إليها من الجنود سوى ناظر المقياس وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغوات البلوكات السبعة ورئيس التراجمة ، يتناولون الطعام ثم ينصرفون . وأما أغوات الباشا فيبقون لأن الباشا صاحب الدعوة ولو أنه لا يحضرها . ويقيم الترجمان وليمة بعد العصر ووليمة أخرى فى صباح اليوم التالى ، يضاء المقياس فى تلك الليلة بمئات ألوف الشموع الكافورية ويُحيى العلماء الليلة حتى الصباح بتلاوة قصة المولد النبوى وقد جرت حكمة الله بنزول النقطة فى النيل فى ذلك اليوم أو تلك الليلة . وأما معنى نزول النقطة فتغيُّر فجائى فى ماء المقياس من ماء رقيق صاف إلى ماء أحمر مشبع بالطمى . وإذا نزلت النقطة اجتمع العلماء حول حوض المقياس حامدين الله على نعمه واختتموا مائتى ختمة شريفة تلاها الحفاظ فى ليلتين ويومين . ثم دعا الشيخ السادات دعاء مؤثرا ، وذَبَح مدير قصر الباشا مائتى رأس من الضحايا ووزعها على العلماء . وخلع على بعض المشايخ والسادات وشيخ البكرية خلعا من الصوف الأبيض ، وسجل مندوب المحكمة الشرعية محل نزول النقطة فى السجل . حتى إذا تم ذلك ذهب أحد شيوخ المنادين بزيارة النيل وبشر الباشا بذلك فخلع عليه خلعة بيضاء وأعطاه سبعين أو ثمانين قطعة ذهبية . فانصرف العلماء وسائر الناس إلى منازلهم حامدين شاكرين .

شيخ السادات

قدم شيخ السادات إلى مصر من بلاد المغرب وعاش منعزلا عن الناس ، والشيخ الحالى من سلالته . ومن حكمة الله أن امتنع النيل فى أحد الأعوام عن الفيضان ، فحدث قحط وغلاء شديد واضطرب المصريون اضطرابا شديدا ولجأوا إلى السيد ملتمسين دعاءه . فما إن رفع يده بالدعاء حتى فاض النيل الذى امتنع عن الفيضان منذ عام ووفى ، ولا يزال النيل مذ ذلك العهد يفيض فى ذلك اليوم ويفى . وفى ذلك اليوم يقيم السلطان وليمة للشيخ السادات ويملِّكه نصف مصر . من أجل ذلك لا يزال أولاد السادات يحضرون إلى ذلك المكان متضرعين إلى الله تعالى بالدعاء والثناء ، وتقام الوليمة لأجلهم .

ومشايخ المقياس وثلاثمائة نفر من أولاد الرواد يسكنون المقياس ويجتمع مشايخ المقياس وخدمهم فى كل ليلة ويسجلون فى فرخ ورق بحبر من الزعفران مقدار ما يزيد النيل فى كل يوم . وهذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أدام الله تعالى نعمه على سيدنا ومولانا المقام العالى الأعظمى مولانا الوزير كافل الممالك الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والأقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظر أعز الله تعالى نصره بجاه محمد عليه السلام . الفقير إلى الله تعالى أولاد السادات الأمناء على مقياس النيل المبارك يبتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة فى صحائف سيدنا ومولانا من يجب الدعاء سرًا ، وينهون إلى أن الله تعالى زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأول سنة سبع وثمانين وألف الموافق لثالث عشرة مسرة ، أربعة أصابع ، وصار ثمانية عشر ذراعًا وتسعة أصابع ، أنهى ذلك كذلك ، اللهم أتمم لنا خيرا» .

ثم يختم هذا التقرير بختم شيخ المقياس ويوقع بخطه ويحمل إلى باشا مصر يوميا فيأمر الباشا صرّافه بأن يدفع لحامله قطعة ذهبية كل يوم . وكلما زاد النيل من يوم لآخر غمر المصريين السرور والابتهاج ، وزاد الملتزمون والكشافون والأعيان ونظار الأوقاف ووالى مصر فى توزيع النذور والصدقات وذلك لأن معظم سكان القاهرة أمناء وملتزمون ، ويترقبون فيضان النيل متلهفين . وإذا امتنع النيل عن الفيضان «اللهم عافنا» وقع القحط والغلاء .

ويُعرف مقدار زيادة النيل يوميا من عمود فى حوض المقياس طوله ثلاثون ذراعا ، معلّم عليه إصبع فإصبع ، ينظر إليه شيخ المقياس كل صباح ويسجل مقدار الزيادة فى حجة تحمل إلى الباشا الوالى . يذهب حامل الحجة إلى الباشا فيدخل عليه ولو كان فى دائرة الحريم ، وليس لأحد أن يمنعه ، فهو يدخل عليه حتما يجده ويقول «السلام عليكم يا وكيل السلطان الوالى حفظك الله وسلّمك الله زاد النيل المبارك فى هذه الليلة بأمر الله تعالى ذراعا وإصبعا» ، ويأخذ قطعة ذهبية . ويبلّغ الباشا هكذا أربعة وثمانين يوما . ولهذا المنادى ثلاثمائة وستون رجلا من المعاونين يوزعهم على القاهرة مخصصا لكل واحد منهم حيا أو حيين . وكل ينادى فى حدوده ولا يتجاوزه . لأن على كل منزل «عادة» تطلق عليها «الحالية» يأخذها المنادى يوميا ، فلذا لا يذهب إليه غيره ، حتى لا يتحير صاحب المنزل لمن يعطى «الحالية» والمنادون رجال عظام ذوو وجوه سمحة وعيون كحيلة وأعناق ملفوفة ، وبأيديهم عصى ، وإن لم يكونوا شيوخا . ويتبع كل مناد ثلاثة أو أربعة غلمان جمال من أبناء العرب ، قد لفوا أعناقهم بشيلان صفر وخضر ووردية ، ويقف

كل منهم أمام باب فينادى السلام عليكم يا أمير محمد ، أو الشريف أحمد ، أو السيد على ، أو يا أمير الأمراء الكرام ، باسم صاحب كل بيت ويقول «بأمر الله جاء النيل المبارك وزاد ذراعا وستة أصابع ، أو ذراعين وثلاثة أصابع» حسبما يزيد كل يوم . يبلغون هكذا إلى المصريين جميعا وكل صاحب دار يحسن إليهم حسب استعداده ومقدرته .

إن المنادين ، وإن كانوا يحصّلون الأموال هكذا من الأعيان والأمراء ووالى مصر الذى يدفع كل يوم قطعة ذهبية ، عليهم وهم ثلاثمائة وستون مناديا رداداً ومشايخ المقياس كشوف بالأموال السلطانية لابد لهم من أدائها .

تشتمل الأقاليم المصرية على مائتين وست وسبعين قصبة ومدينة وبندرا . وليس فى إمكان أحد من المنادين الردادين الذهاب إلى تلك القصبات والمدن والبنادر دون أن يدفع كشف العوائد إلى شيخ المنادين ويأخذ منه إيصالا بذلك وبمصر ألفان من الحدائق والبساتين كلها بأيدى أبناء الرداد . لأنهم هم المبشّرون للبساتين بزيادة النيل والبساتين والحدائق فى أشد حاجة إلى النيل . فكل الحدائق والبساتين والغيطان تحت تصرفهم . وإذا احتاج الباشا الوالى أو الأعيان المصريون إلى الورد والشقائق ، أو مشروب العنب الحلو أو غيرها من الثمرات فكلها فى أيديهم وهم الذين يجدونها .

ينادون هكذا مدة أربعة وسبعين يوما ، حتى إذا بلغ الماء عشرين ذراعا قالوا «استوى الماء والخشبة» . لعل مؤلف النحو أخذ هذا المثال من أولئك المنادين . أى أن الماء بلغ الجسر الخشبى (الصقالة) الموضوع بجانب العمود المعلّم . وإذا جاوز الماء عشرين ذراعا وبلغ أربعة وعشرين ذراعا نادوا قائلين «من الجبل إلى الجبل» والمراد من الجبل جبال الهرمين غربى القاهرة ، هما جبلان كبيران وجبل صغير ، وهى جبال مصنوعة يسميها الجمهور جبال الهرم ، وتسمى فى أفواه الناس بجبال فرعون . وإذا فاض النيل حتى سفحها استغاث المصريون قائلين «الحمد لله كفى يا رب كفى» .

وإذا بلغ الفيضان أربعة وعشرين ذراعا ووصل إلى سفح الجبل ظهر عند عتبة باب الحديد الذى هو أكثر أماكن القاهرة عمارا . وإذا بلغ ٢٥ـ ٢٦ ذراعا «اللهم عافنا» ، فإنه يغرق مصر . فلذا لا يسمع الناس من الرداد لفظ «من الجبل إلى الجبل» حتى يصيحوا قائلين «يكفى يا رب يكفى» . وجبال الأهرام هذه بناها الملك «صوريد» بتعليم من معجزة إدريس عليه السلام الذى علم بالعلم اللدنى بأن خراب مصر ستكون من النيل فجعل الملك «صوريد» يبنى الهرم ويطلسمه ، ومن ذلك يبلغ النيل حتى سفح الجبل فى

بعض السنين . كان خراب مصر للمرة التاسعة بيد بختنصر . ولعل خرابها للمرة العاشرة يكون من أشراط الساعة حين يجئ ملك وينسف الهرم بالبارود الأسود فيزول الطلسم ويطغى النيل»[١] ، كما يكون خراب الشام من نهر «ميزة»[٢] Mize وخراب بغداد من شط العرب .

وإذا بلغ فيضان النيل ستة عشر ذراعا تحصل الأموال السلطانية ولكن يخسر الأمناء والملتزمون والكشافون . وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعا صار الأمناء والملتزمون والكشافون مستورين . وأما إذا بلغ عشرين ذراعا فتروى أراضى القطر ولا يبقى فيه موضع جاف . وإن زاد على ذلك فهو ضرر ، اللهم عافنا ، كما يضر بلوغه خمسة عشر ذراعا فحسب ، فلا تُحصَّل الأموال الميرية ولا أموال الأمناء والملتزمين والكشافين ، ويُتَّهم الباشا الوالى بأنه مشئوم ويُحبَس فى قصر يوسف ، ويقدِّم الأهالى طلبا إلى السلطان باستانبول بعزله وتعيين وزير آخر ، ويظل الباشا محبوسا حتى يحضر بديله . وفى خلال ذلك يقوم أحد أمراء مصر قائمقاما فيضرب الأمناء والملتزمين والكشافين الذين عجزوا عن أداء ما عليهم من الأموال ويعذبهم مرات ويدخلهم «البَكَرة» فى الديوان ، ويصادر أموالهم وسائر ممتلكاتهم ويبيعها لتحصيل الأموال السلطانية .

وإذا طغى النيل أخرج المحتكرون ما بشونهم ومخازنهم من الغلال فصارت غنيمة لمصر ويباع أربع أقات عثمانية من الخبز بپارة .

وموجز القول أن فيضان النيل لحكمة بالغة ، فإنه لا يتقدم فى عام عن عام ولا يتأخر ، ولابد أن يفيض فى شهر توت المصرى على حسب سنة الله . وأما نقص الفيضان أو زيادته فليس على وتيرة واحدة ، فهو فى قبضة الله البارى . ويقال إن هذه الكرامة العالية من عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

يحكى أن النيل امتنع عن الفيضان عام ٢١هـ حينما فتح عمرو بن العاص مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . فحضر المصريون إلى عمرو وقالوا : أيها الأمير إن لنا عادة قديمة مع النيل نتبعها فى كل عام . وهى أن نلقى فيه قبل بدأ فيضانه بيوم فتاة جميلة طاهرة نزينها بأنواع الجواهر والحلى ، ونلقى معها قناطير من رؤوس السكر

(١) لا علم لنا بأن الملك صوريد هو الذى بنى الهرم وطلسمه ، ولعل هذا من قبيل الخرافات التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت . (د . متولى) .

(٢) لعله نهر مزّة أو المزة وهى ضاحية من ضواحى دمشق . فيمكن أن يكون نهر بردى سمّى باسمها أحيانا . (د . عزام .) .

وآلاف الأرادب من الغلال ومئات الآلاف من أرغفة الخبز ، فتنزل النقطة فى ذلك اليوم أو اليوم الذى يليه ، ويبدأ الفيضان . وقال عمرو كلا ! إن هذه عادة الكفرة وليس فى ديننا ما يبيح قتل النفس ، والإسراف فى هذا القدر من الأموال لأجل فيضان نهر .

مضى أربعون يوما والنيل لا يفيض ، فأخذ الناس فى البلاد المفتوحة حديثًا ، يتحدثون عن شؤم الفاتحين الجدد ، وأخفى التجار الغلال فشاع فى مصر الجدب والغلاء . فلما استفحل الأمر كتب عمرو رسالة مستعجلة إلى الخليفة بنجّاب بلغه فى عشرة أيام ، بين فيها قصة عروس النيل بالتفصيل ، ورد عليه الخليفة قائلا «إنك أصبت فى منعك إياهم من إلقاء فتاة فى النيل ، والق بدلها هذه الورقة : «من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر ، يا نيل ! إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك ، وإن كنت تجرى بأمر الله وقدرته فاجر صاعدا» ثم كتب الآية الكريمة ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

قدمت النجّابة إلى عمرو برسالة الخليفة فى عشرة أيام والناس قد يئسوا . فما إن تلقاها عمرو حتى جمع أعيان المملكة فى موضع المقياس وتلا عليهم رسالة الخليفة وبلغ النيل تحية عمر بن الخطاب . ثم ألقى فيه تلك الورقة التى لم تكد تبلغه حتى جاش وهاج وماج بأمر عمر وبركة الآية الكريمة ، فابتهج المصريون وشاع فيهم السرور . ولم يتخلف يوما عن موعده منذ ذلك اليوم[1] .

جزيرة الروضة والمقياس (أم القياس) .

جزيرة قبالة مصر القديمة تسمى الروضة ، فى ركن من جهتها الجنوبية قصور منيفة وقاعات وحجر منوعة ومطابخ ومخازن ، ومئتا منزل يسكنها أولاد شيخ المقياس . وبركن آخر جامع السلطان قايتباى المقام على أربعين عمودا رخاميا ، ذو منارة قصيرة من طبقة واحدة وصحن واسع ، فهو كأنه قصر شامخ ، حرمه الخارجى ميدان فسيح ، وجوانبه الأربعة متنزه تظله أشجار الجميز بظلالها الوارفة .

وأول من بنى المقياس بعد طوفان نوح فى عصر دولة الأقباط هو كاهن حكيم يُدعى «الحكيم قلمون» . ثم جاء كاهن يُدعى «حصيلم» كان أستاذا كاملا وفريد عصره فى علم

(١) لقد تخلف النيل عن الفيضان عدة مرات فى تاريخ مصر كان من أشدها ما حصل بمصر فى أيام المستنصر الفاطمى (انظر الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى) . (المترجم)

الهندسة ، فأضاف إلى المقياس زيادات من مخترعاته وأوصله إلى حالته الراهنة . ووضع تصميم خلجان مصر وترعها على قاعدة الحكمة ، وأجرى النيل من ولاية إلى ولاية . ثم تخرب المقياس بمرور الزمان وتقلب الأحداث ، وظل معطلا حتى سنة ١٩٨هـ وهى السنة التى قدم فيها المأمون الخليفة العباسى من بغداد واستخرج من جبال الأهرام كنزا وضروبا من الكتب ، فأصلح المقياس بأموال تلك الدفينة . حتى إذا كان عام ٧٨٥هـ أمر الخليفة العباسى المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبى بكر وكيله السلطان برقوق بإصلاح المقياس فأدخل فيه بعض إصلاحات .

وأما المأمون فلم يبق فى مصر ، بل حمل أموالا طائلة مما استخرجه من الأهرام وسار إلى قياصرة أنطاكية فضيّق عليهم الخناق فى بيوتهم وديارهم ولم يبق أحدا من الكفار المفسدين ، وقلب أمورهم من القرار إلى الفرار . ثم حاصر الخليفة قلعة طرسوس وفتحها . ومات المأمون فى الثامنة والأربعين من عمره فى سنة (١٩٩هـ)[١] وهو لا يزال مدفونا فى ضريح من الرخام فى زاوية مظلمة (كوشه) بالقرب من مسجد النور بطرطوس ، وقد زاره هذا الفقير وقيد تاريخه[٢] وللمأمون خيرات كثيرة بمصر عدا إصلاح المقياس .

حوض المقياس (أم القياس)

لفظ أم القياس غلط والصحيح فى اللغة العربية المقياس ومعناه مكيال الماء وهو التعبير الأفضل للحوض . بيد أن اسمه فى أفواه الناس «أم القياس» والغلط المشهور أولى .

وفى ركن من الحرم الذى تحت قبة الخليفة العباسى المأمون قبة خشبية منقّشة تحملها ثمانية من الأعمدة الرخام الأبيض ، جنوبى جزيرة الروضة . وتحت هذه القبة حوض عظيم مبنى برخام أبيض ناصع ، عمقه ثلاثون ذراعا . وجوانبه الأربعة ثمانون درجة من درج السلم . وقد سبق أن كتبنا عنه أنه يُطهر مرة فى كل عام من قبل الانكشارية يستمر تطهيره سبعة أيام . ويتوسطه عمود مسدس من الرخام الأبيض ، يبلغ طوله خمسا وعشرين ذراعا . وقد وضع جسر خشبى من جانب الحوض إلى جانبه الآخر لكى يبقى العمود ثابتا على وضع واحد ، فالخشب ضاغط عليه من فوقه والعمود قائم

(١) المعتقد أن التاريخ الصحيح هو سنة ٢١٨هـ . (المترجم) .
(٢) لا يزال قبر المأمون معروفا فى تكية بجانب الجامع الكبير فى طرسوس . زرته سنة ١٩٣٧م . (د . عزام) .

به . وهو الخشب الذى اتخذه المصنفون مثلا حين قالوا «استوى الماء والخشبة» وقد حزت أضلاع العمود الستة حتى الذراع الخامس والعشرين حزوزا بحساب إصبع اليد عشرة عشرة ، وعبارة «تقدَّم إلى حساب الإصبع المصرى» مثل مشهور بالقاهرة . وقد نظم أحد الشعراء هذا البيت .[١]

وبحساب الإصبع يعرف مقدار زيادة النيل فى يوم وليلة ، فإن المهندس قد ثلَّمَ العمود لكل إصبع ثلمة ، ولإمكان رؤية تلك الثلمات صنع سلم من الرخام بداخل الحوض يبلغ عدد درجه حتى قاع الحوض ثمان وأربعين درجة . وفى كل صباح ينزل شيخ المقياس من ذلك السلم فينظر إلى مقدار زيادة الماء فى تلك الليلة ويسجله فى ورقة بحبر الزعفران ويبلِّغه إلى الباشا (الوالى) . وقد نقش على رخام بحافة الحوض تاريخ بالخط الكوفى الجعفرى يشاهده الرحالون من العرب والعجم ولكنهم لا يستطيعون قراءته ولعله تاريخ إصلاح الخليفة المأمون للمقياس ، والله أعلم . ونقش بعد آية الكرسى المكتوبة بالذهب على حافة الخشبة الساندة للعمود هذا التاريخ «وذلك فى جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين» .

وأعلى العمود الرخامى مكسو بصفيح من الذهب . ونقش على رخام حافة الحوض بالخط الجلى المذهب تاريخ الذى كساه بالذهب ونقشه وهو :

«مولانا الملك عز نصره السلطان محمد خان بن إبراهيم خان دام منصورا وعاش للمقياس . وقد أرخت إحياء بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء ، شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠هـ» .

وعلى هذا الحوض قبة عجيبة مشبكة مقرنصة ، منقَّشة بضروب النقوش . تحملها ثمانية أعمدة من الرخام الأبيض . وقد نقشت على إطار العمد بخط جلى أبيض على أرضية لازوردية ورمانية هذه الأيات ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها﴾ ثم تاريخ : «بتجديد[٢] ملوك السلاطين المصرية الملك الأشرف الظاهر بيبرس الصالحى» . وقد نقش على إزار القبة فوق ذلك الخط ، التاريخ

---

(١) انتظار جبرايله أولدى حلال إطعام ناس . ` . نيجه بريارماق حسابن كوسترير ام القياس= ها ، قد أحلّ علم الجبر إطعام الناس ، وكم يظهر المقياس من (دقائق) حساب الإصبع . (د . السعيد) .

(٢) إذا أضيفت كلمة (ملك قبل كلمة (ملوك) استقام المعنى . السعيد .

الآتى : «مالك رقاب الأمم ملك ملوك العرب والعجم ، صاحب العراقين وديار الديلم واليمن ، السلطان مراد خان خلد الله ملكه وآله وصحبه وسلم ، بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبعمائة»[1] وفوقه بوسط القبة بالخط الجلى الآية ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ وعلى أعلى نقطة بوسط القبة نقشت بخط أبيض مصنَّع بشكل دائرى الآية ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ . وجوانب الحوض الأربعة زوايا . وقد كتبت على محراب بركن منها يصلى فيه الناس أيام الاجتماعات الآية الآتية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ ثم هذا التاريخ .

أنشىء هذا الجامع المبارك فى زمان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين ، وهو بناء الأمير المصرى داود باشا؟ فاجعله اللهم من الفائزين (مسجدا) سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبالجهة اليسرى لباب القبلة من داخل المسجد لوحة رخامية بيضاء مربعة نقشت عليها بالخط الكوفى الدقيق اللطيف الآية الكريمة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ ثم ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ وبعدها «بإنشاء هذا الجامع المبارك قبلة المسلمين . إنه مكان يستجاب فيه الدعاء .

ولما كانت هذه القبة خشبية فقد أحيطت جوانبها بشبكة من الأسلاك النحاسية كما أن جوانب الحوض الأربعة درابزين ، ولا يجرؤ الإنسان على النظر إلى الأسفل . وبخارج الحوض قاعة عظيمة تطل شبابيكها على النيل ، وفوقها قصر الخورنق يصعد إليه بأربعين درجة حجرية ، كان متنزه سلاطين مصر ، ولا يزال وزراء مصر يقصدونه من وقت لآخر للاستجمام .

قصة السلطان سليم الأول بقصر المقياس

كان السلطان سليم خان فاتح مصر نائما ذات ليلة فى هذا القصر . فركب رجل فدائى من طرف الچراكسة «جريما» بدعوى الرجولة ، وسار على النيل مع التيار . حتى إذا بلغ أسفل المقياس صعد إلى سارية الجريم وقفز منه على قبة القصر ونزل منها إلى

(١) الظاهر من ذكر العراقين أن المقصود هو السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وقد تسلط بين سنتى ١٠٣٢ـ١٠٤٩هـ فالتاريخ الذى هنا غلط بيِّن .

الحجرة التى نام فيها سليم ، وتهيأ لقتله بسيف يذكر بسيف الضحاك . وبينما هو كذلك أيقظ الرسول عليه السلام سليمًا من النوم ، فألقى الفدائى بنفسه فى النيل من علو شاهق فنجا . فعتب سليم على رجاله الأخصاء ومنحهم جميعا رتبة البكوية المصرية . ثم أحضر الفدائى الذى رام قتله بالعهد والأمان ، ولكنه أرسله إلى استانبول معززا مكرما ، وقد سبق أن كتبنا عن ذلك . فقصر المقياس قصر عال جوانبه الأربعة شبابيك ، وفوقه قبة مدببة مستورة بالجير الأبيض .

جزيرة الروضة التى بها المقياس

جزيرة يحيط بها النيل من جهة الجيزة والنيل الصغير من جهة مصر القديمة يجف النيل فى بعض أيام التحاريق فيجتازه الناس سائرين على الأقدام ولا تسير فيه السفن الناقلة للغلال . وفى عام ١٠٨٦هـ جمع حسين باشا ابن جانبلاط أربعين أو خمسين ألفا من العمال وألوفا من أبقار الجرافة وشغلهم ثلاثة أشهر فى تطهير طريق فى النيل إلى عنابر يوسف ، أنفق فيه مائتى كيس مصرى من الأموال فاتصل النيل الأصلى بهذا الجانب أيضا ، فصارت الروضة جزيرة عظيمة .

كان الصالح نجم الدين قد بنى قلعة عالية بالآجر لجهات هذه الجزيرة الأربع ولا يزال فى جهتها المطلة على الجيزة ، بعض الأبراج والمتاريس بادية كسد الإسكندر ، فقد كان حصنا حصينا وسدًا متينا مبنيا بناء فنيا .

والروضة جزيرة عامرة بالبساتين والحدائق من الركن الذى به المقياس إلى بولاق لطيفة الماء والهواء ، وهى مطلسمة فحيّاتها وعقاربها لا تؤذى الناس وأما الزهور المتنوعة التى تنبت فيها ، والليمون والنارنج وغيرها من الموالح فإن أريجها الطيب يتضوع إلى مسافة ساعة ويعطر دماغ من يشمها . وبها مائة وستون حديقة وغيطا لأعيان القاهرة كما أن قصورا وقمريات وقاعات وسلسبيلات وشاذروانات المياه[1] يود من لا مكان له أن يتخذها مكانا . وكان بها فى أيامنا سبعة قصور وثلاثة جوامع (أحدها من وقف السلطان المؤيد) فكلمة روضة من رياض الجنة خليق أن تكون فى وصف هذه الجزيرة . إن حدائقها وبساتينها لا تزال عامرة ولكن عمارها ليس كما ذكر فى التواريخ ومع ذلك فهى جنة عدن بمصر ولهم الحق أن سموها روضة من رياض الجنة . ومن كان مريضا ونزل عليها ضيفا ليلة واحدة انتعشت روحه وصح بدنه .

---

(١) وبحمّاماتها مقصورات زُجاجيّة الجدران . (د . السعيد) .

الفصل الخامس والأربعون

الحفلة الثانية بوفاء النيل»[(١)]

إذا حل يوم أول «توت» فى شهر يوليو ونزلت النقطة نبّه الباشا (الوالى) على كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان وأغوات البلوكات السبعة وسائر رجال الأعمال تنبيها مؤكدا قائلا «سنحتفل بعيد وفاء النيل بعد أربعة وثمانين يوما إن شاء الله فليستعد له أعيان القاهرة جميعا حسب القانون القديم ، حتى يكون رائعا بهيجا» . إن الشعب المصرى يبحث دائما عن أسباب الفرح والسرور ؛ فلذا لا يكاد هذا النبأ يطرق مسامعهم حتى يشرعوا فى استئجار البيوت بمصر القديمة بإيجارات تتراوح قيمتها من مائة قرش إلى خمسمائة قرش . كما يدفعون مقدمًا إيجار آلاف سفن فى بولاق ورشيد وجرجا مائة قرش لكل سفينة إن كانت عادية ومائتى قرش إذا كانت جريما كبيرا . وكل يزين بيته بألاف من القناديل ، وينقش الشبابيك والمشربيات ، ويرش الجدران الداخلية بالجير الأبيض فتنقلب مصر القديمة من أم الدنيا إلى عروسها الجديدة . ويُعد الأمراء الملتزمون والكشافون والذين يحملون رتبة أمير الأمراء (ميرمران) وأمراء مصر وأعيانها هداياهم المعتادة إلى الباشا على حسب قانون التشريفات القديم .

ويكلّف أحد أغوات الباشا تطهير الخليج الذى يقطع جسره عند ملتقى النيل ، فيجمع خمسة آلاف بل أكثر من العمال وأبقار «الجرافة» ويطهّر الخليج فى مدة تتراوح ما بين أربعين وخمسين يوما وتُنفق فى هذا العمل عشر كيسات من المال . يعطى الأغا ألف پارة أجرة القَدَم . ويحصّل كيسان من المبلغ من القرى وأصحاب المنازل ويعطى كتخدا الباشا كيسين والباشا خمسة أكياس .

كان هذا الخليج فى زمان «حصيلم» ملك الأقباط يجرى صيفا وشتاء يستقى منه المصريون[(٢)] وأما الآن فقد امتلأ ترابا بمرور الأيام ، فلا يجرى إلا ستة أشهر بعد قطع النيل ويظل جافا ستة أشهر . وكان الأغا المكلّف بالتطهير يُعطى «التكاليف» وألف پارة أجرة «القَدَم»[(٣)] . حتى إذا انتهى من عمله سجل عَمَلَهُ فى محكمة باب النصر فيُعطى

(١) هذا العنوان من نسخة يلديز (المترجم) .

(٢) سقطت هذه العبارة : وكانت أرضه كلها مفروشة بالرخام . (د . السعيد) .

(٣) القدم هنا بمعنى البشرى والفأل الحسن . (د . السعيد) .

حجة شرعية يسلمها إلى الباشا . وحينئذ يُشرَع فى اتخاذ الإجراءات اللازمة للاحتفال بوفاء النيل ويكون النيل قد بلغ ستة عشر أو سبعة عشر ذراعا .

يوجد فى موضع قطع النيل جسر يدعى «جسر أبو المنجى Eboul Menca» يقيم الأغا المكلف بتطهير الخليج سدا من التراب تحت ذلك الجسر يصد الماء عن الخليج . ويقف عليه زورق كبير مزيَّن منقَّش لرئيس شرطة المدينة (صوباشى) ويحضر الأغا المحتسب ألفى رأس من السكر وبضعة آلاف أقة من الفواكه وسبعين أو ثمانين حمل بعير من الخبز الأبيض . ولا يعلم مقدار سائر أنواع الأطعمة والأشربة إلا الله . ويُحضر بعد الأغا المحتسب كل تلك الأشياء من جيب الباشا (الوالى) . ويقوم الصوباشى مع ستمائة أو سبعمائة من رجاله بالمحافظة عليها . من موضع قطع الخليج إلى بولاق مسيرة ساعة كما أن جزيرة الروضة المقابلة له على مسيرة ساعة كذلك . وليس على شاطئ النيل فى تلك المسافة موضع خال؟ فقد شغل كله بخيام وسرادقات الأعيان ومطابخ ومخازن بينها بحر متلاطم من الناس يستقبلون وفاء النيل باتخاذ الأماكن قبل حلوله بخمسة أيام أو ستة .

وأما سبتية بولاق فيكون بها نحو ألف أو ألف ومائتى سفينة من العقبات المزيَّنة لمدير مكتب الباشا (كتخدا) والمحافظ ، ورئيس الديوان وكتخدا الحجاب ، وأغا الرسالة ، وأمين الجمرك ، وأمين الأنبار وناظره ، ومن الفرقاطات والزوارق والجريمات والقيّاسات والقوارب التى يحضرها عشرون أميرا من أمراء مصر وأغوات البلوكات السبعة وأمراء الچركس والقبطان مزينة بالأطلس والحرائر المقصَّبة والأقمشة الثمينة قد رفعت عليها ضروب من الأعلام والرايات الموشاة بالذهب ، فلا ترى حبلا فى سفينة عاطلا . . . فجميع آلات السفن الداخلية والخارجية وأدواتها مزينة بضروب الأسلحة والمعدات كأنها مهيأة للقتال . ويبلغ عدد السفن فى ذلك اليوم حدا يغطى وجه النيل من قصر السبتية وبولاق وقصر العينى ومصر القديمة حتى قدم النبى ؛ فيصير كأنه مرج من الشقائق البرية وغابة من صوارى السفن . ويبلغ ازدحام السفن حدا يمكّن المرء من اجتياز النيل من ساحله إلى ساحله قافزا من سفينة إلى سفينة وحينئذ يُبَلَّغ الباشا بأن الاستعداد قد تم فتشرع المراكب فى السير .

وصف موكب قطع الخليج (قطع النيل)

وهذا الموكب يشبه موكب الباشا حين دخوله المدينة ، ولكنه يزيد على ذلك

باشتراك العلماء والصلحاء والشرفاء والخصيان . فأعيان القاهرة وأشرافها وشبانها وشيوخها ورجالها ونساؤها يتخذون حوانيت قبله بأيام فيقفون فيها من فجر يوم الاحتفال ، ويقف بعضهم من قبله بيوم أو يومين ، فيصبح الشارع من قلعة الجبل حتى بولاق ، وهى مسيرة ساعتين ، بحرا زاخرا متلاطما من الناس .

يسير الصوباشى على رأس الموكب مع مائتين وخمسين رجلا من رجاله المسلحين بالنبابيت وعشرة من جلاديه ، وهم يخلون الطريق من الناس ، مسبحين مهللين بالتوحيد السلطانى . ويمر بعدهم أئمة المساجد وخطباؤها أفواجا وعلى رؤوسهم القاووق[1] وخلفهم آلاف من رجال الطرق وعلماء المذاهب الأربعة فى ثيابهم السود (ملبس سياهلر) . ويسير خلفهم مائتان وخمسة وستون رجلا من القضاة الحاملين رتبة المولوية براتب خمسمائة آقجه والطرة الحريرة من المقيمين بالقاهرة . وخلفهم المفتون فى مذاهب الشافعى والمالكى والحنبلى والشيخ مصطفى أفندى البولوى شيخ الإسلام على مذهب الإمام الأعظم ، وقاضى العسكر أفندى ، ثم يمر موكب أصحاب الرتب من السادات الكرام البالغ عددهم بالقاهرة ستة وأربعين ألفا ، يمرون راكبين وخلفهم جميعا يمر نقيب الأشراف الشيخ برهان الدين أفندى ، بعظمة ووقار تحت لواء رسول الله الأخضر ، محييا الواقفين بجانبى الشارع . ويسير بعده الچاويشية بسراويلهم الحمر على مجوزة كل منهم شارتا هلال وعلى رأس جواده هلال واحد وبأيديهم ضروب من الدبابيس والهراوات . ويسير بعدهم موكب المتطوعين بسراويلهم الحمر على جيادهم حاملين فى أيديهم أعلام الفرسان ، ومعهم حملة الصَّنج يمرون مثنى مثنى وأغاهم يقرع طبلهم الكبير . وتسير خلفهم فرقة حملة البنادق وهم أيضا يحملون أعلاما كأعلام فرقة السباه ويلبسون سراويل حمرًا ، راكبين جيادهم الأصيلة ، ورافعين أعلامهم ومعهم صبيانهم ، وأغاهم اللابس المغفر يقرع كوسهم (طبلهم الكبير) . ويتبعهم موكب المتفرقة فى أثوابهم السمورية ومعهم صبيانهم حملة المَرادى يحملون مَراديهم . ويقرع أغاهم الكوس . ثم موكب الچراكسة وهم أيضا يحملون رايات حمراء كالسپاه[2] وخلفهم صبيانهم وأغاهم يقرع الكوس . ثم موكب الأربعين أو الخمسين أميرا من أمراء الچركس ويمرون بعظمة

---

(١) القاووق ، كلمة تركية الأصل معناها : القلنسوة . (د . متولى) .
(٢) السپاه كلمة فارسية دخلت التركية وتعنى : الفرسان ، العسكر . (د . متولى) .

ووقار كأمراء مصر ، وليس لهم كوس ويمر بعدهم موكب العزب وهم خمسة آلاف من المشاة (فى الأوقات العادية) وأما فى حفل قطع النيل فيبلغ عددهم عشرة آلاف رجل من البواسل يسيرون اثنين اثنين حاملين بأيديهم بنادق ذات فتائل مزدوجة وبأحزمتهم السيوف وبنادق الطليان Dalyan[١]

وبعد تلك المواكب كلها يمر موكب الانكشارية وهم ثمانية آلاف رجل ولكن عددهم يبلغ فى ذلك اليوم عشرين ألفا يلبسون فراء النمر ، وعلى رؤوسهم أسكفات مقصبة (قاووق الانكشارية) حاملين بنادق ذات مطرقة[٢] . ثم يأتى موكب أغوات الباشا وهم مائتا فارس بواسل ذوو أسلحة تتارية يمرون اثنين اثنين . ثم يمر موكب المتطوعين (كوكليان) وهم أربعمائة رجل يلبسون الطواقى ذات الأشرعة كأشرعة السفن ، وتيجانًا صالحية ومعهم حملة الصُّنج .

ويأتى بعد ذلك فرسان الدليل[٣] بأيديهم الملفوفة بفراء الذئب ضروب من الفلندرات (الأعلام)[٤] وعلى رؤوسهم تيجان مزينة بريش الكركى والصقر والزغنوس . وقد زُينَت رؤوس جيادهم بأهلة وبالحناء الحسنية والحسينية الواردة من معبر الدانوب[٥] ، ومعهم عدد من صبيانهم . ثم يمر موكب خدم الخيم حاملين الرماح . ثم خدم المائدة وقد ركبوا جيادا وحملوا حرابا طويلة وأعلام السباه . ثم يمر موكب الخُزَّان (الكيلارجيان) حاملين أعلامهم . ثم موكب سراجى الباشا ، يمرون مدججين بالسلاح حاملين الرماح وأعلامهم . ويسير بعدهم صنف المتفرقة على جيادهم حاملين أعلاما معلقة على عصى طويلة ومع كلٍّ واحدٌ أو اثنان من الصبيان .

وليس لدى والى مصر العَلَم الأصفر الذى تستعمله فرقة «السكبان» فلذا يدخل أفراد هذه الفرقة تحت رايات «المتفرقة» وخدم السفرة والكيلارجية الخزّان ويسير بعدهم

---

(١) تستعمل كلمة طليان = (داليان) : بمعنى كمين ، وذلك فى العبارة التركية : داليان قورمق = إقامة الكمين . ويمكن أن يستنتج من هذا أن كلمة (داليان توفنك) الواردة فى النص اسم لنوع من البنادق كان يستعمله القناصة . (د . السعيد) .

(٢) كلمة طوقماق الواردة فى النص التركى معناها المطرقة الخشبية . (د . السعيد) .

(٣) كان هذا الصنف من الفرسان يُطلَق عليه فى الأصل اسم «دليل» أى المرشد ، ثم اشتهر غلطا باسم «دلى» أى المجنون أو الشجاع . ولما كان أفراده يندفعون بشجاعة جنونية ، وقعت هذه الشهرة مطابقة لما اتصفوا بها من الجرأة (عثمانلى تشكيلات وقيافت عسكريه سى ، تأليف محمود شوكت باشا ، طبع استانبول سنة ١٣٢٥) (المترجم) .

(٤) الكلمة التركية فلانديرة محرفة من الكلمة الطليانية Bandiera بمعنى العلم الذى يرفع على السفينة الحربية أو الذى يستعمل للإشارة أثناء المناورات . (د . السعيد) .

(٥) فى النص التركى فى هذا المقام بضع كلمات تركية مضبوطة لم تترجم . (د . السعيد) .

موكب الأغوات وهم موكب يجب النظر إليه باهتمام . فهم يمرون على جيادهم بعظمة ووقار وخلفهم خمسات وعشرات من صبيانهم المدرعين حاملين الحراب . وبعد جميع هذه الطوائف يأتى موكب رئيس الحجاب ، وقد تسلح جميع أفراده ولبسوا أثوابا سمورية فاخرة وعلقوا خرجة على جيادهم ومع كل واحد منهم قَوْد ، وخلفه خمسة عشر أو عشرون أو ثلاثون من الحرس الخاص لابسى الدروع والمغافر .

موكب أمراء مصر

هم ستة وعشرون أميرا قد لفّوا على مجوزات مقصبة عمائم پريشانية[١] ولبسوا عباءات مقصّبة وركبوا جيادهم الأصيلة ، يمرون اثنين اثنين جنبا إلى جنب ، ركابا إلى ركاب ، وأمامهما أربعة من الشطار المسلحين بالطَّبَر[٢] وخلفهما سبعون أو ثمانون رجلا من الخدم الخاص يحملون الكنائن .

موكب الأغوات الطواشى مصاحبى السلاطين

وهؤلاء جميعا معتقون من خدمة السلاطين ولكل واحد منهم مخصصات تبلغ أربعمائة (آقچه) وخمسمائة «آقچه» . فبعضهم قد أعتق من إدارة البنات وبعضهم من مشيخة الحرم وبعضهم كان مصاحبا للسلطان ، فهم وزراء على المعاش ويبلغ عددهم نحو ألف من الأغوات ذوى الحشمة والعظمة مستغرقين فى زينات خليقة بالملوك . فليس فى مصر ولا فى استانبول موكب فى عظمة موكبهم . فقد خدم كل واحد منهم ثلاثين أو أربعين عاما فى استانبول ثم أعتق بعد أن أعطى آلاف الأكياس من المال وما لا يُعد ولا يُحصى من الجواهر . ولا يقام فى القاهرة احتفال كهذا إلا يسيرون بموكب عظيم كلُّه جلال ووقار . تتقطر أدمغة المشاهدين بما يتضوع منهم من المسك والعنبر . ويسير خلفهم سبعون أو ثمانون غلاما من مماليكهم الجمال حاملين الكنائن ، فهو موكب بالغ الزينة .

موكب الباشا

وإذا انتهى مرور الأغوات السود ، جاء موكب ستة وعشرين أغا من أغوات الباشا الممتازين الذين يحملون الرتب . وقد لبسوا قفاطين وعمائم پريشانية وعليهم عباءات

---

(١) العمائم الپريشانية عبارة عن عمائم غير منظمة أو غير منسقة كالعمائم السودانية . (د . متولى) .
(٢) تبر ، كلمة فارسية معربة (طَبَرْ) ، دخلت التركية (تبر) ، وهى آلة قاطعة تشبه البلطة . (د . متولى) .

مزينة ، ويسير خلف كل منهم ٥٠ ـ ٦٠ غلاما من غلمانهم الخواص لابسى الخوذة . ثم تمر توغات الباشا[١] وألويته وجياده التسعة المجللة بأجلال محلاة بالذهب والفضة ، مرصعة بالجواهر ، يقود كل واحد منها قائد (سائس) يلبس على رأسه مجوَّزة . وبجانبى السايس ستمائة رجل من ملازمى الانكشارية المصرية لابسى أسكفات مقصبة ذات تيجان حاملين سيوفهم على أحزمتهم ، دون أن يحملوا بنادق ، يسيرون بجانبى القَوْد .

وبعد كل تلك الطوائف يأتى موكب الباشا . يخرج الباشا من ديوان السلطان قلاون بعظمة وأبهة فى فرائه السمورى وسراويله الحمراء ، وقد زُيِّنت عمامته السليمية بطرتين مرصَّعتين بالجواهر ، وبحزامه كنانته المرصعة . ينزل من سلم ديوان قايتباى فيركب جوادا مقوده سلسلة ذهبية وعليه سرج مرصع بالجواهر ، ثم ينزل إلى مقام السلطان سليم بميدان السراى ويصلى فيه ركعتين ، ويقوم من كان فيه من العلماء والصلحاء والمشايخ والخطباء بالدعاء والثناء . ثم يقف مدير مكتب الباشا عن يمينه وكتخدا الجاويشية عن يساره آخذين بذراعيه فيساعدانه على ركوب الجواد بين هتافات شيوخ چاويشية الديوان ودعواتهم الصالحات . ويسير أمام الباشا ثمانية من الشطار بمغافر ذهبية محلاة بطرز وأحذية ديباجية مقصبة ، حاملين بأيديهم الطبر . وبجانبى الباشا يسير [السقاءون] بأثوابهم ذات الحشو الأحمر على لبدهم المصنوعة بالأسكف تيجان وبأيديهم زمزميات وبنادق داليان المرصعة ويسير خلف الباشا السلحدار والجوقَدار (خادم) على رأسيهما لبدة حمراء مقصبة ، وعلى حزاميهما كنانة ، ويحمل السلحدار سيف الباشا البتار . ويسير خلف الباشا أيضا أربعة وعشرون من الخدم ذوو الرتب ومائتا رجل من رجاله الخواص المدرعين على جياد أصيلة ، حاملين عصيا طويلة ونحو خمسين رجلا من القواصين يمرون حاملين على أكتافهم بنادق ذات مطرقة . ويتعقبهم كتخدا الباشا وأمين الصندوق ثم أفندى ديوان الباشا والإمام ورئيس المؤذنين ، ثم السناجق والأعلام وتسير بعدها فرقة الموسيقى عازفة من مقام «أوج عراق» . ويتعقبهم السراجون من غلمان الدائرة السنية ، ثم السقاءون ثم رجال المشاعل وقد أحاطوا مشاعلهم بأنواع الزهور .

وإذا خرج الباشا من باب العزب بهذه الأبهة والعظمة ، أطلقت من القلعة سبعون أو ثمانون طلقة من مدافع كولمبورنا[٢] ومدافع الهاون فتدوى القاهرة بهدير كالرعد . حتى إذا

(١) توغ ، كلمة فارسية الأصل ، دخلت التركية ، وهى عبارة عن طرة من شعر الخيل كانت تمنح قديما للأمراء والقواد العثمانيين بحسب رتبهم . (د . متولى)

(٢) مدافع الـ (قولومبور) من الكلمة الإيطالية colombiere وهى فى الفرنسية couleurine وهى مدافع طويلة الفوهة لم تعد تستعمل . (د . السعيد) .

سكن هذا الدوى ارتفعت أصوات التكبير «الله أكبر» من فرقة الانكشارية التى تقدمت الصفوف فتفعم القاهرة بأصوات التكبير والتهليل . وما أن تنتهى تكبيرات الانكشارية ، وهى ثلاث تكبيرات حتى تبدأ تكبيرات فرقة العزب وهى أيضا ثلاث تكبيرات . وإذا انتهى هؤلاء بدأ أولئك . يسيرون على هذا المنوال حتى يدخل سعادة الباشا بولاق بعد مسيرة ثلاث ساعات ، محييا بيده البحر المتلاطم من الناس على جانبى الطريق . وإذا نزل على قصر السبتية ، «والعظمة لله» ، شُرع فى إطلاق النار من البنادق والمدافع من الألف أو الألفى سفينة التى على النيل من بولاق إلى قدم النبى فى نار نمرود . يحضر الباشا بقصر السبتية مأدبة البيك القبطان ويتقبل منه هديته وهى خمسة أكياس نقدا وخمسة طواشية وخمسة جياد .

وصف سفينة وزير مصر

ويدخل الباشا عقبته ومعه إمامه ومؤذنه وقاضى العسكر وبعض العلماء ذوى الأرواح الخفيفة وينشر الملاحون أشرعتها ويعومونها بعد إطلاق مدفع . فتبدأ المدافع المنصوبة فى السفن فى إطلاق قذائف لا تعد ولا تحصى ، فيختفى نور الشمس فى دخان البارود الأسود . وقد صُنعت أشرعة عقبة الباشا من القماش الحريرى وزُيِّنتْ مقدمتها ومؤخرتها بمئات من الأعلام والرايات ونقشت آلاتها وأرسانها بضروب النقوش . ومكان الباشا بها قاعة فسيحة فى مؤخرها مغطاة بالحرير الأطلسى ، وفُرشت جوانبها الأربعة بنمارق مقصَّبة ووسائد . ويحيط بالباشا مائتا غلام من غلمانه ومائتا ملاح نظاف . وعلى رأس سارية الشراع أعلام مشقوقة على شكل شوكة الطعام مقصبة على الطراز الجزائرى طول كل علم نحو مائة ذراع ، يمس طرفه ماء النيل . وكذلك الرايات المرفوعة على أعمدة السفينة أعلام مختلفة من القماش المقصب . وبذلك النظام تسير العقبة على النيل .

وعقبات أعيان القاهرة وأشرافها أيضا مغرقة فى المقصبات ومحلاة بضروب الزينات ، وتسير فى ضجيج وصخب وفرح وسرور ، تقرع فيها الدف و«القَدوم» وتسمع من شتى الأرجاء أصوات المطربين والعازفين . فهناك الطبل العالى العثمانى يُقرع فى خمسة وأربعين موضعا ، وذلك عدا تسع جوقات خاصة بالباشا الوالى وعدا ألف موضع يُقرع فيه الكوس الخاقانى ، فكأن القلوب الميتة تبعث فى ذلك اليوم . فينتعش الناس فتحدث

الأبهة المصرية والعظمة المصرية ، والضجة المصرية والصخب المصرى ، فيسير الباشا بمراسم الأبهة والجلال ثلاث ساعات يقف أثناءها عباد الله فى الخيام والسرادقات والخَركاهات[1] المنصوبة على شاطئ النيل معظمين الباشا متواضعين وهو يحييهم وهم يردون على تحياته بأحسن منها ويرفع صبيان [٦١٧٦] كُتّابًا من الكتاتيب المنتشرة فى القاهرة أصواتهم «الله ينصر السلطان» وبهذا النظام تسير وتصل عقبة الباشا بعد ثلاث ساعات من إقلاعها إلى فم الخليج الذى يقطع فيه النيل فترسى على الشاطئ .

وصف قطع النيل

وفى هذا المكان يرفع آلاف من العلماء والمشايخ والصلحاء أيديهم بالدعاء والثناء فى اليوم الأول من شهر توت الموافق شهر تموز (يوليو) ويركب الصوباشى (رئيس الشرطة) زورقه المُرسى فوق السد المقام من التراب فى فم الخليج ، فيسرع آلاف من العريان العرايا برفع تراب السد . فما أن يجد النيل المتجمع كالبحر الخضم طريقا إلى الخليج حتى يندفع فيه هادرا كالرعد ، فيتصايح المشايخ قائلين «الفاتحة» وتُطلَق من العقبات بنادق ومدافع دفعة واحدة يخيل منها للناظر أن القيامة قد قامت . وأما الصوباشى فيدفعه النيل فى زورقه إلى القاهرة كأنه سهم أطلق من قوس قوية . وإذا تم ذلك ذُبح مائتا رأس غنم وخمسون بعيرا من التى أعدها المحتسب من قَبل ، على حافة النيل ، وتصايح العريان . لنهب اللحوم . وفى الوقت نفسه يُلقى المحتسب ومدير قصر الباشا فى النيل ألفى رأس من السكر وألفين من قطر النبات ، وثمانين حمل بعير من الخبز وخمسين قنطارا من البقسماط[2] وبضعة آلاف أقة من الفواكه وهذا أيضا شرط من أشراط يوم الحشر .

كم ألفا من عرايا العريان يلقون بأنفسهم فى النيل لالتقاط ما يلقى فيه ، فيخلط النيل بعضهم ببعض ويدفعهم مع تياره ، ومع ذلك لا يضيع شىء مما يلقى فيه ، ويستخلصون منه كل ما يلقى فيه سائرين مع التيار . ومن لطف الله أن أحدا من هذا

---

(١) الخركاه ، كلمة فارسية الأصل دخلت التركية وتعنى : الخيمة الكبيرة التى نسميها فى مصر حاليا السرادق . (د . متولى) .

(٢) بكسماد ، كلمة يونانية الأصل دخلت التركية ومنها إلى العامية المصرية ، وتكتب بقسماط وتعنى : الكعك القديد . (د . متولى) .

الجمع من العرايا لا يصاب بأذى فى هذه المعركة . فقد أطلقت أنا الفقير على ذلك المكان اسم «سوق العرايا» . وكأن صور إسرافيل قد نفخ فى ذلك اليوم ، فبعث هذا العدد العظيم من بنى آدم من قبورهم عرايا .

وأما إلقاء هذا القدر العظيم من النعم فى النيل يوم قطع الخليج فكأنه مقابل لما كان يُفعَل من إلقاء عروس مجلوة فى الحرير والجواهر فى النيل فى مثل ذلك اليوم . وحينما يرفع السد الذى يحبس الماء عن الخليج يدخل الماء فى القاهرة فيجرى من وسطها ويذهب إلى مديريات القليوبية والمنصورة والشرقية ويرويها فيزرع الناس ويعم الخصب والرخاء .

ذلكم هو ما يسمونه قطع النيل ، وما فى بلد على ظهر الأرض أمر مثله . إنه لموضع مشاهدة عجيب يتحسر عليه الملوك . وقد ورد ذلك فى جميع التواريخ . يشاهد الباشا تلك العجائب ، ثم يخلع على ستة أشخاص خلعا فاخرة وهم الأغا الذى طهر الخليج وأمين الساقية ورئيس الشرطة والأغا المحتسب (مدير البلدية) ومدير قصر الباشا ، ثم يُرفع الهلب فتستأنف العقبة سيرها نحو أعلى النيل فى فرح وابتهاج ، والباشا يحيى الواقفين على شاطئيه ، حتى يبلغ قصر المقياس الذى تقف عنده العقبة فيخرج الباشا إلى البر ومعه جنوده كلهم وأمير أمراء مصر ويقيمون صلاة الظهر ، ويسجدون سجدة الشكر لقطع النيل ويحمدون الله ألف حمد وحمد . ثم تقام مأدبة الباشا الوالى لجميع الأعيان ويحضر السماط المحمدى الذى يقصر اللسان عن وصفه . وهنا يدعو أغا الانكشارية الباشا إلى مأدبة الصباح عند قدم النبى فيعتذر الباشا قائلا ماذا يكون من الدعوة إلى الطعام . يتناول أرباب الديوان والعلماء والشرفاء والأعيان الطعام فى مأدبة الباشا ثم يستأذنون منه بالانصراف فينصرف كل إلى دائرته ويتمتع بسماع الأنغام الموسيقية الشجية من الدفوف فى غير خروج على أصول علم الموسيقى .

وأما الباشا الوالى فيمضى تلك الليلة فى قصر المقياس فى نعيم ولذة . وقد زُيِّنت مصر القديمة والسفن المنتشرة فى النيل بعدد لا يعلمه إلا الله من المصابيح والمشاعل والقناديل فصار الليل البهيم كالنهار المنير . وزين مدير قصر الباشا قصر المقياس بضروب من القناديل ، فصار القصر كأنه فانوس روضة الجنة . وتسمع ضروب من أصوات الدف و«القدوم» والنفير والمزمار وآلاف الطبول (الكوس) من كل الأرجاء حتى الفجر ، وفى كل ساعة تُطلَق آلاف القذائف من البنادق والمدافع برا وبحرا ، فتدوى الأرض والسماء بلا

انقطاع . ويقلب المطربون والعازفون منازل مصر القديمة والقاهرة والعقبات والجريمات والسفن والسرادقات والخيم المنصوبة على ضفتى النيل ، إلى مجالس تمثل «مجالس السلطان حسين بيقرا»[١] بما يعزف فيها من الأنغام الشجية وما يقال من الكلام الحلو . فلا تنظر إلى جهة إلا وتجد فيها لذة ومتعة ونعيما ، فهى تبهج النفس وتشرح القلب وتسر العين . ولا ينقطع سيل العشاق من زيارة بعضهم بعضا بالزوارق .

وصف رماة السهام النارية

وتأتى فرقة رماة السهام النارية ، أى سالكو طريق أبى على بن سينا؟ . فى مراكبهم إلى حضرة الباشا أمام قصر المقياس ، فتطلق صنفا من السهام الهوائية يصعد إلى الأوج ثم تنزل منه سهام سماوية ، تخرج من كل سهم آلاف المصابيح كأنها الشهب وتضيئ الأرض . وهناك نوع من القوارير ذات ثلاث قصبات تصعد إلى السماء ثلاث مرات ، فأولا يصعد إلى السماء سهم فيه أقماع من البارود فيبدو كأنه نجم صغير وإذا به يلتهب فيصعد منه سهم آخر متصل به ، وبينما ينزل الأول إلى الأرض يصعد الثانى إلى السماء فيلتهب هناك السهم الثالث فيعلو إلى ما وراء السحب وينفجر ويشتت السحب فيستعيذ «الكروبيون»[٢] بالله قائلين : «اللهم احفظنا من آفات الإنس» وبذلك يصعد إلى السماء ثلاث مرات متواليات ، وإن ذلك لفن عجيب . ثم سهم هوائى آخر يعرج فى السماء فينفجر فيخرج منه خمسون أو ستون سهما يطرد بعضها بعضا وهو أيضا مشهد بديع . وصنف آخر من السهام يصعد إلى السماء فينفجر فينقض منه على الأرض عدد كبير من السهام كأنها غضب سماوى فيتفرق الناس خوفا وخشية . وخلاصة القول أن تلك الليلة تمضى حتى الصباح فى إطلاق مئات الألوف من السهام الهوائية والسماوية والأوجية والنثرية والبحرية والطاووسية والديكية والكبشية والخمرية والجنونية والشادروانية والرعدية والفراشية والسمكية التى تغوص فى النيل فى موضع وتخرج من موضع آخر ويتكرر ذلك من ست إلى سبع مرات تبدو تحت الماء عائمة كأنها غوّاص تغطس وتطفو بشكل غريب . وثمة سهام تخرج من بعضها حصون وقلاع مصنوعة من الورق يقاتل بعضها بعضا قتالا عنيفا تمطر فيه النيران . كما تخرج منها أشكال القسس والفرنجة

(١) تقدم أن السلطان حسين بيقرا من ذرية تيمورلنك وكان مولعا بالفنون الجميلة . (د . عزام) .

(٢) طائفة من الملائكة . (د . عزام) .

وذوو الرءوس الحمر (قزل باش) ويقاتل بعضها بعضا قتالا لا هوادة فيه . ويعلقون السهام على صور من الخيل والحمير والخنازير والجان والعفاريت ، كما يعلقونها أحيانا على بعض الحمير والكلاب الحقيقية فلا تكاد تلتهب حتى تندفع تلك الحيوانات بين الناس فزعة طالبة النجاة منها ، فيختلط الناس ببعضهم فيكون مشهد مضحك . وخلاصة القول أن مئات من مهرة اللاعبين بالنار من المصريين يظهرون فى الاحتفال بوفاء النيل ضروبا من الفنون فى مئات من «البادالوچكا» و«الهاون» و«الطروبيا» و«السلم» و«شمس العالم» و«الأقفاص» و«الأشواك السماوية» و«الرعد» و«الأوران Oran» و«التنين» و «القنابل» وهاوناتها و«الحروانيات» وغيرها مما كانت ميزة الفرنجة فيما سبق ، فيقلبون الليل البهيم بسهامهم النارية إلى نهار ساطع فيصير الليل ليلة القدر والنهار عيدا .

يقضى المصريون سبعة أيام ولياليها فى لذة ونعيم بمصر القديمة . ويستأجرون بعض القصور الواقعة على ضفة النيل بمائة قرش فى اليوم . وقد تطلق بعض السفن السهام النارية على بعض تلك القصور قاصدا إحداث السرور والفرح والتفرج على تفرق الناس مفزوعين . ونتيجة الكلام أو القيام بالألعاب النارية كان من مزايا الأفرنج وأما الآن فقد ظهر أن (عزب) مصر اللاعبين بالأسهم النارية (الصواريخ) يعز نظيرهم على ظهر الأرض .

. . . .

لم أر فى بلد من بلاد الله ما رأيت فى مصر من الفن السمندلى . فإن المصريين يظهرون ضروبًا من الصنعة والمهارة فى الألعاب النارية ليلا ونهارا ، حتى يختفى وجه النيل فى نار نمرود ، كأنه طائر «السمندل» فيطلق على ما يقال ما قيمته مائة ألف قرش من السهام النارية . والحق أن هناك مئات العقبات ومائتى سفينة معروفة بالجريم وسائر السفن تقف كأنها قلاع فتطلق ألفى طلقة أو ثلاثة آلاف طلقة مكلفة ما لا يقل عن ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قرش . فمما لا شك فيه أن الألعاب النارية تكلف مائة ألف قرش على هذا الحساب وتمر السفن أمام الباشا متقاتلة قتالا عظيما .

ويمر أمراء مصر أمام الباشا وهم يحيونه مطلقين مدافعهم وبنادقهم عازفين موسيقاهم فى عقباتهم المزينة جوانبها الأربعة بضروب الحليات الثمينة ، ثم يتحولون إلى جهة الجيزة ، والباشا يتفرج على تلك المواكب البحرية مبديا عنايته على حسب من

بها من الركاب ، وقد أضيئت السفن بقناديل جميلة . هكذا يمر الليل فى دوىّ متصل من أصوات المدافع والبنادق حتى الصباح .

وفى الصباح يرسل الباشا مئات من ضباطه (أغواته) إلى أمراء مصر وضباط (أغوات) البلوكات السبعة وأعيان الدولة ليدعوهم إلى مأدبة يقيمها لهم . وكل مدعو يعطى الضابط المرسل لدعوته مائة قرش نقدا وقطعة من الجوخ وقطعة قماش .

ويحضر إلى قصر الباشا قاضى العسكر ونقيب الأشراف ومفتى الشافعية والمالكية والحنبلية ، وجميع العلماء والصلحاء والمشايخ والخطباء وأعيان البلوكات السبعة وأغواتها فتكون مأدبة عظيمة يتحدث الناس بأنها تكلف مائة كيس . حتى إذا انتهوا من تناول الطعام فى ثلاث ساعات وقدم لهم مشروب الورد وأحرق البخور ، أنعم الباشا على أهل المناصب سبعين حزاما وسبعين ثوبا وخلع سبعين خلعة فاخرة لأصحاب الرتب وأبقاهم فى مناصبهم ، كما أنهم هم أيضا يقدمون كشفيات مناصبهم . وذلك لأن قطع النيل رأس السنة . ثم ينعم الباشا بخمسة أكياس مصرية على البلوكات السبعة من الجنود الذين أحضروه إلى هذا المكان بتلك المواكب العظيمة . ويمضى الباشا ليلة أخرى فى المقياس وينعم على الأغوات بأن يعطى لكل أغا أغوية بندرا ، ويخلع عليهم خلعا فاخرة لمناسبة رأس السنة . وتكون مأدبة ذلك اليوم على مدير مكتب الباشا ويدعو إليها الأغوات الممتازين كذلك وبعد الانتهاء من الطعام يلبس الكتخدا خلعة سمورية من الباشا ، ثم يحصل كشوف الأموال الخاصة بالباشا . وفى هذه الليلة كذلك تزين مصر القديمة والمقياس والعقبات بالأنوار كما تقدم ، وتهتز الأرض والسماء من أصوات المدافع والصواريخ والبنادق . وفى الصباح يولم الدفتردار وليمة فاخرة تكريما لوزير مصر فى حديقة كنعان بك بجزيرة الروضة ، وبعد الانتهاء من الطعام يقدم إلى الباشا عشرة أكياس نقدا وعشرة طواشية وجوادا مجللا بجل مرصع ، كما يقدّم لاثنى عشر رجلا من أصحاب الرتب لكل جوادا مجللا بجل عادى وهدايا أخرى ، ويلبس خلعة سمورية من الباشا . وإذا كان الظهر واعتلى الباشا صهوة جواده . يقصد الانصراف جاء أمير الحج فأمسك بركابه راجيا منه قبول دعوته إلى حديقة على بك بالروضة .

يقيم الباشا أمير الحج مأدبة عظيمة يجتمع فيها عدد لا يحصى من العازفين والمطربين والمشعوذين والمشقلبين واللاعبين بالنار ، واللاعبين بالعصى والدبابيس

وغيرها ، يبلغ عدد أصناف الألعاب مائة وسبعين صنفا يعرض فيها أصحابها ألوفا من الفنون والصناعة على المدعوين فينالون إحسان الوزير . ثم يخلع الوزير خلعة سمورية على الباشا أمير الحج ويركب جواده وينصرف . وإذا بقائمقام الوزير ـ قائمقام ذلك الوقت ، أى أمير كان ـ يلتمس من الوزير أن يشرِّف مأدبته وقت غروب ذلك اليوم . وتكون مأدبته شبيهة بمأدبة أمير الحج كما أن هداياه كهدايا أمير الحج وهى خمسة أكياس نقد ، وجواد مجلل بجل مرصع ، وخمسة جياد بجل عادى وتحف وهدايا صغيرة . ويقدِّم كذلك هدية لكل من الأغوات الاثنى عشر أصحاب الرتب . ومتى تم ذلك يخلع الوزير خلعة سمورية على البك القائمقام ويعود إلى المقياس فى آخر الليل . وتمضى تلك الليلة أيضا فى الفرح والسرور كسابقاتها ، حتى إذا كان الصباح جاء زعيم الأمراء الكرام شاهبندر أمير الكلام فدعا الباشا الوزير إلى مأدبة يقيمها فى حدائق الروضة ، وقدم إليه خمسة أكياس من المال وخمسة طواشية . وجوادا ذا قيد ذهبى وسرج مرصَّع وهدايا أخرى ذات قيمة . ويحظى بخلعة سمورية فاخرة من الباشا .

هكذا تمر ثلاثة أيام ولياليها يقيم فيها الأمراء مآدب فاخرة للباشا الوالى ويقدمون إليه الهدايا وهو يخلع عليهم خلعا سمورية فاخرة . وفى اليوم الثالث أيضا يركب أغا الانكشارية عقبة الباشا ويركب جميع أصحاب رتبة (الميرميران) والأعيان العظماء عقباتهم فيسبقون عقبة الباشا مطلقين المدافع والبنادق ، متفكهين بضروب الفكاهات وجوقاتهم تعزف الأنغام الشجية فيبلغون المقياس بعد ساعتين ويحضرون مأدبة أغا الانكشارية . ويقدم الأغا إلى الوزير كيسا مصريا من المال وخمسة طواشية وبندقية مرصعة بالجواهر وجوادا مجللا ويخلع عليه الباشا خلعة سمورية . ثم يقدم أغا الانكشارية جوادا لكل من كتخدا الباشا والمحافظ ورئيس الديوان وأمين خزانة الباشا وأمين داره . ثم يركب الباشا عقبته فتنشر الأشرعة وتطلق المدافع ، ويتناول الطعام فى مأدبة المحافظ فى المقياس ، ثم يقدم صاحب الدعوة ثلاثة أكياس وثلاثة طواشية وثلاثة جياد إلى الباشا وجوادا للكتخدا ، ويخلع عليه الباشا خلعة ويبقيه فى منصبه .

وموجز القول أن بعض الوزراء يكتفى بأن يمضى ثلاثة أيام ولياليها فى لذة ونعيم جديرة بالملوك حتى لا يطول انقطاع الناس عن أعمالهم ويتأذوا بالمصاريف إذا استمر الاحتفال سبعة أيام حتى إذا كان اليوم الثالث وساروا فى عقباتهم صاخبين ، استقبلهم

أمام قصر العينى زورق فيه أغا العزب وكتخداهم ودعوا الباشا إلى وليمة يعجز اللسان عن وصفها . يتناول الباشا الطعام ثم يقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة جياد ، ويعطى الكتخدا جوادا . ويخلع الباشا خلعة فاخرة على صاحب الدعوة ويبقيه فى منصبه . ثم يركب الباشا عقبته فيسير بموكب إلى وليمة يقيمها الچاويشية بحديقة رمضان بك ، يُعطَى فيها الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة طواشية وثلاثة جياد . وأما الباشا فيخلع على صاحب الدعوة خلعة ويبقيه فى منصبه . ثم يدعوه رئيس المتفرقة إلى وليمة فى سرادق مزين يحيط به مئات الخيام بجزيرة الروضة ويقدم إليه بعد الطعام ثلاثة أكياس نقدا وثلاثة طواشية وثلاثة جياد ، ويحظى بخلعة فاخرة وبإبقائه فى منصبه . حتى إذا تم ذلك ركب الباشا عقبته فسار فرحا مسرورا بين الطبول والمزامير وإطلاق المدافع وذهب إلى قصر السبتية . وما إن يصل إليه حتى يطلق جنود الإسلام من آلاف الجريمات التى فى النيل ، والخيام المنصوبة على ضفتيه ، النار دفعة واحدة ويكبرون ثلاث تكبيرات ، فينتهى الفرح والسرور كأنه كان خيال الظل ، ويتفرق الناس ذاهبين لإيصال الباشا إلى قصره بالقلعة .

وحينما يصل الباشا إلى قصر السبتية يتناول الطعام فى مأدبة الروزنامه جى الذى يقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة جياد ومحبرة فضية وعشرة كتب نفيسة ، ويخلع عليه الباشا خلعة من فراء القاقم ويبقيه فى منصبه . حتى إذا تم ذلك امتطى الباشا صهوة جواده ومعه حرسه ، وسار كعادته القديمة . وقد ألّف جنود الإسلام موكبا ثالثا وساروا مثنى مثنى صفا صفا ، بلوكا بلوكا على حسب قوانينهم وعاداتهم ، يغمرهم الوقار والجلال . ويمر الباشا بأبهة خليقة بالملوك وقد وضع على رأسه عمامته السليمية المزينة بطرتين ولبس كنانته المرصعة على ثوبه السمورية ، بين صفوف متراصة من المتفرجين من كل الطبقات واقفين على جانبى الشارع لمشاهدة الوزير . وكلما حياهم الباشا بيده استقبلته النساء بالزغاريد والتهاليل والرجال شبانا وشيوخا بالدعوات والألقاب المختلفة كقولهم «حفظك الله وسلّمك الله يا عزيز مصر ، ويا متولى مصر ويا وكيل السلطان بمصر» ويسير بجانب الباشا رئيس السقائين وبجانبه الآخر رئيس خدم الخيم . بيد كل منهما كيس مصرى ينثر منه النقود على رؤوس الداعين للباشا وعلى مرأى منه ينال كل واحد ما قسم له . وليس هذا فحسب ، فهناك كثير من صبية الكتاتيب الذين يقفون صائحين «الله ينصر السلطان» تُوزّع عليهم الصدقات .

يسير موكب الباشا على هذا المنوال حتى باب العزب بالقلعة . وإذا بلغه ودخل منه أطلقت سبعون أو ثمانون طلقة من مدافع القلعة ، ثم أقام الباشا فى ديوان الغورى مأدبة عظيمة فيها أربعة آلاف سماط محمدى يحضرها الجنود كلهم ، وتكون آخر مأدبة من المأدب السبعين التى تقام فى سبعة أيام ولياليها خلال الاحتفال بقطع جسر النيل .

تلكم أعمال قطع النيل وأعياده وأفراحه التى وقفت على أسرارها أنا الفقير وثمة هدايا أخرى ترد إلى الباشا ، مما تخص قطع النيل ، سنكتب عنها فى الكتابة عن قانون التشريفات بمصر إن شاء الله .

وأما عهد حسين باشا ابن جانبلاط فكان عهد التأخر والانحطاط بمصر ، فلذا لم يكن يقام فيه الاحتفال بقطع النيل ، ومع ذلك قدمت إليه الهدايا المسماة «حالية» المعتاد تقديمها عند وفاء النيل . بيد أنها كانت هدايا قليلة ضئيلة ، كما قدمت إلى مدير مكتب الباشا وأغواته هدايا قليلة ، ذلك لأن الشعب المصرى كان مفلسا فى عهده وفى عهد الكتخدا إبراهيم باشا ، فلم يقيموا عيد قطع النيل ، ولو أنه أحد الأعياد الاثنا عشر الذى يحتفل به حسب قانون السلاطين الماضين . وله شهرة لدى مؤرخى الترك والعرب والعجم وسائر مؤرخى العالم . وكم من الشعراء والبلغاء والفصحاء كتبوا عنه ما يثير شهوة الاطلاع . إنه عيد لا نظير له على ظهر الأرض . ومتى كان السماع كالعيان .؟

الفصل السادس والأربعون
فى بيان نهر النيل المبارك وسائر أنهار الجنة العظيمة

ليكن فى علم الإخوان ذوى الأفكار النافذة والرحالين القديرين أنه قد اختلفت الآراء كثيرا فى الأنهار الجارية على ظهر الأرض . فرُوِى عن ابن عباس أن على الأرض من الأنهار الصغيرة والكبيرة كعدد ما بجسم الانسان من العروق . وأما بطليموس فقال إن على الأرض مائتى نهر كبير وأربعة آلاف عين صغيرة جارية . والمسافة الفاصلة بين نهر ونهر من الأنهار الكبيرة من خمسين فرسخا إلى ألف فرسخ ، فهى لا تزيد على ألف فرسخ ولا تنقص عن خمسين فرسخا . وأكبر جميع الأنهر أربعة ممدوحة من الخلق والحق . النيل أعظم الأربعة . فقد ورد ذكر النيل تصريحا وتنزيها فى ست عشرة آية كريمة فى القرآن العظيم والفرقان المجيد . وقال المفسرون أن الآية ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ نزلت فى المصريين والنيل . والمراد من الأرض فى الآية ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض﴾[1] هى أرض مصر والماء هو النيل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيحون وجيحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجنة» أخرجه مسلم منفردا . وثمة أحاديث أخرى كثيرة ولكنا اكتفينا بهذا القدر .

وأما منبع النيل فبتقدير الحق جل وتبارك ، وعلى قول بطليموس الصحيح ، هو جبل القمر على مسيرة سبعة أشهر جنوبى مصر ، ينبع من اثنتى عشرة عينا عظيمة تصب كلها فى بحيرة كبيرة جنوبى خط الاستواء ، فتصير البحيرة بحرا عظيما . والنيل ينفصل فرعا من تلك البحيرة ويجرى نحو الشمال فى الإقليم الأول والثالث (لعله الثانى) مارا بولايات «قرمانقه وقفان والفُنج» والبربر والنوبة و«الصاى» وهى حصن عظيم فى نهاية الحدود المصرية جنوبا على مسيرة شهر من القاهرة بها حامية عسكرية من شعب البلوكات المصرية ، ثم يدخل ولايات إسنا وأسوان وجرجا وهى ولاية الصعيد العالى . ويجرى بعدها مدة شهر مارا بمدن المنشية وطهطا وأبو تيج وأسيوط ومنفلوط وسنهوا وملوى والمنيا والفشن وبنى سويف التى يصل بعدها إلى القاهرة أم الدنيا . وإذا اجتاز القاهرة وجرى شمالا مسيرة خمسة أميال . فثمت موضع يُدعى «بطن البقر» يفترق فيه إلى فرعين : دمياط ورشيد .

---

(١) سورة المؤمنون .

فأما المدن المهمة الواقعة على فرع دمياط فهى ، ميت غمر وهى تابعة لكاشف المنصورة . وبمقابلها قصبة زفتى تابعة للغربية ومدينة المنصورة واقعة على شرقى النيل تابعة لكاشف المنصورة . وقصبة سمنُّوط (سمنود) من أعمال الغربية . ومدينة قوص[1] شرقى النيل من أعمال المنصورة . ومدينة بندر دمياط العظيمة واقعة على أرض الشرقية . وفيها يبلغ النيل المبارك موضعا يدعى مجمع البحرين ويختلط بالبحر الأبيض .

وأما المدن التى على شاطئ الفرع الذاهب إلى رشيد فهى محلة طنوب ومحلة بشير ، ومحلة أبو على وهى من مدن الغربية . وتقابلها محلة الرحمانية تابعة للبحيرة وتقابلها محلة إبراهيم الدسوقى وهى من مدن الغربية . ومحلة ملك ومحلة مطوبش ومحلة الأمير على كلها من أعمال الغربية . ومدينة رشيد من أعمال البحيرة . وإذا جاوزها النيل وبلغ «مرج البحرين» اختلط بالبحر الأبيض .

تلكم بعض المدن الواقعة على ضفتى النيل وعددها مائة وستون مدينة . ومن البحر الأبيض إلى قلعة «صاى» مسيرة ثلاثة أشهر فيها ألف وثمانمائة قرية عامرة مزينة وأما القرى البعيدة عن ساحلى النيل فلا يعلم عددها إلا الله . ويبلغ طول النيل من منبعه حتى مصبه ثلاثة آلاف فرسخ . ويتشعب النيل من البحيرة التى سبق ذكرها تسع شعب تجرى فى الممالك السودانية وفاس ومراكش (مرانكش) غربا ولكنى لم أذهب إلى تلك الجهات على أنى رحلت إلى الجنوب على ضفتى النيل حتى درجة ١٢ ودقيقة ٤١ عرضا داخل خط الاستواء . وسوف أكتب عنها مفصلا حين الكتابة عن الرحلة إلى بلاد الفُنج إن شاء الله ، وهى مما رحلت إليه بنفسى وعن حوادث حدثت لى . وقد أخبرنى من زار بلاد الفُنج أن فروع النيل تجرى غربا إلى جهات فاس ومراكش (مرانكش) حتى تصب فى أقيانوس ، أى البحر المحيط بعد جريان ألف فرسخ ، كما أخبرونى بأن تلك الأفرع خالية من التمساح .

وقد حدث أن سافر أناس إلى منابع النيل عدة مرات فى أيام السلطان المؤيد بلغوها بعد ثمانية أشهر وعادوا منها حاملين أمتعة وسلعا . ويذهب إليها أهل الفُنج دائما بقطع مسيرة خمسة أشهر ، فيبيعون فيها سلعهم للبرتغاليين ثم يعودون إلى بلادهم فى خمسة

(١) لعلها فارسكور . (د . السعيد) .

(٢) المؤلف يجرى وراء الإشاعات هنا . (د . متولى) .

أشهر . وملك الفُنج مالكى المذهب ومعتق الشيخ البكرى بمصر . فلذا لا ينفك عن زيارة البكريين رجال منهم . وبهذه المناسبة تأتى رسلهم إلى والى مصر أيضا حاملين بعض هدايا كالتروس المصنوعة من جلد الفيل ، وخشب الأبنوس ، وقرن الكركدن وجلد الضب والزباد وغيرها . وهم أجلاف وبُسطَاء يسكنون شاطئ النيل بيد أن الشاطئ قليل العمار فى تلك الجهات . والجهات العامرة هى «قلعة صاى» ومدينة «در» و«قلعة إبريم» وولايات الشلال وأسوان وإسنا ومدينة قوص وقنا وجرجا ثم سائر المدن حتى القاهرة ودمياط ورشيد ، فإن جانبى النيل فيها عامرة عمرانا عظيما . وقد ورد وصف عمارات مصر وعمرانها ووصف مدنها وأشكال القطر المصرى برا وبحرا فى كتب الخطط والهيئة وأطلس مينور وكتب الجغرافيا .

فى بيان محاسن مصر

وما كتبته أنا الفقير هو ما عاينته حق اليقين فى خلال رحلتى . ففى القطر المصرى سبعة آلاف خليج وأحد عشر ألف ترعة تمتلئ كلها حين فيضان النيل وتروى الأراضى فتزرع . ولا ينزل المطر فى إقليم مصر . وإن نزل فلا يزيد على مرة أو مرتين فى العام . فلذا يكون القحط والغلاء إذا امتنع النيل عن الفيضان . ولهذا السبب يُكَبِّر المصريون قطع النيل ويقيمون فيه الولائم والأفراح . فمصر أرض يابسة جدا ، ولكن إذا فاض النيل فيضانا مطلوبا تحولت إلى بحر خضم ، وأصبحت قرى الكاشفين والأمناء والملتزمين ، وقرى أوقاف الحرمين وسائر الأوقاف ، والقصبات والمحلات والكفور والنخيل الباسقة - وكلها مقامة على مواضع مرتفعة - كأنها جزيرة فى بحر . وقد بنيت قرى مصر ومدنها على قواعد هندسية . فبين كل قرية وقرية مسافة من الأرض تسمى (مَلَقة) عليها جسر من الأتربة . وإذا فاض النيل وامتلأت تلك الأودية الفاصلة بين القرى ماء ، تنقلوا عن طريق تلك الجسور ، وهى سدود عالية ترتفع أحيانا مقدار قامة خمسة رجال وأكثر . وهى الطرق التى يسير عليها الناس بخيلهم وجمالهم وحميرهم فى أثناء فيضان النيل . وإذا امتلأ النيل حتى تلك السدود سقى تلك الأراضى مدة عشرة أيام ثم اجتاز السدود وروى أراضى القرى الواقعة خلفها وقبلها بحرًا . وقد وضع الحاكم هناك محافظين أمناء من رجال الجيش المسلحين للحيلولة دون النزاع والقتال ، وتوزيع الماء على القرى وريها بنظام ، فلولا أولئك المحافظون لقتل الفلاحون والعربان بعضهم بعضا .

وفى بعض المواضع قناطر يمر النيل من تحتها لرى القرى ويسمى ذلك النيل ترعة وفى تلك الترع يجرى النيل لرى الولايات . وحاصل الكلام أن القطر المصرى كله ترع وخلجان وبرك أنشأها قدماء الكهنة والمهندسين على القواعد الهندسية الملهمة من معجزة إدريس عليه السلام . وكلها أمور ينبغى مشاهدتها .

ولما كان قطع النيل نهاية السنة الماضية وبداية السنة الجديدة ويحصل عنده الكاشفون والأمناء والملتزمون والرعايا والبرايا جميعا محصولاتهم تامة كاملة ، فإن حكم الكاشف يسقط وتزول سلطته ، فيعين مكان كل كاشف قائمقام و«مسلِّم» و«حوالة الحوالة» . ثم يرسل الباشا إلى كل كاشف أغا من أغواته لإحضارهم إلى ديوان القاهرة . ويعطى الكاشف الأغا الذى يذهب إليه من قبل الباشا أربعة آلاف پارة وجواداً وهى «حالية» يجب عليه دفعها ، وإن زاد عليها فمن عنده . ورأس السنة القبطية هو يوم عزل الكاشفين أيضا ويوم مولد السيد أحمد البدوى .

يستمر مولد السيد أحمد البدوى خمسة عشر يوما يتجمع فيه خلق كثير بصخب وشغب وتتلى فيه قصة المولد النبوى ، فهو مجتمع عظيم وعجيب واجب المشاهدة . وإن أفلس بعض الكاشفين والأمناء والملتزمين ولم يقدر على سداد ما عليه من الأموال السلطانية واعتصم بخانقاه السيد البدوى فرارا من أغا الباشا الحامل للأمر الكريم (بيورولدى) ، فليس فى استطاعة أحد أن ينتزعه منه ولو كان سلطانا . ومن حاول إخراجه منه عنوة شُلّت يده فإن العلماء والمشايخ والفقراء المجتمعين فى ذلك المولد يرفضون تسليم من يعتصم بالسيد البدوى من اللصوص والقتلة والمفلسين أيا كان طالبهم . وأما من أطاع من الكاشفين أمر الحاكم فحضر إلى الديوان السلطانى وقدم الحساب ودفع ما بعهدته من الأموال فتخلع عليه خلعة ملكية .

فى بيان ما بمصر من الأفعال القبيحة[1]

تلكم حال الكاشفين القادرين على إبقاء ما عليهم من الأموال . وأما الكاشف المفلس فيحبس فى الـ «أرقخانة» ويُعذّب بأنواع العذاب . ويُربَط بالبكرة فى ديوان الغورى ويعلق من يديه ويُجَرَّد من ثوبه ثم يجلده الجلادون بسياط من جلد الفيل جَلْدا

(١) هذا العنوان من نسخة يلديز . (المترجم) .

«اللهم عافنا» ، يعلمه من قاساه . فأما الكاشف المتصف بالأدب فيعجز عن تحمل العذاب ويموت من الخجل . وأما من يتحمل وينجو فتباع أمواله وأملاكه بالمزاد السلطانى وتُحصَّل الأموال التى بعهدته ، ويترك الكاشف على الحصير . وإذا رحمه وزير مصر بعد ذلك فيحظى بمنصبه سنة أخرى ويلبس خلعة من الوزير .

تظل الولايات أيام قطع النيل ستة أشهر غارقة فى الماء ولا يستطيع الكاشفون الذهاب إلى مراكز مناصبهم لمباشرتها ، ويقوم بأعمالهم فى تلك المدة الموظفون الذين يعينون قائمى مقام لهم متنقلين بسفن وقياسات ومعهم رجالهم من الذين يتراوح عددهم ما بين خمسمائة وستمائة .

وينقلب الفلاح تنينا ذا سبعة رؤوس . ليس له عمل ولا أرض مزروعة يرتبط بها . ويزيد عدد الأشقياء المسلحين بالنبابيت الذين ينتقلون بقواربهم من ولاية إلى ولاية متلصصين ناهبين القرى والبلاد . وبما أن جنود الكاشف المختارين من البلوكات السبعة ليسوا متصفين بتلك الصفات فلا يتهيب الفلاحون والعربان من القائمقام ويقومون للانتقام بعضهم من بعض منتهزين هذه الفرصة .

ومن حكمة الله العجيبة أن فلاحى مصر منقسمون فريقين منذ أيام قابيل وهابيل ابنى آدم ، يسمى أحد الفريقين «بنى حرام» وهم من أبناء قابيل ، رجال أشداء شجعان . والفريق الآخر يُدعى «بنى جذام» وهم هابليون متصفون بالمكر واللصوصية يعيشون عاطلين على الصيد والغارة ، فإن تسلط بنو جذام على موضع فكأنه أصيب بجذام عارض . بيد أن فيهم فتيانا غاية فى الشجاعة والبسالة . ولابد من أن يكون أهل قرية برمتها من الهابليين وقرية أخرى كل سكانها من بنى جذام ، فيعيش أهل القريتين خصوما أقوياء وأعداء جناة ، حتى إنهم يجمعون أحيانا جنودا من بينهم فيغيرون على قرى خصومهم عن طريق الجسور برا أو بالسفن المعروفة «بالقياسات» بحرا فيقاتلون حتى ينتصر أحد الفريقين فيقتلوا رجال المغلوبين شبانا وشيوخا ، ثم يبترون أثداء نسائهم ويبقرون بطون الحبالى فيستخرجون أجنتهن ويلقونها فى النار ليحملوهن على الاعتراف بالأموال المدفونة . وبهذه الطريقة يستخرجون كل أموال خصومهم ومواشيهم ثم يشعلون النار فى قراهم وبلادهم ويعودون إلى بلادهم غانمين أموالا كثيرة ، صائحين صاخبين ،

(١) هذا العنوان من نسخة يلديز .

وهم يتغنون الموال بلا خوف ولا وجل . ويؤدى نهب البلدة وإحراقها حتما إلى إفلاس صاحبها «اللهم عافنا» . إن فلاحى مصر قوم من الفراعنة الجبارين ، فيهم العناد والفسق والفساد . فهم قوم تجب مشاهدتهم .

وإذا انحسر النيل بعد ثلاثة أشهر تاركا الأرض طينا رمى الفلاحون حبوبهم ، وأعملوا أقدامهم فى الأرض . فحينئذ تطمئن قلوب الكاشفين والأمراء والملتزمين ، ويذهبون ومعهم جنودهم إلى ولاياتهم لزراعة أرضهم فى شهر بابه وهاتور من السنة القبطية . وبعد شهرين من ذلك التاريخ يأخذ حاكم جرجا جنودا محافظين من جميع الكاشفين ومن الأمراء السبعة على حسب القانون السليمى ، ثم يخرج مع ألف أو ألف وخمسمائة جندى لزيارة المديريات فيمكِّن الكاشفين من مناصبهم . كما أن كل ملتزم يأخذ معه أربعين أو خمسين أو مائة فتى من فتيان الأتراك (الأروام) الأقوياء ذوى المكانة والشجاعة فيضبط قريته وينفذ فيها حكمه . وعندئذ يسقط حكم الموظفين المعينين من قبل البلوكات السبعة بعنوان «القائمقام» و«المسلّم» فيصير الحكم كله بأيدى الكشافين .

وأما الذين نهبوا القرى وأحرقوها وقتلوا أهلها فى أثناء فيضان النيل ، فيبحثون عنهم ويتصيدونهم بخير الوسائل على ظهر الأرض (ولو كانوا فى قرن الثور الأحمر) ويطبقون عليهم أشد العقوبات وأقساها تطبيقا بطيئا حتى يقروا بأسماء شركائهم فيقبضون عليهم . ثم يسلخون جلودهم أحياء ويكسرون أيديهم وأرجلهم ويستردون منهم الأموال المنهوبة . هكذا يقضون عليهم جميعا لإصلاح العالم .

وصف جرأة جبابرة مصر

من الغريب أن لصا من فلاحى مصر أخطأه الحظ ووقع فى يد أحد الكاشفين واستيقن من قتله أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة أكياس نقدا طالبا إليه إيصاله إلى مكان القتل بالقاهرة بموكب كموكب قائد (بوغ) . فلا يكاد هذا الرجاء يصدر منه حتى يقبله الكاشف فيتسلم منه الأكياس ويسلمه للجلادين الذين يذهبون به إلى ميدان «السياسة» ـ الإعدام ـ ويصلبونه ثم يسلخون جلد ظهره إلى صدره وجلد صدره إلى ظهره وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموالى والرباعيات متفاخرا بمن قتلهم وصلبهم ، ويتحمل

كسر الجلادين ليديه ورجليه دون أن تصدر منه آهة . هكذا يسلخون جلده كله من جسمه ويحشونه بالتبن ، ثم يلبسون جيفته الدنسة ويركبونها حصانا ويذهبون بها إلى ديوان مصر منادين صائحين مهللين بأنه الحرامى الفلانى! إنه لمنظر غريب وبتلك الطريقة تُحصَّل الأموال السلطانية ، ممن يطير فى السماء ويمشى فى الأرض ويعوم فى البحر ، وتسلم إلى الباشا فتربط الخزينة السلطانية . وهذا القدر الهائل من الأموال يُحصَّل من الرعايا الفلاحين . من الفلاح الذى يعيش حافيا حاسرا لا تستر بدنه غير عباءة ، مع أن له أموالا كثيرة . فالفلاح المصرى مجتهد وذو جَلَد ومتانة . وقد قيل أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى مصر نظرة العطف والرحمة فلذا ينبت فيها الذهب . والحق أن ذلك القول صحيح . فقد قال فيها أحد العظماء «نيلها عجيب ، وأرضها ذهب ، وهى لمن غلب» والواقع أن كل من تغلَّب على مصر صار حاكمها . وحكامها متغلبون منذ يوسف عليه السلام . وليس لسلاطينها نسب وحسب ، كما أن شعبها ليس أهل مسكنة . وجنودها عصاة طغاة دائما ولا يحكمون إلا بالقوة والجبروت . وأما معنى أن الأرض المصرية تنبت بالذهب ، فإن أهلها يزرعون كيلة واحدة فيحصلون منها على عشرين كيلة يبيعونها بالذهب .

ومن خواص ماء النيل ، أن من شرب منه ثلاثة أعوام انقلب جبارا عديم الشفقة ولو كان تركيًا . ونساء مصر جذابات جدا بيد أنهن فى الغاية من قلة الأدب والحياء !! .

وخيلها الشاربة من ماء النيل شرسة بطرة ، تجتاز صحارى «كاتيه» و«أم الحسن» ولكنها مهما يُصنع بها فإنها ترفض السير إلى بلاد أخرى . وأما حميرها فذكية جدا ومعلمة وسريعة . وأبقارها التى تطهر ترع النيل وخلجانها أبقار عظيمة الجثة كجاموس أذنه ، تحتمل المشاق صبورة . فقد حفر قدماء الكهنة أرض مصر ترعا وخلجانا وقنوات مستخدمين مئات الآلاف من تلك الأبقار فى نقل ما خرج من الطين على جرافات أى صناديق زحافة . إنه عمل جدير بالمشاهدة .

أسماء الشهور باللغة القبطية

نظم قدماء كهنة مصر وحكماؤها الأرض المصرية هذا النظام على حسب القواعد الهندسية ، فجعلوا أرض النيل تلبس أربعة ألوان من اللباس فى العام ، قسموا الاثنى عشر شهرا أربعة فصول :

فالفصل الأول يشمل أبيب ومسرى وتوت من الشهور القبطية يقابلها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم من الشهور العربية[١] . فقد جرت سنة الله بإقليم مصر أن تكون هذه الشهور (ثابتة) فشهر توت وهو يقابل تموز (يوليه) شهر تام ثابت وليس دائرا كالشهور العربية . وفى هذا الشهر يظل النيل فائضا ، فيغرق الأراضى المصرية ويلبسها لباسا أحمر إذ أن ماء النيل يكون فى ذلك الوقت ممزوجا بطمى أحمر .

والفصل الثانى يتألف من شهور بابه وهاتور وكيهك ويقابلها من الشهور العربية صفر وربيع الأول وربيع الآخر[٢] . وفى هذا الفصل ينحسر النيل عن الأراضى كلها فيشرع الناس فى إلقاء بذورهم على طمى أسود كطينة أبينا آدم الشبيهة بالمسك والعنبر الخام الذى حمل من مسيرة عام وصُفى كما يُصَفى ماء الورد وخُمِّر بيد القدرة الإلهية ، فتلبس الأرض عباءة سوداء . ثم لا يلبث أن يظهر البرسيم الذى يزرعه جميع الزراع والذى ينمو بأمر الله شبرا فى كل يوم فيربطون عليه مواشيهم . والبرسيم عشب يشبه «اليونجة» التركية ، يصلح علفا للمواشى ويسمنها ويكبرها ، فحينئذ تخلع مصر عباءتها الصوفية وتلبس عباءتها الخضراء الزمردية فيعود إليها شبابها ونضارتها وينتعش فيها الناس والحيوان . فبينما يكون الشتاء فى أشد أيامه بردا فى بلاد الترك يسود مصر ربيع تعلف فيه الخيل فى المراعى .

والفصل الثالث هو شهور طوبة وأمشير وبرمهات ، ويقابلها من الشهور العربية جمادى الأولى والثانية ورجب ! . وفى هذه الشهور تتجرد مصر من ثيابها المخملية الرهاوية الخضراء لتلبس ثيابها الصفراء الزعفرانية الفاخرة ، فتصير صفراء كالذهب الإبريز وقد أينعت الزروع وانصبغت الأعشاب بلون الكهرمان ، وحل موسم الدرس . وفى هذا الفصل تُحصَّل الاثنتا عشرة خزينة مصرية من الأموال السلطانية وغيرها من الخزائن الخاصة بالأوقاف ، وهو وقت الحصاد .

والفصل الرابع عبارة عن شهور برمودة وبشنس وبؤونة ، ويقابلها من الشهور العربية شعبان ورمضان وشوال ! . يتم الحصاد فى هذا الفصل ، والأرض لا تزال صفراء كالذهب مصداقا للقول المشهور «نيلها عجب وأرضها ذهب» . وتربط مواشى القرى فى هذا

(١) لا يخفى ما فى ذلك من الخلط . (المترجم) .
(٢) يقابلها هذه الشهور فى الزمن الذى كتب فيه المؤلف . (د . عزام) .

الموسم بأماكن الأجران لتقتات من تبن المحصولات ، وعندئذ تلبس مصر خرقتها العباسية السوداء مدة ثلاثة أشهر . هكذا جرت سنة الله وستظل كذلك ما دامت الأدهار دائرة ، إنها لحكمة عجيبة . هكذا يظل الدهر دائما والدائرة هى شهورنا . وأما الشهور القبطية فثابتة دائما .

وموجز القول : إن أحوال الدنيا كذلك دائما . والإقليم المصرى لا يشبه سائر الأقاليم ؛ فغنمها تنتج مرتين صيفا وشتاء ، وخُضَرها وفواكهها متتالية ، فهى بلاد من صنع الله العجيب .

فى بيان مضار ماء النيل

حدثت مناقشات كثيرة فى شأن النيل ، ولكنا إذا نظرنا إلى الحديث النبوى الشريف فهو من أنهار الجنة . والحق أنه من مياه الجنة ، ولا يدانى لذة مائه سوى ماء «عين الجنة» التى بقلعة أرزن الروم أو ماء قيرق چشمه (أربعين عينا) باستانبول . وقد ورد فى كتب التاريخ والهيئة أن النيل لا تصب فيه أنهار أخرى من منبعه إلى مصبه ، وإن كانت هناك أنهار تصب فيه فهى من الأنهار المنفصلة منه . ولكن طبيعة ماء النيل قابضة بلغمية . ثم إنه يخضر حين تزول النقطة وبدء الزيادة ويستمر كذلك مدة شهر كامل . وأصحاب الطبع السليم يتجنبون الشرب منه فى تلك المدة . وإن كان لا مندوحة عن شربه فى الحباب[1] فيجب ترشيحه وغليه بالمصطكى . أو يجب إحضار الماء من بئر حفرها عيسى عليه السلام وأمه مريم فى موضع بالقرب من بلدة عين شمس على مسيرة ساعتين شرقى القاهرة ، فهو ماء لذيذ منعش من معجزاته عليه السلام .

وأما سبب اخضرار النيل مدة شهر وكونه مضرا لمن يشرب منه فى ذلك الوقت فناشئ من أن هناك مياها راكدة تتخلف فى الترع والخلجان والبحيرات من العام الماضى وقد مضت عليها سنة ومات فيها فى أيام الحر الشديد ما لا يحصى من الحشرات السامة كالحيات والعقارب وأم أربع وأربعين وغيرها فتعفنت ودودت ، كما أن ثمة مئات من البحيرات المليئة بالمياة المستعملة ؛ فإذا دخلت مياه الفيضان فى تلك الترع والخلجان طردت منها تلك المياه الفاسدة المسمومة فجرت فى القاهرة ماء أخضر . فمن شرب منه

(١) الحباب جمع حب وهو الزير . (المترجم) .

فى ذلك الوقت قد يصاب بتورم فى قدميه أو بداء الخنازير وبانتفاخ فى خصيتيه ، وإذا حملت منه زوجه أثناء مرضه هذا أو أنجبت ولدا فقد يصاب بمرض الجذام . فمن أجل ذلك يجب الحذر من شرب ذلك الماء الأخضر . اكتفاء بالمياه المحفوظة فى الأسبلة .

وماء النيل مفيد جدا للخيل والنساء ولكن بما أن مصر بلد فرعون فحكم مائها وجوّها جبار متكبر ، وحتى أوقاتها السهلة لا تخلو من الكدر . ودولة المصريين ليست دائمة لاختلاط الأموال يعيشيون منها بأموال وقف الله . وللنيل خواص كثيرة اكتفينا منها بهذا القدر .

الفصل السابع والأربعون
فى بيان ما بالنيل من الحيوان

فى النيل أنواع كثيرة من السمك . وبه حيوان مخوف ضار يسمى التمساح . وهو حيوان شبيه كل الشبه بسام أبرص والوزغ والضب مما يعيش من الحيوانات فى بلاد الترك له ذنب وأربعة قوائم . ويسمى بالعربية التمساح وبالفارسية «نَهنْك» وبالتركية «لوى» وبالمغولية «شلقون» . ويسميه النوبيون «وولى» واسمه بولاية علوى الشوشار . وهو حيوان ملعون يبلغ طوله أحيانا خمسة عشر ذراعا . وظهره مغطى بفلوس لا تؤثر فيه قذيفة البندقية من آلات الحرب إلا إذا أصابت تحت أذنه فإن هذا الموضع منه رقيق كشحمة الأذن ، فلذا يتوخى الصيادون أن تكون الإصابة فى ذلك الموضع أو بضربه فى رأسه من بندقية «ذات درهم» ولا يمكن قتله بغير ذلك .

خاصة التمساح

يصطاد الصيادون التمساح ، فيأخذون منه دهنا إذا دهنت به المواضع المتألمة من الجسم فى أيام الحر الشديد شفيت بإذن الله . ثم إن كل حيوان يحرك فكه الأسفل وأما التمساح فالمتحرك منه فكه الأعلى والفك الأسفل ثابت . ويحتوى فكه الأعلى على ستين سنا وفكه الأسفل على أربعين سنا ، وبفكه الأسفل نابان طويلان ينفذان من ثقبين بجانب منخريه بفكه الأعلى . فقد أنعمت النظر ولم أجد الثقبين فى التماسيح الصغيرة فهما نابان كبيران حادان كسيف الضّحاك[1] ، تتسلح بهما التماسيح الكبيرة . إذا نزل حيوان إلى النيل ، كالغنم والذئب والإنسان والفرس والبقر والجمل ليستسقى منه جاء التمساح فضربه بذنبه ثم سحبه إلى الماء وذهب به . وما كان من الحيوان فى حجم الإنسان والغنم فيبتلعه دون إمهال .

ومن الغريب أن التمساح لا دبر له . وإذا احتاج إلى قضاء الحاجة فيخرج إلى جزيرة من جزر النيل . وقد اقتضت حكمة البارى أن يخلق فى ساحل النيل نوعا من الطائر يشبه البط ببلاد الترك ، أبلق اللون قصير الرجلين ذا مخالب ومنقار . يراه التمساح طائرا فى الجو كالعنقاء فيبتهج . وقد يكون التمساح متنزها فى جزيرة ومعه أنثاه وليس فى

(١) الضحاك ملك فى أساطير الفرس كان جبارا يأكل لحم البشر . (د . عزام) .

حاجة إلى إزالة الضرورة ، فيراه ذلك الطائر وقد عضه الجوع ، فيحط على أنف التمساح ويقرعه بمنقاره ، ويحمله على فتح فمه رغم أنفه . كما أن بعض التماسيح يفتح فمه من تلقاء نفسه فيدخل فيه الطير حتى يبلغ جوفه ويدفع برجليه ما فى بطن الملعون من الفضلات إلى فمه وينقذه من الضيق ويفرحه ويحصل على قوت نفسه بذلك . لأنه يجد فى فضلات التمساح ديدانا يملأ بها بطنه . طائر قام بأمرين فى وقت واحد : وجد غذاء لنفسه وأنقذ التمساح من الضيق . وإنها لحكمة بالغة . وكما يقال فى المثل المشهور «إن العقعق لا يطهر ظهر العجل لينقذه من القمل ، وإنما يطهره ليأكل القمل» ، فإن هذا الطير كذلك يخدم نفسه خادما التمساح . وقد يجوع بعد ذلك الطير فيدخل فى بطن التمساح ليستخرج فضلاته فيطبق التمساح فكه ويبتلعه مع ما استخرج من بطنه . ولكن من حِكم الله العجبية أنه مسلح بعظمة حادة فوق رأسه تمس حلق التمساح وتؤلمه فيفتح فكه ويخرج منه الطائر سالما . حيوان لا دبر له سلِّط عليه طير لخدمته ، إنها لحكمة عجيبة يفعل الله ما يشاء بقدرته .

والتمساح تنين النيل المبارك ، تخافه المخلوقات كلها وهو يأكلها جميعا . فليس فى النيل حيوان أسرع منه ولا أقسى ، وإذا خرج إلى البر فهو بطئ جدا لقصر قوائمه ولا يسير إلا زاحفا تمس بطنه الأرض كما أنه لا يسير على الأرض كثيرا ، فإنه لا يقدر على الحياة خارج الماء أكثر من ثلاثة أيام .

فى بيان عدو التمساح اللدود

وإذ أن الله خلق تنينا جبارا فإنه لم ينس خلق سبب لموته كذلك . ففى شواطئ النيل حيوان صغير ذو قوائم أربعة شبيه بالفأر وهو خصم للتمساح يسمى «ابن عرس» . وهو حيوان ذو شعر يعيش فى الماء ويمشى على الأرض زاحفا كالتمساح ، ويبحث عنه لأنه عدوه الذى لا يرحم ، كما أنه يصيد الطائر الذى يستخرج من بطن التمساح فضلاته . فما أن يخرج التمساح من النيل لقضاء حاجته ويمشى قليلا حتى يزحف إليه من فوق الرمال والتمساح لا يراه ، لأن عينه فوق رأسه وليس له عنق . وجسمه قطعة واحدة ولا يستطيع النظر إلى يمينه أو يساره فى البر . فإذا جاء ذلك الحيوان إلى التمساح باحثا عن طعامه ودخل فى فمه المفعم بالأقذار صاح التمساح فألقى بنفسه من مكان إلى مكان حتى يلقى بنفسه فى النيل مفزوعا .

كنت مرة قادما من مدينة أسوان فى سفينة ، فرأينا تمساحا هائلا يموّج النيل كالبحر ويعوم يمينا ويسارا كالبرق الخاطف أو كسهم مطلق من قوس شديد ، ينفجر الماء من فمه كأنه فوارة ، شاهدت ذلك أنا الفقير فسألت الحاج رشيد ما لهذا التمساح؟ قال لعل هناك تمساحا أكبر منه يطارده . ولكن لا نرى هنا تمساحا آخرا قال لعله يبحث عن أنثاه . وبينما نحن كذلك اقترب التمساح من سفينتنا فأمرت المماليك بإطلاق النار عليه فأطلقوا بضع طلقات ذهبت سدى . وخرج التمساح أخيرا إلى البر الغربى وعليه أمارات الآلام والإعياء ، فذهبنا خلفه بسفينتنا ونزلنا إلى البر لنشاهده . وبينما كنا ننظر إليه متعجبين دهشين وثب من فمه ابن عرس وأسرع إلى النيل ومات التمساح . وكان طوله اثنتين وثلاثين قدما ، وثمت تماسيح يبلغ طولها أربعين أو خمسين قدما . والحق أن ما بولايتى أسوان وإسنا من التماسيح المفرطة فى الضخامة غير موجود فى غيرهما من ولايات النيل . فقد رأيت حصنا يدعى «الخفير الكبير» لصاحبه حسين بك الأعور الذى يعد وزير ملك الفُنج كُسِى بابه بجلد تمساح بدل الحديد وسمر بمسامير حديدية يزن كل مسمار منها ثلاث أقات . وقد قطع رأسه وذيله . وذرعت أنا الفقير ما بقى من جسمه فوجدته أربعة عشر ذراعا طولا فى سبعة أذرع عرضا . وأخبرنى شيوخ الفُنج بأن منها ما يفرط فى الضخامة .

وللتمساح خصم آخر هو فرس النيل الذى يكثر فى بلاد النوبة وبحدود مدينة دنقله من ولاية البربر فلذا يقل فيها التماسيح ، واسمه عندهم «وولى» وبولاية علوى يسمى «الشوشار» .

من الغرائب

ومن الغرائب من أمر التمساح أنه إذا أراد تلقيح أنثاه خرج معها إلى جزيرة من جزر النيل فقلبها على ظهرها ولقحها . وهناك رجال من العربان مصابون بمرض السيلان أو بهم غاية شيطانية ، فإذا رأى أحدهم التمساح فى تلك الحالة دنا منه متخفيا فى الأعشاب أو زاحفا على الرمال فعند ما يتهيأ التمساح لعملية التلقيح يظهر الرجل من كمينه فجأة صائحا صيحة فظيعة فيفزع التمساح ويلقى بنفسه فى النيل تاركا أنثاه على ظهرها لا تستطيع الحراك كأنها سلحفاة مقلوبة . والتمساح إذا قلب على ظهره فلا يستطيع أن يعدل نفسه لقصر قوائمه . ومهارته فى السرعة إنما هى فى الماء لاستعانته

بذيله . فأنثاه المقلوبة على ظهرها لا تقدر على مغادرة مكانها حتى يفرغ ذكرها من عملية التلقيح فيقلبها . وعضو التناسل لأنثى التمساح خلف قائمتيها الخلفيتين . والخبيث الذى يريد قضاء وطره منها يغطى خلفيتها وذنبها بالرمال ، ثم يباشر العمل المنكر بلا خوف ولا وجل ، «نعوذ بالله» ؛ بيد أن الخبثاء الذين يرتكبون هذا العمل متلذذين يدّعون حالفين بالأيمان المغلظة أن وقاعها ألذ من وقاع العذارى ، وأنها عذراء دائما إلا إذا نزل منها الدم ، وأن عضوها شديد الحرارة وأن عضو من واقعها يظل أسبوعا مسكا يعطر دماغه . ويقولون أن عضوها الجنسى أبيض خطائى يشبه بُضع الجوارى الحبشيات وهذا صحيح . فقد أحضرت واحدة منها إلى أوزبك بك حاكم جرجا وكان لها بضع (كسام) مدور يكاد يكون كما وصفناه ، ولها ظهر مبرقش مزين كأنه نقش الحرباء .

حكاية غريبة عن تمساح النيل

كنت مرة أتجول فى بلاد الشلال ، فدار الحديث حول التمساح . وكان صاحب المنزل الذى نزلت عليه شيخا كبيرا يدعى أبو جاد الله قد خبر حر الفلك وبرده فحكى قائلا :

كان لى فى أيام شبابى تمساح أنثى فى النيل . وكنت فى ذلك العهد صياد أصيد السمك بالشباك . ففى ذات يوم مرت بجانبى تمساحة وهى تعوم وكانت جميلة جذابة . فكسرت رؤوس عدد من الأسماك التى صدتها وألقيتها أمامها . فصارت التمساحة تدنو منى حينما أكون فى النيل وتلتهم السمك وتنصرف . وحدث أن خرجت ذات يوم إلى البر ومشت قليلا ثم رفعت ذيلها واستلقت على الأرض آمنة مطمئنة . وعندى علم بأن الأعراب يأتون التمساح . فما لبثت أن رفعت ذيلى أنا أيضا وأتيتها مرة ، فذهلت مما وجدت فيها من لذة وسرور . ثم أدخلت نبوتى بين ظهرها والرمل وقلبتها فتسربت إلى النيل متبخترة ولعبت فى الماء ألعابا عجيبة . قضيت معها ثلاثة أعوام وجميع عشائر الشلال يعلم ذلك . وما غبت عنها يوما إلا بحثت عنى . ولكنى انقطعت بعد ذلك عن شاطئ النيل خوفا من سائر التماسيح . وكان كلما جاءت تمساحتى إلى ضفة النيل تنتشر مادة زيتية كالزباد ذات رائحة مسكية فأجمعها وأبيعها بعشرة قروش مدة ثلاثة أعوام .

وأعجب العجب أنى ذهبت يوما إلى جزيرة النيل فلم أكد أبلغها حتى لحقتنى تمساحتى وخرجت إلى البر وتنزهت قليلا وماتت . ورأيت الجو قد أظلم ، ولكن ما لبث

الظلام أن انقشع فأشرق جسم تمساحتى ووجهها فإذا هى فتاة جميلة اندهشت لذلك . فتاة لها وجه مشرق وبضع تمساح وقائمتان . واتضح بعد ذلك أنها كانت بنت شيخ عربان ال «كنوز» سحرت فانقلبت تمساحا ، حتى إذا كانت فى النزع الأخير بطل السحر بأمر الله ففاضت روحها فتاة كما كانت ، ودفناها فى تلك الجزيرة فى حضور كثيرين من الناس .

قص الشيخ قصته هذه ومعنا بعض المسنين من أهل الولاية فصدقوه . وذلك لأن إتيان وصيد التمساح وقتله وتدريع الأبواب بجلده ليس عيبا فى تلك الديار بل هو أمر يدل على الشجاعة والبطولة ومن لم يقاتل التمساح ليس شجاعا . وليس هذا فحسب فإنهم يرغبون فى تزويج بناتهم ممن قتلوا التمساح والفيل لأن التمساح تنين تلك الديار الضار يخطف الحيوان حين يستسقى ويخطف الناس والصبية حين يستحمون فى النيل فهو حيوان شديد الأذى . وأما إتيانهم التمساح فإنه يكثر فى رجال هذا الشعب الضعاف ، والمصابون بالسيلان يلتمسون التخلص منه بإتيان التمساح ، كما أن بعضهم يلتمسون هذه الغاية نفسها بإتيان الجوارى الحبشيات اللاتى اشتهرن بحرارة أعضائهن الجنسية وجذبها للمادة المنوية من الرجل[1] .

خاصة التمساح

يلقح التمساح أنثاه فى الجزر فتضع بيضا فى حجم بيض النعامة ، ولكن بعضها ليس بيضا بل فى شكل دورق مبرقش . تدفنه فى الرمل وتنزل النيل وتظل تراقبه بالعودة إليه كل يوم . فقد يحدث أن ينكشف بعض البيض فيستوى بياضه بحرارة الشمس فيخرج منه فى اليوم الأربعين السقنقور الذى خلق من صفاره بأمر الله . كما يخرج التمساح من البيض المدفون فى الرمل . ثم إن للتمساح جلدا رقيقا فى حنكه يساعده على الحياة فى الماء . وأما السقنقور فمحروم منه ، فلذا لا يعيش فى الماء ويعيش فى البر .

وتبيض أنثى التمساح من عشر إلى اثنتى عشرة بيضة يفقس بعضها عن التمساح وبعضها عن السقنقور . ويسمى الحكماء السقنقور الناتج من التمساح بالسقنقور السمكى لقدرته على دخول الماء وإن كان لا يقدر على الحياة فيه . وأما السقنقور الذى ينتج منه

---

(١) موضوع إتيان التمساحة يعتبر نوعا من الشطحات الممجوجة فى نظرى . (د . متولى)

فليس يعجز عن النزول إلى الماء فحسب بل لا يشرب الماء أبدا ويعيش فى الصحارى والرمال ويسمى السقنقور البرى . وقد كتب الحكماء أن له منافع كثيرة .

خاصة السقنقور

ومن حكمة البارى أن لذكر السقنقور خصيتين ولأنثاه حرين فأما ما يولد من حرها الأيمن فهو السقنقور وأما ما يولد من حرها الأيسر فهو الضب ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ وإذا كان امرؤ فى حاجة إلى ما يقويه على الباءة فعليه بصيد واحدمن ذلك الحيوان وقطع رأسه وذنبه كما تقطع الحية التى يصنع منها ترياق الفاروق وتجفيفه فى الظل ووضع مثقال منه أى مقدار وزن الذهب المصرى ومثقالين من الزبيب الأسود ودقهما معا فى هاون وإذا تناول من ذلك المدقوق مقدارًا على الريق فإنه يستطيع أن يظهر بطولته فى تلك الليلة لعشرة جوار ويملأ قلوبهن بهجة وسرورا .

خطر السقنقور

وللسقنقور خطر أيضا فهو إن عض إنسانا فبادر المعضوض إلى الماء ودخله قبل السقنقور نجا ومات السقنقور ، وإن سبقه السقنقور ودخل الماء قبله هلك المعضوض ونجا السقنقور ؛ فلذا يجب على المعضوض أن يسرع إلى الماء قبله ! .

طلسمات التمساح بالمقياس

فى أفواه الناس أقوال كثيرة عن سبب تسمية أم القياس ، ومنها أن ملكا كانت له ابنة حسناء تُدعى «مقياس» ؛ فبلغ الملك أن تمساحا خطفها وهى تستحم فى النيل ، فجعل يصيح ويولول . ومن حكمة الله أنه كان معه فى ذلك الوقت الشيخ أبو بكر البطرينى من كبار أولياء الله فدعا للفتاة ، فما لبث أن أعادها التمساح بأمر الله إلى ذلك المكان سالمة معافاة ، فابتهج الملك وبنى ذلك القصر فى ذلك الموضع وسماه «أم القياس» ذكرى لنجاة ابنته . ثم أمر الشيخ البطرينى بصنع تمثال تمساح من الرخام وعقد عليه «وفقا أعظم» ودفنه تحت حوض أم القياس . ومنذ ذلك العهد لم يعد التمساح ينزل تحت أم القياس من النيل . وإن تجاوزه فلا يلبث أن ينقلب على ظهره ويرتمى إلى الساحل فيُقتَل . فلذا ليس فى القاهرة تمساح قط والسلام[1] .

---

(١) لم يستطع المؤلف أن يدرك أن مقياس فى اللغة العربية اسم آلة من القياس وأثر هذه الخرافات التى هو مولَع بها . (د . عزام) .

فرس النيل

يوجد فرس النيل فى ولاية النوبة فوق الشلال . وهو حيوان هائل كأنه حصان كثيف العرف والذيل يسير فى البر وإذا رأى ما يخيفه هرب إلى النيل . وإذا عاش فى البر فهو يعلف مقدار ما يكفى لعشرة من الخيل ويفسد الحقول . وقد يحدث أن يلقح بعض الأفراس فينتج مهرا بريا لا يعيش فى الماء . ويكون جميل الهيئة فى الجملة بيد أنه لا يتحمل المشاق كسائر الخيل ولا يصلح إلا للركوب .

كان لعلى الكاشف حاكم «قوص» مهر منحدر من فرس النيل فى الثانية من عمره . وكنا ذات يوم نتنعم ونتسلى مع الضباط بلعب الجريد بمصطبة بشاطئ النيل وإذا بحصان ظهر من النيل وصعد إلى الشاطئ فاتجهت خيولنا كلها إلى جهته رافعة آذانها . وعند الساعة الواحدة تقريبا سمع صهيل كالرعد ، فوقف ابن فرس النيل على رجليه فأفلت من يد السائس بلجامه ، وعدا مسرجا ومجللا وألقى بنفسه فى النيل . واختفى فيه ، وتعقبه من كانوا بميدان الجريد من الفرسان ولكن لم يستطيعوا إدراكه وما إن مضت مدة حتى خرج من الماء إلى الشاطئ المقابل والدماء تنزف من أنفه ويطارده حيوان كدابة الأرض ويعضه ، وما كان منهما إلا أن نزلا الماء مرة أخرى فاختفيا . بيد أن المهر ما لبث أن طفا فوق الماء وذهب مع التيار . فعندئذ ارتمى بعض السائسين الفدائيين العراة فى النيل فلحقوا بالمهر وجروه إلى جهتنا . ولما خرج إلى البر قام بكثير من حركات الدلال . وخرج خلفه فرس النيل مرة أخرى فأطلقت رصاصات لا عدد لها ولكن بلا جدوى حيث اختفى الفرس فى النيل ، بيد أن جيفته ظهرت فى مدينة قنا بعد ثلاثة أيام . وأما الفقير فلم أكن قد شاهدت مثل ذلك الحادث فى حياتى . وفرس النيل يكثر فى تلك الديار .

وفرس النهر شجاع جدا ، يقابل التمساح ويغلبه ؛ فلذا لا يستوطن التمساح حيث يعيش هذا الحيوان . وهو شبيه بالخيل البرية إلا أن ذيله الطويل كذيل البقر رقيق جدا فلذا يتخذ منه الأغوات طرات بحرية (بحرى خوتاز) لجيادهم . ولقائمتيه الأماميتين أظلاف فلذا يحل أكل لحمه . وشعر جسمه مختلف الألوان . ولكن الغريب فيه أنه هو أيضا يحرك فكه الأعلى كالتمساح ويصهل كالجواد الأصيل . وتصنع التروس من جلده فى بلاد النوبة ودنقلة وهى تروس متينة تقاوم السهم والسيف والرمح والمزارق ، ولا يخرقها إلا الرصاص . وتصنع من قضيبه السياط التى يُجلَد بها الناس فى مصر ، «نعوذ بالله»! .

ومن حكمة الله أن «بالنيل سمكا يسمى السمك الرعاد» ، فمن صاده وأمسكه بيده تقلصت يده . وإذا ألقاه من يده عادت كما كانت . فلهذا السبب لا يصطاده صيادو السمك ، وإذا دخل فى شباكهم ألقوه فى النيل مرة أخرى . وهو سمك أصفر تزن السمكة منه أقتين . ويوجد هذا السمك أحيانا على شاطئ النيل ميتا فيأخذه الناس لخواصه . ومن المتواتر أن من كان مريضا باصفرار اللون أو جاءه مغص وحمل رأس ذلك السمك وشمه من وقت لآخر شفى من مرضه . وإذا مُلّح رأسه ممزوجا بالمسك وحَمَل نصفه رجل ونصفه الآخر زوجه عاشا طول عمرهما متفقين ولم ينفصلا قط ، وهو مجرب ولكن ينبغى تجنب الأكل منه لأنه قد يكون قاتلا . وهو سمك لين منفوخ كقربة الماء مدوّر الرأس يزن نحو أقتين . وإن صيدت منه واحدة وماتت ، مات أليفه أيضا ، تلك حكمة عجيبة .

خاصة أخرى

إن أصيب أحد بحمى ووضع هذا السمك برقبته ميتا وربطه شفى من الحمى . وإن ابتلى امرؤ بصداع فوضع هذا السمك على رأسه زال هذا الصداع بأمر الله .

خاصة أخرى

إن حمل كل من رجل وامرأة قطعة من لحمه ظلا حتى الموت يغمرهما الحب والوفاق . وكم من رجال فى ولاية الصعيد العالى يقضون أعمارهم كلها مربوطين بنساء ماكرات من تأثير ذلك السمك .

وهذا السمك يسمى أيضا حوت إدريس ، وهو مبرقش كالسمك المعروف بـ (آلا باليغى)[1] يصلح دواء لعلل كثيرة . يروى أن إدريس عليه السلام لما أرسل إلى سكان هذه الديار نزلت عليه مائدة من السماء مؤلفة من ذلك السمك والجرجير (تره) ، فأكل منه وألقى عظامه فى النيل فخلق منها هذا النوع من السمك . ومن أجل ذلك منع إدريس أمته من أكله وعرّفهم بخواصه ، فلذا يستخدمونه حتى الآن دواء لعللهم المختلفة دون أن يجرؤا على أكله! .

---

(١) (آلا) بمعنى فاتح كلون الماء ويكون معنى العبارة بالعربية (السمك الفاتح) فلعله يريد (البياض) لا البلطى كما يرى الأستاذ المترجم . (د . السعيد) .

خواص التمساح

إذا ابتلى امرؤ بصرعة «اللهم عافنا» ، فأحرق كبد التمساح بالنار وبخر به المصروع شُفِى بإذن الله .

ذكرنا أن التمساح يقذف فضلاته من فمه لأنه لا دبر له . فإذا أخذ شىء من تلك الفضلات بمزود وكُحل به العين المصابة بالسحاب شُفيت بأمر الله .

(من هامش نسخة يلديز : إذا أخرجت عين التمساح وهو حى ، وعلقت بعنق المجذوم شُفى بأمر الله) . وقد حدث أن كان غلام لرئيس البلوك الأول (باش بلوك باشى) يتردد على باب اللوق بالقاهرة ، فأصابه الجذام وورم وجهه الذى كان ينقلب إلى صورة بشعة ويتآكل أنفه ، لولا أن أدرك ببضع أقات من لحم التمساح ، وحمل من عينها ، فانقلب نقيا كالبيض المقشور . وقد رأيته أنا الفقير وسألته عن ذلك فقال ، والله إن لحم التمساح يتضوع مسكا .

عجيبة مضحكة

بالنيل حيوان يكاد يكون ضبعا بلونه الأبلق ، يسمى «كلب النيل» يعيش فى الماء والبر ويعادى التمساح عداوة شديدة ، ويأكل صغاره . ولولاه لما أمكن عبور النيل من التماسيح . وهو لا يرحم التمساح الكبير أيضا إذا تمكن من الوصول إلى إبطه ؛ فإنه يستخرج كبده ويأكله . فهو مخلوق جد مضحك بقوائمه القصيرة وحِيله ومكره . إذا قرص الجوع بطنه ولم يجد ما يسكته عمد إلى حيلة يدهش منها الإنسان ، لصيد التمساح . يذهب إلى موضع تكثر فيه التماسيح فيتمدد على الطين مستقبلا الشمس على مقربة من الماء . فيراه التمساح ويحسبه صيدا ويسحبه بذنبه ويبتلعه . فما إن يبلغ الكلب بطن التمساح حتى يلتهم كبده ويشق بطنه ويخرج فيخرج التمساح إلى البر فَزِعا ويهلك . فلذا يحمل سكان هذه السواحل من الفلاحين عضوًا منه لينجو من شر التمساح .

ومن حكم الله العجيبة أن الصيادين إن اصطادوا واحدا أخذوا خصيته ثم ألقوه فى النيل ، لأن خصيته دواء للمغص والحمى المحرقة يشفى منها من يحملها . وإن قدر لهذا الكلب أن يحيا بعد ذلك بلا خصيتين ثم أوقعه القدر فى شباك الصيادين مرة أخرى فإنه لا يكاد يسحب من الماء حتى يستلقى على ظهره رافعا رجليه ليريهم بأنه برىء مما

يطلبون . فيلقيه الصيادون فى النيل ضاحكين يقولون أنه جرب الشباك من قبل . فهو كلب ذكى ومضحك جدا «والسلام» . ولو كتبنا عن أوصاف ما بالنيل من الحيوانات كما شاهدناها لكان كتابا ضخما لأن النيل المبارك نهر عظيم كالبحر .

فى جنوب أسوان مملكة تسمى بلاد علوة ليست بذات عمار . وبجانبها الشرقى على ضفة النيل مركز يسمى «الأبواب» يتفرع فيه النيل سبعة أفرع تجرى غربا إلى بلاد كثيرة فترويها ، ثم تعود فتصب فى النيل الأصلى . وكل فرع منها يرجع بلون خاص . فقد حدث أن ظل النيل أخضر زمرديا مدة شهرين كاملين فى عهد إبراهيم باشا أبى الخير سنة ١٠٨٢هـ فخاف ذوو الطبع الرقيق من شربه فلجأوا إلى مياه المطرية وغيرها من السواقى الحلوة والأسبلة وكان بعض الأثرياء الكبار يستحضرون الماء النقى الحلو من القليوبية على مسيرة ثمانى ساعات ، حيث توجد بها بئر لهامان وزير فرعون تدعى «بئر هامان» ، وهى بئر عظيمة لا يزال يدور بها اثنا عشر دولابا فى اثنى عشر موضعًا ، فكان الأغنياء المعنيّون بأبدانهم يحضرون منها الماء النقى الحلو كيلا يشربوا من الماء الأخضر والسلام .

وهنا تم وصف قطع النيل المبارك وخواصه ، وزيناته وما به من الحشرات وخواصها وغيرها من المواكب والحفلات .

الفصل الثامن والأربعون
فى وصف الاحتفال الثالث
رؤية هلال رمضان أى حفلة ليلة المحتسب

لمدينة القاهرة العظيمة ، اثنا عشر احتفالا عيديا عظيما . وهذا الاحتفال «موكب ليلة المحتسب» ويسميه العارفون بعيد النسوان . لأن أحدا لا يقدر على منع زوجه من الخروج فى هذه الليلة ، فلا مندوحة لها عن الخروج للتفرج على الحفلة برؤية هلال رمضان . وقد اشترطت عند زواجها أن يكون لها الخروج من بيت الزوجية فى هذه الليلة . ذلك هو القانون المصرى . فقبل يوم الاحتفال بأسبوع يستأجرون الحوانيت فى الأسواق السلطانية من قرش إلى خمسة عشر قرشا ، أو يذهبون إلى بيوت أقاربهم وأصدقائهم المقيمين فى تلك الأسواق [الشوارع] . وليس لأحد أن يسأل أهله أين كانت فى تلك الليلة ، فهو مشهد عجيب . ويجعل أهل القاهرة هذه الليلة ليلة الانفصال عن اللذة والنعيم ، فلذا يحيونها حتى الصباح . فقد زين كل صاحب حانوت وجه حانوته بما فيه من السلع والأمتعة وزُيِّنت الشوارع بمئات الألوف من المصابيح والقناديل ، واجتمعوا مع رفقائهم كما اجتمع العشاق مع من يحبون منتظرين حفلة المحتسب . وهاك مبدأ هذا الاحتفال :

إنه فى عهد (. . . .) وقع الشك فى تحديد غرة رمضان المبارك وعجز العلماء والأعيان وأمراء الديوان عن إثباته ، فقالوا إن هذا الأمر من اختصاص الأغا المحتسب وأرسلوه ورجاله فى ليلة التاسع والعشرين من شعبان إلى قاضى مصر ليأتى بالخبر اليقين عن يوم الشك . فذهب المحتسب بموكبه إلى قاضى العسكر فحصل منه على النبأ اليقين الشافى وبشر الملك بذلك . ومن ذلك اليوم صار ذهاب الأمة المصرية بحفل إلى باب الشريعة ، تعظيما لاستقبال رمضان المبارك من الشعائر الدينية الإسلامية ورسما من المراسم . ولا تزال سُنَّة بهيجة يعجز اللسان عن التعبير عنها والقلم عن التحرير فى وصفها .

والبك المحتسب أحد الحكام الأحرار بالقاهرة فى هذه الليلة وسائر الليالى ، ولا يقدر على القتل لأن الأمر المطلق ليس بيده ، ولكن له أن يحكم على جميع أهل الحرف وأن ينفذ السياسة والعرف بالحبس والتغريم .

وإذا كانت ليلة الرؤية أى ليلة الشك فى أن هلال رمضان سيُرى أو لا يُرى ، اجتمع البك المحتسب والصوباشى ومع كل منهما خمسمائة رجل من أتباعه فيذهبون إلى القلعة بعظمة ووقار واحتشام ، وهم يدقون طبولهم ، ويدخلونها من باب العزب ، ويقابل المحتسب الباشا بعد العصر فى ديوان الغورى ويقبل الأرض ويقف . فيصدر الباشا أمره بإلباس المحتسب حزاما مقصبا فاخرا على كسوته السمورية التى يلبسها . ثم يضع الباشا بيده عمامته السَليمية على رأس المحتسب ويزينها بطرتين مرصعتين من طرره السلطانية ، ويقول له «بلغ تحياتنا إلى أرباب الشرع الرسولى المبين ومشايخ المذاهب الأربعة وسماحة قاضى العسكر واسأله عن رمضان المبارك أيحل غدا ؟ ونبئنا بنبأ سار» ويقبل المحتسب الأرض قائلا سمعا وطاعة . وعندئذ يقوم كتخدا الباشا فيقول «سيدى الباشا ، رأيتم عبدكم المحتسب خليقا بأن يلبس هذه الخلعة الفاخرة وأن يحلى رأسه بالطرة السلطانية و«ما الإحسان إلا بالتمام» . ويلتمس الآن جميع عبيدكم من السقائين وصانعى البنادق والشطار والمعاونين وفرق الموسيقى والأغوات السماح لهم بالمشاركة فى حفلة عبدكم هذه على حسب القانون القديم ويَقبل الباشا التماس الكتخدا فيأمره باتخاذ ما يلزم للحفلة من الإجراءات . فيُقبِّل المحتسب الأرض مرة أخرى وينصرف من حضرة الباشا ومعه الكتخدا . وبعد ذلك يدخل على الباشا كتخدا الحجاب ممثلا جميع الأغوات ويلبس من الباشا خلعة فاخرة . ثم يدخل الرؤساء العسكريون الذين أمروا بالاشتراك فى حفلة المحتسب من رجال البلوكات السبعة فيتشرفون بخلع متوسطة ويكون الباشا مع هؤلاء على بصيرة تامة ، وينبه عليهم مؤكدا بأن يكونوا على حذر ودقة فى تلك الليلة ، وأن يضبطوا أتباعهم ضبطا محكما . فيقبِّلون الأرض قائلين : «الأمر أمركم» وينصرفون . ثم يدخل عليه رئيس الشرطة ومعه الدويدار ويقبلان الأرض ، ويخلع عليهما الباشا خلعة فاخرة ثم ينبه عليهما تنبيهات شديدة وينصرفان .

وبعد تلك الإجراءات يحضر جنود الباشا جميعا إلى ميدان السراى ، فيمر قبل كل الناس رئيس الشرطة أمام الباشا ، مخليا الطريق بموكبه المؤلف من الجلادين ، ثم يمر رجال البريد وكتبة الاستطلاع والمتطوعون وخدم المائدة والخزَنَة ، وخدم الخِيَم ثم موكب السراجين من غلمان الباشا ، وموكب المتفرقة وموكب واجب الرعية والحجاب ، ثم جياد الباشا التسعة القُوَد المسرجة بسروج مرصَّعة ، وشطّاره المستغرقون فى أثواب

مزركشة مقصبة حاملين طبرهم الإسلامى[١] . وبعد تلك الفرق جميعا يمر البك المحتسب وبجانبه كتخدا الحجاب ، أمامَ الباشا على النظام الذى يسير عليه الباشا نفسه ، ومعهما فرقة موسيقى الباشا وينزلان من القلعة . وليس فى هذا الاحتفال من أنواع الأعلام لا (التوغ) ولا (السنجق) ولا علم رسول الله .

ينزل الموكب على هذا النظام من باب الوزير . ويشترك فيه مئتا جندى من كل بلوك من البلوكات السبعة التى بمصر ولا يشترك أكثر من ذلك لأنهم ينالون مكافأة بعد انتهاء الحفلة ، وإذا زاد عددهم عجز المحتسب عن مكافأتهم ، فلذا لا يحضر منهم إلا ألف وأربعمائة جندى مسلحون مزينون . فأولا يتقدم رئيس الشرطة على جنود الباشا ومعه مئتا چاويش عسكرى من حاملى الدبابيس وقد زُيِّنَت رؤوسهم بالتل . ويسير بعدهم مئتان من المتطوعين ثم موكب صانعى البنادق ثم موكب الچراكسة ، ثم موكب المتفرقة ثم العزب ثم الانكشارية من الملازمين الذين يضعون على رؤوسهم أسكفة مزركشة مقصبة وهم يسيرون راجلين خارج شطار الباشا المحيطين بالبك المحتسب . ويسير معهم السپاهيون والجنود . وتسير المواكب على هذا النظام حتى تبلغ جامع محمود باشا بميدان الروميلى وقت الغروب فتقف وتكف موسيقاهم عن العزف . ويصلى البك المحتسب وبعض الضباط صلاة المغرب ويتأخرون قليلا بالمسجد حتى يسدل الليل ستار الظلام . ويتم تجمع المواكب التى يديرها البك المحتسب .

---

(١) الطّبَر : التبر المسلمىّ نوع من البلطة منسوب إلى أبى مسلم الخراسانى وليس إلى الإسلام كما فى الترجمة (د . السعيد) .

الفصل التاسع والأربعون

فى بيان ما بالقاهرة من أهل الحرف وحوانيتهم وعدد أنفارهم[١]

كل من نذكرهم من أهل السوق والحرف والصناعات تابعون لإدارة البك المحتسب فهم ينتهزون كل فرصة تكريمية أو قانونية فيقيمون حفلات عظيمة كأنها من الأفراح الملكية .

وإذا خرج البك المحتسب من جامع المحمودية وركب جواده الأصيل شاكرا حامدا أطلقت الفرق العسكرية طلقة نارية دفعة واحدة (يا سليم أتش) وكبرت تكبيرة محمدية فامتلأت القاهرة بأصوات «الله أكبر» ثم سار الصوباشى ومعه سبعمائة من رجاله المسلحين بالنبابيت ونحو ألف من فرسان العربان ، وثلاثمائة مشعل . وإذ أن جميع من بالقاهرة من المطربين والرقاصين تابعون لإدارته فإن مئات العازفين والمطربين والرقاصين والمشعوذين يمرون بموكبهم الصاخب كخروج الدجال أو كقيام الساعة . ويسير جلادو الصوباشى كتائب كتائب مُرشدين صائحين بالأمان العثمانى للذين خرجوا لمشاهدة الحفل منادين : «هذا وكيل السلطان ووالى الولاية حفظك الله وينصر السلطان» . ويمر بعدهم الصوباشى بكل أسباب العظمة والاحتشام وقد أضئ حوله بألوف القناديل المعلقة على العصى ، ويسير معه أربعون أو خمسون غلاما يتسمون بالجمال ، وقد وضعوا على رؤوسهم قلانس مزينة وخلفهم فرقة الموسيقى المنظمة أربعة أربعة . ولا يشترك فى ليلة المحتسب هذه أحد من الأعيان والأشراف والعلماء والصلحاء والمشايخ والسادات وأئمة المساجد والخطباء وحاملى رتبة المولوية والقضاة ، ولكنهم جميعا يشاهدون الموكب فى السوق السلطانية وليسوا مأمورين بالاشتراك فيه .

تظل القاهرة فى تلك الليلة ساطعة الأنوار حتى الفجر ، كأنها ليلة القدر ، وكأن أمرا ملكيا صدر بالهرج والمرج فيجتمع النساء والغلمان جماعات جماعات ، فلذا يسميها بعض الظرفاء ليلة «الجَمال» لأن كل من امتاز فى القاهرة بالجمال والخفة يستعير من أبيه أو أمه أو سيده أسبابا وأثوابا مقصبة مزركشة فيخرج كما يخرج أبناء مشايخ أهل الحرف راكبين جيادا أصيله مسرجة بسروج مرصعة ، يتهادون فى أثوابهم السمورية

---

(١) هذا العنوان يتخلله الكلام عن موكب الرؤية لأن أصحاب الحرف يشتركون فى الموكب . (د . عزام) .

وطُرَرهم المزينة وتسير معهم موسيقاهم عازفة أنغاما شجية . ويسمى بعض الظرفاء هذا الموكب موكب السخرية (تشمران) وموكب المضحكين . والحق أن كل من بالقاهرة من المضحكين وأهل الهزل يغادرون بيوتهم ، فيقومون فى الشوارع بضروب الهزل والهذر . وبعد موكب الصوباشى يأتى :

١ ـ موكب المزارعين (الدهاقين)

المزارعون فى مقدمة جميع أهل الحرف ، لأن حرفة الزراعة متقدمة على كل الحرف . وهم قوم لا حصر لهم ولا عد وآدم عليه السلام شيخهم الأكبر . ويأتى بعدهم الكيالون أى الذين يكيلون الغلال وعددهم ألفا رجل . ثم صنف المغربلين الذين يغربلون القمح ؛ فلو كان القمح والشعير والعدس والأرز والفول والحمص والخشخاش مخلوطا بعضها ببعض لأمكنهم أن يفصلوها ويجعلوا كل صنف وحده فى لمح البصر ! وهم إذ يهزون القمح فى الغرابيل يكتبون به كلمات «بسم الله» و«لا إله إلا الله» و«يا الله» و«يا شافى» و«يا كافى» ؛ وليست لهم حوانيت ، ولكن عددهم جميعا يبلغ ألف رجل يعمل نصفهم فى أنبار[1] يوسف ونصفهم يغربلون غلال أعيان القاهرة . ويأتى بعدهم صانعو المناخل والغرابيل وعددهم ثلاثمائة يعملون فى مائة وسبعين حانوتا .

٢ ـ موكب البستانيين

بالقاهرة ألفا بستان وحديقة وغيط يعمل فيها تسعة آلاف وثلاثمائة بستانى ، وشيخهم إسماعيل عليه السلام . ويسيرون فى المواكب حاملين المعازق والفؤوس والمجارف وغيرها ، وينادون يا خالق ، يا رازق ، يا منعم ، يا مغنى ، يا غنى ويتقدمهم رئيس الكيالين والبستانيين وقد زينا رأسيهما بضروب من الأزهار والرياحين والسنابل والآس والحناء والورد والنسرين وبأيديهما أغصان الليمون والنارنج والعطر ومعهما غلمانهما ، وموسيقاهم تعزف أنغاما شجية .

٣ ـ موكب السقائين والحمالين

ليس للحمالين حوانيت وعددهم ثلاثة آلاف رجل . ثم السقاءون الذين يحملون الماء على الحمير ، وهؤلاء أيضا ليست لهم حوانيت . ويبلغ عدد الحمالين والسقائين معا

(١) أنبار ، كلمة فارسية الأصل دخلت العثمانية وهى فى التركية ambar وتعنى : مخزن الغلال أو الأمتعة . (د .متولى) .

ثمانية آلاف رجل تكتظ بهم الشوارع والحارات حتى لا يجد المرء مجالا للسير من ازدحامهم . ثم السقاءون الحاملون الماء على ظهورهم وعددهم ثمانمائة سقاء . ويأتى بعد ذلك بائعو الماء فى الحوانيت وعددهم أربعون ألف حانوت يباع فيها الماء النقى ، وقد زينت بضروب القلل والأباريق والطاسات يدفع الشارب منها حسب جوده وكرمه أدنى قطعة من النقود . وثمت مائة نفر من السقائين النظاف يملأون قربهم النظيفة الطاهرة بالماء النقى من تلك الحوانيت ، ويوزعونه على أرباب الدولة فى طاسات منقوشة مجلوة كالذهب الخالص وفى ضروب الأكواز المزينة .

ويأتى بعد ذلك بائعو العرقسوس ، وهو مشروب يستخرج بغلى جذور حلوة لنبات يكثر فى جهات «منتشه» و«آيدين» و«صاروخان» و«جزيرة استانكوى» من بلاد الترك ومشروبه نافع للمصريين ، وقد ذكر له فى تذكرة داود منافع كثيرة للبلغم ولإدرار المثانة . والحق أن ماء النيل بلغمى وقل أن يخلو مصرى من السعال ، فلذا يمزح الناس فى كل البلاد مع أبناء العرب قائلين إنهم «أهَو أهَو»[1] وإذا شرب أحد المصريين من مشروب العرقسوس وسعل وقذف من فمه بلغما[2] نجا من الضيق فهو مشروب جد نافع . والحوانيت التى يباع فيها هذا الصنف خمسون حانوتا ، بيد أن عدد الذين يبيعونه يبلغ زهاء ألفى رجل ، يملأون به الجرار ثم يجولون به فى الشوارع والحارات منادين «العرقسوس!» ويبيعون الطاس منه بفلس . ومن شربه فى أوقات الحر الشديد ترطب جسمه وبرد .

ويأتى بعدهم بائعو الخشاف وهم سبعون نفرا يعملون فى أربعين حانوتا ، يصنعون فيها ألوانا من خشاف الفواكه . بيد أن الفقير يؤثر مشروب التمر الهندى الممسك . وكنت أعب منه كل يوم طاسا . ثم يأتى محترفو بيع السوبية وهم أيضا سبعون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا يصنعون من أرز دمياط وفارسكور والمنزلة نبيذا أبيض كاللبن يسمى السوبية يضعون فيه القرفة والقرنفل «وجوز بوا» ويحلونه بسكر . مشروب يرفع حرارة الجسم قليلا ويقويه ويرطبه . ويأتى بعد ذلك بائعو الشراب الجوالون وهم قوم يبيعون ماء الورد والمشمش (والمشلوز)! فى أوان مبيضة بالقصدير . ثم بائعو شراب «البربريس» وهو

---

(١) يعنى أنهم يسعلون كثيرا . (د . عزام) .
(٢) بلغمًا كالصمغ . (د . السعيد) .

منقوع الزبيب الأسود يضاف إليه البهار ويشرب مبردا وله شىء من الحموضة . ثم بائعو شراب الثعلب[١] يصنع من نبات ذو فصوص أبيض كالتوم يكثر فى الهضاب بجبل الرهبان ببروسه ويسمى باللغة العربية «خصية الثعلب» يجفف ثم يدق فى الهاون ويخلط بالسكر والعسل ويُمزَج بالزنجبيل . ويشترط فى صناعته أن يُسوَّى ببطء بأن يوضع منه قليلا قليلا ويقلب كما يصنع الفالوذج حتى لا «يتكلع»[٢] . من شرب منه فنجانين نجا من وجع الصدر وقوى بدنه وزادت قوة بصره . ويأتى بعدهم بائعو الفالوذج وهم سبعة رجال يعملون فى ست حوانيت .

ثم يأتى بائعو اللبن الحليب المغلى وهم مائة رجل يعملون فى سبعين حانوتا ، يباع فيه اللبن الرائب (يوغورت) عامة ويباع فيه اللبن المغلى صباحا . والعربان يحبونه كثيرا يثردون فيه الخبز ، وبعضهم يشربونه فى فنجانين . ثم بائعو مشروب الشاى واليانسون (باديان) ، وهؤلاء ليست لهم حوانيت وإنما يبيعونه جوالين مغليا فى أباريق ، وعددهم عشرون رجلا . ثم بائعو المشروبات البهارية لهم حوانيت فى أماكن من المدينة إلا أنهم يبيعون الشراب فى أباريق جائلين فى الحمامات عددهم مائة وخمسون رجلا يعملون فى أحد عشر دكانا . ثم الخلالون ويسكنون . بالقرب من شجرة الدر فى حى مؤلف من ثلاثمائة منزل يحترف سكانه جميعا صناعة الخل ، وعددهم زهاء ألف رجل . ثم بائعو المخلل وهم ستون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا .

ويأتى بعد تلك الطوائف أصحاب المقاهى . وإن مجموع المقاهى المنبثة فى بولاق ومصر القديمة ومصيف قايتباى والقاهرة ثلاثة وأربعون وستمائة مقهى . ومنها مقاه عظيمة تتسع لألف نفس ، فى كل منها أربعة مقاصير ففى مقصورة تعزف الموسيقى ويغنى المطربون وفى مقصورة أخرى ينشد المداح قصائد المدح ومقصورة ثالثة يجتمع فيها الشبان ذوو الوسامة ومقصورة يجتمع فيها كبار الشعراء . وقد أنشئ بعض المقاهى على شاطئ النيل جعل فيها أروقة ومقاصير ذات خمائل[٣] لجلوس المترددين عليها فى أيام الصيف بيد أن أشهر المقاهى هى مقهى الخرابة ومقهى الغورية والمقهى الجديد

---

(١) هو الشراب المعروف اليوم بالسحلب . (المترجم) .

(٢) يتكلع = يتجمع وينعقد . (المترجم) وفى العامية المصرية : يتلكع . (د . متولى) .

(٣) الخمائل : جمع خميلة وهى الشجر الكثير الملتف ، لا ترى ما بوسطه لكثافته . (المترجم) .

ومقهى باب الفتوح ، ومقهى باب الشعرية ومقهى السنقرية ومقهى الكتخدا الحبشلى ومقهى ميدان الروميلى ومقهى السلطان حسن . وبالقلعة ثلاثة مقاه ومقهى الجماميز . تلكم المقاهى العظيمة التى بها أحواض وفوارات وأسبلة . وبكل مقهى منها الموسيقيون والمطربون من كل الأساتذة . وهى تصخب ليلا ونهارا . ومن محاسن هذه المقاهى أن الرحالين القادمين إلى القاهرة من بلاد الترك والعجم يجدون لهم مكانا فى ركن منها للاجتماع مع أهل العلم والعرفان وتبادل الآراء . ويعمل فى هذه المقاهى جميعا ثلاثة آلاف نفس . وهناك رجال يبيعون القهوة جائلين وليست لهم حوانيت ، ولكنهم يحملون القهوة الممسكة العظيمة فى أباريق رقيقة ظريفة فى الأسواق السلطانية . إن تلك المقاهى تربح ربحا كثيرا ، بيد أن أكثرها ربحا هى مقهى الخرابة التى تستهلك كل يوم عدلا من البن ومقهى الكتخدا الحبشلى التى تصرف قنطارا فى اليوم . وهى الأماكن التى تتبع رئيس شطار الباشا وفى حمايته .

بائعو «لوز النبى» . هؤلاء لا حوانيت لهم ، ويحترفون بيع لب الشمام وحب العزيز جائلين فى المقاهى ، وعددهم زهاء ثلاثمائة نفر .

الدخاخنية ، بالقاهرة ألف وستون حانوتا لبيع التبغ (الدخان) وذلك عدا ستمائة وأربعين مقهى فى كل مقهى منها بائع للدخان ، كما هو مقيد فى سجل الصوباشى . ويبلغ مجموع من يعمل فى هذه الحرفة من البائعين والدلالين زهاء ألف نفس . وهم يسيرون فى الموكب مع بائعى القهوة . ثم يأتى محترفو طحن البن . لهم سبعون حانوتا وبكل حانوت خمسة أو عشرة من الهواوين الحجرية يعمل فيها سبعمائة رجل .

ويأتى بعد ذلك صنف المداحين وعددهم سبعمائة رجل يسيرون فى الموكب مع بائعى القهوة . ثم صنف المقلدين والمضحكين ، وعددهم زهاء ثلاثمائة يعملون مهرِّجين فى المقاهى والبوظ والحانات ويشاركون فى الموكب مع بائعى القهوة فيقومون بضروب من الألعاب والتهريج ، وقد بلغ أولاد الحرام هؤلاء أوج هذه الصنعة . ثم يأتى صنف البوظيين ورجال هذه الحرفة مسلمون لهم خمسة وسبعون مشرب بوظه يعمل فيها ستمائة نفر . ثم أصحاب الحانات وهؤلاء جميعا كفار يديرون مائتى حانة يعمل فيها ستمائة نفر . ولأن هذه الطائفة غير شرعية فليس لها موكب خاص ، وإنما يسيرون بعد شيخ المقاهى (قهوة جى باشى) لأنهم كفار مذمومون عند الكل . فجميع من كتبنا عنهم

فى هذا القسم الثالث من السقائين وبائعى الماء والشراب وأنواع المشروبات يسيرون فى الموكب مع أصحاب المقاهى صائحين صاخبين ، راقصين على نقر الدفوف ونفخ المزامير ، مغنين فواصل مختلفة وبأيديهم شموع كافورية وعدد لا يحصى من القناديل ، ويسير خلفهم شيخ المقاهى وشيخ الخلالين جنبا إلى جنب تتقدمهما فرقة الموسيقى .

٤ ـ محترفو صناعة الزيت الحار (زيت حارجية)

أى الذين يعملون فى البذور . لهم مائة وسبعون معصرة (سرجة) يعمل فيها ألف وثمانمائة رجل . وهذا الصنف من الأغنياء ولكنهم قذرون وسخون ملوثون . ثم المحترفون صناعة زيت السيرَج . وهم سبعمائة رجل يعملون فى مائتى معصرة يستخرجون زيت أكل العصفور وزيت السمسم ، وهؤلاء أيضا أغنياء بيد أنهم مزيتون قذرون . وفقراء القاهرة جميعا يأكلون الزيت الحار وزيت السمسم والطحينة ، ففى كل ليلة تحترق آلاف الأُقَّات من الزيت الحار وخاصة فى ليالى المولد وليالى رمضان ، وليلة المحتسب هذه التى تحترق فيها مئات ألوف الأقات منه . ثم إن زيت البذور يصدر إلى جميع أقاليم مصر من القاهرة . فلذا صار أهل هذا الصنف من المترفين . وأما موكبهم فى الاحتفال فلا يشترك فيه أحد معهم . وإنما هم وأتباعهم يسيرون وحدهم ، وقد أشعلوا أنواعا من المصابيح الزيتية ، ولبسوا أثوابا غليظة خشنة ، واختار بعضهم العرى ، وحملوا فوق أكتافهم قربا منفوخة مما يستعمل لوضع الزيت ، يمسحونها بأثواب المتزاحمين فى السوق السلطانية . وبهذا يدفعون الناس إلى الضحك والتنكيت ، وإخلاء الطريق . وغلمانهم ينقرون الدفوف والطبول وموسيقاهم تعزف ولا يتخذ أهل القاهرة أماكن التفرج قبل يوم الاحتفال بعدة أيام إلا خوفا على أثوابهم من مثل أولئك القوم .

٥ ـ صنف المعماريين

يدخل فى هذا الصنف كثير من أهل الحرف ؛ فمنهم النجارون . وليست لهم حوانيت ويبلغ عددهم ، مسلمين وغير مسلمين ، ثلاثة آلاف نجار . ثم الحجّارون وهم الذين يقطعون الحجارة من جبل الجيوشى وبالقرب من أثر النبى فجعلوا من الجبال «بى ستون» كما فعل فرهاد[١] . وعددهم جميعا ألفا حجار . ثم الرخامون ، أى الذين يصنعون

---

(١) جبل بيستون جبل قرب كرمانشاه فى إيران عليه كتابة أثرية . وفى أساطير الفرس أن فرهاد شق قناة فى هذا الجبل لكسرى برويز وقد وعده أن يكافئه على عمله بإعطائه شيرين الجميلة . (د . عزام) .

الأحواض ويفرشون الحمامات بالرخام . ولهم ستون حانوتا يعمل فيها ثلاثمائة رخام لا نظير لهم فى سائر البلاد فى هذه الصنعة . فقد اشتهرت العمارات المصرية فى العالم بما فيها من الرخام . ثم حفارو الآبار وعددهم ثلاثمائة رجل . ثم الذين يصنعون دواليب السواقى والطواحين التى تديرها الخيل ، وعددهم ستون ومائتا رجل .

ويأتى بعدهم الأجَراء من العمال (فعله) وهم جميعا من الشعب البربرى وليس فيهم من الفلاحين إلا قليل . وهم ألفا رجل مقيدون فى السجل (دفترلى) ، وليس فى إمكان كل رجل أن يكون عاملا (أرغاد) ، فمصر بلاد عجيبة وأمورها مضبوطة تماما لأنها جميعها تحت تصرف الحكومة . ثم الذين ينزحون بيوت الخلاء (دورات المياه) ، فإن بيوت خلاء القاهرة ليس بها مجار ، وإنما هى آبار يطهِّرها هؤلاء النزاحون مرة فى كل عام ويلقون الفضلات فى خنادق (كومولك) . وليست لأهل هذه الحرفة حوانيت ولكنهم يقفون كل صباح فى الصليبية وميدان الروميلى وفى سائر الشوارع حاملين المجارف والفؤوس والمقاطف وعددهم ألف ومائتا رجل . ثم ضاربو الطوب أى اللّبن والآجر ، وهم زهاء ستمائة رجل ، وليست لهم حوانيت وإنما لهم مضارب فى مواضع يتوافر فيها الطين بشاطئ النيل . ثم الجرارون أى الذين يصنعون الجِرار عند ساقية الغورى بمصر القديمة وسائر الأمكنة ، وهم ألف رجل يعملون فى مائة وخمسين دكانا ، يصنعون حقاقا للأشربة البلغمية والمعاجين كأنها صناعة صينية . ثم بناءو الحمامات وهم ثلاثمائة وخمسون رجلا من مهرة المتخصصين فى بناء الحمامات . ثم صناع الجير ، لهم سبعمائة فرن خارج القاهرة بالقرب من السيدة نفيسة ومصر القديمة وغيرها يعمل فيها ألف رجل . ثم صناع الجبس الذين يعملون فى طواحين الجبس وحوانيت بيعه . وهم ألف ومئتا رجل فى مائتى حانوت . المبلطون : بمصر نوع من الحجر اللبن الأبيض يقطعه أولئك المبلطون قطعا مربعة بالمنشار كقطع الرخام . ويستعمل هذا البلاط بدل الرخام فى فرش المنازل والمساجد . ويبلغ عدد المبلطين ستمائة رجل . ثم يأتى الذين يعملون فى بيع أخشاب البناء ، وهم خمسمائة رجل يعملون فى مائتى حانوت . ثم الحنوطيون = (تابوتچيان) وهم عشرون نفرا فى عشرة حوانيت . ثم يأتى صناع المحفات أى الذين يصنعون الهوادج للحجاج . وهم مائة وستون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا . ثم صناع السرر وهم ثمانون رجلا يشتغلون فى خمسين حانوتا ، يصنعون السرر من جريد النخل كما يصنعون منه أقفاصا للسكر والطيور . ثم الخراطون وهم ستمائة رجل يشتغلون فى

مائة وخمسين حانوتا . ثم حرفة النجارة الدقيقة (طوغراماجى) ومحترفوها عشرون رجلا يعملون فى ثمانية دكاكين بالدرب الأحمر ، يصنعون أمتعة دقيقة للغاية تشبه الفسيفساء الهندى . وصناع كعب البنادق Kundakci[1] وهم ثلاثون رجلا يصنعون خشب البندقية فى عشرين حانوتا . ثم النقاشون وليست لهم حوانيت وإنما يعملون فى بيوتهم والبيوت التى تبنى . وهم سبعمائة رجل ، وفيهم فنانون يعادلون «مانى» و«بهزاد» من أساتذة الفن فى إيران[2] . وتعجز أساتذة النقش فى سائر البلاد عن الإتيان بمثل نقشهم . ثم يأتى صناع العلب وهم ثمانون صانعا يعملون فى عشرين حانوتا . ثم صناع الطنابير (آلة طرب) وهم عشرون صانعا يشتغلون فى تسعة حوانيت .

إن أهل الأربع والعشرين حرفة التى أحصيناها فى هذا القسم الخامس يكوّنون ١٥٤٦ جنديا ممتازين تابعين للأغا المعمار . وأهل كل حرفة يسيرون فى موكبهم الخاص ضاحكين متندرين ، عارضين ألوانا من فنونهم (كالامى) وموسيقاهم ، مضيئين الشوارع بآلاف القناديل والشموع ، فتصير القاهرة كأنها أرض المحشر . ويسير خلفهم جميعا الـ «معمار باشى» والـ «نقاش باشى» جنبا إلى جنب ومعهما غلمانُهما ذوو الجمال وفرقة موسيقاهما .

٦ ـ النجارون

أى الذين يبنون السفن . وإذ أن شيخهم نوح عليه السلام ، فلا يسيرون فى موكب المعمار باشى بل يكون لهم موكب خاص مؤلّف من أبناء حرفتهم تحت رياسة كتخدا القبطان ؛ فأولهم صنف البحرية وليست لأفراد هذا الصنف حوانيت ، ويسكنون فى تكية لهم متصلة بدار الصناعة . وعددهم ثمانمائة وستون رجلا . ثم القلافيط[3] [الذين يقلفطون السفن بالزفت والقار] وهم خمسمائة رجل . ثم أصحاب المضخات وهم عشرة يعملون فى حانوتين . ثم الذين يبيعون الزيت والقطران ، وهم خمسة عشر رجلا فى سبع

---

(١) من الكلمة التركية (قونداق) بمعنى كعب البنّدقية . (د . السعيد) .

(٢) مانى صاحب مذهب المانوية كان له ألواح مصورة يضرب بها المثل فى الجمال . وبهزاد مصور كان فى عهد الدولة الصفوية فى إيران . (د . عزام) .

(٣) كلمة قَلَفْتَجى ليست إلا تتريكا للكلمة العربية جلفاط وهو ـ كما جاء فى القاموس ـ سادُّ دروز السفن الجدد بالخيوط أو الخرق أو التقيير . وقد دخلت هذه الكلمة فى كل اللغات الأوربية وهى فى الفرنسية Calfateur ؛ والمصدر calfatage وتستعمل فى التركية بمعان أخرى فإن كلمة قلفات ـ بالإضافة إلى دلالتها على الثغرة المسدودة فى السفينة : (قلفات يرى) . تستعمل بمعنى فتل الشارب وتثبيت السّبال بالشمع : (بييقلرى قلفا تلامق) وتستعمل أيضًا عَلمًا على غطاء الرأس الخاص بأغا الانكشارى . (د . السعيد) .

حوانيت . ثم الذين يبرمون الكتان المزفّت وهم أربعون براما يعملون فى سبعة دكاكين . ثم الذين يصنعون القلوس[١] ، وهم مائة وخمسون رجلا يفتلون من نبات الحلفا حبالا غليظة لسواقى أربعة وسبعين ألف بئر من آبار مصر وليست لهم دكاكين . ثم صناع الشُرُع وهم عشرون صانعا يعملون فى ثلاثة دكاكين . وأفراد الأصناف المذكورة جميعا يقيمون بمدينة بولاق .

ويتقلد النوتية أسلحتهم ويزينون زوارقهم الصغيرة وقواربهم وقيّاساتهم بأنواع الرايات والأعلام ثم يجتازون بها القاهرة صائحين صاخبين «يا مولى» مقيمين الأفراح فى صورة حرب بين رئيس بولاق وبين رئيس مصر القديمة تطلق فيها البنادق . ويمر كتخدا قبطان السويس والنجار باشى جنبا إلى جنب بعظمة واحتشام ووقار رافعين أعلاما مختلفة ، ومعهما زهاء ثمانين غلاما جميلا وفرقة موسيقية . ولا توجد البيارق والسناجق فى غير موكبهما .

٧ ـ الخبازون وتجار الغلال

بالقاهرة وهى أم الدنيا ، سبعون حانوتا لبيع الخبز . وإن سئل كيف يكفى هذا العدد القليل من محال بيع الخبز لبحر خضم من أبناء أم الدنيا يُرَدّ بأن كل قصر من قصور الأغنياء والأعيان يحتوى على فرن خاص ، كما أن كل بيت من بيوت الفقراء قل أن يخلو من تَنّور صغير . فأهل كل بيت يصنعون فى بيوتهم خبزا خاصا أبيض ويبيعه الأولاد والبنات والنساء على أقفاص فى الشوارع والحارات ؛ فلذلك يكتفى بسبعين حانوتا لتوزيع الخبز ، يعمل فيها ستمائة رجل . وأما الوقود المستعمل فى الأفران فروث الخيل ، ترغمهم قلة الحطب على أكل خبز أنضج بهذا الروث مع أنه نجس فى مذهب الإمام الشافعى . وشيخ الخبازين عمرو بن البربرى ، فقد ألبسه سلمان الطاهر[٢] النطاق (بلين باغلادى) فى حضرة الرسول ﷺ ، وتوفى فى السابعة والثمانين من عمره ، ودفن بجوار العباس رضى الله عنهما بينبع الفرقد . ثم يأتى صناع الچوريك (شُرَيك) والبوريك والكعك الناعم والكعك والكعب ؟ والغُرَيبة والسميط والقطايف واللقمة والشعرية[٣]

(١) القُلوس جمع قلس وهو حبل غليظ يفتل من خوص أوليف للسفن وللسواقى يوضع على دولاب الساقية وتربط بها قواديس الماء . (د . عزام) .

(٢) يعنى سلمان الفارسى . وقبره اليوم بقرب بغداد يسمّى «سلمان پاك» أى الطاهر . (د . عزام) .

(٣) ويمر بعد صناع الشعرية صناع المطبّق = مطبّقجيان . (د . السعيد) .

والكوزلمه ؟ والبقسماط والعيش أبو عجوة و(عيش چاقل[1]) ، تلكم خمس عشرة حرفة لها مئتان وخمسون حانوتا وفرنا يعمل فيها زهاء ألفى رجل . وهم لا يستخدمون الروث وإنما يستخدمون وقودا لإنضاج فطائرهم ، من شجر الفول وقشر الحمص ونشارة الخشب التى يأخذونها من صناع أيدى الفؤوس . وغيرها من القصب والقش . ثم يأتى صناع النشا وعددهم مائة وخمسون رجلا يعملون فى أحد عشر مصنعا . ثم صناع مناخل الدقيق ، يؤخذ الدقيق من أفرانهم وعددهم مائتا رجل . ثم الملاحون لهم مائة وعشرون مخزنا . ثم الذين يحترفون بيع النطرون ، ولهم مخازن حافلة بالملح ، وليس بالقاهرة شىء أكثر من الملح والبصل . والذين يعملون فى أعمال الملح وتجارته أربعمائة رجل ، وهم أغنياء جدا .

ويأتى بعد ذلك أصحاب المطاحن التى تدار بواسطة الخيل ، وعددها ألف ومئتا طاحونة منها مائة وخمسون طاحونة تابعة للمحتسب ، وباقيها فى حماية المعسكرات والضباط (آغالر) . وهم مع ذلك يحضرون هذا الحفل وعددهم جميعا ثلاثة آلاف ومائة وستون رجلا . ولكن هذه الطواحين أوكار للصوص . ويدير كل طاحونة إما حصان وإما بقرة وهى أماكن جديرة بالرؤية . هذا وبكل قصر من قصور القاهرة طاحونة حتما ولكنى لم أسأل عنها البك المحتسب فلذا أجهلها .

ثم يأتى تجار الغلال وهم زهاء ثلاثة آلاف رجل من أغنياء التجار ، لهم ألفا مخزن ببولاق ومصر القديمة وبداخل القاهرة ، وأسماؤهم مقيدة فى سجل أمين الأهراء وناظرها لأنهما إذا احتاجا إلى الغلال اضطرارا أخذاها منهم . وهؤلاء أيضا يسيرون فى الحفل مع عشرين صنفا من أهل الحرف المذكورة فى هذا القسم السابع مسلحين مزينين مظهرين كرمهم ومهارتهم بإلقاء أنواع الفطائر والكعكات المدورة على المتفرجين ، وحاملين بأيديهم سُبحا من البقسماط ، وقد لبسوا ألوانا من الكنافة ووضعوا على رؤوسهم عمائم كبيرة من الكعك الأبيض المضفر . وتجار الغلال ينثرون على المتفرجين حب القمح ضاحكين مازحين . ويمر شيخ الخبازين وشيخ المسببين مسلَّحين على جواديهما جنبا إلى جنب على أنغام الموسيقى ، وخلفهما غلمانهما ذوو الجمال .

---

(١) چاقل : الحجارة الملونة ، وعيش چاقل أو چاقيل پيده سى ، نوع من الخبز ينضج على الحجارة المتقدة . (د . السعيد)

٨ ـ الجزارون

هم ألف وثمانمائة جزار يعملون فى ستمائة حانوت ، وشيخهم يدعى «الفتى القصاب» هو أبو عقيل والد نصر الملقب بالفتى الجزار الكريم المدفون ببغداد . يُذبح فى القاهرة ألف ومئتا رأس من الغنم يوميا . ويأتى بعدهم الذين يعملون فى المذبح . وهو مذبح خارج باب الفتوح يذبح فيه جميع غنم القاهرة وبقرها ومعزها وجمالها وجواميسها ، وذلك لأنه ميرى يديره أمين وضابط انكشارى . وإن ذَبَح أحد حيوانا فى موضع آخر غرم . يعمل فى هذا المجزر مئتا رجل من القساة لا أثر للرحمة فى وجوههم . وجلد كل حيوان يُذبَح فى هذا المجزر ميرى . وقد التزمه فلاح يُدعى على الجلاد . والجزارون الذين يبيعون اللحم البقرى وهم مئتا نفر يعملون فى سبعين دكانا ، وهم يبيعون اللحم الجملى كذلك . والجزارون اليهود لهم عشرون دكانا يعمل فيها ثلاثون جزارا . وهذه الحوانيت خاصة لهم ولا يشترى منها سواهم . ثم الذين يبيعون اللبن الرائب ، لهم سبعون دكانا يعمل فيها مئتا رجل . ثم صنف اللبّانين وهم مائتا نفر يجولون فى الشوارع والحارات سائقين المعز البلدية ويبيعون ألبانها . فإن أردت أن تشترى من أحدهم أقة من اللبن حلبه فى إنائه وأعطاك طلبك وسقى ما زاد على الأقة للمعيز وذهب فى داخل الأحياء مناديا «يا صباح اللبن» . ويأتى بعدهم الذين يبيعون «الجبنة الحلوم» وهم ثلاثمائة رجل يعملون فى مائتى حانوت . وخير البائعين لهذا الصنف تاجر عربى ببولاق يُدعى «ابن ميت» وليس فى حانوت ما بحانوت هذا الرجل من أصناف الجبن المختلفة . فجبن الغنم الذى يباع فى حانوته ألذ من «قريشة الشام» فهو جبن حلوم سريع الهضم . ولليهود تجار لبيع الجبن ولكنا لم نعلم عدد المتجرين به .

وطباخو الرؤوس لهم أربعون دكانا يعمل فيها مائة وعشرون رجلا من أتباع الجزارين . ثم الذين يبيعون كبد الغنم مطبوخة ونيئة وليست لهم حوانيت وإنما يبيعونها على ألواح خشبية مدورة «الطبليات» وهم مائتا رجل . ثم يأتى المحترفون بيع الكرش (السَقَط) ولهم ثمانون دكانا يعمل فيها مائة وعشرون رجلا وهم أيضا من أتباع الجزارين ولا يدخلون فى عداد الطباخين (فى المطاعم) . ثم يأتى صناع الشموع وهم ثلاثمائة رجل يعملون فى أربعين مصنعا .

إن الأصناف العشرة التى يحترف أهلها تلك الحرف المختلفة يسيرون فى الحفل مزينين مسلحين يعرض كل منهم متاعه ، فالجزارون يلبسون ذبائحهم السمينة جِلالا من الديباج والحرير المزركشة المقصبة ، وقد تمنطقوا هم بمناطق عليها خناجر مطعمة بالجواهر ويقودون خرافا ذوات قرون طويلة زينوها بأوراق وربطوا عليها مقاود من السلاسل الفضية ، كما أن بعضهم يمرون وقد حملوا خرافهم السمينة المذبوحة على دواب الحمل . ويسير خلفهم «القصاب باشى» مع غلمانه المسلحين ، على نغمات فرقتهم الموسيقية ، وحقا إن موكبهم جِدّ مُزيَن .

٩ ـ صنف الطباخين

لهؤلاء ستمائة حانوت يعمل فيها ألف ومائة نفر ، وشيخهم إبراهيم عليه السلام ، وهم فى حماية رئيس طباخى الباشا وهو حاكمهم . يشتمهم ويضربهم ويقتلهم ويطردهم ، ففى يده ضبطهم وربطهم جميعا . وليس فى إمكان الأغا المحتسب أن يضع يده عليهم . وفى هذا الحفل يشترك رئيس طباخى الباشا مع رئيس طباخى المدينة فيسيران راكبين جنبا إلى جنب . ثم يأتى صنف الشوائين (الكبابجية) وهم مائتان وستة أنفار يعملون فى مائة حانوت . ثم الذين يطبخون اليخنى (اللحم بالبصل) وهم ثلاثمائة نفر يعملون فى مائة حانوت . ثم الخُضَرية وهم يبيعون خضر الكوامخ والسبانخ والملوخية والباميا والباذنجان والقلقاس والقرنبيط والزعتر والفجل والجرجير والعجور والقثاء والخيار فى مائتى دكان يعمل فيها مائتان وخمسون رجلا . ثم الحلوانيون وهم مائتا رجل يعملون فى ثمانين حانوتا . إن ما يباع بالقاهرة من الحلوى والزلابية لا يباع فى غيرها من البلاد . وشيخ هذه الطائفة الشيخ عمر الحلوانى . ثم يأتى طائفة المحترفين بيع السكر وهم مائتا رجل يشتغلون فى مائة وخمسين دكانا . ثم صناع السكر وهم ثلاثمائة رجل يعملون فى أربعين مصنعا . يصنعون سكر المعاد ويرسله وكيل ديوان السلطان إلى استانبول . ثم السماكون وهم مائة رجل يشتغلون فى ثمانين دكانا . ثم صيادو السمك وهم ستمائة رجل كلهم تابع للحكومة .

ورجال الطوائف المذكورة يمرون فى الحفل عارضين ما امتازوا به فى حرفهم ويسير خلفهم خليفة رئيس طباخى الباشا ورئيس المدينة جنبا إلى جنب على نغمات الموسيقى .

١٠ ـ البقالون وأهل السوق وبائعو الصابون والحمص

شيخهم جميعا «عزى بن نباش» الذى ألبسه النطاق سلْمان الطاهر، وتوفى فى العشرين بعد المائة من عمره، ودفن بحرم القدس الشريف بالقرب من عين سلوان. وإذ أن هذه الطوائف كلها تعد طائفة واحدة فحوانيتها ألف وستون حانوتا يعمل فيها ألف رجل يلبسون أثوابا غالية نظيفة ويسيرون فرحين مرحين ويسير خلفهم بقال باشى(. . . .) جنبا إلى جنب على نغمات الموسيقى.

١١ ـ الجراحون

لهؤلاء عشرون حانوتا يعمل فيها ستون رجلا وشيخهم أبو عبيدة الجراح الذى ألبسه النطاق سلمان الطاهر وقبره فى الإحساء، ثم الحكماء وهم أربعون حكيما يعملون فى تسعة عشر حانوتا وشيخهم لقمان الحكيم. وكان شيخهم فى عصر الرسول عليه السلام ذا النون المصرى الذى ألبسه على كرم الله وجهه النطاق. ثم صناع المعاجين وهم مائتان وعشرون رجلاً يعملون فى مائتى حانوت وأكثر المعاجين استعمالا معجونى الهاشمى والحشيش (أسرار). ثم يأتى طائفة المحضرين للأدوية السائلة. وهؤلاء يستخرجون مياه بعض أنواع الأعشاب كالزعتر والنعناع ولسان البقر والهندبا وغيرها وهم سبعون رجلا يعملون فى بيوتهم وليست لهم حوانيت.

وأهل الحرف المذكورة فى هذا الباب ثلاثمائة، ويسير خلفهم حكيمباشى وجراحباشى جنبا إلى جنب مسلحين راكبين بتؤدة ووقار على نغمات الموسيقى.

١٢ ـ صناع السيوف

هم ثلاثمائة صانع يصنعون السيوف فى مائة وعشرة حوانيت. ثم صناع نصال الرماح ولهم ثلاثون دكانا يعمل فيها خمسة وستون صانعا. ثم صناع زجاج الرماح وهم عشرون رجلا يعملون فى عشرة حوانيت تحت جامع السلطان حسن، ولكن الأعراب جميعا محتاجون إليهم. ثم صناع السكاكين وهم مائتان وستون رجلا يصنعون السكاكين فى مائتى حانوت. ثم صناع أغماد السيوف وهم ثلاثون صانعا يصنعون أغمدة السيوف فى ثلاثين حانوتا. ثم صناع البنادق وعددهم خمسة وسبعون رجلا فى ثلاثين حانوتا. ثم صناع خزينة البارود (وزنه جى) للبنادق، وهم خمسة وخمسون رجلا يعملون فى

عشرين دكانا . ثم صناع رصاصات البنادق وهم ثمانية عشر رجلا فى عشرة دكاكين . ثم صناع البارود ولهم عشرة دكاكين تحت باب الحديد ، يعمل فيها ثمانية عشر رجلا وشيخهم فى الصنعة «جمشيد» . وهم تابعون لرئيس القائمين بأمر الذخيرة . ثم صناع فتيل البنادق وعددهم أحد عشر رجلا يعملون فى ستة حوانيت . ولكن ثمت ألفان من البرابرة يفتلون من قش الكتان فتائل احتياطية . وهم كذلك يشتركون فى هذه الحفلة ، وقد حملوا القناديل والمشاعل على أطراف عصى طويلة ويسيرون مغنين متفاكهين بلغتهم .

إن ألفين وثمانمائة وخمسين رجلا من أفراد الحرف المذكورة فى هذا الباب يمرون عارضين بضائعهم ومهاراتهم بإطلاق البنادق وخلفهم شيخ صناع السيوف وشيخ صناع البنادق يسيران على ضرب الطبول .

١٣ ـ طائفة الحدادين

عددهم ثمانمائة يزاولون أعمالهم فى مائتى حانوت ، وشيخهم داود عليه السلام . وأما فى عهد الرسول محمد ﷺ فكان أبا زيد مسلم ؟ وقد لبس النطاق على يد سلمان الطاهر ، وقبره بصنعاء . ثم صناع سنابك الخيل وعددهم مائة وخمسون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا . ثم صناع المسامير وهم مائة وعشرون رجلا لهم عشرون حانوتا . ثم صناع المبارد وعددهم عشرة لهم ستة حوانيت تحت تكية إبراهيم الكلشنى . ثم صناع القواديم وعددهم عشرون رجلا يعملون فى ستة حوانيت . ثم صناع المناشير ولمنشارهم خصائص لا توجد فى غيره . وعدد هؤلاء الصناع عشرون صانعا يعملون فى ستة دكاكين . ثم الفحامون لهم خمسون دكانا بالقرب من البندقانى والنظامية وبأماكن أخرى ، يشتغل فيها ستون رجلا . ثم صناع مفاتيح الأبواب وهم خمسة عشر نفرا فى عشرة دكاكين ثم صناع الأقفال وهم مائة وتسعون صانعا يعملون فى خمسين حانوتا . ثم صناع رُكب السُرُج وعددهم مائة وخمسون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا . ثم صناع المقصات ، لهم عشرون حانوتا يعمل فيها ستون صانعا . ثم صناع نعال الأحذية عددهم خمسة عشر رجلا فى خمسة عشر دكانا . ثم تجار الحديد وعددهم عشرون ومخازنهم أيضا عشرون . ثم تجار الخردة لهم ستون حانوتا تحت الشيخونية وبميدان الروميلى وسائر الأماكن يعمل فيها ثمانون رجلا .

ثم باعة نعال الخيل لهم مائتا دكان يقوم بالعمل فيها ثلاثمائة رجل . ولما كانت القاهرة مكتظة بالحمير كثر فيها من يحترفون صناعة نعال الحمير .

تلكم خمس عشرة حرفة يكوّن أهلها ألفين وثلاثة جنود مسلحين ، يسير كل فريق منهم عارضين فنونهم ، فرحين مبتهجين حاملين مشاعلهم . ويسير خلفهم شيخ الحدادين مع شيخ النعالين ركابا إلى ركاب مع غلمانهما وطبولهما المزيَّنة .

١٤ ـ النحاسون

شيخ هذه الحرفة رجل يدعى أبا هابيل محيى الدين البخارى . وهم ستمائة صانع يعملون فى خمسة وستين حانوتا . بيد أنهم لا يبلغون فى إتقان هذه الصنعة درجة أساتذة الأتراك . ويأتى بعدهم الذين يصفُّون النحاس وهم أربعون رجلا يعملون فى ثلاثة مصانع لتصفية النحاس القديم . ثم تجار النحاس وهم مائتان وخمسة عشر رجلا يزاولون مهنتهم فى مائة وخمسة عشر دكانا فى خان الخليلى والصالحية بالقرب من جامع قلاون . وهم تجار أغنياء يحوى حانوت كل منهم ومخزنه ما قيمته خمسة آلاف وعشرة آلاف قرش من الأوانى النحاسية وعندهم تباع قدر العمارة وتناجر الكاشف[1] وهى لا تصنع بمصر وإنما تأتى من بلاد الترك فى سفن . ويأتى بعدهم مبيضو النحاس لهم مائة وخمسون دكانا يعمل فيها ثلاثمائة نفر .

وأما الذين يصبون النحاس فمن عجائب الدهر وهم أساتذة مهرة حقا ، فهم الذين يصبون جميع أنواع أقفاص المساجد والعمارات وشبابيكها وسائر زخارفها ولا نظير لهم فى سائر البلاد . ولهم سبعون حانوتا يقوم فيها بالعمل خمسمائة صانع . ومجموع أحاد تلك الحرف الخمس ألف وخمسة وستون رجلا مسلَّحون ، ويحمل كل منهم شمعة بيده . ويسير خلفهم شيخ النحاسين وشيخ القفاصين جنبا إلى جنب على نغمات الموسيقى .

١٥ ـ الصاغة

شيخهم رجل يُدعى نصر بن عبدالله الصائغ ، ألبسه النطاق سلمان الطاهر . وهم ألفا صائغ يزاولون أعمالهم فى خمسمائة حانوت . وأغلبهم أقباط وفيهم عظماء أساتذة الفن .

---

(١) تناجر جمع عربى لكلمة تنجره ، وتنجره كلمة تركية الأصل تعنى قِدْر ، حَلَّة . (د . متولى) .

ثم الجواهرجية لهم عشرة حوانيت فيها عشرون نفرا . ثم تجار الساعات ، شيخهم يوسف عليه السلام ، وهم اثنا عشر نفرًا . ولهم خمسة دكاكين . وبعدهم يأتى رئيس الضرّابين وهو رجل واحد مركزه الضربخانة (دار سك العملة) لا يقوم بعمله غيره ولا يختلط بأحد ، ولا يُسمح لأحد بالدخول عليه . وبعده رئيس الدمغة وهذا العمل أيضا خاص برجل واحد . ثم الدوماتجية Domatciyan وعددهم عشرون نفرا يعملون فى عشرين دكانا فى استخراج برادة الفضة من الزبالة التى يأخذونها من دكاكين الصرافين والصياغ . ثم عمال الضربخانة هم ثلاثمائة نفر ومعهم الأغا الأمين والأغا الناظر وصاحب العيار والأغا الوزان رئيس الصرافين ، وكل واحد من هذين الأخيرين يقوم بعمله وحده . وأما الصرافون الذين يعاملون الناس فى الأسواق فعددهم خمسون وثلاثمائة صراف يزاولون مهنتهم فى مائتى حانوت ونصفهم موظفون فى ديوان القاهرة لإحصاء الأموال الواردة من الملتزمين إلى كل ديوان . ثم صهارو المعادن وهم عشرون رجلا فى ثلاثة دكاكين . ثم النقاشون لهم عشرون دكانا يعمل فيها ثلاثون رجلا والحفارون ستون رجلا يزاولون حرفتهم فى أربعين دكانا . وللختامين ثلاثة حوانيت يعمل فيها ثلاثة حفارين . ثم صناع القصب هم اثنا عشر نفرا يزاولون مهنتهم فى حوانيت ، وهم الذين يصنعون الأثواب المقصبة دائما . ثم صانع المحابر النحاسية ، رجل واحد يزاول مهنته فى دكانه ، وهو أمير چلبى أستاذ عظيم لا نظير له . وهو الذى أحضر من مكة المكرمة عددا من الأغنام فأنتجت بأمر الله زوجا زوجا وعم منه الغنم المكى بمصر ، ولا تزال معروفة بالغنم المكى . ثم صناع الصفيح هم ثمانية عشر صانعا كلهم يهود ، يعملون فى ثمانية دكاكين يصنعون علبا من الصفيح المبيض بالقصدير لتوضع فى «الفرون»[1] .

إن أفراد الحرف التسعة عشرة التى ذكرناها فى هذا القسم ويبلغ عددهم جميعا ألفين وتسعمائة وواحد وثلاثين رجلا يسيرون فرحين مبتهجين مظهرين ما امتازوا به من الفنون والصناعات ، ويسير خلفهم رئيس صاغة الباشا وأمين الضربخانة وناظرها ورئيس الدمغة جنبا إلى جنب راكبين مستغرقين فى الجواهر والذهب على نغمات فرقتهم الموسيقية .

---

(١) فُرُون Furun أى الفُرن وهى مأخوذة من الإيطالية Forno ومن الأخطاء الإملائية المشهورة رسم واو هذه الكلمة ياء (فرين) وقد وردت هذه الكلمة فى النص المترجم هكذا : Farun ؛ أى أن الناشر التركى لم يستطع قراءتها فى النسخ المكتوبة بالرسم العربى والمراد أنّ هذه العلب كانت تعد لتوضع فى الفرن . (د . السعيد) .

١٦ ـ الخياطون

شيخهم إدريس عليه السلام . وكان شيخهم فى عهد الرسول الأكرم داود الظاهرى[١] الذى ألبسه النطاق سلمان الطاهر . وعدد أفراد هذه الحرفة ثلاثة آلاف خياط يعملون فى سبعمائة حانوت أغلبهم من نصارى الروم وليس فيهم من المسلمين إلا قليل . ثم أهل سوق الجيش (سوق السپاه) وهم يزاولون أعمالهم فى أربعين دكانا تحت جامع السلطان حسن . إلاّ أن هذا السوق مكتظ بالناس ، يجتمع فيه زهاء خمسة آلاف نفس ، لوقوعه على شارع واسع . وهذا السوق ينتقل إلى خان الخليلى يوم الاثنين ويوم الخميس . ثم المنجِّدون ، وشيخهم منصور الزاهد ، الذى ألبسه سلمان الطاهر النطاق ، ويثوى فى بلاد الرّىّ ، وهو غير منصور الحلاّج الذى كان ببغداد[٢] . وعدد المنجدين مائتان يزاولون مهنتهم فى مائة وخمسين دكانا . ثم صناع غطاء الرأس[٣] لهم أربعون دكانا يعمل فيها ستون صانعا . ثم الذين يصنعون غطاء الرأس للنساء وهم مائة نفر يعملون فى ستين حانوتا . ثم صناع القاووق وعددهم ثلاثمائة يشتغلون فى مائة حانوت . ثم صناع اللُّحُف ، هم مائة وستون صانعا فى خمسين دكانا . ولصناع الأقمصة مائة وخمسون دكانا ، يعمل فيها مئتان وستون صانعا . ثم الرفاءون وهم ثلاثون يعملون فى اثنى عشر حانوتا إن أكلت العُثَّة أثوابا ثمينة أو احترقت خطأ ، فإن هؤلاء يرفونها رفوا يعيدها إلى حالتها الأولى ، فكأنما لم يَمَسَّها سوء . ثم الذين يخيطون القطن (پنبه دوز) وشيخهم عمار بن ياسر الذى ألبسه النطاقَ سَلمان الطاهر . وهم ثلاثمائة يعملون فى أربعين دكانا . ثم الغزّالون ، وهم مائة وخمسون يعملون فى خمسين دكانا . ثم البزازون وشيخهم عبدالله بن جعفر الطيار وعددهم ألف وستمائة ، وعدد دكاكينهم ثلاثمائة دكان . ثم المحترفون صناعة الأزرار وبيعها ، وهم مائة وخمسون أغلبهم من اليهود ، يزاولون مهنتهم فى أربعين حانوتا . ويأتى بعدهم جميعا الحريريون ولهم مائة حانوت فى شارع الغَوْرية ، يعمل فيه مائة وخمسون نفرا .

---

(١) داود الظاهرى إمام مذهب الظاهرية فى الفقه عاش فى القرن الثالث الهجرى وقد عوّدنا المؤلف على أمثال هذه الخرافات . (د . عزام)

(٢) والذى نال حسن الختام بأن صُلب : (بردار أولوب) . (د . السعيد)

(٣) الكلمة التركية (كلّه بوش) الواردة فى النص المترجم تُطلق على الطاقية الخفيفة مستديرة القرص التى تُلبس تحت العمامة أو القاووق . (د . السعيد)

(٤) قاوق ، قاووق كلمة تركية معناها : قلنسوة عالية يلف حولها شاش . كان الأتراك العثمانيون يلبسونها على رءوسهم ، وكان لكل طائفة طراز خاص منها . (د . متولى) .

تلكم أربعة عشر صنفا من الحرف يبلغ مجموع المشتغلين فيها ستة آلاف وستة وأربعين ، ويسيرون مزينين ومسلحين ، ومعهم غلمانهم الملاح ، ويسير خلفهم دَزْزى باشى الباشا ودَزْزى باشى القاهرة راكبين جنبا إلى جنب ، على نَغَمات فرقة موسيقاهم المؤلفة من خمسة صفوف .

١٧ ـ الخيّامون

شيخهم ناصر بن عبدالله المكى الخَيّام . وقد ألبسه النطاق سلمان ، وقبره ببغداد بجانب الإمام الحسين . وعدد المزاولين لهذه الحِرْفة ستمائة من مهرة الصناع ، يعملون فى مائة حانوت . إنهم وإن لم يكونوا كخيامى حلب واستانبول إلا أنهم يصنعون قطعا بديعة من الخيام الكبيرة خياما صغيرة وغيرها من أنواع السرادقات . وصناع حبال الخيام مائة وخمسون رجلا ، يشتغلون فى خمسين دكانا . ثم صناع الطُنُب وعددهم ثلاثمائة رجل يقومون بأعمالهم فى أماكن خالية وليست لهم حوانيت . ثم الحبالون أى الذين يبرمون الحبال والحبال الإفرنجية وعددهم ألف وخمسمائة رجل يقومون بالعمل فى أماكن خالية . ثم كواؤ حواشى[1] الأثواب وهم ستة أشخاص يقومون بكى أهداب الأثواب فى ثلاثة دكاكين ، وهم يكوون أقمشة الخيام كذلك . ثم الشعارون . وإذ أن صناعة هؤلاء كصناعة الذين يبرمون حبال الخيام فإنهم يصنعون للخيّامين ، فلذا يلحق الشعارون بالخيامين . وأهل هذه الحرفة ستمائة نفر يزاولونها فى مائتى دكان . ثم يأتى الغسالون وهم مئتا نفر يغسلون الأثواب فى ثمانين دكانا . والغسالون يبيضون قماش الخيام كذلك ، فلذا يشتركون مع الخيّامين فى هذا الحفل .

وأفراد الحرف الست المذكورة يكونون جميعا مائتين وستة وخمسين وثلاثة آلاف جندىّ نظامىَ مزيَّنين مسلحين ، يمرون فرحين متفكهين على ضربات طبولهم ، ويسير خلفهم شيخ الخيّامين .

١٨ ـ القَوّاسون وصناع الأسهم

وشيخ أهل هذه الحرفة أبو محمد بن عمران القَوّاس . سمى قَوّاسا لكونه حاملا لقوس الحضرة (الرسول) وسهمه ، وكان يصنع الأقواس والسهام أيضا ، ولكن الرامى هو

(١) الكلمة التركية المستعمله فى هذا المقام (زنْجَفْ) معناها حاشية الثوب (Frange) وهى تحريف للكلمة العربية سجاف . (د . السعيد) .

سعد بن أبى وَقّاص ، فهو شيخ رماة السهام . ثم صار شيخ القواسين محمد الأكبر ابن سيدنا أبى بكر الذى يثوى فى مقبرة بالقرب من زين العابدين بالقاهرة . ومن المحتم أن يكون القواسون وصناع الأسهم فى دكان واحد . وهم جميعا مائة وستون رجلا يزاولون حرفتهم فى ثمانية وأربعين حانوتا . ثم الرماة ولا حوانيت لهم وإنما هم أبطال ، وآلتهم سنة رسول الله كما وردت الآية الكريمة ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ، وعددهم جملة ثمانمائة رجل ، يسيرون فى هذا الحفل ، هذا يجر قوسه الشديد راجلا ، وهذا يجره راكبا . ويأتى بعدهم صيادو الطيور وهم ملحقون بالقواسين ، وعددهم ستمائة نفر يصيدون كل أنواع الطيور ، ويأتون بريشها إلى القوّاسين . وليس بمصر شىء أكثر من الطائر الرحال[1] Gacgun Kusu . ثم صناع المَراوح وعددهم ستة وعشرون يعملون فى ثلاثين دكانا . ثم حسين أغا الزكيرجى[2] Zekirci وهو رجل واحد لا يوجد سواه .

تلكم سبعة أصناف من الحرف يكوِّن أفرادها ألفا وستمائة وتسعا وعشرين رجلا يسيرون فرحين مبتهجين ومعهم مائة من الذين يلعبون بالدبابيس ، ومائة من لاعبى الحراب ، ويسير خلفهم رئيس رماة السهام ورئيس القواسين راكبين جنبا إلى جنب على وقع الطبول .

١٩ـ الفراءون

يؤلف هؤلاء مَوْكِبهم معتمدين على قوة رئيس فرائى الباشا وقواهم الخاصة ، لأنهم أثرياء ، ويسيرون فى الحفل دون أن يشاركهم أحد . وشيخهم الشاه «هوشنك[3]» ، ومنه انتقل لبس الفروة مقلوبة . ثم رق الناس وجعلوا يخفون شعرها فى داخل الثوب . وبالقاهرة مائتا حانوت لبيع الفراء ، يعمل فيها ثمانمائة ، لأن الفلاحين يحبون لبس فراء الغنم . ويأتى بعدهم صناع القلپاق[4] عددهم ستة عشر نفرا يشتغلون فى ستة دكاكين . ويأتى بعدهم الصيادون وعددهم جملة ستمائة فيتكون من أفراد هذه الحرف الثلاثة ألف رجل

---

(١) سقطت هنا جملة ترجمتها : ويأتى بعدهم باعة الطيور وعدد دكاكينهم عشرون ، وهم ثلاثون شخصا .

(٢) يُحتمل أن تكون كلمة زكرجى هذه محرفة من كلمة زغرجى أى حارس كلاب الصيد واحدها : زَغَر ، زغار ، زاغر ، وقد كان بالجيش الإنكشارى فرقة تعنى بكلاب الصيد الخاصة بالسلطان وتعرف هذه الفرقة باسم زغرجى ورئيسها (زغرجى باشى) ، وليس مستبعدًا أن يُدرج مدرِّب الكلاب مع صيادى الطيور والرماة . (د . السعيد) .

(٣) هوشنك أحد ملوك الأساطير فى كتاب الشاهنامة الفارسى . (د . عزام) .

(٤) قلپاق ، قلپق كلمة تركية معناها : قلنسوة على هيئة طاقية مخروطية الشكل مصنوعة من الوبر أو الفرو أو الجلد أو القماش . (د . متولى) .

مسلحون ، وقد لبس منهم رجال فروة الأسد والنمر والبَبْر والذئب والوشْق يقودونهم بسلاسل كأنهم وحوش حقا . وإذ هم يسيرون يثب بعضهم على المتفرجين فيحدث فيهم ذعرا فيختلط الحابل بالنابل . ويسير رئيس فرائى الباشا مع رئيس فرائى المدينة جنبا إلى جنب راكبين على دقات الطبول .

٢٠ - نَسَّاجو الكُسوة الشريفة

إن الذين ينسجون الكسوة السوداء التى تكسى بها الكعبة الشريفة ثلاثمائة رجل يعملون فى قصر يوسف . إنهم عمال ذوو عيون جاحظة إلا أن عملهم ليس من أعمال الإنسان وإنما هو سحر يكاد البشر يعجز عن الإتيان بمثله . وهناك صَبَّاغون يَصْبغون الحرير المستعمل فى صناعة تلك الكسوة ، وعددهم ثلاثمائة رجل ، يزاولون عملهم فى سَبْعة عشر مصنعا أميريا .

ويأتى بعدهم طَبَّاعو الشيت ، وعددهم مائة وثمانون رجلا ، يعملون فى أربعين مصنعا . ثم البزازون وعددهم ثلاثمائة رجل يشتغلون فى مائتى حانوت . وقد كتبنا عن صناع الأقمصة فيما سبق . ثم صناع الجلباب وشيخهم شيث عليه السلام ، وهم ثلاثة آلاف رجل يزاولون أعمالهم فى ألف وثمانمائة حانوت . على أن معظم ماذكر من أهل الصناعات خاص بالذين يزاولون مهنتهم فى الأسواق ، وأما الذين يزاولونها فى البيوت فلا يعلم عددهم إلا الله . ثم الكُرْكْجيان[1] وعددهم ألف وثمانمائة رجل ينسجون الكُرْكة العربية اللامعة فى مائتى مصنع . وصناع السجاد ثلاثمائة نفر ينسجون الأبسطة فى عشرين مصنعا . وهذه الصناعة كذلك خاصة بالقاهرة ، وإن وجدت فى غيرها فى أصفهان ؛ فإنهم ينسجون أبسطة مزركشة تكل عين الناظر إليها ، وتبلغ قيمة البساط منها ألفين وثلاثة آلاف قرش . ويأتى بعدهم صناع الأطلس والمُخْمَل وهم ستمائة صانع يقومون بأعمالهم فى مائة مصنع .

تلكم عشرة أصناف يبلغ عدد أفرادها ألف نفر يمرون فى الحفل عارضين ما امتازوا به من الفنون والصناعات ويسير ناظر الكسوة وأمين الحرير جنبا إلى جنب راكبين وخلفهما غلمانهما المزيَّنون ، على وقع الطبول .

---

(١) كورك kurk ، كلمة تركية بمعنى : فرو . كوركجى : فرّاء ، ان ، علامة الجمع فى الفارسية . كوركجيان : الفرّاءون . (د . متولى) .

٢١ ـ الدباغون

هم من فرقة «أخى أوران» . وشيخهم فى المهنة زيد الهندىّ من رُواة الحديث ، وقد ألبسه النطاق سلمان فى حضرة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقبره بمكة المكرمة ، وللدباغين مائتا دكان (مدبغة) يعمل فيها ألف معلّم . ويأتى بعدهم صناع اللبود وعددهم مائة وخمسون صانعا يزاولون مهنتهم فى خمسين دكانا . وعدد تجار الجلود والسختيان[١] تسعة رجال يعملون فى ستة حوانيت . ويبلغ مجموع المزاولين لحرفة الدباغة (٢٠٥٩) رجلا . ويسير البابا «أخى» خلفهم راكبا بوقار وجلال فى ثوب «طولمه»[٢] و«كلاه»[٣] مصنوعين من السختيان والجلد ، وخلفه غلمانه ، على دقات الطبل والقدوم .

٢٢ ـ صناع الأحذية

هؤلاء يخيطون الأحذية . ودكاكينهم قليلة ولكن عددهم كبير فى الوكالات ، فدكاكينهم مائتان ، وأما العمال فيبلغ عددهم خمسة آلاف وخمسمائة .ويأتى بعدهم خياطو البُلَغ وهم يصنعون «بلغا» فلاحية من الجلد الأبيض ، فهم صنف لوحدهم يبلغ عددهم مائتى صانع يعملون فى سبعين دكانا . ثم صناع الأحذية الچركسية وهم مائتا حَذّاء يزاولون حرفتهم فى سبعين دكانا . ثم صناع الخف «المست» وهم ثمانمائة يعملون فى مائة دكان . وللشباشبية خمسون دكانا فيها مائة وخمسون صانعا . ثم صناع الجزم (جزمجيان) وعددهم مائة وخمسون نفرًا يعملون فى أربعين دكانا . وعملهم خاص بتفصيل الجزم للباشوات والزوار ، فإن المصريين لايلبسون الجزم وإنما يلبسون نعالاً چركسية . ثم الذين يحترفون بيع الأحذية القديمة وهم ألف ومائتا رجل يعملون فى ستمائة وسبعين دكانا ، وذلك خلاف أبواب الحمامات . فلصوص الأحذية من المساجد وغيرها يبيعونها لهؤلاء بالمزاد . ويأتى بعدهم الخفافون وهم ستمائة وخمسون لهم ثلاثمائة حانوت نظيفة بالقرب من باب الحديد وبخان الخليلى .

إن شيخ خياطى الأحذية وبائعيها هو محمد الأكبر اليمنى الذى ألبسه النطاق سلمان الفارسى ، وعَمّر مائة وعشرين سنة ، وقبره بجزائر عمان أى بديار البصرة . ويبلغ

---

(١) سَختيان كلمة فارسية الأصل معربة وتعنى : جلد الماعز المدبوغ . (د . متولى) .
(٢) طولمه ، كلمة تركية الأصل تعنى : نوع من القيافة . (د . متولى) .
(٣) كُلاه ، كلمة فارسية الأصل تعنى : قلنسوة ، عمامة . (د . متولى) .

مجموع أهل الحرف السبع المذكورة فى هذا القسم ألف رجل ممتازين مسلحين . ويمر شيخ الخياطين وشيخ الخفافين جنبا إلى جنب فرحين مازحين على قرع الطبول .

٢٣ـ السراجون

شيخهم أبو النصر الحاتمى البغدادى . ألبسه النطاق سلمان . ويبلغ عدد المشتغلين بهذه الحرفة ألفا وستين نفرا يعملون فى ستمائة دكان . وفيهم أثرياء صالحون ومنهم ال(قلتاقجيان)[1] وهم خمسة وخمسون رجلا يصنعون من الخشب هيكل السرج ، فى عشرين دكانا . وبعدهم صناع اللبود لهم أربعون دكانا يعمل فيها ستون صانعا . ثم صناع الزقاق وهم ستمائة . ثم لهم مائة حانوت وهى من ألزم الصناعات بمصر لأن جميع الحجاج فى حاجة إليها ، فلذا يربح صناعها ربحا كبيرا وفيهم رجال من «أهل الحال» . ثم صناع الأسفاط (الصناديق من القش) وهم مائة وخمسون رجلا يعملون فى أربعين حانوتا . ثم الأكافون (صناع البراذع)[وشيخهم أبو ذر الغفارى -] وعددهم خمسة وثلاثمائة رجل يعملون فى خمسة وثمانين دكانا .

يبلغ مجموع أفراد الحرف المذكورة [٢٢٣٠] رجلا يسيرون عارضين الكمال ويسير غلمانهم عارضين الجَمال ، وقد حملوا فى أيديهم الشموع الكافورية التى تقلب أنوارها المتجمعة الليلة المظلمة إلى نهار ساطع . وغلمان السراجين مشهورون بالجمال ، ويسير سراج باشى خلفهم على دقات الطبول .

٢٤ ـ العطارون

شيخهم حسام بن عبد المطلب البصرى ، ألبسه سلمان الطاهر النطاق فى حضرة الرسول عليه السلام . ومئات أهل الحرف يتبعون العطارين لتوافر جميع الأشياء عندهم فحوانيتهم ألف ومائتا حانوت والعاملون فيها ألف وثمانمائة . ويأتى بعدهم الكحالون وهم يبيعون أدوات الحكماء وأدويتهم فى مائة حانوت وأصحابها مائة وخمسون أستاذا . وشمع العسل يباع فى أربعين حانوتا يعمل فيها اثنان وثمانون . وتجار المسك وعددهم خمسة عشر رجلا يعملون فى عشرة حوانيت . ولبيع الصابون الممسك سبعة حوانيت يعمل فيها اثنا عشر رجلا . ولبيع العود والعنبر عشرة دكاكين يعمل فيها عشرون نفرا .

(١) هذه الكلمة مشتقة من قالتاق : الجزء الخشبى من السرج ، أو الجزءان المرتفعان فى مقدمته ومؤخرته . (د . السعيد) .

والماورديون مائة يزاولون مهنتهم فى أربعين حانوتا . وتجار البخور عشرون يصنعون البخور المعنبر لمكة والمدينة المنورة ، فى عشرين دكانا . وتجار الفناجين خمسون يعملون فى أربعين دكانا . والتجار الذين يزاولون بيع الأدوات الفخارية مائة يعملون فى مائة دكان ، لأن دكاكينهم لاتتسع لأكثر من رجل لكثرة ما بها من القدور والحباب والقلل والجرار ، ورجال هذه الحرفة صلحاء جدا . وصناع الكبريت مائة صانع ، وهم لايقدرون على مزاولة حرفتهم فى الدكاكين لكراهة رائحته فيعملون فى بيوتهم .

وثمة ثمانية دكاكين يعمل فيها أربعون صانعا فى صناعة المفرقعات فعندهم ضروب من المفرقعات المصنوعة بآلاف الشيطنة المخيلة . وحوانيتهم تحت باب الحديد وقد حدث فى عهد إبراهيم باشا أن باع أحد تجار المفرقعات فى يوم عيد مفرقعة شديدة الانفجار لأحد الصبيان . فما كان من الصبى «الشقى» إلا أن أشعلها فهاجت ودخلت الدكان فالتهبت منها آلاف المفرقعات وبضع قناطير من البارود ، ونسفت الدكاكين فى ذلك الشارع العام المزدحم بالناس . فقلبت (الفِشِنْكْجى[1] بابا) ونحو خمسين رجلا إلى شبه كباب وجرحت نحو مائتين . فهى حرفة ملعونة إلى هذا الحد . ومع ذلك يشارك هؤلاء الصناع العطارين فى هذا الحفل المزدحم بآلاف الناس المتلاطمين كالبحر فى شوارع قد صارت أسطح بيوتها كنسج العنكبوت ، بإطلاق آلاف القذائف النارية والمفرقعات ، فلا يحترق منها شىء بأمر الله . فلو أطلقت تلك النيران فى استانبول لذهبت مع الريح فى لمح البصر ، جعل الله القاهرة فى حفظ وأمن . وصنّاع القنّينات مائتا نفر ، يزاولون حرفتهم فى ثلاثة مصانع ، ولهم طلاب كثيرون . وتجار الحناء تجار من صنف آخر ، فهم ثلاثمائة نفر لهم مخازن فى وكالات . وللحُصَرِية ثمانون دكانا يشتغل فيها مائتا صانع ، ينسجون ضروبا من الحصر المنقوشة العجيبة ، والأعجب أن بعضهم أعمى . ومن أغرب العِبرَ أن بعض العُميان ينسجون من سعف النخل مراوح مزركشة بها كتابة مثل يا شافى ويا باقى و«شفاء القلوب» وغيرها من النقوش ، فهذه مناظر عجيبة . وصناع السكر النبات مائتان وخمسون نفرا يعملون فى مائتى دكان . وتجار البن عددهم جملة ستمائة تاجر . وهم تجار أغنياء يرسلون إلى هذا الحفل خدمهم الذين ينثرون البن على المتجمعين لمشاهدة مرور الحفل ، وهم غلمان نظاف . وتجار الأرز أيضا تجار أغنياء

(١) فِشَك ، فِشِنْك ، كلمة فارسية الأصل دخلت التركية ، وهى (فشنك) كلمة معربة تعنى : خرطوشة المسدس أو البندقية . وقد أضيفت للكلمة اللاحقة (جى) التى تفيد الحرفة أو المهنة ، وتعنى كلمة «فشنكجى» صانع الأجزاء النارية أو بائعها . (د . متولى) .

وعددهم ألف وخمسمائة تاجر يرسلون غلمانهم للاشتراك فى هذا الحفل مسلَّحين . وصناع الفخاخ خمسمائة صانع يعملون فى ثلاثمائة دكان . وصناع شباك صيد السمك أحد عشر رجلا يعملون فى سبعة دكاكين .

يكوِّن أفراد المهن المذكورة جميعا (. . . .) فريقان من الجند وليس لموكب فى هذا الحفل ما لموكبهم من الهيبة والاحتشام والجلال . كما أنه ليس لفرقة من الفرق المشتركة فى هذا الحفل ما لأهل هذه الحرف من الغلمان والصباحة (چراغان)[1] ذوى الجمال . ويسير عطارباشى والخدم الخاص فى جلبة وصخب على دقات فرقة الطبول المؤلفة من أربعة صفوف مما أعجز عن وصفه .

٢٥ ـ الحلاقون الخبراء والمزينون الشبان

شيخهم سلمان الطاهر [2] قد ألبسه النطاق علىٌ فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمّر مائة وثلاثين سنة وقبره بالقرب من بغداد ، وله جمعية سنوية عجيبة . وعدد أفراد هذه الحرفة ثلاثة آلاف نفس يعملون فى ثلاثمائة حانوت . وهناك مزينون متنقلون . ويأتى بعدهم أصحاب الحمامات وهم خمسة وخمسون رجلا يملكون خمسة وخمسين حماما ، وشيخهم محسن بن عثمان . ثم الدلاكون وعددهم ألف ومائتان . ثم نواطير الحمامات (رؤساء خدم الحمامات) وعددهم ألف ناطور وشيخهم منصور بن قاسم . ثم سنانو الأمواس ، وعددهم خمسة عشر رجلا يعملون فى سبعة دكاكين . ثم المعمِّمون وهم غير المزينين . ومركزهم حانوت فى القلعة العليا وهم ثلاثة رجال خرس يلفون أنواع العمم كالمجوَّزة والپريشانى والقلاوى لرجال الدواوين . ورجال هذه الحرف السبع وعددهم . . . يسيرون بنظام عسكرى ويسير غلمانهم المحبوبون عارضين الجمال ، ويسير شيخ الحلاقين خلف غلمانه على دقات الطبل .

٢٦ ـ حرفة نقش الأقواس

أفراد هذه الحرفة ثلاثة رجال يعملون فى بيوتهم . بيد أن كل واحد منهم كأنه »

(١) كلمة چراغ أو چراق بمعنى الصبى الذى يتعلم الصناعة فى الدكان أو المصنع ولذلك يجب أن تستبدل كلمة الصبيان بكلمة (الصباحة) . (د . السعيد)

(٢) يرى القارئ أن كل أصحاب حرفة ينتمون إلى شيخ من الأنبياء أو الصحابة أو الأولياء ولهم شيخ معاصر . ينتسب الحلاقون إلى سلمان الفارسى لأنه كان حلاقا للرسول ﷺ وفى إيران يسمى كل حلاق سلمانيًا . (د .عزام) .

بهزاد» و«مانى» فى فنه . ثم (بائعو الورق المذهب[٢]) ، هم أحد عشر نفرا يعملون فى ثلاثة دكاكين . ثم المذهبون وعددهم أحد عشر صانعا ولكنهم ليسوا مهرة فى الفن ، يعملون فى سبعة دكاكين . ثم المجلِّدون وعددهم مائة وأربعون نفرا ، يزاولون حرفتهم فى ثمانية وأربعين دكانا . ثم أصحاب المكتبات وهم ثلاثون رجلا فى عشرين مكتبة ، وشيخهم عبد الله اليتيم المدفون فى وادى هَرق (Hark) بالحبشة وقبره مزار الخاص والعام ، وقد تيسرت لى زيارته ثلاث مرات . ثم الوراقون وعددهم ثمانية وستون نفرا فى خمسين حانوتا . وهناك ثلاثون رجلا يختمون الورق فى أحد عشر دكانا . وللرمالين أربعون دكانا يعمل فيها أربعون رجلا وفيهم كمَّل الرجال . ثم كتاب الطلبات (عرضحا لجيان) . وعددهم خمسة وأربعون رجلا فى خمسة وأربعين دكانا وفيهم رجال من الترك سريعو القلم . ولصناع الحبر ثلاثة دكاكين يعمل فيها ستة أنفار ، ولكن حبرهم ليس كحبر الأتراك ، فهم لايدقونه بل يصنعونه بغليه على النار . ثم المصورون ، وهم عشرون رجلا وليست لهم دكاكين وإنما هم يطرقون الأماكن التى يجتمع فيها الناس فيعلقون صورهم بالجدران لتعرض جمالا غير ذى روح . ثم الزجاجون وهم عشرون رجلا فى ثمانية دكاكين .

يبلغ عدد أفراد الحرف المذكورة (٤٢٤) رجلاً يسيرون فى الحفل عارضين ضروبا من المهارة وحاملين مصابيح منيرة ويسير «نقاش باشى» خلفهم على دقات الطبل .

٢٧ ـ تجار خان الخليلى المختلفون

مجموع الخان ألف وخمسمائة حانوت يحرسها كل ليلة ستمائة خفير من البرابرة الشجعان المسلّحين بالحراب المستعدين لكل طارئ ، وتشعل ثلاثة آلاف قنديل كل ليلة حول هذا الخان . ويأتى بعدهم الدلالون الذين يحملون الرخص وعددهم ثلاثمائة رجل . ثم الدلالون المضمونون وعددهم ستمائة دلال . ثم دلالو سوق الخيل وهم ستون رجلا . وتجار الخيل (آت جانبازى)وعددهم مائتان ومعهم الأغا الأمين « والچورباجى» والكاتب وهم ثلاثة . ثم وسطاء سوق الخيل وعددهم مائتان . ثم وسطاء خان الخليلى وعددهم ثلاثمائة رجل . ثم سماسرة خان الخليلى وهم خمسون رجلا وصنعتهم إرشاد

(١) صوابها صانعو الرّقائق الذهبية واحدهم زركوب فارسية متركة . (د . السعيد) .

طلاب التحف إلى الأماكن التى تباع فيها . ولتجار الجوخ عشرة حوانيت يعمل فيها ثمانية أنفار . ثم يأتى تجار الأطلس والمخمل ، والخلع والسجاد والزعابيط والعبايات وشاشى العمم والأصواف والبفتة وتجار العبيد .

وجملة أفراد الحرف المذكورة ، ألف رجل مسلحون مزينون يسيرون كالبحر . وقد امتاز موكبهم بالفرح والمرح والأنوار البديعة التى أعجز عن وصفها وتعريفها . ويسير رئيس التجار (شهبندر) ونقاش باشى وشيخ الكتبية جنبا إلى جنب راكبين ، على دقات الطبول .

٢٨ ـ محترفو الألعاب
أى « البهلوانات»

كتبنا عن محترفى الألعاب (باز بازان) بالتفصيل ويبلغ عددهم سبعين ألفا ، فلو كتبنا عن كل صنف منهم بالتفصيل لطال الكلام وصرنا مادحى الدجالين . وأما الفكاهات والألعاب العجيبة التى يقومون بها فى تلك الليلة فلم يقم بها شيخهم « أبو علي بن سينا» فقد عض الجميع أناملهم وبهتوا و «ماتوا ضحكا» . والحق أنه لايوجد فى بلاد الفرنج والهند ما بمصر من «أولاد الحرام» . وفيهم اللاعبون بالألعاب النارية التى تضئ الليل . وليست لهم فرقة موسيقية لأنهم هم أنفسهم موضع المشاهدة والفرجة أكثر من الموسيقى .

٢٩ ـ العازفون (سازندكان)

شيخهم الحكيم فيثاغورث التوحيدى وعبد الله الفاريابى . وعدد أفراد هذه المهنة سبعمائة نفر ، يمرون عازفين على سبع وأربعين آلة موسيقية . وخلفهم :

٣٠ ـ موكب الجيش المصرى

يمرون مواكب وأفواجا وجماعات على حسب القانون ، وبين كل فوج وفوج آلاف المشاعل والقناديل ، وفى كل فرقة مشاة من العازفين على الطنبور والمغنين والعازفين والشعراء يسيرون مغنين فواصل موسيقية . حتى إذا تم مرور فرق الجيش المصرى والموكب المنظم لأغوات الباشا المزينين المكّلفين راكبين جيادهم ومضيئين

بمشاعلهم ، وتسير جياد الباشا المقودة (يد كلى) ويسير من الجانبين رجال الانكشارية المصرية حاملو التوغ والسقاءون ، والشطار ذوو الطاسات الذهبية والسقاءون ، ومعهم الأغا المحتسب غارقا فى المقصبات ، وعلى رأسه طرتان ملكيتان ، يمر على جواده المزيَّن بالجواهر والزمام الذهبى ، محييا الجماهير يمينا ويسارا . ويسير معه كتخدا حجاب الباشا جنبا إلى جنب ، وخلفهما مائة زوج من الغلمان المحبوبين الغارقين فى المقصبات ، لابسى الخوذات ، على نغمة الفرقة الموسيقية المؤلفة من تسعة صفوف .

وفى الساعة السادسة تماما من ابتداء الموكب يصلان إلى سراى قاضى مصر بهذا الحفل العظيم فيستقبلهم ، چاويشية الديوان بإطلاق النيران دفعة ، ويخرج قاضى العسكر أفندى لاستقبالهما بتعظيم وإجلال ، فيجلسهما فى صدر المجلس ويقدِّم القهوة والبخور الوردى . وعندئذ يخاطب المحتسب القاضى قائلا «يسلم مولانا صاحب الدولة على جنابكم الشريف ، فيرغب فى معرفة هل هذه الليلة المباركة هى ليلة رمضان وصباحها يوم الصيام أو يوم الشك؟ وهل ننوى الصيام تطوُّعا؟ فقد أرسل عبدَه الفقير موكَّلا للسؤال عن هذا الأمر من جنابكم ، تعظيما لرمضان المبارك» . فما إن ينتهى المحتسب من كلامه حتى يأمر القاضى بإحضار مشايخ المذاهب الأربعة فيحضر العلماء والمشايخ الكبار . إن كان الهلال ظهر فى تلك الليلة فقد سجل فى السجل الخاص بذلك فيقال حينئذ : نعم إن الغد يوم رمضان المبارك ، فتقدَّم الحجة الشرعية إلى المحتسب الذى يرسل كتخداه حاملا إياها إلى الباشا مبشرا بحلول رمضان ، فيقرأ الباشا الحجة وينوى الصيام على حسب قول الرسول عليه السلام «صوموا لرؤيته» فتنار أولا منارات جامع الدهيشة بميدان السراى ثم منارات مسجد قلاون ، وتطلق من مدافع القلعة أربعون أو خمسون طلقة ترتج الأرض والسماء من دويها فى نصف الليل . وتنار منارات ثمانمائة وستين جامعا بالقناديل ، ويذهب الناس إلى المساجد لإقامة صلاح التراويح وينوون الصيام صباحها . هذا إن ظهر الهلال ، وأما إن لم يظهر حين سؤال المحتسب القاضى عنه ، يحضر القاضى السماط المحمدى فيتناول منه الطعام على حسب القانون ، العوام والأعيان وأرباب الديوان للتأخير . حتى إذا تم ذلك يقوم أهل الحرف بضروب الألعاب والصخب والجلبة فى ساحة سراى القاضى ويمرون أمام قاضى العسكر والأغا المحتسب أفواجا وجماعات حاملين المصابيح ، ثم يشرع اللاعبون بالأسهم النارية فى إطلاق الأسهم كما فى حفل قطع النيل فيقومون بسبعة آلاف لعبة ، ويمضى ثلاث

ساعات أخرى فى مشاهدتها . وعند ما يتم موكب المغنين والعازفين يشرع موكب البلوكات السبعة المصرية . وإن بلغت الأنباء فى خلال ذلك من الأطراف والأكناف بعدم رؤية الهلال أبلغ الباشا ذلك ، فلم تنور المنارات ولم يكن الصيام وكان يوم الشك . فلا مندوحة عن أن يرسل المحتسب ذلك الخبر إلى الباشا ويخلع على القاضى خلعه سمورية من قبل الباشا ، لأن القاضى قد أنفق فى وليمة هذه الليلة ألف قرش ، والعلماء والمشايخ إذا ضاع منهم قرش ضاع عقلهم . فلذا يرسل الباشا إليه خلعة سمورية قانونا .

على هذا النظام يدخل المحتسب الموكب مرة أخرى فيسير رويدا رويدا حتى يبلغ قصره قرب الفجر وينزل عن جواده ، وتتفرق مواكب مشايخ أهل الحرف فيتجه كل إلى منزله ومعه رجال حرفته يسيرون متفكهين صاخبين فى شوارع القاهرة حتى يوصلوا مشايخهم إلى منازلهم . وأما المحتسب الذى عاد إلى قصره بحفل عظيم فيجلس على كرسى بعظمة« الكرّ والفرّ» ، وشوكته ويأمر بتقديم القهوة والشراب لأغوات البلوكات السبعة وتعطيرهم بالبخور ثم يعطيهم كيسين مصريين «حالية» على حسب القواعد المبينة فى نظام تشريعات الطوائف العسكرية ، فينصرف الجنود كلهم عائدين إلى القاهرة . ويعطى أيضا كيسين لأغوات الباشا ، وكيسين للباشا ونصف كيس للكتخدا ، كما يقدم هدايا كبيرة وصغيرة لاثنى عشر أغا من أغوات الباشا الخصوصيين أولى الرتب ، وإلى اثنى عشر أغا ممن كانوا بالخارج من حملة الرتب تطييبا لخواطرهم . وبهذا تنتهى الليلة المشهورة « بليلة المحتسب» المصرية العجيبة .

وإذا تم ذلك شرع الأغا المحتسب فى استرداد تلك الأكياس المصرية التى قدمها باسم «الحالية» إلى الباشا والكتخدا وأغوات الباشا ورجال البلوكات السبعة المصرية من مشايخ الحرف أصحاب «الطبلخانات» الذين بالقاهرة وخارجها ممن يدخلون تحت سلطته ويستخرجها أولئك من كتخداوات ونقباء و « چاويش باشى» المائة والستين صنفا من أهل الصناعات والحرف المذكورين ، ويحصلون عشرة أكياس مصرية .

وبعض الفرق من أهل الحرف التابعين لبعض خدم الباشا وفى حمايتهم لا تؤخذ منهم «حالية» ما ، فمنهم الطهاة فإنهم جميعا فى حماية رئيس طهاة الباشا . وأصحاب المقاهى جميعا فى حماية رئيس الشطار « شاطر باشى» ورئيس الخبازين . والصياغ جميعا فى حماية رئيس صياغى الباشا . وكذلك الأغا الأمين ، وصاحب العيار ورئيس

ضاربى السكة والأغا الناظر وأمين الخزانة وقاطع أسلاك الفضة وعمال الممشقة وهم خمسة عشر نفرا ، وعمال المخرطة وعددهم عشرة وعمال الفرن وهم عشرون نفرا وصهارو المعادن وعددهم عشرون رجلا والفرانون وعددهم خمسة ، وعمال الترقيق وعددهم عشرة والعدادون وعددهم عشرة ، وعمال السكة عشرة والوزانون عشرة وأصحاب القروش وعددهم عشرة ، وعمال الصقل عشرة وعمال الكير وعددهم عشرة والسماسرة الباحثون عن الفضة وهم عشرة ، والحطابون وعددهم عشرة ، وصراف باشى واحد ، والصرافون وعددهم عشرة . أولئك خمسمائة رجل لايدفعون شيئا للمحتسب قائلين بأنهم فى خدمة السلطان . والترزيون جميعا فى حماية ترزى باشى الباشا ، فلا يدفعون شيئا . والفراءون تابعون لرئيس فراثى الباشا وفى حمايته فلا يدفعون شيئا ، ولكنهم جميعا يشتركون فى الحفل . إن المذكورين جميعا وإن لم يمدوا المحتسب ظاهرا يمدوه بالمال سرا خشية من فقد حماية «شاطر باشى» و«رئيس الطباخين» إذا عزل الباشا من منصبه ، لأن المحتسب حاكم حر ، فلذا يخشونه . وجميع أهل الحرف يسهمون فى مصاريف حفل ليلة المحتسب ، هذا من القوانين المصرية المرعية . وليلة المحتسب أحد الأعياد ذات المواكب العظيمة التى يعز نظيرها على ظهر الأرض ، حتى إن الناس يقبلون شرط خروج زوجاتهم فى هذه الليلة حين عقد نكاحهم عليهن والسلام . فلو وصفنا ليلة المحتسب بالتفصيل كما شاهدناها لكان مجلدا ضخما ولكنا اكتفينا بوصفها بإيجاز .

الفصل التاسع والأربعون

فى بيان الصناعات التى توجد فى مصر أكثر مما فى سائر البلاد .

أولاها ترياق الفاروق الذى يُصنَع فى مستشفى السلطان قلاون والذى سبق ذكره بالتفصيل ، فإنه غير موجود فى الربع المسكون . ومن القاهرة يصدر قرص الأفعى والترياق الفاروقى إلى الأقاليم السبعة . والسم الزعاف المصنوع فى «دار شفاء» قلاون يؤثر فى الخيل والبغال فى حوافرها . «والبنزهير الكنعانى» دواء من قبيل الإكسير الأعظم يقطع ذلك السم القاتل . وهو شىء حجرى كالكستبان أصفر اللون ، وقد حصلت منه على واحد والحمد لله . وقد اكتشف المرحوم كنعان هذا الإكسير وهو يبحث فى العلم الخفى . وقد كان له فى علم الكاف! أيضا عيار الذهب الخالص ، وكان ملك الفنون (جمشيد فن) لاتفلت من يده معرفة . وله سبعون مختَرَعا من إيجاده يباهى بها العالم .

معجون العقرب . وهذا أيضا عمل عجيب . ففى موظفى مستشفى قلاون رجال من بنى آدم إن رآهم الشيطان فر مستعيذا بالله ، يسمون صيادى العقارب . متى أراد الحكيمباشى تركيب معجون العقرب يذهب أولئك الصيادون إلى أماكن خربة فيحفرون فى الأرض حفرا ويضعون فى كل حفرة جرة مجلية (كاسه) فَتْحتُها متساوية مع سطح الأرض ويضعون فى كل جرة قطعة من الكبد ثم يلطخون التراب حول الجرة بشىء من رائحة الكبد حتى فتحة الجرة وإذا انتصف الليل وخرجت العقارب من الشقوق تلعب وتبحث عن الصيد شمت رائحة الكبد فى الأرض وسارت مع الرائحة (تشم) كالكلب حتى حافة الجرة وهوت فيها ويأتى الصيادون صباح الغد ، فيجدون الجرار قد امتلأت بالعقارب التى وقعت فيها ولم تقدر على الخروج منها ، فيضعونها فى جُرُب ويحملونها إلى حكيمباشى المستشفى ويسلمونها إليه . وهناك يقصون ذيولها وقوائمها بالمقص ويطبخون أجسادها فى القدور . ويستخلصون دهنها ، ثم يصنعون من أجسادها معجونا بسكر ، يشفى المريض باحتباس البول .

ومصنع السكر أيضا من الأماكن العجيبة التى يجب مشاهدتها . ومصنع النُّشادر موضع خليق بالمشاهدة وسوف نكتب عنه فى موضعه . ومصنع ملح البارود (كهرجله جيان) ببولاق . وهو مصنع عظيم خليق بالمشاهدة ، ويوجد منه كثير فى قرى أخرى كذلك ، وكلها أميرية . ومن هذا الملح يُصنَع البارود الأسود . ومعدن النطرون ، وهو مادة

كالملح وكثيرا ما يستعمله المصريون فى الطعام بدله ، يحل اللحم وغيره من الطعام فى

المصريين الذين يضطرون إلى وضعه لينضج بسرعة لقلة الحطب عندهم ، ولكن من أسرف فى استعماله انتفخت خصيتاه ، وابتُلى باحتباس البول . ويستعمل النطرون فى صناعة الزجاج ، فهو يذيب الزجاج فى نار خفيفة ويجعله كالماء . ومن مصر يصدر النطرون إلى استانبول . وببولاق القاهرة مخازن مملوءة به ، وهى أمانة مستقلة ، تدفع الأموال الأميرية . وصناع مراجل الحمامات : إن المراجل التى تسخن فيها مياه حمامات القاهرة مصنوعة كلها من الرّصاص فهى عجيبة خليقة بالمشاهدة .

فى بيان مساوئ القاهرة والحرف التابعة للصوباشى (رئيس الشرطة)

إن الطوائف الآتية جميعا قوم ملعونون لا أخلاق لهم ولا دين . فمنهم محترفات البغاء فى باب اللوق وعددهن ثمانمائة عاصية ، لهن أكواخ فى المقابر وتحت أسوار حصن باب اللوق . ثم عاهرات البيوت ، وهن ملعونات متسترات ومتظاهرات بالعفة ، ويمارسن البغاء فى بيوتهن ، ولكن لهن وسطاء . وعددهن ألفان ومائة امرأة ، على حسب ما هو مقيد فى سجل رئيس الشرطة (الصوباشى) وهن يدفعن المال الميرى . ولا تدخل فى هذا الحساب العاهرات اللاتى بيد الطوائف العسكرية وتحت تصرفها ، لعدم تمكن الصوباشى منهن ثم صبيان باب اللوق المخنثون . إن مقاهى باب اللوق وبوظاتها وحاناتها وميدان الروميلى يتسكع فيها الصبيان المأبونون ، وفيها يُبحث عنهم وهم أيضا يدفعون المال الميرى . ثم شيوخ القوادين وهم ثلاثة رجال أحدهم ببولاق والآخر بمصر القديمة والثالث بمصر الجديدة ، والعاهرات والغلمان جميعا مقيدون فى سجلاتهم ، كما أنهم هم المطالبون بالمال الميرى . وچاويشية باب اللوق وعددهم أربعون رجلا . وهم يعرفون بيت كل عاهرة ومن باتت منهن فى بيتها ومن باتت خارجه . وقوّادو باب اللوق (المعرسون = ديوث) هؤلاء يتجولون فى سوق الفسق بيتا بيتا وبأيديهم (آقچه تاخته سى)[1] ويظلون هكذا كأنهم السماسرة فى سوق الخيل . ثم الوسيطات من النساء أولئك عجائز النساء . وكل من أقدم على الزنا وجدن له زانية فاخرة ، وأخذن أجورهن . وعددهن ثلاثمائة عجوز حمقاء كلهن ضالات لعينات . وناقلو الأشياء من السوق (بازاره كيده نلر) وهم رجال

(١) قطع من الخشب تقوم مقام العملة . (د . السعيد) .

يتكلفون بنقل بعض الأشياء من بوظات باب اللوق وحاناته ومطاعم الكباب وسائر نُقْل الطرب لمن يطلب إليهم ذلك . ويحدث أحيانا أن بعض الشبان السفهاء يستأذن من رئيسه للذهاب إلى الحمام فيذهب إلى باب اللوق ويدخل كوخا من أكواخه ؛ فبينما هو ينعم بصاحبته إذا بها تشتهى الكباب والشراب . فما يكون من الشاب إلاّ أن يناول من يذهب إلى السوق حفنة من النقود فيحضر المطلوب . يقدَّم إلى الشاب البوظة والخمر وقد وضع فيها القرنفل الأبيض والداتوره وصمغ الأذن (قولاق كيرى) ورماد الحصير ، فلا يكاد صاحبنا يتناول منها كأسا حتى يقع على الأرض كأنه «جوال» الحناء ، فيُجرَّد مما يحمله من الأسلحة كالخنجر والسكين والثوب ، وتطير حافظة النقود ثم يأتى بعض من أفلتوا من الشنق أو «الخازوق» فيوصلون الشاب إلى مرامه ، ويتركونه فى ركن أو فى مكان مهجور . حتى إذا أفاق من سكرته ، وألفى نفسه عاريا عرف ما أصابه ، ولكن قضى الأمر ؛ فهو لا يقدر على أن يبوح بالسر ، فالذى ذهب انتهى ، وسيذهب ثانية . هذا إذا كان معه نقود ، وأما إذا كان خاوى الوفاض فيقتلونه ويدفنونه . والله أعلم ، إنه حدث فى عهد حسين باشا ابن جانبلاط بعض حوادث كالتى ذكرتها . فلما بلغه ذلك أمر كبير حجابه (قپوجى باشى) قائلا : «إنى تجاوزت عن الأموال السلطانية ، وسأتحمل غرامتها ، فاذهب وعجِّل بهدم تلك البيوت المعدة للدعارة» ، فما إن سمع الأغا أمر الباشا حتى جمع آلافا من البرابرة والفلاحين ، فسوى قهاوى باب اللوق وبوظاتها بالأرض ، ونفى العاهرات من القاهرة ، وطهرها بذلك . وما كتبت عن أمثال هذه الترهات إلا تنبيها للغافلين بأن بالقاهرة أماكن يجب أن يحذروها . إنها أماكن يعرفها من يعرف القاهرة ففى كل ركن منها كمناء مخطرون .

وشيخ السائلين أى الشحاذين رجل له تكية بميدان الروميلى ، يتجمع فيها السائلون كلهم ، ولهم اثنا عشر چاويشا يقفون عند باب الباشا وباب قاضى العسكر . وإذا قصد الباشا إلى جهة أخبروا الشحاذين ، ليقفوا فى جانبى الطريق صفوفا . وبالقاهرة تسعة آلاف سائل مقيدون فى سجل شيخهم . ينالون الإحسان من الباشا والأعيان بحسب التقدير ، فيدعون لهم بالخير . وإذا تطاول سائل بكلام بذئ نُبِّه على شيخه بذلك ليؤدبه . وإذا كان يوم إخراج الكسوة الشريفة سار شيخ السائلين راكبا حمارا ، وقد وضع على رأسه

قاووقا «عُرف الإضافة» وإلى جانبه خدامه[1] ويحمل الفَلَقَة بيده، ويسير معه آلاف السائلين. وهذا أيضا لا يوجد إلا فى القاهرة.

وعمال الإضاءة هم مائتا نفر يعملون فى أربعين حانوتا. وعملهم إضاءة الحوانيت وتزيينها بالقناديل فى ليالى المولد والحفلات وشهور رجب وشعبان ورمضان التى تظل فيها الحوانيت مفتوحة فى الليالى، ولابد من تعليق قنديل على كل منها فى رمضان ولو كان مغلقا. وهم الذين يتعهدون بإنارة المدينة فى الاحتفالات العامة. وإذا احتاج امرؤ إلى الإنارة فما عليه إلا أن يساومهم ويتفق معهم على ما يحتاج إليه منها، فهم يقومون بإنجاز المطلوب مهما كَثر عدد القناديل، وينيرون الشوارع ويزينونها، وهذا أيضا عمل خاص بالقاهرة.

والنخاسون، أى تجار الرقيق الأسود، وهم ألفا رجل. ومراكزهم وكالات بداخل القاهرة ولكنهم يسافرون مرة فى كل عام إلى ولايات الفُنج وآفون وقرمانقة وبجانسكه فيجلبون منها العبيد، وهم رجال سُمْر الألوان من ولايات الواحات وأسوان وأبريم.

وجرّاحو الجلابين وهم عشرة رجال يزاولون حرفتهم فى بيوتهم، وهى خصاء الصبية السود الطاهرين المجلوبين من الشعوب الميبورية والجاجوية والقرمانقية والبجانسكية الحبشية والفنجية والأفنرية. يجمعون مائة أو مائتين من عباد الله الطاهرين فى صف ويطعمونهم، ثم يسقونهم مشروبا ممزوجا بالزعفران. وبعد ما يتم ذلك يقطعون مذاكيرهم وخصاهم بالمدى، «اللهم عافنا» ويضعون فى موضع الذكر قصبا ثم يرشون على الجرح غبار نبات من السودان، فينقطع الدم بأمر الله، ثم يرشون عليه غبار ورق شجر السنط، ويغطونه بجلد مدهون بزيت أسود ويضمدونه بشاش، ويحرمون الصبية المساكين الطاهرين من التناسل بهذه الطريقة، فمنهم عشرة من الجلادين القساة، لاتجد الرحمة والشفقة سبيلا إلى قلوبهم، فقد تجردت وجوههم السود العابسة القبيحة وعيونهم من النور والبركة. وحدث أن خَصَى الكتخدا إبراهيم باشا عددا يبلغ المائة أو يزيد من الصبيان السود، لتقديمهم هدايا، وذهبت أنا الفقير عن قصد، وشاهدت تلك العملية «اللهم عافنا»؛ فهذا يضطرب كالطائر المذبوح كما يقال بالكردية (پُرِيُطُر) فيربط، وهذا

(١) ثلاثة خدام: أعور وأكتع وأقرع. (المترجم).

ملقى على الأرض لا حراك له وهذا يتحمل بضعة أيام ثم يموت . فهم جلادون قساة إلى هذا الحد . وهذا العمل أيضا خاص بالقاهرة .

صناع البُسط وعددهم ثلاثمائة صانع ، يزاولون حرفتهم فى عشرين مصنعا ، ينسجون زرابىّ وبسُطا مزركشة يقصر اللسان عن تعريفها . إن الزرابىّ تنسج فى «عشاق» و«قولا» و«آلا شهر» من مدن الأناضول ، ولكن ما يُنسج منها فى القاهرة غير موجود فى سائر البلاد ، وإن وجد فإنما يُوجد فى أصفهان .

الحمارون وعددهم ثلاثة آلاف حمّار ، وذلك لأن الحمار زوْرق القاهرة وقاربها . ففيها من الحمير الحَسَوِيّة السَّبَّاقة ما يعجز الرَّهْوان[1] من الخيل عن اللحاق بها . ويقال إن بالقاهرة أربعين ألف حمار . وأعيان القاهرة جميعا من هواة زكوب الحمير وليس هذا بعيب عندهم بل سنة رسول الله ، فقد كان الرسول الأكرم والنبى الأجل يركب دائما حمارا له يدعى «يعفور» فركوب الحمار سنة من سنن الرسول عليه السلام ، فقد قيل إن من استهزأ قائلا «هذا حال من يركب الحمار» كفر . وَجزّازو الحمير ليست لهم حوانيت ولكن لهم أماكن معينة يقفون فيها وعددهم مائتا رجل . وجميع حمير القاهرة وجمالها تُجَزُّ مرة فى كل شهر وهؤلاء يجزونها بمهارة كأنها حلقت بالموسى ، لا يبقى فيها أثر من الشعر .

والنشالون ، هم ثلاثمائة من لصوص الجيوب يحكمهم الصوباشى ، يسرقون محافظ الناس من جيوبهم وصدورهم ، ويسرقون سكاكينهم وخناجرهم بلا تردد ولا اكتراث بمهارة عجيبة ، فلذا يجب الحذر منهم فى الأماكن المزدحمة ، لأنهم مهرة قد حذقوا فمنهم إلى حد أن الواحد منهم يسرق العين من الكحل ، ويبقى الكحل مكانه . ولهم راية خاصة (سنجاق) وإذا أراد الصوباشى استرداد المسروق فليس أسهل من ذلك ، فإن النشالين واللصوص مقيدون فى سجله .

وصناع السُّرُر ، أى الذين يصنعون من سعف النخل أقفاص السكر وسُرُرا ينام عليها الناس وعددهم (. . .) وهذه الحرفة أيضا لا توجد فى سائر البلاد .

الكناسون وعددهم (. . . .) يكنسون شوارع القاهرة وحاراتها وأزقتها فيطهرونها من

(١) راهْون كلمة فارسية متركة معناها : الحصان أو البغل سريع العدو . (د . متولى)

التبن والفضلات ثم يحملونها إلى المستوقدات و«الشيشخانات»[1] وتنانير الجير، وأفران الفخار، ليس فى أهل الحرف المصريين جماعة ذات وجوه غريبة عجيبة مثلهم، فكأنهم مخلوقات ممسوخة على حد قول الشاعر « ما الحاجة إلى الكلام فأهل الحال يعرف الحال» فقد رأيتهم أنا الفقير كمضمون البيت المذكور. بيد أنى رأيت أيضا بعض صلحاء الأمة من المصريين يلثمون أيدى بعض هؤلاء الكناسين المعيبين المذمومين حين يلقونهم فى أماكن خالية. لأن كثيرا منهم يعتقدون بوجود أولياء الله فى الزبالين والمجاذيب والملامتيةّ وبائعى الأثواب القديمة والحلاقين الجوالين بالقاهرة، «ولا يعلم الغيب إلا الله» ؛ لقد ورد فى الحديث« أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى» .

وبائعو لحم الجمل المطبوخ وكبده، هم عشرة رجال فى عشرة دكاكين. وهو طعام الفقراء بميدان الروميلى ولكنه طعام جد لذيذ فقد أكلت منه كثيرا .

وبائعو الفأر المطبوخ . هؤلاء ليست لهم دكاكين. وإنما يبيعونه فى أكواخ وخيام بميدان الروميلى وعددهم عشرون رجلا. ولصيد هذا الفأر موسم هو أيام قطع النيل، وفى تلك الأيام يصيدونه ويأتون به إلى ميدان الروميلى. وهو حيوان صغير له أوصاف الأرنب، يتولد من التراب بأمر الله فقد تيسر للفقير رؤيته حين حرث الأرض، أصابته سكينة المحراث فجرحته وسالت منه الدماء. فلذا يباح أكله فى المذاهب الأربعة. يعيش تحت سطح الأرض، وإذا كمل نموه فتكوم عليه تراب كما يتكوم فوق «الخُلْد taupe» فيعرف الصيادون من ذلك وجود فأر تام الخلقة فى ذلك المكان فيصطادونه. إنه حيوان صغير سنجابى الشعر ظريف الشكل يزن الحى منه ستين درهما. ويكون عادة سمينا جدا ولكنه خفيف اللحم والشحم وسريع الهضم ومقو فقد أكلت منه كثيرا حين كنت ذاهبا إلى الواحات. وهو لا يأكل ذا روح وإنما يتغذى بجذور النباتات والأعشاب التى تحت الأرض ولا يأكل سواها .

وبائعو شراب البنج. يباع هذا الشراب فى حانوتين بميدان الروميلى. ينقعون النبات الذى يصنع منه البنج مساء، ثم يصفون منه الماء الذى يمزجونه بقليل من العسل المصفى فيبيعونه لطلابه فى أقداح. فمن شربه من البلهاء ونظر بعد ذلك إلى وجه

(١) الشيشة خانات: مصانع الزجاج. (د. السعيد).

حبيبه بُهت وأنشد ألف بيت وبيت من الشعر واقفا على رجل واحدة . ويقال إن فى هذا الشراب خاصة تبعث على التخيل . ثم صناع السوبية وهى بوظة مصنوعة من الأرز فقد مر ذكرها ، وهى أيضا خاصة بالقاهرة . ثم بائعو «التمر الهندى» وهو مشروب فيه راحة البدن والروح ، وهو أيضا خاص بالقاهرة . وصناع الأكوة يصنعون «أكوة» كالسيف وهى الخنجر العربى ، وهذه الصنعة غير موجودة عند الأتراك . والحُصْريون ينسجون حصرًا مزركشة تباع بأربعين أوخمسين قرشا . ثم الطهاة ، يصنعون الكسكسى والملوخية والباميا والقلقاس والقُنَّبيط وهى أصناف خاصة بمصر . ثم صناع حلوى المراية وهم عشرة رجال وليست لهم حوانيت . وإنما هى عصا طويلة منقوشة مُنْتهٍ طرفها بمرآة ، يلفون تحتها سكر يعقد حتى يكون له قوام الحلوى . يرفع البائع العصا جاعلا طرفها الأسفل فى كمه ويجول فى الشوارع والحارات ، ويقف أمام كل دكان وكل بيت مناديا ومغنيا بأغنيات ظريفة ؛ وكل من أراد شراء بعض هذه الحلوى أعطاه إياها وأخذ منه قطعة صغيرة من النقود ومضى فى سبيله داعيا ومغنيا . فهى حلوى درويشية جدا ؛ ثم الدراويش البهاريون وهم غالبا دراويش يمنيون . يَصرّون بمُزر ضروبا من الرياحين والورود والشقائق النعمانية والياسمين التى يقدمونها إلى كل من يلقونه من الأعيان فينالون منهم الإحسان ، وعددهم نحو سبعين أو ثمانين درويشا . وهذا الصنف أيضا خاص بالقاهرة .

الفصل الخمسون

فى بيان ما فى سائر البلاد من الحرف التى لاتوجد بمصر

فأولا أن من المشهور فى العالم بين المتندرين أن مصر تكثر فيها الخيل ، ولكن ليس بها نعّال خيل ماهر فنعالوها جميعا مهرة فى تركيب نعال للحمير . وبها مرضى كثيرون وليس بها حكيم صادق ، ويكثر فيها العُمْى ، وليس بها كحالون . وهذا مثل جد صادق ، فلا ترى رجلين إلا وعين أحدهما عليلة وجاحظة وهذا أيضا مثل حيث يقال لمن كانت عينه ضعيفة «إن عينك كعينى أولاد العبيد من المصريين » والحق أنه تكون عيون المولودين بمصر معتلة بأمر الله المتعال ، ويسيل منها الرمص (الصديد) ولو كانوا أولاد الترك (الروم) . وأن مصر وليست بالقاهرة مطاحن تدار بالماء كما أنها ليست بها عيون طبيعية يتفجر منها الماء ، وأما الآبار فكثيرة . وليست بها محالّ خاصة لبيع الدقيق والسمن والعسل . وبها ميزان الحرير و«شمعخانة» وبيت تثمين العبيد ومصنع القصب المعدنى وتحميصخانه وأسيرخانه وبدستان[1] ، ولكن ليس فيها مقام أميرى مخصوص ومعين . وأما بدستان (بزازستان)[2] فليس له موضع معين وبدستان القاهرة إنما هو خان الخليلى . وليس بالقاهرة دكان خاص لبيع الرؤوس . وليس بها من يبيع البوصلة ودليل القبلة ولا وتّار ولا بائع الخردل ولا من يفصل الكبُّوت القصير (صاته) ولا بها حانوت لبيع السكر المعقود ولا لصناع الدروع ولا للقلفاظ ولا لطراحة السرج ولا لفتح البنادق فالدروع والمغافر تأتى من داغستان وبلاد الچركس ، والترس من حلب ، وطراحة السرج تأتى من كل البلاد . وطبنجة البنادق ترد من الجزائر ، وهى جد مقبولة .

وليس بالقاهرة صانع مشابك الأحذية ولاوزان الحديد ولا وزان النحاس ولا صانع المثقاب ولاصانع المنشار والقدوم المخصوصين ، ولا صانع الكستبانات والإبر ولا الصائغ ولا ممشق المعادن ولاصانع نصال السهام ولا صانع نواقير الآلات الموسيقية والمزمار ، ولا صانع الطبل ونقارة بنى متقال ، بيد أنهم يصنعون كوسا مدوّيا عجيبا . وليس بها صناع السلطانيات الزجاجية ولاصناع الصحون من الصفر كما ليس بها دكان

---

(١) بَدَسْتان ، كلمة فارسية مترّكة ، ومعناها : سوق الجواهر والأقمشة النفيسة . (د . متولى) .
(٢) بَزَّازِسْتان ، أو بَيزسْتان كلمة فارسية متركة ، ومعناها : سوق الأقمشة النفيسة . (د . متولى) .

لجلاء الماس وصناعة الأسلاك الحديدية فهى ترد إليها جاهزة من بلاد الفرنجة . وليس بها من يطرق القصدير ولا من يصنع المِسن الرصاص الذى يستعمله الحلاقون ولا من يصنع ألواح الرصاص . ولكن رجلا رشيدا يُدعى الحاج ناصر قد أنشأ معملا وقالبا بدلالة الفقير ، فطرق نحو ألف لوحة رصاصية ، صنع منها أنابيب لعمارة خاصكى سلطان بمكة المكرمة . كذلك ليس بمصر صناع المحابس والأهلة ولاصناع الطوتقال والحراب ولاصناع الطرّة وورق الغزال ولاصناع قلانس العمم ولباد الانكشاريين والسياط . وجميع الأصناف المذكورة ترد إلى مصر من جهاتها الأربع وفيها تباع الأشياء الثمينة بأزهد الأثمان . ولايوجد فى مصر صناع القاشانى ولا مستخرجو الفضة بالكِذّاب[1] ولاصناع البراميل ولا الخرسانة ومعجون الكلس .

ولاصناع مجارى المياه ولا صناع القرميد والبلاط . تلكم أصناف لاتصنع فى القاهرة وليست القاهرة فى حاجة إليها . وجميع السلع الثمينة ترد إليها من الهند واليمن .

(١) تيزاب ، كلمة فارسية متركة ومعربة «كِذّاب» ومعناها : روح ملح البارود ، ماء الفضة . (د . متولى) .

الفصل الحادى والخمسون
فى بيان
عيد القاهرة الرابع وقانون ترتيبه وما فيه من الحفلات والسرور

أول الأعياد الاحتفال بدخول وزير مصر القاهرة[١] ، والثانى الاحتفال بوفاء النيل ، والثالث الاحتفال بليلة المحتسب ، والرابع عيد الفطر[٢] . هذا الذى يتزين فيه الناس كلهم ونساء القاهرة يشترطن أثناء عقد زواجهن حق الخروج لهن من منزل الزوجية فى هذا العيد ، بيد أن الشرط يدخل فيه عدم البّيات خارج المنزل ، كما يحدث فى ليلة المحتسب .

وفى كل عيد للفطر يقيم مهترباشى الباشا (رئيس الفرقة الموسيقية) فى آخر أيام رمضان سرداقا عظيما فى ميدان السراى للاحتفال بالعيد وديوانه كما يقيم مظلة لوقوف فرقة الموسيقى ، ويزين ميدان السراى بحبال الخيم والسرادقات يتصل بعضها ببعض . ويأتى مهترباشى فى تلك الليلة مع أربعين من رجال فرقته ومعهم تسع كوسات خاقانية من الطبل العثمانى ، فيحيى الليلة عازفا اثنى عشر فاصلا من اثنى عشر مقاما ، وكل فاصل كأنه من فواصل السلطان بيقرا ، ويقدم إلى الحاضرين القهوة الفخمة والشراب ، ويعطّرون بالبخور . ويظل الاجتماع حتى الصباح . ويطلق عزيز مصر صلاة فجر العيد فى قصره ، ويفرش فناء القصر بالحصر ويصلى فيه جميع حملة رتبة الميرميرانية(ميرميران) والأعيان وأرباب الديوان سنة الفجر ، ثم يقيم مؤذن القصر الصلاة من مقام «السيكاه» ويقوم إمام القصر بأداء ركعتى الفجر ويتمها بتلاوة آيات تدور حول العيد الشريف كقوله تعالى« ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك . . .الخ» ، ثم يأتى الفراشون فيرفعون الحصر ويقف كل من أرباب الديوان فى مكانه كما يقف كتخدا الباشا واثنا عشر ضابطا من ضباط (الوردية) لابسى كسوة التشريفة بخلعهم السمورية وعممهم المسترسلة وعندئذ يخرج الباشا من قصره بعظمة وجلال وقد ارتدى فراء سمورية حمراء ووضع على رأسه عمامة سليمية مزينة بطرتين مرصعتين بالجواهر ، فيسعى إلى ديوان قايتباى يحف به عن يمينه ويساره سلحداره . حتى إذا بلغ الديوان جاء

(١) انظر عنوان الفصل التالى . (د . متولى) .

(٢) والعيد الخامس هو عيد الأضحى كما سيرد بهذا الاسم بعد قليل . (د . متولى) .

كتخداه فتأبط ذراعه اليمنى وتأبط المحافظ ذراعه اليسرى ، ويسير خلفه السلحدار وقد لبس على رأسه أسكفة مقصبة على لبادة قرمزية ، وعلى رجليه چركسية صفراء وسرواله من المخمل ذى الزهرة الصفراء ، ويحمل بيده سيفا مرصعا بتارا . ومعه الچوقدار (صنف من السعاة) مزينا مثله يسيران جنبا إلى جنب خلف الباشا حارسين إياه ، وخلفهما اثنا عشر أغا من أغوات الباشا الخواص ذوى الرتب فى ثيابهم السمورية حاملين سيوفهم المرصَّعة . ويتقدم الباشا أمين الچاويشية وبجانبه رئيس المتفرقة ويتقدمهما ترجمان باشى و«كتخدا الحجاب» وأمامهم اثنا عشر أغا من أغوات ديوان الباشا لابسى الخلعة يحملون بأيديهم عِصِيا من الفضة ، وينزلون الباشا من سلم ديوان قايتباى إلى صخرة الرِّكاب فيركب جواده الغارق فى الجواهر والذهب . وعندئذ يتقدم رئيس الشرطة (صوباشى) والمحتسب مع جلاديهما وخلفهم الضباط يسيرون أمام الباشا راجلين نحو مائة خطوة ، فيستقبلهم أصحاب رتبة «الميرميرانية» ويُنزِلون الباشا على ديوان السلطان سليم خان . وأما حسين باشا ابن جانبلاط فقد مشى على رجليه من ديوان قايتباى إلى ديوان السلطان سليم تواضعا وتبركا بأعتاب (آستانه) أجداده وتيمنا وتعظيما ، فاستقبله أهل الديوان بالدعاء والثناء ، وقد أظهر بذلك الدروشة حقا حفظه الله .

وعند ما يستقر الباشا فى هذا الديوان على عرش السلطان سليم خان يبدأ الدوى فى السرادق المزيَّن من قرع الطبول على نظام ما تقرع فى الحروب والقتال . ويستقبل الباشا قبل كل الناس الباشا أمير الحج والباشا القائمقام والباشا الدفتردار وأما أبو الكلام وسائر الأمراء فيصافحهم ثم يخرجون . ويدخل عليه بعد ذلك أربعون أميرا من أمراء الچراكسة وأمين العساكر ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان وسائر شيوخ أرباب الديوان ، فيلثمون يد الباشا على عجل لأنه يركب جواده ويتجه إلى جامع قلاون يتقدمه الضباط والأمراء سائرين مثنى مثنى على جيادهم ويسير الأغا المحتسب ورئيس الشرطة مع جلاديهما ، ويحف الباشا شطاره بملابس فاخرة وحملة البنادق والرماح ، ويبلغ الباشا مسجد قلاون فى وقت شروق الشمس فتقام ركعتا العيد بتسع تكبيرات . وعند طلوع الخطيب على المنبر يأتى كتخدا الحجاب فيخلع عليه فرجية صوفية بيضاء ويشرع الخطيب بعد ذلك فى إلقاء خطبته . ويقوم الخدم الخاص بتبخير المسجد بالعود والعنبر . حتى إذا تم أداء الصلاة صافح الخطيب والعلماء الباشا ونالوا إحسانه .

يعود الباشا بعد ذلك بموكب مختصر إلى قصره ويستقر فى ديوان الغورى فيستقبله فيه چاويشية الديوان بالتصفيق والهتاف، فيجلس إلى صدر سماطه المحمدى المشتمل على ثلاثة آلاف صحن من الأطعمة النفيسة الممسكة المعنبرة، وقد جعلت الصحون بعضها فوق بعض فى طول قامة إنسان. ويجلس إلى يمين الباشا أمير الحج والقائمقام وغيرهما من البكوات. وإلى يساره الدفتردار وأبو الكلام وأغوات البلوك، وفى نهاية الصف يجلس أغا العزب. وأما رئيس أصحاب الذخائر الحربية ورئيس المدفعية ورئيس عربة المدفع والمحتسب ورئيس القافلة، فكلُّهم خدم الديوان السلطانى، يقومون بالخدمة ولا يجلسون إلى السماط مع الباشا. بيد أن كتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة يدعوان شيوخ البلوكات السبعة إلى سماطٍ خَلْفَ تلك الصحاف المكوَّمة كالجبال فيجتمعون حول السماط جماعات جماعات، يلاطفهم الباشا ويباسطهم، بأن يأخذ الدجاج والحمام المشوى الموضوع أمامه فيلقى إلى كل واحد بشىء منها، فيصيب بحمامة هذا (مجوَّزته) ويسقطها على الأرض فيضحك الحاضرون خفية، ويصيب هذا فى وجهه، وذاك تتعلق حمامة مشوية بلحيته، فيبتسمون من هذه المناظر الغريبة. هكذا يعطى الباشا كلا منهم قطعة ثم يشرع فى تناول الطعام بسم الله الرحمن الرحيم. هذا وهناك فى ديوان الغورى نحو اثنى عشر ألف صحن من بحر النعم يغوص فيه الجياع من الانكشارية وخدم أرباب الديوان كأنهم غواصون فينهبون اثنى عشر ألف صحن من الطعام فى لمح البصر، ويتركون مكانها خاليا نظيفا. وبينما هم ينهبون الطعام يُسمع من سراى القاهرة دوى كهزيم الرعد من جلبة بنى آدم وصخبهم وفرقعة الأوانى الصينية والفخارية والنحاسية. ولا يكاد الدوى يهدأ قليلا حتى يأتى مائتا چاويش من رجال الباشا فيجمعون الصحاف الفارغة فى لمح البصر ويرسلونها مع الحراس إلى الطبقة السفلى حيث تتكوم فيها كالتلال.

يظل الباشا جالسا إلى صدر سماطه الخاص ولا يقوم من مكانه، يوجه كلمات التلطف والاحترام إلى القادمين ويدعوهم إلى تناول الطعام. فيأتى فريق آخر وهم من بكوات الچركس وإذا قاموا يأتى فريق من شيوخ البلوكات السبعة، وسبعة وسبعون رجلا من أساتذة الديوان، فيناول الباشا كل واحد منهم قطعة من الكباب فيطير عمائمهم عن رؤوسهم وقد يحدث أن يتحير بعضهم من الخجل. وقد يأمر الباشا رئيس المتفرقة

وكتخدا الچاويشية والترجمان بالجلوس إلى المائدة ولكنهم سرعان ما يقومون فيدعون إليها الشيوخ . وأما أغوات الباشا الاثنا عشر أصحاب الرتب ، والأغا الموكل بتحصيل الرسوم فيقومون بخدمة الضيوف واقفين . حتى إذا انتهى الطعام قام الباشا من المائدة وجلس على سجادة السلطان سليم خان . ويقوم الأمراء منتظرين غسل أيديهم . وفى خلال ذلك يشير كتخدا الحجاب إلى كبير الفرقة الموسيقية فتدق الطبول الحربية . كما يشير چاويش الانكشارية من برج القلعة إلى رئيس المدفعية فتُطلق أربعون أو خمسون طلقة ، فيسمع هدير مهيب و«العظمة لله» كأن جبل الجيوشى يندك ويهيج ويجيش . ومن المفاجآت الظريفة أنه حينما يفرق رئيس خدم سفرة الباشا الصحون الثلاثة آلاف مع مائتين من أتباعه تكون على بعض الصحون قباب معقودة من السكر يخرج منها حمام ذو جلاجل وديوك وأرانب وغيرها ، وهى تسلية ظريفة لأهل الديوان .

وبعد ذلك ترفع الصحون فيأتى فراشو الديوان وعرافوه بطشوت وأباريق صفر كالذهب من الآثار الباقية من عصر السلطان فرج والسلطان قلاون والسلطان قايتباى وأصناف الصابون ، فيأتى «عراف باشى» ويلثم الأرض أمام الباشا ويضع على ركبتيه فُوطة من فوط المحلة ، ويناوله الآخر صابونا ممسّكا معنبرا ، فيغسل الباشا يديه . ويغسل الضيوف أيديهم على ذلك النظام ، ثم يجلس كل فى مكانه . حين يتلو « صاحب الدعاء» الآية الكريمة« ربنا أنزل علينا مائدة من السماء . . . الخ» من سورة المائدة يرد ذكر رسول الله عليه السلام فيقوم الحاضرون تعظيما ، ثم يأتى ذكر سلاطين آل عثمان مرتبين فيقومون تعظيما لهم . حتى إذا تم الدعاء قام البكوات (بكلر) قبل كل الناس فخرجوا متقهقرين بظهورهم حتى نهاية البساط ووقفوا فى صف مرتب وحيوا فرد عليهم چاويشية الديوان مصفقين . ثم يقوم أربعون أميرا من الچراكسة فيرد الچاويشية على تحياتهم كما ردوا على الأولين . ثم يحيى أغوات البلوكات السبعة شيوخ الانكشارية وكتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس التراجمة وچاويشية الديوان (ديوان چاوشلرى) . ويقوم الباشا بعد الجميع فيحييهم جميعا فيردون عليه هاتفين مصفقين ، ثم يدخل قاعة العرض وينصرف الچاويشية إلى منازلهم .

يجلس الباشا على كرسيه فى قاعة قايتباى لابسا عمامته . فيدخل أولا البك الكتخدا ويلثم يده ، ويَلْبس خلعه سمورية ويقف . ثم يأتى المحافظ وأفندى الديوان

(ديوان أفندسى) والإمام والمؤذن ، والمراجع وكتخدا الحجاب ورئيس الحجاب الأول وأغا الرسالة وأمين بيت المال ومحصّل الرسوم والأغوات الاثنا عشر أصحاب الرتب ، ثم جميع رؤساء الحجاب على حسب ترتيبهم ، ثم أغوات «واجب الرعاية» ورئيس المتفرقة مع أتباعه ، ورئيس الأدلاء مع أتباعه ، وأغا المتطوعين مع فرقته ، ورئيس الفرقة الموسيقية مع أفراد فرقته ، ورئيس فرقة الخيام مع أنفاره ، والأغا مدير السراى وكبير الطهاة مع طائفته ، وكبير الخبازين ، وأمين المطبخ ورئيس خزَنة الطعام وكاتب المصاريف وكاتب مخزن الطعام وكاتب الخبز وكاتب بيت المال وكاتب أمين الشعير وكاتب الاصطبلات وسقاة القافلة والشطار وكبير خدم السفرة مع أتباعه والأغا أمير أخور مع أنفاره ورئيس الحفلات وكتخدا الاصطبل وسراج باشى ورئيس القَوْد ورئيس الجمالين ورئيس الحمارين ورئيس السواس والسائس رئيس المشاعل ورئيس العكامين فهؤلاء جميعا يلثمون يد الباشا ويكرمون بخلعة سنوية من الجوخ والقماش . لأن هذه الحراسات الليلية لابد منها حين السفر ليلا . وأما رئيس فرقة العازفين ورئيس فرقة الخيم ووكيل الخرج وكبير الطهاة وكبير خدم السفرة ومشعل باشى فهؤلاء الستة يتشرفون بالخلع الفاخرة . وذلك لأن رئيس فرقة الموسيقى يحيى ليلة العيد بعزف اثنى عشر فاصلا من اثنى عشر مقاما ، ورئيس الطهاة يجاهد خمسة أيام ولياليها لتحضير خمسة عشر ألف صحن من الطعام ، حتى يصير فى ذلك كبابا . «وچاشنكير باشى» وأتباعه المائتان يحملون بضعة آلاف من الصحون ، ومشعل باشى وأتباعه الخمسون ينيرون ميدان السراى ليلة العيد بمائتى مشعل ، وديوان قايتباى والغورى بآلاف القناديل ، فهم إنما يحظون بتلك الخلع الفاخرة فى نظير ما قاموا بتلك الخدمات . ويأتى بعد ذلك« چاويشية الآلاى» فيحسن الباشا على كل واحد منهم بعشر قطع ذهبية وينصرف جميع الأغوات .

يأتى بعدهم الخدم الخاص وهم خواص الغلمان على رأسهم «أبو العالم» إمام الخاصة ومؤذنها ، ويلثمان يد الباشا . ثم الأغا الخازن والأغا السلحدار والچوقدار والتوقيعى وحامل الأختام (مهر دار) وكاتب الخزينة وكاتب المحلول ورئيس الخزانة وقهوة جى باشى وغلام المفاتيح ورئيس لفافى العمائم ورئيس غسّالى الملابس وأمين الخلع ، وكبير الحلاقين وكبير الدلاكين وسفره جى باشى ، وشمعدان باشى . يلثم كل من هؤلاء العشرين أولى الرتب يد الباشا ويمضون .

ويأتى بعد المذكورين أولئك السعداء الجمال المستغرقين فى أثواب فاخرة فليثمون يد الباشا بأدب ونظام . ثم يأتى الصغار ذوو الوجه غض الإهاب فيلثمون اليد . ويأتى بعدهم نحو سبعين أو ثمانين غلاما خصيا من الأحباش وأهل الفُنج الذين قُدِّموا إلى الباشا هدايا ويلثمون اليد . ويلثم اليد بعدهم رئيس الخدم الداخلى مع ثلاثين نفرا من أتباعه ثم يلثمها ستة من چاويشية الخدم الخاص ويقوم الباشا بعد ذلك ليستريح قليلا ثم يخرج بعد الظهر لاستقبال الأعيان والأشراف الذين يأتون لتهنئته بالعيد .

وإذا كان اليوم الثانى للعيد يحضر كتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان فيظلون مستعدين للخدمة . فيحضر أولا أربعون رجلا من شيوخ فرقة المتفرقة ، ويهنئون الباشا بالعيد ، ويلثمون يده ، ثم يدخل خواص أغوات الباشا فى ثيابهم المقصبة المزركشة ، ويقدمون إلى كل واحد منهم «فوطة» القهوة وينصرفون ، ويعقبهم فريق آخر من الخدم يَخْطِرون فى أثوابهم الكثيرة الألوان كالطواويس المدللة ، وقد أمسكوا بأيديهم فناجين زيتونية ونفطية وصفراء «الخطائية» و«المنبتَّة» ويقدمون فيها القهوة إلى الحاضرين ويقفون بأدب منتظرين لاسترداد الفناجين فارغة . حتى إذا شرب الضيوف القهوة أخذوا منهم الفناجيل و«الفوطة» وانصرفوا . ثم يأتى فريق من الخدم يحملون مناديل مختلفة الألوان فيضعون منديلا بجانب كل ضيف وينصرفون ، ويعقبهم فريق من الخدم يحملون بيمناهم صحونا صينية (فغفورية) ثمينة عليها أقداح ذات أشكال متنوعة كأربع ورود والكمثرية وذات القيطان وفم الورد والخطائية . قد ملئت بمشروبات مسكية وعنبرية وصندلية وبنفسجية بشراب الريباس «وعنبر بارس» وزهر الليمون والنيلوفر والتوت والتمر الهندى والزبيب وغيرها من المشروبات الأرجوانية ، وبيسراهم مناديل «قَيْاسلطان» المزركشة فيجثون على ركبهم أمام كل عين من الأعيان ويقدمون إليه المشروب والمنديل كى يمسح فمه بعد تناوله . ثم يأتى صنف من الخدم وبيد كل منهم إناء من العطور كماء الورد وماء البخور والعتر وماء الزهر والزعفران وغيرها يعطِّرون بها أيدى الضيوف . ويعقبهم خدم فى أثواب فاخرة يبخرونهم بأنواع البخور الماوردى والعود الملبّس والعنبر الخام فيعطرون أدمغتهم . ولكن لا يجوز للمصريين أن يغطوا رءوسهم بالشيلان حين يوجدون فى مثل هذه الاجتماعات ، إذ قد حدث مرات أن جُنُّوا أثناء التبخير كما أن بعضهم لايكاد يتناول قهوة حتى يتغير لون وجهه لأنه قد سبق أن تسمم بعضهم بالقهوة والشراب ، فلذلك يخشونهما .

ينصرف شيوخ المتفرقة ويأتى بعدهم شيوخ الچاويشية فيلقَون نفس ما لقيه السابقون من الإكرام والإعزاز ، ويستقبلهم الباشا بكلمات طيبة حلوة . ويأتى بعدهم شيوخ السپاهية وشيوخ حملة البنادق وشيوخ المتطوعين فيكرَّمون فوق ما يستحقون ثم ينصرفون .

ويأتى بعد ذلك كبار ضباط الانكشارية فيقابلون صاحب الدولة مستأذنين «بأن شيوخ فرقتهم يرغبون فى تهنئة دولته بالعيد الشريف» فلا يكادون يظفرون بالإذن حتى يدخل سبعون أو ثمانون من شيوخ هذه الفرقة القدامَى النافذى الكلمة يتقدمهم وكيل أغا الانكشارية (قول كتخداسى) وخلفه أستاذه ثم الباقون على حسب ترتيبهم فيلثمون يد الباشا ويقف كل فى مكانه ، فيتحدثون بكلمات مختلفة . والباشا يراعيهم كثيرا لأن للإنكشارية مكانة عظيمة فى مصر . وهم رجال عظام قد أحيل كل منهم إلى المعاش من مناصب كبيرة مثل « كتخدائية الانكشارية » و«مديرية الچاويشية» والسردارية وغيرها ، ولكل منهم ما لا يقل عن ألف رجل من الأتباع ؛ فلذا يكرَّمون وتُطيَّب خواطرهم . ويأتى بعدهم باشچاويش فرقة العزبان (عزبان) مستأذنا من الباشا بدخول شيوخ هذه الفرقة فيأذن لهم ويدخلون ويلثمون يد الباشا . يدخل أولا الكتخدا الأول ثم الباقون حسب رتبهم ويعاملون بلا نقص ولا تفريق كما عومل غيرهم ، وينصرفون .

وأما حسين باشا ابن جانبلاط فقد طلب فرقتى الانكشارية والعزبان للمثول أمامه فهنؤه معا . وكان هذا العمل رقة منه وظرفا ، فإن لهاتين الفرقتين سمعة عظيمة تقتضى العناية بهما وزيادة تعظيمهما .

وبعد أولئك جميعا يحضر بعض المشايخ فيهنئون الباشا بالعيد المبارك ثم يطرقون باب «جرّيجُر جَرا[1]» . ولا يكاد هؤلاء ينصرفون حتى يطلب الباشا جواده فيذهب إلى متنزه مع جميع حرسه وفرقة موسيقاه اتباعا للقانون المصرى .

هكذا كتب عن موكب العيد العام هذا ، وهو دستور ملكى وموهبة إلَهية للأعيان والأشراف والعوام قاطبة ، فمن قُدِّر لهم رؤية تلك الأيام السعيدة ، لبسوا أثوابهم المقصبة

(١) يستعمل لفظ «جر» فى التركية بمعناه فى اللغة العربية . وكان إلى عهد قريب يطلق على طلبة العلوم الدينية يتفرقون فى قرى أقاليم الدولة العثمانية أثناء الإجازة السنوية ليقوموا بالوعظ والإرشاد «جرجيلر» أى الجرارون . فالجر هو ما يتمكن الواحد منهم جرّه من الناس من النقود (المترجم) .

المزركشة وتزاوروا لتبادل التهانى ؛ وليست العادة بالقاهرة تقديم الشراب للزوار فى أيام العيد وإنما تقدم إليهم بوظة الأرز التى تسمى «سُوبية» وقد سبق ذكرها . إلا أن السُّوبِيَة التى تحضر لأيام العيد تصنع قبلها بثلاثة أيام أو أربعة ، ويضاف إليها السكر الدارصينى والقرنفل فتتخمر قليلا . فتكون عندئذ شديدة ومقوية ومنعشة ومرطبة . وهى مشروب خاص بمصر .

يستمر هذا العيد ثلاثة أيام ولياليها تمضى فى بهجة ومرح وسرور . فأيامها أعياد ولياليها ليلة القدر . وقد نصبت فى ميادين القاهرة كميدان الروميلى وقراميدان وحَىّ أمير أخور ومصر القديمة وبولاق وخارج باب النصر وحَى عابدين ، آلاف من الأراجيح والدواليب «والزقازيق» والخيول الخشبية وغيرها من أدوات اللعب يركبها الصغار ، وهو مشهد ظريف ، يتسلى فيها بعض المحبين الصادقين بمشاهدة الجمال كفحوى هذا البيت« هيا بنا نذهب إلى موضع العيد ، فنشاهد الأراجيح كى نرى أية صورة تظهرها لنا مرآة الزمان «إنه لمشهد يستطيع فيه المرءُ أن يدنو ممن يتوسم فيه الجمال سواء يعرفه أم لا يعرفه ، فيهنئه بالعيد ، ويقتطف وردة من جماله الوردىّ ، بلا خوف ولا احتراز ، ولا عيب فى ذلك ، وهو القانون المصرىّ .

ومن غرائب القاهرة أيضا وهى مدينة تحفل بالأشرار والأشقياء وأراذل الناس ، أن أحدا منهم لايقدر على مد يده إلى النساء والصِّبْية والغِلمان الذين يجولون فى الشوارع والحارات والمتنزهات أفواجا وجماعات فى أيام العيد التى يتمتع فيها الناس بالإذن العام ، فهم فى مأمن تام من هذه الناحية . وأمر آخر عجيب أيضا أنك لاتقابل فى الطريق العام سكران معربدا يقع ويقوم ويهدد الناس بسكين يحمله ، ويضرب الناس فى هذا البحر الخضم الزاخر بمئات الألوف من الناس ، وهذا أمر جد معيب عندهم . وإن رأوا أحدا كذلك فما أسرع ما يغضبون عليه ويذهبون به إلى دار الحكومة ، فإما أن يسلم هناك إلى الجلادين ، وإما أن ينفى إلى قُبْرص أو إلى قلعة الصاى التى بآخر حدود مصر ببلاد الفُنج . وذلك لأن شرب الخمر والتجول فى الشوارع فى حال سكر مما ينفر منه المصريون أشد النفور ، بالرغم ما فيهم من أمور كثيرة يلامون عليها . وأما التزاور والتنزه مع غلمانهم الجمال ذوى السراويل الحمر على جياد أصيلة فكثير عندهم فى هذا العيد . وخلاصة القول أن اللسان يقصر عن وصف الاحتفال بهذا العيد .

عيد الأضحى

الاحتفال بعيد الأضحى كالاحتفال بعيد الفطر إلا أن الفقراء والمشايخ والعلماء يتزاورون فيه من يوم عرفة حتى عصر اليوم الثالث للعيد مكبرين فى الشوارع ويهنئ بعضهم بعضا ويكرمه قائلا « فى السنة القادمة تكونون فى عرفات إن شاء الله» وقد ورد فى سجل «أمين الأغنام» أيام أن كان الكتخدا إبراهيم باشا متولى مصر ، أنه ذبح خمسمائة ألف رأس من الغنم والبقر والجاموس والإبل ، فهى مدينة عظيمة مزدحمة إلى هذا الحد . وأفراح عيد الأضحى أكبر من أفراح عيد الفطر ، وأنا أعجز عن وصفها .

الفصل الثانى والخمسون
فى بيان
الاحتفال بدخول والى مصر القاهرة وهو العيد السادس الرسمىّ

- ١ -

كتبنا فيما سبق عن هذا الاحتفال فى أثناء البحث فى حفلات الشعب المصرى الرسمية وطرقها وأركانها وعدد المقيمين بها فرقا فرقا والواجبات السنوية . وأما هذا الاحتفال فيذكر فيه ألزم ما يلزم من الأمور المتعلقة بالوالى .

يسمى المصريون هذا الحفل «حفلة الاستقبال» وقبل قدوم الوالى بشهر تستعد مصر لإظهار عظمتها وشوكتها وغناها وكثرة جنودها ، فيرسل ضباط من رجال الشرطة إلى أرجاء البلاد ، ينتقلون من ولاية إلى ولاية ، لجمع الجنود من واحد إلى ألف ، ومن ألف إلى مائة ألف رجل ، فيجتمع جيش عرمرم بالقاهرة ، يتموج كالبحر . وإذا حدث أن تأخر وصول الباشا إلى مصر ، فإن القادمين من أطراف البلاد إلى «المُسَلَّمية» يحدثون خللا كبيرا فى جيب المحافظ (شهر حواله سى[١]) فلذا ينبغى لوزير مصر أن يرسل رسلا متتابعين إلى ذلك الموظَّف ليعرفه بكل موضع يبلغه ، فإن بلوغ النبأ منه يقوى مركزه ومركز البك القائمقام ، ويجعلهما فى مأمن من القيل والقال . ثم إنه من المحتم على الوزير إرسال رسول آخر من غَزَّة يبلغه بأنه بمشيئة الرحمن سيغادر غَزَّة فى يوم كذا مبينا فيه تاريخ القيام بيانا دقيقا . وذلك لكى يتمكن رؤساء المعسكرات المصرية من الخروج لاستقباله بخيامهم ، حاملين هداياهم .

فأولهم كتخدا الجاويشية يخرج بسرادقه وقد حمّل خمسين جملا بماء النيل وألف علبه من سكّر النّبات وماثه «دورق» من ضروب المشروبات المرطبة ، ومقادير لا تحصى من الفواكه ، وحمّل عشرين جملا من الخبْز الأبيض الخاص والشوريك[٢] وأطعمة

---

(١) «شهر حواله سى» منصب كبير فى الدولة العثمانية كان يعادل وزير اليسار كما يعادل منصب الكتخدائية وزير اليمين . ويعين فيه عادة كبير الحجاب (انظر ما كتب فيما بعد تحت عنوان دخول وزراء (ولاة) مصر القاهرة باحتفال) واختصاصاته تشبه اختصاصات المحافظ أو مدير البلدية فى هذا العصر . وترجمناه بمنصب المحافظ . (المترجم) .

(٢) چُرَك فى اللغة العثمانية ، وهو نوع من الكعك يشبه القرص يصنع فى مصر فى المناسبات السعيدة وبمناسبة عيد الفطر المبارك ، ويقال له شوليك أو شوريك . (د . متولى) .

مختلفة ، ومعه جواد ذو سرج مطعم بالجواهر ، وعنان ذهبى ، وسيف مُذْهَب ذو حَدَّين ، (قدَّاره) ودَبُّوس مُرَصَّع ، وجُلّ مرصَّع ، وقباء مقصب وطواشى وجواد مجلل (يلكندز) وثلاثة أكياس نقد إلى الوزير «حالية» . وأما التحف والهدايا التى تُقدَّم إليه بعد بلوغه القاهرة فتكون على حسب اسم الباشا وعنوانه وجرأته ، فهم صَرَّافون مهرة فى نقد الرجال ، فلا يكاد أحدهم يرى الباشا حتى يفهم فهما دقيقا عسل هو أم سمن أم فى طبيعة الماء الفاتر . فما إن يرونه حتى يختبروه بالمحَكّ ، ويعرفون عياره الذى يعاملونه على حسبه . ويرافق كتخدا الچاويشية مائتا شُرْطِىّ من لابسى العمائم المعروفة بالمجوَّزة ، وهم رجال ذوو مكر وحيل خبيثة ، ذوو منطق لهم عقل أرسطاليس ، فقد ودع كل منهم أربعين أو خمسين وزيرا .

وثانيهم رئيس المتفرقة ، ويحمل هدايا كهدايا كتخدا الچاويشية فيما عدا الجواد ، فإنه ليس مَقُودا بسلسلة ذهبية إلا أن هداياه كلها ثمينة (نظيفة) يخرج بخيامه ومائتين من أتباعه .

وثالثهم «ترجمان باشى» وهو يقدم هدايا أقل من هدايا السابقين ، ويكون معه عشرة من أتباعه الجلادين .

«ورابعهم باشچاويش الانكشارية» يخرج للاستقبال بأربعين أو خمسين خيمة مع مائتى نفر من أتباعه الملازمين ذوى الطرر واللبدة الانكشارية المقصبة ، ولكنه لا يحمل معه شيئا من الهدايا للباشا . ويمشى الملازمون جميعا على أقدامهم ويتقاضون من «تموريابيا»[1] ألف پارة مياومة ، كما يتقاضى الباشچاويش الذى يمشى أمام الباشا راجلا عشرين پارة يوميا ، وسَقّاء الانكشارية ثلاثمائة پارة ويتقاضى رجال المتفرقة ثلاثمائة قرش .

وخامسهم «مسلِّم » الباشا وهو أيضا يخرج لاستقبال الباشا مع السابقين محملا بعيرين خفافا وأحذية وجزما وغيرها لخواص خدم الباشا . وثوبا سموريا وكنانة مطعمة

(١) لا شك فى أن كلمة يابيا فى هذه العبارة محرفة من كلمة (يايا) بمعنى الپيادة أو المشاة وقد كانت كلمة يايا تطلق فى أوائل العهد العثمانى على أربع عشرة كتيبة من المشاة التركمان ملحقة بالميليشيا الانكشارية ولها إقطاعات عسكرية ، ثم أطلقت بعد ذلك على ضباط الانكشارية القدامى الذين لهم إقطاعات فكان كل منهم يلقب بـ (يايابك) : ويقضى السياق بأن يكون المراد بـ كلمة (تموريابيا) الواردة فى النص التركى هو رئيس المشاه . (د . السعيد) .

بالجواهر وسيفا مرصعا وسروالاً من القطيفة الحمراء وعمامة سليمية وطرتين (صور غوج) ونعلا چركسية (فلار) وجوادا مزينا بالجواهر وزماما ذهبيا وجلا مرصعًا بجواهر ودبوسيا وقدّارة إلى الباشا .

وسادسهم «كتخدا القائمقام» وهو يأخذ معه جوادا ذا جُلّ مرصّع وسرج مرصع بالجواهر الكريمة ، وجوادا مُجَلَّلا بجُلّ بسيط .

يبلغ المذكورون مدينة الصالحية فى اليوم الرابع لمغادرتهم القاهرة ، فيمكثون فيها منتظرين قدوم الوالى . لأن ما وراءها حتى المشرق صحارى العريش وقاتية أم الحسن[١] وهى أماكن خطرة لا ماء فيها ،«والعياذ بالله» . ولكن كاشف الشرقية ومعه ألف فارس من رجاله يوصل المحافظ خلال هذه الصحراء فيقدم المحافظ والهدايا إلى الباشا فى العريش ويتحدث معه فى أهم الأمور وأدق الأحوال ، فلذلك يجب أن يكون هذا الموظف فى ذلك الوقت رجلا معتدلا ومحبا لخير الدولة . ويقيم كاشف الشرقية مَأدُبة فى تلك الليلة فيقدم إلى الباشا جوادا على قدر مكانته وجوادين مُجَلَّلين حتّى إذا انتهت المأدُبة يرحل الباشا من العريش فيبلغ جسر (. . . .) قرب الفجر بعد قطع مسيرة ثلاث ساعات . وبينما تنصب خيام ركب الباشا للاستراحة يحضر كتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة و«ترجمان باشى» وكتخدا القائمقام إلى ذلك الموضع حاملين الهدايا ، فيقابلون الباشا ، ويَعرضون عليه الهدايا ، فيقبلها منهم . وأما باشچاويش الانكشارية فيمكث فى الصالحية ، وإذا كان الصباح تناول الباشا فَطُورا خفيفا واتخذ طريق الصالحية . حتى إذا دنا منهم بعد مسيرة ست ساعات[٢] وجد باشچاويش الانكشارية مع رجاله المشاة واقفين لتحيته ، فيلثم الباشچاويش الأرض وينال الإكرام والالتفات من الباشا ، ثم يتقدمه ، فيسير أمامه . ويكون باشچاويش الانكشارية فى ذلك الوقت كقائمقام « المحضر أغا» وله أيضا مروحة على رأسه مصنوعة من ريش مالك الحزين[٣] . ويمشى راجلا بلباس غير رسمى منتعلا جزمة حمراء . هذا وقد أمر عبدى باشا الباشچاويش الملاح بأن يركب حصانا لكبر سنه ولكنه اعتذر قائلا «يا صاحب الدولة إن ركوب

(١) هى قطية أم الحسن التى مر بها السلطان سليم أثناء فتح مصر . (د . متولى) .
(٢) فى الكلام خلل ، فالباشا لا يستطيع قطع المسافة من العريش إلى الصالحية فى تسع ساعات كما يؤخذ من هذه الأسطر . (د . عزام) .
(٣) باليقجيل ، كلمة تركية الأصل تعنى : سبيطر ، وهو طائر طويل العنق جدا يعرف بمالك الحزين . (د . متولى) .

الحصان غير قانونى ، فلذا نخشى اعتراض فرقتنا التى باستانبول» . ولما رأى الباشا امتناعه أمره بأن قال « أنا الوزير المكرَّم وأنا الحاج بكتاش نفسه . فقد كنست بالمكنسة فى تكيته قبل أربعين عاما ، وأنا الذى أذنت لك بالركوب فهيا اركب» بيد أن الچاويش قَبَّل ركبة الباشا ، واعتذر بأعذار مغلظة كقوله «أنقذنى يا دولة الباشا من طعن فرقتنا المصرية حيث سأكون قد أخللت بالقانون» . فحينئذ أمر الباشا سبعة من رجاله فأمسكوه وأركبوه عنوة . ثم تفكه الباشا بعد ذلك قائلا«يظهر أنك كبرت يا باشچاويش ، حتى أن سبعة من الرجال أركبوك الحصان بمشقة» فرد عليه بقوله « نعم يا دولة الوزير ، إن سبعة رجال أركبونى بمشقة ، ولكن عشرين منهم لن يستطيعوا إنزالى من عليه» . وخبّ بالحصان ، فسر الباشا بذلك ، وأحسن إليه بأربعة وسبعين ذهبا .

يدخل الباشا مدينة الصالحية بموكب عظيم فيستقر فى سرادقه جالسا على كرسيه . ثم يعُقَد فيها الديوان المصرى يسمع فيه الباشا الدعاوى والمنازعات التى تقطع فيها الصلات وتُحسَم المنازعات . وقد خاف المصريون من أحمد باشا الدفتردار فى بادئ الأمر واختفوا فى أحد المنازل ، لأنه أحسن إلى كلٍّ حسب مكانته دون أن يحصُل من أحد على « حبّه ولا جبّه »وفصل فى القضايا كأنه قاضى العسكر لافرق بينه وبين أحد .

وعند ما ينزل الباشا الوالى فى سرادقه فى الصالحية تُذبَح مائتا رأس غنم وخمسون رأس بقر وعشرة جمال ينهبها العربان والفقراء نهبا ويكون مشهدا عظيما . وإذا قام الوالى من الصالحية ، فمنها حتى قصبة القرين يوزع الماء الوارد هدية على الجنود . وعندما يقطع نصف الطريق يقيم كاشف الشرقية مأدبة عظيمة ويسوق إليه جوادا أصيلا غير مزين ويرحل الباشا من هناك فيصل إلى القرين ، وينزل على خيمته المزينة ، ويعقد الديوان ، ويتلقى هدايا من ضباط البلوكات السبعة . وسوف نكتب عن الهدايا المعروفة بالحالية حين الكتابة عن قانون التشريفات المصرىّ . وحين يرحل من القُرين ويدنو من بلبيس يخرج أهلها للاستقبال كما يحضر الروزنامجى وأهل الديوان وبكوات الچركس وضباط البلوكات السبعة للاستقبال ولثم اليد . ويُعقَد بها أيضا ديوان عظيم . وإذ أن بلبيس عاصمة كاشف الشرقية فالضيافة والمأكولات والمشروبات كلها على حسابه مدة أربعة أيام ينفق فيها خمسة عشر كيسا . وبما أن عساكر المسلمين ساروا فى راحة وأمن وسلام فى حماية صاحب شيخ عربان العائد ، فقد تقرر فى هذا الديوان عزل الشيخ وتعيين هذا

الصاحب مكانه ، وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة ، وأحضر هو جوادين أصيلين ذكرا وأنثى ، وخيولا كل واحد منها من «الصافنات الجياد» . وإذا قام الباشا من بلبيس وبلغ منتصف طريق الخانقاه قدم الأمراء وأمير الحج ومدير المال وسائر الأمراء غير أرباب الديوان واجتمعوا بالباشا وساروا بحفل عظيم إلى بلدة الخانكة أى الخانقاه . وهنا أيضا عُقِد ديوان فأقام كاشف القليوبية مأدب عظيمة لأنها بأرض القليوبية . وقدّم إلى الباشا خمسة جياد أصيلة يساوى الجواد منها ألف قرش . وقد خُلع فى هذا الديوان بخلعة على الشيخ صفر شيخ عُربان الدشيشة وأبقى فى منصبه . ويأتى كثيرون من أعيان القاهرة إلى الخانكة فيجتمعون بالباشا . وفيهم القائمقام الذى يحضر بموكب عظيم ويلثم يد الباشا مقدما إليه هدايا من الجواهر ومنتجات الغنم ، فيكرّم بالقهوة والشراب ، ثم يعود هو والمحافظ إلى القاهرة . ثم يحضر عظماء القاهرة جماعات جماعات فيلثمون اليد وينصرفون .

- ٢ -

وصف مأدبة وادى العادلية والديوان العثمانى وسرور القاهرة المعزية

وإذا كان اليوم الثالث أحضروا الباشا إلى العادلية باحتفال رائع فى خمس ساعات واستقر فى قصر العادلية . فعندئذ يحضر البك رئيس السماط ويلثم قدم الباشا قائلا « مولاى ، نحن فى خدمتكم وفى عبوديتكم ، فتفضلوا إلى الطعام !» يأخذ الباشا مكانه من صدر المائدة ويأخذ إلى يمينه أمير الحج وإلى يساره الدفتردار ثم سائر الأمراء حسب رتبهم ، وبكوات الجراكسة وضباط البلوكات السبعة وسائر شيوخ الفرقة ، ويتناولون السماط المحمدى . ثم يدعو الباشا چاويشية الآلاى والأغوات إلى الديوان ويجلس على منصة العدل فى العادلية ويسمع الدعاوى والشكاوى فيفصل فيها ويحسم المنازعات ، على عزف الموسيقى وضرب الكوس الخاقانية . ثم ينادى الچاويشية قائلين «يؤجل الديوان إلى غد وسيظل الباشا هنا ثلاثة أيام ولياليها» .

يذهب كبار القاهرة وصغارها إلى صحراء العادلية فينصبون خيامهم ومن لا يملك خيمة اشترك مع غيره أو استعارها من صديقه أو استأجرها . هكذا يمتلئ الوادى بالخيام والأخبية حتى يخيل إليك أنه « معسكر جمالپور» فلا يبقى فى هذه الأيام خيمة أو خباء

أو سرداق عند أحد بالقاهرة ، فقد انتقلت كلها إلى صحراء العادلية ، والطوبخانة وفضاء سبيل علام ووادى الغورية وملأتها فصارت كأنها حدائق الشقائق النعمانية أو (معسكر الشاه دارا) ، ويمضون فيها ثلاثة أيام ولياليها ، تقام فيها الأفراح ليلا ونهارا بمئات الألوف من القناديل والمشاعل و« فوانيس العالم» ؛ فلياليها «ليالى القدر» وأيامُها أعياد . وتهتز الأرض والسماء من المدافع والألعاب النارية التى تطلقها آلاف الخيام فى كل ليلة ، وقد علقت على الصوارى المنصوبة أمام الخيام قناديل صنعت منها زينات وحليات كخاتم سليمان وشجر السرو وفوارات وقصور ، تنير الليل كالنجوم . وأما سرادق الباشا فقد أقيمت أمامه صوار شاهقة مكونة من ربط صاريين بعضهما ببعض ثم مدت حبال بين الصوارى وعلقت عليها ألاف القناديل الموقدة التى تقلب الليل المظلم إلى نهار ساطع النور . وتقدم فى تلك الأيام ولياليها هدايا تنوء بفراشى الخاصة ويقدِّم البكوات هدايا مرة ثانية ، فكل بك يسوق جوادا ذا جُلٍّ مزين بالجواهر الكريمة . وكان جوادا الدفتردار القائمقام المزينان بسرج مرصع بالجواهر وزمام ذهبى خير الجياد . وأما سائر الجياد فكلها مزينة بسروج محلاة بالفضة . ويقدمون هدايا أخرى ذات قيمة ؛ فأغوات البلوكات السبعة والأغوات السود مصاحبو السلطان وبكوات الچراكسة والروزنامه جى أفندى وسبعون أفنديا من رجال الديوان وسبعون أمينا وسبعون كاشفا وعدد لايحصى من الملتزمين ، يقدِّمون إلى الباشا جيادا ، وطواشية وهدايا أخرى . كما تُقدَّم أنواع الإحسانات إلى المتصلين بالباشا الوالى من كتخداه وأغواته الخمسة والعشرين أولى الرتب ، إلى سائسه ، وموجز القول أن المصريين يتحفون كل خادم من خدم الباشا العاملين بشىء من الهدايا .

يبلغ مجموع الهدايا المقدمة إلى الباشا مائتى جواد مزينة بسروج مرصعة بالجواهر ، ومائتى جواد مجللة ، وجوادًا لكل من رجاله الخمسة والعشرين ذوى الرتب . ويقال إن الأمير آخور (ناظر الاصطبل) وكتخدا الباشا يشتركان فى تحصيل العوائد والفوائد من الصالحية إلى العادلية هذه . فلو كتبت عن أوصاف الاحتفال فى العادلية المصرية لكان كتابا كتاريخ ابن جرير الطبرى .

إن المآدب التى تقام بالعادلية مدة ثلاثة أيام ولياليها تكون على الجيب السلطانى حسب قانون السلطان سليم خان ، وتبلغ نفقتها أربعين كيسا مصريا ، فمنها نحو خمسة آلاف پارة ثمن المسك ، وألفى پارة ثمن العود يتقاضاها رئيس المسك ويسده الدفتردار .

إنها لمآدب عظيمة الإسراف . والأطعمة كلها سكرية ، ففى إمكان المرء ألا يشرب ماء فى تلك الأيام الثلاثة التى يقضيها فى تلك السرادقات ، ويشرب دائما أشربة سكرية . فكأن كل فـرد من أفـراد الشـعب المـصـرى ، نظرًا لهـذا الإسـراف فى الإنفـاق على الاجتماعات والحفلات فى هذه الأيام الثلاثة ، سيد وارث . فمن الأعيان من أنفق ألف قرش فى الألعاب النارية ، وإنفاق أربعين قرشا فيها عمل الفقير المعدم .

والغريب هنا أن مصر منتمية إلى كوكب الزُّهَرَة ، فلذا يبحث سكانها عن وسـائل للفرح والسرور والبهجة والمرح ، ومن لطف الله ، أنهم مُنَعَّمون جدا ، فلأفقر رجل منهم وظيفة مهما كانت ضئيلة ، ولا يحرم من المخصصات حتى نساؤها . ولعميانها جراية ونفـقة للكسـوة . إن مـا يدفع الإنسـان إلى السـفه هو المـال ، ويقـول المـثل التـركمـانى المشهور . «إذا كثر سمن العربى أكل بعضه ، ودهن خصيته ببعضه » ؛ فمصر مظهر لاسمَىْ» «يا غنى ويا مغنى» .

- ٣ -

دخول وزراء (ولاة) مصر القاهرة باحتفال

فى منتصف الليلة الثالثة تُحَل وتطوى جميع خيام المصريين وضباط الباشا ويعود الجميع إلى القاهرة حاملين أحمالهم التى أتوا بها ، وينتقل كل ضابط إلى مكان خصصه له المحافظ ، ثم يتركون أثوابهم وأمتعتهم فى بيوتهم فى حراسة الخدم ، ويعودون ثانية إلى العادلية فى ثياب بسيطة نظيفة ظريفة للاشتراك فى موكب الباشا . حتى إذا كان الصباح قام الباشا فصلى الفجر مع أغا الانكشارية وأغا البلوكات السبعة وأغا العزب ، ثم تناول الإفطار . وفى خلال ذلك يكون قد شرع فى تنظيم المواكب وتزيينها ، واستعد الجنود صفوفا متراصة يمينا ويسارا ، فيأتى عزيز مصر ويعتلى صهوة جواده بلا ركاب داعيا حامدا فى عز وإكرام وإجلال خليق بالملوك ، فينادى الجاويشية : "أطال الله عمرك ؛ وكان الله فى عونك ، وأطال عمر مليكنا ، وعش بالعز والدولة"وغيرها من الدعوات فى عاصفة من التصفيق . وعندما يأذن رئيس المنجمين فى ساعة السعد واليمن يسوق جواده فـيزور قبـر السلطان طومـان باى بالعـادليـة ويقـرأ الفاتحـة على روحه ، ويأتى إلى الموكب فتُضرب الطبول التسعة الهائلة ويتحرك الموكب فى دَوِىّ رهيب يتقدمه إثنا عشر جاويشا من جاويشية الآلاى حاملى صوالج فضية (چوكان) وقد ارتدوا أثوابا مزركشة

وزينوا رءوسهم بخيوط كما زينوا رءوس جيادهم بالريش والطرر المتخذة من ذيل فرس البحر وألبسوها التجافيف وينظمون الموكب منادين "يمينا ، يسارا" ويأمرون حاملى الطبول بدقها متفكهين مازحين .

يسير رئيس الشرطة (الصوباشى) على رأس الموكب مع سبعمائة من رجاله حاملى السيوف يخلون الطريق ، ويسير خلفه جنود التتر من خواص الباشا وهم مائتا جندى مدججون بالسلاح ، ذوى "الصرادق" و "السواد" تتقدمهم رايتهم . ويسير بعدهم رئيس فرقة الفرسان الأدلاء على رأس ثلاثمائة جندى وقد ارتدوا جلود النمر وطاقيات شراعية وصالحية مزينة بريش الصقر والكركى وزُيِّنت خيلهم بالحناء الحسنى والحسينى الوارد من معبر دانوب ، يخفق فوقهم علم أبلق . ويمشى بعدهم أغا المتطوعين . وهم أيضا يرتدون أثوابا تكاد تكون : أثواب الأدلاء وفى مثل زينتهم ويمتازون بغلمانهم وراياتهم البُلْق ، ويفوق موكبهم موكب "الكيلا رجيه" خزّان الخارج حاملين رايتهم ، وهم رجال مسلحون يشبهون الضباط (أغا يوللر) فى نظامهم . وخلفهم خدم الخيام يسيرون تحت علمهم الأبيض حاملين عصيا طويلة . وخلفهم غلمان الباشا السراجون المسلحون على جيادهم الأصيلة ، رافعين رايات بيضاء . وخلفهم فرقة المتفرقة على جياد أصيلة مع صبيانهم رافعين أعلاما حمراء . ويتبعهم أغوات «واجب الرعاية» ومعهم غلمانهم لابسو الخُوَذ يحملون رايات صفراء على رماح ، وهؤلاء الأغوات مكلّفون مزينون . ويأتى بعدهم موكب رئيس الحجّاب وقد لبسوا أثوابا سمورية ودروعا وجواشن ، يتبع كل واحد منهم من عشرين إلى أربعين من الشبان الأقوياء . لهؤلاء الحجّاب مكانة خاصة فهم يتقدمون . وعندئذ تتم مواكب أغوات الباشا ، فيشرع الموكب المصرى فى السير .

يسير على رأس الحفل موكب الچاويشية فى أثوابهم السَّمُّورية الثمينة ، وزينت مجوَّزة كل منهم بأبلقين (ريش طائر) ورءوس خيلهم بأبلق من الريش . وليس خلفهم غلمانهم الصغار ، وإنما يخدمهم فى الحفل «قواسون» مستحدثون حسب قانون السلطان سليم خان . يسير بعدهم موكب السپاهيين تحت علمهم الأخضر ، بسراويلهم الحُمْر ، وخلفهم خمسون فتى يحملون الرماح ، وهم يسيرون جنبا إلى جنب وركابا إلى ركاب . ثم إن لهم مائة ضابط (چورباجى) يمشون اثنين اثنين دون أن يحملوا علما . فإن العلم

يحمله القواسون ، ويسيرون به كأنه «الدرفس الكاوياني[١]» وتلك آية تدل على أن أولئك الأغوات ضباط من رتبة الچورباجي[٢] . وخلف كل منهم من عشرة إلى عشرين غلاما من الغلمان ذوى الجمال المدرعين . ويسير خلفهم مائتا چاويش لهذه الطائفة يلبسون «المجوَّزة» وليست بأيديهم الدبابيس ولا خلفهم غلمان . ذلك لأنهم چاويشية لفرقة السپاهية . ويمشى بعد ذلك اثنان من كتخدا السپاهيين ، وخلفهم خدمهم المدججون بالسلاح حاملو الرماح . ويمر بعدهم كتابهم مع غلمانهم الصغار . ويسير بعدهم أغا فرقة السپاهية يتقدمه اثنان من حملة السيوف ، ويحف به نحو أربعين أو خمسين قواسا مشاة يتعقبهم نحو أربعين أو خمسين رجلا من حملة السلاح ، فى أثوابهم الفاخرة المختلفة الألوان ، يحملون رايات خضراء على رماح ، ويدقون طبولهم الخاقانية الأربعة . ويسير بعدهم وعلى نظامهم حملة بنادق فرقة السپاهية ضاربين طبلهم الكبير مع كتخداهم وكتابهم ، كالسپاهيين المار ذكرهم ، ولا فرق بينهم إلا أن الأخيرين يحملون أعلاما صفراء . ويمر خلفهم سپاهية المتطوعين ، ركابا إلى ركاب ، مسلحين كالسابقين ، لا بسين سراويل حمراء ومعهم كتخدا الچاويشية وكتبتهم وضابطهم ، على ضرب كوسهم ، إلا أنهم يحملون أعلاما حمراء ، ذلك ما يميزهم عن السابقين ، ويمر الچراكسة على حسب القاعدة المبينة سابقا حاملين رايات حمراء . ويليهم موكب فرقة المتفرقة وهم من كبار أعيان مصر وجنودها المزينة المنظمة ، ذوو أثواب فاخرة ، ويتبع كل واحد من عشرة إلى عشرين غلاما فى زينتهم وأسلحتهم ذوو حلل مخملية وسراويل حمراء يسيرون متئدين حاملين رماحا .

ويمر بعد ذلك موكب بكوات الچراكسة على جيادهم المزينة بالجواهر ، وقد ارتدوا أثوابا مزركشة ، وحملوا الأسلحة ، ووضعوا على رؤوسهم عمائم مرسلة العذبات وخلف كل واحد منهم أربعون أو خمسون غلاما ، فى أثوابهم المخملية الحريرية ، حاملين بأيديهم الرماح الثقيلة . ويجتاز بعدهم موكب أمراء مصر الذين يرتدون أثوابا سورية وعمائم مرسلة ويتقدم كل واحد منهم أربعة شطار بعمائم بيض وأثواب ديباجية نظيفة حاملين الطبر[٣] بجانب كل أمير أربعون أو خمسون قواسا ، وخلفه مائة أو مائة وخمسون

(١) الدرفس الكاوياني أو الجاوياني هو العلم الفارسي القديم . (المترجم) .
(٢) كان الچورباجي ضابطا يُعادل اليوزباشي . (المترجم) .
(٣) سبق شرحها . (د . السعيد) .

من خواص الأغوات المزينين بأثواب مزركشة ، يحملون الرماح ، ويذكّرون بأسلحتهم (سام بن فريمان)[1] ويمرون مع فرسان من الغِلمان ولكن ليست لهم رايات وأعلام وكوسات .

ويمر بعد ذلك موكب أصحاب الرتب من الحجّاب ، وهم من قدماء خدم الباشا الخواص ، وأعز ندمائه ؛ فقد وُعد كل منهم بمنصب الأغوية . يمرون مثنى مثنى راكبين فى أثواب سمورية وعمائم مرسلة قريبة من التى يلبسها الباشا ، بيد أن معاونيهم وخواص خدمهم يسيرون فى المقدمة مع الأغوات من الحجاب . ولا يسير معهم فى المواكب غير عشرة أو خمسة عشر من الخدم المعروفين بالچوقدار ، وغير السرّاجين . ويبلغ عدد أولئك الحجاب سبعة وعشرين حاجبا وهذه مناصبهم .

فأولهم الحاجب الذى قدم بمنصب « المسلّمية » للوزير يعيَّن محافظا وهو منصب من رتبه وزير اليسار ، ومنصب الكتخدائية من رتبة وزير اليمين ويُعيَّن أغا الرسالة « أمينا لبيت المال . والباقون يُعَيَّنُون فى مناصب أمين الشعير ، وحاصل الخرج ووكيل الخرج[2] وأغا السويس وأغا دمياط وكاتب الحوالة و[الروزنامجى] الصغير وأغا رشيد وأغا الإسكندرية وأغا المنزلة والأمير آخور وأمين جمرك بولاق وأمين الضربخانة وناظرها ، والمراجع ، وكاتب الحسابات الصغير وأمين الدفتر (مدير المالية) وچاويش السلام ورئيس الحجّاب الأول وأغا بنى سويف وأغا المنيا وأغا منفلوط وأغا جرجا وبلوكباشى الحجّاب ، وكتخدا الحجّاب ، أولئك سبعة وعشرون أغا يسيرون مثنى مثنى فى خلع سمورية وعمائم منشورة (بريشانية) .

ويسير بعدهم تسعة من الأمراء يخفُق عليهم علم الآلاى المحاط بالرايات المصنوعة من شعر الخيل وقد غمرتهم الجواهر والأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والماس واللّعْل البدخشانى[3] على جياد ذات سروج مرصعة وأعنّة ذهبية وعباءات مزينة باللؤلؤ ، يساوى الجواد منها خراج الروم . ويقودها سواس قد لبسوا على رءوسهم مجوزات مزينة وسراويل حمراء وأحذية چركسية يسيرون عارضين جيادهم العربية . ويأتى بعدهم

(١) بطل فى أساطير الفرس . وهو جدّ رستم أكبر أبطال الأساطير الفارسية . (د.عزام) .
(٢) تستعمل كلمة (وكيل خرج) = وكيلخرج فى اللغة التركية بمعنى (ناظر الخاصة) وكثيرًا ما يقال فى المدائح النبوية التركية إن جبريل هو (صاحب بريد) = (خبرجى) النبى صلى الله عليه وسلم وأن ميكائيل هو ناظر خاصة = وكيل خرجى ، وذلك أن الاعتقاد على أن ميكائيل هو الملك المنوط بإنزال المطر . (د . السعيد) .
(٣) بدخشان إقليم فى تركستان (وتقع فى أفغانستان الحالية) . (د . عزام) ، (د . السعيد) .

أمير الاصطبل وبلوكباشى الحجّاب راجلين ، وخلفهما الشيخ الإمام والمؤذن بأثوابهما النظيفة الطاهرة وعمائم «منتشرة» ومعهما خدمهما . ويسير كتخدا الحجّاب و«أغا السلام» على جوادين أصيلين على حين يسير أتباعهما مشاة . وهما أيضا يلبسان عمامة منتشرة .

وتمر بعد ذلك أعلام فرقة العَزَبان وهى أعلام قِرْمزية مزركشة ، وفى المقدمة أبناؤهم الصغار ويتبعهم رجالهم الكاملون ، وخلفهم فتيانهم ، ويتبعهم رؤساء المشاة ثم أوداباشيتهم مدججين جميعا بآلات القتال ولابسين جلود النمر وجواشن ذهبية . فهم جميعا غُزاة ذوو قاووق قلنسوة غريب مزينين بريش الصقر والكركى يحملون بنادق قوية ولهم داع ينادى فى كل مائة خطوة الهتاف الإسلامى فيكرره الغزاة جميعا «الله ، الله» وتمتلئ مصر باسم «الله» وليس لهم طبل ولا كُوس . وإذا مرچاويشهم وحامل علمهم وصل موكب الانكشارية .

وهؤلاء أيضا يتقدمهم صبيانهم الذين يمشون متفكهين ومتضاحكين ، قد توردت خدودهم كالزهور من السير على الأقدام . ويمشى بعدهم شبانهم ذوو الجمال الطوال القامة ثم المقاتلون القدامى وهم أبطال مسنون ، يحمل كل منهم بندقية تزن الواحدة سبعين أو ثمانين درهما ، وبالرغم من حملهم لهذا السلاح الثقيل فإنهم يسيرون خفافا كالغزلان . وأثوابهم عبارة عن «قباء» من الجوخ مختلف الألوان وعلى رءوسهم عمائم مختلفة . ثم يبدأ فى المرور محاربوهم المشاة وعلى رءوسهم أسكفاتهم المزركشة . ثم المشاة الكبار لابسو جلد النمر ، وقد حليت رءوسهم بريش الكركى . ثم يمر الأوداباشية القدامى المحالون على المعاش مدججين بالسلاح يحملون على أكتافهم درقا مذهبة يسيرون بتوءدة ووقار حاملين بنادقهم الثقيلة . ويمر بعدهم الشيوخ رُوَيْدا رويدا جماعات جماعات ، وكلما مرت جماعة أعقبها چاويش الآلاى وهو ذو « قباء» أسود ، والحجّاب والسقاءون . وفى كل مائة خطوة ينادى الداعى فيرد عليه الجنود «الله ، الله» فتهتز الأرض والسماء من لفظة الله ، ويَعم السامعين الدَّهَش والخوف . فجميع الأبطال والشجعان البُسَلاء ذوو كلمة نافذة يمرون مثنى مثنى خفافا كالظباء منادين نداءات محمدية ، ويمشون بأدب ووقار وتوءدة ، كأنهم طواويس ، فمن يتجرأ على إلقاء نظرة على سطح منزل أو نافذته أو التفوه بكلمة؟ فإنه لا يكاد يفعل حتى يُسكَّت بالتوبيخ توبيخا شديدا . لأن هذا الجيش جيش إسلامى ممتاز فى جيش آل عثمان . ففيه المدفعية

والفرقة المدرعة ، وحملة البنادق وقُوّاد عربات المدافع وحراس القلعة وجميعهم يشتركون فى هذا الاحتفال . ويبلغ عددهم ٧٨٨٨ جنديا ، بيد أن شهرتهم تبلغ شهرة عشرين ألف جندى . وليست لهم أيضا طبول ولاكوسات . يكاد الجميع يمرون مشاة وينتهى موكبهم حين يمر علمهم الأكبر . وإذا ذهب أحد ضباطهم إلى حرب على رأس مائتين أو ثلاثمائة جندى ، فهو يستعمل الكُوس حينئذ .

وإذا انتهى مشاة الانكشارية وصل موكب أغا الانكشارية وأغا العَزَب فيمر أولا ضباط العزب (چورباجيلر) على جياد أصيلة فى أثوابهم السمورية ، يتقدمهم خدمهم السود ويتبعهم غلمانهم ذوو السراويل الحُمْر والعِصىّ . وإلى يمينهم ضباط الانكشارية من رتبة الچورباجى على جياد أصيلة كالسابقين ، وفى فرجيات سمورية مغطاة بالجوخ مع غلمانهم السود . وإلى يسارهم العزب بچاويشيتهم القدامى وقائدهم القديم وشيوخ كتخداهم ؛ فالعزب إلى اليسار والانكشارية إلى اليمين ، يسيرون جنبا إلى جنب ويقف باشچاويشاتهم بجانب الباشا . وأما مديرهم الذى يقوم بإدارة بيت المال فيظل فى مقره . ويعبر كتخدا العزب وأغا الانكشارية جنبا إلى جنب راكبين ، وخلفهما صبيانهما المدججون بالسلاح . ويسير بعدهم ملازمو الانكشارية وهم أربعمائة جندى من مشاة نظاف يرتدون ثيابا جوخية من ألوان مختلفة وذوو أحمال فضية وأسكفات مزركشة ومزينة بطرة من ريش مالك الحزين ، يحملون السيوف ولا يحملون البنادق . ثم يأتى شطار الباشا فى ثيابهم المزركشة حاملين « التبر المسلمىّ» وعلى رؤوسهم طاسات ذهبية مزينة بطرر ، يمشون عن يمين الباشا ويساره . ويسير «شاطرباشى» عن يمين الباشا بعمامة منتشرة تزينها طرة من ريش مالك الحزين ، وقد وضع فى أحد جيبيه نقودا ذهبية وفى جيبه الأخر نقودا صغيرة ينثرها على الفقراء . وإلى يمين الباشا رئيس السقائين وقد ارتدى قَباء قرمزيا وأسكفة مقصبة وحمل زمزمية مرصعة بالجواهر النفيسة ، ومن وراء الباشا حَمَلة البنادق بأثواب من الجوخ الأحمر الخشن وأسكفات يمسكون بذيل خلعة الباشا . وقد ارتدى الباشا الوالى « قبانيجة[١] سمورية» وحمل كنانة مرصعة بالجواهر الكريمة ولبس سراويل مخملية وحذاء چركسيا أصفر ، وزين عمامته السليمية بطرتين ملكيتين وركب جوادا ذا سلسلة ذهبية وسرج مرصع بالأحجار الكريمة . يسير عن يمين الباشا ثمانية من

(١) قبانيجة : جُبّة بلا أكمام أو لها أكمام ضيقة تُغَطّى حواشى جيبها بالفرو ، كان يلبسها السلاطين ثم لبسها الصدور العظام ثم أصحاب المناصب ؛ وكانت تلبس عادة فى الحفلات الرسمية . (د . السعيد) .

الجَلاّدين ، وعن يساره رئيس الشرطة (الصوباشى) والبك المحتسب راجلين متعظمين . ويتقدم الباشا بأدب وتواضع ووقار مسلما على يمينه ويساره ، باذلا إحسانه للفقراء ، ومصغيا إلى نداء الأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار الذين ينادون : «حفظك الله ياسلطان مصر ، يامتولى مصر ، ياعزيز مصر ، ويا والى مصر» . ويسير خلف الباشا السلحدار فى ثيابه المُقصبة والمُزرْكَشة ، حاملا سيفه المرصع وعلى رأسه أسكفة قِرْمزيةُ مقصَّبة ، ويتبعه الچوقَدار فى مثل ثيابه وسلاحه ، ويسير خلفهما كتخدا الباشا وأفندى الديوان فى أثواب سمورية ، وعمائم بريشانية . ويتعقبهم اثنان وعشرون أغا من أغوات الباشا ذوى الرتب ، على جياد أصيلة علقت على كل منها ستة تجافيف فضية ، وزينت رءوسهم بطرر بحرية مرسلين طيالسهم المحمدية ، وبيد كل منهم سبعة عشر (بوغوم)[1] ويمر جاويشية الخاصة وأغوات الخاصة منظمين مرتبين . ويمر بعد ذلك رئيس خدم الخاصة مع أربعين من الخدم الخاص بالباشا . ويمر بعدهم «خزينة دار» الباشا وكبير مؤذنى الخاصة جنبا إلى جنب راكبين ، ويتبعهم العلم (سنجق) والراية ، وفرقة الموسيقى تدوى كالرعد . ويتبعهم أغوات الخاصة و«سقاباشى» مع سبعين أو ثمانين من رجاله وقد زينوا خيول السقاية بضروب الورد والأزهار كما زينوا الأدلىَ والقرب بأوراق خُضْر . ويمر بعدهم العَكّامون . ورجال الإنارة بمشاعلهم المزينة راقصين منادين «اللهُ ينصُر السلطان » ، ومصفقين صائحين «تعال!» حتى إذا دخل الباشا القاهرة على النحو الذى وصفناه ، وقف السپاهيون ورماة البنادق والمتطوعون والچراكسة ورجال المتفرقة فى صفوف متراصَّة يمينا ويَسارا بميدان الروميلى منتظرين للسلام . وإذا بلغهم الباشا ومر محييا يمينا ويسارا انصرف الفرسان جميعا إلى دورهم .

ولايكاد الباشا يجتاز باب (العَزَب) ببسم الله الرحمن الرحيم حتى تذبح مائة رأس من الغنم فى نادى العزب تسيل دماؤها نحو قوائم جواد الباشا ، وترتفع الأصوات بالدعاء للباشا . ويرافق العزب والانكشاريون الباشا حتى يبلغ قصره بعظمة وجلال ، وعندئذ تُذبح مائتا رأس من الغنم مرة أخرى ، ويتلو الداعى دعوات صالحات للباشا ويقرأ الفاتحة فينزل عن جواده على حجَر الرِكاب فى دوى من التصفيق والهتاف ، ويتبرك بالجلوس قليلا فى الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم خان لأول مرة حين فتح مصر . ثم يبسمل ويصعد خمسا وعشرين درجة من الحجر إلى ديوان قايتباى (بهو) يسنده عن يمينه

(١) بوغوم : طرف الرمح . (د . متولى) .

كتخداه وعن يساره كتخدا الچاويشية ، حتى يجلس على بساط قايتباى ، فينادى الچاويشية« بارك الله فيك . قوى الله قدمك ، تعيش سعيدا» وعندئذ يأمر الباشچاويش بتكريم الباشا بإطلاق مدافع القلعة ، فتطلِق نحو أربعين أو خمسين طلقة مدوية من برج المدافع بالقلعة .

وإذا انتهى ذلك عُقِد ديوان مختصر بميدان السراى فنادى كتخدا الچاويشية : «هل من قضية أو صاحب مصلحة يريد قضاءها؟» يقف أرباب الديوان يمينا ويسارا فى أماكنهم صامتين . فيظهر من بينهم خمسة أو ستة رجال ممن كلفوا النظر فى شئون أوقاف مكة والمدينة المنورة فيتقدم أكفؤهم لتسير الأمور حسب الأصول المرعية ويقول « : يا وكيل السلطان خادم الحرمين الشريفين ، جعل الله مَقْدَمك خيرا» ثم يقدِّم طلبا خاصا بشئون مكة والمدينة ، فيأخذه الباشا ويوقِّع مبسملا للعمل بموجبه ، وهو أول عمل رسمىّ له بالقاهرة . وذلك لأن وزير مصر وكيل سلاطين آل عثمان الذين هم خادمو الحرمين الشريفين ، فمن أجل ذلك يكون النظر فى أمور مكة والمدينة فاتحة أعمال الباشا بالقاهرة . ويقوم الدُّعَّاء[1] بعد ذلك بتلاوة دعوات عظيمة وتقرأ الفاتحة . حتى إذا تم ذلك دخل أعيان القاهرة وأشرافها صنفا صنفا حَسْب قانون التشريفات المصرىّ ، وجددوا البيعة بلثم يد الباشا . وفى خلال ذلك تعزف فرقة موسيقى القلعة[2] وتعطى بعد انتهاء الاستقبال «حالية» قدرها ألف پارة(. . . .) ثم يلثم أرباب الديوان يد الباشا فى ساعة ثم يدعو الدُّعَّاء وتقرأ الفاتحة . ثم يأتى كتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة فيرفعون الباشا من مكان السلطان قايتباى فيحيى أرباب الديوان فى بحر من التصفيقات التى يقابل بها الچاويشية تحياته . ويدخل الباشا بعد ذلك قصره ويتفرق الجميع . وهناك أربعون رجلا يتلون سورة «الأنعام الشريفة» فى بهو الغورى فى تلك الساعة كما يتلونها كل صباح .

ويدخل الباشا حجرة الكرسى ، فيخلع ثوبه ليستريح ، فيأتى چاويشية البلوكات السبعة فيطالبونه بحاليّتهم ، لإحضارهم إياه بالاحتفال . فقد دفع حسين باشا ابن جانبلاط كيسين لفرقة الانكشارية وكيسا لكل بلوك من البلوكات السبعة ، فصار مجموعها تسعة أكياس . وكان هذا الاحتفال الذى وصفناه قد أقيم تكريما له ، فقد خجل

---

(١) دعاكو : دُعّاء . (د . متولى) .

(٢) الفصل الموسيقى المعروف بـ (مبارك باد) = بارك الله . (د . السعيد) .

لدخوله القاهرة فى أبهة خليقة بالملوك .

استراح الباشا فى تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى أقيم السِّماط الديوانى المشتمل على ثلاثة آلاف صحن من الطعام . ويتكرر هذا مرتين فى كل أسبوع بحسَب القانون السِّليمى . وإن لم يقمه الباشا وأضاف قيمته إلى الخزينة أو وضعها فى جيبه فإنه يحاسب عليه حين عزله من منصبه على أساس كيسين لكل سماط فيطالب باثنين وتسعين كيسا فى العام .

وبعد الانتهاء من الطعام يعقد الديوان الملكى ، فينظر فى القضايا ، ويحِق الحق ، وتحسم المنازعات ، ثم ينظر فى مخصصات ورواتب المقيدين والأيتام والجوالى ورجال المتفرقة ، فيعطونها فى حضرة الباشا الوالى ، وتثبت الاستحقاقات وعدمها ، ويثبت كل مستحق وجوده ، ويتسلم مخصصاته ، وينتهى اليوم الثانى على ذلك المنوال . ويستمر سيل المصريين القادمين لتهنئته ثلاثة أيام .

وأما الهدايا المحملة إلى الوالى فى تلك الأيام الثلاثة ولياليها فالله وحده عليم بها ، ولكن عدم قبولها عمل أقرب إلى العقل . لأنها إن كانت لمصلحة تُقضى يقول المصرى «ما أبالى» ، وتلك حكمة مصرية . وإذا أخِذَت ولم تُقض المصلحة ، فإن صاحبها يطالب بها الوالى حين عزله من منصبه ، لأنها ماله . وبهذا تم وصف الاحتفال المصرى الخامس [1] .

– ٤ –

وزراء مصر فى فصل التشريفات وما ينبغى عليهم تجنبه

إن الخلع التى يخلعها الوزير بحكمة وروية على أهل المناصب بعد الاحتفال الذى وصفناه ، كلها من قِبَل السلطان . وإن زاد عليها فهى من الوزير نفسه ، وهى نفقات هائلة تثقل كاهله حين عزله ، فلذا ينبغى له الحذر من ذلك . قسم إبراهيم باشا الكتخدا حين كان حاكم مصرالخلع ثلاثة أقسام : الأعلى ، والأوسط ، والأدنى . وجعل ثمن الأعلى ألفى پارة ، والمتوسط ألف پارة ، والأدنى خمسمائة پارة ، ثم عين لها مديرًا يهوديًا . ويبلغ

(١) فى عنوان هذا الباب «العيد السادس» كما أن العيد الآتى معنون بأنه السابع .(المترجم) .

ما يُصرَف من الخلع فى كل عام ستة آلاف خلعة . ذلك أن الباشا الوالى لا يكاد يبلغ مصر حتى يجدد جميع أرباب المناصب والكاشفين والأمراء ، فيخلع خمسة وأربعين وألف خلعة من الصالحية إلى العادلية فى الطريق ، وفى العادلية ، ثم فى السراى ، بعضها من السلطان وبعضها من إحسان الباشا ، ينبغى ضبط كل ذلك ضبطاً حسناً . يصرف هذا القدر العظيم من الخلع وتجدد المناصب ، فيبلغ دخل الباشا فى الوَهْلَة الأولى ألفاً ومائتين فى سبعة أيام ولياليها على قول إبراهيم باشا الكتخدا . وينبغى للوالى ، إن كان عاقلاً ، أن يقيم سماطًا محمديًا بعد تبديل الموظفين ، وأن يستشير الناس ، ويستفهم هل فى ذمة الوالى السابق شىء من بواقى الأموال وأن يرجع فى ذلك إلى «الروزنامه جى» ويطَّلع بواسطته على حقيقة الأمور . وإذا ثبت وجود أموال «فى ذمة الباشا المعزول» استدعى إلى الديوان مدير مكتبه (كتخدا) والمحافظ (شهرحواله سى) ورئيس الديوان ومدير بيت المال وحاصل الخرج ، وبالاختصار جميع الموظفين العاملين فيسألون عما بقى فى ذمة «الباشا العتيق» من «المحلولات» ولخزينة الدشيشة المقيدة فى سجل اليوميات (روزنامه) أيام حكمه بمصر ، وهم يسألون عنها الطائر فى السماء ، والماشى على الأرض ، والقائم فى الماء ، من واحد إلى ألف ، ومن ألف إلى مائة ألف . ثم يخصص ملاحظ لجوج وقح من شيوخ الجاويشية ومعه شيخ من كل بلوك وكتخدا الجاويشية لمراقبة الباشا وتحصيل ما فى ذمته من الأموال . يذهبون إليه بصَخَب ولَجَب ، فيطالبونه بما فى «بطنه» كذا كيس من الأموال السلطانية ، دون مراعاة للأدب ، ولما سَبَق له من الحقوق ، ويناولونه سجل اليوميات . وإذا قال الباشا المعزول «سأتشرف بمقابلة أخينا الباشا الوالى غداً ، وإن كان علينا شىء فسأدفعه» فإنهم يمهلونه . وأما إذا خالفهم معاندًا فيحبسونه فى قصر يوسف بالقلعة ، أو فى قصر «طاشياتير» بالمدينة ، ويضعون حوله ضابطًا برتبة چورباجى من كل بلوك ، لحراسة القصر من جهاته الأربع ، حتى لا يتمكن من الهرب . ذلك لأنه قد حدث مرة أن هرب مصطفى باشا الكبير بهدم جانب من أسوار القصر ، فالتجأ إلى السلطان بلثم رِكابه ، فعفا عنه ، وأبقاه فى منصبه بمصر . ولما عاد إليها بعد أربعين يومًا ، ضرب رقاب آلاف المصريين بالسيف ، حتى اشتهر بقاتل العبيد فلذا يحبس الباشا المعزول ، ويوضع تحت رقابة شديدة .

هذا إذا طالبه الوزير الجديد بالأموال المتأخرة عليه . وأما إن أشفق عليه وقال إنها فى ذمته ، وإنه يدفعها عنه ، فيقيده القاضى على الباشا الوالى فى سجل الشرع

المحمديّ ، فى حضور رؤساء المذاهب الأربعة ، وكبار الأعيان والعلماء والصلحاء ، ثم يحصّلها (الباشا) الجديد من الجهات المتأخرة عليها . وإذا عُزِل الباشا وعليه تلك الأموال أخذوه بتلابيبه مطالبيه بها . وأما إذا لم يقبل الوالى الجديد الجلوس على بواقى الوالى المعزول ، أى إذا لم يتعهد بتسديد ديونه ، فإنه يستشير استانبول فى هذه المسألة قائلاً «إن سَلَفَنا الباشا الفلانى قد تأخر عليه مبلغ كذا من الأموال السلطانية . وبناء عليه لابد أن تكون الأموال المُودعة فى الخزانة ناقصة مقدار المبلغ المذكور ، فالأمر لمولانا السلطان» . حتى إذا مضى أربعون أو خمسون يومًا قدم من استانبول أحد رؤساء الحُجَّاب أو أحد الشيوخ ، حاملاً الأمر الملكى . فإن كان فيه : «أنت رائدنا ووزير مصر فينبغى أن تحصّل الأموال المتأخرة على رائدنا المعزول ، «فالعياذ بالله» ، يُحْبَس الباشا المعزول ومن كانوا فى المناصب من أغواته فى برج يوسف بالقلعة ، وتصادر أموالهم وأرزاقهم وجميع ممتلكاتهم ، فتباع فى الأسواق ، ويبقى الباشا وأتباعه على حُصُر ، ويُحْبَسُون سبعة أشهر أو ثمانية أشهر ، وقد تمتد مدة الحبس إلى سنة ، حتى يصير المحبوس فى حاجة إلى فَلْس واحد . يظل الباشا كذلك حتى يدفع ما عليه ثم يفرج عنه ، فينتقل إلى سراى آخر ، أو يبقى فى نفس السراى ، ولكن بلا حراس ومحافظين وعندئذ ينهال عليه أصحاب الدعاوى والشكايات من كل الجهات فيطالبونه بالأشياء والمبالغ التى جمعها من المسلمين دون قضاء حاجاتهم . فلا ينجو منهم هو ورجاله إلا إذا أعانه والى مصر ، وحماه قاضى العسكر بالإصلاح بينهم وبين غرمائهم ، بدفع مبلغ صغير لكل صاحب حق . فإن لم يعاوناه بل حرضاهم عليه ، فويل للباشا المعزول وأغواته ، فإن المصريين «يجرجرون» أغوات الباشا من باب إلى باب مذلولين مفضوحين .

وأما إن كان الباشا حكيمًا مدبّرا ، وحاسب المصريين قبل عزله ببضعة أشهر ، والتجأ إلى استانبول بمجرد اطلاعه على وجود الأموال المتأخرة ، دون الاعتماد على المصريين ، فاستصدر أمرًا أو خطا شريفًا يحمله المسلّم أو كتخدا الحجاب إلى مصر حين عزله ، وفيه «وزيرى فلان ابن فلان إذا بلغك خَطّى الهمايونى هذا فأوصل فلان بن فلان وزيرى المعزول من مصر إلى استانبول معززًا مكرمًا» ، فالعظمة لله ، فإنهم فى هذه الحالة يحتفظون بالباشا المعزول شهرين أو ثلاثة أشهر جادين (مُجدّين) لأنه ذاهب إلى عاصمة الدولة بهذا الإجلال ، فلابد أن ينصب وزيراً أعظم ، فلا وزير مصر ولا قاضى العسكر ولا المصريون يدعون أنّ فلساً بقى على الباشا المعزول ، فترِد إليه فى شهرين أو

ثلاثة أشهر يقضيها فى القاهرة مشغولاً بإعداد معدات السفر ، نحو مائتين أو ثلاثمائة جمل ، ونحو ألف حصان وأموال كثيرة . فتبلغ الهدايا المقدمة إليه حين العزل مقدار ما قُدِّمت إليه حين دخل مصر حاكمًا . فقد أهدى إلى إبراهيم باشا ألف كيس من المال . وبلغه الأمر بتوليه ولاية الشام وهو فى طريق السفر إلى استانبول معززًا مكرمًا .

-٥-

الاحتفال بتوديع الوزير إن غادر مصر معززًا حين عزله من الولاية

وهم يهزءون ببعض الوزراء هزءاً «اللهم عافنا» ، فإن الوزير إن عُزِل من مصر ولم يجد آذانًا صاغية باستانبول فلا تعظيم له ولا تكريم . ففى ليلة يغادر القاهرة مع أتباعه ويصل إلى العادلية التى يتخذ منها طريق استانبول متأوهًا حزينًا . فلذا ينبغى لوزير مصر أن يعتبر بأمثاله وأن يكون فى تحفظ واحتراس حين ولايته لمصر ، وأن يقف على أحوال الأمراء والملتزمين والكاشفين المكسورين فى عهد سلفه ، والمحبوسين فى آرقخانه [سجن قاضى العسكر] وأن يسعى لإطلاق كل منهم بوسيلة من الوسائل . وأن يفحص عن المحبوسين من أجل المال فى الديلم [سجن رئيس الشرطة] وسجن المدنيين والچاويشخانة وفى معسكرات البلوكات السبعة وغيرها ، فيطالبهم بما عليهم ، وذلك من ألزم الأمور . إذ أنه إذا سأل عن واحد منهم حين يُعزل فسيقال له إنه لا يزال حبيسًا فماذا منعك من مطالبته أيام حكمك ، فقد كان فى إمكانك أن تأخذ عينه؟ ومن ألزم الأمور أيضًا العناية ببقايا الغلال الميرية ، ومعرفة أصحابها ، وإنصاف المظلومين من الظالمين . وطعن قلب كل ظالم بسهم حاد وبحربة حادة ذات السمّ الزُّعاف ، والقضاء على حياته فى ميدان الروميلى ، وجعل رأسه يتقلب فى يد. الفلك كأنه كرة الصولجان كما ينبغى العفو عن جرائم بعضهم بجرة قلم مصداقًا للأثر : «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفو عنى» وإنقاذهم . وينبغى الإحسان إلى كثيرين ، كما ينبغى قتل بعضهم . ذلك هو القانون المصرى . يجب أن يسير على هذا المنوال ، ولا يقبل الرِّشوة من أحد ، لأنها تُرَدّ إلى أصحابها حين العزل من الوزارة ، وألا يثق بأقوال أهل الفساد والنمّامين والفَسَقة ، حتى لا يفلت الصلاح من يده ، ويركن إلى التمتع بالحكم كيفما يشاء . كما ينبغى محاسبة الرُّوزنامه جى وأهل الديوان كل شهر مرة ، والعناية بتحصيل بقايا الأموال عناية خاصة والسلام .

وينبغى لوزير مصر أيضًا أن يكون مستقيمًا متدينا ، وأن يتخذ له روزنامه جى مستقيمًا خليقًا بالثقة لأن جميع ما يُتَصور ويُتَخَيَّل من الخبث فى أثناء العزل يكون بيد الروزنامه جى . فقد أحسن إبراهيم باشا بمائتى كيس إلى عبد الرحمن أفندى الروزنامه جى . ولما عُزِل إبراهيم باشا من وزارة مصر كان عليه مبلغ ستمائة كيس من بندر [دمياط . . .] وسبعمائة كيس من البقايا ، فلم يدفع إلا ستمائة كيس بتدبير عبدالرحمن أفندى الروزنامه جى .

ولما جاء حسين باشا بن جانبلاط قتله بعد تناول الطعام دون أن يشعر أحد بذلك ، فحمد الله أرباب الديوان كلهم ، لأنه أنقذ الناس من شر لسانه وفعاله ، كما أنقذ الأمراء والكاشفين من شره . فلذا يجب على الباشا أن يتوخى فيمن يتخذه روزنامه جى الدين والاستقامة .

- ٦ -

وصايا «أوليا»[١] المخلص إلى وزراء مصر

إن وزراء مصر يغترّون بالحفلات والزينات والإسرافات وسائر مظاهر التعظيم والتكريم التى كتبنا عنها ، فيسيرون فى الحكم راكبين رءوسهم ، «والعياذ بالله» وشارب ماء النيل يتكبر ويقسو فى الحكم ، لأنه جلس على عرش مصر الذى هو عرش الفراعنة . فلذا يجب على الوزير أن يتألف الناس جميعًا ، ويعاملهم بالرفق والحسنى ، ويحوّل مصالح المسلمين إلى الشرع الشريف ، والخزانة السلطانية إلى «كتخدا الجاويشية» ورئيس المتفرقة والدفتردار ، ثم يلح عليهم فى تحصيلها كل ساعة ، وألا يبيع ما يرد من المحلولات ، بل يضبطها لأن المعتقين من إدارة الأغوات باستانبول يفدون إلى مصر حاملين الأمر الشريف ، يطلبون الترقية كما يطلبها كل من ذهب إلى استانبول مع الخزانة ومن ذهب مع الدخان ومن تقدم من مكة والمدينة نجّابا ومن يسافر على خزانة مصاريف الجيب ومن يأتى بخمسة أرقاء وكذلك يطلبها مبشرو الجبل وغيرهم . وبما أن القانون السليمى يحتم الترقية بسبعة آلاف آقچه سنويًا فلا مندوحة عن ضبط المحلولات . والمطالَب بتلك الترقيات كلها هو الباشا الوزير . وكثيرًا ما يُذَم وزراء مصر ، ويُتَّهمون بهذه الناحية وبأهراء

---

(١) اسم المؤلف . (د . عزام) .

يوسف وقلم الروزنامه والإهمال فى تفتيش الكاشفين المكسورين ، وإعطاء الكاشفية لهم ، فى حين أن الوزير يطالب بأموال الترقىّ والأموال السلطانية حين عزله من الوزارة . وينبغى لوزير مصر أن يضع يده على أوقاف الله ، أى لا يجلب الأموال من الأوقاف ، بل عليه أن يبذل مجهودًا فى تفتيشها ومراقبتها والقيام بإصلاحها وصيانتها ، كى ينتهى إلى عاقبة حسنة خيرة ، وألا يقتل أحدًا معتمدًا على وشاية مفسد ، دون تعمق فى التحقيق .

والطائفة العسكرية قوم ذوو سيف حاسم فينبغى للوزير الحذر من أن يكون عونًا وظهيرًا للأشقياء منهم وعليه متابعتهم ، كما ينبغى محاسبة الدواوين الاثنى عشر فى كل شهر وضبطها . ومجمل القول أنه ينبغى ألا يهمل أبدا جانبى السلطان والوزير الأعظم ويهتم بهما دائمًا ، وفى اللغة التركية مثل موافق لهذا المقام معناه : «خذ تسعة من عشرة للملك ولا تدعه والوزير الأعظم يفلتا من يدك» . ولا ينبغى له الحضور إلى مصر بجيش كبير ويكفى أن يكون معه ثلاثون ضابطًا (أغا) وثلاثمائة من جنود الحرس . وإن قدم إليها بعشرة آلاف جندى على زعم أن يضبطها بقوة ، فهو قطرة فى بحر ، وذَرّة فى الشمس . وإن قدم إليها بألف جندى فلن يدعوهم فى المدينة لأن الولاية لا تحتمل ذلك ، لأن قراها ميرية ، وأهلها خدم ، فله إذن أن يستخدم الجميع بالرفق واللين ، ويعيش معهم على الألفة ، على حد قول القائل : «لا تكن صلبًا فتكسر ، ولا لَيِّنا فتعصر» .

وموجز القول أنه إن عاشر الوزير جميع الناس معاشرة حسنة ، فمصر تأتى على وجه العدل بألفى كيس فى العام إن شاء الله ، وإذا زادت«المحلولات» القروية ، فإنها تبلغ ثلاثة آلاف كيس . ويرد ألف كيس هدايا فى كل عام ، ولكن بشرط أن يكون الوزير ذا مكانة ومجد وشوكة وثراء وسطوة ، صادق القول ، صاحب وقار ؛ فإن المصريين إنما يُجِلُّون أمثاله ، ويُعطُونه المال . فقد رأوا آلافًا من المستعلين ، وفيهم أغوات من أغوات استانبول قد خدموا كثيرين من الملوك والوزراء ، ولهذا ينبغى معاملتهم بالحسنى ، ورعاية شئونهم . وثمت بيت ظريف فى هذا المعنى خلاصته «إن العالم ليس على رغبة كل إنسان ولكن ينبغى للمرء أن يعاشر الناس على قدر الإمكان» فالحياة معهم رائعة حينما يكون المرء فى منصب ، فإذا عُزِل فهى ملعونة .

- ٧ -

العيد الثامن : الاحتفال بمقدم الوزير حين يعين ثانية

إذا وصل مقرر[١] الباشا الوزير إلى بُلْبَيس أرسلت الأنباء إلى القاهرة لاتخاذ الإجراءات اللازمة للاحتفال ، فينبه مدير مكتب الباشا (كتخدا) على چاويشية الآلاى ، ويستعد الأغوات جميعًا ، وينقُل مدير سراى الباشا المطابخ إلى العادلية لإقامة مأدبة . تكتظ القاهرة فى ذلك اليوم بازدحام وجلبة وصخب ، لمسارعة الناس إلى استئجار الأماكن حتى باب النصر ، لمشاهدة الاحتفال بعودة الباشا . وفى صباح اليوم التالى يستأذن مدير مكتب الباشا ، فيذهب إلى الحفل قارعًا طُبُوله . وأما إبراهيم باشا الكتخدا فقد أمر فى عهده بإحضار المقرر السلطانى ، والخلعة الشريفة ، والسيف بالتعظيم والإجلال لأنها هدايا ملكية وبأن يخرج الأغوات كلهم مسلحين ، وتخرج الفرقة الموسيقية برُمَّتها ، وأن يستعملوا الطبول وحدها وهم ذاهبون ، ويستعملوا كل الأدوات الموسيقية حين العودة مع المقرَّر .

سارت على رأس الحفل مواكب التتر والأدلاء الفرسان والمتطوعين وخدم السفرة والسراجين والمتفرقة وواجب الرعاية وكبير الحجّاب والكتخدا . وسار الكتخدا وكتخدا الچاويشية جنبًا إلى جنب راكبين وخلفهما رئيس المتفرقة والمحافظ وأفندى الديوان وكتخدا الحجاب يجتازون المدينة ومعهم غلمانهم فى أثوابهم المزركشة إلى خارج باب النصر . وليس فى هذا الحفل نفر واحد من الطوائف العسكرية المصرية ، فهم إنما يجتمعون فى السوق السلطانية لمشاهدة مرور الحفل .

يستمر الحفل فى السير حتى العادلية فيستقبل مدير مكتب الباشا هناك حامل المقرر دون النظر إلى شخصيته أهو الأمير أخور السلطانى أو كتخدا الحجاب أو أغا من أغوات الوزير الأعظم المسنين . حتى إذا تم الاجتماع والمصافحة أقيم سِماط محمدىّ لجميع الحاضرين من الأغوات والأعيان فتناولوا الطعام والقهوة وعطروا بالبخور . ثم امتطوا صهوات جيادهم فساروا كما وصفناه سابقًا .

---

(١) كلمة «مقرر» اصطلاح يدل على إقرار السلطان للوزير بمنصبه ، أى إبقائه فيه ، ويتم ذلك بإصدار أمر سلطانى . (المترجم) .

سار مدير مكتب الباشا والأغا حامل «المقرَّر» جنبًا إلى جنب وقد حمل الأغا صاحب الخزانة الخلعة السلطانية الفاخرة وكتخداه الحسام المرصع ، ويجيب الأغا على الرسائل وبيده «الخط الهمايونى» فى كيس من كُريشة موضوع فى صرة مقصَّبة . واجتازوا باب النصر داخلين القاهرة على دقات الطبول المؤلفة تسعة تسعة . ويدخل القاهرة بلوكان من الجنود بين صفوف متراصة على جانبى الطريق ، فيعرف المصريون عظمة العثمانيين وأبهتهم ، ويبتهجون بقدوم «المقرَّر» إذا كانوا على وفاق مع الوزير ، فتحفل المدينة بالأفراح . وبينما يصعد ألوف الناس على دقات الطبل العثمانى إلى ديوان الغورى بالقصر السلطانى بقلعة الجبل ، يستقبل الباشا على رأس السلم واقفًا عند عرش السلطان سليم خان حتى يُخرِج الأغا حامل «المقرَّر» الخلعة الملكية الفاخرة من الصرة المزركشة ، فيقبلها ويضعها على رأسه ، ثم يناولها للباشا الذى يُقبِّلها ويضعها فوق رأسه ، ثم يناولها أفندى الديوان فَيُقبلها ويضعها فوق رأسه هو أيضًا ، ثم يبسمل فيفض الخاتم المنقوشة عليه الطرة الغراء ، ويُخرِج الخط الشريف ؛ وعندئذ يكتظ ديوان الغورى بآلاف المجتمعين لسماعه واقفين على قدم واحدة ، فيقف أفندى الديوان بلا خوف ولا خجل ولا اضطراب ، فيتلو الخط الشريف بصوت مرتفع . ويشتمل عادة على الدعاء للرعايا والبرايا ، والإشارة إلى العناية بشئون مكة والمدينة ، ويختم بقوله «إنى قررت إبقاءك فى منصبك فى هذه السنة المباركة ، فعندئذ تُدَوِّى القاعة بعاصفة من التصفيق ، ويبتهج أهل الديوان .

وبينما يخلع رئيس الحجاب الخلعة الفاخرة على الباشا ، يُقبِّل الباشا جيبها ويلبسها ، فيصفق الچاويشية قائلين «بارك الله» . ثم يعلق رئيس الحجاب نفسه بيده الحسام الملكى المرصع بحزام الباشا . ثم يأخذ مدير مكتب الباشا بيده والأغا القادم من استانبول بيده الأخرى ، فيوقفانه على بساط السلطان الغورى ويُتلى الأمر الهمايونى مرة أخرى بصوت مرتفع ، فيرسل الچاويشية والأغوات إلى كل الأرجاء حاملين أوامر بيضاء لتنفيذ ما اشتمل عليه الخط الهمايونى ، ثم ينفضُّ الديوان المصرى . وتقام الأفراح بتهنئة القدوم بإطلاق سبعين أو ثمانين طلقة من مدافع القلعة ، وتأتى فرقة موسيقى القلعة فتعزف فاصلاً عذبًا ، وتصيب ألف پارة «حالية» .

وفى صباح اليوم التالى يقام السماط الديوانى لجميع أرباب الديوان وأهل المناصب ، الذين يبقون فى مناصبهم ويحظون بالخلع الفاخرة ، ثم يذهب كل إلى منزله ، ويعزف

رئيس فرقة موسيقى الباشا الفاصل الموسيقى «بارك الله» فيصيبون «حالية» قدرها ألف بارة وأجواخا وأقمشة ، ويحضر بعدهم أربعة وعشرون أغا من أغوات الباشا حاملى الرتب وسائر الأغوات ، فينالون إحسان الباشا . كما ينكب بعض أرباب المناصب فى هذا الديوان ، وتعطى مناصبهم إلى غيرهم .

ويشرع بعد ذلك فى تحصيل أموال الباشا من جميع أرباب المناصب ، فتحصل خمسة أكياس من «ترجمان باشى» وعشرة أكياس من كتخدا الجاويشية ، وعشرة أكياس من رئيس المتفرقة ، وخمسة أكياس من الروزنامه جى وستة أكياس من أغا الانكشارية وخمسة أكياس من أغا العزب ، وأربعة أكياس من كل من أغوات البلوكات السبعة وخمسة أكياس من كل من رئيس الشرطة والمحتسب . وموجز القول أن الموظفين الذين أبقوا فى مناصبهم وخُلِعت عليهم سبعمائة وسبعون خلعة بعد مجىء المقرر تُحصَّل منهم ثلاثمائة وستون كيسًا ، يمنح الباشا عشرين أو ثلاثين كيسًا منها حاملَ المقرَّر من استانبول ، كما يُهديه هدايا مختلفة ، كجواد وسَرْج وطواشى وغيرها ، ينفق فيها نحو عشرة أكياس .

كذلك يقيم مدير مكتب الباشا وسائر موظفى القاهرة مأدب يقدمون فيها هدايا إلى ذلك الأغا ، ثم يودعونه إلى استانبول . فيسافر وقد فاز بمائة كيس من المال . وبذلك يتم احتفال القاهرة بمجئ المقرر .

- ٨ -

العيد التاسع العظيم هو الاحتفال بسفر الخزانة المصرية إلى استانبول

عندما يجئ المقرر وتُجدد المناصب كما بينا ، يحل رأس السنة فتلزم الخزانة المصرية على الباشا ، فيشرع فى العناية بتحصيلها . يشرع الباشا الدفتردار وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ومدير مكتب الباشا والمحافظ وسكرتيره ، وهم عمال الدولة ، فى التجسس والبحث عن المتأخرات فى ذمام الأمناء والكاشفين والولاة الملتزمين ، على ألا يأخذوا شيئًا من زراعات الثلث الأول والثلث الثانى والثلث الثالث والزراعات الصيفية والشتوية ، وإنما يحصلون الأموال المتأخرة بضروب المشقة والعناء من الأمناء المكسورين ، ويوردونها إلى الخزانة . ويقضون على بعض الكاشفين الذين عجزوا عن

سداد ما عليهم ، فيحبسونهم فى «الأرقخانه» ويعذبونهم بتعليقهم من أيديهم بالبكْرة بديوان الغورى ، حتى تتقطر الدماء من جسومهم هكذا تحصل الأموال السلطانية هذه وتسمى بالخزانة الكبرى . إنها لمصيبة عجيبة ، وسنذكر أنها تتكون من الدماء ، وتحصّل بالدماء .

فى بيان
قرى مصر وكيس خزانتها وعددها ودرهمها ودانقها وأقتها وثقل حبة قمحها وشعيرها ، ووزن مثقالها

تتألف الإيالة المصرية من سبعمائة وستين مدينة ، وثلاثة آلاف بُلَيْدة ، وستين قلعة وقد كتبنا سابقًا أن الإيالة المصرية تنقسم إلى أربعة وعشرين قضاء ، وإيالة الصعيد ستة وثلاثون قضاء . فقد ورد فى سجل الغزالى أنه تحصل من الكشوفيات والأوقاف والأمناء والملتزمين وأوقاف السلاطين وأوقاف الحرمين ، والأعيان وغيرها من البليدات أربعة وعشرون خزانة مصرية فى كل عام . اثنتا عشرة منها أموال سلطانية ، وسنكتب عن كل منها فى محلها مفصلاً إن شاء الله .

أما سبب صياح الناس بديوان القاهرة واستانبول من أجل هذه الخزانة الكبرى بأنها المال السلطانى ، فناشئ من كونها خزانة يجب بلوغها إلى استانبول ، بأى وجه كان ، للإنفاق منها على ما يقضى الإنفاق فى شهر رمضان المبارك . وهى خزانة سنوية مؤلفة من ألف ومائتى كيس مصرى . وكل كيس يحتوى على ثمانمائة وستة وأربعين قرشًا ، وكل قرش ثلاثون پارة ، فيكون فى كل كيس ثمانية وعشرون ألف پارة ، وكل پارة دانق . والدانق عشر حبات شعير ، وكل أربعة دوانق درهم ، والدرهم وزن أربعين حبة شعير سمينة . والمثقال وزن مائة حبة حنطة . فالكيس المصرى يزن على هذا الحساب (. . . . . . .) أقة .

يفرش الديوان المصرى بجلد «التلاتين[1]» فيحضر ثلاثمائة صراف لنقدها ، ويقوم الوزانون بوزنها وعدها ، ثم يختمها الباشا الدفتردار بختم الديوان فى حضور وزير مصر ،

---

(١) تلاتين من الكلمة الروسية telatina ، جلد روسى معطّر ويعرف أيضا باسم بولغار لأنه فى الأصل من صنع بلغار صحراء القپچاق .

ويسلمها إلى «الخَزَنة» الذين يضعونها فى صناديق مصنوعة من خشب الصنوبر أعدت لها فى ديوان الغورى . يودعون كل صندوق ثلاثة أكياس ، ثم يسمرونه بالمسامير ، ويكسون الصندوق باللبود كما كسى داخله بها ، ثم يلفونه بجلد بقر مبلول ، ويربطونه بالحبال الأفرنجية ، ثم يغطون الصناديق ببسط قِرمزية .

تحضر الخزانة بهذا النظام ثم يُدعى أحد البكوات من الأغنياء المعروفين بالتدين والصلاح فيُبَلَّغ بأنه عُين لتوصيل الخزانة إلى السلطان ، فينبغى أن يعد عدة السفر . ثم يكلف أحد من الانكشارية وشيخ متدين من كل بلوك من البلوكات السبعة وچاويش أو حامل علم من كل بلوك أيضًا . يَبْلغُ المكلفون بمرافقة الخزينة اثنين وسبعين رجلاً تخلع عليهم الخلع السلطانية الفاخرة ويستعدون للسفر . حتى إذا كانت غرة رجب المرجب أقيم سِماط ديوانى عظيم ودُعِى إليه رجال الديوان والعلماء والصلحاء وقاضى العسكر ونائب الديوان وشاهدان وكاتبا السجل ، فأحصى مدير مكتب الباشا الصناديق المكومة فى الديوان فى حضور الباشا والعلماء والصلحاء وأمير الخزانة ثم يسلمها إليه وإلى رؤساء البلوكات السبعة . وعندئذ يخاطب الوزير أمير الخزانة قائلاً «أيها البك ، هل تسلمت منى ألفاً ومائتى كيس من الأموال السلطانية تامة غير منقوصة وقبضتها؟» فيقول الأمير «نعم أخذتها وقبضتها ، وهى فى قبضتى الآن وتحت تصرفى» ؛ فيقول الباشا «اشهدوا» ! يُسجَّل ذلك فى سجلّ الشرع المبين ، فيدعو «دَعَّاء الديوان» وتُقرأ الفاتحة وتُحمل الصناديق بعد ذلك من ديوان الغورى إلى ميدان السراى الذى يُعَد فيه مائتا بغل من بغال الباشا المسلحة والمزينة بأجراس وجلاجل مختلفة يحيط بها الانكشاريون ذوو اللبود من جهة ، والعزب من جهة أخرى ، ويقود كل بغلة «انكشارى ذو أسكفة» ويحملون كل بغلة صندوقين منها ، أى أن كل بغلة تحمل ستة أكياس مصرية .

فى بيان الخزانة المصرية

يأخذ الموكب فى السير تتقدمه ألايات الباشا التى كتبنا عنها . ويسير بعدها سبعمائة جندى من جنود البلوكات المكلفين بالحضور لتشييع الخزانة ، ويقومون بالعرض بميدان السراى فى حضور الباشا الوزير ، وقد رفعوا أعلامهم ، ويدق كل قائد كوسه . يقف فيهم أمير الخزانة بعمامته المنتشرة ، وخلعته السمورية ، مدججًا بالسلاح ، ويقف خلفه رفقاؤه المزينون بالمقصَّبات والمزركشات ، قارعين طبولهم وكُوسَاتهم

ورافعين توغاتهم[١] (أعلام مصنوعة من الشعر) ويحيون جميعًا الوزير الذى يأمر قائلاً «سر ، سهل الله لك السفر» فينزل الموكب من القلعة ، وينضم إليه هناك رجال من أصحاب الوظائف الذين يبلغ عددهم ألفًا حسب القانون المصرى ـ ينضمون أصنافًا وطوائف ، فيجتازون القاهرة رويداً رويدا فى بحر من الناس متلاطم بجانبى الشارع ، يدعو رجالهم «بالسلامة إن شاء الله» ونساؤهم يزغردن ، فيتلاقى العشاق بالعشاق «مزغردين»! على حين تسير عساكر المسلمين بطيئة كسير الطاووس متحدثين متندرين حتى يبلغوا العادلية التى تستقر فيها كل فرقة فى مكانها فتكوم الخزينة[٢] فى سرادق الأمير ثم يحضر المقيِّد والعدادون وشيوخ البلوكات السبعة فيعدونها ثم ينظمونها فى سلسلة يمررونها من حلقة موضوعة على كل صندوق ، ثم يجمعون طرفى السلسلة ، فيربطونهما بقفل ، ويغطون الصناديق ببسط ويحرسونها محيطين بها من كل جوانبها . وعندئذ يتفرق الجنود ، ولا يبقى منهم إلا المكلفون عملاً . تُستَر الصناديق ببسط حمراء . ولعل كلمة «الله يسترك» المستعملة عند المصريين باقية من ذلك! .

تمكث الخزينة ثلاثة أيام ولياليها بالعادلية تحت الحراسة . وتقام خلال ذلك أفراح ومأدب عظيمة فى ظل العزف والمغنى . وما إن تبلغ الخزينة إلى العادلية حتى ترسل الأوامر إلى بك «سبيل علام» وكاشف قليوب ورئيس شرطة المدينة بإحاطة عساكر الخزينة بجنودهم من جهاتها الأربع وتنويرها بمئات المشاعل والقناديل . وحينما يكلف رئيس الشرطة بحراسة الخزينة بالعادلية ، يصير جنود «الدويدار» غير كافين لحراسة القاهرة . فلذا يربط أغا الانكشارية بألف أو ألفين من الانكشاريين المسلحين تحت الغورية فى كل ليلة منعمين بالشراب والسماع حتى الصباح ، ومتجولين فى شوارع المدينة تلة تلة ، وهو من واجبات الانكشارية . ثم إن الأنفار المكلفين بحراسة الخزينة يقبضون مخصص شهر مقدمًا . وفى يوم قيام أمير الخزينة للسفر يصدر الأمر إلى كاشف القليوبية بإيصال الخزانة إلى كاشف الشرقية محروسة بجنوده ، وفى اليوم نفسه يقام حفل عظيم يوصل به أغوات المعسكرات رؤساءهم المعينين لمرافقة الخزانة إلى العادلية .

(١) سبق لنا أن عرفنا هذا المصطلح . (د . متولى) .

(٢) الخزينة : المال المخزون . والخزانة ما يُخزن فيه . (د . عزام) .

-٨-

الحفل العاشر : احتفال المعسكرات بالخزينة

لا يبقى فى اليوم الثالث لا جنود الباشا ولا غيرهم من الجنود بالعادلية ، فالحفلة لشيوخ المعسكر وعظمائه وحدهم ، وهى مزينة وفخمة . المعينون منهم للسفر مدججون بالسلاح ، وأما غير المعينين فلا يحملون إلا سيفًا ، ويسيرون بجَلَبة وصخَب ، قارعين طبولهم وكوساتهم حتى العادلية ، ثم يعودون منها بعد المصافحة والتوديع ، ولا يبقى فيها غير المسافرين . وعندئذ يأمر أمير الخزينة بالنفخ فى النفير ، حتى إذا نفخ للمرة الثالثة دق كوس الرحلة ، فقامت القافلة يحرسها كاشف القليوبية بثلاثة آلاف جندى من جنوده حتى الخانكة ومنها إلى كاشف الشرقية ببُلبيس . ويعود إلى الباشا حاملاً حجة شرعية منه ، بأنه أوصل إليه الخزينة وسلمها سالمة كاملة . ثم يأتى كاشف الشرقية حاملاً حجة شرعية بإيصالها إلى باشا غزة ، فيطمئن الوزير ، ويصبح مستريح البال ، حامدًا شاكرًا ، لأنه سلم الخزينة إلى أميرها سالمة تامة ثم أوصلها إلى حدود الشام ، حتى دخلت فى أرضها ، فيعنى بتصريف سائر شئون البلاد .

وينبغى أن يكون معلومًا :

أن جميع مصاريف هذه الخزينة البالغ قدرها ألف ومائتى كيس مصرى ، وطعام الجنود المكلفين بحراستها وشرابهم والخلع والإحسانات ومصاريف بغال الأجرة وما تغطى بها من البسط وخيم الجنود وأخبيتهم ، وأثمان الصناديق والخدم القائمين بخدمة الجنود وترقيتهم جميعًا إذا عادوا سالمين ، وترقية أغوات البلوكات السبعة ، وثلاثة من الأوداباشية وحاملى علم الجاويشية وطبرهم ، وهم جميعًا ثمانمائة رجل كل واحد منهم «پارة» علاوة الترقية ويعطى سبعون رجلاً من لابسى الخلع «پارتين» ، فيبلغ مجموع علاوة الترقية ألف پارة يوميًا ؛ فالخزانة المصرية تبلغ على هذا الحساب ألفى كيس كامل . وهو مبلغ كبير يثقل كاهل الباشا ويخل بميزانيته . لأن جميع تلك المصاريف والترقيات من «عوائده وفوائده» . وإن حاول التفتيش والبحث عن الموجودين فعلاً من المستحقين للترقية أقيمت عليه القيامة . ينتهى الأمر أخيرًا إلى مصالحة رجال البلوكات السبعة على خمسة وعشرين قرشًا عن كل پارة وتسلمهم المبلغ إن لم يكن هناك محلولات (كالأوقاف المحلولة وميراث من يموت من غير وارث وغيرها) وقد حدث أن بحثوا مرة عن مستحقى

الترقية فظهر أن عددهم ثلاثمائة رجل فقط ، فحضر الأمراء إلى إبراهيم باشا ، ورقى منهم ثلاثمائة رجل دون أن ينطق أحد منهم ببنت شفة . إن هذا الأمر صداع عظيم . ولكنه قانون السلطان سليم . وسيظل كذلك إلى ما شاء الله .

-٩-

فى بيان ما يُرسل من أموال الباشا مصاريف جيب للسلطان

ما إن تبلغ رسائل التبشير من أمير الخزانة ورؤساء فرقة الانكشارية بوصول الخزانة إلى الشام سالمة ، ويبتهج الباشا ، حتى يُشرَع فى غرة شعبان فى تحضير خزانة أخرى تُدعَى «مصاريف الجيب» . ولا يُعيَّن فيها أحد من بكوات مصر ، وإنما يعين الباشا أحد أغواته المعروفين بالورع والوقار ، وأحد البكوات من ذوى العز والقوة والجاه قائدًا لها . فيكلف ثلاثمائة نفر من التتر والأدلاء الفرسان والمتطوعين والمتفرقة وغيرهم من شجعان رجال الباشا ، وثلاثمائة من البلوكات السبعة المصرية القادرين على الإنفاق على أنفسهم وخيولهم وأسلحتهم ويَمنَحُ الباشا كلا منهم ترقية مقدارها «پارة» فى كل يوم . وينبغى على هؤلاء أن يسرعوا فى السير ، ليسبقوا الخزانة الكبرى إلى باب الدولة بخمسة عشر يومًا أو عشرين يومًا ، لأن هذه الخزانة مصاريف جيب للسلطان فى العيد ، فقد ضربت سكتها بالضربخانة خاصة على أن تزن كل قطعة منها درهمًا . وهى سكة من الفضة الخالصة بوسطها حلقة . ثم إنها ليست داخلة فى حساب الخزانة بل من جيب الباشا الخاصّ . ويبلغ مجموعها (. . . .) كيسًا مصريًا ؟! .

ويُضاف إلى هذه الخزانة ما قيمته ثلاثمائة كيس هدايا من أقمشة الهند والسند والعجم واليمن والحبش ، ومائة وسبعون صرة من الأمتعة ، توزع كما يأتى : عشر صرر للسلطانة الوالدة ، وخمس صرر لكل واحد من خواص خدم السلطان ، وخمس صُرر لكل من الأمراء وخمس صرر لكل من سائر نساء السلطان وكتخدا الوالدة ، وثلاث صرر لمدير إدارة البنات (قيزلر أغاسى) وخمس صرر لرؤساء الحُجَّاب ، وصرتان لمدير الخزانة ، وصرتان لكبير خدم الحجرة ، (أوداباشى) وصرتان لكل من السلحدار والچوقَدار والركابدار وأغا السراى القديم وكتخدا فرقة المهندسين وقهوة جى باشى وهم كلهم من أتباع السراى .

وأما من كانوا خارج السراى فعشر صرر وعشرة آلاف ذهب للوزير الأعظم ، وخمس صرر وثلاثة آلاف ذهب لمدير مكتبه وخمس صُرَر وألف ذهب لوزير الخارجية (رئيس

الكتاب) وصرة وثلاثمائة ذهب لكل من كتّاب محاضر الجلسات ، وصرة وثلاثمائة ذهب لكل من الكاتب والروزنامه جى أفندى . وصرة لكل من كتخدا حُجّاب الصدر الأعظم ومدير خزانته وبلوكباشى الحجّاب وچاويشباشى . وصرة لكل من الدفتردار وشيخ الإسلام وقاضى العسكر وقاضى استانبول . ولكن شيخ الإسلام والباشا الدفتردار يُعطَى كل واحد منهما خمس صرر وألف ذهب مرة أخرى . ولكل من وزراء القبة السبعة صُرة . وخلاصة القول أن كتخدا الحجّاب يوزع تلك الصرر المائة والسبعين ، ثم يرسل دفترا إلى وزير مصر بأنها لم تستوعب الحاجة فاضطر إلى شراء مائة صرة أخرى . إن وزير مصر يرسل عدا الصرر المذكورة اثنى عشر ألف ذهب عيدية للصدر الأعظم وعشرة آلاف ذهب عيديات لسائر الناس . إنه لعناء وبلاء عظيمين لوزراء مصر . وقد أرسل إبراهيم باشا خزانة الجيب هذه ، وكلّف بها أحد أغواته العظام مع عشرين جنديًا من غلمانه ذوى الجمال يقود كل منهم خمسة جياد أصيلة إلى عظمة السلطان ، ومائة فرس إلى أعيان الدولة .

ومن عجب أن الصرر المرسلة هدايا قد وصلت إلى استانبول ووزعت على مستحقيها . وما أن انتهى هذا الأمر حتى أعطى إبراهيم باشا الكتخدا حاجبًا معظمًا من رؤساء حجابه ثمانين ألف كيلة استانبولية أرزا ومائة ألف كيلة عدسًا ومائة كيلة حمصًا وفولاً وستمائة مقطف بُنًّا ومائة قنطار سكر وألف قارورة مشروبات معنبرة ، من أنواع مختلفة ، وخمسمائة زوج من الحرير المنقوش الملون ومائة رأس من الطواشى المحبوبين وسائر التحف والهدايا ، لأعيان الدولة ، ومائة رأس غنم ، وتسعة من بقر الوحش ، ومائة قفص من الببغاوات وستة أقفاص من ببغاوات ميناو ، ونعامًا ، وشحن السفن الصالحة التى كانت بالإسكندرية ورشيد وبعثها إلى عاصمة الدولة . ثم سلم الباشا هذا القدر الهائل من المال إلى رئيس الخزانة الذى خرج إلى العادلية فى موكب عظيم مؤلف من رجال الباشا المسلحين والمزيّنين كما فى الحفلات السابقة . وفى خلال الإقامة بالعادلية تكوّم الخزانة فى خيمة الأغا ، وفيها يسلّم مدير مكتب الباشا أربعة أكياس مصرية إلى أغا الخزانة وأربعة آلاف پارة لكل من رجال الباشا . وتظل الخزينة محاطة بعساكر من المصريين ورجال الباشا . وإذ أن المكان تابع لبك «سبيل علام» وكاشف القليوبية فإنه يحرس الخزانة ثلاث ليال بمائتى فارس . ثم يصافح مدير مكتب الباشا أغا الخزانة ويعود إلى القاهرة وتنتقل الخزانة إلى الخانكة ، ومنها إلى بُلْبَيْس ، وتسلّم إلى

كاشف الشرقية الذى يوصلها بعد عشرة أيام إلى باشا غزة ، والباشا يوصلها إلى الشام ، ومنها إلى حماه ، وهكذا تقطع المنازل وتطوى المراحل ، حتى تصل إلى الدفتردار باستانبول قبل العيد الشريف ، فتعرض على السلطان وتسلم إلى الخزانة السلطانية ، ثم يسلمها «مدير إدارة الحجاب» إلى أصحابها بموجب أسمائهم المسجلة .

وفى منتصف رمضان يصل المبشرون من قبل «عبد مصر» فيظفرون بالخلع الفاخرة والترقيات حتى إذا كان اليوم الخامس والعشرون من رمضان سلم البك المصرى الخزانة باحتفال عظيم ، وتشرف جميع المرافقين له فى نقلها بالخلع الفاخرة ، وأقاموا بقصر أحد الوزراء . تحصى الخزانة وتنقد ، فيظهر فيها حتمًا نقص يتراوح بين خمسة وعشرة أكياس يغرمها مدير إدارة الحجّاب .

وبعد انتهاء ذلك يعطى الجنود المخصصات لمواجهة نفقات العيد . ثم يفتش الجنود الذين قدموا مع الأمير المصرى ويحصون ويرسل الكشف بأسمائهم وعددهم إلى وزير مصر ، يبين فيه من يستحقون الترقية ومن لا يستحقونها . ثم يرسل أحد رؤساء الحجاب إلى وزير مصر لإبلاغه بوصول الخزينة الكبرى وخزينة مصاريف الجيب ، ويحمل إليه سيفًا وقباء ، ويقدم الباشا إلى ذلك الرسول هدية قدرها عشرة أكياس أو خمسة عشر كيسًا .

-١٠-

العيد الثانى عشر : قدوم الخلعة والسيف

هذا الاحتفال شبيه بالاحتفال بقدوم «المقرَّر» ولا يختلف عنه فى شىء . فهو يتألف من رجال الباشا وحدهم وليس للجيش المصرى مشاركة فيه . يخرج جيش الباشا إلى العادلية قبل وصول الرسول بيوم ، ويخرج معه المطبخ ، ويتناولون فيها الطعام . ثم يعود مدير مكتب الباشا مع رسول استانبول فيدخلان القاهرة من باب النصر بموكب عظيم ، ويجتازان القاهرة من بين آلاف المحتشدين بجانبى الشارع لمشاهدتهم ، ويذهبان إلى السراى بالقلعة ، فيتلى الأمر السلطانى فى الديوان ، وفيه قوله «كن سعيدًا ، فإن الخزانة وصلت سليمة كاملة ، وتسلمناها وأرسلنا إليك خلعة فاخرة وسيفًا . فعليك بالعناية بشئون الرعايا والبرايا وأمور مكة والمدينة» . ثم يرتدى الباشا الخلعة الفاخرة

ويعلق الحسام بوسطه مطمئنًا مستريحًا والسلام . ذلك هو الاحتفال بخزانة مصاريف الجيب والاحتفال بقدوم الخلعة السلطانية والحسام ، وهما خلعتان عظيمتان .

-١١-

الاحتفال بسفر الصرة المحمدية من القاهرة إلى الشام

لم تكن هذه الخزانة موجودة فى قانون السلطان سليم خان . وإنما صدر الأمر السلطانى (فرمان) بذلك فى عام ١٠٨٢هـ برأى الكتخدا إبراهيم باشا وتدبيره . ولما كان السفر من استانبول إلى المدينة مع أمين الصرة أمرًا عسيرًا تقرر تسليم الصرة إلى أمينها فى موضع على مسيرة عشرين منزلاً بين مصر والشام ، واستُحسِن سفر «المتعين» لإيصال الصرة إلى أمينها و[سفر] أمين الصرة وباشا الشام (. . . .) بخفة إلى استانبول . ففى الخامس عشر من شهر رمضان المبارك(. . . .)خلعت على الأغا المدير (. . . .) الشام خلعة فاخرة على أن يكون «سردارا» ومنح ألف پارة كل من أغوات الباشا الثلاثمائة الشجعان الأبطال الذين يؤلفون عشرة طوابير (أون بايراق) وألف پارة لكل من مائة بطل من المصريين المدججين بالسلاح . ولكن ليست لهم ترقية ميرية لأن هذا السفر خدمة سخرة يكلفونها من قبل فرقتهم . يُمنح أغا الباشا كيسًا مصريًا مصروف الطريق . ثم يسلِّم الباشا بيده اثنتين وستين ألف سكة ذهبية ممسَّكة يخيل إليك أنها مسك وزعفران . وكل سكة تزن مثقالاً من الذهب البندقى . والمثقال يزن مائة حبة حنطة . فقد قُطِعت على أن تزن كل مائة قطعة منها مائة وستة عشر درهمًا كامل العيار تام الميزان . إن وجد فى قطعة منها نقص مقدار حبة قمح وعَرَض شريف مكة وشيخا حرم مكة والمدينة بأن صُرَّتهم جاءت ناقصة فى هذا العام ، فإن هذا يحدث اضطرابًا فى حالة وزير مصر ، ويضرّ به . فلذا تحضّر هذه الخزانة من الذهب الخالص النظيف الطاهر .

تحمل هذه الخزانة على بغال الباشا من ميدان السراى ، ثم يمر رجال الباشا والمعينون لمرافقتها من المصريين أمام الباشا الوزير دون أن ترافقهم الفرقة الموسيقية – عدا كوس أغا الباشا وسردار الخزينة دار – ويجتازون القاهرة شاقين طريقهم فى بحر متلاطم من المتفرجين ويقفون فى العادلية . وهناك يتسلمها كاشف القليوبية فيوصلها إلى كاشف الشرقية الذى يوصلها بدوره إلى الشام . وفيها تسلم إلى أمين الصُّرة ، ثم يعود الركب إلى القاهرة بعد خمسين يومًا .

-١٢-

العيد الرابع[١] : الاحتفال بكسوة الكعبة

سبق ذكر الكسوة الشريفة مرات ، ولكنها هى أيضًا خزانة سلطانية . فلذا نذكرها هنا . وهى ليست من مبرات آل عثمان ، بل أوقاف ملكة من دولة الأكراد تُدعى شجرة الدر ، فقد قُدِّر لها ما لم يقدَّر لأحد من الملوك . ولا تزال لها عشر قرى عامرة معمورة على مسافة قريبة من القاهرة تغل مائة وسبعين كيسًا فى كل عام ، يشترى بها ناظر الكسوة سبعين قنطاراً من الحرير ومائة قنطار فضة خالصة .

يشرع الأساتذة فى العمل فى شهر المولد . حتى إذا كان شهر رجب أحضر ناظر الكسوة بضع قِطع منها إلى الباشا فيخلع عليه وعلى الأساتذة إذا كانت القطع المحضرة جيدة ، ويعزرهم ويعاقبهم إذا لم تكن طبق المطلوب . وفى غرة شوال تأتى البشارة إلى الباشا بانتهاء العمل فى الكسوة الشريفة فيصدر أوامره إلى المختصين بالاستعداد للاحتفال بها . ولا يشترك فى هذه الحفلة من الطوائف العسكرية سوى عدد قليل كأمثال كتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان وناظر الكسوة الشريفة وأمينها ، وجميع من عداهم ، من فقراء المائة والسبعين طريقة من الطرق الصوفية .

وقبل الاحتفال بيوم تُنقَل الكسوة وستار الباب ومقام إبراهيم إلى الباشا الوالى الذى يزينها ويقدر قصبها وحريرها ويحاسب ناظر الكسوة ، فيخلع عليه إن كانت مقبولة ، وإن ظهر نقص فى قصبها فلا مندوحة للناظر عن الرشوة «البرطلة» ببضعة أكياس! فى صباح اليوم التالى تخرج الكسوة من قصر يوسف الذى صنعت فيه فتنتقل إلى خارج باب الوزير . وأما ستار الباب فيشدونه على إطار فى حجم إطار باب مكة المكرمة ، قد بنى على «زحافة» من الخشب يجرها قوم من المغاربة . وإذ أن هذا الستار أعلى من باب القلعة فإنه يُبسَط خارجه[٢] . وأما كسوة مقام إبراهيم ، فممدودة على إطار مربع من الخشب . يدون كل ذلك ثم ترسل الإشارة إلى المشايخ فيشرع الموكب فى السير من باب الوزير إلى المشهد الحسينى .

---

(١) أعداد الأعياد غير دقيقة فالعيد السابق رقمه ١٢ . (د . متولى) .

(٢) وتوضع كسوة الكعبة السوداء على عشرين صاريًا ، وعلى عشرين صاريًا أخرى توضع الحبال البيضاء والحمراء التى تستخدم لربط الكسوة فوق الكعبة الشريفة ، وتوضع أحزمة الكعبة الثمانية على ثمانية توابيت طول كلّ منها عشرون ذراعًا . (د . السعيد) .

تسير أولا حبال الكعبة الشريفة صارياً فصاريا ، ثم كسوة البيت الشريف السوداء موضوعة على طبلات[1] . وقد يحدث أن يحسن بعض الناس إلى المغاربة حاملى الكسوة وأن يمسحوا بها وجوههم تبركًا ومحبة . وكل طبلة يحملها مغربى على رأسه ، فميدان المخبة يومئذ للمغاربة الذين يسيرون ذاكرين «لا إله إلا الله» لأن الكسوة الشريفة تموج بكلمة «لا إله إلا الله» والكسوة من الحرير الأسود فلذلك السبب سميت الكعبة ببيت الله ذات الكسوة السوداء . وتمر بعد الكسوة أحزمة الكسوة الدائرية الموضوعة على طبلات طويلة من الأقفاص فى طول عشرين ذراعًا . وهى أحزمة مقصبة تكل عين الناظر إليها ، فقد نقشت على حافاتها المقصبة الآية الكريمة «فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» ، وأرضيتها مقصّبة كلها وليس بها نقش بلون آخر . وعرض كل حزام ذراعان فى طول عشرين ذراعًا . والمغاربة هم الذين يحملون الأحزمة الثمانية أيضًا . ويحيط بها الجنود كى لا يمسها أحد بسوء .

يزين موكب الكسوة على ما ذكرنا من النظام ، ثم تحمل إلى حضرة الباشا بقراميدان فيشاهدها ويمسح بها وجهه فتُتلى الدعوات ، ثم يمر الموكب أمامه بكامل هيئته . ويمر بعد ذلك مشايخ المائة والسبعين طريقة من الطرق الصوفية وآلاف من أتباعهم . يسير أولئك العشاق موحدين توحيدًا سلطانيًا وذاكرين الله على نغمات (الصَرفSarâf) والدف والقدوم والنفير والصنج والبَم Bem والنقارة والطبل والكوس ، ثملين مشدوهين . ويمر ذوو الألحان الحزينة والأصوات الحلوة الشجية ذاكرين شاكرين متغنين بموالىّ . ويستمر مرور أولئك الموحدين الحاملين عشرة آلاف علم أربع ساعات كاملة . تتبعهم كسوة مقام إبراهيم وهى أيضًا مقصبة ملونة مربعة الشكل ، ويمر بعد ذلك أربعون أستاذًا من الفنانين الذين نسجوا الكسوة يسيرون مثنى جنبًا إلى جنب [فى الخلع التى خلعها عليهم الباشا] يتبعهم كل من بالقاهرة من صناع الأطلس والحرير وبائعيه . وقد يحدث أن يُجرح عدد كبير من المتفرجين الذين يتزاحمون على جانبى الشارع ليقبلوا الكسوة وستار مقام إبراهيم . وقد يدلى بعضهم شاش عمامته من فوق سطح أو نافذة عسى أن يلمس طرفه الكسوة فيسحبه منه أحد الشياطين فى الشارع ، فيبقى صاحبه حيران . حتى إذا تم مرور الأساتذة جاء دور جنود أمير الحج فى المرور وهم أيضًا يسيرون مثنى مثنى ركابًا إلى ركاب مسلحين مزينين . يمر بعد ذلك ستار الباب الشريف مرفوعًا على زحافة يجرها

(١) طبله = صارى . (د . السعيد)

المغاربة ذاكرين موحدين ، وهو ستار عجيب مزركش يبلغ طوله عشرة أذرع كتب عليه بالقصب ألفاظ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ويمر بعد ذلك المحمل الشريف محمولاً على جمل ظريف محبوب محلى بالحناء . وقد جدد حسين باشا بن جانبلاط كسوة المحمل حين كان عزيز مصر فجعلها نورًا إلهيًا يقصر اللسان عن وصفها . ومر المحمل مع هذا الموكب فى هذه السنة أيضًا ، وهو يمر عادة مع موكب أمير الحج ، وبجانب المحمل ألوف من رجال المشاعل والعكامين يسيرون ناقرين الدفوف والقدوم صائحين «الله ينصر السلطان ، وإن شاء الله بالسلامة» .

ويمر بعد ذلك رؤساء الحرف ثم ناظر الكسوة ومدير مكتب أمير الحج (كتخداه) وأمين الكسوة فى خلعهم التى خلعت عليهم بقرا ميدان ، راكبين وخلفهم أغواتهم الكبار مسلحين مزينين ، وتعقبهم فرقة موسيقى الباشا أمير الحج تتقدم ضاربة كوسها . يسير الموكب شاقًا طريقه فى بحر متلاطم من المتفرجين المتزاحمين حتى يبلغ بالكسوة المشهد الحسينى فتودع فيه ، وتظل فيه سبع ليال يحييها العلماء ، تركّب لها البطانة والكلف فى خلالها وذلك لأن المشهد الحسينى يكاد حجمه لا يختلف عن حجم الكعبة الشريفة .

كان تبابعة اليمن يسترون الكعبة بالحصر اليمنية المنقوشة . وتُبّع لقب ملوك اليمن ويجمع على تبابعة . ثم كساها الخليفة العباسى هارون الرشيد بالحرير الألاجه[١] ، ثم جاء الخليفة المأمون فكساها بالديباج الأحمر . ولما ملك الأكراد مكة المكرمة كستها الملكة شجرة الدر زوجة الملك أيبك التركمانى المقتول بالحرير الأسود . فالكسوة السوداء من خيراتها وقُراها[٢] (مسلّمات[٣] معافة) ومن كان ناظر الكسوة ففى التزامه مائتا كيس ، وهى قرى عامرة جدًا . ولما فتح السلطان سليم خان مصر أضاف إليها خيرات أخرى ، فالحزام المقصب وستار الباب من خيرات السلطان سليمان خان ، والميزاب الذهبى من خيرات السلطان أحمد ، وتجديد مقام إبراهيم السنوى وقف السلطان إبراهيم خان . وقد زاد أيضًا قليلاً من الخزانة من الأموال السلطانية «رحمة الله عليهم أجمعين» . والحق أنها لخيرات جديرة بالملوك . وأما هذا الاحتفال فلم يُقدَّر لأحد من عظماء الملوك وهو احتفال تجب مشاهدته «وقد يسر الله لنا مشاهدته مرتين» .

---

(١) آلاجه كلمة تركية معناها : ملون أو منقوش . (د . متولى) .

(٢) أى القرى التى وقفتها شجرة الدر على كسوة الكعبة . (د . السعيد) .

(٣) أى معفاة من الضرائب . (د . السعيد) .

-١٣-

الحفل الخامس عشر

حفلة أمير الحج وخزانة مكة والمدينة والحجاج الفقراء

وحفلة أمير الحج من الأعياد المصرية الفخمة . وتقام هذه الحفلة فى اليوم الثالث والعشرين من شوال ، ويستعد لها أهل القاهرة باتخاذ حوانيت بعشرة قروش وبخمسة عشر قرشًا قبلها بعدة أيام ، يقيمون بها هم وعيالهم وطعامهم وشرابهم ، ويسكن بعضهم فى الشارع العام . وتبدأ هذه الحفلة منذ الصباح ، ولا تنتهى إلا بعد العصر . ولهذا السبب يتخذ الناس الدكاكين فيستقرون فيها مع أهاليهم وطعامهم وشرابهم . وقد توارثوا هذه العادة من عهد السلطان الظاهر بيبرس . ولم يكن المحمل يخرج قبل ذلك بمثل هذا الاحتفال فأحدثه السلطان الظاهر «رحمة الله عليه» . فكان أول من يبدأ السير مدير مكتب أمير الحج مع المشايخ العظام والعلماء الكرام وعساكر أمير الحج بعد عصر يوم الاحتفال .

قدوم موكب المحمل الشريف إلى قراميدان

يخرج المحمل من مكانه مزينا ومحلى محاطًا بالجنود وبآلاف الفقراء حاملى الأعلام والدفوف ثم ينضم إليه الحجاج الذين يسافرون مع أمير الحج مع أحمالهم الكثيرة وجمال «الصحابة» الذاهبة إلى الحجاز أى جمال السبيل التى تحمل آلاف القرب من الماء الطهور ، وجمال الأثقال كما يحضر مدير مكتب أمير الحج مع عساكر وفقراء المشايخ بموكب عظيم قارعين الكوس إلى قراميدان[1] ، فينزل المحمل إلى مصطبة سبيل الظاهر بيبرس . وينصب مدير مكتب الباشا سرادقه بجانبه . كما ينصب سائر جنود أمير الحج ومشايخ القاهرة خيامهم وأخبيتهم ويربطون جمالهم «طوالة بعد طوالة» . وبعد مايتم ذلك يرسل النبأ إلى الباشا بحضور المحمل إلى قراميدان ، وتنصب مظلة الباشا فى مصطبة الأمير آخور . ويكون الأمر فى قراميدان لمدير مكتب أمير الحج وناظر الكسوة فى هذه الليلة . حتى إذا أذن المغرب وأديت الصلاة تلألأت الأنوار من المصابيح والقناديل والفوانيس التى فى الخيم فانقلب الميدان الأسود[2] إلى ميدان أبيض ، ميدان النور . فقد

---

(١) ، (٢) قراميدان : كلمة تركية عربية تعنى : الميدان الأسود وهو موجود بالقاهرة القديمة ، أما آق ميدان أى الميدان الأبيض فلا أعلم له مكانا . (د . متولى) .

حضر آلاف من فقراء المدينة وأحاطوا بالمحمل من جهاته الأربع وأحيوا الليلة بالتوحيد والذكر حتى الفجر . ويكرمهم الباشا بتقديم عشرة أسمطة لأنهم ضيوف عليه فى تلك الليلة فلابد من رعايته لهم . ويرسل الباشا رئيس خدمه بنصف أقة عود لتبخير الدراويش بإحراقه فى المجامر ، كما ينثر عليهم ماء الورد والأزهار . ويحيى الليلة بتلاوة قصة المولد النبوى الشريف حتى الفجر . وكم من أماكن يختتم فيها القرآن الكريم ويذكر التوحيد . وإذا كان الصباح دق مدير مكتب أمير الحج وناظر الكسوة كوسيهما إيذانًا بطى الخيم والأخبية ، فطويت ووضعت الأحمال على الجمال التى أعدت للرحيل . وقد حضر أرباب الديوان وأمراء الچراكسة وحاملو رتبة «ميرميران» وسائر الأمراء منذ وقت السحر واتخذوا أماكنهم فى سرادق الباشا المزين .

يكتظ القراميدان بالمعينين للسفر إلى الحجاز من الچورباجية (چورباجى ضابط من رتبة اليوزباشى) والرؤساء «سردار» والچاويشية وحملة الأعلام وحملة الطبر وحملة السيوف ، والأعيان والسقائين والهجانين الحجازيين الذين يقودون جمالاً عظيمة مسلحة مزينة بالأعدال المزركشة . يحفل الميدان ببنى آدم والدواب ، تنقل الجمال من موضع إلى موضع ، وقد زين كل جمل بعدد كبير من الأعلام الصغيرة والكبيرة ذات ألوان مختلفة ، ووضعت عليها محفات وهوادج وصناديق منقوشة . وترتفع من هنا وهناك أصوات الطبل والنقارة والنفير والقدوم ، فكأن القراميدان[١] خلع لباس الحزن الأسود وتزين بلباس الفرح والسرور . ويحضر قاضى العسكر مع عشرين من نوابه وجميع هيئته بقاووقاتهم[٢] ، ويتخذون مكانهم فى صدر سرادق الباشا منتظرين قدوم أمير الحج ، ثم يحضر الشيخ برهان الدين مع بضعة آلاف من المشاة حاملين لواء رسول الله فيتخذ مكانه بجانب قاضى العسكر ، ثم يحضر المشايخ وأئمة المساجد والخطباء والبكريون والسادات جماعات جماعات فينزلون على سرادق الباشا ويتخذون أماكنهم فى صف قاضى العسكر ويحضر بعد ذلك جنود البلوكات السبعة الذين يملأون الميدان .

الاحتفال بالباشا أمير الحج

هو من أمراء مصر إلا أنه من رتبة «ميرميران» ذات التوغين[٣] [رتبة الباشوية] . ويسميه أعراب الصحراء «سلطان البر» . يمنح ستاً وثلاثين كيسًا من قبل السلطان

(١) قراميدان = الميدان الأسود . فلهذا قال المؤلف خلع لباس الحزن الأسود . (د . عزام) .
(٢) قلانسهم ، وقد سبق لنا شرحها . (د . متولى) .
(٣) التوغ سبق لى شرحه . (د . متولى)

للإنفاق على حاجاته . وهناك قرى عامرة خاصة بأمراء الحج تغل أربعين كيسًا . وله مخصصات من ديوان مصر مقدارها اثنا عشر كيسًا فى كل عام . والحق أن لأمير الحج المصرى ثروة عظيمة وأبهة حتى إن مدير مكتبه (كتخداه) يزين مجوَّزته (عمامته) بطرة كطرة سلطانْ مصر لأنه وكيل السلطان .

يعطى أمير الحج مائتى جمل من مصر ، ويشترى ألف جمل بأمواله الخاصة ، ومع ذلك لا تستوعب الجمال حاجته فيحصُل على خمسمائة جمل أخرى من أصدقائه المصريين ؛ فيبلغ مجموع جماله ألفى رأس . وذلك لأن جميع الحجاج المصريين فى حاجة إليه . يعطى خمسمائة جندى من البلوكات السبعة ، نصفهم يحمل المؤن إلى جدة عن طريق البحر ، ونصفهم يرافقون أمير الحج إلى مكة ويظلون بها سنة مع سردارهم محافظين . وهناك خمسمائة رجل يطلق عليهم ذوو السبعين (يتمشلك) يسافرون ويعودون معه . إذا بدأ أمير الحج بهذا الموكب العظيم ضاربًا كوساته وطبوله افترق الجيش الواقف بقراميدان كالبحر الزاخر شقين يصطف فى شِقّ العزب والانكشارية ، ويصطف فى الآخر فُرسان البلوكات السبعة منتظرين تحية أمير الحج الذى يأتى فيمر بين الصفين من الجنود محييًا يمينًا ويسارًا ، ضاربًا طبوله ، فينزل على سرادق الباشا الوزير ويتخذ مكانه متصدرًا جميع الأمراء . فعندئذ تتحرك مدافع الآلاى فتُجعَل فى حجم «جُرنْ» ويحمل المحمل على جمل كما يحمل لواء رسول الله على جمل آخر ويُدار بهما بالميدان . وفى ذلك الوقت يُرسَل النبأ إلى الباشا الوزير بقدوم أمير الحج وانتظار الجيش تشريفه .

يتحرك موكب الباشا وعلى رأسه أغوات «واجب الرعاية» يسيرون مشاة ، ثم يسير رؤساء الحجّاب بعمائمهم المنتشرة راكبين ومع كلٍّ منهم واحد أو اثنان من الخدم ثم چاويش السلام وكتخدا الحجّاب ورئيس التراجمة ورئيس المتفرقة وكتخدا الچاويشية ، يسيرون كلهم راكبين . ويسير بعدهم الباشا فى خلعته السمورية وعمامته السليمية يعقبه سلحداره وچوقّداره ويرتدى كل منهما أسكفة وسروالاً وبعدهما أغواته الأربعة والعشرون أولو الرتب يسيرون راكبين حاملين سيوفهم ، وينزل الباشا على سرادقه المزين فى عاصفة من الهتاف والتصفيق ويجلس مكانه . فيأتى أولاً أمير الحج ويلثم يده ويجلس مكانه . ثم يدعو الباشا أمير الحج للمثول أمامه فى جمع من أعيان القاهرة فيقول له «هل قبلت منى جميع مصروفاتك وصُرَر المشايخ المعتمد عليهم فى الطريق وصُرَر مكة والمدينة والشرفاء

وسائر المصروفات واللوازم وتسلمتها؟ » ويقول أمير الحج : «نعم قبلتها وقبضتها دون أن تنقص جبة ولا حبة» فيأمر الباشا القاضى بقيد هذا الجواب فيُقيَّد فى السجل . ثم يسأل الرؤساء والچاويشية المأمورين بالسفر إلى الحج «هل تسلَّمتم ذخائركم ولوازم طعامكم وشرابكم وجمالكم وبغالكم ، وقبضتم مخصصاتكم لمدة سنة مقدّما؟» يقول هذا ثلاث مرات وهم يردون عليه قائلين : «نعم أخذناها وقبضناها» . فيقول الباشا للحاضرين «اشهدوا» ؛ ثم يقيد ذلك فى السجل . ويخلَع الباشا بعد ذلك على أمير الحج خلعة مقصبة وإذا كانت للأمير حظوة عنده خلع عليه خلعة سمورية . ويخلع كذلك خلعة فاخرة على مدير مكتب أمير الحج ودويداره ورؤساء البلوكات السبعة وعلى حامل العلم وچاويش المحمل وقاضيه وإمامه ومؤذنه وعلى كل من أغا بيت المال وكاتبه من أغوات الباشا . وخلاصة القول أنه يخلع على مائتين وعشرة رجال من مرافقى المحمل .

وإذا تمت هذه الإجراءات بسمل الباشا فقام من مكانه وشمر ذيله وذهب إلى جمل المحمل ماشيًا بخفة فمسح عينه ووجهه بالمحمل الشريف ثم أمسك بالسلسلة الفضية التى يقاد بها الجمل مبسملاً حامدًا ، ودار به عدة دورات بقراميدان جاعلا نفسه جَمّال رسول الله وسار معه البكوات جميعًا حفاة وارتفع من الجيش صخب وصياح إلى السماء بالنداء : «الشفاعة يارسول الله» . فهل يستطيع امرؤ أن يرى الباشا هكذا فى صورة جمّال ولا يبكى؟ يخاطب الوزير بعد ذلك أمير الحج قائلاً «إن مِلك آل عثمان هو مِلك مكة والمدينة خادم الحرمين المكرمين المشرفين ، وأنا وكيله اليوم وعبده المملوك ، فعلى حسب وكَالتى سلمت إليك المحمل الشريف ، وفى سبيل الدين شمرت ذيلى مركزًا كل ما بى من قوة فى ذراعى واستودعت الله الحجاج المسلمين سالمين غانمين وسلمتهم لك . فهل تسلمت المحمل الشريف؟» ويقول أمير الحج «بلى تسلمته وقبضته» ثم يمسك بيده سلسلة الجمل الفضية ويستشهد الباشا على التسليم ويقيد فى السجل . يمكث الباشا بعد ذلك فى مظلته حين يمشى أمير الحج بالمحمل ويشرع الموكب فى السير . يقيد أسماء جميع الحاضرين فى سجل شهود الحال ثم تتلى الدعوات وترتفع أصوات التكبير ، فيشرع الناس فى الانصراف . ويسلم أمير الحج على الباشا الوزير فيمتطى صهوة جواده ويمسك بمِقود جمل المحمل ويرحل إلى الحجاز .

تمر أولاً أثقال الحجاج ثم يمر أمير الحج

تمر أولاً بضعة ألوف من الجمال المزينة الطاوسية المحبوبة وجمالوها حاملو

المشاعل ، ثم يمر ثلاثمائة جندى من المدرَّعين والمدفعيين ومعهم ستة مدافع من مدافع القلعة يسيرون باذلين المياه من جمال الصحابة (حاملة الماء) المرادية والمحمدية وتتبعهم أثقال أمير الحج وخيامه وأخبيته وتتبعهم جمال الفقراء حاملة إياهم وأعلام مشايخهم ، وتتبعها سبعون أو ثمانون جملاً من جمال «جمال المحفات» التى يركبها الفقراء الذين يمرضون أثناء الطريق . ويسير بعد ذلك موكب القاهرة .

يسير على رأس الموكب الچاويشية ، ويتبعهم المتطوعون ، ثم حملة البنادق ثم الفرسان ثم فرقة المتفرقة ويتبعهم أغوات البلوكات السبعة بكوات الچراكسة وبكوات القاهرة ويمر بعدهم أمير الحج ، يسيرون جميعًا جنبًا إلى جنب ركابًا إلى ركاب مدججين بالسلاح ، وقد زُيِّن الموكب زينة يعجز اللسان عن وصفها .

ويمر بعد ذلك بجلال ووقار العلماء والصلحاء وأئمة المساجد وخطباؤها وقد لبسوا على رءوسهم القاووق . ويتبعهم آلاف من الحسنيين والحسينيين من السادات الكرام بعمائمهم الخُضْر على جياد أصيلة مزينة . ويسير بعدهم (نقيب الأشراف) تحت لواء رسول الله يتقدمه چاويشيته والناس يستقبلونهم بالصلاة على النبى . ويسير بعدهم أمير الحج وقد وضع على رأسه مُجَوَّزة ويسير معه جنبًا إلى جنب قَوْد أمير الحج ويتبعهم خواص أغوات مدير مكتب الباشا ثم موسيقى الباشا ثم أتباع مدير مكتبه وأهل القاهرة ينتظرون قدوم المحمل الشريف .

موكب المحمل الشريف

قلنا إن الباشا الوزير سلم المحمل إلى أمير الحج على ملأ من الناس . ولكن لا يكاد المحمل يخرج من قراميدان حتى يحيط بأمير الحج الشيخ مصطفى مرزوق الكفافى وشيوخ الطرق البدوية والرفاعية والبرهانية فينتزعون منه المحمل فيقود الجمل الشيخ مصطفى الرومى كبير الشيوخ جميعًا . فلذا يسلم إليه الأمير المحمل ويسير فى الموكب .

فى بيان سبب الاحتفال بالمحمل ، وأسماء مشايخ الطرق

قد يرد هنا سؤال عن أصل قيادة المشايخ لجمل المحمل الشريف ، فالجواب أنه حينما أصدر الملك الظاهر بيبرس الچركسى قانون إيصال المحمل إلى العادلية باحتفال عظيم كان الشيخ مرزوق الكفافى أكبر المشايخ فى ذلك العهد وكان على قيد الحياة

فأخذ المحمل من يد الظاهر بيبرس وقام بوظيفة الجمّال ، وقاد المحمل راجلاً حتى الكعبة ، وهو ينادى «أنا لويش وكبيس» ثم زار الروضة المطهرة بالمدينة المنورة ونفذ داخل شبكة رسول الله ، ولما خرج منها شوهد وعلى رأسه قلنسوة جمّال مرصعة مزينة . وقاد الجمل بعد ذلك إلى القاهرة راجلاً أيضًا . وهكذا ظل يقود المحمل من مصر إلى مكة ومنها إلى مصر فى كل عام إلى أن توفى . ومن أجل ذلك لايزال القانون جاريًا بأن يتسلمه الشيخ مصطفى الرومى (التركى) شيخ الطريقة الكفافية وأن يوصله إلى العادلية وقت الغروب . هذا قانون قديم . ولا كلام فى أن تسليم المحمل الشريف لفقراء المشايخ اليوم لذلك السبب . ولا يشاركهم فيه فرد من أفراد الطوائف العسكرية وإن وجد فهو قد أخذ البيعة على إحدى الطرق ، فيسير فى ذيل فقرائها ، فقد ورد فى الحديث «الفقر فخرى» ففى القاهرة فقراء ألف وسبع عشرة طريقة حسب مضمون البيت التركى تالله إننا نفاخر «بالفقر فخرى» فنسير فى صورة الفقراء» ولهم مائة وأربعون شيخًا كبيرًا كتبنا عنهم حينما كتبنا عن عدد التكايا والخانقاوات والدراويش فليس هذا الموضوع فى حاجة إلى تكملة .

وأما فقراء الثلاثمائة والستين تكية التابعة لمائة وأربعين شيخًا فمنهم فقراء السيد أحمد البدوى الذين لا عدد لهم ولا حساب . فقد حلت ضجة السيد البدوى بأرض مصر كما حل بها وببلاد الأكراد مذهب الإمام الشافعى . وأما سائر المشايخ فقد حل ضجيجهم بجميع البلاد الإسلامية . فاشتهر الشيخ عبدالقادر الجيلانى فى بغداد والهند ، والطريقة المولدية والبكتاشية والجلوتية[1] فى بلاد الروم ، والواحدية والحيدرية والشمسية واللويسية فى إيران .

ويكثر فى مصر بعد فقراء الطريقة الأحمدية البدوية فقراء الطريقة البرهانية فعددهم الحالى لا يعلمه إلا الله . والفقراء يفهم بعضهم طرق بعض حين يتقابلون . وعلى رأس المحتفلين بالمحمل الشريف بواسل العاشقين المشتاقين فقراء الطريقة المطاوعية . فهم نحو ألفى فقير وِلهين حيارى قد حملوا الحراب والرماح والسيوف والتروس ، ويسيرون على أصوات الدف والقدوم والطبل والنقارة والصنجات (الصاجات) والمزمار ، ذاكرين موحدين وقائمين بحركات هجومية ودفاعية كأنهم يتقاتلون ، قد انتثرت شعورهم ضفائر وفتائل

(١) الجلوتية بالجيم وهى غير الخلوتية (د . السعيد) .

وخصل ، يمرون موحدين توحيد «الأرة»[1] فى ظلال خمسمائة أو ستمائة علم من أعلامهم البلق . ويمر بعدهم أتباع الطريقة الواحدية والحمزوية والبرامية والصمودية والعشاقية والشمسية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية ؛ فهم بضعة آلاف فقير يسيرون تحت أعلام طرقهم طائفة طائفة ومع كل طائفة شيخها ممتطيًا جوادًا محاطًا من كل جهاته بالأعلام ، ذاكرين أنواع التوحيد السلطانى والأوراد على أصوات الدف والقدوم ؛ فتمتلئ القاهرة بأصوات «هُو»! وليس فى هذا الطريق أكثر من فقراء الدسوقية والبرهانية الذين يسيرون رافعين لواءهم الأبيض والنفطى وسائر أعلامهم السقائية .

ويأتى بعدهم فقراء طرق حسن الراعى Rai وأحمد الرفاعى والسعدى وأحمد البدوى وعددهم يتجاوز عشرين ألفًا . والأحمديون يرفعون لواء أحمر . يسير هؤلاء الألوف من الفقراء العشاق ملتفين حول مشايخهم مستغرقين فى لفظ «هو» على أصوات الدفوف والطبول والقدوم والصنجات والنقارات . ويمر بعدهم عدد كبير من العشاق المجاذيب أتباع الشيخ عبد القادر الجيلانى أصحاب الطرة حفاة حاسرى الرءوس موحدين . ثم يمر أتباع الطريقة الكفافية والكناسية والأنبابية والشناوية والكميلية والنقشبندية والروشنية والكلشنية والخاموشية والسنانية والنعمة اللهية والنوربخشية والسعودية والليثية والفارضية والزينبية والغنائية واليمنية والجنيدية والإدريسية والعبائية والشاهينية والجيوشية والجهنية . إن المذكورين جميعًا يمرون على حسب طقوسهم القديمة موحدين ذاكرين على أصوات الطبل والنقارة والقدوم والمزمار والدف والصنج ولهين مجذوبين .

ويمر بعد ذلك فقراء الطريقة اليمنية وهم أكثر جذبة من جميع الفقراء يسيرون ممتشقى الحسام وحاملين ضروبًا من الطبر والدبابيس والدرق والسيوف الخشبية ، ولهم أعلام مختلفة ولكنى لم أسمع توحيدهم .

---

(١) قدمنا أنه ذكر بلفظ حَقٌ حَقْ . والأرة المنشار باللغة الفارسية . وكأن هذا الذكر سمى ذكر المنشار لتشابه الصوتين . (د .عزام) ، ذكر أرّه أو الذكر المنشارى من أذكار الطريقة اليسوية بتركستان وقيل أنه انتقل إليها من الطريقة البدوية وقيل بل هو خاص بها وقد تكلمنا عن أداب هذا الذكر فى كتابنا :

Les convetions secrets dans le Beqktachisme (د . السعيد)

يمر بعدهم فقراء الطريقة الغنائية الذين يمشى أكثرهم حفاة عراة الصدور حاسرى الرءوس . وقد ارتدى بعضهم خرقة صوفية غليظة تزن الخرقة خمسين أقة ولها ضروب من الجيوب ، فالطعام والشراب والقهوة وإبريقها والدخان ولوازمها كلها فى الخرقة فكأنها حجرةٌ سيارة . وأتباع هذه الطريقة ينتقلون كثيرًا وينامون حيث يريدون ، ولا يدعون معهم فلوسًا لأن خرقهم تساوى آلاف الآلاف من البارات . وبعضهم يحملون عصيًا وطبرًا ورماحًا وحرابًا ونبابيت ، ويسيرون منتظمين بعمائمهم الغنائية التى تتدلى منها أزرار من صوف الجمل . وقد تليت سورة الإخلاص سبع مرات فى كل خرزة من خرز شيلانها . وقد رصعت أحزمتهم التى يشدونها على تنوراتهم المزركشة بضروب الأحجار من اليشب واليرقانى والبلغمى والفيروزى ، وإنى كنت معجبًا بنافخى العجم من النفير بيد أنى رأيت النافخين من يمنى القاهرة هؤلاء كأنهم فيلة حين ينفخون من وقت لآخر مرحى مرحى لأنفاسهم .

يمر بعدهم أتباع الطرق الفارضية والشاهانية والجيوشية والجهنية واليسوية[١] وهم يتلون أشعاراً عربية وغير عربية[٢] . والطرق المذكورة خاصة بمصر ولم تشتهر فى سائر البلاد .

ويمر بعد ذلك أتباع الطريقة الخلوتية بأدب ووقار موحدين ناشرين شققهم[٣] ويتبعهم الجلوتيون موحدين توحيدًا عاليًا بخشوع وخضوع . ويسير بعدهم أتباع الطريقة النقشبندية وهى طريقة منتهية إلى أبى بكر الصديق وأكثر أتباعها من قبيلة الأزبك . يتقدمون تحت أعلامهم ذاكرين خاشعين وليست لهم أدوات كالدف والقدوم والطبل والنقارة والنفير والمزمار ، وإنما يذكر كل منهم بطراز خاص بأدب ووقار ومن شاهدهم بهت وحار وانقطع نفسه . إن شوارع القاهرة وأسواقها تشع نورًا وضياء فى ذلك اليوم كأن أم الدنيا ولدت نورًا . ويسير بعد ذلك أتباع طريقة السيد عمر الروشنى وطريقة إبراهيم الكلشنى وهم كذلك لا يحملون الدف والقدوم . وهم خمسمائة فقير ذوو خرق عسلية

---

(١) اليسوية طريقة صوفية تركية منسوبة إلى الشيخ أحمد اليسوى المتوفى سنة ٥٦٢هـ والمدفون بمدينة «يسى» (مدينة بتركستان الحالية) القريبة من طشقند بأوزبكستان الحالية . كانت لهذه الطريقة شهرة عظيمة فى آسيا الوسطى وحوض ڤولجا وخوارزم وأذربيجان حتى بعض جهات الأناضول . ولعل المماليك من الأتراك نشروها فى مصر أيضا ولكنها لم تبلغ درجة الاشتهار . (المترجم) .

(٢) تقدم ذكر بعض هؤلاء آنفا . (د . عزام) .

(٣) شقة لر : جمع شقه ومعناها الرسالة ويحتمل أن دراويش الخلوتية كانوا يحملون إجازاتهم . (د . السعيد) .

مزركشة ومخاطة خياطة غليظة وشيلان لاهورية وكشميرية وبهارية يسيرون ذاكرين موحدين بلا صخب وجلبة رافعين أعلامهم ويسير شيخهم چلبى أفندى راكبًا جوادًا .

ويمر بعدهم أتباع الطريقة البكتاشية قريبين من المحمل الشريف رعاية للانكشارية التى هم منها . وهم مائتا رجل حفاة حاسرى الرؤوس ، وإن كان مريدو هذه الطريقة يلبسون عمائم ذات اثنى عشر ضلعًا رمزًا للائمة الاثنى عشر . أو أربعة أضلاع رمزًا للخلفاء الأربعة على الحيدر وعمر الولى وعثمان الجلى وأبو بكر العتيق البلى ، وفى أذرعهم وصدورهم جروح حزنًا على شهيد كربلاء . فهم فريق من العشاق الصادقين ، عيونهم الذابلة كحيلة وأجسامهم كاملة وأيديهم وأذرعهم بالدماء ملطخة . ألسنتهم تلهج بالقرآن وقلوبهم تحترق ، وصدورهم السليمة عن الحقد عريانة ، وذكرهم اسم الجلالة . وبينما يمر بعض صبيانهم بالشوارع والأسواق حاملين العصى وبأوساطهم مجموعة الأشعار ينشدون الأبيات والدوبيت والمثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمعشرات والمدائح النبوية وينشدون النظائر البليغة كقولهم :

شد قبلة أرباب صفا روى محمد

محراب همه أهل دل ابروى محمد

در كرون من خلق ترنميز جنون كش

سوداى سرى كاكل خوش بوى محمد

وأمثاله ، ويتلون نعت الرسول الهاشمى

-١٤-

الحفل السادس عشر

موكب المشعلية والعكامين الذين يخرجون من القاهرة ويعودون إليها بعد ثمانى ساعات ، ثم يقيمون الدعوى على العلماء بأن المحمل لهم ولهم إيصاله إلى مكة

إذا انتهى مرور تلك المواكب سمعت أصوات جنود لا عدد لهم ، من سمعها ارتعدت ركبتاه وحار فامتلأ قلبه دمًا وأضحى دمع عينيه وأضحى نهر جيحون وسال

سيحون دمعه من العين المغرورقة بالدموع كمياه اليم ، وبلغت أصوات الدف والقدوم والدُّرَبُكَّة! والطبل والنقارة والصنج أوج السماء . يتقدم أصحاب تلك الأصوات رويداً رويداً فيتضح أنهم عكامو سبعين ألف حاج من حجاج المسلمين وخدمهم ومشعليتهم . وهم نحو عشرة آلاف من الدهماء يسيرون صائحين داعين من صميم قلوبهم «الله ينصر السلطان» و«إن شاء الله بالسلامة» . «والله العظيم» إن الإنسان ليدهش من أصواتهم الحزينة ويكاد قلبه يتوقف عن النبض ، وهم يمشون حاملين مشاعلهم المزينة بالورود على أكتافهم . وفيهم رؤساء مشعلية البلوكات السبعة وأمير الحج والدويدار والسقا باشى ، وعددهم اثنا عشر رجلاً ، وهم حكام مصر فى أمر الإضاءة . وهم الذين يتزعمون أولئك الألوف من المشعلية ويضبطونهم . ويقال أن سلسلة نَسَبهم تنتهى إلى عمر رضي الله عنه .

لهؤلاء المشعلية قضية كبيرة . فقد اشتهر رؤساؤهم الاثنا عشر بسرعة العدو . يخرج الواحد منهم من باب النصر بالقاهرة فى وقت الحنفى[1] فيذهب إلى بلبيس وهى على مسيرة أربع وعشرين ساعة من القاهرة ويمر بمحكمتها طالبًا الحجة الشرعية ، ثم يسير إلى ما وراء بلبيس مقدار ألف خطوة . وحينما يعود إليها يجد الحجة الشرعية قد أعدت ، فيستلمها ويسافر إلى القاهرة ومعه خمسة أو عشرة من الفرسان المسرعين يحملون بأيديهم عصيًا على رؤوسها السفنج المبلول الذى يبلون به فم العدَّاء حتى يبلغ القاهرة . وقد ينفق بعض الخيل من سرعة العدو فيترك فى الطريق . ويعدو المشعلىّ موقدًا من الاثنتى عشرة أقة من الشِّراق الذى يحمله على ظهره حتى يدخل القاهرة وقت العصر ؛ «والعظمة لله» إن هذا الأمر أيضًا مما تجب مشاهدته .

إن أولئك المشعلية يدخلون من باب النصر ضاربين الدفوف والقدوم وصائحين «الحمد لله بالسلامة» فيذهبون إلى كبيرهم «شاطر باشى» الذى بقصر الباشا الوزير والذى يخلع عليه الباشا خلعة فاخرة ويعطيه الأمر الشريف المخول له رياسة المشعلية للمحمل ، فيصير ساعى رسول الله ﷺ ورئيس المشعلية العام وضابطهم . فمن احتاج إلى مشعلى ذهب إليه ووجد مطلوبه مقابل قرش يدفعه ضمانًا؟ . وقد حدث أن مات بعض المشعلية وهم يعدون فى الطريق ولم يعودوا إلى القاهرة .

وأن المشعلى يتمرن أولاً شهراً كاملا ثم يشرع فى العدو ويخلع عليه الباشا . وبعد ذلك ينزل إلى المدينة فيتجول فيها عدوًا بلا انقطاع حتى الغروب . وعندئذ يعود إلى

(١) أظنه يريد وقت الفجر على مذهب أبى حنيفة . (د . عزام) .

منزله فيلبس ثيابه مزيتة بزيت الزيتون ويدلكه بعض خدمه بالزيت فيستريح قليلاً . ثم يقوم ثانية فيرقص حتى لا ينقصم ظهره ؛ حقًا إنها بطولة أن يتحرك أحدهم هذه الحركة فيستحق رياسة المشعلية ويرتدى الخلعة من الباشا فى يوم الاحتفال أيضًا ويسير معه أغواته والمشايخ أمام المحمل الشريف .

حدث مرة فى عهد إبراهيم باشا نزاع بين المشايخ والمشعلية . قال المشايخ إن إحضار المحمل لنا منذ عهد الظاهر بيبرس الذى سن تلك السنة . وقال المشعلية إن رافقتم المحمل حتى الكعبة الشريفة على نظامكم هذا فالمحمل لكم حقًا فبارك الله لكم فيه . وأما إذا سرتم معه إلى خارج باب النصر ثم سلمتموه لنا وقفلتم راجعين إلى القاهرة للتمتع بالرفاق والأصحاب [فليس لكم فيه حق] فإننا نحن الذين نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به إلى القاهرة ثانية . وقد سلم سلطان مصر المحمل الشريف إلى الباشا أمير الحج وخلع علينا وكيل الملك خلعًا فاخرة فنحن الذين نسير أمام المحمل فى هذا الموكب . فأصدر الرجال النزهاء قرارًا حاسمًا بأن يبقى المشايخ والفقراء فى القاهرة وسُجِّل ذلك فى السجل وأعطى المشعلية سند «الحبل المتين» بذلك . فلذا يمرون داعين بنداءات «الله ينصر السلطان» بأصوات مؤثرة تكاد تتفطر منها المرائر . وارتفع بعدهم صوت رهيب كأنه هاتف ربانى . . . . . ظهر (فقراء) مائة وأربعين شيخًا من مشايخ الطرق وتخفق عليهم آلاف الرايات والأعلام ويسير إلى جانب المشايخ من أهل الحال والسلوك خلفاؤهم ونقباؤهم وچاويشيتهم ومروا موحدين توحيدًا سلطانيًا وقد جعلوا المحمل محاطًا بآلاف الأعلام . إنه لصخب وجلبة وضجيج . وأما الجمل الذى يحمل المحمل فقد زُيِّن بالمقصبات ويمشى الهوينى يتمايل يمينًا ويسارًا كأنه طاووس روضة من رياض الجنة والمتفرجون يمسحون وجوههم بالمحمل الشريف ، والذين لا يبلغونه يمدون إليه شيلان عمائمهم فيلمسونه بأطرافها ليتبركوا بلثمها ومسح وجوههم بها .

المحمل الشريف

المحمل هو هودج رسول الله وحريمه الذى كان يحتوى على خرقته الشريفة وسواكه ونعليه وإبريق الوضوء المصنوع من الحصير المطلى داخله بالقار ، على كلام رب العزة وكلام جهاز الفقر ، وكانت عائشة الصديقة تركبه ولا يزال على ذلك الرسم[1] . ولكن

(١) لا يعوّل على كلام هذا الرحالة إذا تحدث عن التاريخ . وما يذكره هنا عن المحمل لغو . (د . عزام) .

جعل له ملوك السلف تبركًا ، وآل عثمان محبة ، قبة مربعة مدببة ذات ظرف من الحرير الأسود المفتول على ذروتها المنتهية فى شكل قارورة كرة ذهبية يعلوها علم (شعار) من الذهب كما أن فوق كل ركن من أركانه الأربعة كرة ذهبية . وقد كسى بحرير أسود مزركش كتبت عليه بالذهب كلمة «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» وتسير خلف المحمل فرقة الموسيقى العربية المؤلفة من الطبل والنفير والصنجات عازفة ضاربة . وإن شوهد بعض الأعيان بين المشاهدين فى الحوانيت هدأ المشايخ من سير المحمل وأدنوه منه بل أوقفوه وقفة يسيرة رعاية واحترامًا ومروا أمامه تالين الآية الكريمة «إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما» هكذا يكررون تلاوة هذه الآية كلما مروا بحانوت به عين من الأعيان . ولهذا السبب يبلغ المحمل باب النصر وقت العصر مع أنه غادر قراميدان صباح ذلك اليوم ، ويسلم إلى أمير الحج بالعادلية وقت الغروب ، وقد فاض داخل القاهرة وخارجها بنور التوحيد ، وبعد ذلك يودع المشايخ أمير الحج فينصرفون ويعود كل إلى منزله . يأمر أمير الحج الدلالين بالنداء وهو يمكث بالعادلية ثلاثة أيام ولياليها تتميمًا لإعداد معدات السفر ولوازمه .

-١٥-

فى بيان القبائل التى من القاهرة حتى مكة والمدينة

إن صرر مشايخ قبائل العربان المنتشرة فى الطريق المستقيم من القاهرة إلى مكة وعطاياهم وكساويهم وسائر نفقاتهم خزينة فريدة منذ صدور قانون السلطان سليم بذلك . فهى من القاهرة إلى السويس آل بنى صفر ، وآل بنى عابد ، ثم آل بنى صالح بجوار العقبة ، ثم من سيدنا شعيب حتى مدين آل بنى شاهين . ثم إذا سرت حتى ينبع البر فهناك آل بنى زيد وقبائل أخرى . فمشايخ تلك القبائل يأخذون مخصصاتهم من أمير الحج فى كل عام . ويشترط عليهم فى ذلك إحضار الطعام والشراب والجمال القوية فى كل منزل لحجاج المسلمين ومساعدة جيش الحجاج ، وإرشادهم إلى الطريق من منزل إلى منزل وتقديم كل ما يحتاجون إليه من عون . ولا تسلم إليهم صُرَرهم إلا على هذا الشرط . بيد أنهم لا ينالون الآن عطاياهم كاملة دون أن يقوموا للحجاج بخدمة . وإن نقصت من مخصصاتهم «نقرة» قطعوا المياه عن الحجاج وألقوا الجيف فى آبار مياه الشرب ، وملأوا بعضها بالحجارة وهاجموهم قاطعين الطريق من كل الأرجاء وكمنوا لهم

مع اللصوص فأغاروا عليهم ونهبوهم . فلذلك تُعَد صُررهم وعطاياهم وكساويهم بدقة وعناية فى ديوان القاهرة ثم يسلمها مدير مكتب الباشا إلى أمير الحج بالعادلية باحتفال عظيم ويأخذ حجة بذلك .

-١٦-

خزينة صرة مكة ونفقات تعمير مكة والمدينة وترميمهما

هذا قانون العباسيين وقانون السلطان قايتباى . ولما فتح السلطان سليم مصر زاد فى كِتَاب عهده العناية بشرفاء مكة فجعل نفقات تعمير مكة والمدينة والصرر والعطايا والكساوى على خزينة مصرية . وهذا هو الواقع . ففى كل عام تقسم على الشرفاء بيد أمير الحج وإن نقصت قطعة ذهبية ، «اللهم عافنا» ، فإن الشرفاء يقومون قومة واحدة فيرفعون الأمر إلى السلطان بأن صرة جدّه العظيم السلطان سليم خان وصلت ناقصة فى هذا العام . فتقوم القيامة على رأس وزير مصر . ويعبر بعض الشرفاء عن هذه الخزينة بأنها خراج الترك (الروم) حق شُربِهم على آل عثمان ولا يسمونها صدقة ملكية . إن فيهم كثيراً من أسفه السفهاء . وموجز القول أن صُررهم وعطاياهم تُحَضّر فى ديوان القاهرة ثم يذهب بها مدير مكتب الباشا بموكب عظيم إلى العادلية ليسلمها إلى أمير الحج فيأخذ عليه إيصالاً بذلك ويسجل فى سجل الرسول .

-١٧-

خزينة النفقات اليومية للجنود المرافقين لأمير الحج فى مائة وعشرة أيام ذهابًا وإيابًا

إن المسافة القانونية بين القاهرة ومكة المكرمة مسيرة ستة وثلاثين يومًا . ويقضون عشرين يومًا بمكة ويقطعون المسافة بين مكة والمدينة فى عشرة أيام ويمكثون فيها يومين ثم يدخلون القاهرة بعد مسير ستة وثلاثين يومًا ، فيكون المجموع مائة وأربعة أيام ولكنها تبلغ مائة وعشرة أيام مع «التقاعدات» ، وإن أرادوا أمكنهم الوصول من السويس إلى القاهرة فى يومين فيكونون قد قطعوا مسافة الحج ذهابًا وإيابًا فى مائة يوم .

وخلاصة القول أنه يُربَط فى ديوان القاهرة مائة وعشرون ألف ذهب على أن يُنفَق ألف ذهب يوميًا فى تلك المنازل حتى لا يسبب أمير الحج عسرة على الحجاج . وهذه

الخزينة أيضًا من الخزائن الكبيرة . ولكن أنقص منها فى عهد إبراهيم باشا عشرة آلاف ذهب كانت تنفق فى أمور غير معقولة مخالفة لقانون السلطان سليم خان وبسبب هذا النقص لم يقدر الحجاج المصريون أن يقيموا بالمدينة اثنى عشر يومًا كالحجاج الشوام ، بل مكثوا يومين زاروا فيهما الرسول على عجل وعادوا .

وثمة خزينة أخرى تسلم لأمير الحج للإنفاق على ألف جمل لحمل الجنود وطعامهم وشرابهم وإن اتخذ ألفًا وخمسمائة جمل ففيه راحة للحجاج ذوى الاحتياج أيضًا لأنك إن قلت طريق الكعبة فكأنك تقول طريق هلاك الجمال . فمن كان ذا بصيرة حرم الذهاب إلى مكة راكبًا [جملا] وإن كانت له قدرة سافر على حصانه وإلا [فلا مندوحة عن] أن يسير راجلاً .

وموجز القول أن مدير مكتب الباشا الوالى يسلم إلى أمير الحج (. . . .) ، ألف ذهب لينفق منها على أولئك الحجاج ويأخذ منه سندًا بذلك لإبرازه وقت الحاجة .

-١٨-

فى بيان ما يسلم لأمير الحج من أموال وقف الله

إن هناك بعض مئات الآلاف من الذهب تحصل من أوقاف السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان . ومن أصحاب الخيرات والحسنات الذين لا يزالون متمتعين بالحياة وآلاف الأثواب والسراويل والأقمصة التى لا يعلم عددها إلا الله ، ترسل كلها إلى مكة سنويًا ، ويقال أنها تكوّن خزينتين . ولكنها لا ترسل بالاحتفال وإنما يسلمها نظار الأوقاف إلى أمير الحج فيأخذون منه سندًا لإبرازه وقت اللزوم . فلو كتبنا عن الأموال المسلّمة لأمير الحج كما نعلمها لكان ديوانًا من مجلد ضخم .

-١٩-

فى بيان موكب الفرق العسكرية المعينة لسفر الحج

ليس فى هذا الموكب لا الخزينة ولا جنود الباشا وإنما هم جنود من البلوكات السبعة قد اختيروا لرفاقة أمير الحج إلى الحجاز ، ويمرون أمام الباشا فى صورة عرض لإثبات وجودهم ، ولأن عددهم سبعون رجلاً من المعسكرات السبعة على أن يكون عشرة رجال من كل معسكر كما وصفناهم فى صباح اليوم الثالث من الاحتفال بالخزينة ، فهم

يسمون «ذوى السبعين» ولكن سفر الحج سفر مبارك . فلذا يكتب فيه مائتا رجل من كل معسكر . كما أن عدد خدمهم يزيد بهذه النسبة ، فيبلغ عددهم جميعًا ألف رجل مسلحين مزينين مكلفين منظمين . وهذا الجيش معين لأخذ الحجاج إلى مكة والعودة معهم .

يختار من هذه الفرق السبعة سبعة سردارات وسبعة كتخداوات وسبعة چاويشية وسبعين من حاملى الأعلام وسبعة من حملة البُلط وسبعة أوداباشية وسبعة ضباط من رتبة اليوزباشية (چورباجى) وهؤلاء يديرون ذلك الجيش المؤلف من ألف جندى . وعدد مساوٍ لهم من الجنود النظيفين الطاهرين يبقون سنة بمكة محافظين . فهؤلاء الألفان من الجنود المختارين يدخلون من باب السراى بلوكا بلوكا مع أغواتهم وضباطهم مدججين بالسلاح ومستغرقين فى آلات القتال فيمرون أمام الباشا الوزير أفواجًا أفواجًا ويخرجون من باب آخر وكل أغا يضرب كِوَسَه ، وليست معهم فرقهم الموسيقية . وأما الرؤساء والضباط والكتخداوات والچاويشية فيتشرفون بارتداء الخلع الملكية فى ديوان الغورى يبلغ عددها سبعين خلعة ، ثم يزودهم الباشا بالتنبيهات والدعوات الصالحة مودعًا إياهم فينصرفون ويلتحقون بفرقهم فى باب الوزير الذى يقوم منه موكب عظيم مؤلف من آلاف الجنود الذين حضروا لتوديع رفاقهم المسافرين إلى الحجاز ، وإنى أعجز عن وصفه . ولا يشترك فى هذا الموكب من جنود الباشا سوى اثنى عشر چاويشا من چاويشية الآلاى حاملى صوالج فضية ، لتنظيم الموكب وما عداهم جميعًا فجنود مختارون . وليس من عادة أعيان القاهرة الأثرياء المشاركة فى سائر المواكب ، وأما هذا الموكب فيشترك فيه الأغنياء والفقراء راكبين تكريمًا للحجاج .

يسير الجنود فرقًا فرقًا على جياد أصيلة ، وجمال ونوق وهجن مزينة بالخرز تمشى مشى الطاووس ، ومن هذا يعرف أنهم جنود الحج . وإذ قد ذهبت ستة مدافع مع أمير الحج فليس فى هذا الموكب مدفع . وإنما يسير الجنود مطلقين بنادقهم ومُكبِّرين . وقد ازدحمت شوارع القاهرة إلى حد أنك لا تستطيع الحراك من مكانك . يتقدم الجيش على هذا النظام عارضًا ضروبًا من الفنون حتى يبلغ العادلية فيخيم بها ، ثم يودع الباقون منهم بالقاهرة المسافرين إلى الحجاز ويتفرقون . فعندئذ يرسل أمير الحج توغه (علمه المصنوع من الشعر) إلى البِرْكة . وأما هو فيرتحل صباح اليوم التالى ويبلغها مع الحجاج بعد مسيرة أربع ساعات فيقيم بها .

-٢٠-

فى بيان موكب جنود أزلُم ونفقات خزينتهم

عندما يتجه الحجاج إلى مكة يعين جنود من البلوكات السبعة فيرسلون إلى حصن «أزلُم» وهو نصف الطريق بين مكة والقاهرة على مسيرة ثمانية عشر منزلاً . وهو من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمة الله عليه . خيرات عظيمة عجيبة أعجز عن وصفها .

يخلع الباشا على أحد أمراء الچراكسة خلعة ويعينه للسفر إلى «أزلُم» ثم يختار ثلاثمائة جندى من كل بلوك من البلوكات السبعة المصرية على أن يسافروا سخرة دون أن تترتب على ذلك ترقيتهم ، وإنما يُعطَون أربعين كيسًا مصريًا للإنفاق منها على طعامهم وشرابهم وخيمهم وسائر حاجاتهم ، يُعطَى هؤلاء الألفان من الجنود ألف جمل لحملهم وأثقالهم . ويجهز الأغا المحتسب الجمال بالذخائر والمؤن الضرورية للسفر يكون مصروفها محسوبًا على محاسبته . وأما مؤَنهم فالپكسماط والجبن الحلوم والعسل والسمن والبن والأرز والفول والشعير وغيرها ، وترسل معهم ستة مدافع شاهيه وأورطة من المدفعيين وكتيبة من المدرعين وكتيبة من سائقى عربات المدافع . فيبلغ مجموع المسافرين مع المكلفين بخدمتهم خمسة آلاف نفر مسلحين وخمسة آلاف أخرى من التجار وهم كذلك يسافرون مدججين بالسلاح وذلك لأن فى هذا الطريق موضعًا ضيقًا خطرًا يدعى «العقبة» حاصر فيها العربان مرة جيش «أزلم» وقضوا على حياة مئات منهم بسنان الرماح . فلذا يسافر هذا الجيش مسلحًا تسليحًا جيدًا ، ويحمل معه أموالاً طائلة . وإن لم يرسل هذا الجيش لاستقبال الحجاج فمن المؤكد أنهم لا يصلون إلى القاهرة سالمين . لأن التجار الذاهبين لاستقبالهم يحملون معهم ألفين أو ثلاثة آلاف بعير من الفول والشعير والأرز والدقيق والعسل والسمن والبكسماط وكل ما يمكن حمله حتى البيض . وحمل مئات الجمال هدايا من ماء النيل وآلاف العلب من سكر النبات والحلويات واللبن الرائب . فعندما يبلغ الحجاج حصن «أزلم» منهوكى القوى ضعافًا عاجزين ، وقد ضعفت جمالهم وتعبت وعجزت عن الحل والسير[1] ، فإنهم يجدون فيه ما ينعشهم ويجدد نشاطهم ولذلك فإن المخلصين يُحدّثون الباشا دائمًا عن نفع هذا الجيش

---

(١) سقطت هذه الجملة : وبَرِمَ بهم خدمهم من الإعياء . (د. السعيد) .

للحجاج ؛ فيحرص الباشا على زيادة عدده ويُصدر الأوامر للتجار والجمالين للعمل على تحقيق ذلك .

حتى إذا صدر الأمر بعرض الجنود المعينين للسفر صعد خمسة آلاف جندى إلى القصر بموكبهم العظيم فى الخامس والعشرين من ذى الحجة ويمرون أمام الوزير ضاربين كوساتهم ومكبرين . ويخلع الباشا على سبعين رجلاً من رؤسائهم وكتخداواتهم خلعًا ملكية فاخرة ويوصيهم بالعناية بالحجاج ، ثم ينزلون جميعًا من القلعة ضاربين كوساتهم . ويجتمع جنود كل فرقة وحدَهم فيكونون بذلك موكبًا عظيمًا ، ويجتازون القاهرة فى دعوات مئات الألوف من المشاهدين وهتافاتهم ونداءاتهم «الله ينصركم يا عساكر الفرح» يسمى هذا الموكب بموكب الفرح لأنهم حينما يبلغون الحجاج يحدثون فيهم الفرح والسرور والبهجة .

بمثل ذلك الموكب يخرج بضعة آلاف من التجار من باب النصر قارعين الطبول ومطلقين البنادق ومكبرين وحاملين من السلع والأمتعة مالا يعد ولا يحصى ، ويقيمون بالعادلية ثلاثة أيام . حتى إذا كان «وقت الشافعى» من اليوم الثالث أطلقت المدافع ونفخ فى النفير وضربت كوس الرحلة . فقام الركب وبلغوا منزل البركة بعد أربع ساعات وأقاموا بها أيضًا ثلاثة أيام يصل فى خلالها حمل سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بعير من الطعام والشراب من الشرقية والقليوبية والبحيرة ورشيد ودمياط . فعندئذ يضرب أمير «أزلم» مدافعه وينفخ فى نفير طى المراحل ويسلك سبيل أزلم ويبلغ العقبة بعد مسيرة عشرة أيام ، يمكث فيها يومًا للتزود بالماء . وإذا زود كل جماله بالماء سار ثمانية أيام أخرى حتى يدخل صحراء «أزلم» فعندئذ يطلق النار دفعة واحدة من مدافعه وبنادقه فترد عليه القلعة بمثلها فينصب الجنود والتجار خيامهم تحت القلعة حتى مسيرة ساعة من جانبى طريق الحجاج ويقيمون السوق ، يعرض فيها كل تاجر ما حملها من السلع القليلة والكثيرة . وفى صباح اليوم التالى يخرج أمير «أزلم» مع ثلاثة آلاف جندى وأغا «أزلم» بثلاثمائة من جنوده لاستقبال الحجاج الذين يصلون وقت الضحى كالسيل الجارف فيحيون ثم يسعون جميعًا إلى قلعة «أزلم» التى تستقبلهم بإطلاق مدافعها دفعة واحدة ، إظهارًا للفرح والسرور . يقيم الحجاج بفضاء «أزلم» ثلاثة أيام للراحة والاستجمام ، ثم يتركون جمالهم المتعبة متخذين جمالاً أخرى وقد باع كل ما حمله من السلع والأمتعة .

إن جيش «أزلم» هذا مكتظ بآلاف اللصوص النشالين وقطاع الطرق الأقوياء المهرة والمحتالين يندسون فى الحجاج السذج والجنود الذين وصلوا متعبين منهوكى القوى عاجزين ، فيصولون عليهم كما يصول الذئب الجائع على غنم ، باحثين عن الصيد ليلاً ونهارًا فينهبون الحجاج نهبًا يذكر بما فعل «قرا يازجى» وابن جانبلاط من ضرب الحجاج ويُنسى نهب ابن رشيد الحجاج فى طريق الشام أيام (قرا على باشا) . فالحاج القافل يصبح فى حاجة إلى فلس واحد فى هذه القلعة ، كما أن الحاج العاقل المتبصِّر ينقلب محتاجًا إلى المال . وفى كل ليلة تسمع بين الحجاج مطاردة اللصوص ، ومع ذلك تُشق الغرائر ، وتسرق وتقطع الهميانات[1] ، فلذا يجب على المرء أن يكون فى قلعة «أزلم» على حذر شديد ، فقد حدث فى زماننا أن سرق رِكاب أمير الحج وهو يقوم بإجراء الأمور المتعلقة بمنصبه على جواده . ولما بلغ منزلاً يُدعَى «نواتير» nevatir وجد خدمُه رِكابا شبيهًا بالركاب المسروق فعلقوه بدله وستروا الأمر . يكثر اللصوص إلى هذا الحد ، فلذا لابد من الحذر الشديد .

ومن هذا الموضع يسافر رجال البلوكات السبعة على هُجُن إلى القاهرة للتبشير بوصول الحجاج الأصحاء بالسلامة وإبلاغ خبر المتوفين إلى أهاليهم . وبعد استراحة ثلاثة أيام فى «أزلُم» يقوم الحجاج للعودة إلى القاهرة قاطعين مراحل . . . .

-٢١-

فى بيان جيش العقبة وخزينة نفقاته

يُعيَّن هنا أيضًا ألف رجل من الفِرق السبع ويعين أحد الكاشفين المعزولين أو أحد رجال المتفرقة مع ثلاثمائة من جنوده سرداراً للعقبة . فيبلغ عدد هذا الجيش ألفى جندى ولكن دون أن تكون لهم ترقيات . إن عاد سردارهم سالمًا بعد القيام بالخدمة المطلوبة منه مُنح مقابلها «كاشفية» أو «أغوية» . وأما الجنود فيعطون حمل ألف بعير مؤنًا وطعامًا وشرابًا وألف جمل نجدة للحجاج . وتكون معهم ستة مدافع وأورطة من المدفعيين والمدرعين وأورطة من قواد عربات المدافع والذخائر ولوازم الحرب وعشرة قناطير بارود أسود . ويصرف لهم أيضًا أربعون كيسًا مصريًا مع جميع نفقاتهم .

---

(١) الهميان : حزام عريض يوضع فيه المال . (د . عزام) .

يغادر جيش العقبة القاهرة بحساب دقيق بحيث يكون الحجاج قد بلغوا قلعة «أزلم» ؛ فهم يبلغون العقبة فى الوقت الذى يبلغها الحجاج قادمين من «أزلُم» ؛ فيتقابلون فيها . وفى عشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندى مدججين بالسلاح من أحد أبواب قصر الباشا بالقلعة فيمرون أمامه فى عرض عظيم ويخرجون من بابه الآخر . ويخلع الباشا على سبعين رجلاً من الرؤساء والأغوات والكتخداوات والچاويشية خلعًا فاخرة داعيًا لهم بالتوفيق ، فينزلون من القلعة ويلتحقون بموكبهم الكبير ويجتازون القاهرة بين صفوف المتفرجين ذاهبين إلى العادلية عن طريق باب النصر ويمكثون بالعادلية ثلاثة أيام يتجمع خلالها ستة أو سبعة آلاف تاجر مسلحين يحملون بضائعهم على آلاف الجمال والبغال والحمير ، ويحضرون ما لا يُعَد ولا يُحصَى من الطعام والشراب كما يرسِل أعيان القاهرة خدمهم بحمل ثلاثة آلاف جمل من ماء النيل هدية لأصدقائهم الحجاج . إذ لا يوجد الماء منذ العقبة فى صحراء التيه ومنازل «مثانى العجروت» . وأما سلع التجار فالشعير والفول والسكر والعسل والسمن ثم الجمال الخالية . ويأمر الباشا الوزير فى هذا الوقت بإرسال جميع الجمال المستخدمة بالقاهرة لحمل الأثقال والحجارة إلى العقبة .

ومن العجب أنه فى عام ١٠٨٩هـ حين كان محمد عبدالرحمن باشا متولى مصر ، سافر أمير العقبة من العادلية ضاربًا طبوله ومطلقًا مدافعه وبنادقه ، وهو يحمل قدراً هائلاً من الأموال . حتى إذا بلغ مضيق العقبة ألفاها محتلة بحشرات من بنى زهد Zuhd وبنى رشيد وآل عمر من قبائل عربان الشام الذين شرعوا فى القتال مع جيش العقبة ، فأطلق عليهم الجيش النار من المدافع دفعة واحدة أهلكت نحو مائة منهم ، بيد أن العربان ظلوا بها ولم يتركوها ، فلم يجد أمير العقبة مندوحة عن القيام بأمر معقول وهو التقهقر إلى واد ذى ماء ونبات ، فعاد إليه ورابط به وبث حوله جنودًا للمحافظة . ثم أرسل نجّابا إلى الباشا الوزير يطلعه على ما أصابهم من العقبات الأليمة فى «العقبة» .

وصل النجّاب إلى عبدالرحمن باشا فى ثلاثة أيام . ومن العجب أنه بلغ والديوان الملكى منعقد ، فذهل أرباب الديوان وحاروا فى الأمر . ولكن سرعان ما أدرك دولة الوزير ما يتعرض له الحجاج من سوء الحال إن لم تصلهم النجدة من أمير العقبة ، فطلب مدير الخزينة وأمره بتخصيص أربعين كيسًا مصريًا . ثم أرسل إلى چاويشية الآلاى للتبليغ إلى

البلوكات السبعة وغيرهم من رجال المعسكرات بأن من كان مستعدًا للسفر بحصانه وثيابه ويريد الحصول على المال فليحضر . ورفع لواءًا محمديًا أبيض أمام السراى وطلب فى لمح البصر أحد أمراء الحج المعزولين فأمره قائلاً «إن كنت فى حاجة إلى رأسك فعجل بالخروج مع خمسمائة من رجالك وألف رجل من مالى ومال المحافظة وإلا فسأقطع رأسك فى سبيل رأس الملك» . ثم خلع عليه خلعة فاخرة . وكم كانت دهشة أهل الديوان الذين شاهدوا محاولته الخروج من شباك الديوان الحديدى دون انتظار . ولما كان اليوم التالى قال «الأمر أمركم» فخرج من قصر الباشا وقت العصر مع خمسمائة جندى مختارين مدججين بالسلاح ضاربًا الطبول ورافعًا الأعلام فى عرض عظيم حاز رضى الباشا الذى خلع عليه خلعة مزركشة فاخرة وحلّى عمامته بطرة ملكية ، فاجتاز القاهرة بموكبه وأقام بالعادلية . وقد مضت تلك الليلة فى القاهرة بقيد أسماء الأبطال الشجعان المتفاخرين[١] والذين بلغ عددهم زهاء مائتين ، والتحقوا بالأمير بالعادلية . وأعقبتهم ثلاثة مدافع سلطانية أطلقت فور وصولها إليها ، ثم قام ألف رجل يحثون السير فبلغوا جيش العقبة فى أربعة أيام ولياليها وانضموا إليه ثم أرسلوا جنودًا مشاة على أطراف العقبة وصخورها وشعابها لاقتناص العربان الذين ظنوا أن جيشًا عرمرما وصل فاعتصموا بالفرار واجتاز الجيش مضيق العقبة بسلام ولقوا الحجاج مقيمين بالجهة الأخرى فى حالة جد سيئة . ولكنهم حينما رأوا جيش الإنقاذ هذا ردت إليهم أرواحهم وتحسنت حالتهم المعنوية . وأرسل نبأ سلامتهم إلى الوزير بوساطة «مبشرى الجبل» الذين أوصلوه إليه فى اليوم الرابع فسروا وابتهجوا ومنح كل مبشر خمسة فلسات «ترقية» وصرراً وخلع عليهم خلعًا .

وفى العقبة يبدل الحجاج جمالهم بالجمال التى تركوها بها ويكون الحجاج فى رخاء إلى حد أن أكلة (بريم) تباع ببارة مصرية . يتحرك الحجاج من العقبة عائدين إلى القاهرة رويدًا رويدا . ويطلب رجال الديوان من الباشا إجازة قانونية للتغيب عن دواوينهم للخروج لاستقبال الحجاج ، فيتوفر للباشا ستة أكياس مصرية نفقات ستة أسمطة ديوانية خاصة بتلك الأيام .

---

(١) الذين يفخر كل منهم بأن يقول (أنا وحدى) . (د . السعيد) .

مواكب مختلفة

هؤلاء أغوات البلوكات السبعة يجتازون باب النصر بخيامهم وأخبيتهم ضاربين كوساتهم فيملأون الأودية والساحات الممتدة من باب النصر إلى البركة بخيام وأخبية وسرادق يقيمون بها منتظرين قدوم الحجاج . فأول الأغوات من جهة باب النصر المحافظ يقيم بكشك شاد بك لتحصيل الرسوم الجمركية . ثم كتخدا العزب يقيم بالطوبخانة . ويقيم أغا حملة البنادق بسبيل علام ، وأغا المتطوعين بمسطبة أبى جاموس ، وأغا صناع البنادق بسبيل محمد أغا وفى مسطبة (. . . .) يقيم أغا الجراكسة . ويقيم بالبركة أغا المتفرقة وكتخدا الجاويشية ومدير مكتب الباشا وأفندى الديوان ، وأما أغا فرقة الانكشارية فيضرب من خمسمائة إلى ستمائة خيمة على مسافة بعيدة من البركة .

فى بيان وصول موكب أمير الحج إلى البركة وإقامة الأمير بها وحفلة تلك الليلة

تبدأ مقدمة الحجاج فى السير فى الأيام الخامس والسادس والسابع من صفر ، ويصل النبأ إلى مدير مكتب الباشا بالبركة بأن أمير الحج مقيم ومعه المحمل فى موضع يدعى «الدار الحمراء» .

فى وصف الخيرات العظيمة المسماة بالأزيار

يخرج الأغا «حاصل خرج»[1] التابع للباشا مع جنود الأدلاء والمتطوعين قبل ثلاثة أيام فيمكث فى سبعين أو ثمانين خيمة مزينة بموضع يدعى الأزيار . وقد أخذ آلافاً من الجمال والحمير المستخدمة لسقى أهل القاهرة ، فيملأ الأزيار والأحواض التى أنشأها الوزراء والأعيان من أصحاب الخيرات السابقين ، ثم يحملونها من البركة ضعاف الحجاج العاجزين عن السير ويقف جنود التتر التابعين للباشا ومتطوعو الأدلاء والمتفرقة على طريق الحجاج ويمدون العطشانين منهم بماء النيل . ثم إنهم يذهبون إلى ذلك الموضع بحمل مائة بعير خبزًا وألف سروال وألف قميص ومائة رأس غنمًا فيقيمون ولائم عظيمة

---

(١) حاصل خرج : يفهم من السياق أنها بمعنى صاحب الإمدادات . (د . السعيد) .

ويطعمون الجياع ويكسون الفقراء من الحجاج الذين عادوا منهوكين متعبين جائعين عطشانين . من حكمة الله العجيبة أن أعيان القاهرة إذا رفضوا إرسال الجمال والخيول والحمير المستخدمة لسقيهم بالقاهرة مع «حاصل خرج» لملء تلك الأزيار بالماء ، أصيبت كلها بالجرب ، فحرم أصحابها الانتفاع بها .

تكون هذه الأيام فى حماية كاشف قليوب ، فهو يقوم بحفظ وحراسة طريق الحجاج حتى الدار الحمراء مدة ثلاثة أيام ولياليها بمائتين من العرب الفرسان كيلا يهاجم الأعراب الحجاج من جهاتهم الأربع وينهبوهم . وإن ضاع شىء من أحد الحجاج فى هذه المنطقة يتحمل كاشف قليوب مسئوليته لكون هذه المنطقة فى حدوده . والكاشف نفسه يظل كل ليلة فى نوبته . يظل حاصل خرج هكذا ثلاثة أيام يوزع فيها الطعام والأثواب والسراويل والأقمصة على حساب الباشا . كما أن ضابط العسس وأغوات المعسكرات يقومون بحراسة الأماكن التابعة لهم كى يمر الحجاج فى راحة وأمن واطمئنان ويُنزلونَ بعضَهم على خيامهم ضيوفًا . وقد وُضع أمام خيمة كل أغا سبعون أو ثمانون زيرًا من أزيار الماء وزينت الخيام بعدد لا يحصى من المصابيح والقناديل التى تتلألأ ليلاً كالنجوم ، بينما تدوى صحراء علام بأصوات المدافع والبنادق . ثم إن ضابط العسس بسبيل علام يبذل نعمًا كثيرة مختلفة للرائحين والغادين ، ويقوم بحراسة الحجاج ثلاثة أيام راكبًا جواده . إن المسافة التى تفصل بين الطوبخانة والبركة مسيرة أربع ساعات ، يكتظ الطريق فى تلك المسافة بضروب من السرادقات والأخبية والخيام والناموسيات والصحابيات؟ فكأن صحراء العادلية تحولت إلى «حديقة من شقائق النعمان» من تلك الخيام المختلفة الألوان .

ينعم المصريون ثلاثة أيام ولياليها بضروب المتع واللذة والنعيم تحت ستار نيل الثواب بانتظار عودة الحجاج واستقبالهم ، ليست مثلها فى بلد من بلاد العالم ، وقد أطبقت شهرتها الآفاق وهذه أيضًا دنيا أخرى . ويسمى أولاد العرب من المصريين هذا الاحتفال وجيشه بـ «جيش بحبح الحجاج» أى جيش بهجة الحجاج .

عندما يدنو موعد بلوغ أمير الحج البركة يستأذن مدير مكتب الباشا وأفندى الديوان من الباشا فيذهبان إلى سرادقيهما فى البركة . يمران أولا بكتخدا العزب بالطوبخانة فيتناولان الطعام عنده ، وينال كل منهما فرسًا «حالية» لهما . ثم يمران بأغا السپاهية وأغا

المتطوعين وأغا حملة البنادق فيتناولان الطعام عند كل منهم من أسمطته المحمدية ويفوزان بجيادهم الأصيلة ، حتى يبلغا سرادقيهما بالبِرْكة . حتى إذا كان منتصف الليل من ذلك اليوم ركب الجميع من السراة والأعيان المصريين ومدير مكتب الباشا وأفندى الديوان ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاويشية وسائر الأغوات جيادهم الأصيلة ، وقد قلبوا الليل البهيم نهاراً نيرًا بما أشعلوا من آلاف القناديل والمشاعل . يسير الركب على هذا النظام حتى يستقبلوا أمير الحج عند الفجر قادمًا من «مسطبة الأغا» ضاربًا كوسه وطبوله ، فيجتمع مع الأشراف والأعيان الذين يتصافحون ويتبادلون القبلات والبكاء ثم يصلّون الفجر ويتناولون طعام الفطور . ثم يركب الجميع إلى البركة التى يتناولون فيها الطعام فى مأدبة عظيمة لمدير مكتب الباشا (الكتخدا) الذى يقدم لأمير الحج جوادًا أصيلاً مزينًا يركبه بعد الانتهاء من الطعام ويذهب إلى سرادقه . أما على أغا الذى كان مدير مكتب عبدالرحمن باشا فقدم الجواد المزين فى «مسطبة الأغا» فجاء الأمير إلى البركة راكبًا صهوة ذلك الجواد ونزل على سرادقه رأسًا ولم يقم له مدير مكتب الباشا مأدبة . وأما الكتخدا على النيشلى فيقيم مأدبة عظيمة ثم يعود إلى القاهرة فى ركب رجال الباشا .

يمضى الباشا أمير الحج تلك الليلة فى البركة فى بهجة وأفراح بإطلاق المدافع والبنادق مع حجاج الأقاليم . وعلى كل حال فإن حجاج القاهرة والأقاليم يدخلون القاهرة فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر المظفر ، بعد أن قضوا مائة وعشرة أيام فى سفر الحج ذهابًا وإيابًا . ولكن حدث مرة أن أرسل إبراهيم باشا أحد أغواته إلى مكة «بالنجّابة» لقضاء أمر مستعجل فبلغها فى أربعة عشر يومًا ووجد الشريف فى وقفة عرفات ، فحج مع الحجاج وتلقى الرسائل من شريف مكة وأقام يومًا بمكة ساعيًا ومطوفًا ثم سافر عائدًا فدخل القاهرة فى اليوم الخامس عشر من سفره . فهو سافر إلى مكة وحج وعاد منها ، وكل ذلك فى ثلاثين يومًا . ومعنى ذلك أن طريق الحج من مصر قصير وأمين .

يقيم أمير الحج فى البركة فى تلك الليلة مأدبة عظيمة لأعيان القاهرة القادمين لاستقبال الحجاج وأغوات الفرق العسكرية والجاويشية تطلق فيها المدافع والبنادق والألعاب النارية حتى إذا كان الصباح سار الأمير وجنوده والقادمون للاستقبال والمحمل أمامهم مارًا بخيام الجيش المنصوبة على جانبى الطريق محيياً إياهم . وعندما دنا من

باب النصر ظهر موكب عبدالرحمن باشا «يسر الله له ما يشاء» فترك الموكب مسرعًا بجواده ، حتى إذا لم يبق بينه وبين المحمل سوى أربعين أو خمسين خطوة نزل من جواده فأسرع عدواً إلى المحمل فلثم حافة كسوته ومسح بها وجهه مستشفعًا برسول الله ، وبينما هو كذلك يقيم أمير الحج خيمته على وجه السرعة ، ثم يسعى راجلاً إلى الوزير فيمسح وجهه بقدميه ويصافحه ويخلع منه خلعة سمورية ويقبل الأرض . يمكث الباشا الوزير بالعادلية ، وينزل أمير الحج على جامع الجانبلاطية بالقرب من باب النصر فيقضى فيه الليلة مع المشايخ والعلماء الذين يحيونه بتلاوة قصة المولد النبوى الشريف . وهو أول مولد بالقاهرة . وتقام الموالد بعد ذلك فى مركز الشيخ البكرى والتكية الكلشنية والسادات التى سوف نكتب عنها فى أماكنها . ويتصدق أمير الحج على العلماء بألف قرش نظير تلاوتهم لقصة المولد . وفى صباح اليوم التالى ، وهو السابع من صفر ، تكتظ شوارع القاهرة بالمنتظرين قدوم أمير الحج .

-٢٢-

عودة أمير الحج

هذا الاحتفال أحد الأعياد العظيمة التى تقام فيها الاحتفالات بالقاهرة ، ويذكر شرط الخروج لمشاهدته فى عقود زواج النساء . وتستأجر الحوانيت التى يمر المحمل أمامها قبل ذلك بشهر . وإذ أن الخروج بمثابة فرض على جميع أصحاب الوظائف والمخصصات الصغيرة والكبيرة من واحد إلى ألف ومن ألف إلى مائة ألف ، فى الأقلام السبعين المصرية من أئمة المساجد وخطبائها والعلماء والصلحاء والمشايخ ، فإن الأعيان والسراة والأشراف والخصيان وأتباع المائة والأربعين طريقة صوفية وغيرهم ينتظرون جميعًا فى الحوانيت والشوارع والطرقات . ثم إن المحمل لا يحضر فى هذه المرة محاطًا بمشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم وتحت أعلامهم كما خرج حين السفر إلى الحجاز ، ولا يشترك فيه جنود العزب والانكشارية أيضًا فإن ذلك ليس بقانون .

يتألف هذا الموكب من رجال البلوكات الخمسة ورجال أمير الحج والمتطوعين والچراكسة والچاويشية ثم رجال المتفرقة . يمر أغوات البلوكات الخمسة ضاربين كوسهم ، ومن خلفهم موكب أمير الحج وهم جنود منظمون قد احترقت وجوههم وعيونهم من الحرارة . ويمر بعدهم مائتا جندى من ملازمى الانكشارية المسلحين بالسيوف وقد

لبسوا على رؤوسهم أسكفات مزركشة مزينة بالطرر . ويسير بعدهم بكوات القاهرة عامة وبكوات الچراكسة وليس معهم كوس . ويمر بعد ذلك أغوات الخاصة مسلحين مزينين تتبعهم قَوْدُ أمير الحج وشطاره ويسير المحل أمام أمير الحج الذى يدخل من باب النصر على نغمات الموسيقى وضرب الكوس فيمر أمام أهل القاهرة المحشورين لمشاهدته فيستقر فى سرادق الباشا الوزير بقراميدان . وقد حضر إلى السرادق الجميل القاضى والأمراء وأعيان الديوان . وعندئذ ينزل الباشا الوزير مع جنودنا من القلعة إلى سرادقه فيقبل أمير الحج الأرض ويسلم المحمل إلى الباشا الذى يدور به الميدان ثلاث مرات باعتباره جمَّال رسول الله ووكيل ظل الله ، ثم يسلمه إلى مدير مكتبه ، فيقيد ذلك فى السجل الذى سُلِّم المحمل بموجبه إلى أمير الحج حين السفر إلى الحجاز ، وتدور بعض محادثات فى السرادق .

يتسلم مدير مكتب الباشا المحمل فيسعى به ومعه جنود الباشا إلى باب الوزير ماراً بباب العزب . ولما كان باب الوزير لا يسع المحمل وهو على جمله يبرك الجمل فتنزل ما عليه من الأبسطة وتسلم إلى ناظر الكسوة الذى يحفظها فى قصر يوسف حتى العام القادم . وأما الجمل فيسلمه أمير الحج إلى أمير اصطبله الذى ينقله إلى الريف ليحفظ فيه مع الجمال الميرية حتى العام القادم . ثم يعود مدير مكتب الوزير إلى السرادق بقراميدان . وعندئذ يدعو الوزير لأمير الحج بقوله «مد الله فى حياتك وأحل لك نعم الملك» ثم يخلع عليه خلعتين مزركشتين فاخرتين يُقبِّل الأمير جيبيهما وهو يلبسهما ثم يقبل الأرض ويجلس مكانه . ثم يخلع الباشا على رؤساء البلوكات والچاويشية والأغوات الذين عُيِّنوا لسفر الحجاز وعددهم سبعون رجلاً . فيذهبون جميعًا إلى بيوتهم عدا أمير الحج . فإن الباشا يتحدث معه فى شئون مكة والمدينة وأحوال إمام اليمن والشرفاء الخونة الذين يمعنون فى الأضرار . ويسلم الأمير إلى الباشا رسائل وطلبات شيخ حرم المدينة وشرفاء مكة ومعروضات الشريف وغيرها التى تُقرأ فى ديوان السرادق بقراميدان . يبلغ الوزير محتويات تلك العرائض إلى الدفتردار والروزنامه جى فيطالبهما محاسبة أمير الحج على وجه السرعة والعدالة لأن فى ذلك مصلحة فسرعان ما يشرع أرباب الديوان فى محاسبته ؛ حتى إذا ظهر شىء عليه استردوه منه . وإذا ظهر له أعطوه إياه . فعند ئذ يلثم أمير الحج يد الباشا الذى يأذن له بالانصراف ، فيرأس كتخدا الحجاب أغوات الوزير وملازمى الانكشارية الذين يأخذون الأمير إلى داره بموكب عظيم . وإذ ذاك يستريح الأمير

ويطمئن ، ويمنح كتخدا الحجَّاب كيسًا لتوزيعها على أغوات الباشا الذين أحضروه إلى داره باحتفال ، ومائة قرش لملازمى الانكشارية ، فيطمئن قلبه وينشرح صدره .

وفى صبيحة اليوم التالى يحمل أمير الحج حسب قانون التشريفات المصرى هدايا هندية ثمينة تقدر قيمتها بعشرة أكياس ، وعشرين شمامة عنبر وخمسين سرة مسكية وعشرين أقة من العود الطوتى و «المينا» والأسِرَّة وأنواع الپنزهر وعشرة قرون من الزبادى الحلبى وعشرة من الطواشية الأحباش الحسان ، وعشرة هجن طاووسية ، وعشرة حُصُن[1] حجازية .

ويحمل ما قيمته كيس مصرى لمدير مكتبه ، وبعض هدايا لاثنى عشر أغا من أغوات الباشا حاملى الرتب ، وسنكتب عنها فى فصل التشريفات إن شاء الله . وكذلك تأتى للباشا الوزير هدايا من رؤساء البلوكات السبعة .

وموجز القول أنه إذا كان الباشا الوزير كوكبا مضيئًا صاحب عز ووقار وصيت ، يتلقى ما قيمته عشرون ألف قرش من هدايا الحجاج ، وما قيمته عشرة آلاف قرش من أعيان وأشراف مكة والمدينة ، وما قيمته عشرة أكياس من أمير جدة ، وذلك لأنهم جميعًا فى حاجة إلى وزير مصر الذى تصل إليهم صررهم وجراياتهم من يده . وأما إذا كان الوزير شخصًا صغير النفس فإنهم يلهونه ببعض توافه الأشياء كفناجين وكاسات وسرو الهند وعصى الرماح وبضعة أثواب شاش العمم ، وكحل الكعبة وغيرها من التوافه . فلذا لا مندوحة لوزير مصر عن السمعة والأبهة والسلام . وبهذا النظام يتم الاحتفال بدخول أمير حج مصر القاهرة .

-٢٣-

موكب خزينة الصقر

من القانون السليمى أن يخلع على أحد كاشفى القاهرة أو أحد بكوات الچراكسة خلعة فاخرة فيعين رئيسًا لخزينة الصقر وأن يوضع تحت تصرفه سبعمائة من معلمى الصقور (طوغانجى) تابعين لخزينة الصقر الداخلة ضمن خزينة مصر . وهؤلاء الرجال

---

(١) أصل هذه الكلمة فى النص التركى هكذا Hassan = خاصّان وهى صيغة الجمع الفارسى للكلمة العربية خاص ، وكانت هذه الكلمة تُستعمل فى التركية بمعنى الجُبة المبطنة بالحرير الأبيض أو الأخضر وقد كان السلاطين والولاة يخلعون هذا النوع من الزى على المقربين وكبار الموظفين ، ومن هذا (الخاص) نوع راق يعرف باسم (خاص الخاص) ، ولذلك أرى أن تستبدل بكلمة (حُصُن) كلمة خلعة . (د . السعيد) .

معافون جميعًا ، و«مسلحون» أما عملهم فالبحث عن الطيور الجارحة كالباز والباشق واليؤيؤ (زاغنوس) والشاهين وغيرها فوق قمم الجبال الشاهقة الوعرة والمواضع الخطرة وصيدها ثم تعليمها . وليس فى بلد ما بمصر من الصقر واليؤيؤ (زاغنوس) لما بها من الجبال الشاهقة الوعرة . ولكن لا يعيش فيها صقر الأشجار لعدم وجود الغابات والأحراش ، وهو لا يعيش فيها ولو جىء به من سائر البلاد لكونه طائرًا ينشأ ويعيش فى الأدغال . والحق أنه ليس بكثير فى سائر البلاد أيضًا ولكن بما أن مصر بلد ساحلى فهو لا يعيش فيها أبدًا .

إذا كان الربيع فى مصر اجتمع فى موضع يعلم فيه سبعمائة طائر من الطيور الجارحة بالقرب من قناطر الغورى ، سبعمائة رجل من شجعان البلوكات السبعة تقيد أسماؤهم مع الترقية ، للعمل فى فرقة صيد الطيور . وهناك مائة رجل من أتباع رئيس صيادى الصقور وسبعمائة من (صقارى) العرب ، فيبلغ المجموع ألفى رجل يمرون أمام الباشا مدججين بالسلاح . وأما الصقارون العرب فيمرون راكبين الحمير يحمل كل واحد صقرًا فوق رأسه وصقراً على ذراعه وصقراً بيده . ثم يمثل سبعة عشر رجلاً منهم مع رئيس الصقارين ومدير مكتبه أمام الباشا فيخلع عليهم الخلع وينصرفون مع الموكب . وإذ أن رئيس صيادى الصقور ليس بكا فليست له فرقة موسيقى وإنما له أربع كوسات . ويمر هذا الموكب المزين بالصقور بشوارع القاهرة حتى يصل إلى العادلية فيقف فيها . ولا يشاركهم فى احتفالهم هذا سائر الجيوش لأنه احتفال ليس بذى خطر ولكن نفقاتهم تُعرض على أنها تبلغ خزينة ، فطعام ألفى نفر وشرابهم وإيجار كاتبهم تبلغ خزينة .

يسافر هذا الموكب من العادلية إلى عاصمة الدولة ، فإذا بلغوها عرضوا على الصدر الأعظم والسلطان ، ويمرون أمامه ، ثم يسلمون ما معهم من الصقور إلى رئيس الصقارين الذى يتعم عليه السلطان بخلعة فاخرة . ولما كانت هذه الخزينة مقبولة ومستحسنة لدى السلطان فإنه يأمر أحد رؤساء حجّابه أو أحد ندمائه المسنين بإحصاء القادمين معها والعناية بهم ويصدر أمره بالإنعام على الموجودين منهم ، وهى الترقيات التى ينالونها حين عودتهم إلى القاهرة .

-٢٤-

قدوم سروال الصقر والسيف والقفطان إلى وزير مصر

إذا أمر السلطان بتفتيش الجنود الذين رافقوا خزينة الصقر إلى استانبول فتبين عدد

الموجودين منهم ، أرسل السلطان خمسة عشر رجلاً إلى مصر حاملين سروال الصقر والسيف والقفطان لوزير مصر . يأتى أولئك الرجال حتى مدينة بلبيس فيرسلون أحدهم إلى مدير مكتب الباشا الذى لا يكاد يتلقى النبأ حتى يرسل المطبخ إلى العادلية ، ثم يخرج إليها صباح اليوم التالى مع رجال الباشا الذين يسيرون على نغمات المزامير وهى الآلة الموسيقية الوحيدة التى يأخذونها معهم وليس فى هذا الموكب من الجيش المصرى سوى چاويشية الديوان وكتخداهم . ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان . فجميع المشتركين فيه من رجال الباشا ولكنه موكب مكلف . يخرجون أولاً إلى العادلية فيتناولون الطعام ثم يركبون خيولهم للعودة فيدخلون من باب النصر ومعهم الأغا مترجلاً ومدير مكتب الوزير راكبين ، يجتازون القاهرة ضاربين طبولهم ، فى طوفان من دعوات المتفرجين الذين ينادون «الله ينصر السلطان» . يسير الجنود بأدب ووقار إلى القلعة فينزلون على ديوان الغورى الذى يستقبل فيه الباشا الأغا القادم ويجلس معه جنبًا إلى جنب ويتسلم منه الأمر الملكى والخط الشريف فيلثمه ويضعه فوق رأسه ثم يتلوه أفندى الديوان ويفهم ما فيه . ثم يقوم الأغا القادم فيخلع على الباشا الخلعة الشريفة ، ويلبس الباشا السراويل الخاصة بالصقارين المصنوعة من المخمل الأحمر ويعلق السيف بوسطه . ويخلع الباشا حسب القانون المصرى سبعين خلعة فاخرة على أغوات البلوكات السبعة وأرباب المناصب من رجال الديوان الذين يدعون للباشا بأمثال «أطال الله عمرك ، وبارك الله فى خلعتك ، ولتعش طويلاً بالدولة والسعادة» . وفى الوقت نفسه تدوى كهزيم الرعد أصوات سبعين أو ثمانين طلقة من مدافع القلعة . وما إن يتم ذلك حتى يحضر حراس القلعة (. . .) ثم يأتى خدم الباشا فيحاصرون لابسى الخلع الفاخرة ويحصلون منهم الأموال التى يعطى منها عشرة أكياس للأغا القادم من استانبول قبل أن يودعوه عائدًا إليها .

-٢٥-

دخول قاضى مصر القاهرة فى موكب مع العلماء

حينما يعزل قاضى مصر ويبلغ القاضى الجديد الخانكة القريبة من القاهرة يرسل مدير القصر المطبخ إلى العادلية . حتى إذا كان اليوم التالى خرج مدير مكتب الباشا وكتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة وترجمان باشى وجميع عساكر الباشا ووكيل قلعة

مصر فى جماعة من العلماء والصلحاء وأشراف القاهرة وأئمة مساجدها وخطبائها للاستقبال . وليس فى هذا الاحتفال من الطوائف العسكرية سوى مائتين من ملازمى الانكشارية ومائتى انكشارى ممتازين من حراس المحاكم ، وجميع الحاضرين من العلماء .

يقيم مدير مكتب الباشا مأدبة للقاضى . ثم يركب الجميع صهوات خيولهم فيسير أولاً موكب رجال الباشا أفواجًا أفواجا ، ويتبعهم مدير مكتب الباشا وكتخدا الچاويشية ويسير بعدهم العلماء جماعات جماعات وقد جلس بعضهم على صهوة جواده منحنيًا إلى جنب وبعضهم مكبًا كأنه لاصق بقربوس السرج وقابضًا بيده على قاووقه ، كما أن بعضهم يترك الزمام على قربوس السرج لأن عينيه الجاحظتين لا تجيدان الرؤية فيسحبه خادمه هو وحصانه مناديًا «يمينك ، شمالك!» ، إنه لمشهد عظيم . أكثر هؤلاء العلماء من غير «الباس»[1] ولكن لا مندوحة عن أن يكون القاووق على رؤوسهم . إنهم وإن كانوا غير ماهرين فى ركوب الخيل إلا أنهم فوارس ميدان الفصاحة والبلاغة ، فإذا شرع أحدهم فى تقرير العلم فهو فصيح اللسان بديع البيان ، حافظ للقرآن وحلال لمشاكل الأديان ، صاحب للفضيلة والرحمة . فقد ورد فيهم قوله ﷺ «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» .

يسير بعدهم أئمة المساجد والخطباء ومشايخ الكراسى ثم البكريون ذوو رتب «خمسمائة پارة» فى عبايات ذات شُرَّابات والسادات ثم المفتون من المذاهب الثلاثة[2] يتبعهم ملازمو الانكشارية المشاة المزينة رؤوسهم بالطوغ ثم انكشاريو باب قاضى العسكر الممتازين . ويسير بعدهم المدرسون والمحدثون ونواب أربع وعشرين محكمة ثم طائفة القضاة الحاضرين والقسَّام العسكرى ونائب الديوان ونقيب الأشراف مع السادات الكرام ومحضرو المحاكم من علماء جامع الأزهر ورئيس المحضرين ذو اللبادة وكتخدا القاضى الذى يعقبه القاضى نفسه ثم مصطفى أفندى البولوى شيخ الإسلام فى مذهب الإمام أبى حنيفة يسيران جنبًا إلى جنب راكبين . يسير الموكب دون أن تسمع فيه أصوات الطبل السلطانى والكوس والصفير حتى يبلغ قصر مدير مكتب الوزير الذى ينزل

(١) ربما يقصد فى غير زى رسمى . (د . متولى) .

(٢) المعروف أن المذاهب أربعة ، ولا أعرف ماذا يقصد المؤلف بالمذاهب الثلاثة ، ولماذا استثنى مذهبا لم يحدده وهو يعلم الحقيقة تمام العلم ، أم أن هذا من أخطاء النساخ وشرود ذهنهم أحيانا ساعة النسخ لكبر حجم الكتاب . ومن الملاحظ أن علماء الترك الذين حققوا عدة نسخ ونقلوها من العثمانية إلى التركية الحديثة قد نقلوا الرقم «ثلاثة» كما هو بالعربية . (د . متولى) .

عليه القاضى ويذهب صاحب الدار إلى قصر الباشا الوزير فيبلِّغه تحية القاضى . ويمثُل القاضى أمام الباشا الوزير فى نفس اليوم .

موكب قاضى مصر

إذا قدم القاضى إلى قصره واتجه فى يوم قدومه أو فى اليوم التالى إلى ديوان الباشا الوزير فى رفقة طائفته الخاصة مر أولاً محضرو أربع وعشرين محكمة[1] مثنى مثنى متكئين على عصيهم راجلين . ويسير خلفهم الچاويشية الخاصة بديوان القاضى لابسو المجوزات على خمسين جوادًا أصيلاً مزينا . ويتبعهم أربعة وعشرون نائبًا من نواب المحاكم راكبين جيادًا أصيلة ومعهم خدمهم مشاة ويمر بعدهم المحضرون المحليون مشاة . ثم يسير مائة من ملازمى الانكشارية ذوى الثوب الأسود والأسكفة المحلاة بريش الطيور وخلفهم ضابط انكشارى برتبة اليوزباشى مع أتباعه . ثم يمر كتخدا القاضى مرتديًا عمامة مسترسلة وبجانبه الحاجب ذو الأسكفة المزركشة وهو من حجابى الآستانة ، ومن خلفه «نائب الباب» و «نائب الديوان» يمران جنبًا إلى جنب راكبين ، ويتبعهم قضاة المذاهب الأربعة والأفندى القسَّام الذى يعقبه ملازمو الانكشارية من لابسى اللباد .

يمر بعد ذلك قاضى العسكر على جواده الأصيل ، وقد وضع على رأسه القاووق وبجانبه «چوقدار» (ساعيه) ذو الثوب (المَنويشى[2] والأسكفة المقصبة ، وثلاثة من خدمه الذين يقضون حاجة السوق (بازاره كيدن) وعشرة من خدمه المشاة وخلفه عشرون غلامًا من غلمانه المحبوبين على جياد مطهمة ملبَّسة . وعندما يبلغ القاضى القصر يستقبله الباشا عند الديوان فيتصافحان ويحضران وليمة عظيمة يتحدثان بعدها بعض الوقت فى مختلف الشئون . حتى إذا دنا موعد انصراف القاضى لاطفه الباشا بخلع فروة سمورية عليه . كما خلع خلعة فاخرة على كتخداه و «محضر باشى» ، وخلعة على «نائب الباب» وأكرمهم بتقديم القهوة والبخور . وبعد انتهاء هذه المراسيم يعود القاضى إلى قصره مع أتباعه . هذا هو الاحتفال بقدوم قاضى العسكر ولا يحتفل به حين عزله .

---

(١) ومعهم شيخهم الفانى ، يدُ الرشوة ، وهم يسيرون . . . (المترجم) .

(٢) هذه الكملة التى تُستعمل أحيانا فى العامية المصرية مشتقة من الكلمة التركية مَنَويش أى لمعان السيف أو الثوب وتموّج لونه والصفة التركية منها منويشلى . (د . السعيد) .

-٢٦-

موكب بك جرجا

إذا تم قطع جسور النيل وحضر جميع كشافى مصر وأمرائها وبكواتها إلى ديوان القاهرة لتقديم الحساب ، قدم «بك جرجا» بموكب مهيب أعجز عن وصفه . وهو الذى يسميه العربان «سلطان الصعيد العالى وحاكم البر الوالى» لأنه يحكم إقليمًا مكوّناً من ستة وعشرين مركزًا . وسكان مصر جميعًا فى حاجة إليه ، لأن موارد مصر إنما تأتى من الصعيد . ينزل الباشا الوزير إلى قراميدان فى ذلك اليوم فيشاهد من قصر ذلك الميدان حضور «بك جرجا» إلى مقر منصبه وانصرافه منه . وإذ أن القاهريين يشاركون موكبه محبة له فإن الموكب يزداد أبهة وجلالا ، حتى يصير كالمواكب التى وصفناها فيما سبق . بيد أن هذا الموكب يمتاز بثلاثة آلاف جندى مشاة من حملة البنادق من الزنوج الجبرتيين ، كأن كل جندى منهم ثعبان أسود . وبألفى فارس من العربان المشهورين على خيول (خوّارة) مسلحين برماح ثقيلة ، وبألفى صبى من صبيان الواحات ، وهؤلاء يحاربون فى بلاد السود والفُنج فيحملون منها المال والغلمان والجوارى السود ويمر بعد ذلك جنود البك المحافظون ثم حرسه الخاص أفواجاً أفواجاً ضاربين الطبول والقدوم و«المقارق» الحبشية ونافخين فى النفير . يسير مشاتهم خفافاً كالظباء . وليس فى الإمكان ضبط إقليم جرجا وربطه دون أن يكون هناك ألف رجل من بواسل الترك وعشرة آلاف جندى . ذلك لأن «بك جرجا» يملك مملكة كبيرة تقع فى إقليمين وينفذ فيهما حكمه . وولاية جرجا عِرض مصر وشرفها .

ويمر بعد ذلك البك نفسه على نغمات فرقته الموسيقية مع مائتين من غلمانه الخواص المدججين بالسلاح . يسير هكذا حتى يصل إلى حضرة الباشا ، فتقف الموسيقى عن العزف فينزل البك عن جواده ويمسح وجهه بقدم الباشا ويقف . وعندئذ يخاطبه الباشا ببعض كلمات ممزوجة بالطعن[1] ثم يخلع عليه خلعة ملكية مقصبة . كما يخلع على سبعة وسبعين رجلاً من أتباعه كاشفيه الأربع والعشرين ومديرى أمواله وكتخداواته ثم يأمر الباشا الروزنامجى بمحاسبة البك حسابًا طيبًا ويعين لتحصيل

(١) ربما يقصد ، ممزوجة بالجدية . (د . متولى)

المال . وبعد ما يتم ذلك يخرج البك من عند الباشا فينصرف إلى قصره ومعه أغا الباشا جنبًا إلى جنب راكبين .

وفى اليوم التالى تسير هدايا البك إلى الباشا الوزير وهى . أربعون حصانًا من الخيول الخوارة الأصيلة وعشرة أفراس ، وعشرة طواشى وعشرة أكياس نقدًا وخمسة آلاف إردب شعير وثلاثة آلاف إردب حنطة وكثير من الهدايا والتحف الثمينة القيمة المماثلة لما ذكر .

ثم إنه يقدم ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وخمسة جياد أصيلة إلى مدير مكتب الباشا وهدايا أخرى لاثنى عشر أغا من أغوات الباشا أصحاب الرتب لكل بحسب رتبته . وهذه الهدايا هى «حالية الحالية» لا تقبل النقص أو الزيادة .

وبعد هذه الهدايا يحاسب البك حسابًا دقيقًا لا هوادة فيه ، فيحصل ما بذمته من المال الملكى بلا نقص ، وتصرف منه رواتب الجند .

-٢٧-

وصف زينة الاحتفال بالأفراح السلطانية

يقام هذا الاحتفال لمناسبات كفتح السلطان بالذات قلعة فى إحدى الولايات أو ولادة أمير سلطانى أو فرح ختان أو زفاف أو جلوس سلطان ، «اللهم عافنا» . إذا حدث ظرف من الظروف المبينة حضر من الآستانة حاجب من حجّاب السلطان أو أغا من الخواص أو أحد مصاحبى السلطان أو الأغا أمير آخور أو أحد الأغوات حاملى السلاح ، فأرسل من بلبيس نبأ إلى مدير مكتب الباشا بأنه قادم من استانبول بمأمورية كذا . وما إن يتلقى مدير مكتب الباشا النبأ حتى يرسل المطبخ إلى العادلية كالمعتاد ويبلغ النبأ إلى الأوجاقات السبعة لجنود مصر . حتى إذا كان صباح اليوم التالى خرج مدير مكتب (كتخدا) الباشا على اعتياده القديم مع جنود الباشا المدججين بالسلاح ، ومعهم فرقة الموسيقى ولكنها تسير بلا عزف أثناء الذهاب . يسير هذا الموكب ماراً بالقاهرة وباب النصر حتى يبلغ العادلية ويتناول فيها الطعام . ثم يعود مدير مكتب الباشا مع الأمير آخور القادم من استانبول جنبًا إلى جنب راكبين فى موكب يسير على أنغام الموسيقى مجتازاً القاهرة حتى يبلغ ديوان الغورى حيث يستقبله فيه الباشا وتقرأ فيه سورة الفتح فى ديوان

القاهرة ، ثم يخلع الخلع المبينة فى الخط الشريف فى هتافات چاويشية الديوان ودعواتهم .

وبعد انتهاء هذه المراسم يأمر الباشا رئيس الشرطة بأن يخرج المنادين ينادون بأنه قد تقرر أن يكون أربعون يوماً ولياليها «دستورًا سلطانيًا» وأفراحًا ، حسبما ورد فى الخط السلطانى الشريف . وحينئذ تخلع على الأشراف كساوى التشريفة وتطلق المدافع من القلعة وتخصص أماكن للفرق لعزف الفواصل . ثم تزين القاهرة مدة أربعين يومًا ولياليها أو عشرين يومًا ولياليها حسبما ورد فى «الخط الشريف» زينات لا تعبر باللسان ولا توصف بالقلم . فقد قيل «متى كان السماع كالعيان» ! ، فى هذه الأيام يظهركَمْ بمصر من الأثرياء والمنعمين وأصحاب الدولة ، فإن كلاً منهم يظهر ما بيده من الذهب القليل والكثير والمرصعات العجيبة فى أسواق الحسن والجمال ويزين حانوته عارضًا ما بيده من السلع ، حتى تنقلب مصر أم الدنيا العجوز عروسها الفتية . فقد كنت أنا الفقير فى مصر فى سنة [١٠٨٤؟] فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا فشاهدت الأفراح التى أقيمت بمناسبة فتح السلطان محمد خان الرابع لقلعة «قمانيچه» فبهت و «العظمة لله» . فقد كانت الليالى كلها ليلة القدر والأيام العيد الأكبر . فالطوائف العسكرية التى تتذمر دائمًا والتى يتعسر ضبطها وربطها أولاً وآخرًا لم تكد تتلقى «الدستور السلطانى» حتى شرعت قائلة «ما أبالى» فى ارتكاب فضائح لا توجد تحت القبة الزرقاء فى غير القاهرة . فالضجة المصرية والأبهة المصرية وسمعتها وطنطنتها وجعجعتها ، هى مصر أم الدنيا . إنه وإن كانت استانبول أيضاً مدينة عظيمة إلا أن أهلها يعيشون على الضبط والنظام . وإذ أن الطوائف العسكرية المصرية فى شكاية دائمة فجميع الشبان والشيوخ والفقراء والأغنياء لا يكاد يرفع عنهم القيد حتى يشرعوا فى المشاجرة كأنهم خيول شرسة رفع عنها قيدها . إنه لشجار «هُدر» لا يمكن معه لأحد التحكم فى أولاده وأهله أو خدمه ومماليكه فى هذه الأيام . فكل يمضى وقته فى الطرب واللذة فى الجهة التى يريدها والاجتماعات الخاصة . ولا تحدث فى القاهرة زينات وأفراح دون أن تكون مترافقة مع أمثال هذه الأمور من الطرب واللذة والبهجة والسرور .

هذا إذا كان الفاتح هو السلطان . وأما إذا كان الوزير الأعظم فتقام الأفراح اثنتى عشرة ليلة ؛ «ومن كان الختم بيده فهو سليمان!» وإن كان الفاتح هو القائد الأعظم فتقام الأفراح مدة عشرة أيام أو سبعة أيام ولياليها .

وأما أصل كثرة السرور والأفراح بمصر فناشئ عن كونها إقليمًا آخر ، فهى ولاية جزيرة القاهرة . فأهلها يشرعون فى الشجار لأتفه الأسباب ، وذلك لأن طبع مصر «زهرى» فلذا يميل شعبها إلى الموسيقى والغناء واللهو واللعب . ثم إن شعبها الكبير العدد ، كثيرُ المال الذى يساعده على الإنفاق فى الطرب والذوق والصفا . وكما أن عزيز مصر كان مغلوبًا لامرأته زليخا فإن المصريين لا يزالون مغلوبين لنسائهم وخدمهم ، ميالين للطرب واللذة والصفاء والشقاء رغم أنوفهم . فكلما يتمكنون من فرص يقيمون أفراحًا عظيمة . إن الأفراح التى أقامها إبراهيم باشا بقراميدان بمناسبة فتح «قمانيچة» لم يُقَم مثلها منذ عهد آدم ولن يقوم . فقد أنفق عشرين كيسًا مصريًا على اللاعبين بالطيور والألعاب النارية وغيرهم من أهل المعرفة والفن ، وزين القراميدان بمائة ألف قنديل حتى صار ميدان النور «حفظك الله» .

-٢٨-

فى بيان نفقات شمع العسل والبخور والعود والعنبر الخاص بمكة والمدينة

يأتى مكان هذا الموكب بعد موكب الخزينة التى وصفناها سابقًا . وليس فى هذا الموكب جنود . وكل ما يحدث أن رئيس المسكجية و«حاصل خرج» الباشا يجمعان كل ما يوجد من الشمع الكافورى والشمع الملم ثم يطلبان عتالى بولاق فيحملانها من مصنع الشمع ، شموعًا كافورية بيضاء يضعونها على ألواح (طبله) يحملونها فوق رؤوسهم . وفى هذا القدر من الألوح والأقفاص ضروب من البخور الممسكة المعنبرة ، وخمسون قِدرة (قزان قله) من ماء الورد وخمسون «شمامة» عنبر واثنتا عشرة ألف قبة قناديل وكلها خاصة بالقاهرة وعلى قبة القناديل قنديل زيت مشعل . وفى كل عام يأتى من «سوس» ببلاد المغرب زيت الزيتون النقى الشبيه بماء الحياة يحملها العتالون فى جرار إلى الديوان . يحمل الحمالون خمسمائة صندوق من القناديل على لوحات (طبلات) فوق رؤوسهم ويسيرون منادين «الله ينصر السلطان» حتى يبلغوا حضرة الباشا بديوان الغورى ، فيأخذ بعض الشموع المصنوعة من شمع العسل ويكسرها ليختبر مقدار نقائها وخلوها من الغش . إن وجودها مسكية كافورية وخالية من الغش ألبس رئيس المسكجية و «حاصل الخرج» ورئيس الشماعين خلعا ، ثم حضر الوزانون فوزنوها جميعًا وقيدها

الروزنامجى . ثم يرشد الباشا الدفتردار رئيس المسكجية إلى موضع سليم (صاغ) يحصّل منه ماله . حتى إذا تمت هذه الإجراءات وضعت الشموع فى صناديق مسكية باللباد وسلمت إلى رؤساء السويس ، ودفعت أجور حملها من الميرى . وهى أيضًا خزينة ، بيد أنها نفقة قذرة[1] قليلاً .

-٢٩- (الخزينة ٢٢)

خزينة المأكولات والمشروبات التى تُرسَل إلى المطبخ السلطانى والكيلار[2] الخاص

ليس فى تحصيل هذه الخزينة السلطانية «آلاى» من آلايات الجنود المصرية . وكل ما يحدث أنَّ الباشا يخلع على كبير من أمراء مصر خلعة فاخرة ويعينه أميرًا «بك» لتحصيل الكيلار السلطانى . وهو بعد ذلك لا يُكَلَّف بأسفار أخرى ولا بالرياسة على الغير . (غير قوللر) . يخرج هذا البك مع خمسمائة من رجاله فيجمع من فارسكور (فى المتن Memkeir ومدينة منزل Menzel[3] وبندر دمياط ومركز (قضاء) بئر مشعل وبندر رشيد وغيرها من البلاد المنتجة للأرز خمسمائة ألف إردب من الأرز وألفى قفص سكر معادى وثلاثمائة فردة بنا ومائتى ألف أردب من العدس ، ومائتى ألف إردب من الحمص ، ومائة قِطْمَةKitma حناء ومائة رسيد Resid من التمر وغيرها من الطعام ويخزنها فى مخزن كبير خاص لذلك فى مدينة رشيد . ويحضر من استانبول «خليفة» (قالفة) من مصنع الحلوى الخاص إلى ديوان الغورى فيُبرِز أمام الباشا ما يحمله من الأمر السلطانى ، فيحصر جميع ما بحدائق القاهرة والفيوم من أشجار «خيار شنبر» وليمون و«حماس» ويقبضها على حساب الميرى وإذا حل موسم تلك الأشجار أمر رئيس الحلوجية بمعرفة أمين خيار شنبر - أمر الدفتردار يجمع أثمان ماء الورد وماء الكادى ومئات الأنواع من العطريات والدهنيات للخزينة السلطانية . ويجمع مائة قنطار من الورد الممسك والليمون والبنفسج «والحماس» والتمر الهندى والنيلوفر . ففى مصر تكثر هذه الأنواع من المشروبات وأما «البياض» وعنبر باريس فلا وجود لهما .

(١) ربما يقصد ، متدنية . (د . متولى) .

(٢) الكيلار أى المخزن وقد سبق ذكره . (د . متولى) .

(٣) ربما يقصد ، المنزلة . (د . متولى) .

وأما المعاجين ففيها سبعون نوعاً من المعاجين المقوية المفرحة المنعشة النافعة ، ومنها «الترياق الفاروقى» و «الفاروق الأربع» ومعجون العقرب و «معجون السقنقور البرى» و «معجون السقنقور المائى» و «معجون عين التمساح» و«قلب التمساح» و«سن التمساح» ، إذا كحلت بها العين التى عليها السحاب بمرود راقت بأمر الله وزادت قوة البصر إلى حد أن صاحبها يستطيع رؤية السيارات السبعة فى منتصف النهار . ويرسل رئيس الحلوجية من هذه المعاجين والمربات والمشروبات عشر جرار إلى الباشا الوزير ، وثلاث جرار للكتخدا ، ويسلم الباقى لكيلار الخاصة ويأخذ بذلك حجة شرعية . ثم يجهز بك الكيلار خمسين سفينة لنقل هذا القدر من الأرز والسكر وغيرها فى موسمها المناسب من بندر [الإسكندرية] ويحدث أحيانًا أن تقدم اثنتا عشرة سفينة حربية (فادرغه) إلى الإسكندرية على حسب القانون فيشحنها «بك الكيلار» بما فى عهدته من الأشياء ويأخذ حجة بذلك من أمراء (بكوات) السفن وتتم مأموريته بذلك . وهذه أيضًا خزينة مصرية حسب القانون السليمى .

-٣٠- (الخزينة ٢٣)

فى بيان خزينة سبعة آلاف قنطار بارود أسود من الخزائن المصرية على حسب القانون السلطانى

ليس فى هذا الاحتفال من الآلايات العسكرية سوى المدرَّعين (جبه جيان) والبارودجيه وصانعى الأسهم النارية (نشنكجيان) . ففى ركن من ساحة قصر الباشا مصنعان ذوا قبتين مسدَّستين عاليتين لصناعة البارود ، فى كل منهما أربعون شابًا (جوان) يديرون دواليبهما بالخيول ليلاً ونارًا لضرب البارود ، فهو مشهد عجيب . بيد أن مشاهدته ملعونة كالبارود ، تتم فيهما صناعة البارود ثم تعرض منها عينات (چاشنى) للباشا . والحق أن البارود المصرى أعلى من البارود البغدادى ، لأن ملح البارود المصرى يكون مكوناً فى قطع بيض لطيفة كل قطعة فى حجم الرحى . وله سبعون قرية ميرية يكلف ملتزموها بالقيام بذلك العمل . ففى كل أسبوع تأتى قافلتا جمال محملة بملح البارود الذى يسلمه الملتزمون إلى رئيس المدرعين وضباط البلوك وكتخداهم بخلع ثم يوضع ثلاثة آلاف قنطار منه فى غرائر كتانية خاصة بذلك وتودع الغرائر فى مصنع البارود بالقلعة الداخلية وتُلَف الغرائر بعد ذلك بجلود الجمال ، ثم تحمل على ثلاثة آلاف من الخيل والجمال مما تستخدم فى حمل الأثقال بالقاهرة .

وبعد ما تتم تلك الإجراءات يسير موكب صناع القذائف النارية مع ضباطهم راكبين ، حاملين بأيديهم العصى وهم ينادون «أيها الإخوان المدخنون ، ويا أوسطى الحداد والنحاس ، لا تشعلوا النار» ؛ فلا يدخن أحد فى تلك الشوارع فى ذلك اليوم ولا يمكن لأحد من الحدادين والنحاسين والقفالين أن يشعل النار ويقوم بعمل ، كما أن أصحاب البيوت المطلة على تلك الشوارع العامة لا يستطيعون البقاء فى بيوتهم بلا إشعال النار . إن حمل بضعة آلاف حصان من نار الغضب لوجع رأس عظيم! .

تبدأ الأحمال بعد ذلك فى السير فى قافلة وبجانب كل دابة رجل يضرب الناس بعصاه ويكسر ما بأيديهم من «الچوبوق»[1] وتمر القافلة على هذا النظام ، وتمر بعد ذلك ستة آلاف قنطار من فتيل الكتان ، وهو أيضًا مربوط ربطًا محكمًا فى فردات يمنية ، ومحملة على خيول وبغال بجانبها ثلاثة آلاف بربرى من الذين يبرمون الفتائل ، يسيرون حافين ضاربين الفلاحين بالعصى . حتى إن بعض المفلسين من أغوات الباشا يتفكه مقسماً بأنه خرج من القاهرة بثلاثة أقواد أو خمسة أقواد . ومن يسمعه يحسبه قد خرج منها بجياد أصيلة فى حين أن ذلك المفلس قد خرج منها بقَوْد الفتيل .

يمر بعد ذلك ضباطهم على جيادهم جماعات جماعات ، فيقلبون البارود الأسود بتنبيهاتهم الشديدة بلاء أسود . وبعد الجميع يسير رئيس المدرَّعين مرتدياً خلعة فاخرة على ثيابه السمورية ويتبعه أربعون أو خمسون غلاماً من غلمانه الخواص ضاربين كوساتهم عابرين مع موكب النار . وتشحن به السفن الراسية ببولاق ، فترسل إلى رشيد التى ينقل فيها إلى «جريمات» تنقله إلى الإسكندرية وفيها تشحن به السفن الحربية التى يعطى ربابينها رئيس المدرَّعين حجة شرعية بذلك . وهى أيضاً خزينة مصرية والسلام .

-٣١- (الخزينة ٢٤)

إيراد قاضى مصر القاهرة وقسامها العسكرى وستة وأربعين قاضياً بالأقاليم المصرية يكوّن «خزينة مصرية»

إنه زائد فى زماننا أيضاً لأنهم صاروا يحصلون المال بوساطة الشرع . وأما قاضى مصر فيحصل ثلاثمائة كيس على وجه العدل . وقضاء مصر «مولوية» جدّ لطيفة . وما زال قانون السلطان محمد خان الرابع جارياً بأن يُرَقَّى القاضى إلى «مولوية» مكة التى يُرَقَّى منها إلى «مولوية» استانبول .

(١) سبق تفسيرها . (د . متولى) .

-٣٢-

الخزينة الخامسة والعشرون أوقاف سلاطين مصر الماضين والوزراء والأعيان والأشراف

لما فتح السلطان سليم مصر وصار خاير باى وزيراً لها وأحمد بن كمال باشا قاضى العسكر بها أجرى قيدًا للأملاك بقلم الغزالى فوجد بالقاهرة نفسها سبعة وسبعين ألف وقف من الأوقاف الخيرية ولا يزال اثنا عشر ألفاً منها باقية عامرة . وكل من يعين قاضياً لمصر مُكَلّف بأمر سلطانى بتفتيش تلك الأوقاف وفحصها . وهو يفتشها مرة فى السنة فيحصّل جنيهاً (ذهباً) عن أدنى وقف . وهناك أوقاف يتناول عنها القاضى أربعين وخمسين ومائة ومائتين وخمسمائة وألف جنيه فى العام . ولتلك الأوقاف قرى عظيمة عامرة و «رزقات» وفدادين ورواتب وأموال من الميرى . وقد ورد فى الدفتر خانة المصرية بأن ثلاث خزائن مصرية تُحصّل من قرى الأوقاف حسب إحصاء الغزالى .

-٣٣- (الخزينة ٢٩)

فى بيان الخزائن التى يحصلها الميرى من مصر لنفسه

جعل القانون السليمى أربعمائة وسبعين كيساً مصرياً «كشوفية» لولاة مصر مقابل الخاصة السلطانية . ولهم ألف «پارة» يومياً من قِبل السلطان أيضًا للإنفاق على الفقراء صدقة ، وهذا أيضًا يكوّن مبلغاً قدره تسعون كيساً مصرياً فى العام . وزيادة على ذلك ترد إليهم مجوهرات قيمة ، وتحف صغيرة ثمينة عن طريق الهدايا تبلغ قيمتها «خزينة» مصرية فى العام . ومع ذلك فمن المحتم تحصيل خزينتين أخريين فى كل عام . فقد حدث حين كان الفقير بمصر أن حصّل إبراهيم باشا الكتخدا وهو والى مصر ثلاث خزائن مصرية لأنه كان فى حماية فاضل أحمد باشا الكوپريلى الوزير الأعظم بالآستانة . ومن حكمة الله أنه حدث أثناء ولايته طاعون رهيب بمصر حتى صارت قريةٌ «محلولة» تسع مرات فى ثلاثة أشهر وبيعت بديوان القاهرة . هذا حظ معجّل ، وقد قال بعضهم أنه استدرج . ولم يطل عمره ولكن كان رحمه الله وزيراً عظيماً مجيداً منبع الكرم كحاتم الطائى وجعفر البرمكى . كان ينفق خزينة من الخزائن الثلاثة فى المأكولات ويدخر خزينتين .

ـ ٣٤ ـ (الخزينة ٣٣)

فى بيان الخزائن التى يحصلها ٢٣ أغا أصحاب الرتب من أغوات الباشا لأنفسهم

إن كان مدير مكتب الباشا رجلا بصيرا بالأمور ومدبِّرا حصَّل ألف كيس من المال . وإن كان غير كفء ظل فاتحا فمه نحو السماء . ويربح المحافظ خمسمائة كيس . فقد قال الوزير الأعظم الدرويش محمد باشا للفقير «إنى كنت محافظ القاهرة حين كان محمد باشا طابانى ياصى وزيرها . فربحت خمسمائة كيس مصرى وقال هذا للفقير وهو وزير أعظم .

ثم إن أفندى الديوان والمراجع وكتخدا الحجَّاب والخزندار وحامل الأختام وكاتب المحلولات والأمير أخور ومدير بيت المال وحاصل خرج (وكيل الخرج) وكتخدا وكيل الخرج ، وأمين الأنبار وأغا الرسالة وأغوات دمياط والسويس ورشيد والإسكندرية وبنى سويف والمنيا ومنفلوط وجرجا ، فهؤلاء الخمسة والعشرون أغا يحصِّلون لأنفسهم كيسين مصريين من المال . ويحصل سائر الأغوات خزينة أخرى . وثمة خمسة من أغوات الخفر يحصلون لأنفسهم خزينتين مصريتين .

ـ ٣٥ ـ (الخزينة ٣٩)

الخزائن التى يحصلها ٢٥ أميرا من أمراء مصر و٤٠ من بكوات الچراكسة وسائر الأعيان

ورد فى سجل الروزنامجه أنه بعد تحصيل ما على جميع قرى القطر المصرى ، وعددها [ألف قرية] من الأموال و«غلق حسابها» تحصَّل خمس خزائن مصرية من المال لأعيان مصر . والحق أن ما يُحصَّل من المال أكثر من ذلك . فقد حدث أن عرض عبدالرحمن أفندى «الروزنامجى» على إبراهيم باشا الكتخدا حين كان عزيز مصر أن ثلاث خزائن مصرية لمقربى السلطان وسائر الأعيان والأشراف المقيمين باستانبول من القرى التى يملكونها بمصر . ولما عرض الباشا ملخص هذا الأمر على العاصمة وأحضِر عبدالرحمن أفندى الروزنامجى إلى استانبول ومثل أمام السلطان سأله قائلا «أيبقى من

المال ربًا زائد؟ فأجاب الروزنامجى «أقسم يا مولاى بأن خمس خزائن من المال تبقى لعبيدكم الأمراء والأعيان والأشراف» وحظى بعطف سلطانى وأعيدها إلى القاهرة معززا مكرما . وقد تعادل إيراد مصر ومصروفها فى زمانه وزال التداخل . وبعد ذلك جند إبراهيم باشا ثلاثة آلاف جندى لمكة فعزل الشريف سعد فى حج سنة ١٠٨٢هـ وأقام الشريف بركات مكانه . وإذ أن عبدالرحمن أفندى الروزنامجى كشف السر فى حضرة السلطان أمر ابن جانبلاط بقتله . هكذا تحصل ثمانى خزائن مصرية من المال .

ـ ٣٦ ـ (الخزينة ٤٤)

فى بيان ثلاث خزائن يحصلها الأصناف الآتية لأنفسهم

جملة ما بإيالتى مصر والصعيد من القرى ألف قرية مقسمة أربعة أقسام . فالقسم الأول بلاد ميرية تدفع المال السلطانى . والقسم الثانى قرى «الكشوفية» الجيدة والقسم الثالث قرى الأوقاف الخيرية . والقسم الرابع قرى الكشافين والأمراء والملتزمين وقد سبق أن كتبنا عن الخزائن الباقية (فائض) لأصحاب هذه القرى بيد أن لهذه مشايخ البلد وأصحاب الثقة (صاحب ديرك) والشهود والمرشدون والكتاب الأقباط فهم أيضا يحصّلون خزينة مصرية من المال ليستروا أنفسهم .

ـ ٣٧ ـ

الخزينة المصرية الثامنة والأربعون

إن ما بقرى الإيالتين المذكورتين من الرعايا والبرايا الذين لا يحصرهم حد ولا عد يزرعون الأرض المصرية سبع مرات فى العام فيحصّلون سبعين نوعا من المحصول . ليس فى الكرة الأرضية تراب خصب كهذا ولا رعايا مجتهدين من العرب كاجتهاد «فرهاد» و«فلاحون» «دهاقنة» ، ولا قوم جبارون غير مصلحين! فالطائرون فى السماء والساعون فى الأرض والعائمون فى المال يحصلون المال لأنفسهم فيقدمون أعشارهم إلى أغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكاشفيهم أموالا ميرية ويسدون ديونهم ، ثم يبقى لهم بعد ذلك خمس خزائن مصرية من المال . هكذا قيد فى السجل . وبهذه الخزائن التى يحصلها الأهالى يبلغ عدد الخزائن ثلاثا وخمسين خزينة .

- ٣٨ -

الخزينة الخامسة والخمسون هى الخزينة التى يحصّلها تجار بنادر مصر السبعة

أعطى الكتخدا إبراهيم باشا الإسكندرية ورشيد للالتزام فى مقابل كيس عن كل منهما يوميا . وبندر دمياط مقابل مائة وأربعين كيسا فى العام . وأعطى بولاق وباب النصر ومصر القديمة والمعادى التى قبالة البساتين لأمين الإحصاء (تحرير) مقابل مائة وخمسين كيسا فى السنة . وأعطى تنويس [لعلها تنيس] التى تسمى «أمانة البهار» مقابل ثلاثمائة كيس . ويحصل منها فى بعض السنين خمسمائة كيس . وعلى هذا الحساب تحصل خزينتان مصريتان من تلك البنادر السبعة فيكون المجموع سبعا وخمسين خزينة مصرية

- ٣٩ - (الخزينة ٦٠)

الخزينة التى يكونها التجار القادمون إلى تلك البنادر السبعة المصرية

يرد التجار من بلاد العرب والعجم والهند واليمن ، أو بالاختصار من الأقاليم السبعة حاملين أمتعة وسلعا فيبيعونها ويحصلون منها ثلاث خزائن مصرية من المال .

- ٤٠ - (الخزينة ٦٥)

يربح ما بالقاهرة من أهل المائة والسبعين حرفة خزينتين مصريتين

كتب العارفون والواقفون على الأمور أن الحجاج المسلمين القادمين إلى مصر من مختلف بلاد الإسلام من الأقاليم السبعة ينفقون فيها ثلاث خزائن مصرية .

- ٤١ - (الخزينة ٧٣)

فى بيان خزينة الحبوب الواردة إلى أنابر[1] يوسف بالقاهرة

وردت فى أوصاف مصر القديمة أن هذا الأنبار بناه يوسف عليه السلام ، وسبب

(١) يجمع المؤلف كلمة أنبار وهى فارسية متركة على أنابر أى مخازن . (د . متولى) .

بنائه له مصرح فى الآية الكريمة فى سورة يوسف حيث وردت فيها «ودخل معه السجن فتيان «كما وردت رؤيا الملك الريان وهى ﴿وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ تلك الآيات الكريمة فى يوسف عليه السلام ونزلت على حبيب الله على طريق القصص. وقد صرح بذلك فى جميع التفاسير ونحن نكتب هذا الأمر هنا باختصار تام.

فسَّر يوسف رؤيا الملك الريان بأنه سيحدث مدة سبع سنوات جدب وغلاء. ومات الملك الريان وهو مهتم بإقامة هذه الأنابر. ثم حلت بيوسف عليه السلام الخلافة والنبوة مع مرور الأيام، فأتم بناء تلك الأنابر. ولا تزال العادة جارية حتى اليوم حين ملء تلك الأنابر الأربعة بالحبوب فى كل عام، بأن يجتمع أهالى الولاية وشيوخ الفِرق (أوجاق) وأغوات البلوكات السبعة، والباشا الوزير والقاضى، وأن يفتحوا أبوابها ويرفعوا أربعة أعلام بالدعاء والثناء، وأن يقيم أمين الأنابر مأدبة عظيمة للباشا يقدم إليه فيها هدايا مؤلفة من جواد مسرج بسرج فضى وغدَّارة مرصعة ودبوس، وجواد آخر ذى سرج عادى وثلاثة أكياس مصرية من المال، وثلاثة طواشى وألف إردب من الغلال. ويخلع عليه الباشا الوزير خلعة فاخرة ثم يأمره بأن يكون مستقيما. وأما مأدبة بعد الظهر فيقيمها ناظر الأنابر وهو أحد أغوات الباشا الوزير. حتى إذا فرغوا من الطعام قدم الأغا هذا إلى الباشا هدايا وهى جواد أصيل محلى وطواشى واحد. ويحظى من الباشا بخلعة فاخرة كما ينصرف ضابط الأنبار وكاتبه والكيال وهم جميعا ثلاثة وعشرون نفرا إلى بيوتهم فرحين مسرورين بخلعة عزيزة من عزيز مصر. وإذ تمتلئ الأنابر بالغلال وتُرفَع الأعلام إيذانا بذلك يشرع أهل القاهرة فى إقامة الحفلات. بينما المحتكرون والمسببون يبكون ويتأوهون لاضطرارهم إلى إخراج ما بأيديهم من الغلال وبيعها بثمن بخس محرقين أكبادهم. إذ لا يحدث الرخص والرخاء فى أم الدنيا إلا بعد امتلاء تلك الأنابر. وذلك لأن جميع الطوائف العسكرية المصرية و«الكشيدة» والأيتام والمتقاعدين، و«الجوالين» والطواشية والنساء وغيرهم من حاملى البراءة الذين يبلغ عددهم سبعة وأربعين ألف وسبعمائة نفس من بنى آدم، ومليون وستمائة ألف نسمة من السكان على حسب إحصاء بيرام باشا، يحتاجون جميعا إلى أنبار يوسف هذا. وللعسكريين رواتب شهرية وجرايات. وإن تأخرت نفقاتهم شهرين جعلوا «أم الدنيا» ضيقة على الباشا بالصراخ والضجيج وأنبتوا جراياتهم من الصخور.

تُموَّن أنابر يوسف عليه السلام بمحصول ولايتى جرجا والصعيد العالى ، وله كتبة وأقلام خاصة وهى بأيدى سبعين أستاذا (خليفة ـ قلفة) وسبعين «طرَّاسى» وسبعين «كحال» وسبعين «مغربلا» وهم الذين يغربلون غلال الطوائف العسكرية ويسلمونها إليهم نظيفة ، والمار ذكرهم جميعا خدم الأنبار . وأما كتاب الأنبار فقد حسبوا ما يدخله من الغلال قراطا قراطا ، فمجموع ما يدخل هذه الأنابر من غلال القمح (حنطة) ثلاثمائة ألف أردب ، وغلال الشعير (. . . .) أردب وغلال الفول (. . . .) أردب . وقد كتب بأن هذه الغلال إذا اقتضى الأمر بيعها فى السوق السلطانية بالمزاد العلنى ، فيحصل مبلغ من المال قدره ثمانى خزائن مصرية «اللهم عافنا» ، إذ أنه إذا امتنع النيل عن الفيضان ولم يحدث الرخص والرخاء فإن الناس كافة يطالبون الباشا بتلك الخزائن الثمانى . ووجود ثمانى خزائن من الغلال ثابت محقق ومشهور فى الدنيا ، وليس هذا فحسب فإن أنابر يوسف لا تشتمل على أرزاق بنى آدم وحدهم ، بل هناك أسراب من الحمائم الطائرة فى الجو أرزاقها من هذه الأنابر وإذ أن الأنابر غير مسبوقة فإن هذه الطيور الطيبة تحط عليها أسرابا أسرابا وتتناول طعامها .

إن إيراد هذه الأنابر ومصاريفها ليعجز عن إدراكها كل الوزراء وكل ذى عقل أرسطاطاليسى من أرباب القلم . فهى الآن مصنع الفلك تدور دائم الدهر فتمتلئ وتفرغ ويتكفف عنها جميع مخلوقات مصر «زادك الله تعالى» . وكان لهذا الحقير أيضا نصيب فيها مدة ثمانية أعوام .

وأما الآلام والشدائد التى يقاسيها ولاة مصر حينما يُعزَلون من مناصبهم فناشئة على حسب إدراك هذا الفقير بقلة القاصر ، عن الهدايا التى يتناولونها من الناس دون قضاء حاجاتهم وحل مشاكلهم وإعطاء الكاشفيات لرجال مدينين مفلسين ، وإعطاء نظارة أنابر يوسف لغير الأكفاء وعدم محاسبتهم شهرا بشهر . ولهذا ينكسرون فيُحبَسون . ومن تجنب من الوزراء تلك الأمور الثلاثة تخلص من مصر سالما إن شاء الله . لأن مكر مصر لمكر عظيم . حتى إن إبراهيم باشا الكتخدا وهو الوزير البصير المدبر الذى لم يأت إلى مصر وزير مثله فى العهد القريب والذى كان وحيد عصره فى الكتابة وعلم المحاسبة وظن أنه وازن الإيراد والصرف كذا ألف «آقچه» يوميا من المحلولات ، ووضع الدفاتر فى صندق ذى قفص فضى وربط خزينة مصر على شهر توت فزعم أنه جعل مصر بذلك «بكرا» ، ثم عُزِل من منصبه واستقر فى العادلية بسلام . ولكن لما دخل بعد ذلك

بشهرين حسين باشا بن جانبلاط ودعا إبراهيم باشا للمحاسبة اتضح أنه قد بقى فى ذمته مائتان وسبعون كيسا من أنابر يوسف فطالبه الوزير الجديد بذلك المبلغ الذى دفعه فى لمح البصر ، لأنه كان ثريا . وكان لإبراهيم باشا ثلاثمائة كيس من بقايا المال على الكشافين وأمناء وملتزمين ولكن حسين باشا لم يقبل الجلوس على تلك الديون وقال «إنى أنا أقدر على تحصيل أموالى فعيِّن رجلا بدلى لتحصيلها» ؛ فترك إبراهيم باشاكتخدا حجابه بمصر لتحصيل تلك البقايا ثم غادر مصر «متصرفا» على بلاد الشام . ومعنى ذلك أن أنابر يوسف موضع خطر إلى هذا الحد ، لأن لصوصه كثيرون وليس به مستقيم . إنما يملأ تلك الأنابر هو الله دائما وهو يسترها . وموجز القول إن مصر هى أم الدنيا كما هو المشهور ، وهى التى تطعم الدنيا كلها كأنها أمها ؛ فقد قيل إذا خربت الدنيا أصلحتها مصر . تعجز القلوب عن الوقوف على أحوالها . كما أن أطوارها وعاداتها وقوانينها بعيدة عن التعبير باللسان والتحرير بالقلم . وأما أنا الفقير كثير التقصير قليل البضاعة كثير السياحة فقد حركت قلمى العاجز على قدر الطاقة فوصفتها بلا حياء وصفا كأنه قطرة فى بحر أو ذرة فى الشمس .

فليكن معلوما للإخوان الظرفاء أن الخزائن المصرية التى وصفناها سواء كانت ذات الحفلات أو غير ذات الحفلات ، ويبلغ عددها واحدا وسبعين خزينة . وكل خزينة ألف ومائتا كيس مصرى . ففى أى بلاد يحصَّل مثل هذا المبلغ من المال؟ وإنما نشأت شهرة مصر بأم الدنيا من هذه النقطة . أى ملك على ظهر الكرة الأرضية ملك هذا القدر من المال «أيد الله الخلافة إلى انقراض الزمان لذرية آل عثمان» .

هنا انتهى وصف دخول وزير مصر القاهرة بموكب عظيم وخروجه منها ، ووصف حفلات قطع جسور النيل والخزائن ومجموعها ست وثلاثون حفلة عظيمة . أما مواكب الباشا حين ذهابه بضعة أيام فى السنة إلى أنابر يوسف وإلى مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة لصلاة الجمعة الأخيرة من رمضان كل عام ، وذهابه مرتين فى الأسبوع إلى قدم النبى والبساتين والمقياس (أم القياس) وقصر العينى وقصر السبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى ، وقصر الغورى وقصر العادلية وقصر طوبخانة وغيرها من المتنزهات ضاربا طبوله ، فكلها خارجة عن الحساب . وقد أدخلنا فى خلال الكلام عن تلك الحفلات العظيمة من وقت لآخر ولمناسبات موافقة بعض بيانات مقتضبة عن قوانين التشريفات التى وضعها السلطان سليم خان وسنكتب عنها فى موضع آخر بتفصيلاتها .

الفصل الثانى والخمسون (مكرر)

(وقد سبق فى ص ٤٠٤)

قانون التشريفات لوزراء مصر فى الأعياد

أولا خاصة الباشا الوزير الملكية التى تسمى «الكشوفية» وقدرها أربعمائة وثمانون كيسا مصريا . ثم ثلاثة آلاف پارة يوميا تصدقا للجيب يعطى الباشا إياها للتوزيع على الفقراء ويبلغ مجموعه مبلغا قدره تسعون كيسا مصريا فى العام . ثم إن أمين بيت المال التابع للباشا يضبط جميع بيت المال ما عدا بيت مال الانكشارية ويقدم أغا الانكشارية المصرية إلى الباشا «كشوفية» قدرها ستة أكياس . ويأخذ لنفسه عشرة أكياس من بيت مال الانكشارية وتحت يد أغا الانكشارية سبع نظارات منها السليمانية والدشيشة الكبرى . وعن يده يصل إلى مكة والمدينة [٤٢٠٠٠] إردب من الغلال فى كل عام . ثم إن أغا الانكشارية يأخذ اثنين وعشرين كيسا من الباشا كى يحمل عربان الدشيشة الكبرى على الحمل .

فيضغط عليهم ويعطيهم شيخ العرب . هذا من جهة ومن جهة أخرى إن شيخ عربان الدشيشة يدفع للباشا ثلاثة أكياس وثلاثة أفراس أصيلة وخمسين جملا فى نظير تعيينه شيخا . ولما كان تابعًا لأغا الانكشارية فعليه أن يدفع أيضا كيسا من المال وكيسا لمدير مكتب الباشا وتلك المبالغ «حالية» وعند ذلك تشرع آلاف الجمال فى نقل ما بأنابر بولاق من الغلال إلى السويس التى ينقل منها إلى مكة والمدينة محمولة على سفن .

وحينما يبلغ الباشا الوزير الصالحية قادما من استانبول لأول مرة يقدم إليه كتخدا الچاويشية بعض الهدايا عبارة عن جواد أصيل ذى سرج فضى وزمام ذهبى وعدة مرصَّعة ودبوس وغدّارة مرصعين وعشرة أكياس ، وهدايا من الجواهر الثمينة . كما يعطى رئيس فرقة المتفرقة كشوفية قدرها ثمانية أكياس فى العام للباشا الوزير وكيسين لمدير مكتبه وعشرين ألف «پارة» لأفندى الديوان . ولما كان جميع محافظى القلاع بالقطر المصرى يُعيَّنون من فرقة المتفرقة حسب قانون السلطان سليم خان فإن رئيس المتفرقة يتقاضى منهم سبعين ألف «پارة» حين يعزل أحدهم أو يبقيه فى منصبه . ولرئيس المتفرقة نظارة «خان الباشا» الذى برشيد ترد منه ثلاثة أكياس . وعلى رئيس المسكجية «حالية» يدفعها عند قدوم الباشا إلى القاهرة وهى جواد مزيَّن . ولكن إبراهيم باشا الكتخدا لم

يأخذ الجواد . فتحول إلى «حالية» تقدم إلى قاضى العسكر حين حضوره إلى القاهرة وتخصم من «كشوفية» رئيس المسكجية . ويلزم رئيس المسكجية بأداء ثمانية آلاف «پارة» وهى خدمة الذراع المصرى . ثم إنه يدفع عشرة آلاف پارة لخازيندار الباشا وأربعة آلاف «پارة» لخزيندار مدير مكتب الباشا وكيسا لمدير مكتب الباشا . وهو إنما يعطى هذه المبالغ لإنقاذ أمواله من مصر حين الضرورة لأنه هو الذى يورد كل ما يحتاج إليه الباشا ومدير مكتبه والمحافظ من شمع العسل وكذلك يورد كل ما يرسل إلى مكة والمدينة من قناطير شمع العسل والبخور والعنبر كما يورد البخور والمسك والعنبر التى تستهلك فى العادلية فى ثلاثة أيام ولياليها حين قدوم الباشا إليها وزيرا يسلمها إلى «بك السماط» ويصرف ثمنها من الميرى . وكلما أقره الباشا على عمله تقاضى منه «كشوفية» قدرها كيس من المال . وإذا تصادف قدوم قاضى مصر فى ذلك الوقت حسبت على الجواد الذى سيقدمه إليه . وعندما يبلغ الباشا القاهرة يقدم إليه أمين الأنابر سبعة أكياس وسبعة طواشى وثلاثة جياد أصيلة عريانة وهى هدايا «حالية» ، وكذلك يدفع كيسين وجوادا وطواشيا لمدير مكتبه ، فيكون المجموع ما يدفعه من الكشوفية تسعة عشر كيسا .

أما أمين الأنابر نفسه فيتقاضى خمس پارات عن كل (. . .) من ثلاثمائة ألف إردب من الغلال . ولما كان الرؤساء يخلطون الغلال بالتراب والغبار فإنه يتقاضى من كل رئيس من عشرة قروش إلى خمسين قرشا حق السكوت . وأما عند القدوم للمرة الثانية التى تسمى «كرتين» فيتقاضى من كل رئيس من خمسة إلى عشرة قروش حق السكّر . ثم إنه يبيع رياسة «الطراسين» ورياسة الكيالين ووظيفة الكتابة الخاصة بالأقباط ، كل وظيفة منها بكيس مصرى . ويحصل هدايا «طيارة شيطانية» يبلغ مجموعها خمسين كيسا . وله «شيطنة» أخرى تسمى «بلطمه» لو حصل المال فيها أيضا لبلغ مجموعه مائة كيس؟ إلا أن الجنود لا يقبلون ذلك ويتشاجرون معه لأنه مال يحصَّل من غلالهم فلذا لا يقرونه على ذلك .

يُعيَّن أحد أغوات الباشا ناظرًا للأنابر فيعطِى الباشا كشوفية قدرها ثلاثة أكياس وطواشى واحد . وأما الأغا الناظر فيتقاضى من أمين الأنبار مخصصا (علوفة) سنويا قدره كيسان فيقبضه شهريا أو عيديا حسبما يريد . بيد أن ناظر الأنبار يجب أن يكون رجلا ذا عقل أرسطاطاليسى فى علم الكتابة لأنه هو المسئول عن جميع حسابات الغلال حين

عزل الوزير . وهو يتقاضى أيضا من قرش إلى قرشين من كل رجل «رسم الختم» كما تُحمَل إليه هدايا كثيرة .

ويعطى «أغا الرسالة» الباشا الوزير «كشوفية» قدرها خمسة وعشرون كيسا . ويحصل لنفسه أربعين أو خمسين كيسا . وهو يعطِى أيضا ثلاثة أكياس لمدير مكتب الباشا وعشرة آلاف پارة لأفندى الديوان وعشرة آلاف پارة للخزيندار . ويرد إلى مكتب الباشا كيس من العوائد من كل من أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا . وقد سبق أن كتبنا عن هدايا الكشوفية التى ترد إلى الباشا الوزير من «بك جرجا» فى أثناء وصف الاحتفال بقدوم ذلك البك .

ولأفندى الديوان عوائد «حالية الحالية» يبلغ مجموعها خمسة عشر كيسا ، يتقاضاها من الكشافين والأمناء والملتزمين . ويتقاضى عن كل راتب أربعين پارة ويرد إليه أربعون حصانا هدية فى كل عام ، وعشرون عُدَّة حصان .

ويبلغ مجموع ما يحصِّل مدير مكتب الباشا «حالية» من أمين الخُرْدة والأمانات السبع (لعلها أمانات البنادر السبعة) والكاشفين والملتزمين والبكوات والقرى المباعة أربعمائة كيس فى العام . وله «حالية» قدرها أربعون عُدة حصان وخمسون حصانًا يتقاضاها أثناء قطع جسر النيل .

وللمحافظ أيضا «حالية» قدرها مائتا كيس يحصِّلها من البنادر السبعة وجميع الأمانات وأمين الخردة . والضربخانة وجمرك «البهار» من أقلامه . خبزه ولحمه من التعيينات ، حتى إن خيوله المرسلة إلى الراعى يقوم أمين الخردة بإحضار كل ما يلزم لها من اللوازم كالقيد والشكال (كوستك) وغيرهما . ويحصل أغوات المحافظ الخواص «حالية» من أمين الضربخانة قدرها ثمانية عشر ألف پارة . كما أن لصرافى المحافظ «حالية» قدرها عشرون قرشا لكل صراف فى كل ثلاثة أشهر يصرفها لهم رئيس الصرافين أثناء صرف الرواتب وللمحافظ وخزينداريه وسراجيه «حاليات» على وزانى «جمرك البهار» وكتابه وسماسرته اليهود وصرافيه . وقد كتب عن كثير من حالياتهم فيما سبق . وكان لحافظ أوراق أفندى الديوان وحافظ أوراق أفندية خدم الديوان راتب قدره قطعتان من الفضة يوميا وألغاه إبراهيم باشا .

ولمدير مكتب الباشا والمحافظ ولأربعين أغا من أغوات الباشا أصحاب الرتب على حسب القانون «حاليات مراعى البرسيم» على حدود الكشافين والأمناء والملتزمين . فمن أراد منهم الانتفاع بها أرسل إليها خيوله ومن أراد الحصول منها على المال أخذ حق المرعى . ولخزيندار الباشا «حالية» على الكشافين والأمناء والملتزمين قدرها أربعون كيسا .

ولأمير أخور الباشا «حالية» سنوية قدرها أربعمائة كيس . وهو يقدم إلى الباشا فى «مأدبة المراعى» هدايا مؤلفة من ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى ، وجواد مزين وجوادين من «صافنات الجياد» . وجميع ما يلزم للخيول والجمال من قيد وشكال وجُل ومخلاة وتبن يتحملها الأمير آخور . يرد للباشا مائتا حصان فى العام وعلى كل حصان «حالية» مؤلفة من قطعة «جوخ» وقطعة قماش وعمامة .

ثم هنا وصف الحفلات عامة وحفلات الخزينة وحفلات تحصيل عوائد التشريفات القانونية عندما يحل شهر توت القبطى فى تموز (يوليه) تنتهى السنة . ولم يبق من الحفلات والخزائن سوى الاحتفال بمولد السيد أحمد البدوى ، ولوازم المأكولات والمشروبات وغيرها التى تدفع على طريقة الصدقات من قبل الباشا الوزير وقاضى العسكر و«الميرى» حسب قانون التشريفات وسوف نبين ذلك .

الفصل الثالث والخمسون

احتفال مشايخ الطريقة البدوية بمولد شيخهم منبع الأسرار ومرجع الأبرار ، القطب العلوى السيد أحمد البدوى(١)

إذا كان أول السنة القبطية وبقى ستون يوما على قطع جسر النيل ، ونزلت النقطة وهو بدء الفيضان ، شرع أتباع السيد أحمد البدوى الحفاة عراة الرؤوس ، ذوو الشعور الطويلة المشهورون بفقراء الدنيا ، فى الإعلان عن مولد السيد أحمد البدوى للناس متجولين فى الشوارع والطرقات والأسواق ، ضاربين الدف والنقارة والقدوم ، ذاكرين ومتغنين بقصائد ومواويل . حتى إذا بقى أربعة وخمسون يوما على قطع جسر النيل بلغ چاويشية فقراء القطب أبى اليتامى السيد أحمد البدوى نبأ المولد جميع من بالقاهرة من المشايخ وأتباعهم فى ثلاثة أيام ولياليها ؛ ففى اليوم الأول من ذلك الشهر يخرج خمسة عشر أو عشرون ألفا من المشايخ وأتباعهم بآلاف الرايات الحمر والأعلام محولين الأسواق السلطانية إلى حديقة الخزامى ورافعين شعائر ذهبية يسيرون ضاربين الطبول والقدوم والنقارات ، ونافخين فى الصور كما ينفُخ إسرافيل . وقد استغرق سبعمائة شيخ من المشايخ الكرام وآلاف من لابسى الملابس المهلهلة ممزقى الصدور حاسرى الرؤوس من فقراء باب اللوق القذرين فى التوحيد . ويستمرون فى السير بهذه الطريقة حتى ميدان قصر الباشا صفوفا صفوفا وجماعات جماعات ذاكرين من أسماء الله «يا رزاق» . حتى إذا بلغوا ذلك الميدان قاموا بالتوحيد السلطانى فأدهشوا المنكرين وجعلوهم حيرانين مبهوتين .

ولما تم الذكر مثل المشايخ أمام حسين باشا بن جانبلاط فى الديوان العالى فدعوا للباشا ثم قالوا : «يا سلطان ، إنا نلتمس أمركم العالى بإقامة مولد السيد أحمد البدوى حسب قانون السلطان قايتباى» فقبل الوزير ملتمسهم وأمر أفندى الديوان بتحرير الأمر الشريف بذلك . وفيه أمر للمشايخ : «يا مشايخ السيد أحمد البدوى وخلفاءه ينبغى أن تقوموا وجميع أتباعكم من بولاق بسفنكم الخاصة بالاحتفال ، فى أول جمادى الأولى وتقيموا المولد فى يوم كذا من الشهر المذكور . كما ينبغى أن تراقبوا الفقراء الذين تحت تصرفكم وأن تُعنَوا بالزوار عناية خاصة وأن تكونوا على بصيرة . وفيه للكشافين : «أنت يا

(١) كتب على هامش الأصل «بما أن مولد الشيخ البكرى الذى فى الصفحة المقابلة فى شهر ربيع الأول فينبغى أن يكتب فى هذا الموضع ، فلا تغفل» وأما نسخة يلديز فقد ورد كما هو المطبوع . (المترجم) .

حسن بك حاكم الغربية ويا مرزا الكاشف حاكم المنوفية ، سيقام مولد بخانقاه[1] السيد أحمد البدوى الذى بجواركما وتحت تصرفكما فينبغى أن تذهبا وجنودكما إلى الميدان وتنصبا الخيام وتقيما فيها من ابتداء المولد حتى انفضاضه . وينبغى أن تكونا على بصيرة بشئون التجار والزوار ، وأن تراقباهم وألا تدعيا أحدا من العربان الأشقياء يحمل نبوتا بيده أو سكينا بوسطه . وإن لقيتما أحدا من العربان المسلحين غير الجنود فعليكما بقتله حفظا للأمن والحراسة .

ولا يكاد الأمر الشريف يصدر إلى المشايخ حتى يقوموا بالدعاء والثناء للباشا الوزير ثم يطالبونه «بحالياتهم» وهى خمسون سفينة من إدارة الرسالة لركوب الفقراء فيصدر الباشا الأمر بذلك إلى تلك الإدارة . وخمسون قنطارا من البكسمات والبصل والجبن الحلوم من المحتسب . ثم يطلبون إلى الباشا «حاليات» التشريفات التى دَرَج الوزراء السابقون على دفعها وهى عمامتان خضروان لقبر السيد أحمد البدوى الشريف وأربع أقات من العود ، وسجادة مزركشة وشمعتان عسليتان تزن الشمعة خمسين أقة ، وخمسون ذهبا لخمسين ختمة شريفة ، وهى «حالية الحالية» يظفرون بتلك المطالب حسب قانون التشريفات ثم يسلمون على الباشا فينزلون إلى ميدان السراى ويكف الفقراء عن التوحيد . ويتلو شيخ الجلادين الأمر الشريف فى حضور أهل الديوان بميدان السراى . حتى إذا تم ذلك يشرع العشاق الصادقون مرة أخرى فى الذكر والتوحيد ويسير ضروب من المجاذيب فى المدينة بضجة وصخب ، ويسير الخليفة على جواد محييا يمينا ويسارا كما يسير شيخ المشايخ مصطفى أفندى الرومى خليفة الشيخ مرزوق الكفافى مترئسًا جميع المشايخ . ويتقدمهم جميعًا منادون ينادون «مولد السيد البدوى فى يوم كذا» ثم يذهبون بالشيخ الخليفة إلى خانقاه بموكب عظيم ويذهبون بخليفة الشيخ مرزوق الكفافى إلى خانقاه وينصرف المشايخ وأتباعهم العشاق كل إلى موئله . هذا هو أول الموالد الشريفة التى يحتفل بها بالأمر الشريف وبعده بعشرين يوما .

مولد الشيخ إبراهيم الدسوقى مولًى النحاس

وهؤلاء أيضا آلاف المشايخ والفقراء الحفاة العراة الرؤوس يسيرون فى الطرق ضاربين

(١) خانقاه ، خانكاه ، كلمة فارسية معربة ومتركة ، معناها : بيت أو مسكن أو زاوية الدراويش والمرشدين حيث يقيمون فيه مراسم التصوف . وهذا المعنى يخالف ما هو شائع فى العامية المصرية . (د . متولى) .

الدفوف والطبول والقدوم ، ورافعين الأعلام وذاكرين اسم «يا رازق» خاشعين هلعين . ولكن ليس فيهم مجاذيب لأن هذه الطريقة البرهانية طريقة سلطانية يحصلون على الإذن والأمر من الباشا الوزير فى ديوان قايتباى على ما بيناه من النظام ، ثم يمضون مستغرقين فى «التوحيد» وليست لهم «حالية» فى قانون التشريفات ولكن الباشا يتصدق عليهم شفقة منه بعمامة خضراء وأقة من العود ملتمسا دعاء الشيخ شرف الدين . وهؤلاء الفقراء أيضا يوصلون شيوخهم إلى منازلهم بمواكب عظيمة ثم ينصرف كل إلى منزله .

وبعد انتهاء حفلات هذين المولدين تقام بالقاهرة حفلة فى كل ليلة للمولد النبوى حتى يبلغ عدد الحفلات ثلاثمائة وستين حفلة ، فتصير الليالى ليلة الإسراء والقدر والأيام العيد الأكبر . ومنها اثنا عشر مولدا يقام بأمر الوزير ينادى بها المنادون . أولها مولد السيد أحمد البدوى الذى سبق وصفه . والثانى مولد السيد إبراهيم الدسوقى ، والثالث مولد جامع الجانبلاطية الذى بأسفل باب النصر والذى يقام فى الليلة السابعة من صفر حين يدخل أمير الحج القاهرة مع الحجاج القادمين من الحجاز وقد كتبنا عنه فى موكب الحج وهو كذلك بأمر الوزير . والرابع :

مولد السيد الشيخ البكرى

فى الثانى عشر من ربيع الأول ليلة الاثنين تزين ثلاثة آلاف وستون شرفة من منارات مساجد القاهرة بمئات آلاف القناديل فيمسى داخل المدينة نورا ساطعا . ولكن لن تكون حفلة مولد عظيمة ذات أبهة وجلال كالحفلة التى يقيمها السيد البكرى على ضفة بركة الأزبكية فى تلك الليلة . فهو يقيم ولائم مدة عشرة أيام ولياليها قبل هذه الحفلة ، يدعو إليها أعيان القاهرة طبقة طبقة ، ففى يوم أئمة المساجد والخطباء ويوم العلماء والصلحاء ، ويوم مشايخ الشرفاء ويوم أعيان الأشراف ويوم نقيب الأشراف ويوم شيوخ الإسلام من المذاهب الثلاثة وفى يوم المدرسين وفى يوم القضاة وقاضى مصر ، وفى يوم وزير مصر وهو يحضرها محبة منه إذا كان معتقدا وقد جرت العادة بقدومهم ، ذلك لأنه خانقاه عظيم . ويقيم فى يوم سماطا محمديا للأمراء لم يقدر كيكاوس على بذل نعم كثيرة مثلها . تقام الموائد ليلا ونهارا فى مائة موضع يتناول منها الخواص والعوام . ولما كانت بركة الأزبكية تكون جافة فى ذلك الوقت فإن المشايخ والأعيان ينصبون فى تلك الصحراء الواسعة البالغة ألف فدان مئات من السرادقات والمظلات

والخيام والأخبية ، يجتمع فيها مشايخ المائة والأربعين طريقة صوفية وفقراؤها ، فيقومون بالذكر والتوحيد . وتقام سوق كبيرة فى جهة منها تباع فيها الأطعمة والمرطبات وضرب من السلع . أما أصحاب القصور والبيوت التى على شواطئ البركة فيزينون شبابيكها وجدرانها وسقوفها بعدد لا يحصى من القناديل التى تضىء كنجوم السماء ، ويطلقون آلاف الطلقات من البنادق والألعاب النارية . ويدوى الجو بأصوات الكوسات السلطانية والطبول العثمانية التى يضربها أمراء اللواء المقيمون حول البركة . ودار السيد قصر منيف مزخرف ومزين بأنواع المقاصير والمشربيات يعجز مداحو القاهرة عن إيفائه حقه من الوصف . وفى كل ركن من تلك الخانقاوات المزينة بمصابيح وقناديل جماعات متلاطمة كالبحر من بنى آدم ينعمون بأنواع الملاذ . وقد اجتمع العلماء والصلحاء حول الحوض الذى بقاعة الشيخ الفسيحة ، وشرح الموشّحون ذوو الأصوات الجميلة فى تلاوة القصة النبوية بألحان منسجمة حزينة . ويقوم سبعون أو ثمانون خادما ظرافا وقد ارتدوا سراويل حمراء بتعطير القصر بإحراق العود والعنبر الخام فى مجامر مرصّعة فتتعطر أدمغة العشاق بأريج مسك العنبر والسنبل الخطائى (زهرة سنبل العصافير) كما تقدم صوان من السكر الممسك وسكر النبات الحموى لإخوان الصفا . ثم تأتى المشروبات الممسكة والمعنبرة فى ألوان من الأوانى الفسفورية المطعمة بالجواهر الكريمة والكؤوس المنبتة تحيى الليلة هكذا حتى الصباح تتلى فيها قصة المولد ثلاث مرات . وإذا كان الصباح أُنعِم على الموشحين والقراء فقصد كل إلى منزله . وخلاصة القول إنها حفلة يقصر اللسان عن وصفها . وفى الليلة نفسها :

مولد النبى بخانقاه الشيخ إبراهيم الكَلشنى

«قدس سره»

وهذه الحفلة أيضا تقام فى ليلة الاثنين فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول فبعض العشاق يذهبون إلى حفلة السيد البكرى وبعضهم إلى خانقاه الشيخ إبراهيم الكلشنى وبعض المحبين يذهبون إلى حفلة السيد البكرى ومنها إلى خانقاه الشيخ إبراهيم الكَلشنى بيد أن الحفلة التى تقام بخانقاه إبراهيم الكَلشنى خاصة لخواص الناس وليست للصائحين «جهجهونلى» والفلاحين والدهماء . فحاضروها جميعا أتراك ورجال الجيش وأرباب المعرفة والطريقة ، نظاف ظراف ، شعراء وكتاب ولا يسمح لأحد من الأغراب أو غير ذوى الشأن بالدخول فيها .

إذا كان وقت العشاء فرش الحرم الملمع الذى بالقبة النيرة الضامة قبر الشيخ العزيز عنبرى الثرى بأبسطة مزركشة فحضر إليه العشاق جماعات ووحدانا وصلوا العشاء مع جماعة كثيرة . ثم تلوا من قلب واحد وجهة واحدة حسب طقوس الشيخ . فبينما يكون عشرون ذاكرا مشغولين بذكر الله فى ناحية إذا ببعض العشاق قد «غلبهم الوجد» فقاموا وشرعوا فى السماع . فما أسرع ما يقوم الدراويش ذوو القلوب المحترقة الذين اشتهروا بالفقر والفاقة فيشرعون فى الدوران . ويتغنى الذاكرون والشاكرون بضروب الأشعار من القصائد الدينية والأذكار والأزجال من مقامات ال «يككَاه» وال «دوكَاه» وال «سيكاه» وال «چاركاه» وال «پنجكَاه» وال «ششكاه» بأصوات داودية حزينة . ويَحدث أحيانا أن ينسجم مقام «عُشاق» مع مقام «نوا» فيستقر «العُشّاق» فى مقام ال «الكَردانية» ولا يزيدونها على ثلاثة مقامات . ويجمع فروع من العشاق جماعة من الغلمان الراقصين فيجتاز مقامات «نكريز nekriz» و«شاهناز» و«هاشيراق Hasirak» ومقام «زنغول Zen-gul» وتصير كَردانية ويستقر مقام «راست» على قول أصفهان . وتدور اثنتا عشرة حلقة من العشاق محتلة اثنى عشر برجا من أبراج السماء ، وقد توفرت عروق المحبة فى الدراويش فعانق بعضهم بعضا والتف بعضهم ببعض مستغرقين بذكر الله فى حلقة كَلشن (حديقة الورد) ثملين بالتوحيد الأرى حتى يفقدوا شعورهم فى رحاب المحبة . ويعلم الله أن من يصغى بإخلاص ، وهو ضعيف خائر القوى ، إلى أناشيد الخيالى والجمالى وعبد الأحد والغفورى الدينية التى يتغنى بها الذاكرون والشاكرون بأصوات حزينة ، مداومين على توحيد المد والجزم وهو لفظ «اللهم» يكتسب قوة ومتانة . وموجز القول أنهم يقومون باثنى عشر فاصلاً من التوحيد السلطانى من اثنى عشر مقامًا لا يقوم بمثله أحد من مشايخ المائة والأربعين طريقة صوفية ، سوى الطريقة المطاوعية والطريقة البرهانية .

وبعد انتهاء هذه الفواصل يخرج چلبى أفندى (الشيخ) من حجرة الخلوة فيتقدم العشاق لتقبيل يده خاشعين معظمين ، بيد أنه لا يمكِّن أحدا من ذلك إلا إذا كان قد سبق أن بايعه مؤثرا عالم الفقراء ، فله وحده أن يلثم راحة يده اليمنى لنفوذه فى مَحْرَم أسراره . ثم إن چلبى أفندى هذا لا يخرج من داره ولا يخالط أحدا من عوام الناس وغيرهم إلا مرة فى العام لحضور المولد النبوى هذا . فهو قائم بالليل وصائم بالنهار على «حمية» دائمة من القيل والقال . ومشغول دائما بالطاعة والعبادة وتلاوة القرآن . وله خط جميل يتعيَّش منه ، يكتب «رسائل» يرسلها إلى بعض الأصدقاء الذين يتقبلون تبركا

بها . أما سبب خروجه فى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى فلقبول بيعة الفقراء ودخولهم فى الطريقة . وبالخانقاه رجال قد اكتسبوا كفاءة لتقلد مشيخة طريقة فى سائر البلاد بإفناء أربعين عاما من أعمارهم فيها ، فيرشدهم الشيخ ويجعلهم أصحاب «سجادة» فهو يستقبل بعض الأصدقاء والمحبين مرة فى العام ويدعو لهم بالخير . ويجلس على سجادة بالجانب الأيمن للمحراب ويظل ساكنا .

وإذا انتهى التوحيد والذكر يصعد أحد الفنانين على كرسى للقيام بدور فرعى فيغنى الموشّحون والذاكرون «صوتا» جميلا . حتى إذا فرغوا من ذلك شرع الأستاذ الذى على الكرسى فى تلاوة «نذكر اسم الله أولا» من قصة المولد النبوى التى نظمها سليمان أفندى البرسى من اثنى عشر مقاما وعشرين شعبة وثمانية وأربعين تركيبا بصوت رخيم . وتتخلل ذلك تلاوة الذاكرين ضروبا من الأصوات . تمضى الليلة هكذا فى صحبة خاصة حتى الفجر . حتى إذا بلغ قارئ القصة الموضوع الذى فيه ذكر ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم فقام فقال : «ولد فخر الأنام» وقف العاشقون شيوخا وشبانا تعظيما وإجلالا وترنموا بهذا البيت «يا رسول الله ، أليس جمالك كشف الدجى وكلامك بلاغ الله يا حبيب؟

(يا رسول الله جمالك كشف الدجى) بصوت حزين من مقام (البنجكَاه) .

وعندئذ يشرع «فقراء» الكلشنية فى تقديم السكر والحلويات والزلابيات وضروب السكر النبات الحموى إلى الأعيان والأشراف . وبعض الفقراء يقدمون اللوز والحمص الشامى والفستق والبندق الرومى الملبس بالسكر ، وغيرها من النقل فى «فوط» وألوانا من المرطبات الممزوجة بالمسك والعنبر فى أوان فغفورية . ويقوم بعضهم بتقديم قهاوى «مجوهرة» مطنطنة وشاى الباديان والسحلب والمهلبية والفالوذج واللبن الخالص والمشروبات البهارية إلى جميع الحاضرين . ثم يقوم فريق من أتباع الطريقة بنشر ماء الورد و«الكادى» والعطر السلطانى وماء البخور وغيرها من المياه العطرية فى قوارير خاصة . ويحرقون العود العنبرى فى مباخر تتعطر بعرقه أدمغة العشاق .

هنا تنتهى حفلة المولد فينصرف من الحضور من أراد الانصراف ويشرع الباقون من المحبين بالخانقاه فى السمار كما يشرع بعضهم فى الذكر والتوحيد ويتلو القراء «عشر» ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ ويقوم بعض العشاق بزيارة الشيخ ثم ينصرفون

إلى منازلهم مسرورين وينزل بعض المحبين ضيوفا على حجر بعض الفقراء فهو خانقاه نظيف طاهر يقصر اللسان عن وصفه والسلام .

وفى هذا الشهر يزين أصحاب الخيرات منارات المساجد التى تقام فيها حفلات المولد ليلا بتعليق المآزر والعمم والأقمشة نهارا ، للدلالة على أن تلك المساجد تقام فيها حفلة المولد النبوى فى تلك الليلة ، ويشد أهل الحى الحبال من بيت إلى بيت فى شوارع تلك الأحياء وحاراتها وأزقتها ويعلقون عليها القناديل ، كما يزين أصحاب المقاهى والمحلات التجارية محلاتهم بأنواع التعاليق والزينات التى لا يوجد مثلها فى بلاد أخرى . والحق أن مصر نادرة العصر . وتتلى قصة المولد أحيانا على منارات المساجد فيأخذ قراء القصة العمائم الحريرة المعلقة عليها . وبعض المنارات تتسع لأربعين أو خمسين رجلا لأنها مبنية طبقات كأبراج ، وكل طبقة تتسع لخمسين رجلا . فيصيح خمسون رجلا حتى الفجر بأصوات تبلغ أوج السماء ليحصلوا فى النهاية على مئزرة .

مولد الشيخ أحمد الرفاعى

هو شيخ الطريقة البرهانية ، يقام مولده فى ليلة الجمعة أول شهر رجب المرجب . وخانقاه مركز عظيم فى سوق الرماحين (مزار قجيلر) تحت جامع السلطان حسن . وقد سبق وصفه حين الكتابة عن التكايا . وهذا المولد أيضا ليس بذى زحام . لا يجتمع فيه غير المظنة الكرام «أهل الحال» من صلحاء الأمة ، فهو اجتماع عظيم لخواص الخواص يقصر اللسان عن وصفه .

مولد الشيخ عمر بن الفارض

خانقاه عظيم على سفر جبل الجيوشى جنوبى القاهرة تقام فيه حفلة المولد مرة فى العام ، يقصده فيها مائتا ألف نفس . وقد أجمع علماء مصر على أن روح النبى محمد صلى الله عليه وسلم تحضر فيه فى تلك الليلة . لأنه يسطع فيه نور فى تلك الليلة لا يحدث مثله فى جوامع أخرى ، فجامع عمر بن الفارض متميز بذلك . ثم إن هذا المولد لا يزوره المتعظمون والمتكبرون فزواره جميعا من الفقراء والغرباء والمساكين والمجاذيب والملاميين . وكثير منهم يظهرون الكشف والكرامات فى ذلك اليوم .

فى بيان «كشف» الشيخ محمد اللبانى

كنا أنا الفقير وإمام الوزير أحمد باشا الدفتردار جالسين على دكة المبلغين ، فقام مجذوب يدعى محمد اللبانى وخاطب الإمام فى هذه الكثرة من الناس قائلا «يا إمام الوزير انزل ، انزل بالعجل إلى مصر ورح إلى الروم بالسلام يا إمام» وجلس مكانه الذى بجانب العمود الذى يقيم فيه منذ سبع وأربعين سنة . والذين سمعوا كلمة «انزل يا إمام الوزير» أولوها بتأويلات مختلفة كموت الوزير ، أو سقوط الدكة التى كان الإمام يجلس عليها . فخاف الإمام ونزل منها . وأما الفقير[1] فحافظت على جأشى ولم أتحرك من مكانى . وما مضت سبعة أيام حتى قامت ثورة عامة فأنزل الثوار الوزير أحمد باشا الدفتردار وإمامه من القلعة وعزلوا الباشا من الوزارة واتضح ما أشار إليه الشيخ محمد اللبانى . وذلك دليل على أن خانقاه الشيخ عمر بن الفارض يضم رجالا من الكرام أصحاب الكرامات الذين يقصر اللسان عن وصفهم . وإذ أن ذلك المقام زاوية تضم «أهل الحال» ففيه رجال كالمشائين والإشراقيين ينطقون بلا لسان قد بلغ بعض العزب الأطهار بفضل الرياضة والمجاهدة مرتبة الإفطار مرة فى الأسبوع . ولهم فى كل يوم الجمعة حفلة ذكر تقام بعد أداء صلاة الجمعة يجتمع فيها ألوف من الناس . والله عليم بأنى كنت أنا الحقير[2] أيضا أحضر هذه الاجتماعات مع الخواص مدة إقامتى بالقاهرة ولم أتغيب جمعة واحدة ، فكم من كشوف وعلائم وكرامات شاهدتها فقد كنت أكتسب الصفاء وأقف على مختلف الأسرار . وإذ تتلى القصيدة التائية للشيخ عمر بن الفارض فى خانقاه فى كل يوم الجمعة يغلب «الوجد» بعض العشاق فيضربون العمد برؤوسهم دون أن يصيبهم من ذلك أذى . وثمة رجال ذَوو أصوات حلوة يتلون القرآن والمدائح النبوية بأصوات حزينة .

قد سبق أن وصفنا ذلك الخانقاه وقلنا أنه مكان يستجاب فيه الدعاء «اللهم نفعنا به» . وأما المولد الذى يقام فيه فيسمى مولد الفقراء ، وحضاره عشاق صادقون .

مولد النبى بخانقاه أبى السعود الجارحى

بليدة بين مصر الجديدة ومصر القديمة يقام فيها مولد فى كل يوم الأربعاء ، وتقام فيها سوق عظيمة مرة فى العام ، تشعل فيها بضع مئات من القناديل ، وتهتز الأرض

---

(١) ، (٢) الفقير والحقير صفتان يطلقهما الرحالة على نفسه من آن لآخر فى كتاباته زيادة فى التواضع جريا وراء العادة القديمة . (د . متولى) .

والسماء بأصوات الذكر والتوحيد مدة ثلاثة أيام ولياليها . وإذ أنها بلدة منفصلة عن القاهرة مسيرة ثلاثة آلاف خطوة جنوبا ، ينتقل إليها مائتا ألف نفس راكبين الحمير ، فإن ذلك الوادى يضج بذلك الحيوان ، كما أنه ينقلب إلى بحر خضم من الصائحين الصاخبين . ذلك لأن الشيخ أبا السعود الجارحى قريب العهد ولا يزال الناس يذكرون كراماته ، فيعنون بمولده . وقد كان على قيد الحياة فى عهد السلطان سليم خان . وهو الذى قال «تعال يا سليم واجلس [على] تخت مصر» .

مناقب عجيبة وغريبة لشيخ فان

أحضر إلى حسين باشا بن جانبلاط رجل معمر قد شرف بصحبة الشيخ أبى السعود الجارحى ، فلثم الباشا يده ونال دعاءه . لم يكن ذلك الشيخ الفانى من أهل القاهرة ، بل كان من المنوفية التى يعمر فيها الناس لطيب هوائها ومائها . ولله الحمد إن «هذا الفقير» أوليا البعيد عن الرياء قد لثمت يد شيخ معمر فى السبعين بعد المائة من عمره ، ممن رأى وجه أبى السعود الجارحى النورانى ونال شرف صحبته ، وفزت بدعائه وبركته . وإذ كان الشيخ أبو السعود سلطانا جليلا فمولده عظيم .

وصف المولد النبوى بمسجد الإمام الشافعى «رحمة الله عليه»

فرض علماء الشافعية على أنفسهم الاجتماع فى مسجد الإمام الشافعى فى كل ليلة السبت (جمعه ايرتس كيجه سى) وإحيائها بتلاوة مئات الختمة حتى الفجر . وفيهم عدد كبير ممن واظبوا على هذه العادة من أربعين أو خمسين عاما . وأما فى أيام المولد النبوى فتقام مرة فى العام سوق كبيرة تستمر ثلاثة أيام ولياليها ، تنقلب فيها ساحة الإمام الشافعى إلى بحر خضم من الناس . وقد حدث أن استشهد بعض الناس فى القبة من ازدحام الناس فى بعض السنين .

وليست بنا حاجة إلى إطالة الكلام ، فليكن فى علم الإخوان «الحصفاء» أنه قد تليت فى أيامنا ثلاث وعشرون وأربعمائة ختمة فى ليلة المولد ؛ إذ يجتمع فيه آلاف من حفظة كلام الله فى تلك الليلة فليس هذا بأمر عسير . فقد روى أنه قد تليت أربعون وسبعمائة ختمة فى أيام حكم إبراهيم باشا الدفتردار . كما يُروى أن أرواح جميع الأقطاب . وروحانية الأولياء تحل فيه تلك الليلة .

يستأجر أعيان القاهرة وأشرافها بيوتا وحوانيت فى قصبة الإمام الشافعى بأجرة تتراوح بين خمسة وعشرة قروش قبله بعدة أيام ، وينتقلون إليها مع أولادهم حاملين الطعام والشراب فيمضون فيها تلك الأيام فى لذة وسرور ونعيم كما يحضر مئات من تجار الأطعمة والأشربة يبيعون سلعهم فى الخيام . وقد زينت الخيام والسرادقات ومآذن المساجد وأسطح المنازل بمئات الآلاف من القناديل . وموجز القول أن القلم ناثر الدرر كسير وعاجز عن وصفه . حتى إذا انتهى المولد فى الإمام الشافعى انتقل الحاضرون إلى مولد الإمام الليث دون أن ينصرف منهم أحد .

المولد النبوى بخانقاه أبى الليث

وهذا المولد أيضا كمولد الإمام الشافعى بيد أنه بشئ واحد ، ذلك أن كثيرا من العلماء والمصنفين يحملون مصنفاتهم إلى هذا المولد ويعرضونها فيه على علماء المذاهب الثلاثة[1] ومشايخها الذين يحضرون هذا المولد فيقرأونها . فإذا حاز كتاب رضى الجميع ختموه بأختامهم ووقعوا صحائفه بإمضاءاتهم إذنا بقراءته . ثم يوضع الكتاب ليلة أو ليلتين فى الضريح (صندوقه) الذى على رأس الشيخ أبى الليث . وقد حدث أن أخرج بعض الكتب بعد بضعة أيام فوجد بعض أماكنها قد صار ترابا وبعضها مصححا . وضع مرة كتاب فى العقائد لأحد المؤلفين ، فوجد صباح اليوم محروقا وجلده مقفعا ، وكان ذلك فى عهد محمد باشا أبى النور .

والشيخ أبو الليث إمام همام ، يجتمع فى مولده العلماء والصلحاء وحفاظ كلام الله وتتلى آلاف من الختمة الشريفة فى الأيام الثلاثة التى تحيى حتى الفجر ، ويقصر اللسان عن وصفها . ومنه يتجه العشاق جميعا إلى الشيخ عقبة .

وصف مولد الشيخ عقبة الجهينى «رضى الله عنه»

كان هذا المسجد قد تخرب ولا يقام فيه المولد . حتى إذا كانت سنة ١٠٦٣هـ رأى محمد باشا أبو النور أى «محمد باشا الخاصكى» رؤيا فبنى جامعا عاليا وخانقاه وسبيلا وساقيتين ومطبخا ، وبنى على الشيخ «مهبطا» نيرا بإنفاق مائتى كيس مصرى ، فكانت خيرات عظيمة . وخصص ألف قرش للإنفاق على إقامة مولد الشيخ عقبة فى كل عام وجعل نظارته لفرقة الانكشارية . وهذا المولد كذلك مولد سلطانى كسائر الموالد التى

(١) سبق التعليق على المذاهب الثلاثة تحت عنوان :
٢٥ ـ دخول قاضى مصر القاهرة فى موكب مع العلماء . (د . متولى) .

سبق وصفها وتسر فيه روح الشيخ عقبة الجهينى العامرى . ولما كان لهذه الخانقاه إيراد وافر من أوقافها فنعمه مبذولة للعلماء والصلحاء والفقراء . ثم على سفح جبل الجيوشى :

مولد الشيخ شاهين قدس سره

إنه متنزه ومزار مشرف على العالم . يقام فيه المولد فى يوم وليلة . إلا أنه مكان ضيق لوقوعه على صخرة صلدة وعرة ، فلذا لا يزدحم كثيرا ولكنه مولد سلطانى عجيب .

مولد الشيخ الجيوشى

وهذه الخانقاه مبنية على الذروة العليا من جبل المقطم التى تنصب عليها الخيام ويقام مولد عظيم . ولما كان هذا الجامع وضريح صاحبه الشيخ قد بناهما الوزير الجليل أمير الجيوش أبو النجم بدر الدين الجمالى ، وزير المستنصر (الفاطمى) سمى الجبل بجبل الجيوشى ، وإلا فاسم هذا الجبل المقطم .

المولد النبوى بقدم (أثر) النبى

إنها خانقاه عظيمة . إن الجامع الكبير والقبة الشاهقة المقامة على أثر قدم النبى والتكية المعروفة بتكية رماة السهم ، كلها من بناء إبراهيم باشا ، وقد سبق تعريفها وهنا أيضا يقام المولد النبوى ليلة ، ويدعى فيه لإبراهيم باشا الدفتردار صاحب الخيرات .

وصف مولد الشيخ السادات

فى نصف شعبان المعظم ، تقام بالخانقاه بمقابر أجداده العظام بموضع يدعى(. . .) بالقرافة الكبرى ، سوق كبيرة تستمر ثلاثة أيام ، يحضرها بعض الأمراء المحبين فينصبون سرادقهم وخيامهم ويزينونها بآلاف القناديل كما يزينون منارة المسجد وجدران الخانقاه . يجتمع فى هذا المولد بحر من الناس ، ويقدم الطعام والشراب للرائحين والغادين ، فهو مولد وحيد واف . يزوره مئات الآلاف رجالا ونساء وصغارا وكبارا ثم ينتشرون حوله لزيارة سائر الأماكن لأن ذلك الموضع مدافن آلاف الصحابة الكرام وأولياء الله العظام ، وقد دفن فى هذا المكان ، وكم من أمثالهم يضمهم هذا المكان . سوف نكتب عنهم حين الكتابة عن المزارات .

فى بيان مناقب السيد أبى التحسس

إن الشيخ أبو التحسس كبير السادات رجل عظيم ملكى الكرم لا يحظى بالمثول أمامه سوى الأعيان والأشراف والعلماء ، وحديثه على انقباض . ولكنه حين يحضر إلى

خانقاه أجداده العظام فى ليلة المولد ويحضر معه عدد يتراوح بين ألف وألفين من المشايخ الكرام ، يستقر فى سرير الخلافة وقد أضئ الضريح النير بآلاف القناديل والشموع الكافورية وتسمع تلاوة الأوراد الساداتية من آلاف الأفواه ، «والله العظيم» ، ليغلب الإنسان «وجد» فينسى كل ما سوى الله وتتنور بصيرته ، فيلثم يد الشيخ الذى يسأل عن اسمه أولا ثم يكتبه ويلف رقبته بشال عمامة الرضى طوله ذراعان أو ثلاثة أذرع ، ويكون هذا إذنا منه بأن يصير من أتباعه . هكذا يكنى فى كل مولد ألفين أو ثلاثة آلاف رجل من الحاضرين بكنيته ويلف أذرعتهم بعمامة الرضى . ومن عجب أنه لا يكنى أحدا بكنية قد سبق أن كنا بها أحدا من قبل . ولم يسبق أن كنا رجلين بكنية واحدة مدة خلافته . ومن سر الله العجيب أنه يكنى الناس بإلهام من الله «الأسماء تنزل من السماء» . وقد كنى العبد الفقير[1] بكنيته «أبو الصفاء» والحمد لله أنى لا أزال فى لذة وصفاء ببركة أنفاسه المباركة . ولف رقبة الحقير بشال كشميرى كما أنعم على بعض الأعيان والأشراف أنواعا من الشيلان اللاهورية والكيلانية داعيا لهم بالخير . ثم إنه إذا لقى أحدا ممن كناهم بكنية بعد عشرة أعوام دعاه بتلك الكنية ، كأبى العال أو أبى الوفا وغيرهما . إن له قوة حافظة قدسية عجيبة . ومن أعطاه رضى فى سنة فإنه يعطيه فى السنة الآتية أيضا إذا حضر وهذا إنفاق عظيم للمال . وموجز القول أن الإنسان عاجز عن الوقوف على أسراره .

وفى كل عام يحج أحد أولئك الأشراف الكعبة الشريفة ومعه نحو ثلاثمائة جمل وخمسمائة فارس ومائة خادم ويعود سالما بعد إنفاق أموال طائلة . إنه لمؤدب وشامخ ومتأجج . وليس السيد محبا للضوضاء والصخب ، بيد أن الضرورة تلجئه إلى حضور هذا المولد مرة فى العام واستقبال الأصدقاء والأحباب .

المولد النبوى فى خانقاه الشيخ البكرى

فى شهر يوليو (تموز) فى أيام الخماسين يقيم الشيخ البكرى مولدا عظيما بخانقاه أجداده التى بجوار قبة الإمام الشافعى ، مقابل المولد النبوى الذى يقيمه شيخ السادات يفرقون فيه على الفقراء والأغنياء الإنعام والإحسان من الطعام والشراب والثياب . ويقام فى هذا المولد أيضا سوق عظيم فى خيام وأخبية تزين الجامع ومناراته وقاعاته بآلاف

(١) العبد الفقير هو المؤلف . (د . متولى) .

القناديل حتى ينقلب الليل المظلم نهارا منيرا ، وتتلى فيه قصة المولد النبوى ثلاث مرات . إنه لمولد عظيم .

وصف مولد المقياس (أم القياس)

قد سبق أن وصفناه فقلنا أن فرقة الانكشارية حين تطهر حوض المقياس تقام أفراح وحفلات مدة سبعة أيام ولياليها ، وتنصرف الطوائف العسكرية فى اليوم الثامن . ثم تقام ليلة الجمعة حفلة كبيرة للمولد الشريف وفى صباحها ينتهى رئيس الچاويشية من إقامة الولائم . وبعد ذلك تنزل النقطة فى النيل .

المولد الثانى فى المقياس

يقام هذا المولد بالمقياس فى ليلة بدء النيل فى الفيضان ، ويجتمع فيه علماء القاهرة وشرفاؤها وصلحاؤها . ويقيم «وكيل خرج» الباشا أسمطة محمدية ثلاث مرات من جيب الباشا ، وتُتلى قصة المولد ، ويترقب العلماء أثناء ذلك زيادة النيل . هذا المولد فى إدارة «ترجمان باشى» ولكن نفقته على الباشا الوزير وقد كتبنا عنه مفصلا فيما سبق .

وبعد ذلك مولد جامع المحمودية بالقرب من جامع السلطان حسن وعلى مقربة منه مولد بجامع الأمير آخور . ومولد السادات الذى يقام بالأزهر ومولد النبى الذى بجامع السلطان قايتباى خارج القاهرة ، وهو مولد عظيم تُبذَل فيه من أوقاف ذلك الجامع نِعم كثيرة للفقير والغنى والضعيف والمسكين ، يحشر فيه جم غفير مرة فى كل عام .

مولد الشيخ إبراهيم الكلشنى بتكيته ببولاق

سوف نكتب عنه فى مكانه إن شاء الله .

مولد الشيخ البكرى الطشطوشى «قدس سره»

هو مولد عظيم بالقرب من باب السلطان الشعراوى (الشعرانى)

مولد الشيخ الشعرانى

يجتمع فى هذا المولد العلماء الكبار ، ولا يزدحم بالناس لصغر الجامع ولكن بمولده الشريف روحانية عجيبة .

مولد الشيخ حنفى

وفى هذا المولد يزدحم الجامع بالناس ازدحاما شديدا .

مولد الشيخ خلوتى

وهو بالقرب من قنطرة سنقر ، ومولده خاص بالمشايخ ولا يزدحم بغيرهم .

المولد النبوى فى مشهد الإمام الحسين

كان هذا المولد معطلا منذ سبعين عاما بادعاءات المنكرين وإغواءاتهم . ولما كانت سنة ١٠٨٩هـ اجتمع الأشراف فى حضرة عبدالرحمن باشا والى مصر فالتمسوا منه الإذن لهم بإقامة حفلة المولد النبوى فى ضريح جدهم الإمام الحسين . وقبل الوزير ملتمسهم فأصدر أوامره إلى رئيس الشرطة والمحتسب وقاضى العسكر . وما إن تم ذلك حتى خرج المنادون ينادون قائلين «فى الليلة الثانية من محرم ، ليلة العاشوراء تقاد شرفات منارات الجوامع بقناديل ، وتنار الشوارع والطرقات وتزين ليلا ونهارا» . ثم وهب الباشا للمشهد الحسينى لإقامة المولد الشريف ست آلاف «پارة» وعمامة خضراء ، وأقة من العود وقنطارا من شمع العسل الكافورى . وخيرات إقامة المولد فى المشهد الحسينى لعبدالرحمن باشا إلى هذا اليوم ، ولا يزال الأشراف وأهل القاهرة داعين له بالخير «سلمك الله» .

قاعدة حسنات مصر

عندما يحل اليوم الثانى من محرم الحرام وتكون ليلة الإمام الحسين ينتشر فى القاهرة آلاف من اليهود يسيرون ثلاثة ثلاثة حاملين أسباتا بها البخور العطرية . وإذ هم يبيعون سلعهم يصيحون معا بأصوات تملأ الحارات والدروب وتصعد إلى أوج السماء . وهذه العادة أيضا قديمة . فهم يعطرون القاهرة بأريج البخور فى اليوم الثانى من محرم وهذا مشهد عجيب .

إن هناك آلافا من أصحاب الخيرات يقيمون حفلات المولد النبوى فى منازلهم ودورهم خلاف الحفلات التى ذكرناها . ثم إن حفلات المولد النبوى تقام فى سائر البلاد فى شهر ربيع الأول . وأما فى القاهرة فتقام مدة اثنى عشر شهرا فى السنة . وقد يحدث أن تقام خمس حفلات أو ست حفلات فى ليلة واحدة . فقد اشتهر أهل مصر ببذل المال لإقامة المولد النبوى الشريف من فرط محبتهم لرسول الله لأنهم قوم أهل السنة والجماعة ، متصلبون فى العقيدة والتمسك بالمذهب ومصلون . ثم إن بعض الموالد تقام

بأمر من الوزراء وبعضها على طقوس المشايخ . وقد زرنا مئات الموالد ولكنا اكتفينا منها بهذا القدر لصعوبة الكتابة عنها . وأما الموالد التى تقام بأمر الحاكم فى القرى والقصبات الخارجة عن القاهرة فقد حضرنا أكثر «أجران الدعاء»[1] تلك وسوف نكتب عنها فى أماكنها على قدر الطاقة إن شاء الله .

(١) الجرن وجمعه الأجران مكان فسيح وخال بالريف المصرى تقام فيه المناسبات المتنوعة . (د . متولى) .

الفصل الرابع والخمسون
فى بيان متنزهات الخواص والعوام من أهل القاهرة للذة والنعيم بعد تلك الموالد

أولها على مسيرة ساعتين جنوبى القاهرة :

بلدة البساتين

قرية عامرة تابعة لإدارة نقيب الأشراف . وبهذه القرية فى حديقة غناء على مقربة من النيل قصر شبيه بالخورنق ، بوسطه «استراحة» مزينة بحوض لطيف ، إنه لمكان بديع عُمِّر بقاعات وأبهاء مرتفعة عن الأرض هنا وهناك ، ومصانع وأسواق وغيرها .

متنزه قدم النبى (أثر النبى)

وهو أثر عظيم ولطيف من خيرات إبراهيم باشا الدفتردار وحسناته فالقصور المتنوعة والقاعات والجامع والمطبخ الكليكاوسى و«تكية رماة السهم» والزاوية ، والسواقى والحجر كلها من خيرات إبراهيم باشا التى سبق وصفها مفصلا .

متنزه أنابر يوسف

هذا أيضا مشهد عجيب وغريب .

استراحة المقياس

قد سبق وصفها بالتفصيل

متنزه الروضة

إنه عبارة عن استراحة لكم من الملوك استولوا عليه ثم انتقلوا منه تاركين إياه ، ينتقل من يد إلى يد . حديقة تقطعها طرق مزروعة بجوانبها أشجار باسقة بوسطها حوض عظيم «عشرا فى عشر» بوسطه قصر منيف ومنظر بديع ، يوصل إليه بجسر مبنى على الحوض . فهو قصر لطيف فى الماء مزين بحُجَر بعضها فوق بعض .

متنزه ومصائد جبلى الهرمين

المشهور فى أفواه الناس «جبل الهرم» ولكن يطلق عليه «جبال فرعون» أيضا واسمها فى اللغة القبطية ال «برابى» وهى تسمى بالعبرية على قول تاريخ ابن جلال ، «برابى

هرمين» نسبة إلى بانيها الأول وهو «براب» بن «درمشيل» بن «محويل» بن «حنخ» بن «قاين»[1] . وهى جبلان عظيمان وجبل صغير بالجهة الغربية من النيل توجد حولها من حيوان الصيد الغزال والثور البرى والذئب والأرنب وغيرها . وسوف نذكر من بناها وسبب بنائها وتجهيزها بالطلسمات .

متنزه مراعى الأمير أخور

هذا واد ومرعى ذو عشب وكلأ على حدود انبابة بأرض الجيزة . مرج أخضر يرعى فيه خيول أهل القاهرة والباشا الوالى . بيد أنه ليس مرعى طبيعيا وإنما هو عشب مزروع يسمى البرسيم .يُزرع حبه ، وفى ليلة الزرع ينبت وينمو بأمر الله مقدار أصبعين حتى الصباح . وفى اليوم الثالث يكون صالحا لرعى المواشى[2] . وجميع خيول مصر ترعاه ، فهو علف كالذى يسمى عندنا «يونجه» . ينصب أمير خور الباشا وجميع الطوائف العسكرية خيامهم فى تلك المراعى ويعيشون فيها ثلاثة أشهر فى لذة وسرور ونعيم فرحين برؤية خيولهم ترعى وتسمن . إنها لصحراء ذات خمائل وشقائق نعمانية . وأمير أخور الباشا حاكمها المطلق بما يحمل من الأمر العالى ، يقتل اللصوص والأشقياء بلا رحمة . ولما كانت هذه المراعى على حدود «ابن الخبير» فإنه يرسل كل ليلة ألف رجل من فرسان العربان لحراسة خيول الباشا والأمير أخور وسائر الطوائف العسكرية . وعلى الأغا الأمير أخور مأدبة للباشا الذى يتناول منها ثم يأخذ من صاحب المأدبة ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وثلاثة جياد أصيلة أحدها ذو بساط مكلف وعدة مطعمة بالجواهر ، وأما الباشا فينعم عليه بخلعة سمورية . ويقدم الأمير أخور كذلك حصانا إلى كل من مدير مكتب الباشا وخزينداره كما يقدم هدايا إلى سائر الأغوات . وذلك لأن منصب أمير خور مصر يعادل منصب مدير مكتب الباشا من حيث العوائد والفوائد . ومن منصب أمير أخور يُرقى إلى منصب «بكلر بك»[3] ترقية قانونية .

يبيع الأمير أخور من هذه المراعى ما يعادل مائتى كيس فى العام . وترد إليه مائتا كيس من سائر الهدايا المتفرقة . يرد إلى الباشا ألفا رأس من الخيول هدية فى كل عام .

---

(١) هذا كلام غير صحيح لا يستقيم مع العقل والمنطق ، وقد أثبت علم الآثار عدم صحة هذه الخرافات (د . متولى) .
(٢) هذا الكلام فيه مبالغة شديدة فمن غير المعقول أن ينمو نبات مهما كان بهذه السرعة الغريبة . (د . متولى) .
(٣) رتبة مدنية بين الميرميرانية (الباشوية من الدرجة الثانية) والوزارة . (المترجم) .

ومن المقرر أن يعطى الأمير قطعة من الجوخ وقطعة من قماش على كل حصان منها . ويقاس على هذا مقدار إيراد أمير أخور مصر . وإذا كان ذا مكانة ووقار لدى مولاه (الباشا) فهو يربح كما يربح مدير مكتب الباشا .

متنزه «قصر أبو العين» للظاهر بيبرس

هو خانقاه الطريقة البكتاشية على ضفة النيل ، ومتنزه لطيف الماء والهواء . وقد سبق وصفه حين الكتابة عن التكايا . ولما أنشأ إبراهيم باشا الكتخدا قصرا منيفا فى ركن حديقته الغناء أرخته أنا الفقير بهذا البيت : دعوت فقلت لهذا القصر تاريخه ، دام هذا المقام الذى يزين السماء ما دامت الأرض .

(دعا يدوب ديدم أى أوليا بو قصر تاريخن)

(جهان طور دقجه طورسون بو مقام آسمان آرا . سنة ١٠٨٣هـ)

ثم بنى عبدالرحمن باشا قصرا آخر جميلا ، متصلا بذلك القصر فأرخه زكى خليل أفندى بالتاريخ الآتى «جاى مفرح دلكشا» سنة ١٠٨٨هـ .

وبشاطئ النيل تحت ظلال أشجار الجميز الباسقة نحو أربعين أو خمسين مسطبة وعلى كل مسطبة تاريخ . ومنها التاريخ الآتى «قال الخال زكى تاريخه ، جديران يسمى هذا بقصر الجنة . (زكى طابى ديدى آنك تاريخن بوكا قصر جنت دينلمك سزا) = سنة ١٠٨٨هـ .

وهناك حدائق كحديقة ضارب المدفع (طوب أتان) وحديقة العجم وحديقة الفرنجة . وعلى طريق بولاق حديقة رمضان بك وحديقة محمد چلبى صاحب العيار وأمثالها من الحدائق المفتحة الأبواب للخواص والعوام وعددها مائة وسبعون حديقة كل حديقة فيها حقل ومتنزه عظيم كحديقة إرم .

متنزه جميز العبد

إن سرت من الخليج الذى يجتاز القاهرة وقطعت مسافة بعد أن تغادرها شمالا فهناك أشجار الجميز الباسقة ، يتسع ظل كل شجرة منها لألف رأس من الغنم . وقد مدت كل شجرة أفرعها على النيل فأظلته بظلها الوارف ، فلم يبق فيه أثر لوهج الشمس وفى هذا المكان يجتمع حول كل شجرة من إخوان الصفا وخلان الوفا فينعمون بفواصل من العزف وحلو الحديث ، يمثل كل ما كان ينعم به «السلطان حسين بقرا» من اللذة والنعيم .

متنزه قصر السبتية

قصر منيف بساحل النيل مزين بأبهاء وقاعات بعضها فوق بعض ، وشرفات وطنف ومشربيات ، يقصده الباشوات وبعض الأعيان للاستراحة والاستجمام . إذا حضر الباشوات من استانبول عن طريق البحر أو حضروا الاحتفال بوفاء النيل فى المقياس فإن المواكب تقوم من هذا القصر . وقد نقش على أطراف سقفه التاريخ الآتى خيرات :

«المعز الكريم العالى السيد محمد البدرى بن أبو البقا ولد المعز المرحوم سيد يحيى الجيقانى سنة ٦٨٧ ، خيرا تيدر»

حديقة رضوان بك

روضة من رياض الجنة تسمى «الرضوانية» ليس لها نظير فى القاهرة .

متنزه التورنجية[١]

وهو على ضفة خليج الشيخ البكرى خارج قنطرة الليمون

متنزه الطوبخانة

لما سافر السلطان قايتباى إلى الحج وعاد منه بناه وزيره ، وليس له نظير فى القاهرة ولا فى سائر المدن . قبة منقشة شاهقة العلو مختلف ألوان زواياها . ترتفع عن الأرض بدرجتى سلم حجرى . إن ما زين به داخل جدران هذه القبة من ضروب الرخام الطبيعى وأحجار السماكى الثمينة ذات ألوان مختلفة واليشب والهرقانى والبركانى والعرقانى وحجر فراه والبلغمى والسحابى من الأحجار القيمة لا يوجد لها نظير إلا فى قبة الصخرة بالقدس الشريف . إنها لاستراحة زينة الدنيا . فالخطوط الكوفية والزهور المنقوشة على رخامها المختلف الألوان كأنها «الأويمة الفخرية»[٢] . وليس بداخل القبة الشاهقة المنكوبة موضع خال ؛ فقد نقشت كلها بنقوش لو اجتمع مانى وحسان وبهرزاد من أساتذة الفن الفارسى لعجز صاحب «أرتنك» أرتنك» عن إضافة نقطة عليها والحق أنها من عجائب العصور الأولى .

(١) طورنج ، تورنج ، كلمة فارسية متركة تعنى : نارنج . (د . متولى) .
(٢) اويمه ، كلمة تركية تعنى : نقش أو حفر . (د . متولى) .

كان لها أساتذة كمل . وفى الجانب الأيسر لهذه القبة العالية حديقة غناء على مسافة مرمى السهم ، كما أن جانبها الأيمن ملئ بالقاعات والمضايف للغادين والرائحين وخلاصة القول أنها متنزه بديع وجميل .

متنزه بشبكية

وهو ميدان فسيح لجميع الجنود والعساكر لإجراء السبق ورمى السهام ، وبه قاعات متعددة ومطابخ كثيرة وحياض مختلفة يرتادها أناس كثيرون . ثم يأتى فى الجانب الجنوبى على مسافة ساعة منه داخل الجبال :

ساحة الصيد والطراد فى عين موسى

وعين موسى هى عين واقعة فى صخور جبل البجم كانت مطمح أنظار سيدنا موسى . إلا أن ماءها ملح وليس بعذب كماء النيل . وهى موطن ومسكن العربان ولهذا يذهب إليها بعض الناس من طائفة الجنود الذين يعتمدون على أفراسهم وأسلحتهم ويعتزون بها كل الاعتزاز فيصيدون بها الغزلان ويطاردونها ويبطشون بالعرب العاربة ولذا كانت محلا صعب المراس مليئا بالأخطار . ثم :

متنزه عين شمس

وقد سبق ذكره آنفا . ولكن مدينة فرنا المتصلة بحديقة عين شمس هذه والتى لا تزال قلعتها المبنية من الطين والتراب على ثلاث طبقات موجودة حتى الآن ، كانت تصل حتى بئر المطرية التى حفرها سيدنا عيسى . ففيها عمود مربع الأضلاع ذو نقوش بديعة وهو كل ما فيها من آثار العمران . إذ يخيم الخراب والدمار عليها من الأزمان الغابرة ؛ فيذكر مؤرخو العرب سبب خرابها ويقولون أنه حينما قدم سيدنا يعقوب لزيارة ابنه يوسف ونزل بأولاده وأحفاده البالغ عددهم سبعين شخصا فى مدينتى عين شمس وفرنا ، لم تقم هاتان المدينتان بما يجب عليهما نحوه من الإكرام والحفاوة ، فدعا عليهما النبى يعقوب فآل أمرهما إلى الخراب والدمار .

ثم اجتمع يعقوب أخيرا بابنه يوسف فى الفيوم وعاش معه مبصرا سبعة عشر عاما حيث مَنَّ الله تعالى عليه وأعاد عليه نور بصره . ولما توفى إلى رحمة الله بعد ذلك قام ابنه سيدنا يوسف ، حسب وصيته بنقل جثمانه الكريم إلى خليل الرحمن ودفنه فى جبل جبرون (حبرون) . ثم :

مشهد قصر الغورية

وهذا من بناء السلطان الغورى وهو بعيد عن النيل الذى يحيط به حينما يفيض ويطغى على الأطراف . وهو قصر عال على طراز قديم يناطح السحاب ويكاد يصل الأوج ، تحته قاعة عظيمة لها عدة غرف وحجرات وليس له آثار أخرى باقية على الدهر . ولكن هناك على مقربة من القصر بين الجنائن الفيحاء قبة بديعة مزينة بالنقوش وهى مرتفعة عن الأرض قبة الطوبخانة ولكنها جامع كقبة الطوبخانة ، ثم :

مشهد ومزار بئر المطرية

هذا المشهد الذى يقع على مسيرة ساعتين فى شمال مصر بين الجنائن والبساتين كان مطمح أنظار سيدنا عيسى عليه السلام وموضع عنايته . وكانت فى هذه المنطقة أبنية عظيمة وعمارات شاهقة حينما كان اليونان مسيطرين على مصر . والآن لا يوجد بها سوى قاعة وزاوية .

هذا وهناك حوض يدخله المرضى ويرتادونه للاستشفاء ، فينالون ما يبتغون . وقد ورد فى جميع التواريخ ولا سيما تواريخ اليونان أن سيدنا عيسى هاجر مع أمه مريم من مدينة نابلس إلى هذه البقعة وسكنا بها . وتزعم النصارى أن بئر المطرية هذه قد حضرها سيدنا عيسى وأمه واغتسلا بمائها ، كما أن الحوض الراهن من آثارهما .

وهذا صحيح لأن الآبار بمصر كلها مياهها ملح أجاج ، سوى هذه البئر التى هى من معجزات نبى الله ، فإن ماءها عذب سائغ للشاربين ، وتروى به جميع الحدائق والبساتين التى فى أطرافها الأربعة بواسطة دواليب تديرها الأبقار . وكان فى هذه الحدائق والبساتين شجر البلسم والبيلسان ، غرسه سيدنا عيسى بيده الكريمة ، ولم يكن يوجد من هذه الأشجار شىء فى أى بلد غير مصر حيث كانوا يستخرجون منه دهنا نادرا يتبركون به ويحفظونه فى خزائن الملوك . وخاصيته أن المرء إذا تجرع السم ثم تناول منه قيراطا واحدا فإنه ينجو من فعل ذلك السم وأثره القتال ؛ كما أن العقرب أو الثعبان أو أية دابة سامة إذا لسعت الإنسان أو لدغته فإن وضع شىء من البيلسان هذا فى مكان اللدغ أو أكل الملدوغ شيئا منه فلا شك أنه ينجو من فعل السم وأثره ، وتزول الآلام والأوجاع إذا دهن به الموجوع . وخواص هذه البئر معتبرة ومشهورة بين الناس ولا سيما بين قرى النصارى إذ يعتقد النصرانى أنه إذا لم يأكل البيلسان ولم يدهن به ولو مرة فى العمر لا

يكون نصرانيا صحيحا . ولذلك نرى أن الناس من الأقاليم السبعة وأركان الدنيا الأربعة يؤمون بئر المطرية ويزورونها ويغتسلون فى حوضها ثم يعمدون إلى اقتطاف أوراق البيلسان الذى ينبت فى حدائق هذه البلدة ويجلونها باقات يتهادون بها بين البلاد والولايات ، وهم يحفظون هذه الأوراق بين صفحات الكتب والرسائل . بيد أن الضعيف كاتب هذه السطور لم ير هنالك أثرا لشجر البيلسان والبلسم . ولما سألت عنه خدمى وأتباعى قالوا أنه منذ دخول مصر تحت حكم العثمانيين قد جف هذا الشجر ولم يبق له أثر . ولكنى رأيت كثيرا من أشجار البيلسان فى طريق الحج حيث يجمع أهالى الولاية كميات كبيرة فيجعلونها فى حجرات ويبيعونها للحجاج .

منافع ماء بئر المطرية

غير خاف أن أصحاب الأمزجة من باشوات مصر حينما يفيض النيل وتجرى مياهه خضراء أولا ثم حمراء ، لا يشربون منها . والسبب فى ذلك أن الترع والخلجان فى مصر يتخلف فيها الماء آسنا أخضر من السنة الماضية كأنه السم الزعاف . وعندما يأتى النيل بالماء الجديد إثر الفيضان المعتاد ، يجرف هذا الماء الجديد أمامه من تلك المياه الآسنة فى الترع والخلجان التى تأتى مصر ؛ فمن شرب منها لابد أن يصيبه مرض ما . ولذلك يكف الباشوات وغيرهم من أصحاب الأمزجة والمترفين من الأعيان ، عن شرب ماء النيل ويقبلون على الاستقاء من عين المطرية هذه . إذ ماؤها عذب سهل يتدفق فى مكان بهيج بديع .

متنزه بئر المعظمة

يقال أنها من آثار سيدنا موسى . وقال بعض الحكماء أن ماءها ألذ من ماء بئر المطرية وأنفع . ولكن الضعيف كاتب هذه السطور لم يشرب منه ؛ ثم :

مشهد قلعة بركة الحاج

يقصده الحجاج من مصر ويقيمون به ثلاثة أيام بلياليها فيملأون مئات الألوف من قربهم بماء النيل ويسافرون بها .

فقصة هذا المتنزه عجيبة إذ أنشأوا به بركة كأنها بحيرة عظيمة تستقى ماءها من النيل وهى على مسيرة أربع ساعات من مصر ، يؤمها بعض وزراء مصر وأعيانها . فى حلهم وترحالهم .

متنزه قلعة سبيل علام

هذا متنزه يؤمه كل شهر أمير من أمراء مصر مع خمسمائة من جنوده وهو مكان السباق والصيد ، غير أن به عربانا أشقياء يسطون على الناس أحيانا فيصطادونهم ويجردونهم من ثيابهم ويشلحونهم ويجعلونهم مثل صبيان «الولى پيرپار محمود» ، أعنى أن العربان العرايا يعرون الإنسان ويجعلونه كمصارعى تكية البهلوانات . ولكن المحل واقع فى صحراء عظيمة جوها بديع وماؤها لذيذ . وشهرة صحراء علام هذه فى بلاد مصر غير خافية على أحد حيث وقع بها الصدام السادس بين السلطان سليم حين غزوه لمصر وبين السلطان طومانباى ، فاستشهد فى هذا الصدام الوزير الأعظم الطواشى سنان باشا وقتل معه سبعة آلاف من غزاة المسلمين من العثمانيين ، كما قتل ثلاثة وعشرون ألفا من المصريين ، وجنودها لا يزالون يترددون جميعا على مقابر الشهداء بوادى سبيل علام التى يزورها الخاص والعام .

وفى قلعة سبيل علام هذه قاعات مخصصة لسكنى قائد الحامية العسكرية وحجرات متعددة فوقانية ، كما تمتلىء بسواقى المياه . وفى جانبها الشمالى حدائق غناء يرتادها الناس .

وهناك أيضا قبة مزخرفة لها مئذنة على الطراز الرومى وكذا سبيل ومصاطب . قد نُقِش على محراب الجامع الذى بُنِى كله بالحجر والجير والذى يصعد إليه بستة سلالم . أبيات من الشعر تتضمن سنة بنائه بحساب الجمل ملخصها .

سنة ١٠٦٣ أنشأ هذا الجامع من كان عمله مثل اسمه حسنات كله . وهو من بناء الأمير الأكرم حسن بك فليعطه الله أجره رفع الدرجات .

بالجملة فهو جامع فوقانى مبنى على ستة أعمدة على طراز جديد . على مسيرة ساعتين من القاهرة .

متنزه العادلية

ويُطلَق عليه هذا الاسم لسببين : أما الأول فلسكنى قبائل العادلى من قديم الزمان فى واديه . وأما الثانى فلبناء السلطان طومانباى قصر العدالة به للنظر فى قضايا الناس .

والمكان فسيح الأرجاء بديع الجو عليل النسيم . يجد به المرضى الراحة التامة والشفاء العاجل .

هذا ولقد سبق أن ذكرنا عدة مرات أنباء القتال بين السلطان سليم وبين طومانباى وانتصار سليم خان فى النهاية على خصمه طومانباى بعد قتال مرير فشنقه فى باب زويلة ووضع بذلك حدا للفتن والنزاع فى داخل مصر ، ثم تم إنزال جثته المعلقة وصلاته عليها بنفسه مع الجماعة ودفنها فى مرقدها فى العادلية . وقد كان طومانباى سلطانا صالحا من صلحاء الأمة حافظا لكلام الله ، فلذا لم يصادر سليم خان أوقافه ، وقد اعتنى بضريحه النورانى فزينه وحلاه تحلية أنيقة يتردد عليه ويزوره دائما . والضريح لا يزال قائما وهو تركيبة فى وسط قبة ذات تسعة عقود تعلو مشمخرة فى السماء . وقد نقشت آية الكرسى بالخط الجلى على رخام التركيبة بجوانبها الأربعة وبعدها هذا التاريخ (سنة ستة وتسعمائة) .

هذا وبوفاة هذا السلطان انقرضت دولة الچراكسة . ويقال أنه كان صاحب الخيرات الكثيرة والمبرات العميقة . فكل التكايا والخانات والعمارات والسبل والسواقى والمطابخ والزوايا والحجرات والقاعات العامة والغرف الخاصة بالباشوات والقصور والأحواض والقلاع والمضايف المنتشرة فى أطراف هذا المكان الواسع من آثار السلطان طومانباى «رحمة الله عليه» .

وهذه المشاهد والمتنزهات التى ذكرناها ليست معلومة لنا علم اليقين فحسب ، بل إننا شاهدناها وأقمنا بها وتمتعنا بنعيمها وجمال جوها ومباهجها . ولذا تجاسرنا على وصفها وصفًا صحيحًا وشرح أحوالها شرحًا واضحًا مستعينين بالله المعين .

فلذلك نقرر أن أحسن تلك المشاهد والمتنزهات وألطفها جميعا هو متنزه ومزار القدم النبوى (أثر النبى) .

الفصل الخامس والخمسون
فى بيان أغرب غرائب مصر وطلسماتها وسائر عجائبها وبيان أعمال أهاليها ومهنهم

لنشرع فى بيان أحوال مصر أم الدنيا حسب إدراكنا القاصر لها ومدى اطلاعنا على ألوان وجوه أهاليها وأنواع الأعمال والمكاسب والمهن التى يزاولونها ، فنقول أولا إن مصر التى وصفناها والتى كانت عامرة فى الزمن القديم هى مدينة الفسطاط أى مصر القديمة التى لا تبلغ مصر الجديدة اليوم ما بلغه حى من أحيائها لأن مؤرخى العالم وعلماءه حينما يذكرون مصر يقولون أن حدها يبدأ من رشيد ودمياط والإسكندرية حتى ينتهى إلى إبريم وحدود قلعة «صاى» حيث كانت البلاد الواقعة على شاطىء النيل مسافة ثلاثة أشهر عامرة زاهرة بحيث إذا أرسلت رسالة من رشيد تصل إلى الصعيد العالى والمنيا وإسنا وأسوان متنقلة من يد بستانى إلى يد بستانى . وإن مصر العتيقة كانت على جانب عظيم من السعة والعمران المتواصل المتلاحق ، حتى أن ديكا من الدجاج لو طار من سطح أحد القصور ببولاق لأمكنه الوصول إلى بلدة «مقدنيا» ، وهى المحل المعروف الآن بأثر النبى بمصر القديمة طائرا من سطح قصر إلى سطح قصر من القصور المطلة على النيل . وكان العمران متصلا فى مدينة مصر إلى الناحية الشمالية على مسافة ست ساعات حتى عين شمس ، وكان جانبا النيل مزدهرين غاية الازدهار . حتى ليقال أن مسافة يومين من النيل إلى الفيوم كانت مكسوة بالجنائن وحدائق الورد والكروم ، بحيث لو لم تكن هناك ذراع واحدة من الأرض خالية أو معطلة . ولا تزال جهة الفيوم من أحسن الأقاليم بمصر من حيث حسن المنظر ووفرة الخير وكثرة القرى وسعة البلاد . فهى كنز عظيم فى بلاد مصر ، إذ بها دفائن وخبايا كثيرة وخيرات مرغوبة .

وعلى قول المؤرخ العالمى الشيخ المقريزى إن أرض مصر لا يوجد بها ذراع مكية واحدة خالية من كنز من الكنوز القديمة . ويظهر فيه كل سنة حتى الآن دفائن عدة وكنوزها ثمينة . نعم إن شواطىء النيل عامة كانت عامرة بالقرى المزدهرة وآثار العمران وأسباب الثراء حتى إن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى ذلك فى كلامه المجيد إلى حبيبه الكريم على سبيل الحكاية والقصة حيث أنزل عليه هذه الآية الكريمة فى حق فرعون ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ ولقد قال المفسرون أن الغرض

المقصود من الآية أرض مصر التى لما طغى بها فرعون وجنوده واقترفوا أعمالا شائنة وأفعالا جائرة دعا عليهم سيدنا موسى عليه السلام بنزول الخراب والدمار بهم ، فتبدلت تلك العمارات الباذخة وتلك الحدائق الفيحاء إلى أطلال بالية ورمال مكدسة ، حسب قوله تعالى فى آية ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ .

هذا وبعد خراب مصر بعد فرعون قال الحكماء أن مصر ستدمر من بعد ذلك سبع مرات أخرى وتعمر سبع مرات . كما أن محيى الدين بن عربى قال فى كتابه (الفتوحات المكية) أن مصر بعد سنة ١١٠٠هـ ستعمر عمرانا لدرجة أن ذراعا من الأرض فى المزابل والأراضى الرملية ستباع بألف دينار ذهب ليتسنى لابن كعب من سلاطين آل عثمان المجىء إلى مصر ويتخذها له عاصمة ويتمتع بها فيكون لذلك التملك والسيطرة أثر فى تقلب الأحوال وتغير الظروف فى صالح مصر وعمرانها فتحول سهولها وصحاريها حتى مكة والمدينة إلى قرى عامرة آهلة بالسكان ومزدانة بالكروم والحدائق والبساتين وتظهر فيها أنهار وجداول مياهها صافية كأنها ماء الحياة تجرى فى الأرض حتى تصب فى البحر الأبيض ويفتح طريق عام من غزة إلى جزيرة قبرص ترتادها قوافل البغال والحمير والجمال . وبفضل همة السلطان العالى الشأن وعهده السعيد وصنيعه المحكم سيجرى النيل فوق جبل الجيوشى بمصر وستظهر بمصر ثلاث عيون ذات مياه حارة من تحت الأرض بقدرة الله الفاعل المختار .

هذا ما أشار إليه الشيخ محيى الدين بالرموز إلى هذه الكنوز والنبوءات (اللهم يسر ، يا ميسر) .

عجيبة

حقا إن العجائز والمسنين فى مصر ليحكون قائلين «إننا قبل سبعين أو ثمانين سنة لم نكن نعرف شيئا من الجنائن وبساتين الكروم فى البلاد ، سوى جنينة قايتباى التى فى قرا ميدان وشىء من أشجار الجميز والنبق مبعثرة هنا وهناك فى خارج البلد ، فى حين أننا لا نعرف الآن فى مصر من الفواكه أكثر من عشرين صنفا . ثم إن الأمطار لم تكن تهطل إلا مرة أو مرتين فى السنة بصورة خفيفة ولم نكن نعرف أحدا يلبس الثياب الثقيلة مثل الفراء سوى البكوات ، إذ كان من العيب أن يلبسها غيرهم ، حيث لم يكن هناك ما يسمى شتاء بالمعنى الصحيح . بيد أن الحالة تغيرت الآن فاشتد الشتاء وكثرت

الأمطار حتى أن الناس أخذوا يلبسون الثياب الثقيلة والفراوى الغليظة . والحق أنه قد نزل الثلج ذات يوم من السماء فى عهد الوالى إبراهيم باشا فكسا الأرض كلها حلة بيضاء ناصعة كما أن السماء أنزلت يوما آخر بردًا فى عشرة محلات من البلاد كانت كل حبة منها تزن ما يتراوح بين الثلاثين والأربعين درهما ، الأمر الذى أثار دهشة أولاد العرب وعجبهم فأخذوا يتساءلون بقولهم (إيش هذا) حتى رأوا الثلج لأول مرة فى حياتهم ويقول بعضهم (ها قد نزل القطن من السماء) وأما الأتراك فقد حمدوا الله على ذلك وابتهجوا برؤية الثلج وأخذوا يتخاطفونه ويأكلونه بلهفة ، فى حين أن أولاد العرب كانوا ينزعجون وحينما يقبضون على الثلج ، فكأنهم يقبضون على النار التى تحرقهم فيصيحون قائلين (إن هذا مثل القطن ولكنه مثل النار قوى !) . وقد قالوا حينما شاهدوا البرَدَ ينزل من السماء (ها هى السماء أنزلت بيض الدجاج) .

هذا والحمد لله أن جو مصر قد تحسن يوما فيوما وولت أيام الشتاء الشديدة ولم يعد الثلج ينزل وخفت وطأة الأمطار وزادت خيرات الأرض وخصبها وأصبحت أم الدنيا عروس وجه البسيطة كلها ، فأخذ هواة الصيد والطراد يرتادون النجاد والسهول لأجل ذلك . والسبب فى تسمية مصر بأم الدنيا أنها تحتوى على جميع أجناس الخلق وأنواع الأمم التى يبلغ عددها اثنين وسبعين أمة تتكلم بمائة وأربعين لغة كما تشتمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة . فبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق فضلا من الله ومنة . فإذا ذهبت إلى أية مدينة من مدن مصر تجدها غاصة بالناس يمشون فى الطريق العام كتفا لكتف من شدة الزحام ترتفع منهم أصوات (ظهرك ، جنبك ، وشك ، يمينك ، يسارك . . .) ، ولا تكاد تسير إلى مقصدك وتصل إلا بكل صعوبة وعناء . لكثرة مرور الخيل والبغال والحمير والجمال وضجيج السقائين وازدحامهم فى الأسواق والميادين والشوارع . وما ذلك إلا أن كثرة أهالى مصر وسكانها من الفلاحين ، أعنى أنهم من أهل الكد والعمل الشاق مثلهم كمثل «فرهاد» فى تحمل المشاق ومعاناة الأهوال فى سبيل إسعاد الغير ، إذ أن هؤلاء المساكين بعملهم الدائب هذا يجعلون مصر فى بحبوحة من الخيرات والخصب وعلى جانب عظيم من النعم ورغد العيش الذى يتمتع به الناس والحيوان ، فلأجل هذا سميت مصر بحق أم الدنيا كالأم الرءوم تعنى بجميع أركان الدنيا وتحدب عليها وتبذل لها من متاعها وسلعها . وهكذا تكون الأقاليم السبعة من الدنيا عالة عليها .

ونعوذ بالله إذا حصل القحط والغلاء بها لا سمح الله ، فإن الدنيا كلها لا تستطيع أن تمون مصر لأن ما فى الدنيا من الكائنات من حيوان وإنسان أقل بكثير من التى بمصر من الخلائق التى لا تعد ولا تحصى . بيد أن وجود طوائف الجند بها وتسلطها على البلاد والعباد وظلمها الفاضح قد جعل أهاليها من الرعايا المساكين المنحدرين من قوم فرعون مظهرا لاسم الله (يا قهار) ، حيث ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وأحاط بهم الفقر والعوز من كل الجوانب وجميع الوجوه . فكل حاصلاتهم ومنتوجاتهم يأخذها الجنود وطوائف العسكر السلطانى ، ويترك الفلاح المكدود فقيرا ذليلا . ولقد عبر سيدنا كعب الأحبار عن هذه الحقيقة بقوله (خلق الله الغنى بمصر فقال الذل أنا معك) وكأنه تكلم عن لسان حال مصر حين قال هذا القول البليغ . حقا إن مغزى هذا الوصف البديع لا يزال سائدا فى أهل مصر فأكثرهم أذلاء فقراء جهلاء ليست لهم حيلة فى دفع الضر عن أنفسهم ، مثال ذلك أنه فى سنة (١٠٦٠هـ) حينما كان عبدالرحمن باشا متوليا أمور مصر وقد كانت الغلال والحبوب وافرة ومبروكة ، أقدم المتسببون (صغار التجار) على احتكار الغلال وحبسها عن الناس من جراء سوء الإدارة والتراخى فى ضبط شئون الحكومة مما أفضى إلى ظهور قحط شديد وغلاء فاحش فى أرجاء البلاد حتى إن الفقراء قد اضطروا إلى أكل الميتة والجيف كما أن بعض الأغنياء قد عضهم ناب الجوع والفقر حتى صار الواحد منهم يكتفى بالضرورة بقميص واحد له ولزوجه يلبسه هو بالنهار وتلبسه زوجته بالليل ، ويكتفون بعشرين حبة من الفول إلى غير ذلك من الأحوال والأمور التى أفضت إلى إفلاس الناس وافتقارهم الشديد إلى الضروريات من أسباب الحياة .

هذا ويجبى المال الذى تمتلىء به الخزائن التى سبق ذكرها من سبعين صنفا من المحصولات . . والخلاصة أنهم لا يعفون شيئًا من الرسوم الجمركية والضرائب الأميرية إلا الماعز والأوز والحطب ، أما ما عدا ذلك مما يطير فى السماء أو يسبح فى البحر أو يدب فى الأرض فتجبى عليه الأموال التى تمتلىء بها هذه الخزائن ، ولا يعفى أحد من الضرائب حتى الفقراء المعدمين الذين لا يملكون شراء نقير .

ومن الغرائب

أن بعض الفلاحين يجولون فى تلك الأسواق المزدحمة والبحر المتلاطم من بنى الإنسان بأسراب وجماعات من الأوز السمين صائحين على أوزهم الذى يسير زرافات

فيبيعونها بكل صعوبة ومساومة طويلة . إذ هذا هو الشيء الوحيد الذى لا يجبى منه العشر والرسوم الأميرية .

ومن العجائب

إن من الأشياء المضحكة التى يستوفى منها الجمرك والرسوم هو أن بعض الفلاحين يبيتون فى سواحل البحار والخلجان مقيمين بها ليل نهار فى ألواح حقيرة . وأنه إن أراد شخص أن يحصل على أوزة فإنه يذهب إلى ابن العرب الذى فى أحد تلك الأكواخ ويقول يا حاج اعطنى وزا أو بطا فلا يكاد العربى يسمع هذا حتى يعمد إلى القرعة التى بجانبه ويضعها على رأسه وفى يده حبل يبلغ طوله خمسين أو أربعين ذراعا ثم يخوض فى البحر سابحا وراء البط ويبقى طالب البط على الشاطىء ، وقد اندفع ابن العرب إلى جماعات الأوز والبط حتى يبلغها فيربط رجل كل بطة أو أوزة مسكينة تقع فى يده بذلك الحبل . لأن الظاهر الذى يطوف على وجه البحر ما هو إلا قطعة من القرع لا تبين ما وراءها من مكر الإنسان الذى اختبأ وراء القرعة ينظر من ثقوبها ويشاهد حركات الطيور ، وهكذا يتمكن من قيد رجليها بسهولة ثم يعود إلى الشاطىء حيث يقف طالب البط بانتظاره فيعطيه طرف الرسن الذى قيد به البط فيمسك هذا طرفه ويسحب الطيور . وعند ذلك فقط تعرف الطيور ما جرى لها . ويختار الطالب منها ما يريد ويدفع ثمنه وهو «پارة» واحدة لكل بطة سمينة ويطلق سراح الهزيل .

هذا وتلك الطيور ملتزمة من قبل ذلك العربى ؛ فهو يدفع عنها مالاً للسلطان وليس لأحد حق فى صيدها سواه . وإذا أقدم أحد على ذلك عوقب ، كما أن الطيور المعتقة لنحافتها تعود إليه ثانية . كأنها مسحورة ، وهذا من العجائب فى مصر ، وجباية الضرائب على الطيور بهذه الطريقة من أعجب العجب . . إن فلاحى مصر من أولاد العرب فى غاية المكر والدهاء ، فلهم أمور غريبة وأحوال عجيبة فى هذا الباب .

من غرائب حيل أولاد العرب المصريين

فمن ذلك أنهم يضعون إحدى عشرة بيضة فى روث الخيول (السبلة) وتمضى على ذلك عشرون يوما وإذا أحد عشر كتكوتا تخرج منها وتجرى على الأرض . وهذا لا شك شيء عجيب يحير العقول وجدير بالتأمل والاعتبار ، غير أن هذا العمل لا يستطيعه سوى أهالى قرية (برما) الواقعة فى قضاء (أبيار) من بلاد السردار سليمان من أمراء مصر ،

بحيث إذا أراد أحد أن يخرج الكتاكيت بوضع البيض فى السبلة ، فما عليه إلا أن يأخذ واحدا من أهالى تلك القرية ويصحبه إلى الجهة التى يريدها ويبادر إلى العمل فأول شيء يعلمه هو إنشاء فرن خاص كأنه فرن للخبيز بسطحه قبة تحتها قاعة خالية مقسمة بالقرميد إلى أقسام مفروشة بالسبلة الناعمة كالقطن المندوف ، بحيث يوضع فى كل قسم من تلك الأقسام خمسون بيضة بعد فحصها بالنظر إليها فى الشمس ، فإذا كانت طازجة وسليمة يضعها به وإلا فلا . وذلك لأن حرارة السبلة تؤثر فى غير الطازجة فتفسدها وتجعلها تفسد غيرها من البيضات السليمة . ويقال إنهم يعرفون من أية بيضة تخرج الديكة وأيتها تخرج إناث الدجاج . وبعد رص البيض على هذا المنوال يبسطون عليها طبقة من السبلة أيضا مقدار أصبعين داخل الفرن ، وهم لا يستعملون الحطب والفحم أبدا . وبعد ثلاثة أو أربعة أيام يدخل الفرارجى الفرن عاريا ويكاكى مثل الدجاج ويأخذ فى تقليب البيضات رأسا على عقب ، على أنه يكون لابسا قفازا من ريش الدجاج تقلب به البيضات الخمسين الموضوعة فى كل قسم واحدة فواحدة ويضع بين كل واحدة وأخرى كمية من ريش الدجاج ثم يحرق نوعا من البخور ويدخن الفرن كله ويعود إلى الخارج كما دخل .

وهذا الرجل لا يطلع أحد على سر هذا العمل أبدا ، ولكن الضعيف كاتب هذه السطور ، قد ذهب إلى البلدة المذكورة ولبث بها اثنين وعشرين يوما حتى رأى العمل بعينى رأسه . فالفرارجى الذى يعدونه أم الكتاكيت يدخل الفرن ثلاث مرات يوميا ليقلب البيض وقبل أن تنقضى مدة العشرين يوما بقليل تخرج الكتاكيت وتندفع فى الفرن باحثة بأرجلها ومناقيرها فى السبلة . كأنها جيش من جيوش الجان والعفاريت . وعند ذلك يبادرون إلى إخراجها من الفرن لئلا تضر البيض الذى لم يفقس بعد . فيخلطون هذه الكتاكيت بالكتاكيت التى أخرجتها بعض الدجاج الراقدة على البيضات بالطريقة العادية فتمشى هذه مع تلك زرافات زرافات . هذا وليست لذة هذه الفراريج التى تنشأ من حرارة السبلة مثل لذة الفراريج الأخرى التى تنتج من رقدة الدجاج الطبيعية . لأن الأولى لها ريحتها الثقيلة وطعم لحمها ودهنها ثقيل ممجوج . كما أن الطائر المسمى صقر الفرعون وهو الحدأة خصم لدود لهذه الفراريج التى يحرسها الغلمان والأطفال كالديدبان ، وإلا فإن أسراب الطائر المذكور تقضى عليها فى ظرف يوم واحد ، فليس بمصر أكثر ضررا وأكبر أذى من هذه الطيور الجارحة . وبعد انقضاء عشرة أيام على هذه الفراريج يأخذون فى توزيعها على الناس بالكلية كل يشترى منها حسب حاجته إليها هذا خمس كيلات وهذا

عشر كيلات . والحمد لله قد شاهدنا بيع الدجاج وشراءها بالمكيال فى مصر . وثمة أغا من أغوات الباشا مكلف من قبل رئيس السكلارجية بشراء وتربية الكتاكيت اللازمة لمطبخ الباشا الذى يذبح فيه خمسمائة دجاجة فى كل يوم وتوزع على الأتباع والخدم . وأقول إن الذى لم ير كيفية صناعة هذه الفراريج بمصر لا يمكنه أن يتصور مدى شيطنة الفلاح المصرى ومهارته . والواقع أن العقل لا يتصور هذا السر العجيب قط .

صنع الله الجدير بالاعتبار

فى سبيل علام الذى سبق ذكره ، نوع من الأحجار الصغار الملونة اشتهر بمصر باسم حجر سبيل علام . إذ فى هذا السهل الفسيح يوجد حصى دقيق وأحجار ملونة بألوان مختلفة أصفى من اللعل والياقوت والماس . وتقدر قيمة كل واحدة منها من مائة إلى خمسمائة قرش ، كما أن هناك كثيرا من الأحجار المسماة عين الهر وعين السمك وعين الحُر وأمثالها حيث يبلغ ثمن القطعة منها خمسة قروش إلى عشرة قروش . وقد تهب رياح هوجاء تسفى الرمال وتنقلها إلى مكان آخر فتنكشف عن أحجار قيمة لا تعد ولا تحصى ، وهى فى الظاهر ليست لها قيمة وهى خام غير مصقول ، إلا أنها بعد الجلاء والصقل والحفر والنحت بأيدى مهرة الحفارين والنحاتين الفنانين تصير ذات قيمة كبيرة حيث توجد بينها أحجار كريمة أكثر رونقا ولمعانا من لعل بدخشان وأصفى من الماس . إن مؤرخى مصر وعلماءها يجمعون على أن شداد بن عاد قد بنى ارم ذات العماد فى «سبيل علام» هذا وهم متفقون على هذا الزعم ولا تزال تظهر حتى الآن آثار أبنية عظيمة هنا وهناك قريبا من سبيل علام . ولقد لبث إبراهيم باشا الكتخدا حين عزله من الباشوية ، فى سهل سبيل علام هذا سبعة وسبعين يوما ، فكان أتباعه وخدمه يمضون أوقاتهم بجمع كميات من حصى وحجارة هذه الصحراء ويلعبون بها (المنقلة) ، الأمر الذى استرعى انتباههم إلى هذه الأحجار وقيمتها الحقيقة فأعطوها إلى النحاتين والحفارين لصقلها وجلائها ليتخذوها فصوصا . وهكذا صار جميع هؤلاء الخدم والأتباع من أصحاب الخواتم وهذا شىء عجيب جدا .

تأثير الأحجار العجيبة

وتوجد فى صحراء سبيل علام هذه حجارة ذات لون أصفر لامع لمعانا شديدا يطلبها دائما حكماء الإفرنج فينقبون عنها فى أيام القيظ فى تلك الصحراء الرملية الساخنة . ولهذه الأحجار خاصة عجيبة وإذا قبض عليها شخص بكلتا يديه فإن نفسه

تغثى وتنقلب معدته ويأخذ فى القئ ولا يبقى معه شىء من الأخلاط من الصفراء والسوداء وتتخلص معدته من تلك الأدران والأثقال .

ومن خواص الأحجار

وتوجد حصوات مثل الخرز الأبلق فى صحراء سبيل علام الفسيحة الأرجاء هذه . إذاحملت امرأة الواحدة منها أثناء الوقاع لا تحمل قط . ولذا تحملها بكثرة العاهرات المصريات اللائى يسكن باب اللوق . ولقد كانت والدتى أيضا تحمل حجرا من أحجار سبيل علام كيلا تحمل مرة أخرى ! .

عبر أرض مصر وغرائبها

من الشائع أن العرب فى أرض مصر تأكل الفئران . وهذا صحيح وحقيقة لا مرية فيها . ولكن ما نوع هذه الفئران؟ نبين هذا فنقول أن فى مصر نوعا من الفئران يقال له «فأر الغيط» ، وهو مخلوق عجيب مضحك يظهر فى وجه الأرض أثناء فيضان النيل وإغراقه الأرض كلها حيث يحتشد الصبيان والنساء ويذهبون إلى خارج البلد جائلين فى أطراف الأرض التى أغرقتها المياه باحثين عن تلك الفئران الهائجة فيصيدونها بكل سهولة بفضل طغيان المياه ويعودون إلى بيوتهم حاملين أكياسا مليئة بها فيذبحونها ويأكلونها هنيئا مريئا ثم يعمدون إلى جلودها فيبيعونها ، فهو حيوان سمين للغاية ، ذو ذنب قصير وأنف طويل . وشفته العليا كشفة الأرنب منشقوقة . وفى الجملة هو فأر أغبر يضرب إلى السواد . ويزن كل واحد منه عادة مائة درهم أو رطلا . فهذه الحيوانات تنشأ من الأرض بأمر الله وحكمته حيث يتكوم التراب على وجه الأرض فيستدل به الصيادون على وجودها ويعمدون إلى حفر تلك الأكوام ونبشها ويخرجونها منها . وقد ترى بعضها تامة الخلقة كاملتها والبعض الآخر ناقصة أعنى أن الواحدة منها نصفها فأر حتى وسطها ونصفها الثانى لا يزال ترابا . وهذه حكمة بالغة من حكم الله القدير ، إذ ترى الدم لا يزال ممزوجا بالتراب الذى تشكل بهيئته الفأر ولم يتحول بعد إلى اللحم حتى ينفخ فيه الروح . ومثل هذه الفئران الناقصة التكوين والخلقة إذا خرجت من الأرض تموت حالا من أثر الهواء والجو لعدم اكتمال خلقها . وقد سألتُ أولاد العرب عما إذا كانت هذه الفئران تتلاقح أم لا؟ فأجابوا بقولهم نعم . إنها تتلاقح ولكنها لا تلد قط بإذن الله الفاعل المختار . ثم سألتهم عن نفعها فقالوا إنها سهلة الهضم سريعته وإنها سمينة جدا ومقوية .

وهذا أيضا من عجائب خلق الله وحكمه البالغة[1] ، ولكن المعتزلى الذى يقصر عقله عن إدراك صنع الله البديع ينكر هذا الذى ذكرناه ويستبعد وقوعه ، بيد أن كاتب هذه السطور ، قد شاهد هذا بعينه إذ أعطى العربان الذين أخرجوها ، بضع بارات ليحضروا له شيئا منها كى يشاهدها بنفسه عن قرب فكانت الواحدة منها نصفها ذا روح ودم ونصفها الآخر ، لا يزال طينا وترابا وليس به روح ولا دم . أليس الدليل الكافى والبرهان الظاهر على هذه العجيبة ، خلق بنى آدم من الطين والعدم كما فى الآية الكريمة ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ والذى لا ينظر إلى عقيدة المعتزلة ويتمسك بعقيدة أهل الشرع فقط يردد قوله تعالى ﴿إن الله على كل شىء قدير﴾ فيسكت ويستريح .

فى بيان قرابة النخل وجوز الهند لبنى آدم بحكمة الله وقدرته القاهرة

بموجب عادة شائعة فى مصر يقوم المصريون كل سنة بتزويج النخل الأنثى بالذكر منه أعنى أنهم يأخذون فرعا من النخل الذكر ويدخلونه فى قلب الأنثى منه فيتم التلاقح بذلك . وبهذا تنتج النخلة الأنثى خمس عشرة سباطة أو عشرين سباطة من البلح . وإذا لم يفعلوا ذلك ، أعنى إذا لم يجمعوا بين الذكر والأنثى فإن النخل لا يثمر قط .

هذا وللنخل حالات تشبه حالات الإنسان فى نموه وتلاقحه وبأعلى النخلة جزء يسمى الجُمَّار (بضم الجيم وتشديد الميم) يقطعونه ويأكلونه وهو أبيض لذيذ الطعم مقو جدا . ولشدة تشابه النخل فى أحواله التناسلية بالإنسان ظنوا أن بينهما قرابة وأن الله سبحانه قد خلقه مما بقى من قبضة التراب التى خلق منها الإنسان كما خلق منها أيضا جوز الهند ونباتا يسميه العامة «عبد السلام» لكثرة شعره وافتراشه الأرض .

ومن العجائب

إن قوما فى مصر يأكلون الحيات والثعابين حيث يذهب الواحد منهم إلى البيوت والمنازل التى بها الثعابين والحيات ويأخذ فى التصفير لها تصفيرا خاصا فتبرز له الحيات

(١) هذه الأوصاف التى ذكرها المؤلف عن هذا النوع من الفئران التى يأكلها الأعراب تدل دلالة واضحة على أنها القنافذ . (د . متولى) .

والثعابين وتحتشد حوله متحفزة للقتال الذى ينشب بين الطرفين ويحتدم حتى ينقلب هو عليها واحدة فأخرى فيضعها فى كيسه . وهكذا ينقذ أهل البيت المذكور من شر الأفاعى والحيات . وقد يأتى واحد من هؤلاء القوم ويقف إلى جانب أحد من الناس وعلى علم منه يخرج من جيبه أو طيات ثوبه حية أو ثعبانا أو عقربا أو غير ذلك من الحيوانات السامة . ويعمد بعض هؤلاء الدجالين إلى جيوب الناس فيخرجون منها فواكه كالتفاح والكمثرى والخوخ والعنب فى غير مواسمها المعتادة . ويحدث أحيانا أن يسيلوا المياه ويجروها من ثياب الناس أو يخرجوا منها النيران . أو يشيروا إلى عمائم الناس فإذا بها يسيل منها الماء أو يبرز منها العقرب والحية قبل أن يفطن صاحبها إلى ذلك الأمر الذى يضطره إلى الهرولة والفرار منها وهو ممتلىء رعبا وخوفا . هذا وكان المرحوم إبراهيم باشا ميالا إلى مشاهدة هذه الأعمال المضحكة والغرائب المسلية .

ومن العجائب أيضا

إن بمصر شجرا باسقا يسمى شجر الجميز ليس فى ديار مصر شجر أكبر منه . ويشبه فى الطول شجر الدلب المعروف ببلاد الروم (الترك) . وله ظل ظليل وارف لطيف . وهاك وصف أثمارها .

كل من كان له شىء من هذا الشجر يبادر إلى الاتفاق مع عدة أشخاص على خطة عجيبة فهو يسبقهم إلى أرضه ويصعد إلى شجرة الجميز ويأخذ فى تشقيق فروعها وأغصانها كأنه يريد قطعها بسكين . وبينما هو كذلك إذ بهؤلاء الناس يحضرون إليه ويخاطبونه بقولهم أيها الرجل لماذا تقطع هذه الشجرة الغضة اليانعة التى خلقها الله لنا معشر الإنسان فيجيبهم هذا بقوله : إن الشجرة ملكى ومالى ، أصنع بها ما أريد وأبغى ، إذ نشأت فى أرضى وعاشت بها ، وهى لا تزال تنمو وتكبر ولكنها لم تثمر قط فضلا عن منعها نمو النبات الواقع فى ظلالها ، فلذا عزمت على أن أجعلها حطبا ووقودا للنار . وعند ذلك يبادر الجماعة التى فى الأسفل وتخاطب الرجل بقولها : اعمل المعروف يا رجل تمهل وارحم هذه الشجرة الغضة فلا تقطعها فإن لها غصونا جميلة وفروعا باسقة غضة وأوراقا لطيفة خضراء وسوف تثمر إذا تركتها ونحن نضمن لك هذا . وفى أثناء ذلك الحوار تنزل المياه الحمراء كالدماء متدفقة من الثقوب التى أحدثها صاحب الشجرة بسكينه فى جسمها وجذعها وفروعها العديدة فيشتد جزع الجماعة ويزيدون فى الرجاء والتضرع مرة أخرى قائلين : إننا نضمن أنها ستثمر فى العام الواحد سبع مرات ، ثم

يقبلون على صاحب الشجرة ويأخذون السكين من يده ويطرحونها جانبه ثم يتقدمون إلى الشجرة ويحتضنونها جميعًا معًا كأنهم يأخذون عليها العهد والمواثيق بأن تثمر وقد تحضر فى هذه اللحظة الظريفة جماعة أخرى تشهد على ما يقع .

وبعد هذه العملية العجيبة تطرح الشجرة المذكورة ثمرا كثيرا سبع مرات فى مدى عام واحد أو ثمانى مرات من تلك الثقوب والجروح التى أحدثتها السكين بها . وتشبه ثمرة هذا الشجر التين وليس بجوفها بذر كبذر التين ، بل إنه خال كل الخلو . غير أن الواحدة منها تزن مقدار ما يتراوح بين العشرين والثلاثين درهما وهى ثمرة سهلة الهضم لذيذة جدا ولونها أحمر أو أصفر وفيه الأبيض . والغريب هو أن سائر الفواكه والأثمار تكون فى الأغصان والفروع الرفيعة فى حين أن هذه الثمرة لا تكون إلا فى جذوع الأشجار الضخمة التى لا تقل ضخامتها عن تخانة عدة رجال من الناس الملتفين الملتصقين ببعض . ولا يخلو مكان منها من تلك الثمار اليانعة . وفى الجملة أن هذه الشجرة مثمرة جدا . ومكانها فى علم الطب هى صفة الاعتدال بحيث إذا أكلت من ثمارها خمس وحدات أو ستا وشربت عليها الماء فإنه يحصل عندك لين لطيف فتعمل مجلسين على الأكثر . ومن خواصها أنها تزيد فى قوة الإبصار ، كما أن أوراقها الخضراء بعد دقها وغليها بالماء وشربها تنفع الإسهال والليونة الزائدة وتوقفهما وتقلب إلى الانقباض والإمساك . وجسم هذه الشجرة أخضر اللون . وبالجملة إن لها خواصا كثيرة حتى إن الذين يعتقدون فى الكيمياء يعرفون جيدا أن هذه الشجرة لشىء عجيب وأمرها غريب .

خاصية أرض مصر

يحفرون الأرض فى مصر ويضعون فيها الخروب ثم يشقونها ويروونها ويعنون بها فما يلبث إلا ويجدونه بعد بضعة أيام ازدهر واخضر هذا الخروب وظهر مثل القصب الأخضر .

وعمل النشادر

يستخرجون فى مصر النشادر من قاذورات الإنسان . وقد سبق ذكر المعامل الغريبة التى تنتج هذه المادة بطريقة غريبة .

وصف عمل العنب

ومن غرائب عمل الفلاحين بمصر أنهم يستعجلون الحصرم فيقلبونه إلى العنب قبل الأوان بمدة شهر على الأقل . وذلك بأن يبخروه بالكبريت المحترق . وهذا شيء عجيب ولا شك .

وصف عمل الشمام والبطيخ

يطلق فى مصر تعبير «رسمال» على خرء الحمام حيث يضعه فلاحو مصر فى جذور زراعات البطيخ والشمام فتنمو قبل الأوان بمدة شهر على الأقل وهكذا يحصلون على بطيخ وشمام لذيذين حينما يريدون .

خواص الحيوان العجيبة

إن فى الجهات التى يزرع بها قصب السكر بمصر يوجد حيوان مؤنس يشبه ابن عرس (يقصد العرسة المصرية) فهو حيوان مضحك جوال كثير الحركة وسريع القفز ، حتى إن بعض الناس يربيه فى المنازل والبيوت فيأنس إلى بنى آدم ويتعلق بهم ويوجد منه عدد كبير فى جنائن الكروم بإقليم الفيوم حيث تفر منه الزواحف من شدة الرائحة التى تلازمه . ولا تقترب الزواحف منه قط لأن رائحته تلك تقضى على الحيات والثعابين والزواحف السامة فى حين أن الإنسان يفيد منها كل الإفادة . وهذا أيضا شيء عجيب .

ذكر مناجم الذهب

على مسيرة ساعتين من القاهرة بالجانب القبلى منها موضع بأرض جبل الجيوشى محل يدعى جبال عيون موسى حيث يطلقون عليه أيضا اسم جبل بجاميم ، يستخرج منه جير أحمر إذا أحرق فى النار ينتج منه الذهب ولكن نفقات ذلك أكثر من الحاصل لقلة الحطب والوقود بمصر . ولكن الحاكم بأمر الله خليفة مصر استخرج الذهب من هذا المنجم سبع سنوات ثم سده وأبطل العمل به . ولا تزال آثار ذلك باقية حتى الآن . ويوجد منجم الفضة فى جبل جالوت الكائن غربى مصر ، كما أن بجانبها الشرقى ، بالجبل المسمى بالمقطم ، يوجد معدن الذهب . وفى ولاية الصعيد منجم الزمرد وفى أرض البحيرة منجم النطرون . ويحصل فى جميع قراها ملح البارود . ويستخرج ملح الطعام من بحيرات مصر وبركها .

مدينة عين شمس العجيبة

كانت عين شمس مدينة عظيمة بجوار المطرية الكائنة فى شمالى القاهرة على مسيرة ساعتين منها . وهى الآن خربة ويقال أنها كانت عاصمة مملكة مندرسة لا تزال بها الآثار العجيبة والأبنية الغريبة والتماثيل والأنصاب الهائلة وغيرها من المشاهد ولاسيما العمود المرتفع الذى يشبه العمود الذى بميدان السباق باستانبول ، يبلغ ارتفاعه مائة ذراع مكية وفى جوانبه الأربعة نقوش وكتابات بخطوط القبابطة ، وعلى رأسه وأعلى قمته صورة إنسان راكب على دابة من ذوات الأربع وهذا رمز لقدوم السلطان سليم خان إلى مصر . وجوانب العمود الأربعة مثل الذى بميدان السباق باستانبول بها نقوش عجيبة مطلسمة . وأمثال هذه الطلسمات لا توجد فى غير بلاد مصر . وهى لا تزال غير مفكوكة ولا محلولة ، فالذين حاولوا حلها وبذلوا فى سبيلها الجهود والمساعى ماتوا ودفنوا هنالك جميعا .

ومؤرخو مصر يذكرون أنه كان فى عين شمس هذه قصر كبير كان له مائة وثمانون شباكا ونافذة تدخل الشمس كل يوم من واحد منها ، فلذا أطلق على تلك المدينة كلها اسم عين شمس . وفى رواية أخرى أن ملكة تدعى عين شمس أنشأت هذه المدينة وأن الشمس تجرى فى منازلها حتى تقطع مائة وثمانين منزلا فترجع كما بدأت . ولا تزال آثار تلك الأبنية موجودة تدل على أنه كان بها قلعة عظيمة .

ومن العجائب والغرائب جبل الهرمين

ويقع غربى مصر على مسيرة ساعة من قصبة الجيزة وهو عبارة عن ثلاثة جبال ليس فى وجه البسيطة بناء أقدم عهدا منها . وكأنه بالثلاثة معا جبل القاف ، وكل واحد منها هرم صنم من الأصنام . فيقال للهرم الأكبر (جبل بلهيث) وللأوسط (جبل ملهوية) وللأدنى (جبل أبو الهول) . وما أكثر الروايات والأساطير التى تتداولها الألسنة فى أصل هذه الجبال الاصطناعية . فيقول البعض من المؤرخين أنها من بناء عاد بن شداد قبل الطوفان . ويقول الآخرون أن الملك سوريد أنشأها بإيعاز من الكهنة مدفنا لنفسه قبل الطوفان ، حيث خزن فيه بعد إتمامه أمواله وخزائنه وكتب علوم إدريس النبى وأسلحته وآلاته وعدته وطلسمه طلسمات عظيمة وعين عليه الموكلين بالحفظ والحراسة . وكسا الهرمين بالديباج والحرير ، ثم بنى مدينة بساحل النيل أسكن بها الموكلين بالحفظ

والحراسة . وكان يؤم هذين الهرمين فى ربيع كل سنة مئات الألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونهما . ولا يزال هناك فى الهرم الشمالى باب يطل على الناحية الشمالية أيضا إذا دخلت منه تجد على يمينك نقوشا على الأحجار خلاصتها «أنا بانى الهرمين قد أتممت بناءها فى ست سنين فليحاول هدمه من أساسه فى ستمائة سنة من يأتى بعدى ، ولا شك فى أن الهدم أسهل من البناء . وقد كسوته أنا بالديباج ، فليقدر الملوك الذين يأتون من بعدى على ستر نصفه بالحصير فقط .

هذا ولما قدم الخليفة المأمون من بغداد إلى مصر وأراد استخراج الكنز العظيم الذى يضمه الهرمان فى جوفهما بذل مجهودا كبيرا وهمة عظيمة فى فتح ثغرة بأحداهما وذلك بجمع أحطاب كثيرة وإيقادها بالنار وإلقاء العروق والأخشاب والكتل وغيرها من الوقود ، ثم رميه بالمنجنيق أحجارا عظيمة للهدم ، ومع ذلك فلم يؤد هذا إلا إلى فتح ثغرة قدرها عشرون ذراعا وقد وجد بها زيرا مرصعا بالزبرجد به ألف قطعة من الذهب تزن الواحدة أقة ، ثم عثر على قطعة حجر منقوش عليها هذه العبارة .

«أيها الطامع فى استخراج الكنز والباحث عن الدفينة فى هذا القبر إذا أردت أن تحصل على بغيتك فإنه يلزمك الصرف على ما أنت بصدده من المال مقدار ما تجده من الكنز . ولو أردت أكثر من ذلك فإنك ولا شك ترحل من هذه الدنيا الفانية من غير أن تحصل على شىء» .

فلما رأى المأمون أن ما بذله من الجهود والمال والعتاد قد ذهب سدى وأن ما عثروا عليه من الكنز لا يكاد يساوى ما أنفقه من المال فى مدى سبعة شهور ، كما أن المأمون قد تذكر ما كتب على الأحجار التى على يمين الداخل من باب الهرم المطل على الشمال وهو «فليغط الملوك الذين يأتون بعدى نصفه بالحصير» فأمر بتغطية نصفه بالحصير وعند ذلك قامت ريح عاصف تصفر كصفير البازى فأطارت الحصر إلى السماء ومزقتها إربا إربا وجعلت الخدم والحشم مشتتين خائرى القوى . وأخذوا بفضل رأى حسين بن صالح وزير المأمون وتدبيره وعدلوا عن اتمام هذا الأمر الذى كلفهم كثيرا . ولا تزال آثار ذلك الهدم الذى حدث فى عهد المأمون باقية للعيان حتى الآن . غير أن يوسف صلاح الدين حينما أراد تجديد بناء قلعة مصر أخذ الأحجار والصخور من جبال الهرمين هذه ولا تزال أمكنة تلك الأحجار ظاهرة . ولقد شاهدها ورآها كاتب هذه السطور .

هذا وقال (سوريد) بانى الهرمين متحديا ، أنى قد بنيت هذه فى ستة أعوام ، وليهدمه الذى يأتى بعدى من الملوك فى ستمائة عام[1] ، غير أن كاتب هذه السطور يرى أن هذا البناء الضخم لو وضع فيه مائة قنطار من البارود الأسود مع لغم ذى ست خزانات من المواد الناسفة فى هذا الزمن لانقلب ذلك البناء وطار فى الهواء ولم يبق منه أثر حتى قاع النيل . ومع ذلك فإنه بناء عظيم لم أر له مثيلا على ظهر الأرض . وبحمد الله تعالى على أن مكننا من رؤية هذا الصنع البديع ، فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا حينما كنا نريح خيولنا التى كانت ترعى وتسرح فى جوار الأهرام ، حيث قضينا أياما لطيفة وأوقاتا سعيدة بتلك الربوع ، وقد ذهبنا مرارا لمشاهدته وتفقد معالمه وأثاره . وحدث ذات يوم أن اتفقت كلمتنا على الذهاب للزيارة والمشاهدة فجاء معنا أتباع الأمير أخور وبهلول أغا وغيرهما من الضباط الذين يبلغ عددهم خمسة وأربعين شخصا يحملون المشاعل والمصابيح ذات الشموع وغيرها من المصابيح المقاومة للريح وبعد أن أزلنا الرمال والأتربة من طريق الباب الشمالى للهرم الكبير استعذنا بالله وباسمه الكريم ودخلنا هذا البناء الشامخ . وقد راقت كاتب هذه السطور طريقة السير والمشى قابضا على البوصلة والساعة ناظرا فيهما بكل دقة . وبعد أن سرنا سبعمائة خطوة وجدنا طريقا معبدا ومسقفا بعقود فى علو عشرين ذراعا وبعرض عشرة أذرع . وعلى جانبه مغارات وقاعات مبنية عليها أقبية منحوتة من الصخر ومطلية بالذهب ومزدانة بديعة كأنها خارجة من عمل الرسام الإيرانى «بهرزاد» وكل الغرف كانت مليئة بعظام بنى آدم وجماجمهم ، كل جمجمة تسع مائة كيلة من القمح . وهى كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة لا يعلم عددها إلا البارى تعالى . ولقد عثر كاتب هذه السطور فى الطريق على عظمة ساق فى جلدها يبلغ طولها واحدًا وسبعين شبرا من أشباره . وكأن هناك كثير من أمثال هذه العظام وترقد فى مغارة كبيرة جثث ورفات آدمية مكفنة بألياف النخل وجنبها عظام ولحوم مقددة يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة . بيد أن الروائح الكريهة المنبعثة من خرء الخفافيش التى كانت مثل الغربان فى الكبر والضخامة كانت تضايقنا وتؤذينا جدا وقد كانت هذه الطيور الكريهة الرائحة متعلقة ومتشبثة بجميع الصخور بواسطة مناقيرها الحادة . وقد كان بعضها يرتمى على الفوانيس التى بأيدينا معرضة ريشها وأجنحتها للنار وبعضها كانت تصطدم

(١) كلام المؤلف عن بناة الأهرام فيه خرافات كثيرة كانت شائعة فى الأزمان الغابرة ، ثم أثبت علم الآثار الحقيقة بعد أن تكشفت حفريات عديدة فى العصور الحديثة . (د . متولى) .

بوجوهنا حتى أن بعضا من رفقائنا قد اضطروا إلى الرجوع والعودة من حيث أتوا ، خشية أن تتسلط عليهم فكانت غير مرئية . ولكنا نحن الباقين واصلنا السير مع خمسة وثلاثين شخصا حتى أدركنا منحدرا سهلا - وعلى قول المؤرخ ابن جلال - كان يطلق على جبال الهرمين هذه (برابى) فى اللسان القبطى لأن الذى بناها أولا هو قاين ابن خنوخ بن ناحويل بن نشيد بن برابى . ولذا تدعى هذه الجبال (برابى) . ويقول البعض أن امرأة من الفراعنة لما كانت ملكة على مصر بنت أولا هذه الأهرامات فلذا تطلق على هذه الجبال جبال فرعون . ويقال أن الملوك الذين هم سلائل النساء الملكات كانوا يجددون بناء الأهرامات دائما قائلين أنها من آثار أمنا القديمة فيجب علينا أن نعمرها دائما . ففهم من هذا أن ذلك من بناء النساء الملكات . ويقول البعض إنها من آثار الساحرة تدرة (تدره جادو) وكان كل من (اسمون) و(اثريب) و(صا) كهنة يرقدون فى الهرمين . وعلى قول تاريخ الشهابى إن أول من بنى هذه الأهرامات قبل الطوفان هو صوريقه بن شهلوق بن شرياق بن طوميورن بن تدرسان بن الملك حسال . . . ثم توجهنا نحو الجنوب بمقتضى ما تريه البوصلة وسرنا ساعة كاملة حتى وصلنا إلى قاعات رائقة كأنها إيوان كسرى الشهيرة فى كل واحدة منها جثث متعددة على شكل القاعد أو الراقد . فهذه الجثث كانت ولا شك رائعة وأخاذه جدا من القد وطول القامة والشكل وبجانبها حصر بالية وأقمشة متخذة من ليف النخل ملطخ بالرمال وملوث بالتراب وبعد أن سرنا من هذه النقطة مسافة خمسين خطوة إلى الأمام واجهنا مطلعا فصعدناه ونزلنا منه حيث وجدنا حوضا مليئا ماء صافيا رائقا . بيد أن فى جوانبه الأربعة كانت طيور كالعقبان والأوز الكبيرة المخيفة الهائلة جاثمة متحفزة . فلما رأتنا هذه الطيور رفرفت بأجنحتها بشدة ودوت القاعات كالرعد ورددت صداها فكادت أمخاخنا تنزل من جماجمنا خلال آذاننا حيث تجمعت علينا الخفافيش والوطاويط حيث لوثتنا ولوثت ثيابنا وأرعبتنا أيما إرعاب . وهنا ارتفع صوت من بين حملة المشاعل والفوانيس من رجالنا يقول أنه لم يبق من الزيت والشموع إلا قليل ، وأن الأضواء على وشك أن تنطفئ .

وخلاصة القول أن الخوف والهلع قد ساورانا وأحاطا بنا من كل الجوانب من شدة أصوات أجنحة تلك العقبان ولم نستطع التقدم بعد هذا الحوض خطوة إلى الأمام وقررنا العودة . وبينما نحن نفكر فيما آل إليه أمرنا إذا بمشاعلنا تنطفئ وإذا برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور كادت تقضى علينا وعلى سرجنا الضئيلة أيضا ، وبالرغم من

هذا شرعنا فى العودة من حيث دخلنا . وهنا أيضا فوجئنا بهجوم الخفافيش مرتمية بأنفسها علينا تضرب وجوهنا والنار التى معنا حتى ألحقت بنا أذى وتعبا شديدين . ومهما يكن من الأمر فإننا تمكنا من الخروج إلى الخلاء سالمين بفضل العلامات التى كنا وضعناها فى طريقنا حين الدخول . وقد اجتمعنا برفقائنا الذين سبقونا فارين هاربين حيث أقبلوا علينا ساخرين مستهزئين قائلين ماهذه الوجوه الكالحة الملوثة وماهذه الأحوال العجيبة التى أنتم عليها؟ وفى الواقع إنا كنا متعبين ومضطربين جدا ، غير أننا شاهدنا عجيبة وأحوالا غريبة وتحفا رائعة والله يعلم ماوراء الحوض المذكور من الطرف والآثار البديعة .

هذا هو وصف كاتب هذه السطور بالدقة لأحد الهرمين ليس به خزينة ولا دفينة كما يقال ويشاع سوى الجثث المدفونة . وليس هناك شك فى أن هذا البناء العجيب مطلسم لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور ، بهتنا كلنا وتولتنا الحيرة والدهشة وأحاط بنا النصب والأذى من كل جهة فعدنا بأعجوبة ولكن بكل مشقة وبلاء وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا من هول الموقف ، حتى وصلنا إلى الهواء الطلق وتنفسنا الصعداء ودبت الحياة فينا من جديد . نسأل الله تعالى ألا يقدر لنا دخول هذا المكان مرة أخرى .

وقد آوينا بعد ذلك إلى مضاربنا ومخيماتنا وتناولنا الفطور وشربنا القهوة ثم قمنا وجلنا حول الهرم من جهاته الأربع فوجدنا طول الضلع الواحد من القاعدة المربعة لكل من الهرمين يبلغ مائتى خطوة . وعلى هذا الحساب تكون المسافة الدائرة لكل منهما ثمانمائة خطوة . ويبلغ حجم كل صخرة من صخورهما طولا وعرضا ما يتراوح بين العشرين ذراعا والثلاثين ذراعا . ويبلغ ارتفاع الهرم حتى القمة مائتى ذراع والباب الذى فى شمال الهرم الكبير حيث دخلنا منه ، ضيق فى غاية الضيق . غير أن الأبواب الأخرى ليست ظاهرة أو معلومة ، كما أن هرم أبى الهول صغير جدا . ولكن الهرمين المشهورين يعلوان بقمتيهما إلى عنان السماء ، وهما مربعان حادان كالجبال الشامخة . ولقد صعد كاتب هذه السطور إلى قمة الهرم الذى سبق أن دخله ، فوجد به مكانا فسيحا يسع مضربا ذا عشر غرف يقام به ، كما أن الشقوق التى فى الصخور تحوى أوكار الطيور كالشاهين والبازى وأفراخهما والحمام المطوق . ولقد نظرت منها إلى مصر فى الأسفل فرأيتها كلها ظاهرة للعيان من هذه الجبال العالية .

هذا وفى الجهات الأربع للهرم أبنية مطلسمة مبنية بأحجار سود إذا أردت شرحها ووصفها لاقتضى ذلك تدوين كتاب مستقل .

تتمة جبل الهرمين

إن ذا النون المصرى الذى جاء برسالة إلى النبى عليه السلام من عند المقوقس وهو الذى كان قد شاع أمره وذاع صيته فى الفصاحة والبلاغة والفضل العظيم فى ناحية شرق إخميم بالصعيد الأعلى من ديار مصر ـ دخل بإذن عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر فى جبال هذه الأهرامات واشتغل فى حل طلاسم الخطوط العجيبة محاولا ترجمتها إلى اللغة العربية ، وها هى الترجمة ، (كما ورد بالحروف العربية فى الأصل) «احذر العبيد المعتقين ، والأحداث والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين» ومعناه :

احترس من العبيد الذين أعتقوا ، ومن المحدثين من الجنود المتظاهرين بالعبادة ، ومن طائفة النبط الذين هم جاءوا من البادية ونشأوا بين العرب .

وهاك ترجمة خط آخر . وترجمة كتابة أخرى :

(يقدّر المقدّر والقضاء يضحك) .

هذا وفى الهرم الصغير الذى هو من بناء الحكيم قاليمون قبل الطوفان مكتوب بيت شعر معناه كما يأتى :

تدبر بالنجوم ولست تدرى ورب النجم يفعل ما يريد

ومعناه أنت أيها الإنسان تنجم فتفعل ما تريد ، غافلا عما يفعله رب النجوم .

أشكال طلسمات أبى الهول

هو رأس كبير فى حجم قبة حمّام منحوت من صخر أبيض يقع شرقى الهرم الثالث الصغير ولا يظهر منه إلا ما فوق الرقبة وليس له جسم آخر ، رأسه إلى العنق ناظر إلى الجهة الشرقية وله حاجبان وعينان وأذنان وأسنان ورقبة ، فهو رأس ضخم يمكن أن يجلس عليه مائة رجل . وكأن الفنان القديم الماهر استعمل آلته بمجهود عظيم فنحت رأسا يبدو لناظره كرأس كائن حى يبتسم ابتسامة واضحة ، وجعل له خصلا مجعدة مبرومة مفتولة مكوّرة ، ومسترسلة مبعثرة فكأنه أراد إظهار فنه بإبداع سحر الإعجاز وأسر الأفئدة .

ويقال أن هذا الرأس كان فى الزمن الماضى يكلم القادمين والرائحين من الزوار وقد جعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر أو ظهور قحط وغلاء ونزول الأمطار وامتناعها ، ومقدار فيضان النيل أو عدم فيضانه ، أو موت أحد أو حياته ، أو بالاختصار كان يخبر عن المغيبات الخمسة . فلما بلغ ذلك موسى عليه السلام ذهب إليه وقال له : إنك قادر على التكلم فيجب عليك أن تؤمن بى أنا رسول الله الحق ؛ فقال أبو الهول إنى أومن بإدريس ولا أومن بغيره ؛ فغضب موسى وكان عاتيا وضرب أبا الهول بعصاه وثلمه عدة ثلمات وخدش فمه وأنفه وقال (اسكت يا ملعون) وانصرف ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول ولم يعد يتكلم . ولا تزال آثار عمل موسى باقية على رأسه ولم تزل عيناه مخدوشتين ومع ذلك فهو صنع إنسان بديع وأثر عجيب . وفى رواية أخرى أن السحرة كانوا يحملونه على الكلام بسحرهم وكان يكلم النساء . وزعموا أن امرأة ثرية سرق منها مال كثير فتقدمت إلى أبى الهول تستخبره عن السارق فأخبرها . فبادرت المرأة العاصية إلى الحاكم مستغيثة به على تفتيش بيت السارق الذى وجد به المال المسروق كله . فثار ثائر اللص وصعد إلى رأس أبى الهول وبال عليه انتقاما منه . وبطل الطلسم من ذلك اليوم ؛ ولم يعد أبو الهول يتكلم . والرواية الأولى أقرب للعقل لأن موسى عليه السلام من أولى العزم ، وبفضل معجزته صار أبو الهول أصم أبكم عبرة للمعتبرين .

وهناك مشهد آخر عجيب على مقربة من هذا الصنع البديع وهو معبد قد دفن بابه فى الرمال والأتربة ، ولكن عقد الباب الأعلى مشتمل على نقوش غريبة كأنها خطوط ولكنها لا تقرأ بالرغم من أن لكاتب هذه السطور مهارة فى قراءة خطوط مختلفة . فلم أر خطا مشابها لها ولم أقدر على قراءة حرف منها .

ورد فى تاريخ ابن جلال أنه كان فى خانقاه الصلاحى صوفى متعصب يُدعَى محمدا وكان يقول بحرمة صور الحيوانات . وفى سنة ٧٨١هـ تصدى هذا الصوفى لتهشيم فم أبى الهول وأنفه أكثر مما هشما بيد موسى عليه السلام . وأقدم على هذا العمل دون أن يحصل على إذن بذلك من حاكم ذلك الوقت . وبينما هو يحاول ذلك هبت ريح عاتية بحكمة الله على مدينة الجيزة فحالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق إلى القاهرة حيث غرقت فى الرمال . فاستقدم الحاكم الصوفى محمدا المذكور وقطعه إربا إربا وأمر بدفنه بجانب أبى الهول ، ولا يزال زوار أبى الهول يرجمون قبر ذلك الصوفى المنحرف .

من نعم الله على مصر

إنه لا يوجد بمصر الجراد ولا ينشأ بها قط وإذا أغار عليها من بلاد أخرى فلا يعيش بها ويهلك بسرعة ، حتى إنه فى عصر الرسالة المحمدية حينما استولى الجراد على مكة والمدينة فزع الصحابة إلى الرسول والتمسوا منه الدعاء إلى الله تعالى ليزيل عنهم هذا الكرب فرفع النبى عليه السلام أكف الضراعة إلى الله قائلا «يا رب ادفع هذا الجراد ونحه إلى مصر التى فى كنانتك» وعند ذلك قال الصحابة الكرام يا رسول الله إن مكة والمدينة عالتان على مصر فى غدائهما فإذا راح الجراد إليها فقد يعمها القحط والغلاء ولكن الرسول قال ما معناه أن مصر فى حفظ الله وأمانه ، وكل من احتقر مصر أو استهان بها وظلمها ومسها بسوء لا يعمر ولا يعيش . فهذا الجراد هو جراد مضر إذا ذهب إليها لابد أنه هالك بها . وفى الواقع أن الجراد لا يعيش بمصر ولا يتوطن بها . كما أن الجامع الأزهر لا يدخله الحمام والذباب والثعبان وغيرها من الهوام والحشرات والوحوش والطيور لأنه مطلسم بطلسمات نافذة المفعول .

ومن الطلسمات

بقلعة الكبش حصن قديم وبجواره زاوية السلطان الجاولى . وتحت سلم هذه الزاوية حوض من الرخام الأخضر من قطعة واحدة مستطيلة مصنوع على شكل سفينة . وفى قديم الزمان كان يركب هذه السفينة الحجرية أربعة أنفار يعبرون بها النيل من ضفة إلى أخرى . فإذا ركبها خمسة فلابد أن تغرق بهم . لأن الكهنة القدماء طلسموها هكذا . وكان الناس يعلمون ذلك السر ويراعون العادة ويركبها الأربعة فقط فيعبرون النيل كالبرق الخاطف . وقد دام الحال إلى عهد كافور الإخشيدى على هذا المنوال . وحدث ذات يوم أن قال كافور الإخشيدى فى نفسه أن من شأن الحجر أن يغرق فى الماء فما بال هذا الحجر الزورقى يجرى ويسبح فى النيل منذ مئات الأعوام حاملا أربعة من الركاب فى كل مرة ذهابا وإيابا وكأنه سفينة جارية ، فماذا يكون أصله يا ترى . ولم حددت حمولته بأربعة أشخاص؟ وأمر بإخراجه من النيل إلى البر . ولما فحصه فحصا جيدا وجد أن بأسفله خطا إيريا مقدار سطر واحد وصورة سمكة . وليس هناك شىء ظاهر غير هذا . ولقد بادر كافور الإخشيدى إلى جمع علماء مصر لديه وكلفهم بقراءة الخط المرموز فأبدوا عجزهم عن ذلك فاضطر كافور إلى إعادة السفينة الحجرية إلى شاطئ النيل لاستعمالها

كسابق عهدها ؛ فلم يكادوا يسيرون بها حتى غرقت المركب بهم فى النيل . وتبين أن الطلسم قد فسد بمجرد وقوع نظر الإنسان عليه أو بخروجه من البحر إلى البر .

ولا تزال تلك السفينة الحجرية تحت سلم زاوية السلطان الجاولى مملوءة ماء زلالا براقا يستسقى منها الرائح والغادى من الإنسان والحيوان ليل نهار دون أن ينقص من مائها شىء فهى مفعمة دائما ولا يفهم من أين يأتى إليها هذا الماء . إذ أنها على طريق بولاق ، فهى عرضة لمرور الرائحين والغادين مشهدا رائعا . وقد نقش على جدرانها الأربعة ديوان سليمان عليه السلام من الإنس والجن والطيور والوحوش من الكائنات الحية مصطفة صفا صفا بأشكالها وصورها . بقلم بديع أخاذ كأنه قلم بهرزاد شاه قلى الرسام الإيرانى المشهور .

إنه لمشهد عظيم وديوان عجب . فمن شاهده هانت فى نظره هذه الدنيا التى لم تبق لسليمان الذى كان يحكم الإنس والجن ، والطير والوحش ، فلا يفكر فيما سوى الله .

من خواص الحجر

فى الجبل الأخضر بمصر نوع من الحجر أبلق اللون ، يقال أنه إذا وضع فى فرن من أفران الخبز تخمر العجين وفاض ، ولكنى لم أر ذلك بنفسى . إلا أنى حينما ذهبت إلى حوش عيسى بأمر إبراهيم باشا لتحرير حجاج المغاربة حكى لى عربان البهجة (بهيجة) وجُنادى قائلين بأن بعض هذا الحجر لا يزال موجودا لدى عز الدين أحد رجالنا .

طلسمات المقياس

بجوانب حوض المقياس (أم القياس) الأربعة خط غريب ، من أثره الفعال النافذ فيضان النيل كلما حل توت القبطى من كل عام ونزول النقطة .

وطلسمات أخرى للمقياس

أنشأ الشيخ بطرنى بداخل حوض المقياس تمثال تمساح وحفر على صدره «الوفق الأعظم» ومنذ ذلك اليوم لا ينزل التمساح إلى أسفل المقياس . وإن جاوزه بقوة دفع الفيضان انقلب على ظهره وهلك . فلذا يشتد خوف التماسيح حين بلوغها هذه النقطة فتعمد إلى قطع الحجارة وتبلعها كى تثقل أجسامها وترسب فى قاع النيل ، ويظل التمساح فى قاع الماء ثلاثة أشهر عالقا بالطين حتى يهبط الفيضان ويصفو الماء فتعود من حيث أتت وتنجو من مفعول الطلسم .

ومن مستخرجات النجوم

بباب القصير بمصر دير عظيم وهو الآن مدرسة ، كان قدماء الكهنة صنعوا به صورة من النحاس على وجهها نقاب مطلى بالذهب وعليه نقوش باللغة اليونانية تدل على أن نبى آخر الزمان يكون على هذه الصورة ، وأن أمته ستفتح مصر وتنفذ فيها العدل والإنصاف . ويأتى أولئك الفاتحون بعد محمد بثمانية عشر عاما فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب وعامله عمرو بن العاص ورسموهم على الرخام رجالا ذوى أثواب صفر راكبين ألف جمل بيض . وقد نُقشت على الرخام الذى عليه الصورة آية من الإنجيل باللغة اليونانية وهى : هذا الرجل من سلالة آدر (آن ريوم آذر) نبى (يرفنتون) اسمه (ترنومين) محمد (ميوانيس) صاحب العالمين (بيستوبيس) . بيد أن النصارى أزالوا صورة سيدنا عمر حين حاصر عمرو بن العاص مصر .

طلسمات القلعة الداخلية

سبق أن وصفنا ما بالأعمدة الثمانية والأربعين لديوان قلاون من الأوقاف والحق أن بمصر مئات الألوف من العجائب فقد شاهدنا منها المئات وكل واحدة منها تحير العقول .

الفصل السادس والخمسون
فى بيان المأكولات والمشروبات والنباتات وأشجار الفاكهة
التى توجد بمصر ولا توجد ببلاد الروم (تركيا)

بالديار المصرية سبعة عشر صنفا من التمر الذى لا نظير له فى بغداد والبصرة والإحساء وكله لذيذ . فالتمر الأبيض ثلاثة أنواع ومنظم الشكل كالتمر المعروف بالحستاوى ببغداد ، ويذوب ويتفتت بقدرة الصانع كأنه سكر وهو غض ، ويكاد ينهضم فى فم المرء من نعومته . وهناك نوع آخر أقصر منه طولاً ونواه صغيرة وهو أيضًا غض ناعم كأنه سكر النبات الحموى . ونوع آخر أبيض عادى وله نكهة كالمسك ، إلا أن هذه الأنواع الثلاثة من التمر لا تصلح للتجفيف والنقل من مملكة إلى مملكة أخرى ، فلذا تباع دائما طرية رطبة وهى ليست بكثيرة أيضا حتى تصدر إلى بلاد أخرى . ويأتى بعد ذلك التمر الأصفر وهو أيضا أنواع وكلها لذيذة ، ومن كمالها ونظافتها لا تجفف بل تباع غضة طرية .

وأما التمر (البلح) الأحمر فأنواعه خمسة : يُدعَى أحدها «البلدى» وهو بلح القاهرة الذى يتربى على ماء النيل ، وحجمه كبير ولطيف وطعمه لذيذ . وثمة أنواع من التمر تسمى : البلح السلوانى (لعله منواتى) والمدنى والحموى والشامى والبستانى ، وكله لذيذ رطبٌ ومقوٍ . ثم إن هناك نوعا آخر من البلح كحلى اللون يستوى على نخله ، وناعم ولذيذ كالسكر .

والبلح الأسود ثلاثة أنواع : أحدها مستطيل ، والآخر مقبب ، والثالث صغير الحجم ، وكلها لذيذة إذا تم نضجها .

وبالواحات سبعة أنواع من التمر : منها صنف جاف جدا وصلب كالحصى يصدر منه فى جلود الجمال إلى القاهرة وسائر البلاد . وهو يشقشق كالحصى والزلط ولا يتسرب إليه الفساد ولو بقى فى مكان عشرة أعوام ، ولا تأكله الفئران أيضا . ويؤكل فى سائر البلاد مبلولا بالماء . وهناك تمر برى (عاصى) فى أسوان والشلال . جميع النخيل يرتفع إلى السماء مستقيما فى حين أن النخل البرى متشعب ، ورقه منبسط ، وتمره مدور فى حجم

قبضة اليد ، تزن الثمرة ما بين سبعين ومائة درهم [الظاهر أنه يقصد الدوم] ونواه أجوف فلذا يتخذه الناس إناء يضعون فيه الفلفل وغيره . وثمر هذا النخيل غير لذيذ فلذا لا يأكله غير الفلاحين يضعونه فى زنابيل ويجولون به فى البلاد والقرى .

والتمر القدرى بلح صغير أحمر كالعقيق اليمنى ولذيذ الطعم ، يصدر فى زنابيل إلى استانبول وسلانيك وغيرهما من البلاد النائية . وصنف آخر من التمر يقال له البرلسى كبير الحجم أحمر اللون ، مدور الشكل ، لا يؤكل كثيرا وهو رطب ولكن يصنع منه نوع من المخلل فى الجرار يكون فى غاية اللذة وحموضته مفيدة للكبد . كما يستخرج منه خل جيد .

إن مخلل البصل يزعج الناس فى القاهرة برائحته الكريهة ولكنه مفيد للفلاحين ، ويقال إنه طارد للبلغم . وهناك مخلل الجبنة الحلوم (المش) ، توضع الجبنة فى ماء ملح وتحفظ ستة أشهر فى جرار (بلاليص) مقفلة ، حتى إذا فتحت فاحت منها روائح كريهة مزعجة يفر منها الأتراك ، فى حين يجتمع أولاد العرب حول الجرار مزحين مبتهجين وهم يفتون الخبز فى مش الجبنة المدودة كأنها الخشاف ويأكلونها هنيئا مريئا بعد نبذ الديدان التى ترعرعت حتى ظهرت لها أجنحة ، ويدعو بعضهم بعضًا لتناول هذا الطعام .

والليمون البنزهير (قاطع السم)[1] نوع من الليمون صغير الحجم مدور الشكل أصفر اللون ولكنه كثير الماء ، تباع كل مائة ثمرة منه فى موسمه بپارة واحدة . وإذ أن الپارة الواحدة تكسب المرء إكسير الحياة ، أطلق عليه اسم قاطع السموم (بنزهير) . وبمصر شىء كثير من ليمون الحماس . وفى كل عام يحضر مندوب من مصنع الحلواء السلطانى فيشرف على استخراج عصيره وتعبئته فى قنانى تُعَد بالمئات والألوف مشروبات ممسكة ، خصيصا للسلطان . وبها الأترج إلا أنه مالح . ويوجد بها الليمون الحلو بكثرة . وبها التين والرمان وسبعة أنواع من العنب والخوخ والمشمش . وأما البرقوق والزيتون فقليل . والكمثرى والسفرجل يأتيان بكثرة من الفيوم . ثم إن التفاح والكمثرى والسفرجل تأتى من طور سيناء إلى السويس على السفن ثم تنقل منها إلى القاهرة على جمال . وأما الموز فكثير كالجميز . وهذا الأخير شجر المتنزهات الظريف يثمر ثمرا كالتين إلا أنه

---

(١) باد زهْر كلمة فارسية الأصل معناها : ترياق ، مضاد للسم . وقد تعربت على «بنزهير» وتطلق على الليمون المصرى ؛ لأنه يشفى من بعض أمراض المعدة . (د . متولى) .

ليست فيه بذور ؛ فأبيضه وأصفره وأحمره جميعا لذيذ ، ينبت مجتمعا كومة كومة ، وتباع مائة ثمرة بپارة واحدة . ولكن الحصول عليه وجنيه شاق جدا فإنه إن لم يصعد الإنسان إلى شجره قبل نضج الثمار لتختينه بقطع سرته بسكين عوجاء خاصة به فإنه لا يكون حلوا لذيذا ، فهو ثمر طيب ذو رائحة زكية سهل الهضم مغذ . ولما كانت هذه الفاكهة معرضة لغارة الطيور عليها يغطون الشجرة بشباك كشباك صيادى السمك . ولهذه الشجرة ، ظل وارف ظليل يمنع حرارة الشمس ولا يمنع الهواء ، فالذى ينام فى ظلها يقوم مستريحا كأنه لم ينم .

وثمرة النبق تشبه ثمرة الزعرور التى تسمى ببلاد الروم (تركيا) «آلج» وهى تكاد تكون مثلها طعما ولذة إلا أن ثمرة النبق تحتوى على بذرة واحدة وفى تلك ست بذرات . ثم إن النبق يثمر شتاء وثمرته فى حجم البندق أو أصغر منه ، يختلف لونها بين أحمر فاتح وأصفر وأحمر قاتم وشجره عظيم وطويل العمر . ففى ضريح منصور الأنصارى بمصر العتيقة شجرة نبق عمرها ألف عام تثمر دائما ثمرة غضة بذرتها كبذر الكرز ، فلهذا يقول المصرى «النبق كرزنا» غير أن هذا الثمر قابض .

ولخيار شنبر شجر كشجر الجوز وأوراقه قريبة الشبه من أوراقه ، وله نور أصفر ويبلغ طول ثمره ذراعا وذراعين كأنه ثعبان يكون أولا أخضر اللون وإذا نضج اسود . وبداخله عروق ملتوية من العسل الأسود ، يستخدمه الحكماء فى تركيب المعاجين الطبية وهو مسهل شديد ويصنع مربى لطيف نافع كالسكر الكلابى المسهل ، فهو دواء مقبول ومرغوب فيه . ويتخذ من زهره الأصفر كذلك مربيات وخماير مقبولة لدى جميع الناس . وأشجار هذا الثمر ملك الحكومة ، فلذا لا يستطيع صاحبها أن يقطع منها ثمرة واحدة لأنها أمانة حكومية مستقلة لدى هؤلاء الملتزمين تدفع لهم الحكومة ثمانية ملايين وخمسمائة ألف (آقچه) فى كل عام نظير هذا الثمر الذى يصدر إلى استانبول لاستعمال الملوك الخاص . وهو يُشتَرَى دائما من الميرى . يعد الثمر واحدة واحدة وهو لا يزال أخضر على الشجر ويقيَّد فى الدفاتر . وويل لصاحب الشجر إذا نقصت ثمرة واحدة .

وشجر السرو كثير بمصر . وأما الفستق الشامى فلا يوجد إلا فى حديقة نقيب الأشراف وفيها شجرة واحدة من الصنوبر ولا يوجد هذا النوع فى غيرها . وتوجد شجرة واحدة للجوز فى غيط ناظر أغا بأسفل قلعة الكبش ولا يوجد بالقاهرة سواها ، ولكنه كثير بالفيوم .

وشجر الأزدرخت (شجر المسبحة) وهو شجر شبيه بشجر الجوز إلا أن ورقه صغير وأغصانه مثقلة بعناقيد السُّبَح ، فإذا نضجت هذه الحبات ثقبوها واتخذوا منها مسابح متعجبين قائلين «سبحان الله» كيف خلق لعباده حبات مدورة لطيفة على الشجر ، ثم يحمدون الله على نعمته هذه ثلاثا وثلاثين مرة ، ثم يشاهدون صنع الله فيقولون ثلاثا وثلاثين مرة الله أكبر .

وشجر السنط شجر ضخم وغليظ وورقه كورق الطرفاء وليس له ثمر ، يُتخذ خشبه لبناء السفن والوقود ، وهذا إذا احترق صار جمرا أحمر ولا يتحول إلى رماد فهو شجر جد قوى وورقه نافع للإسهال إذا دق فى الهون ومزج بالعسل وأخذ منه خمسة دراهم كل يوم على الريق . وإذ أن خشبه قوى فإن السفينة المصنوعة منه تعيش فى الماء مائة عام . وقد وجدت منه أخشاب فى أساس بعض أبنية قديمة مضى عليها ألف عام وألف وخمسمائة عام وصارت كخشب الأبنوس فى الصلابة . وليس على ظهر الأرض شجر أقوى وأشد منه ومن شجر البقس . ويقول بعض الناس أنه هو شجر العالم الجديد (أمريكا) قد غير الجو المصرى لونه .

وهناك شجر البنوس (ساج أغاجى) وهو لا يكبر كثيرا ولا يثمر ، وأوراقه كأوراق الطرفاء خضراء صيفا وشتاء ، ويوجد منه كثير على شاطئ النيل ، وهو مقبول عند المصريين .

وشجر الحناء يشبه شجر البرقوق فى بلاد الروم (الترك) وله زهر ذو أريج زكى قوى لطيف مؤثر فى الإنسان يجمعه البستانيون ويقدمونه هدايا للأعيان . وليس له ثمر غير ذلك النوار البديع المنعش المفرح . وليس هذا هو شجر الحناء المعروف الذى تستعمله النساء فى خضب أكفافهن وأقدامهن ، فهو ينشأ من شجيرات تنمو بكثرة فى بلدتى بلبيس وقرين ، تروى بمياه السواقى حتى إذا كان موسمه اجتمع النساء والصبيان وقطعوا أوراقه ثم طحنوها فى الطواحين . تلك هى طريقة إنتاج الحناء اللعلى البديع .

وشجر الصفصاف كثير بمصر وورقه نافع لليرقان . يسحق هذا الشجر فى الهون ويعصر ماؤه فيوضع فى كأس ليلة فى العراء ثم يشرب منه صباحا على الريق ، ويزول الداء بإذن الله ، وهو يقتل ما بجوف الإنسان من الديدان أيضا . وشجر الحور ينمو فى بعض حدائق ذات مياه كثيرة . وشجر القار (قرا صاقز) موجود بكثرة فى كل مكان .

وفى مصر من التوت الأبيض والبنفسجى والأسود الحادق . وأما توت ذى الفقار بك أمير الحج المغروس حول قصره على شاطئ بركة الفيل فلا نظير له فى الربع المسكون . يحضن كل شجرة منه أربعة رجال وقد غطت أغصانه حرم القصر كله وغطته بظلها . وتحت تلك الأغصان المتفرعة الممتدة ستة وأربعون عمودا ضخما للبناء فهو ديوان عظيم ذو ظل وارف يتناول ألفا رجل الطعام فى مساطبه كل يوم . وهذه الأشجار الضخمة تثمر ثمرا أبيض كبير الحجم طريا كثير الماء والحلاوة .

وشجر الآس كثير بمصر ولكنه لا يثمر مثل آس حلب . ولشجر الأثل ورق كورق السرو إلا أن شكله لا يكون قاروريا كشكل السرو . وليس له أيضا ثمر . وخشبه نافع للصناعات وحطبه للوقود . وشجر التمر الهندى كثير بالحدائق وله ثمر وورقه تافه جدا . وشجر السكسبان نبات صغير قصير العمر ينبت حول حقول قصب السكر . وله زهرة ذات أريج يمنع الفئران والعرس من دخول الحقل وقرض القصب . ويستعمل فحمه فى الحقول .

وهناك كثير من الأشجار أضربنا صفحا عن ذكرها كيلا يطول الكلام ويمنعنا عن ذكر أمور مفيدة أخرى واكتفينا بهذا القدر .

الفصل السابع والخمسون
فى بيان النباتات التى تنبتها أرض مصر الطيبة
من نوع المأكولات

الموز ثمر ظريف لشجر سنوى ينمو مقدار قامة رجلين ، وتخانته مقدار فخذ رجل ولكنه ليس بشجر حقيقى ، داخله ملئ بالماء إذا عصرته تدفق منه الماء ، وورقه أخضر وكبير الحجم طويل كأعلام السفن . وتتدلى سباطة الموز من ذروة الشجر متخللة أوراقه . وكل سباطة تشبه منضدة شموع تجمعت حولها أصابع الموز فى شكل دائرى على صفين ، كأنها الباذنجان الأصفر يتراوح عددها ما بين مائة ومائتين . وإذا نضج واستوى صار أصفر اللون كأنه الكهرمان وقطف وأكل . إنه يشبه الباذنجان شكلا إلا أنه لا يحتوى على بذر فى جوفه كالباذنجان ؛ فهو يكاد يكون معجونا نباتيا لطيفا ومقويا . يُزال قشره بسهولة بادئا من طرفه ، ويمكن أكله محلى بالسكر أيضا . وهو مغذ فإذا أكل منه أربعة أصابع أو خمسة فإنه يعادل فى قوته الغذائية قدرا من اللحم ، وهو مع ذلك سهل الهضم مفيد للجسم ومقو ، ويزيد فى قوة البصر ويعدل المزاج . ويقال أنه خلق خصيصا لأويس رضى الله عنه . وذلك أنه لما بلغه أن رسول الله قد خرج فى غزوة أحد وسقطت ثناياه المباركة ، شرع أويس إلى خلع أسنانه وأضراسه واحدة بعد الأخرى . وكان كلما خلع سنة قال هذه هى التى سقطت يا ترى من فم رسول الله أم تلك؟ حتى خلع جميع أسنانه وأضراسه الاثنين والثلاثين حبا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلقا به . وكان يلقى رضاب فمه على الأرض ، فخلق الله من رضاب حبيبه المخلص هذا الثمر فانتشر فى بلاد اليمن ثم انتقل منها إلى سائر البلاد والديار . وعلماء الدين مجمعون على هذا القول . ثم إن شجر الموز ينبت من الأرض كالقصب ، فإذا أثمرت شجرة قطعوها فتنبت أخرى بجانبها . هذا خلق الله ولا تبديل لخلقه . ويكثر الموز فى بيروت ، فلذا اهتمت به الحكومة وعنيت بضبطه وعينت موظفا خاصا موكلا بما يؤخذ عنه من المال . ويوجد منه كثير بالقاهرة ودمياط .

والخيار كثير بمصر إلا أن تقاويه تأتى من ديار الشام فى كل عام ، وإذا زرعت تقاوى الخيار النابت بمصر انقلب عجورا (!) . والعجور كالخيار إلا أنه مخطط ومعوج . والقثاء نوع آخر من الخيار طبيعته باردة وقد ذكر فى القرآن .

والبطيخ الأصفر أى الشمام ينبت بمصر سبعة أعوام ، ويحصلون على ثلاثة أنواع من الشمام فى كل عام . أولها الدميرى وهو نوع من «القاون» المدور المضلع ، أخضر اللون لذيذ الطعم . ونوع آخر منه يسمى الشلاية ، ينبت فى أرض الخانكة وهو فى غاية من الحلاوة .

والبطيخ موجود بكثرة فى جميع المدن المصرية وبلدانها إلا أنه رخو طرى . بيد أن بطيخ البرلس كبير ، رقيق القشر أحمر الجوف لعلى . وهناك نوع من البطيخ أزرق اللون أجوف ملئ بالماء ، وهو صنف لا يلتفت إليه فى بلاد الترك ، ولكنه يباع بمصر فى بعض الجهات وتقدر الواحدة منه بذهب أحيانا . وذلك لأنه يناسب الجو المصرى فيفيد من يتناوله ؛ فماؤه كأنه ماء الورد . أو هو علبة من العقيق . وإذا شرب من مائه فنجانا أو فنجانين مريض أشرف على الهلاك من الحرارة برد جسمه ولم يبق به أثر من الحرارة ، وتلك حكمة عجيبة . ولقد أسهب داود الحكيم فى مفرداته عن منافع هذا البطيخ بما لا مزيد عليه . ولا يوجد هذا الصنف فى بلاد أخرى ، فهو نوع خاص مستقل .

وهناك نوع من الشمام يُدعَى «عبداللاوى» طعمه مثل طعم الشمام وشكله مستطيل مدبب الطرفين سميك الوسط ، يتراوح طوله بين شبر وشبرين ، وبذوره كبذور الشمام ، ولونه كلون الثعبان الأبلق ، بيد أن طعمه أقرب إلى الحموضة والملوحة منه إلى الحلاوة ، وطعمه بارد ومدر للبول ونافع لأمراض المثانة . وإذ هو على شكل ثعبان فإن المرء يفر منه ، فقد ورد فى كتب الطب أنه خلق بمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم . وقصة ذلك :

«أن كفار قريش انزعجوا من ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة الإسلامية فعمدوا إلى إيذائه بكل الطرق ، ولكنهم فشلوا فى كل ما دبروا وفكروا . وعندئذ لجأوا إلى المكر والخديعة؟ ومنها أنهم استوردوا من بلاد العجم عددا من العقارب الكاشية فى علب مقفلة وهى عقارب ذات سموم قتالة تخرق أذنابها الرخام . [ولا تزال العقارب الكاشية مشهورة إلى اليوم فى أنحاء العالم] قدم الكفار تلك العلبة إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم مع هدايا أخرى آملين أن ما بها من العقارب ستقضى عليه حين فتحها . سألهم الرسول عنها فقالوا إنها شمامة من صنف جديد مجهول الاسم ، فقال الرسول الكريم فليكن اسم هذا المخلوق «عبداللاوى» وكان الرسول يحب الشمام . ثم

قال بسم الله الرحمن الرحيم ورفع غطاء العلبة فى حضور جماعة كبيرة من القرشيين فإذا بالعقارب قد استحالت شماما من نوع عبداللاوى الذى يزرع بمصر اليوم . أكل النبى منه ووزع على الحاضرين بالمجلس ، فتولت الكفار دهشة وحيرة ، فأسلم منهم سبعون رجلا برؤية هذه المعجزة . وقال المصرون منهم على ضلالهم : حقا إنك لساحر عظيم يا محمد . وانصرفوا على غيهم وضلالهم القديم؟» . ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ . . .﴾ هذا هو السر فى أن هذه الفاكهة تشبه الثعابين والعقارب ، وهى خاصة بمصر ولا توجد فى غيرها .

والعجور الأخضر مثل عبداللاوى إلا أنه أخضر اللون ، وحتى الأبلق منه أخضر واعوجاجه والتواؤه كالعبد اللاوى تماما ، وله بذر بداخله . وطبعه بارد وطعمه لا يشبه طعم شىء من الأطعمة .

فى بلاد الترك قرع يسمى القرع المصرى وهو قرع مدور تائه مذبذب بين العجور والقرع ، وهذا النوع فى غاية الكثرة بمصر . وهناك أنواع من القرع كقرع المحشى الذى شكله كشكل دورق صغير ، وقرع الماء وهو ما يصلح باتخاذه إناء للماء ، والقرع الإفرنجى والقرع الواحى ، وكلها تنبت بمصر بكثرة .

وينبت فى شواطئ النيل حب كالحمص ذو لون ضارب إلى الصفار يُدعَى حب العزيز ، وهو نقل لذيذ الطعم مقو .

وقصب السكر يُزرَع فى جميع البلاد المصرية وهو محصول عجيب .

والقلقاس نبات يشبه فجل بروسه ، أسود اللون يأكله الفقراء وطعمه يشبه طعم أبى فروة . والقرنبيط نبات كالكرنب ولكن له نور أصفر .

وللتين الشوكى شجر أخضر يبلغ طوله أحيانا قامة رجلين ، وهو مكون من أوراق سميكة شبيهة بالنعال لاصقة ببعضها ، ويكون الثمر على تلك الأوراق السميكة التى قد تحمل ورقة منها خمس عشرة ثمرة صفراء وحمراء مغطاة بالشوك . ولهذا الثمر بذر كثير بداخله وطعمه لا يشبه طعم سائر الفواكه ، وهو مغذ ومقو .

لوز النبى ثمر نوع من الشجر يسمى «أم غيلان» ، مفترش الأرض . وثمره كاللوز طعما ولذة . يقال أن الله خلقه لنبيه الكريم محمد عليه السلام حين كان يقوم بالأسفار

للتجارة بين الشام والحجاز ضاربا فى تلك الطرق الطويلة الجرداء ، فهو ينبت فى مصر بكثرة كما ينبت فى الحجاز والشام ، وهو لذيذ ومغذ ومقو .

الملوخية ويسميها بعض الظرفاء «الملوكية» لحبهم إياها لأنها كانت طعام بعض الملوك ، وهى نبات أخضر كالنعناع يصنع منها «البورانى» كالسبانخ . وهى طعام سهل الهضم مقو يأكله السود بكثرة ، ونافع للطواشية منهم .

والبامية نبات أخضر مسدس الأضلاع وجلده مكسو بأشواك دقيقة كجلد الضب ، إلا أن الأشواك تزول بالطهى . وإذا صنع منها طعام باللحم والمواد الدهنية وعصر عليه الليمون كان ألذ طعام . وبجوف البامية حب أحمر كحب العدس وأصغر منه . وقد يصنع منها بعض الناس «بورانيا» بطهيها بالثوم واللبن الخاثر ، يكون حينئذ طعاما عجبا .

والثوم ينبت بمصر ولكنه ردئ ومضر بالصحة فلذا ليس مقبولا عند الناس الذين يضطرون إلى استعمال الثوم التركى (الرومى) . وليس فى مصر أرخص من بصلها وملحها وأكثر منهما .

والكتان كثير أيضا ، وأحسن أصنافه ما ينتج فى النحارية والفيوم . فإن كتانهما قوى ونظيف جدا . وثوب من قماش الكتان يباع بخمس عشرة «پارة» إلا أن قميصا مصنوعا منه لا يحتمل أكثر من شهرين يبلى بعد ذلك .

والنيل نبات بين الأخضر والأزرق وإذا بلغ الكمال طبخ فى آنية كبيرة ثم دق فيها بالمدقات دقا شديدا حتى يتحلل ويتفكك ، ثم نقل المحلول إلى آنية أخرى وغلى فيها حتى تنزل الرواسب إلى القاع فيؤخذ الصافى أقراصا كالسبائك وتباع للصباغين بواقع الأقة الواحدة بأربعة قروش .

وأما البرسيم فنبات عجيب ينبت وينمو بسرعة ويعلو شبرا ، وهو مرعى خصب وعلف لجميع ما بمصر من الحيوان ، حيث لا توجد بها مراعى وأعشاب تنبت من تلقاء نفسها .

والقصب الريحانى غاب طويل رقيق ذو عقد ، تتخذ منه شيش للتدخين[1] .

---

(١) يقصد المؤلف بالقصب الريحانى ، نبات الغاب الذى يجود فى مصر . (د . متولى) .

وتصنع بمصر حصر ذات نقوش وألوان كثيرة تتموج كالحرباء ، وخاصة ما يصنع منها من نبات ينبت فى بحيرة الفيوم فإن القطعة منها تباع بأربعين أوخمسين قرشا . وهى صناعة اختص بها المصريون وقد برعوا فيها ، فلذا ينتجون حصرًا آية فى الجمال .

والترمس حب كالفول إلا أنه مبطط قليلا ومستدير ، أصفر اللون ، ينقع فى الماء والملح ويؤكل ، ومن الناس من يغليه . وهو يطحن أيضا فى الطواحين ويستعمل دقيق فى تنظيف الأيدى مما علق بها من المواد الدهنية والزيتية قبل غسلها بالماء لأن له خاصة إزالة المواد الدهنية والروائح الكريهة فلذا يتخذه أعيان القاهرة بدل الصابون بعد تناول الطعام ، وخاصة أن له نكهة طيبة أيضا . ويستعمله بعض المترفين فى الحمام يدعكون به أجسامهم لإزالة ما عليها من العرق ، فيجعلها ناعمة لينة كالفالوذج ، صافية كالبللور . ومن حسن حظ هذا الدقيق أن يكون مستعملا للغانيات والحسان والعرائس فى الحمام لتنعيم أجسامهن وتطريتها ، ولكنه لا يصلح لغسل الثياب وتنظيفها .

والغسول وهو نوع من الصابون ينبت فى شواطئ الترعة الناصرية التى تمتد حتى الإسكندرية . يجمعونه ويكومونه فى موضع ثم يبخرونه بالهباب ، فينقلب بأمر الله إلى ما يشبه الزجاج . وإذا نقل هذا الزجاج إلى القاهرة وأذيب بها مرة أخرى بالنطرون صار بلورا وإذا دقوه فى جرن دون أن يعرضوه للنار ثم خلطوه بعجين صار غسولا طبيا كالصابون صالحا لغسل الأثواب السميكة كالعباءات والأجواخ والأحزمة ، فإنه يرغى فى تلك الأشياء ويطهرها ويبيضها ، ولكن لا يصلح لغسل الأثواب الرقيقة كشيلان العمم والقمصان . إنه لسر عجيب ، نبات يحترق بالنار فيصير زجاجا ثم يمزج بالتراب ويصير صابونا وغسولا جيدا ، فلذا هو أمر جدير بالنظر والمشاهدة . «يفعل الله ما يشاء» .

والحلبة حب كحب العدس ينقع فى الماء بأكياس تصر وتدلى فيه حتى تنبت ملتفة متشابكة كشعر الزنج . ممتدة الجذور البيض ، يأكلها الصبية والصغار وقد يتخذونها شرابًا .

أما القمح والشعير والفول والحمص والعدس والقطن والأرز والسمسم فتجود فى مصر أكثر مما تجود فى جميع البلاد الأخرى . وأرزها ألذ من أرز (وان) و(جيلان) والهند وحبه أكبر ولا سيما أرز المنزلة وفرسكور فليس له نظير على ظهر الأرض ، وهو خال من الحصى وسائر المواد . والأرز السلطانى أحسن أنواع هذا الصنف وأكثرها بياضا .

النطرون وهو شيء كالملح ، يستعمل فى مصر لتعجيل طهى بعض أنواع الطعام كاللحوم وبعض أنواع البقول التى لا تنضج سريعا ، لقلة الحطب والوقود بها . فإذا وضع منه قليل فى الطعام فلا يسويه فى طرفة عين فحسب بل يهريه ، ولكنه لا يستعمل فى مراسم الدولة بالرغم من تعجيله تسوية الطعام ، فإن كل من يقدم على استعماله يعرض نفسه لخطر الفتق وتورم الخصيتين والمشى متبخترا ومتثاقلا كأصحاب الدولة (دولتلولد) ولهذ يصاب كثير من المصريين بالفتق ، ويطلق عليهم الظرفاء لقب أصحاب الدولة . وإذ قلت لمصرى وأنت تحادثه ، يا صاحب الدولة ألمته ونفرته منك لأن معنى ذلك أنك تقول له برقة وظرف «يامفتوق! يا أبا قليطة!» ويستخرج النطرون فى مصر من بحيرة عظيمة أمام ثلاثة أديار قبطية فوق الصخور الوعرة بالجبل الغربى من غربى كاشفية الطرافة بمديرية البحيرة ، وينقل منها على جمال الحكومة تحتكر استخراجه الآن . ولم يبق على ظهر الأرض من أموال قارون سوى هذا النطرون والدجاج . وأما أمواله الأخرى فقد ساخت فى الأرض معه فى إقليم بحيرة قارون هذه .

والنطرون شيء عجيب ، فإنه إذا وقع فيه حصان أو بغل أو أى كائن من المخلوقات تحول إلى نطرون . وهذا معدن خاص بمصر وهى التى تصدره إلى سائر البلاد . وفى بلاد الترك (الروم) يستعمل فى معامل الزجاج ، وهو يذيب الزجاج فيجعله سائلا .

ومن خيرات مصر وبركاتها أن الغنم تنتج ثلاث مرات فى العام والخضر لا ينقطع صيفا وشتاء .

فى بيان المشروبات

تأتى السوبيا على رأس المشروبات ، وهى بوظة الأرز . ثم الموزة وهى البوظة التى تستخرج من القمح إلا أنها شديدة الإسكار ملعونة . ويوجد مشروب يتخذ من الزبيب الأسود ممزوجا بالبهارات والسكر يدعى بربريس . وعرق البلح وماء العسل ليس كمثليهما فى بلاد الترك ، فإن هذا مسكر شديد الإسكار يجعل المرء خائر القوى لا يستطيع الوقوف على قدميه .

وشراب البنج يتخذ من العسل الرومى والحشيش يخلطان معا ويتركان ليلة فى الماء ثم يصفيان بمصفاة فيبقى ماء أخضر شديد الإسكار ، من تجرع منه جرعة فلا يدرى أين يضع قدميه .

ماء الأسرار ، وهذا أيضا ينتج من خلط البنج بدبس (خليل الرحمن) وتركهما يومين فى ماء بإناء حتى يصفو الماء ويرسب ما تبقى من الكد والثفل . يطاف بهذا المشروب على الحشاشين بميدان الروميله بكؤوس خاصة فيشربه من يريده ، وعند ذلك يظهر على لسانه ما فى قلبه من الأسرار .

العرقسوس جذور نبات تأتى من بلاد الروم تسحق فتنقع فى الماء ليلة كاملة ثم تصفى بمخلاة جديدة ، وتحصل منها على ماء أحمر صاف رائق سائغ للشاربين ، وليست له مرارة ولا حرارة ولا كيفية سكر . وقد ذكر داود الحكيم سبعين خاصية للعرقسوس ومن خواصه الكبرى تنظيف المثانة وإدرار البول وطرد البلغم والفضلات والأخلاط بسهولة ويسر ولين . ويخفض حرارة الجسم . وإن لم يشرب المصريون هذا المشروب النافع فقد يتعرضون للإصابة بمرض الجذام من شدة الحر . ذلك رأى داود الأنطاكى فيه والحق أن المصريين يشربون منه بالغدو والآصال لعلمهم بمنافعه .

ونقيع التمر الهندى خاص بمصر كذلك وهو مشروب حمضى غير مسكر . ولكنه منعش منشط للكبد ومبرد ومشتت للصفراء والسوداء . وبمصر مشروبات كثيرة ولكنا كتبنا ما اطلعنا عليه ولم نتعرض لما لا نعلمه .

الفهرس

الموضوع | الصفحة